سلسلة كنوز الأزهريين

الدرر الجوهرية

في شرح الحكم العطائية

للعلامة الشيخ

زين الدين عبد الرؤوف المناوي

الشافعي الأزهري، المتوفى سنة ١٠٣١هـ

وبآخره: "النهج الأتم في تبويب الحكم"

للمتقي الهندي، المتوفى سنة ٩٧٥هـ

كشيدة
للنشر والتوزيع

سلسلة كنوز الأزهريين

الدُّرَرُ الجَوْهَرِيَّةُ

في شرح الحكم العطائية

للعلامة الشيخ

زين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي

الشافعي الأزهري، المتوفى سنة ١٠٣١هـ

وبآخره: **"النهج الأتم في تبويب الحكم"**

للمتقي الهندي، المتوفى سنة ٩٧٥هـ

كشيدة
للنشر والتوزيع

المناوي، محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي القاهري، (١٥٤٥-١٦٢٢).
الدرر الجوهرية في شرح الحكم العطائية/ زين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي - الشرقية: كشيدة للنشر والتوزيع، ٢٠١٩.
٤٤٨ ص؛ ٢٤ سم (سلسلة كنوز الأزهريين).
تدمك ٧ ٠٣٣ ٨٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١. التصوف الإسلامي
٢. الفلسفة الإسلامية
أ- العنوان ٢٦٠

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ / ٢٠١٩م
كشيدة للنشر والتوزيع

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠١٩/١٥٦٩٨

الترقيم الدولي ISBN
978-977-848-033-7

الناشر: كشيدة للنشر والتوزيع
العاشر من رمضان - مصر
info@kasheeda-publishing.com
www.kasheeda-publishing.com

كشيدة للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتب النادرة التي تُرفع لأول مرة

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، المتفضل على عباده بجلائل النعم ودقائقها، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، نعمة الله الكبرى ورحمته للخلائق أجمعين، وبعد..

فإن نص "الحكم العطائية" من النصوص المجمِلة لعلم التصوف، الكاشفة عن مفاهيمه وأسسه ومعالم السلوك فيه، وإذا أمكننا أن ننظر إلى التصوف باعتباره لغة روحية سلوكية خاصة، يخاطِب بها العبدُ ربَّه في مقام الإحسان، فإن "الحكم العطائية" تكون حينها كالمعجم الحاوي لمفردات هذه اللغة الروحية السلوكية، والكاشفِ عما تعبر عنه هذه المفردات من مفاهيم ومعان.

والمعجم، أي معجم، يكتسب أهميته من مدى استيعابه لمفردات اللغة، ومدى كشفه عن معاني هذه المفردات، فكلما كان المعجم أكثر استيعابًا وشمولًا لمفردات اللغة، وأدقَّ تنظيمًا وتصنيفًا لهذه المفردات، وأوفى توضيحًا وبيانًا لمعانيها، ازدادت أهميته بين جماعة المتعاملين بهذه اللغة، والراغبين في تعلمها وإتقانها، وازداد حرصهم بالتالي على اقتنائه والنهل مما يحويه من معارف.

ويصدق ذلك أيما صدق على نص "الحكم العطائية"، الذي حاز قبولا وانتشارا عظيما بين مختلف فئات المسلمين في شتى بقاع المعمورة، حتى لا تكاد تخلو مكتبة من مكتبات المخطوطات في شتى أنحاء العالم من عشرات أو مئات المخطوطات للحكم العطائية، كتبت في عصور مختلفة على أيدي نساخ من مختلف الأمصار، توجهت همتهم إلى إنتاج قدر كبير من نسخ "الحكم العطائية" استجابة للطلب المتزايد عليها من الراغبين في فهم وتعلم مفردات اللغة السلوكية التي يكشف عنه المعجم العطائي، الذي وضعه بتوفيق من الله تعالى أحد أئمة هذه اللغة وشيوخها، العارف الولي أحمد بن عطاء الله السكندري.

***

التعريف بابن عطاء الله السكندري: هو الإمام الملقب بتاج الدين، أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري. ولد رحمه الله في بدايات النصف الثاني من القرن السابع الهجري، ولا يُعرف على وجه التحديد السنة التي وُلد فيها.

ويمكن التمييز بين ثلاثة أطوار في حياة ابن عطاء الله الإسكندري:

فالطور الأول بمدينة الإسكندرية قبل عام ٦٧٤ هجرية، وقد نشأ فيه ابن عطاء الله طالبا لعلوم عصره الدينية من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو وغيرها على خيرة الشيوخ.

أما الطور الثاني فيبدأ من سنة ٦٧٤ هجرية، وهي السنة التي صحب فيها أبا العباس المرسي، وفيه تصوَّف على طريقة الشاذلي، ولم ينقطع في الوقت نفسه عن طلب العلوم الدينية، وتدريسها.

وأما الطور الثالث فيبدأ من ارتحاله من الإسكندرية إلى القاهرة، وينتهي بوفاته، وهو طور نضوجه واكتماله كصوفي وفقيه.

وفي الطور الأول من أطوار حياته بمدينة الإسكندرية كان ابن عطاء الله يُنكر على الصوفية إنكارا شديدا، تعصبا لعلوم الفقهاء.

أما في الطور الثاني فقد زال إنكارُه وتعصُّبه لأهل العلم الظاهر حين لقي أستاذه المرسي، فأعجب به إعجابا شديدا وأخذ عنه طريق الصوفية. ويقصُّ ابن عطاء الله في كتابه اللطيف القيم "لطائف المنن" قصةَ صلته بأبي العباس المرسي، فيقول:

"كنت لأمرِه (أي أمر الشيخ أبي العباس) من المُنكرين، وعليه من المُعترضين، لا لشيء سمعته منه، ولا لشيء صح نقله، ولكن جرت المخاصمة بيني وبين أصحابه، فقلتُ فيهم قولا عظيما. ثم قلتُ في نفسي: دعني أذهبُ أنظر هذا الرجلَ، فصاحبُ الحق له أماراتٌ لا يخفى شأنُه، فأتيتُ إلى مجلسه، فوجدته يتكلم في الأنفاس ومسألة درجات السالكين إلى الله، ومدى معرفتهم به وقربهم منه، فقال: الأول إسلام، وهو درجة الانقياد والطاعة والقيام بمراسيم الشريعة، وثانيها الإيمان، وهو مقام معرفة حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية، وثالثها الإحسان، وهو مقام شهود الحق تعالى في القلب، وإن شئتَ قلتَ: الأول عبادة، والثاني عبودية، والثالث عبودة، وإن شئتَ قلتَ: الأول شريعة، والثاني حقيقة، والثالث تحقُّق. فما زال يقول: "وإن شئت قلت، وإن شئت قلت"، إلى أن بهرَ عقلي وسلب لُبِّي، فعلمتُ أن الرجل إنما يغترفُ من فيضِ بحرٍ إلهي، ومددٍ رباني، فأذهبَ الله ما كان عندي.

ثم أتيتُ تلك الليلةَ إلى المنزل، فلم أجد شيئا يَقبل الاجتماع بالأهل على عادتي، ووجدتُ معنى غريبا لا أدري ما هو؟ فانفردت في مكانٍ أنظرُ إلى السماء وكواكبها وما خلق الله فيها من عجائب قدرته، فلمس قلبي أشياءُ لم أعرفها من قبل، فحملني ذلك على العودة إليه مرة أخرى، فأتيتُ إليه، فاستُؤذِن لي عليه، فلما دخلت إليه قام قائما وتلقَّاني ببشاشة وإقبال، حتى دُهشت خجلا،

واستصغرت نفسي أن أكون أهلا لذلك، فكان أول ما قلتُ له: يا سيدي، أنا والله أحبك، فقال: أحبك الله كما أحببتني".

وفي الطور الثالث والأخير من حياته، وهو الطور الذي شهد نضوجه من الناحيتين الفقهية والصوفية، لمعَ اسمُه عالما من أجلِّ علماء الشريعة، ودرَّس علوم الشريعة في الأزهر، وتخرج على يديه كثير من مشاهير العلماء، من أمثال الإمام تقي الدين السبكي، والإمام القرافي.

وكان إذا جلس للنصح والوعظ والتوجيه، أخذ حديثه بمجامع القلوب، وسرى من كلامه تأثيرٌ شديد إلى النفوس. قال الذهبي: "كان ابن عطاء الله السكندري يتكلم بالجامع الأزهر فوق كرسي، يُرَوِّح النفس، ويمزج كلامَ القوم بآثار السلف وفنون العلم، فكَثُر أتباعُه، وكانت عليه سيما الخير".

وللشيخ رضي الله عنه مؤلفات كثيرة، من أهمها:

١- كتاب الحكم، وهو أكثر كتبه انتشارا، وهو الكتاب الذي بين أيدينا، والذي نقدمه مع شرح العلامة المناوي ضمن سلسلة "كنوز الأزهريين".

٢- التنوير في إسقاط التدبير، وقد سبق أن أصدرته كشيدة ضمن سلسلة "تراث الأزهريين".

٣- تاج العروس في تهذيب النفوس، وقد سبق أن أصدرته كشيدة ضمن سلسلة "تراث الأزهريين".

٤- لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن.

وتوفي رحمه الله بالمدرسة المنصورية بمصر، ثالث عشر جمادى الآخرة سنة تسع وسبعمائة (٧٠٩هـ - ١٣٠٩م)، ودفن بسفح جبل المقطم بزاويته التي كان يتعبد فيها، ومقامه فيها يُزار.

***

تجلى الاهتمام بالمعجم العطائي أيضا في عناية أئمة وشيوخ التصوف بهذا المعجم، وحرصهم على إيصال مفرداته ومفاهيمه إلى جموع طلاب علم التصوف ومريديه في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فكتب العديد منهم شرحا عليه، بل وكتب بعضهم -كالشيخ زروق مثلا- أكثر من شرح على فترات مختلفة.

هذه الشروح المتعددة للحكم العطائية، كان لكل منها سماته ومميزاته الخاصة، ذلك أنها كتبت استجابة لحاجات المتعلمين التي تختلف باختلاف مستوى إحاطتهم باللغة الصوفية، ومدى إقبالهم على تعلمها، كما أنها من ناحية أخرى أيضا كتبت تعبيرا عن مدى تمثُّل هؤلاء الأئمة والجهابذة للحكم العطائية، وعما يرغبون في نقله وإيصاله من مفاهيم التصوف عبرها.

تنوعت لذلك شروح الحكم تنوعا كبيرا، فكان منها صغير الحجم وكبيره، وكان منها ما هو موجز في عبارته ومسهب فيها، ومنها ما هو مباشر في التعبير وما هو مجازي، ... إلى غير ذلك.

ويأتي شرح الشيخ عبد الرؤوف المناوي، الشافعي الأزهري، المتوفى سنة ١٠٣١هـ، كأحد إسهامات علماء الأزهر وشيوخ المدرسة الصوفية المصرية في شرح الحكم العطائية.

وقد اعتمدنا في إصدار هذا الشرح على مخطوطة وحيدة محفوظة في المكتبة الأزهرية برقم ٧٥٣/ ٢٨٦٣٨ تصوف، وهي مخطوطة كاملة مكونة من ١٧٢ لوحة، كتبت بخط واضح أنيق سنة ١٠٩٥هـ على يد كاتبها محمد بن محمد الزرقاني. وعلى الرغم من جودة نسخ هذه المخطوطة ودقتها، إلا أننا حرصنا على الرجوع في بعض المواضع إلى المصادر التي كان يقتبس منها أحيانا العلامة المناوي لاستدراك بعض التصحيفات، مشيرين إلى ذلك في الهوامش.

***

التعريف بالعلامة المناوي(١): هو الإمام الكبير، الحجة الثبت القدوة، صاحب التصانيف السائرة، وأجل أهل عصره من غير ارتياب، (محمد) عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين، الملقب زين الدين الحدادي ثم المناوي القاهري الشافعي.

كان إماما فاضلا، زاهدا عابدا، قانتا لله خاشعا له، كثير النفع، وكان متقربا بحسن العمل، مثابرا على التسبيح والأذكار، صابرا صادقا، وكان يقتصر يومه وليلته على أكلة واحدة من الطعام، وقد جمع من العلوم والمعارف على اختلاف أنواعها وتباين أقسامها ما لم يجتمع في أحد ممن عاصره.

نشأ في حجر والده وحفظ القرآن قبل بلوغه، ثم حفظ البهجة وغيرها من متون الشافعية، وألفية ابن مالك، وألفية سيرة العراقي وألفية الحديث له أيضا، وعرض ذلك على مشايخ عصره في حياة والده، ثم أقبل على الاشتغال فقرأ على والده علوم العربية، وتفقه بالشمس الرملي، وأخذ التفسير والحديث والأدب عن النور علي ابن غانم المقدسي، وحضر دروس الأستاذ محمد البكري في التفسير والتصوف، وأخذ الحديث عن النجم الغيطي، والشيخ قاسم، والشيخ حمدان الفقيه، والشيخ الطبلاوي، لكن كان أكثر اختصاصه بالشمس الرملي وبه برع.

وأخذ التصوف عن جمع، وتلقن الذكر من قطب زمانه الشيخ عبد الوهاب الشعراني، ثم أخذ طريق الخلوتية عن الشيخ محمد المناخلي، ثم عن الشيخ محرم الرومي حين قدم مصر بقصد الحج،

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، للمحبي ج٢/ص٤١٢.

وطريق البيرامية عن الشيخ حسين الرومي المنتشوي، وطريق الشاذلية عن الشيخ منصور الغيطي، وطريق النقشبندية عن السيد الحسيب النسيب مسعود الطاشكندي، وغيرهم من مشايخ عصره.

وتقلد النيابة الشافعية ببعض المجالس فسلك فيها الطريقة الحميدة، وكان لا يتناول منها شيئا، ثم رفع نفسه عنها وانقطع عن مخالطة الناس، وانعزل في منزله، وأقبل على التأليف فصنف في غالب العلوم، ثم ولي تدريس المدرسة الصالحية، فحسده أهل عصره وكانوا لا يعرفون مزية علمه لانزوائه عنهم، ولما حضر الدرس فيها ورد عليه من كل مذهب فضلاؤه منتقدين عليه، وشرع في إقراء مختصر المزني، ونصب الجدل في المذاهب وأتى في تقريره بما لم يسمع من غيره، فأذعنوا لفضله وصار أجلاء العلماء يبادرون لحضوره، وأخذ عنه منهم خلق كثير، منهم الشيخ سليمان البابلي، والسيد إبراهيم الطاشكندي، والشيخ علي الأجهوري، وغيرهم.

وكان مع ذلك لم يخل من طاعن وحاسد، حتى دُسَّ عليه السم، فتوالى عليه بسبب ذلك نقص في أطرافه وبدنه من كثرة التداوي، ولما عجز صار ولده تاج الدين محمد يستملي منه التآليف ويسطرها(١).

وتآليفه كثيرة، منها:

- فيض القدير شرح الجامع الصغير للسيوطي، ثم اختصره في أقل من ثلث حجمه وسماه التيسير.

- كتاب جمع فيه ثلاثين ألف حديث، وبين ما فيه من الزيادة على الجامع الكبير، وعقب كل حديث ببيان رتبته، وسماه الجامع الأزهر من حديث النبي الأنور.

- شرح زبد ابن رسلان التي نظم فيها أربعة علوم: أصول الدين، وأصول الفقه، والفقه، والتصوف، وسماه فتح الرؤوف الصمد بشرح صفوة الزبد.

- شرح التحرير لشيخ الإسلام زكريا سماه إحسان التقرير بشرح التحرير، ثم شرح نظمه للعمريطي بالتماس بعض الأولياء، وسماه فتح الرؤوف الخبير بشرح كتاب التيسير نظم التحرير، وصل فيه إلى كتاب الفرائض وكمله ابنه تاج الدين محمد.

---

(١) أدى ذلك إلى وقوع خلط لدى الباحثين في نسبة بعض مؤلفاته إلى ابنه، خاصة وأن الشيخ قد سمَّى نفسه "محمد المدعو بعبد الرؤوف" في العديد من مؤلفاته مثل "فيض القدير في شرح الجامع الصغير"، كما صرح بهذه التسمية في مقدمة كتابه "الكواكب الدرية" حيث قال: "... وسميته الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، وأنا أفقر عباد الله وأحوجهم إلى ألطافه الخفية، محمد المدعو عبد الرؤوف، سليل العصابة المناوية ...".

- شرح ألفية السيرة لجده الحافظ العراقي، وهو المسمى بالعجالة السنية.

- كتاب في الأحاديث القدسية "الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية"، وقد سبق أن أصدرته كشيدة ضمن سلسلة "تراث الأزهريين".

- وشرح قصيدة ابن سينا عن النفس، المسماة بالقصيدة العينية، وقد سبق أن أصدرته كشيدة ضمن سلسلة "تراث الأزهريين".

- شرح على حكم ابن عطاء الله، وهو هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم ضمن سلسلة "كنوز الأزهريين".

وله مؤلفات أخر غير هذه، وبالجملة فهو أعظم علماء هذا التاريخ آثارا، ومؤلفاته غالبها متداولة كثيرة النفع، وأشهرها شرحاه على الجامع الصغير، وشرح السيرة المنظومة للعراقي.

وكانت ولادته في سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة (٩٥٢هـ)، وتوفي صبيحة يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر سنة إحدى وثلاثين وألف (١٠٣١هـ)، وصلي عليه بجامع الأزهر يوم الجمعة، ودفن بجانب زاويته التي أنشأها بخط المقسم المبارك، فيما بين زاويتي سيدي الشيخ أحمد الزاهد، والشيخ مدين الأشموني. وقيل في تاريخ موته: "مات شافعي الزمان"[١] رحمه الله تعالى.

***

سمات شرح المناوي: يصنف شرح المناوي ضمن الشروح كبيرة الحجم للحكم العطائية، واتسم شرحه بالعديد من السمات التي تعكس ملامح شخصيته العلمية وتكوينه الصوفي، فمن أبرز هذه السمات الجلية في شرحه:

السمة الأولى: الربط الموضوعي بين الحكم وبعضها البعض، فنراه يختم كل حكمة تقريبا بعبارة تمهيدية للحكمة التالية، يختمها بقوله: "فلهذا قال" أو: "كما بيَّنه بقوله" أو: "فلذلك عقَّبه بقوله"، أو غير ذلك من العبارات المشابهة، ثم يذكر الحكمة التالية ويأخذ في شرحها. نراه أيضا في مواضع أخر قليلة يربط الحكمة بسابقتها من خلال قوله مثلا: "وهذه الحكمة نتيجة ما قبلها".

والمناوي في ذلك ينهج نهج الشيخ زروق في رؤية "الحكم العطائية" كلًّا مترابِطًا منسجِمًا مع بعضه البعض.

---

(١) بحساب الجُمَّل: مات (٤٠ + ١ +٤٠٠ = ٤٤١) + شافعي (٣٠٠ + ١ + ٨٠ + ٧٠ + ١٠ = ٤٦١) + الزمان (١ + ٣٠ + ٧ + ٤٠ + ١ + ٥٠ = ١٢٩) = ١٠٣١

يقول الشيخ زروق معبرا عن ذلك في مقدمة شرحه: "إذ كلُّه داخلٌ في كلِّه، وأوله مرتبط بالأخير من قوله، بل كل مسألة منه تكملة لما قبلها وتوطئة لما بعدها، وكل باب منه كالشرح للذي قبله، والذي قبله أيضا كأنه شرح له، فكل حكمة أو كلمة إنما هي كالتكملة أو المقدمة، فأوسطه طرفاه، وآخره مبتداه، وأوله منتهاه، يعرف ذلك من اعتنى بتحصيله".

السمة الثانية: كثرة الاقتباس عن أئمة التصوف وشراح الحكم، توضيحا للمفاهيم المتضمنة في الحكمة، أو تدليلا عليها، أو ضربا لمثال أو غير ذلك، مما يثري الشرح ويجعله وكأنه متضمن لغيره من الشروح وكتب التصوف.

ويقترب المناوي في اقتباساته من الأصل قدر الإمكان، فنراه يقتبس من مؤلفات ابن عطاء الله الأخرى كالتنوير ولطائف المنن، ومن شروح الحكم المختلفة، المشتهر منها كشرح زروق وابن عباد النفزي، وغير المشتهر كشرح ابن زغدان التونسي، وجلال الدين الكركي.

ونطالع في ثنايا شرحه عبارات كبار أئمة التصوف، كأبي مدين الغوث، وأبي يزيد، والجنيد، والجيلاني، والقشيري، والدقاق، وابن عربي، والشاذلي، وشيخه الشعراني. ويأتي المناوي في بعض الأحيان بهذه الاقتباسات دون تسمية أصحابها مكتفيا بقوله: "وقال بعضهم"، أو: "قال بعض أهل التحقيق"، أو: "قال بعض الأئمة" أو غير ذلك.

السمة الثالثة: تحلية الشرح بعبارات وعظية يدرجها المناوي في ثنايا شرحه لكل حكمة تقريبا، صائغا لها في سَجَعات قصيرة لطيفة المعنى والمبنى، تقترب في وجازتها وكثافة معانيها من الحكم. من ذلك قوله مثلا:

- وعلامةُ المُخْلص أنْ لا يتغَيَّرَ بالامْتحان، بعْدَ وُرود نِعَم الامْتنان؛ فإذا رأَيْتَ مَن اسْتَوَى عِنْدَهُ العَدوُّ والحَبيب، فذاكَ الخالِصُ المُخْلِصُ القَريب، ومَنْ أفْرَدَ الحَقَّ بالطَّاعة، كانَ المُخْلصَ عِنْدَ الجَماعة؛ وإخْلاصُ المُخْلص يظْهَرُ بحاله، دون ترْجمة قاله، ومَنْ رأَيْتَهُ يحْرِصُ على ظُهورِ قبائحِه الخسيسة، ويكْتُمُ أحْوالَهُ السَّنِيَّةَ النَّفيسة، فاسْتَدِلَّ بذَلكَ على مقام اخْتصاصه، وعُلوِّ درَجَته في إخْلاصه، وإذا رأيْتَ مَنْ إذا أُثْنِيَ علَيْه رَكَنَ إلى ذلك، فاعلَمْ أنَّهُ كذَّابٌ هالِك. (شرح الحكمة ١٠)

- فأدركْ عُمرَكَ قبلَ الفوْت، وهيِّئ أمركَ قبلَ الموت، واغتَنِمْ بياضَ اليوم قبلَ العشيّة؛ فاللَّيلةُ حُبلَى جنينُها في مشيمة المشيّة، ولا تغتَرّ بكثرةِ موافقَاتك فلعلَّ هذا السِّمَنَ ورمٌ، ولا تغتَرَّ بنَضْرة شَبابكَ فبعدَهُ شيبٌ وهِرم، وشمِّرْ قبلَ أنْ يُنسخَ نِسرُكَ عُصفورا، وتنبَّهْ قبلَ أنْ يعودَ مِسكُكَ كافورا. (شرح الحكمة ٤٨)

- إذا انقَطعْتَ عَنِ الأسبابِ، وأنزلْتَ حوائِجَكَ بربِّ الأربابِ، فأنْتَ في المقامِ الجليلِ، مقامَ أبينا الخليلِ، حيْثُ قالَ وهوَ بالمحلِّ العالي: "حسبي مِنْ سؤالي عِلمُهُ بحالي". (شرح الحكمة ١٠٠)

- فإذا أشرقَتْ أنوارُ اليَقينِ، ولاحَتْ لوائحُ الحقِّ المُبينِ، تراءَتْ لكَ حقائقُ الأُمورِ، فترَى كَشْفةَ الفَناءِ على دارِ الغُرورِ، كما ترَى كِسْوةَ البَقاءِ على دارِ السُّرورِ، تراها أقربَ مِنَ القَريبِ، حاضِرةً عِندَكَ لا تَغيب. (شرح الحكمة ١٣٧)

- خلقَكَ في أحسنِ تقويمٍ، وجعلَكَ على صورتِهِ فأنْتَ مُريدٌ عليمٌ، جعلَكَ بيْنَ الغيْبِ والشَّهادة، وأهَّلَكَ لأعلَى رُتَبِ السَّعادة، فأنْتَ سِرُّ المُلْكِ والملَكوت، وأنتَ الجامعُ لجميعِ الأوصافِ والنُّعوت، أنْتَ روحُ العُلويّاتِ والسُّفليّات، وأنْتَ معنَى الكُلّيّاتِ والجُزئيّات، كُلُّ ذلكَ لتعْلَمَ مِقدارَك، وتُفني في حُبِّهِ رُسومَكَ وآثارَك. (شرح الحكمة ٢٤٥)

***

وختاما نقول: إنه لمن دواعي سرورنا في كشيدة للنشر والتوزيع أن نوفق لنشر هذا الشرح النفيس للحكم العطائية، وهو ثاني إصداراتنا من شروح الحكم، حيث سبق أن أصدرنا "شرح الحكم العطائية" للشيخ عبدالله بن حجازي الشرقاوي، وذلك ضمن سلسلة "تراث الأزهريين"، داعين المولى عز وجل أن يوفقنا لنشر المزيد من مؤلفات علماء وأئمة الأزهر الشريف وغيرهم من شيوخ الهدى وأئمة الدين، وأن يتقبلها منا، ويقبلنا بها في سِلكِ خُدّام دينه وحبيبه ﷺ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الناشر

إيهاب أحمد محمد علي

الكتب النادرة التي تطبع لأول مرة

الدرر الجوهرية
في شرح الحكم العطائية

للعلامة زين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي
الشافعي الأزهري، المتوفى ١٠٣١هـ


كتاب
الدرر الجوهرية في شرح الحكم العطائية
تأليف العمدة الفهامة والقدوة العلامة
التقي الصالح مولانا الشيخ عبد الرؤوف
المناوي رحمه الله تعالى برحمته
الواسعة آمين

لوحة الغلاف من مخطوطة المكتبة الأزهرية، المحفوظة برقم ٧٥٣ / ٢٨٦٣٨ تصوف

[خطبة الشارح]

بِسْمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم

الحمْدُ للهِ الذي أطْلَعَ مِنْ سماءِ الذّاتِ القُدسيّة، شمْسَ أسرارِ الحِكَمِ العَطائيّةِ الأحْمَديّة، والصَّلاةُ والسَّلامُ، ما دامَتِ اللَّيالي والأيّامُ، على قُطْبِ الشَّريعةِ الأوْحديّة، ومَركزِ مدارِ الأخلاقِ الأجْوَديّة، مُنوِّرِ بصائرَ العُلماءِ بلوامعِ حِكَمِهِ النّافعةِ العليّة، ومُحيي سرائرَ الفُضَلاءِ بجَوامعِ كِلِمِهِ الاخْتِصاريّة، وآلِهِ وصحْبِهِ خزَنةِ عِلْمِ اللهِ وحِكمَتِهِ، صلاةً تُغرَسُ في جنّةِ عدْنِ المعارِفِ بيَدِ آثارِ رحْمَتِهِ.

وبعْدُ،

فهَذِهِ **دُرَرٌ جوْهَريّةٌ في شرْحِ الحِكَمِ العَطائيّة**، أُلهِمْتُ تدْوينُها لنَفْسي، ولمَنْ هوَ مِثْلي في القُصورِ مِنْ أبناءِ جِنْسي، لا اعْتِقادًا أنّها جاريةٌ مجرَى شُروحِ القوْمِ، فشتّانَ بيْنَ مَنْ صفا قلبُهُ وأشْرَقَ لُبُّه، وبيْنَ مَنْ غلَبَتْهُ ظُلْمةُ الطَّبْعِ ودَوامُ الكسَلِ والنَّوْم، فالواحِدُ مِنْ أولَئِكَ يقولُ وأنا أتقوَّل، وهوَ أكحلُ وأنا أتكَحَّل، وأيْنَ دويُّ الزُّنبور مِنْ نغْمةِ الزَّبور؟! وأيْنَ مَنْ هوَ جالِسٌ مُتمَكِّنٌ في حضْرةِ الاقْتِراب، مِمَّنْ هوَ مُتطفِّلٌ واقِفٌ على الباب؟!

واللهَ اسْأَلُ السَّلامةَ في هذا المَضيق، والفوْزَ بالشُّرْبِ مِنْ كأسِ الرَّحيق.

***

[الكلام على البسملة]

اعلَمْ أنَّهُ لمّا كانَ أحَقُّ كلامٍ يُرسَمُ في الصَّحائفِ، وأوْلَى مقالٍ تُكرِّرُهُ الألسنةُ العَوارِفُ، ذِكْرَ وَليِّ الوُجودِ، مُفيضِ الطَّولِ والجودِ، افتتَحَ المؤلِّفُ -كغَيْرِهِ- كِتابَهُ بما هوَ مِنْ أبلَغِ الثَّناءِ العَظيمِ، فقالَ: (**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**)، وكَيْفَ لا يكونُ كذَلِكَ وهيَ مِفْتاحُ أشْرَفِ الكُتُبِ السَّماويَّةِ، بلْ جميعِ الكُتُبِ الإلهيَّةِ، لقَوْلِ المُصطَفَى ﷺ: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيمِ فاتِحَةُ كُلِّ كِتابٍ)[1].

وهيَ مُشتَمِلةٌ على عُلومِ الأوَّلينَ والآخِرينَ لجمْعِها معاني الفاتِحَةِ، الجامِعَةِ لمعاني القُرآنِ، الجامِعِ لمعاني الكُتُبِ الأربَعةِ، الجامِعةِ لمعاني جميعِ الكُتُبِ المُنزَلةِ، وجميعُ ما في البسْمَلةِ أُدمِجَ في الباءِ، وجميعُ ما فيها في النُّقْطةِ[2].

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٥٤٩) من حديث الإمام علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلفظ: (بسم الله الرحمن الرحيم مفتاح كل كتاب).

(٢) يقول العلامة الشرواني في حاشيته على "تحفة المحتاج في شرح المنهاج": قال النسفي في تفسيره: قيل: الكتب المنزلة من السماء إلى الدنيا مائة وأربعة؛ صحف شيث ستون، وصحف إبراهيم ثلاثون، وصحف موسى قبل التوراة عشرة، والتوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، ومعاني كل الكتب -أي غير القرآن- مجموعة في القرآن، ومعاني كل القرآن مجموعة في الفاتحة، ومعاني الفاتحة مجموعة في البسملة، ومعاني البسملة مجموعة في بائها، ومعناها -أي الإشاري-: بي كان ما كان، وبي يكون ما يكون، زاد بعضهم: ومعاني الباء في نقطتها. اهـ. قال شيخنا: والمراد بها أول نقطة تنزل من القلم التي يستمد منها الخط، لا النقطة التي تحت الباء خلافا لمن توهمه، ومعناها الإشاري: أن ذاته تعالى نقطة الوجود المستمد منها كل موجود. اهـ. [ج١/ص١٠]

وفي حاشيته على شرح الخطيب يقول البجيرمي: وسورة الفاتحة قد جمعت معاني القرآن كله فكأنها نسخة مختصرة، وكأن القرآن بعدها تفصيل لها، وذلك لأنها جمعت الإلهيات في (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم)، والدار الآخرة في (مالك يوم الدين)، والعبادات كلها من الاعتقاد والأحكام التي تقتضيها الأوامر والنواهي في (إياك نعبد)، والشريعة كلها في (الصراط المستقيم)، والأنبياء وغيرهم في قوله (أنعمت عليهم)، وذكر طوائف الكفار في (غير المغضوب عليهم ولا الضالين). [ج١/ص٢٧]

وذلكَ لأنَّ مدارَ الكُتُبِ على توحيدِ الباري، وأنَّهُ ربُّ العالَمِ وخالِقُهُ، وراحِمُهُ ومالِكُهُ، وخالِقُ الهِدايةِ في قلْبِ العبْدِ، والمُعينُ لهُ، وأنَّ مصيرَ الخَلْقِ إلى دارِ سعادةٍ أو شقاوةٍ.. وهذهِ المعاني مُصرَّحٌ بِها في القُرآنِ، مُشارٌ إليها في الفاتحةِ، مرموزٌ إليها في البسْمَلةِ، مُلوَّحٌ بِها في الباءِ، فلمْ يبْقَ إلّا انْدِماجُ معنَى الباءِ في النُّقطةِ؛ وسِرُّهُ أنَّهُ إشارةٌ إلى الواجبِ وُجودُهُ الذي لا ينْقَسِمُ ولا يتَجزَّأُ؛ خالِقِ كُلِّ شيءٍ، مُفيضِ الجودِ على الوُجودِ، الذي نشأَ كُلُّ شيءٍ عَنْ نُقْطةِ فرْدَانيَّتِهِ الذي لا يُشبَّهُ ولا يُكيَّفُ.

ومِنَ الباءِ ظهرَ الوُجودُ، وبِنُقْطَتِها تميَّزَ العابدُ مِنَ المعبودِ. قالَ ابْنُ عبّاسٍ: "أخَذَ عَليٌّ -كرَّمَ اللهُ وجْهَهُ- بيَدي ليلةً، فتكَلَّمَ في الباءِ مِنْ أوَّلِ اللَّيْلِ إلى الفَجْرِ"، فهوَ حرْفٌ شريفٌ، قالوا: وإذا كانَ في اسمٍ يكونُ صاحِبُهُ ملْطوفًا بهِ.

ولشَرَفِه وتَمكُّنِهِ في مرتَبَتِهِ افْتُتِحَ بهِ الكِتابُ المجيدُ، وبُدِأَتْ بهِ كُلُّ سورةٍ مِنْ سوَرِهِ، ولمّا لمْ تكُنِ البَسْمَلةُ في أوَّلِ براءةٍ، بُدِأَتْ بالباءِ دون غيْرِها مِنَ الحُروفِ.

قالَ الشَّيخُ أبو مدين[1]: "ما رأيْتُ شيئًا إلّا ورأيْتُ الباءَ عليْهِ مكتوبةً"، يعني أنَّهُ قامَ بِها كُلُّ شيءٍ، فإنَّها أصلُ الظُّهورِ، ولهذا ينشأُ العددُ مِنْها، والواحِدُ لا يُسمَّى عددًا، والنُّقْطةُ رأْسُ الخَطِّ وبُدوُّ كُلِّ شيءٍ، فأُعْطيَتْ للباءِ لتكون الباءُ مبدَأَهُ أوَّلًا، وجُعِلَتْ مِنْ أسفَلَ؛ لأنَّ صُدورَ الكَوْنِ مِنَ الباءِ إنَّما يظهَرُ في السُّفْلِ مِنْ مقامِ الباءِ، فتكونُ النُّقطةُ بيْنَ الباءِ وبيْنَ الكَوْنِ، والنُّقْطةُ عيْنُ التَّوحيدِ، هكذا قرَّرَهُ أئِمّةٌ عارِفونَ، وجهابِذةٌ راسِخونَ.

---

(١) شيخ أهل المغرب، شعيب بن حسين الأندلسي الزاهد، أبو مدين، أخذ عن أبي الحسن بن حرزهم، وأبي الحسن بن غالب، وغيرهما، رحل للمشرق فأخذ عن العلماء واستفاد من الزهاد والأولياء، وتعرف في عرفة بالقطب الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني، فقرأ عليه بالحرم الشريف كثيراً من الحديث، وألبسه الخرقة وأودعه كثيراً من أسراره، ثم رجع إلى بجاية واشتهر بها أمره، وقصد بالزيارة من جميع الأقطار، وكانت ترد إليه الفتاوى في مذهب مالك فيجيب عنها في الوقت، مناقبه شهيرة وكراماته كثيرة، تخرّج به جماعة من العلماء والمحدثين وأرباب الأحوال، ومن أشهر تلاميذه الشيخ محيي الدين ابن عربي. ترجمته واسعة أفردت بالتأليف، وأفرده من المعاصرين الشيخ عبدالحليم محمود في "شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث"، ومحمد الطاهر علاوي في "العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب". تُوفّي سنة ٥٩٤ بتلمسان. انظر: "سير أعلام النبلاء" للذهبي (١٥/ ٣٨٠)، و"شجرة النور الزكية" لمخلوف (١/ ٢٣٦).

و"اللهُ" اسمٌ لذاتِ المعبودِ بالحقِّ، الغَنيِّ عَنِ العِلّةِ، والفاعِلِ الموصوفِ بصفاتِ الأُلوهيّةِ، وهوَ الاسْمُ الجامِعُ لحضَراتِ الأَسْماءِ كُلِّها، فكُلُّ اسمٍ فيهِ ينْدَرِجُ، ومِنْهُ يَخْرُجُ، وإليْهِ يعرُجُ.

وهوَ عرَبيٌّ، ونُطْقُ غيْرِ العَرَبِ بهِ مِنْ توافُقِ اللُّغاتِ، مُرْتَجَلٌ جامِدٌ عِنْدَ الأكثَرِ، وقيلَ: مُشتَقٌّ مِنْ "أَلَهَ يأْلَهُ إلاهةً" أيْ: عَبَدَ يعْبُدُ عِبادةً، فكأنَّهُمْ قالوا "إلاه" أي: عِبادةٌ، أي: ذو العِبادةِ، يعْني: الذي يُعْبَدُ، وقيلَ: مِنَ "الألوهةِ" أي: التَّحيُّرِ؛ لتحَيُّرِ العُقولِ فيهِ.

ومَنْ قالَ بعَدَمِ اشْتِقاقِهِ لَمْ يلْحَظْ فيهِ الصِّفةَ، بلْ جعَلَهُ لمُجرَّدِ الذّاتِ المُقدَّسةِ التي لا يُدْرَكُ كُنْهُها، وإنَّما تقَعُ التَّسْميةُ فيها على ما يتعلَّقُ بهِ الإيمانُ لا العِيانُ؛ فإنَّ العِيانَ إنْ كانَ بعيْنِ العقْلِ، فما يقَعُ عليْهِ عِيانُ العقْلِ محصورٌ، والذّاتُ المُتعاليةُ مُنزَّهةٌ عَنِ الحصْرِ، وإنْ كانَ بعيْنِ الشُّهودِ والكشْفِ الذّاتيِّ، فلا اسمَ للذّاتِ مِنْ هذهِ الحضْرةِ، فإنَّ شُهودَها يمحو الأسْماءَ والمُسمَّياتِ، ويطْمِسُ أعلامَ الصِّفاتِ والأفْعالِ والذَّواتِ، وأيًّا ما كانَ، لا يتعيَّنُ للذّاتِ المُقدَّسةِ اسمٌ إلّا مِنْ حضْرةِ الإيمانِ فقطْ، ومَنْ حاولَ أنْ يعْلوَ إلى غيْرِ ذلكَ سقَطَ في المهالكِ.

وقَدْ عَصَمَ اللهُ هذا الاسْمَ العَليَّ أنْ يَتسمَّى به أحَدٌ قَطُّ غيْرُ ذاتِه، ولا تعنُّتًا في الكُفرِ(١)؛ ولهذا قالَ تعالَى في معْرِضِ الحُجّةِ على مَنْ نَسَبَ الأُلوهيّةَ إلى غيْرِ هذا المُسمَّى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣]، فبُهِتَ الذي قيلَ لهُ ذلكَ، فإنَّهُ لو سمّاهُ، سمّاهُ بغيْرِ الاسْمِ "الله"، فلمّا حَمَتْهُ عِزَّتُهُ عَنِ المُشارَكةِ عُلِمَ أنَّ الذّاتَ المُقدَّسةَ أوْلَى بعَدَمِ الشّرِكةِ، ألا ترَى أنَّهُ ما كانَ يمتَنِعُ عقلًا أنْ يُسَمَّى بهِ بعْضُ الموجوداتِ فيَقَعُ الاشْتِراكُ، لكِنْ حَمَتْهُ العِزَّةُ الإلَهِيّةُ.

ثُمَّ إنَّ الأسْماءَ مُتداخِلةٌ، يدخُلُ معنَى بعْضِها في معنَى بعْضٍ، حتَّى يكون كُلُّ اسْمٍ فيهِ بالقوّةِ كُلُّ اسمٍ، لكِنَّ بعْضَها أحقُّ بأنْ يكون مُجمِّعًا للأسْماءِ مِنْ بعضٍ، لأنَّ الأسْماءَ الأُصولَ أوْلَى بدُخولِ الأَسْماءِ تحتَها مِنَ الفُروعِ.

وللأُصولِ أسْماءٌ هيَ أُصولُ الأُصولِ، حتَّى ينْتَهي لها أصليْنِ، أحَدُهما: الاسْمُ "الله"، وهوَ

(١) أي: ولا من قبيلِ التعنُّتِ في الكفر.

أوّلها ومبدؤها، والثّاني: "الرَّحْمَنُ"، وهوَ في ثاني رُتبةٍ مِنْهُ، لكِنْ كُلٌّ مِنْهُما مُشتمِلٌ على كُلِّ الأسْماءِ، وإنْ لَمْ يكُنْ لها كُلٌّ، إذْ هيَ غيْرُ مُتَناهيةٍ، فلذلكَ قالَ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ الآيةُ [الإسراء: ١١٠]، إلّا أنَّ الاسْمَ "الله" أشْمَلُ وأقْعَدُ بالتَّقدُّمِ(١).

وأمّا ما فيهِ مِنَ الجمْعيّةِ؛ فإنَّ مدْلولاتِ الأسْماءِ الزّائدةِ على مفهومِ الذّاتِ مُختَلِفةٌ، وما بأيدينا اسمٌ مُخلَصٌ عَلَمٌ للذّاتِ سِواهُ، وهوَ يدُلُّ على الذّاتِ المُقدَّسةِ بحُكْمِ المُطابَقةِ، كدَلالةِ أسْماءِ الأعْلامِ على مُسمَّياتِها؛ وثَمَّ أسْماءٌ تدُلُّ على تنْزيهٍ، وأسْماءٌ تدُلُّ على إثباتِ أعْيانِ صِفاتٍ ثُبوتيّةٍ وسلْبيّةٍ.

وجميعُ الأسْماءِ راجعةٌ إلَيْهِ، فهوَ الحضْرةُ الجامعةُ، وهذهِ الحضْرةُ وإنْ كانَتْ جامعةً لجميعِ الحقائقِ، فأخَصُّ ما يختَصُّ بها مِنَ الأحْوالِ الحيرةُ والعِبادةُ والتنْزيهُ؛ أمّا التَّنْزيهُ فهوَ رِفْعَتُهُ عَنِ التَّشْبُّهِ بخَلْقِهِ، فهوَ يُؤدّي إلى الحيرةِ فيهِ وكذا العِبادةِ، فأعْطانا قوّةَ الفِكْرِ للنَّظَرِ بها فيما يعرِّفُنا بأنْفُسِنا وبهِ، فاقْتَضَى حُكْمُ هذهِ القوّةِ أنَّ لا مُماثَلةَ بيْنَنا وبيْنَهُ سُبحانَهُ بوَجْهٍ مِنَ الوجُوهِ، إلّا إسْنادُنا إلَيْهِ في إيجادِ أعْيانِنا، وغايةُ ما أعْطَى التَّنزيهُ إثباتُ النِّسْبةِ له -بكَسْرِ النّونِ- بنا لما نطْلُبُهُ مِنْ لوازِمِ وجُودِ أعْيانِنا، وهيَ المُسمّاةُ بالصِّفاتِ.

قالَ بعضُهم: ومِنْ خواصِّ هذا الاسْمِ أنَّهُ كُلَّما أزَلْتَ مِنْهُ حرْفًا بقيَ الباقي اسْمًا ما، فإنْ أزَلْتَ الألِفَ بقيَ "لله"، فإنْ أزَلْتَ اللّامَ بقيَ "لهُ"، فإنْ أزَلْتَ الثّانيةَ بقيَ "هُو"، و"هُو" إشارةٌ إلَيْهِ ودلالةٌ علَيْهِ.

وقالَ بعضُهم: الألِفُ تدُلُّ على عيْنِ الذّاتِ، وهيَ إشارةٌ إلى الفرْدانيَّةِ المحْضةِ، واللّامُ الأولَى على الصِّفاتِ الذّاتيّةِ، إذِ الصِّفاتُ لا تُفارِقُ الذّاتَ؛ فالألِفُ تألَّفَتْ معَ اللّامِ، واللّامُ التَأمَتْ معَ الألِفِ، فهُما مُتلازِمَتانِ، واللّامُ الثّانيةُ التَأمَتْ معَ الأولَى، فهيَ دلالةٌ على صِفاتِ الأفْعالِ، إذِ الأفْعالُ كُلُّها ملْكٌ لله، ولمّا كانَتْ صِفاتُ الأفْعالِ صادرةً عَنْ صِفاتِ الذّاتِ، لَمْ تُفارِقِ اللّامُ الثّانيةُ الأولَى، بلْ اتَّحدَتْ معَها وأُدْغِمَتْ فيها، واشْتركا في الاسْمِ، كما اشْتركَتْ

(١) أي أحق بالتقدم، يقال في النسب: فلان أقْعدُ من فُلانٍ أي أقْربُ منه إلى جدِّه الأكبر. [تاج العروس]

و"اللهُ" اسمٌ لذاتِ المعبودِ بالحقِّ، الغَنيِّ عَنِ العِلّةِ، والفاعلِ الموصوفِ بصفاتِ الأُلوهيّةِ، وهوَ الاسْمُ الجامعُ لحضَراتِ الأسْماءِ كُلِّها، فكُلُّ اسم فيهِ ينْدَرِجُ، ومنْهُ يَخْرُجُ، وإليْهِ يعرُجُ.

وهوَ عربِيٌّ، ونُطْقُ غيْرِ العَرَبِ بهِ مِنْ توافُقِ اللُّغاتِ، مُرْتَجَلٌ جامدٌ عنْدَ الأكثرِ، وقيلَ: مُشتَقٌّ مِنْ "ألَهَ يألَهُ إلاهةً" أيْ: عَبَدَ يعْبُدُ عِبادةً، فكأنَّهُمْ قالوا "إلاه" أي: عِبادةٌ، أي: ذو العِبادةِ، يعْني: الذي يُعْبَدُ، وقيلَ: مِنَ "الألوهِ" أي: التَّحيُّرِ؛ لتحَيُّرِ العُقولِ فيهِ.

ومَنْ قالَ بعَدَمِ اشْتِقاقِهِ لَمْ يلْحَظْ فيهِ الصِّفةَ، بلْ جعلَهُ لمُجرَّدِ الذّاتِ المُقدَّسةِ التي لا يُدْرَكُ كُنْهُها، وإنَّما تَقَعُ التَّسْميةُ فيها على ما يتعَلَّقُ بهِ الإيمانُ لا العيانُ؛ فإنَّ العيانَ إنْ كانَ بعيْنِ العقْلِ، فما يقَعُ عليْهِ عيانُ العقْلِ محصورٌ، والذّاتُ المُتعاليةُ مُنزَّهةٌ عَنِ الحصْرِ، وإنْ كانَ بعيْنِ الشُّهودِ والكشْفِ الذّاتيِّ، فلا اسمَ للذّاتِ مِنْ هذهِ الحضْرةِ، فإنَّ شُهودَها يمحو الأسْماءَ والمُسمَّياتِ، ويطْمِسُ أعلامَ الصِّفاتِ والأفْعالِ والذَّواتِ، وأيًّا ما كانَ، لا يَتعيَّنُ للذّاتِ المُقدَّسةِ اسمٌ إلّا مِنْ حضْرةِ الإيمانِ فقَطْ، ومَنْ حاولَ أنْ يعْلوَ إلى غيْرِ ذلكَ سقَطَ في المهالكِ.

وقَدْ عَصَمَ اللهُ هذا الاسْمَ العَليَّ أنْ يَتسمَّى بهِ أحَدٌ قَطُّ غيْرُ ذاتِه، ولا تعَنُّتًا في الكُفْرِ[1]؛ ولهذا قالَ تعالَى في معْرِضِ الحُجّةِ على مَنْ نَسَبَ الأُلوهيّةَ إلى غيْرِ هذا المُسمَّى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣]، فبُهِتَ الذي قيلَ لهُ ذلكَ، فإنَّهُ لو سمّاهُ، سمّاهُ بغيْرِ الاسْمِ "اللهِ"، فلمّا حمَتْهُ عِزَّتُهُ عَنِ المُشارَكةِ عُلِمَ أنَّ الذّاتَ المُقدَّسةَ أوْلَى بعَدَمِ الشَّرِكةِ، ألا ترَى أنَّهُ ما كانَ يمتَنِعُ عقلًا أنْ يُسَمَّى بهِ بعْضُ الموجوداتِ فيَقَعُ الاشْتراكُ، لكِنْ حَمَتْهُ العِزّةُ الإلهيّةُ.

ثُمَّ إنَّ الأسْماءَ مُتداخِلةٌ، يدخُلُ معنَى بعْضِها في معنَى بعْضٍ، حتَّى يكون كُلُّ اسْم فيهِ بالقوّةِ كُلُّ اسم، لكِنَّ بعْضَها أحقُّ بأنْ يكون مُجمِّعًا للأسْماءِ مِنْ بعضٍ، لأنَّ الأسْماءَ الأُصولَ أوْلَى بدُخولِ الأسْماءِ تحْتَها مِنَ الفُروعِ.

وللأُصولِ أسْماءٌ هيَ أُصولُ الأُصولِ، حتَّى ينْتَهي لها أصليْنِ، أحَدُهُما: الاسْمُ "اللهُ"، وهوَ

---

(١) أي: ولا من قبيلِ التعنُّتِ في الكفر.

أوّلها ومبدؤها، والثّاني: "الرَّحْمَنُ"، وهوَ في ثاني رُتبةٍ منْهُ، لكنْ كُلٌّ منهُما مُشتَمِلٌ على كُلِّ الأسْماءِ، وإنْ لَمْ يكُنْ لها كُلٌّ، إذْ هيَ غيرُ مُتناهية، فلذلكَ قالَ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ الآيةَ [الإسراء: ١١٠]، إلّا أنَّ الاسْمَ "الله" أشْمَلُ وأقْعَدُ بالتَّقدُّمِ[١].

وأمّا ما فيهِ منَ الجمْعيّةِ؛ فإنَّ مدْلولاتِ الأسْماءِ الزّائدةِ على مفهومِ الذّاتِ مُختَلِفةٌ، وما بأيدينا اسمٌ مُخلَصٌ عَلَمٌ للذّاتِ سِواهُ، وهوَ يدُلُّ على الذّاتِ المُقدَّسةِ بحُكْمِ المُطابَقةِ، كدَلالةِ أسْماءِ الأعْلامِ على مُسمَّياتِها؛ وثَمَّ أسْماءٌ تدُلُّ على تنْزيهٍ، وأسْماءٌ تدُلُّ على إثباتِ أعْيانِ صِفاتٍ ثُبوتيّةٍ وسلْبيّةٍ.

وجميعُ الأسْماءِ راجعةٌ إلَيْهِ، فهوَ الحضْرةُ الجامعةُ، وهذهِ الحضْرةُ وإنْ كانَتْ جامعةً لجميعِ الحقائقِ، فأخَصُّ ما يَختَصُّ بِها منَ الأحْوالِ الحيرةُ والعِبادةُ والتنْزيهُ؛ أمّا التَّنْزيهُ فهوَ رِفْعَتُهُ عَنِ التَّشْبُّهِ بخَلْقِهِ، فهوَ يُؤدّي إلى الحيرةِ فيهِ وكذا العِبادةِ، فأعْطانا قوّةَ الفِكْرِ للنَّظَرِ بِها فيما يعرِّفُنا بأنْفُسنا وبِهِ، فاقْتَضَى حُكْمُ هذهِ القوّةِ أنَّ لا مُماثَلةَ بيْنَنا وبيْنَهُ سُبحانَهُ بوَجْهٍ مِنَ الوجُوهِ، إلّا إسْنادُنا إلَيْهِ في إيجادِ أعْيانِنا، وغايةُ ما أعْطَى التَّنزيهُ إثباتُ النِّسْبةِ له -بكَسْرِ النّونِ- بنا لما نطْلُبُهُ مِنْ لوازمِ وجُودِ أعْيانِنا، وهيَ المُسمّاةُ بالصِّفاتِ.

قالَ بعضُهم: ومِنْ خواصِّ هذا الاسْمِ أنّهُ كُلَّما أزلْتَ منْهُ حرْفًا بقيَ الباقي اسْمًا ما، فإنْ أزَلْتَ الألِفَ بقيَ "للهِ"، فإنْ أزَلْتَ اللّامَ بقيَ "لَهُ"، فإنْ أزَلْتَ الثّانيةَ بقيَ "هُو"، و"هُو" إشارةٌ إلَيْهِ ودلالةٌ علَيْهِ.

وقالَ بعضُهم: الألِفُ تدُلُّ على عيْنِ الذّاتِ، وهيَ إشارةٌ إلى الفرْدانيَّةِ المحْضةِ، واللّامُ الأولَى على الصِّفاتِ الذّاتيّةِ، إذِ الصِّفاتُ لا تُفارقُ الذّاتَ؛ فالألِفُ تألَّفَتْ معَ اللّامِ، واللّامُ التَأَمَتْ معَ الألِفِ، فهُما مُتلازمَتانِ، واللّامُ الثّانيةُ التَأَمَتْ معَ الأولَى، فهيَ دلالةٌ على صِفاتِ الأفْعالِ، إذِ الأفْعالُ كُلُّها مِلْكٌ للهِ، ولمّا كانَتْ صِفاتُ الأفْعالِ صادِرةً عَنْ صِفاتِ الذّاتِ، لَمْ تُفارِقِ اللّامُ الثّانيةُ الأولَى، بلْ اتّحدَتْ معَها وأُدْغِمَتْ فيها، واشْتَركا في الاسْمِ، كما اشْتَركَتْ

(١) أي أحق بالتقدم، يقال في النسب: فلان أقْعدُ من فُلانٍ أي أقْربُ منه إلى جدِّه الأكبر. [تاج العروس]

صِفاتُ الذّاتِ وصِفاتُ الأفْعالِ فيهِ؛ وأمّا الألِفُ التي بعْدَ اللّامِ الخارِجةُ بصوْتِ هواءٍ -أي مِنَ الصَّدْرِ- فهيَ دلالةٌ على انْدفاعِ التَّكوينِ مِنْ صِفاتِ الفِعْلِ، وامْتِدادِ الوجُودِ بالحركةِ البارزةِ مِنَ القُدْرةِ، ليأْخُذَ كُلُّ موجودٍ حظَّهُ مِنَ الوجُودِ، فإذا انْتَهى إلى آخرِ مرتبَةٍ، رجَعَ الوجُودُ كُلُّهُ إلى مُبدِعِهِ كما ينْتَهي النُّطْقُ بالألِفِ إلى الهاءِ، فينْقَطِعُ الصَّوْتُ، فالهاءُ دلالةٌ عليْهِ تعالَى، وبِها يُشارُ إلَيْهِ، فمِنْهُ بدأَ الوُجودُ وإليْهِ يرجِعُ، وهوَ الأوَّلُ والآخِرُ والظّاهِرُ والباطِنُ.

واعْلَمْ أنَّ كُلَّ الأسماءِ يصِحُّ لمعانيها التَّخلُّقُ إلّا هذا الاسْمَ الشَّريفَ، فإنَّهُ للتَّعلُّقِ فقَطْ، وعُرِفَ مِنْ كوْنِ كُلِّ الأسْماءِ راجعةً إلَيْهِ أنَّ المعْرِفةَ بهِ معْرِفةٌ بِها، وهوَ دالٌّ بصيغَتِهِ على عظَمةِ المُسمَّى بهِ ذاتًا واسْمًا ووصْفًا، فالمعْرِفةُ بهِ تُفيدُ الفَناءَ فيهِ للعارِفينَ، والتَّعْظيمَ والإجْلالَ والهيْبَةَ والأُنْسَ للمُريدين، والتَّقرُّبُ بهِ على وُفْقِ ذلِكَ مِنْ إسقاطِ الأهْواءِ ومحبّةِ المَوْلَى، وذلِكَ لا يصِحُّ إلّا بقَلْبٍ مُفرَدٍ فيهِ توْحيدٌ مُجرَّدٌ، وذلِكَ يستَدْعي جمْعَ جميعِ الأحْوالِ والمقاماتِ والكَراماتِ.

فلِذَلِكَ لمّا سُئِلَ الجنيدُ(١): كيْفَ السَّبيلُ إلى الانْقِطاعِ إلى اللهِ؟ قالَ: بتَوْبةٍ تُزيلُ الإصْرارَ، وخوْفٍ يُزيلُ التَّسْويفَ، ورجاءٍ يبْعَثُ على مسالِكِ العَمَلِ، وإهانةِ النَّفْسِ بتَقْريبِها مِنَ الأجَلِ وتبْعيدِها مِنَ الأمَلِ. قيلَ لهُ: بِما يصِلُ العبْدُ إلى هُنا؟ قالَ: بقَلْبٍ مُفرَدٍ فيهِ توحيدٌ مُجرَّدٌ.

وخاصّيَّتُهُ(٢) زيادةُ اليقينِ بتَيْسيرِ المقاصِدِ المحْمودةِ ذاتًا وصِفاتًا وأفْعالًا، فقَدْ قالوا: مَنْ داوَمَهُ كُلَّ يوْمٍ ألْفَ مرّةٍ بطَريقِهِ المعْروفِ بيْنَ القوْمِ بصيغةِ "يا اللهُ يا هُو"، رزَقَهُ اللهُ كمالَ اليَقينِ.

---

(١) سيِّد الطائفة وإمام الجماعة، الجُنيد بن محمَّد أبو القاسم الخزّاز القواريري، أصله من نهاوند ومولده ومنشؤه بالعراق، وكلامه في الحقيقة مشهور مُدوَّن، تفقَّه على أبي ثَوْر وكان يُفتي في حلقته وله من العمر عشرون سنة، وسمع الحديث من الحسن بن عَرَفة وغيره، واختصَّ بصُحبة السري السَّقطي، والحارث ابن أسد المحاسبي، وأبي حمزة البغدادي وغيرهم، وهو من أئمّة القوم وسادتهم، مقبول على جميع الألسنة، شيخ وقته، وفريد عصره في علم الأحوال والكلام على لسان الصوفية، صحبه أبو العباس ابن سريج الفقيه الشافعي، واستفاد من مجالسته، وله رسائل مطبوعة، منها ما كتبه إلى بعض إخوانه، ومنها ما هو في التوحيد والألوهية، ومسائل أخرى، وآثاره كثيرةٌ مشهورةٌ، تُوفِّي سنة ٢٩٧.

انظر: "طبقات الصوفية" للسُّلَميِّ (ص ١٢٩)، و"تاريخ بغداد" للخطيب (٧/٢٥٤)، و"وفيات الأعيان" لابن خلكان (١/٣٧٣)، و"طبقات الشافعية" للسبكيِّ (٢/٢٦٠).

(٢) أي خاصية الاسم "الله".

و"**الرَّحْمَنُ**" فعْلانُ مِنَ "الرَّحْمةِ" التي هيَ ظُهورُ أمْرِهِ تعالَى في خليقَتِهِ بنَوْعٍ مِنَ الرِّفْقِ والإحْسانِ، وقيلَ: "هي وجُودُ ما بدا"، إذْ ظُهورُ ما ظهَرَ إنَّما كانَ بالرَّحْمةِ، فللرَّحْمَنِ السَّبْقُ بالنِّسبةِ إلى ما بدا؛ ولذَلِكَ قالَ: "سبَقَتْ رحْمَتي غَضَبي"(١) فهوَ يُفْهِمُ معنَى الرَّحْمةِ الخاصّةِ بهِ، وهوَ إيجادُ الخَلْقِ الذي لا يُفْهَمُ حقيقَتُهُ إلّا منْهُ سُبْحانَهُ، فإنَّ الرَّحمةَ تسْتَدْعي مرْحومًا، إذْ كُلُّ مرحومٍ يحْتاجُ إلى راحِمٍ، ولا راحِمَ إلّا الرَّحْمنُ.

ومنْ ثَمَّ جاءَ معنَى الاسْتِواءِ فيهِ في قوْلِهِ: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، فالاسْتِواءُ بمعْنَى الظُّهورِ، فما ظهَرَ في العرْشِ -الذي هوَ جامِعُ الكائِناتِ- سوى الرَّحْمةِ، لأنَّ الحَقَّ تعالَى غَنِيٌّ عَنِ الخلْقِ، وافْتِقارُهمْ إلَيْهِ بديهيٌّ، فرَحْمَتُهُ هيَ المُظْهِرةُ لهم والظّاهِرةُ فيهِمْ أوَّلًا وآخِرًا، باطِنًا وظاهِرًا دائِمًا، ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩]، قيلَ للاخْتِلافِ، وقيلَ للرَّحْمةِ، وقيلَ لهما، بلِ الاخْتِلافُ عيْنُ الرَّحْمةِ، كما دلَّ عليْهِ قوْلُ نبيِّ هذهِ الأُمّةِ: (اخْتِلافُ أُمَّتي رحْمةٌ)(٢)؛ لأنَّ بهِ إقامةَ وُجودِهِمْ؛ وعليْهِ نبَّهَ المُؤلِّفُ بقَوْلِهِ الآتي: "يا مَنِ اسْتَوى برَحْمانيَّتِهِ على عرْشِهِ، فصارَ العرْشُ غيْبًا في رحْمانيَّتِهِ، كما صارَتِ العَوالِمُ غيْبًا في عرْشِهِ، محقَتَ الآثارَ بالآثارِ"(٣)، أي حيْثُ غيَّبْتَ العَوالِمَ في العرْشِ، حتَّى صارَتْ فيهِ كحَلَقةٍ مُلْقاةٍ في فلاةٍ.

ومعارِفُ هذا الاسْمِ كُلُّها دائِرةٌ على الرَّحْمةِ، فالتَّعلُّقُ بِهِ يقْتَضي الأُنْسَ والرَّجاءَ، ولَمْ يُنقَلْ قَطْ أنَّهُ يُسمَّى بهِ غيْرُ الذّاتِ المُقدَّسةِ، وأمّا قوْلُهمْ "رحْمَنُ اليَمامةِ" فذاكَ بالإضافةِ إلى اليمامةِ، وأمّا "وأنْتَ غيْثُ الوَرَى لا زِلْتَ رحْمانًا"(٤) فغَيْرُ معرَّفٍ، والخاصُّ المُعرَّفُ، وذلِكَ مِنْ تعَنُّتِهِمْ في كُفرِهِمْ، فالاسْمُ "الرَّحْمنُ" مُنزَّهٌ عَنِ الاشْتِراكِ كالاسْمِ "الله".

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٧٥٥٣) ومسلمٌ (٢٧٥١) وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) اختلف الحفاظ في هذا الحديث وقال كثير منهم: لا أصل له، وذكره البعض دون إسناد، وعزاه البعض للبيهقي في المدخل والديلمي في الفردوس بإسناد فيه ضعف شديد وبلفظ مختلف، وذكر السيد أحمد بن الصديق أنه موضوع. انظر: المقاصد الحسنة للسخاوي (ص٩٦)، المداوي لابن الصديق (١/٢٣٥).

(٣) انظر ص ٤٢٦.

(٤) لرجل من بني حنيفة يمدح مسيلمة الكذاب، وتمام البيت:

سموت بالمجد يا بن الأكرمين أبا * وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا

و"الرَّحِيمُ" فعيلٌ مِنَ "الرَّحْمةِ"، والأوَّلُ أبْلَغُ عِنْدَ الجُمْهورِ، وعكسَ بعضُهم مُحتَجًّا بأنَّ مُقْتَضاهُ الإمْدادُ، وهوَ بعْدَ الإيجادِ فلهُ مُتعَلّقانِ في الأثَرِ، ووجْهانِ في المعْنى؛ فلمّا كانَتْ صورةُ الإمْدادِ يظْهَرُ أثَرُها مِنَ الخلْقِ، ساغَ إطْلاقُهُ عليهِمْ على وجْهٍ يليقُ بِهِمْ لا مُطْلَقًا، وخُصَّ بالمؤمِنِ لأنَّ إمْدادَ الكافِرِ زيادةٌ في عُقوبَتِهِ، فهوَ محنةٌ في حقِّهِ، وإمْدادُ المؤمِنِ زيادةٌ في ثوابِهِ، فهوَ رحْمةٌ في حقِّهِ، ويستَوِيانِ في الإيجادِ، إذْ لا يترَتَّبُ عليْهِ ثوابٌ ولا عِقابٌ، وإنْ كان هوَ مُظْهِرَهُما.

ومعْرِفةُ رحْمانيَّتِهِ إنَّما تظْهَرُ برحيميَّتِهِ، وذلِكَ مُشاهَدٌ باستِغْراقِ الكُلِّ في إحْسانِهِ، ألا ترَى إلى قوْلِ المُصنِّفِ الآتي: "نِعْمتانِ ما خرَجَ موجودٌ عنْهُما، ولا بُدَّ لكُلِّ مُكوَّنٍ منْهُما... إلخ"(١).

ولذلِكَ قال العارِفُ أبو مدينَ: "الحقُّ تعالى مُسْتبِدٌّ، والوُجودُ مُستمِدٌّ، والمادّةُ مِنْ عيْنِ الجودِ، فلوِ انْقَطَعتِ المادّةُ انْهدَمَ الوجُودُ في طرْفةِ عيْنٍ"(٢).

وقالَ بعضُهم: وبِهذا الاسْمِ الشَّريفِ رفَعَ اللهُ درجةَ نبينا على سائِرِ الأنبياءِ، حتَّى وصفَهُ بقَوْلِهِ ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

***

قالَ حُجّةُ عُلماءِ القُرآنِ ولِسانُ بيانِ الفُرقانِ(٣): "وجَدْنا البَسْمَلةَ تتضَمَّنُ ألْفَ معنًى، لا يكمُلُ توضيحُ فُنونِ معانيها، وتفتيحُ عُيونِ مبانيها".

قدْ كانَ للهِ سِرٌّ لا أبوحُ بِهِ * فظُنَّ خيْرًا ولا تسْأَلْ عَنِ الخبَرِ(٤)

وقالَ بعْضُ العارِفينَ: مَنْ أكثَرَ ذِكْرَ البسْمَلةِ، رُزِقَ الهيْبةَ عِنْدَ العالَمِ العُلْويِّ والسُّفْليِّ، ومَنْ عَلِمَ ما أودِعَ فيها مِنَ الأسْرارِ وكتَبَها، لمْ يحتَرِقْ بالنّارِ، وبِها أقامَ اللهُ مُلْكَ سُليْمانَ، وجمَعَ

(١) انظر الحكمة رقم ٩٧ ص ٢٠٤.

(٢) يقول الشيخ زروق في شرحه على الرسالة تعليقا على هذه العبارة: "ومعنى مستبد: قائم بنفسه لا يحتاج إلى غيره، والمستمد طالب المادة، وهي إيصال ما ينتفع به، والجود العطاء الذي لا علة له، والله أعلم".

(٣) أي ابن عربي، في كتابه "الفتوحات المكية" [الباب الخامس: في معرفة أسرار بسم الله الرحمن الرحيم والفاتحة]، والعبارة منقولة بتصرف من الشارح المناوي.

(٤) هكذا في المخطوطة، وفي غيرها من المراجع: "قد كان ما كان سرًا لا أبوح به * ..."

لهُ بيْنَ الدُّنْيا والآخِرةِ، فمِنَ الرَّحْمةِ العامّةِ المُلْكُ، ومِنَ الرَّحْمةِ الخاصّةِ النُّبوّةُ وعدَمُ التَّعلُّقِ بما ملَكَهُ مِنَ الدُّنْيا، بلْ حقيقَتُهُ مُتوجِّهةٌ للهِ على الدَّوامِ والاستِمْرارِ، فبسِرِّ الرَّحْمانيّةِ سُخِّرتْ لهُ الرِّياحُ والعَوالِمُ، وبسِرِّ الرَّحيميّةِ وُهِبَ لهُ الاسْمُ الأعْظَمُ.

ولذَلِكَ كانَ مِنْ دُعاءِ المُصطَفى ﷺ: (اللَّهُمَّ كاشِفَ الكَرْبِ وفارِجَ الغمِّ، مُجيبَ دعْوةَ المضْطرِّينَ، رحْمانَ الدُّنْيا والآخِرةِ ورحيمَهُما، ارْحَمْني برَحْمةٍ مِنْ عندكَ تُغنيني بها عَنْ رحمةِ مَنْ سِواكَ)، وكانَ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلِّمُهُ أصْحابَهُ ويقولُ: (لوْ كانَ على أحدِكُمْ جبَلُ ديْنٍ قضاهُ اللهُ عنْهُ)[1].

وقالَ بعضُهم: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيم" أشْرَفُ القَواعِدِ، وأتمُّ العَوالِمِ، وأعْظَمُ الأسْماءِ، ولا يطَّلِعُ على ما فيها مِنَ العُلوم والأسْرارِ إلّا الواحِدُ بعْدَ الواحِدِ، لأنَّ جنّةَ الحَقائقِ جلَّتْ أنْ تكون مسْلَكًا لِكُلِّ وارِد، ومحَطًّا لِكُلِّ راغِب، ومهما عزَّ المطْلوبُ، قصُرَتْ همّةُ الطّالِبِ.

وليْسَ القصْدُ مِنْ ذِكْرِ ذلِكَ إلّا لنعْلَمَ بِهِ شرَفَ كِتابِ اللهِ تعالَى وما فيهِ مِنَ الأسْرارِ الحِكَميّةِ، واللَّطائفِ الإلَهيّةِ.

***

الكتب النادرة التي ترفع لأولي الهمة

---

(١) أخرجه البزار (٦٢)، والطبراني في الدعاء (١٠٤١)، والحاكم (١/٥١٥)، وغيرهم من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[القسم الأول: الحكم]

١. مِنْ علاماتِ الاعتِمادِ على العَمَلِ نُقْصانُ الرَّجاءِ عِنْدَ وجُودِ الزَّلَلِ.

قالَ المؤلِّفُ -رحِمَهُ اللهُ-: (**مِنْ علاماتِ الاعتِماد على العَمَلِ**) الذي مَنِ اعْتَمدَ عليْهِ وحْدَهُ ضلَّ سعْيُهُ وبطَلَ، بشهادةِ خبَرِ: (لنْ يدْخُلَ أحَدُكُمُ الجَنَّةَ بعَمَلِه، قيلَ: ولا أنْتَ، قالَ: ولا أنا إلّا أنْ يتغمَّدني اللهُ برحْمَتِه)[1]، (**نُقْصانُ الرَّجاءِ**) أي: الأمَلِ في اللهِ (**عنْدَ وجُودِ الزَّلَلِ**) بحيْثُ يصيرُ خوفُهُ أرجَحَ مِنْ رجائِهِ، لبقائِهِ معَ نفْسِهِ في نِسْبةِ الفِعْلِ إليْها، كما أنَّهُ إذا عمِلَ طاعةً جعَلَها مِنْ أعْظَمِ عُدَدِه وأقْوى مُعتَمَدِه، ناظرًا للأسباب، غافلًا عَنْ مُسبِّبِها، ولولا ظنُّهُ أنَّهُ إنَّما يوصِلُهُ إلى السَّعادةِ العُظْمى عمَلُهُ، لما نقَصَ رجاؤُهُ، إذِ الاعْتِمادُ على الشَّيءِ في حُصولِ قصْدِهِ يُؤذِنُ باسْتِشْعارِ قوَّتِه بطَرْوِّ ضِدِّهِ، ولوْ كانَ اعتِمادُهُ على اللهِ كانَ رجاؤُهُ على الحالِ المطْلوبِ مِنْهُ قبْلَ صُدورِ الذَّنْبِ.

فالقَصْدُ بهذهِ الفاصلةِ الفاضلةِ بيانُ أنَّ النَّجاةَ مِنَ العَذابِ والفوْزَ بالثَّوابِ بفَضْلِ اللهِ ورحْمَتِه، والعمَلُ غيْرُ مؤثِّرٍ فيهما على جهةِ الإيجابِ والاقتضاءِ، بلْ غايَتُهُ أنَّهُ يُعِدُّ العامِلَ لأنْ يَتفضَّلَ عليْهِ ويُقرِّبُ الرَّحمةَ إليْه، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فليْسَ المُرادُ توهينَ العمَلِ ولا نفْيَهُ، بلِ التَّوقيفَ على أنَّهُ مِمَّا يُثمِرُ بالفضْلِ والرَّحْمةِ، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨].

والنّاسُ ثلاثةٌ: مُعْتَمِدٌ على عمَلِهِ، وعلامَتُهُ ما ذُكِرَ، ومُعْتَمِدٌ على فضْلِ اللهِ؛ وعلامَتُهُ أنْ يثِبَ إليْهِ في السَّراءِ والضَّراءِ، والتَّبرّي مِنَ الحوْلِ والقوّةِ، ومُعْتَمِدٌ على سابِقِ القِسْمةِ؛ وعلامَتُهُ

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٤٦٣)، ومسلمٌ (٢٨١٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الاسْتِسْلامُ والسُّكونُ تحْتَ مجاري الأحكام، فهوَ ناظِرٌ إلى ربِّه، فانٍ عَنْ نفْسِه، فإذا فرَطَتْ منْهُ زلَّةٌ، شهِدَ تصْريفَ الحقِّ فيه وجرَيانَ قضائه عليْه، كما أنَّهُ إذا أحْدَثَ طاعةً لم يشهَدْ فيها نفْسَهُ؛ لأنَّ السّابِقَ إلى قلْبِه ذِكْرُ ربِّه؛ فنفسُهُ مُطمَئِنَّةٌ تحْتَ جرَيانِ الأقْدارِ، وقلبُهُ ساكِنٌ لِما لاحَ لهُ مِنَ الأنْوارِ، فلا فرقَ عندَهُ بيْنَ الحالتَيْنِ، لكَوْنِه غريقًا في بحرِ التَّوحيدِ مُخرجًا لنفْسِه مِنَ البيْنِ، فلا يزيدُ رجاؤُهُ لعملِه، ولا ينْقُصُ لزلَّتِه، فلا يُنْقِصُ مِنْ خوْفِه ما يجْتَنِبُهُ مِنَ العِصْيانِ، كما أنَّهُ لا يزيدُ في رجائِه ما يجتَنيه مِنَ الإحْسانِ، بلْ يكونُ دائِمَ البِشْرِ مُتواصِلَ الأحزانِ، كما كانَ عليْه حبيبُ الرَّحْمَن[1]، فمَنِ اعْتَمدَ على سِعةِ الكرَمِ، زادَ رجاؤُهُ عِنْدَ سبَبِ النَّدَمِ، وذلِكَ يوجِبُ محْوَ زلَّتِه وإقالةَ عثْرتِه، فلا يعْتَمِدُ إلّا على فضْلِه، ولا يرَى معَهُ غيراً، وحسْبُكَ: (أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدي بي، فلا يظُنُّ إلّا خيْراً)[2].

وعبَّرَ بـ"مِنْ" التَّبعيضيّة إشارةً إلى تكثُّرِ العلاماتِ، وأوْقَعَ هذه العلامةَ في مطْلَعِ كلامِه؛ لأنَّ العمَلَ أوَّلُ عائقٍ يعْرِضُ للسّالِكِ، لغلَبةِ الوهْمِ على وجُودِه، وتراكُمِ الخَيالِ في مِرآةِ عقْلِه، فإذا شَمِلَتْهُ عِنايةُ النِّهايةِ في البِدايةِ، خلَّصتْهُ مِنْ ظُلمةِ حِجابِ اعْتِمادِه على عمَلِه، بنورٍ يُكْشَفُ لهُ بِه أنَّ الحوْلَ والقوّةَ للهِ في كُلِّ شيءٍ، وأنَّهُ خالِقٌ لجميعِ أعمالِ العبْدِ.

لا يُقالُ: كانَ الأوْلى الابْتداءَ بالتَّوْبةِ كما فعَلوا، لأنَّها أساسُ المقاماتِ والمنازِلِ، لأنّا نقولُ: لم يُغْفِلْها رأسًا، بلْ في طيِّ مطْلَعِه رَمَزَ إليْها؛ لأنَّ العمَلَ إنَّما يعْتَمِدُ عليْه المُعتَمِدون إذا وقعَ بعْدَ توبةٍ مُخْلِصةٍ مُخلَصةٍ؛ والمُريدُ في بِدايَتِه خِلْعتُهُ التَّوبةُ، فإذا ارتَقى إلى مقامِ السُّلوكِ، فخِلْعَتُهُ دوامُ الذِّكْرِ وإدمانُ الفِكْرِ، ليَرقَى إلى مقامِ المُراقَبةِ ثُمَّ الحياءِ، فتكونُ خِلعَتُهُ لُزومَ الأدبِ تعْظيمًا لحضْرةِ الحقِّ، ثُمَّ مِنْهُ إلى مقامِ المعْرِفةِ، فتكونُ خِلعَتُهُ التَّفنُّنَ في فُنونِ الفناءِ شوقًا للبَقاءِ، وهكذا إلى ما لا يتَناهى.

---

(١) قوله: "دائم البشر" أخرجه الترمذي في الشمائل (٣٣٤)، وغيره من حديث الحسن بن علي عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وورد الوصفان "دائم البشر، متواصل الأحزان" في حديث هند بن أبي هالة أخرجه مطوَّلًا: الطبراني (٢٢/رقم ٤١٤)، وأبو نعيم في الدلائل (٥٦٥)، والبيهقي في الشعب (١٣٦٢)، وغيرهم.

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٧٤٠٥)، ومسلمٌ (٢٦٧٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهذا حالُ أهْلِ هذا الشَّأنِ، وأمّا غيرُهُم ففي بحْرِ ظُلمةِ النَّفسِ سابحونَ، وعلى الأعمالِ مُعتَمِدونَ، ظنًّا أنَّها تُقرِّبُ وتُبْعِدُ، وتُنْجي وتُسْعِدُ، هيهاتَ؛ إنَّما السَّعادةُ بيَدِ مَنْ بيَدِهِ النَّواصي، خالِقِ فِعْلِ الطّائعِ والعاصي.

ومِنْ هذا الشُّهودِ يشْرَبُ مَنْ قيلَ لهُ مِنَ العارفِينَ: إنَّكَ لا تُدرِكُ مُرادَكَ مِنْ أملِكَ، حتَّى تتوبَ مِنْ زَلَلِكَ! فقالَ: "لو أنَّ التَّوبةَ تطْرُقُ بابِي ما أذِنْتُ لها في الدُّخولِ على أنْ أنجوَ بها مِنْ عذابِ ربِّي، ولو أنَّ الصِّدْقَ والإخْلاصَ عبْدانِ لي بِعْتُهُما زُهْدًا فيهِما؛ لأنِّي إنْ كُنْتُ في الأزَلِ سعيدًا مقْبولًا، لمْ أتخَلَّفْ بكثْرةِ الذُّنوبِ، أو شَقيًّا مخْذولًا لمْ يُسعِدْني ذلِكَ، فإنَّ اللهَ خلَقَني بِلا عمَلٍ ثُمَّ هداني لدينِهِ، فاعْتِمادي على كرَمِهِ أوْلَى مِن اعْتِمادي على أفْعالي المدْخولةِ وصِفاتي المغْلولةِ".

وهذا كلامُ مَنْ فنِيَ عنْ حُظوظِهِ وفنِيَ عنِ الفَناءِ، فليْسَ لأمْثالِنا التَّعلُّقُ بِهِ، ولا التعْريجُ عليْهِ.

***

٢. إرادتُكَ التَّجريدَ معَ إقامةِ اللهِ إيّاكَ في الأسبابِ مِنَ الشَّهْوةِ الخفيّةِ، وإرادَتُكَ الأسبابَ معَ إقامةِ اللهِ إيّاكَ في التَّجْريدِ انْحِطاطٌ عَنِ الرُّتَبِ العَليّةِ.

(**إرادتُكَ التَّجريدَ**) عمّا يشْغَلُكَ عَنِ اللهِ، بالتَّخلُّصِ مِنَ الأسبابِ، والانْقِطاعِ لربِّ الأرْبابِ، (**معَ إقامةِ اللهِ إيّاكَ في الأسبابِ**) المُباحةِ المُغنيةِ عَنِ السُّؤالِ، (**مِنَ الشَّهْوةِ**) الدّالّةِ علَى غلَبةِ أحكامِ الطَّبيعةِ؛ فإنَّهُ نُزوعٌ للتَّنزُّهِ عَنْ كدَرِ الأسْبابِ، وميْلٌ للراحةِ، وطُموحٌ لمقامِ أهْلِ الاقْترابِ، وتعَجُّلُ منْزِلةٍ رفيعةٍ لا تليقُ بِكَ في ذلِكَ الوقْتِ، ولأنَّكَ جعَلْتَ لكَ معَ ربِّكَ إرادةً، والإرداةُ مِنْ بقايا النَّفْسِ، ولا تصْلُحُ للتَّجرُّدِ لهُ ما بَقِيَ فيكَ بقيّةٌ لسِواهُ.

فتِلْكَ الإرادةُ آيةٌ بيِّنةٌ ودلالةٌ ظاهِرةٌ على أنَّها مِنَ الشَّهْوةِ، لكِنَّها غيْرُ ظاهِرةٍ، بلْ هيَ مِنَ الشَّهْوةِ (**الخفيّة**) لما فيها مِنْ صورةِ خُروجِ النَّفسِ عنْ مُرادِها ومُعتادِها إلى حالةٍ أشَقَّ في النَّصَبِ وأعْلى في الرُّتَبِ، وهوَ التَّجرُّدُ المؤلِمُ بظاهِرِهِ؛ إذْ هوَ مُفارقةُ المُعْتادِ، ومُخالَفةُ المُرادِ، ومُخالَفةُ الأوْرادِ.

لكِنْ فاتَكَ أنَّ ذلِكَ إنَّما هوَ مطلوبٌ مِنْ حيْثُ يرْضاهُ الحقُّ لا النَّفْسُ، والذي يرْضاهُ قيامُكَ فيما أقامَكَ فيهِ، حتَّى يتولَّى إخْراجَكَ بتيْسيرٍ منْهُ، وإلى ذلِكَ أشارَ المُصطَفَى ﷺ بقوْلِهِ فيما رواهُ الإمامُ أحْمدُ عَنْ عائِشةَ: (إذا سبَّبَ اللهُ تعالَى لأحَدِكُمْ رِزْقًا مِنْ وجْهٍ، فلا يدَعْهُ حتَّى يتغَيَّرَ أو يتنَكَّرَ لهُ)[1].

فإذا أقامَكَ في السَّببِ فلا تمُدَّنَّ عيْنَيكَ إلى التَّجْريدِ، تكُنْ مِنْ خُلاصةِ العبيدِ، فإنْ نازَعتْكَ النَّفسُ فهوَ مِنَ الدسائِسِ، فرُدَّها تظْفَرْ بالنَّفائِسِ؛ فإذا بدَّلَ العبْدُ بالمُجاهَدةِ أوصافَها الذَّميمةَ بالحَميدةِ، اسْتَوى عِنْدَهُ سبَبُهُ وتجْريدُهُ، لخُلوِّهِ عَنِ الحظِّ النَّفْسانيِّ والخُلُقِ الشَّيْطانيِّ، وقبلَ ذلِكَ قدْ يُلْبِسُ عليْهِ إبْليس، فيُظْهِرُ مُرادَهُ في صورةٍ معنًى نفيس، فيأتي بصورةِ ناصِحٍ فيأمُرُ بالتَّجْريدِ؛ فإذا تجرَّدَ وباعَ متاعَهُ وطلَّقَ نِساءَهُ، وترَكَ المألوفاتِ وتجنَّبَ العاداتِ، مُنتَظِرًا للفتْحِ، ويكونُ سبَقَ في الأزَلِ أنَّهُ ليْسَ مِنْ أهْلِ ذلِكَ الشَّأنِ، فلا يظْفَرُ بشَيءٍ، فيتكدَّرُ صفاؤهُ، بل رُبَّما تزَلْزَلَ إيمانُهُ؛ نسْأَلُ اللهَ السَّلامةَ.

حكَى المؤلِّفُ أنَّهُ دخَلَ على شيْخِهِ المرسي[2] وعزمُهُ التَّجريدُ وترْكُ الاشْتغالِ بالعِلمِ الظَّاهِرِ

---

(١) متفقٌ عليه؛ مخرَّج في الصحيحين في عدَّة مواضع، منها ما أخرجه البخاريُّ (٧٤٠٥) ومسلمٌ (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) العارف الكبير، أبو العباس، أحمد بن عمر بن محمد الأندلسي المرسي الأنصاري، ولد سنة ٦١٦، نزل الإسكندرية، وخلف الشيخ أبي الحسن الشاذلي، صحبه تاج الدين ابن عطاء الله ونقل عنه فوائد، وكان له مجلسٌ عظيمٌ في المعارف والحقائق والرقائق، ومن عجيب حاله أنه ما تسبَّب في الدنيا بشيءٍ حتى خرج منها، فقيل له فيه، فقال: سببنا الإيمان والتقوى، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [الأعراف: ٩٦]، وله كرامات عدَّة، وكان يقول: والله ما نُطالع كتب القوم إلّا لنرى فضل الله علينا. تُوفي ٦٨٦ بالإسكندرية، ومقامه مشهور يُزار. انظر: "الوافي" للصفدي (١٧٣/٧)، و"طبقات الأولياء" لابن الملقن (ص ٤١٨)، و"لطائف المنن" لابن عطاء الله.

لِبُعدِ الوُصولِ معَهُ، فقالَ مِنْ غيرِ ذِكْرِ ذلِكَ لهُ: "امْكُثْ فيما أقامَكَ فيهِ، وما قُسِمَ لكَ على يدِنا وصَلَ إليْكَ".

وهذا شأنُ الصّادِقينَ لا يخرُجون مِنْ حالٍ حتَّى يُخرِجَهُمُ الحَقُّ؛ فالوجْهُ أنْ تنْزِلَ حيْثُ أنزلَكَ، حتَّى يكون الإلَهُ عنهَ نقلَكَ، فليْسَ الشّأنُ أنْ تتْرُكَ السَّبَبَ، بلْ أنْ يتْرُكَكَ السَّببُ، وترْكُهُ إيّاهُ عدَمُ استِقامَتِهِ لهُ، وتعذُّرُهُ أو تعسُّرُهُ عندَ طلبِهِ، وعدمُ ترْكِهِ حُصولُ ثمرتِهِ ونتيجَتِهِ مِنْ سُهولةٍ، وسلامةِ دينٍ، وقِلّةِ طمَعٍ، وحُسْنِ نيّةٍ، في صِلةِ رحِمٍ، وإعانةِ مُعدَمٍ، وإنقاذِ محْتَرمٍ، وغيرِ ذلِكَ مِنَ الفَوائِدِ والعَوائدِ.

(وإرادَتُكَ الأسْبابَ) الشّاغِلةَ عَنْ خِدمةِ ربِّ الأربابِ **(معَ إقامةِ اللهِ إيّاكَ في التَّجْريدِ)** مِنْ غيرِ حِرْفةٍ تحْتَرِفُ بها **(انْحِطاطٌ عَنِ الرُّتَبِ العَليّةِ)** لاسْتبدالِكَ الراحةَ بالتَّعَبِ، والسَّلْوةَ بالشُّغْبِ، وتَعرُّضِكَ لأسْبابِ الهَوانِ والعَطَبِ، فإذا أقامَكَ في التَّجريدِ، فلا تُرِدِ السَّببَ، تنْحَطَّ عنْ رُتبةِ أهْلِ الأدَبِ، بمُخالَطةِ الأغْيارِ، ومُفارقةِ الأنْوارِ، ومُقارَفةِ الأوْزارِ.

والتَّجريدُ مقامُ الخواصِّ لِما فيهِ مِنْ تفْريغِ القلْبِ للحقِّ، والتَّعرُّضِ لنفَحاتِ الرَّحمةِ، والجمْعِ عليْهِ بِلا عائقٍ ولا عِلّةٍ ولا زحْمةٍ، والأسْبابُ شُغْلٌ صارِفٌ، وحجابٌ حائلٌ، وسيْفٌ قاطِعٌ؛ فالعُدولُ عنْهُ معَ تيَسُّرِهِ، باخْتِلالِ نِظامِ الأسبابِ عليْهِ، ووُجودِ أمارةِ نتيجةٍ مِنْ طيبِ وقتٍ، وصفاءِ قلْبٍ، ووحْشةٍ مِنَ الأغْيارِ، وأُنْسٍ بالواحِدِ القهّارِ، خُسرانٌ بلْ حِرْمانٌ، فما هوَ إلّا كمَنْ خلَعَ عليْهِ الملِكُ خِلعةَ الرِّضَى والاقْتِرابِ، فتشَوَّقَ لسِياسةِ الدَّوابِ.

فاشْكُرْ أيُّها المُتجَرِّدُ نِعمَتَهُ التي أنْعَمَ بِها عليْكَ، حيْثُ عاملَكَ مُعامَلةَ الخَواصِّ، وحلّاكَ بِحُلَلِ أهلِ الاخْتِصاصِ. والمُتجرِّدُ والمُتَسبِّبُ كقِنَّيْنِ للمَلِكِ، قالَ لأحَدِهِما: "اعمَلْ وكُلْ مِنْ عملِ يدِكَ"، وللآخَرِ: "الزَمْ حُضورَ حضْرَتي، ولَكَ قِسمَتي"، فمتى خرجَ أحدُهُما عَنْ مُرادِ مالِكِهِ، أساءَ الأدَبَ وتعَرَّضَ للعَطَبِ.

فإرادةُ أحدِهِما معَ القِيامِ في الآخَرِ اعْتِمادٌ عليْهِ في حُصولِ قصْدِهِ، وذلِكَ تدبيرٌ معَ اللهِ نشأَ عنْ عدَمِ التَّحقُّقِ بِما في القَدَرِ، كما قالَ:

٣. سوابِقُ الهِمَمِ لا تخْرِقُ أسوارَ الأقدارِ.

(سوابِقُ الهِمَمِ) أي: الهِمَمُ السَّوابِقُ، وهيَ القوَى الفعّالةُ في الوجُودِ، كما يكونُ مِنَ المريضِ عنْ قوّةِ نفْسِهِ، ومِنَ الوليِّ عنْ قوّةِ يقينِه وحدْسِهِ، ومِنَ السّاحِرِ عنْ حلِّهِ وعَقْدِهِ ونفْثِهِ.

(لا تخْرِقُ أسوارَ الأقدارِ) أي: لا فاعِليّةَ لها، بلِ الفاعِلُ هوَ اللهُ وحْدَهُ، عِنْدَها لا بها، فلا تأثيرَ لها فيما قُدِّرَ في الأزَلِ، بلْ تدورُ معَهُ حيْثُ دار، حسْبَما دلَّتْ عليْهِ الآياتُ والأخْبار، وجرَى على قضيَّتِهِ جمْعٌ مِنَ الأخْيار، فقالوا: "هِمَمُ خواصِّ البَشَر، لا تخْدِشُ سورَ القَدَر"؛ لأنَّهُ سِرٌّ مكتوم، ومعنًى غيْرُ مفْهوم، تقْصُرُ دونَهُ الهِمَمُ العَوالي، كيْفَ وهوَ القائِلُ: (هذِهِ في الجنّةِ، وهذِهِ في النّارِ، ولا أُبالي)[1].

كمْ مِنْ عالمٍ عامِلٍ أبرزَ لهُ القدَرُ ما ليْسَ في حِسابِه، وحكَمَ بموجَبِ بُعْدِهِ وخطئِهِ في صوابِه؛ فما قُدِّرَ فيهِ حصَلَ بلا تعَب، وما لمْ يُقدَّرْ لا يحْصُلُ بعُلوِّ الهِمةِ وبذْلِ الجُهْدِ في السَّبب.. إذا أرادَكَ قرَّبَكَ بلا تعَب، وأخْرجَكَ عَنْ نفْسِكَ بلا كَدٍّ ولا نَصَب، وإذا أبْعدَكَ أتْعبَكَ، وجعَلَ همَّكَ نفْسَكَ وإرْبَك، فالهِمَمُ ليْسَتْ إلّا ستائِرُ على العُقول، كما برْهَنَ عليْهِ الجَهابِذةُ الفُحول.

قالَ الجُنيدُ شيْخُ الطَّريقِ -لمّا سألَهُ بعْضُ أهْلِ التَّحقيقِ: أيزْني الوَليُّ، ويحُطُّ قدرَهُ العَليُّ؟-: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، فكُنْ بهِ، ولا تكُنْ بعمَلِكَ تكُنْ مخدوعًا مغرورًا.

وإذا لم تكُنْ للهِمّةِ الفعّالةِ أمْرٌ في تقْديرِ القديرِ، فلا جدْوَى للتَّدبيرِ؛ فلهذا قالَ:

***

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٦٠)، وابن حبان (٣٣٨)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٠٤٥)، وغيرهم من حديث عبدالرحمن بن قتادة السلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، وتمامه: (إن الله خلق آدم، ثم أخذ الخلق من ظهره، وقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي)، قال قائل: يا رسول الله، فعلى ماذا نعمل؟! قال: (على مواقع القدر).

٤. أرِحْ نفْسَكَ مِنَ التَّدْبيرِ، فما قامَ بِهِ غيْرُكَ عنْكَ لا تقُمْ بِهِ لنَفْسِك.

(أرِحْ نفْسَكَ مِنَ التَّدْبيرِ) لِما في طيِّهِ مِنَ التَّكْديرِ، ومُنازَعةِ الحكيمِ القَديرِ، وهوَ تقْديرُ شُؤونٍ يكونُ عليْها حالًا أو مآلًا، مِمّا يُخافُ أو يُرْجَى، فارجِعْ لتدْبيرِ موْلاكَ الذي بِهِ توَلّاك، أيْنَ كُنْتَ لمّا وجَّهَ عِنايَتَهُ لإيجادِك، وما زالَ يُدبِّرُكَ إلى حينِ ميلادِك؟! ثُمَّ هكذا في جميعِ الأطْوار، إلى وُصولِكَ إلى دارِ القَرار.

والمشْغولُ بتدْبيرِ نفْسِهِ مشْغولٌ عَنِ اللهِ، محْجوبٌ عَنِ النَّظَرِ في مصْنوعاتِه، فلا تجْعَلْ معَ تدْبيرِ اللهِ تدْبيرًا؛ فإنْ كانَ ولا بُدَّ أنْ تُدبِّرَ، فدَبِّرْ أنْ لا تُدبِّر، ومَنْ لمْ يُدبِّرْ دُبِّرَ لهُ، ومَنْ غلَبَ عليْهِ عدَمُ الثِّقةِ بوَعْدِهِ تعالَى واعتمدَ على تدْبيرِهِ، وقَعَ في شَرَكِ الشِّرْكِ، الموصِلِ صاحِبَهُ إلى دَرَكِ ذُلِّ سُؤالِ الخلْق، فيُحجَبُ عنِ التَّرقِّي إلى مقامِ عِزِّ سُؤالِ الحقّ.

وأفادَ المُؤلِّفُ بإضافةِ "أرِحْ" إلى "النَّفْسَ" أنَّ كلامَهُ في التَّدبيرِ المذْموم، وهوَ النّاشِئُ عنْ أثَرِ النَّفْسِ الظُّلمانيّةِ الشَّهْوانيّةِ التي لزِمَها حُبُّ الحظِّ العاجِلِ الفاني مِنْ زُخْرُفِ الدُّنْيا، لا التَّدبيرِ المحمودِ شرْعًا، كتدْبيرِ شأنِ عِبادَتِه، وترتيبِ أوْرادِهِ وأمْرِ منْزِلِه، والنَّظَرِ في مؤنةِ مَنْ تلزَمُهُ مؤنَتُهُ، والتَّحرُّزِ مِنْ طوارِقِ العِدَى بإعْدادِ العُدَدِ والمَدَدِ وغيرِ ذلِك، فإنَّهُ مأمورٌ بهِ فضْلًا عنْ كوْنِهِ منْهيًّا عنه، ألا ترى أنَّ الفاروقَ دبَّرَ تجْهيزَ الجيْشِ في صلاتِهِ[١]!

والتَّدْبيرُ صِفةُ أهْلِ الكلامِ مِنْ أرْبابِ التَّرْبِيةِ والتَّسليكِ الذينَ أطْلَعَهُمُ الحَقُّ على سِرِّ تدْبيراتِهِ الإلهيّةِ الحِكَميّةِ، وأقْدَرَهُمْ على تبْديلِ أوصافِ النُّفوسِ الخَبيثةِ بالنَّفيسة، وأعظِمْ بهِ مِنْ تدبيرٍ.

---

(١) بوب البخاري في صحيحه بابا بعنوان: "باب يفكر الرجل الشيء في الصلاة، وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إني لأجهز جيشي وأنا في الصلاة". انظر: صحيح البخاري، كتاب العمل في الصلاة.
وقال ابن حجر في فتح الباري: قوله: "وقال عمر: إني لأجهز جيشي وأنا في الصلاة" وصله ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن أبي عثمان النهدي عنه.

وبِما تقرَّرَ عُرِفَ أنَّهُ لا تَدافُعَ بيْنَ ما مرَّ وقوْلِهِ ﷺ: (التَّدبيرُ نِصْفُ العيْشِ)[1]؛ لأنَّ كلامَهُ في تدبيرِ أمْرِ نحْوِ معيشةِ العيالِ، المصْحوبِ بتَفويضٍ وتسْليمٍ، وأمّا تأْويلُ بعْضِهِمْ بأنَّهُ إذا كانَ فيهِ نِصْفُ العيْشِ يكونُ في ترْكِ التَّدْبيرِ العيْشُ كُلُّهُ، فمنافِرٌ للسَّوقِ[2] كما لا يخْفَى على أهْلِ الذَّوْقِ.

تنْبيهٌ: قالَ ابنُ عربِي[3]: "مَنْ ملَكَتْهُ نفْسُهُ عُذِّبَ بنارِ التَّدْبيرِ، ومَنْ ملَّكَها اللهُ عُذِّبَ بنارِ الاخْتيارِ، ومَنْ عجزَ عَنِ العَجْزِ، ذوَّقَهُ اللهُ حلاوةَ الإيمانِ، ولَمْ يبْقَ عِنْدَهُ حِجابٌ". وسُئِلَ سهْلٌ[4]: أيُّ مَنْزِلٍ إذا قامَ العَبْدُ بهِ قامَ مقامَ العُبوديّةِ؟ قال: "إذا ترَكَ التَّدْبيرَ والاخْتيارَ".

وقالَ الرازي[5]: ما دامَ العَبْدُ يتعرَّفُ، يُقالُ لهُ: "لا تختَرْ ولا تَكُنْ معَ اخْتيارِك"، حتَّى يعْرِفَ؛ فإذا صارَ عارِفًا قيلَ لهُ: "إنْ شِئْتَ اخترْ وإنْ شِئْتَ لا تختَرْ؛ لأنَّكَ إنِ اخترْتَ، فباخْتيارِنا اخترْتَ، وإنْ ترَكْتَ فباخْتيارِنا ترَكْتَ؛ فإنَّكَ بنا في الاخْتيارِ وتركِهِ".

---

(١) أخرجه القضاعي (٣٢) من حديث علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، وإسناده ضعيف، وله شواهد من حديث أنس وابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، ولا تخلو من ضعف أيضا.

(٢) أي السياق، واختار الشارح "السوق" حفاظا على السجع مع كلمة "الذوق" التالية.

(٣) الشيخ الأكبر محيي الدين أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله، الطائي الحاتمي الأندلسي، والمعروف بابن عربي، ولد بمرسية من الأندلس سنة ٥٦٠، كان عالما بالآثار والسنن، قوي المشاركة في العلوم، من تصانيفه: الفتوحات المكية، والتدبيرات الإلهية، والتنزيلات الموصلية، وفصوص الحكم، والإسرا إلى المقام الأسرى، وشرح خلع النعلين، والأجوبة المسكتة عن سؤالات الحكيم الترمذي، وترجمان الأشواق، وغيرها كثير. وقد اختُلف عليه ونسبت إليه أقوالٌ، وكتب الحافظ السيوطي في الذبِّ عنه: تنبئة الغبي بتبرئة ابن عربي، وللقطب الشعراني اهتمامٌ بكتبه، توفي سنة ٦٣٨. انظر: فوات الوفيات (٤٣٥/٣)، والطبقات الكبرى للشعراني (١٦٣/١)، وطبقات الأولياء للمناوي (١٥٩/٢)، وشذرات الذهب لابن العماد (٣٣٢/٧).

(٤) سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التستري، الصالح المشهور، مولده سنة ٢٠٠ وقيل ٢٠١، لم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع، وكان صاحب كرامات، تخرج عن خاله محمد ابن سوار، ولقي ذا النون المصري بمكة، وكان عامة كلامه في تصفية الأعمال وتنقية الأحوال. وفاته سنة ٢٨٣ وقيل ٢٧٣. "حلية الأولياء" لأبي نعيم (١٨٩/١٠)، و"وفيات الأعيان" لابن خلكان (٤٢٩/٢).

(٥) يحيى بن معاذ الرازي، أبو زكريا، الواعظ، قدم بغداد واجتمع بها إليه مشايخ الصوفية، وله كلام جيد ومواعظ مشهور، تُوفِّي رحمه الله بنيسابور سنة ٢٥٨. انظر: "طبقات الصوفية" للسلمي (ص ٩٨، رقم ١٤)، و"تاريخ بغداد" (٢١٢/١٤)، و"سير أعلام النبلاء" (١٥/١٣).

وهذا مقامٌ عالٍ عزيزُ المنالِ، وكلامُ المؤلِّفِ مُنزَّلٌ على مَنْ هوَ دون ذلِكَ.

ومِمّا يُعينُ على تركِ التَّدبيرِ النَّظَرُ لماضي الحُكْمِ والتقديرِ، كما قالَ: (**فما قامَ بِهِ غيرُكَ عنْكَ، لا تقُمْ بِهِ لنَفْسِكَ**) يعْني لا تقُمْ لنَفسِكَ بذَرّةٍ مِنَ التَّدبيرِ، فقَدْ قامَ بهِ عنْكَ القديرُ؛ ففي ترْكِ التَّدبيرِ ترْكُ العُبوديّةِ ومُضادّةُ أحْكامِ الرُّبوبيّةِ، معَ أنَّهُ تكلُّفٌ بغَيْرِ فائدةٍ، وسعْيٌ في غيْرِ عائِدةٍ، وعمَلٌ في غيْرِ معْمَلٍ، وتعبٌ مِنْ غيْرِ تحصُّلٍ.

وفي إفهامِهِ أنَّ ما وُكِلَ إلى قيامِكَ بهِ لا تترُكْهُ لغَيْرِكَ؛ فهُما أمْرانِ بيَّنَهُما الخَوّاصُ[1] بقَوْلِهِ: "العِلْمُ كُلُّهُ في كلِمَتيْنِ: لا تتَكَلَّفْ ما كُفيتَ، ولا تُضيِّعْ ما استُكْفيتَ".

قالَ بعْضُ أكابِرِ الصّوفيّةِ: "وهذِهِ الحكمةُ الرابعةُ هيَ أساسُ الطَّريقِ العَليّةِ، بلْ هيَ الجُملةُ والكُلّيّةُ"، وقالَ بعْضُهم: "مَنْ رأى لهُ مُلْكًا معَ اللهِ، لمْ يزَلْ مُنغَّصَ العيْشِ في كُلِّ ما يَرومُهُ ولمْ يصِلْهُ، ومَنْ لا يرَى لهُ مُلكًا معَهُ، وإنَّما هوَ عبدٌ يأْكُلُ ويشْرَبُ مِنْ مالِ سيِّدِهِ، اسْتَراحَ وأراحَ".

ومِمّا قامَ بهِ غيرُكَ عنْكَ الرِّزْقُ؛ فإنَّ مولاكَ قدْ ضمِنَهُ لكَ، ولمْ يخْلُقْكَ إلّا لعِبادَتِهِ، فإذا اجْتَهدْتَ فيما كلَّفَكَ بهِ، ووثِقْتَ بِضَمانِهِ فيما قامَ بهِ عنْكَ، اسْتَنارَتْ بصيرَتُكَ وصَلُحَتْ سريرَتُكَ، وإنْ عكَسْتَ انْعكَسَ، كما بيَّنَهُ بقوْلِهِ:

***

٥. اجتِهادُكَ فيما ضَمِنَ لكَ، وتقصيرُكَ فيما طَلَبَ مِنْكَ، دليلٌ على انطِماسِ البَصيرةِ مِنْكَ.

(**اجْتِهادُكَ فيما ضَمِنَ لكَ**) بنَحْوِ قوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقوْلُهُ:

(١) أوحد المشايخ أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الخواص أبو إسحاق، المتبتل المتوكل، صحب أبا عبد الله المغربي، وكان من أقران الجنيد والنوري، توفي بالري سنة ٢٩١. حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/٣٢٥)، الرسالة القشيرية (١/١٠٤)، والكواكب الدرية للمناوي (١/٢٣٨).

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، **(وتقصيرُكَ فيما طَلَبَ مِنْكَ)** مِنَ العِبادةِ بقَوْلِه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، **(دليلٌ علَى)** عدَمِ يقينِكَ و**(انْطِماسِ البَصيرةِ مِنْكَ)**.

أيْ: اجتِهادُكَ في الرِّزْقِ المضْمونِ مَعَ التَّفْريطِ في عِبادةِ الرَّزّاقِ، علامةٌ على أنَّكَ مفْتون، ذاهِبُ النّورِ الذي بِهِ كَمالُ الظُّهورِ والسُّرورِ؛ لقَلْبِكَ الحَقائِقَ، وعِصْيانِكَ الخالِقَ، وإتْيانِكَ بالشَّيءِ على غيْرِ وجْهِه، ووضْعِه بِغيْرِ محَلِّه، فقَدْ تكَفَّلَ بما يسُدُّ الرَّمَقَ، ويُسْكِنُ الجَنانَ عَنِ القَلَقِ، فلا تتَحرَّى سِواهُ، ولا تطلُبْ إلّا إيّاهُ؛ فثَمَّ يطيبُ العَيْش، ويذْهَبُ الاضْطِرابُ والطَّيْش.

ذو البَصيرةِ لا يتْرُكُ في وُثوقِهِ بربِّهِ مقْدوراً مِنْ جهتِهِ، تَمَسُّكًا بآيةِ: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]، فلا تكُنْ مِمَّنْ أَلْهاهُمُ الرِّزْقُ عَنِ الرَّزّاقِ، وشَغَلَهُمُ الصَّفَقُ بالأَسْواقِ، عنْ تنَسُّمِ قَبولِ[1] الأَشْواقِ.

وعبَّرَ بـ"الاجْتِهاد" ليُفيدَ أنَّهُ لا ضَيْرَ في الطَّلَب، حيْثُ لمْ يُقارِنْهُ تفْريطٌ فيما أمَرَ أوْ وَهَب، بدَلالةِ أخْبارٍ منْها حديثُ (إنَّ اللهَ يُحبُّ العبْدَ المُحْتَرِف)[2]، وحديثُ (إنَّ اللهَ يُحبُّ أنْ يرى عبْدَهُ تعبًا في طلَبِ الحَلالِ)[3]، وبـ"الضَّمانِ" ليُشْعِرَ بسَبْقِ القِسْمةِ وبالتَّقْصيرِ والطَّمْسِ، إيماءً إلى أنَّ التَّرْكَ يُعْمي ويجُرُّ إلي الكُفْرِ؛ لأنَّ المعاصي تزيدُهُ، فلو كانَ بدَّلَ الاجْتِهادَ استِغْراقًا، وبدَّلَ التَّقْصيرَ ترْكًا وشِقاقًا، كانَ بدَّلُ الطَّمْسَ عمًى؛ لأنَّ الدُّنْيا كنَهْرِ طالوتَ، لا ينْجو منْهُ شارِبٌ إلّا مَنِ اغْتَرفَ غُرفةً بيدِه.

وعلامةُ الاجْتِهادِ في المضْمونِ: التَّلَهُّفُ على الغائِبِ، وفقْدُ التَّقْوَى في التَّحْصيلِ، والغَفْلةُ

---

(١) ريح الصَّبا. قال الأَصمعي: الرِّياح معظَمها الأَربع: الجَنُوب، والشَّمال، والدَّبُور، والصَّبا، فالدَّبور التي تَهُبُّ من دُبُر الكعبة، والقَبُول من تلْقائها وهي الصَّبا. قال ثعلب: القَبُول ما استقبلك بين يديك إذا وَقَفت في القِبْلة، قال: وإنما سميت قَبُولاً لأن النفس تَقْبَلُها. [لسان العرب]

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (٢٠٤) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(٣) عزاه الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٦١/٢) إلى الديلمي، وقال: "وفيه محمد بن سهل العطار، قال الدارقطني: يضع الحديث".

عَنِ الحُقوقِ المؤَكّدةِ في السَّبَبِ. وعلامةُ عكْسِهِ: الرِّضَى بالواقعِ، والتَّقْوَى في الطَّلَبِ، وحِفْظُ الأَدَبِ في السَّبَبِ.

فإذا قُمْتَ بهَذا الأمْرِ على ما ينْبَغي مِنَ الاجْتِهادِ في المطْلوبِ مِنْك، وتفْريغ القَلْبِ مِنَ المضْمونِ لكَ، انْفتَحَتْ بصيرتُك، وأشْرَقَ نورُ الحقِّ على قلْبك، وحصَّلْتَ غايةَ قصْدك، وإنْ عكَسْتَ، انْطَمَسَتِ البصيرةُ وهيَ ناظِرُ القلْبِ، كما أنَّ البصَرَ ناظِرُ العيْنِ، وناظِرُ القَلْبِ إنّما ينْظُرُ لِلعاقِبةِ، والعاقِبةُ لِلمُتَّقينَ؛ فالتَّقْوَى هيَ المطْلوبةُ فقَطْ به.

وهُما شيْئانِ: شيءٌ ضُمِنَ لكَ فلا تهْتَمّ بِهِ، وشيءٌ طُلِبَ مِنْكَ فلا تُهْمِلْهُ، فمَنِ اشْتَغَلَ بالمضمونِ عَنِ المطلوب، فهوَ الخاسِرُ المعْطوب، قدْ عظُمَ جهْلُهُ واتَّسَعَتْ غفْلَتُهُ وانْحَطَّ فضْلُهُ، وإذا كانَ الحقُّ قدْ رزَقَ أهْلَ الجُحود، كيْفَ لا يرْزُقُ أهْلَ اليقينِ والشُّهود؟! إذا كانَ أجْرَى رِزْقَهُ علَى أهْلِ الكُفْران، كيْفَ لا يُجْريهِ على أهْلِ الإيمان؟!

قالَ حاتمٌ[1] لامْرأتِهِ: "أُريدُ السَّفرَ، فكَمْ تحْتاجينَ نفَقَةً أضَعُها لكِ؟ قالَتْ: بقَدْرِ ما تخْلُفُ مِنَ الحَياةِ، قالَ: ما تدْرينَ كمْ تعيشينَ؟ قالَتْ: فكِلْهُ إلى مَنْ يعْلَمُهُ! فلمّا سافَرَ دخَلَ النِّساءُ علَيْها يُظْهِرنَ الاهْتِمامَ والاغتِمامَ بترْكِها بِلا نفَقة، فقالَتْ: إنَّهُ كانَ أكّالًا للرِّزْقِ لا رزّاقًا".

وقالَ المُزيِّن[2]: "أوَّلُ مقاماتِ المعْرفةِ أنْ تعْرِفَ أنَّ اللهَ أوَّلُ كُلِّ شيء، وبهِ يقومُ كُلُّ شيء، وإلَيْه مصيرُ كُلِّ شيء، وعلَيْهِ رِزْقُ كُلِّ شيء".

وإذا كانَ الرِّزْقُ على اللهِ، فلَنا طلَبُهُ مِنْهُ لكِنْ بشَرْطِ عدَمِ الضَّجَرِ واليَأْسِ إذا تأخَّرَ، كما اسْتَدرَكَهُ بقَوْلِهِ:

---

(١) العارف أبو عبدالرحمن حاتم بن عنوان بن يوسف الزاهد الأصم من أهل بلخ، صحب شقيقا البلخي، له في التوكل شأن عجيب، وله كلام يُدوَّن في الزهد والحِكم، وأخذ عنه علماء هذا الطريق، تُوفِّي سنة ٢٣٧. طبقات الصوفية للسلمي (ص ٨٦)، وتاريخ بغداد (٢٣٦/٨)، وفيات الأعيان (٢٦/٢).

(٢) أبو الحسن علي بن محمد المزيِّن البغدادي، صحب الجنيد وسهل بن عبد الله، وكان من أورع المشايخ وأحسنهم حالا، أقام بمكة مجاورا وتُوفِّي بها سنة ٣٢٨. طبقات الصوفية (ص٢٨٩) وتاريخ بغداد (٧٢/١٢)، وصفة الصفوة (٤٤٢/١).

٦. لا يكُنْ تأخُّرُ أمَدِ العَطاءِ معَ الإلحاحِ في الدُّعاءِ موجبًا ليأسِكَ، فهوَ إنَّما ضَمِنَ لكَ الإجابةَ فيما يختارُ لَكَ، لا فيما تختارُ لنفْسِكَ، وفي الوقتِ الذي يُريدُ، لا في الوقتِ الذي تُريدُ.

(**لا يكُنْ تأخُّرُ أمَدِ العَطاءِ**) أي: زَمَنِه ومُدَّتِهِ (**معَ الإلحاحِ في الدُّعاءِ موجبًا ليأسِكَ، فهوَ إنَّما ضَمِنَ لكَ الإجابةَ فيما يختارُ لكَ**) ممّا يعْلَمُ أنَّهُ لا يُصْلِحُكَ إلّا هوَ، (**لا فيما تختارُ لنفْسِكَ**) رحْمةً بكَ؛ فقَدْ تُحِبُّ ما يضُرُّك وتكْرَهُ ما يسُرُّك، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فلا تختَرْ -كما قال الشاذليُّ[١]- مِن أمْرِكَ شيئًا، واختَرْ أنْ لا تختار، وفِرَّ مِنْ ذلكَ المُخْتار، ومِنْ كُلِّ شيءٍ إلّا الوَهّابَ الغفّار، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

فهوَ سُبْحانَهُ ضَمِنَ لكَ الإجابةَ فيما تختار، إمّا في الآخِرةِ أو في هذهِ الدّار، بعَيْنِ المطلوب، أو بعِوَضٍ أصْلَحَ مِنَ المرغوب، فلا تيْأَسْ لتَأخُّرِ العَطاء، ولازِمِ الطَّلَبَ ينكَشِفْ لكَ الغطاء؛ فالإجابةُ واقعةٌ قطْعًا؛ لكنَّها قدْ تكونُ بإعْطاءِ عيْنِ المسْئولِ، وقدْ تكونُ بإعْطاءِ عِوَضٍ أصْلَحَ، كدَفْعِ نِقْمةٍ أو حُصولِ نِعْمةٍ، وقدْ تُؤخَّرُ للآخِرة، كما نطَقَتْ بهِ أخْبارٌ فاخِرة، منْها

(١) الشيخ الإمام حُجَّة الصوفية أستاذ الأكابر أبو الحسن عليُّ بن عبد الله بن عبد الجبّار بن تميم بن هرمز الشاذلي المغربي، نسبةً إلى شاذلة قرية بالقرب من تونس، نزيل الإسكندرية، وشيخ الطائفة الشاذلية، ولد سنة ٥٩١، وتتلمذ على العارف عبدالسلام ابن مشيش، ومن أشهر تلاميذه العارف أبو العباس المرسي دفين الإسكندرية، وله كلامٌ عال في طريق القوم والدلالة على الله نقله عنه أصحابه، وله أحزاب وأوراد مشهورة، وأفرد سيرته بالتصنيف جماعة، منهم: ابن عطاء الله في كتابه "لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن"، وأحمد بن محمد ابن عياد في " المفاخر العلية في المآثر الشاذلية"، ومن المعاصرين الشيخ عبدالحليم محمود في "المدرسة الشاذلية"، حجَّ مرات، وتُوفِّي بصحراء عيذاب، فدُفن هناك، ومشهده معروفٌ يُزار، وعليه ما عليه من الأنوار، تُوفي أول ذي القعدة سنة ٦٥٦. انظر: "الوافي بالوفيات" للصفدي (٢١/١٤١-١٤٢)، و"طبقات الأولياء" لابن الملقن (١/٤٥٨)، و"لطائف المنن" لابن عطاء الله.

خبرُ مُسلم: (ما مِنْ عبْدٍ يدْعو اللهَ بدَعْوةٍ ليْسَ فيها قطيعةٌ ولا إثمٌ، إلّا أعْطاهُ اللهُ إحْدى ثلاثٍ: إمّا أنْ تُعَجَّلَ لهُ دعْوَتُهُ، وإمّا أنْ يدَّخِرَها لهُ في الآخرةِ، وإمّا أنْ يدْفَعَ عنْهُ مِنَ البَلاءِ بقَدْرِهِ)[1].

وجاءَ في بعْضِ الآثارِ أنَّ عبْدًا يُبْعَثُ فيقولُ اللهُ لهُ: ألمْ آمُرْكَ برَفْعِ حوائِجِكَ إليَّ، فيقولُ: رَفَعْتُها، فيقولُ اللهُ: ما سأَلْتَ شيْئًا إلّا أجَبْتُكَ، لكِنْ نَجَزْتُ البَعْضَ في الدُّنْيا، والبَعْضُ مُدَّخَرٌ لكَ، فخُذْهُ الآنَ، فيقولُ العَبْدُ: ليْتَهُ لمْ يَقْضِ لي حاجةً في الدُّنْيا.

نعَم! ويكْفي الدّاعي عِوَضًا ما أُلهِمَهُ مِنْ مُناجاةِ اللهِ، والطَّلَبِ منْهُ، والضَّراعةِ إليْهِ، بذُلِّ انْكِسارِهِ، وخُضوعِ افْتِقارِهِ، بلْ هذا عَيْنُ العَطاءِ.

(و) إذا أجابَكَ بإعْطاءِ عيْنِ المسئولِ، فإنَّما ضَمِنَ لكَ الإجابةَ **(في الوقْتِ الذي يُريدُ)** هوَ **(لا في الوَقْتِ الذي تُريدُ)** أنْتَ؛ فالإجابةُ المُطْلَقةُ حاصلةٌ لِكُلِّ داعٍ لا تتخَلَّفُ، وتأْخيرُ العَطاءِ ليْسَ علامةُ الرَّدِّ؛ لأنَّ وعْدَهُ لا يُخْلَفُ، وقدْ كانَ بيْنَ دُعاءِ موسَى وغَرَقِ فِرعَون أربَعون عامًا. وقدْ يُؤذِنُ تأخيرُ العَطاءِ بسُموِّ مقامِ الدّاعي، لما رويَ عَنْ يَحْيَى بنِ سعيدٍ[2] قالَ: "رأيْتُ ربَّ العِزّةِ في النَّوْمِ، فقُلْتُ: يا ربُّ، كمْ أدْعوكَ فلَمْ تسْتَجِبْ لي، قالَ: أُحِبُّ أنْ أسْمَعَ صوْتَكَ".

والدُّعاءُ يوجِبُ الحُضورَ، وقضاءُ الحاجةِ يوجِبُ الانْصِرافَ، والمُقامُ على البابِ أتَمُّ مِنَ الانصِرافِ؛ وقدْ عَدُّوا مِنْ شُروطِ الدُّعاءِ عدَمَ الاستِعْجالِ، وجاءَ بهِ الخَبَرُ عنْ سيِّدِ البَشَرِ[3]، فلا تكُنْ مِمَّنْ يطْلُبُ الشَّيءَ قبْلَ أوانِه، فتُعاقَبَ بحِرْمانِه.

---

(١) لم أجده في مسلم، وأخرجه ابن أبي شيبة (٢٩١٧٠)، وأحمد (١١١٣٣)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٧١٠)، وأبو يعلى (١٠١٩)، والحاكم (٤٩٣/١) وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، وصحَّحه الحاكم. وفي الباب عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) الإمام الكبير، أمير المؤمنين في الحديث، أبو سعيد يحيى بن سعيد بن فروخ القطان التميمي البصري، ثقة متقن حافظ إمام قدوة، قال الإمام أحمد: "ما رأت عيناي مثله"، تُوفِّي سنة ٩٨. الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٩٣/٧)، وتاريخ بغداد للخطيب (١٤٠/١٤)، وصفة الصفوة (٢١٧/٢)، سير أعلام النبلاء (١٧٥/٩).

(٣) متفقٌ عليه، أخرجه البخاريُّ (٦٣٤٠)، ومسلمٌ (٢٧٣٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: (يُستجابُ لأحدكم ما لم يَعْجَل، يقول: دعوتُ فلم يُستجَبْ لي).

وقدْ تتخَلَّفُ الإجابةُ لفَقْدِ بعْضِ الشُّروطِ أو الأرْكانِ أو الآداب، وعدَمِ السُّلوكِ لمِنْهاجِ الصَّواب، فرُبَّ داعٍ لا يُسْمَعُ لهُ خِطاب، ولا يُلبَّى بكَلام ولا جواب، كما نصَّ علَيْهِ في الحديثِ بقَوْلِهِ: (فأنَّى يُستَجابُ له، ومطْعَمُهُ حرامٌ وملْبَسُهُ حرامٌ)[1].

قالوا: قَحطَ بنو إسرائيلَ سبْعَ سِنينَ وهُمْ يسْتَغيثون فلا يُسْقَوْنَ، فأوْحَى اللهُ إلى موسى: (كيْفَ أسْتَجيبُ لهُمْ وقدْ أظلَمَتْ عليهِمْ ذُنوبُهُمْ)[2].

فعلَى العبْدِ الاستعْدادُ للإجابةِ بتَزكيةِ النَّفْسِ والإنابة، وليحذَرْ أنْ يكون حالَ دُعائِهِ ممَّنْ قُضيتَ حاجَتُهُ لكَراهةِ اللهِ لهُ لا لمحبَّتِهِ، وهذا قدْ غلَطَ فيهِ جمْعٌ جمٌّ، حتَّى ترَى المُتَنَسِّكَ إذا نَسَكَ مُدَّةً وتوجَّهَ فيها لأمْرٍ، فيحْصُلُ، يظُنُّ أنَّهُ مِنَ الخَواصِّ وأهْلِ حضْرةِ الاخْتِصاصِ المُجابِ دُعاؤُهُمْ، وما علَم أنَّهُ اسْتِدْراجٌ خالِص، بسَبَبِ تعْجيلِ حظِّهِ النّاقِص، وقدْ عَجَّلَ لإبليسَ الإجابةَ بُغْضًا لهُ لا محبةً.

تنْبيهٌ: قالَ بعْضُ المُرْشِدينَ: "دواءُ مَنْ رأَيْتَهُ يتَسخَّطُ إذا سأَلَ فلَمْ يُعْطَ، أنْ يُقالَ لهُ: أنْتَ حُرٌّ أمْ عبْدٌ؟ فإنْ قالَ: حُرٌّ لسْتُ بعَبْدٍ له، قيلَ لهُ: كفَرْتَ، وإنْ قالَ: عبْدٌ، قُلْ لهُ: العبْدُ لا اخْتيارَ لهُ معَ سيِّدِهِ، إنَّما يدْعوهُ عُبوديّةً وهوَ يفْعَلُ ما يشاءُ، فإنْ لم يرجِعْ فقُلْ لهُ: أمتَّهِمٌ ربَّكَ في كمالِ حِكْمتِهِ وعِلْمِهِ بأحْوالِ عبْدِهِ؟! فإنْ اتَّهَمْتَهُ كفَرْتَ، وإنْ كانَ ولا بُدَّ فاتَّهِمْ نفْسَكَ الأمّارَةَ العاصيةَ".

وحيْثُ عرَفْتَ أنَّ وعْدَهُ تعالَى أصْدَق، لكنَّهُ يفْعَلُ بكَ ما هوَ الأوْفَقُ الأرْفَق، فلا يكُنْ عِنْدَكَ في وعْدِهِ احْتِمال، فتسْقُطُ مِنْ درَجةِ الكَمال، كما قالَ:

***

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، وفيه: (ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: "يا رب، يا رب" ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟).

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء (٣٤١/٤).

٧. لا يُشككَنَّكَ في الوَعْدِ الصّادقِ عدَمُ وُقوعِ الموعودِ وإنْ تعيَّنَ زمَنُهُ، لِئَلّا يكونَ ذلِكَ قَدْحًا في بصيرتِك وإخْمادًا لنورِ سَريرتِك.

(**لا يُشككَنَّكَ في الوَعْدِ الصّادقِ**) مِنَ الصّادقِ أو خليفَتِهِ (**عدَمُ وُقوعِ الموعودِ وإنْ تعيَّنَ زمَنُهُ**)، فقَدْ يكونُ عدَمُ وُقوعِهِ في ذلِكَ الزَّمنِ أوْفَقَ، أو يكونُ برز في الملَكوتِ لا المُلكِ لكونِهِ أرْفَقَ، فتأدَّبْ معَ ربِّك، واحرِصْ على لِسانِكَ وقلْبِك، واعْتَقِدْ أنَّ تأخُّرَ الموعودِ لا يقْتَضي نُكْرا، وقدْ يكونُ مُعلَّقًا عِنْدَهُ بما لَمْ تُحِطْ بهِ خُبْرا. ولهذا السِّرِّ الذي قدْ تقرَّرَ وتمَهَّدَ، قالَ المُصطَفى ﷺ يوْمَ بدْرٍ: (إنَّكَ إنْ تُهلِكْ هذهِ العِصابةَ لنْ تُعْبَدَ)[1].

فدَافِعْ ما يرِدُ مِنَ الشُّكوكِ على سريرتِك، (**لِئَلّا يكونَ ذلِكَ**) التَّشكُّكُ (**قَدْحًا**) أي: قادِحًا (**في بصيرتِك**) لوُقوفِكَ معَ الظّاهِرِ ببَادي عقْلِكَ القاصِرِ، (**وإخْمادًا لنورِ سَريرتِك**) لأنَّ الشَّكَّ إذا حصَلَ اخْتَلَّ اليَقين، وإذا اخْتَلَّ ذهَبَ نورُهُ المُبين، الذي فتحَ عيْنَ البَصيرة، حتّى اسْتَنارَتِ السَّريرة.

فمُرادُهُ: لا ترتَكِبْ هذا المَحْذورَ الذي هوَ شأْنُ الجُهّال، فتخْرُجَ مِنْ نورِ الجَمالِ إلى قبيحِ الخِصال، فتنْقُصُ إضاءةُ قلْبِك، ويَنْطَفِئ نورُ يقينِ لُبِّكَ بربِّك.

قالَ بعْضُهم: "وتعْيينُ الزَّمنِ إنَّما يكونُ على لِسانِ الرَّسولِ، وقدْ فُرِغَ مِنْهُ الآنَ، لكنَّ أرْبابَ القُلوبِ يسْمَعون هواتِفًا بآذانِ قُلوبِهِمْ تارةً بصوْتٍ وحرْفٍ، وتارةً بحِسٍّ أخْفَى وألْطَفِ مِنَ الهمْزِ، يُسمّونَهُ إلهامًا، ويكونُ يقَظةً ومنامًا".

تنْبيهٌ: قالَ ابْنُ عربي في الكَلامِ علَى قوْلِهِ ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]: "هُنا شيءٌ أُثْبِتُهُ لِما يُرى في الواقِعِ مِنْ عدَمِ الإجابةِ لكَثيرٍ، وذلِكَ أنَّهُ أخْبَرَ أنَّهُ يُجيبُ دعْوةَ الدّاعي، وما دُعاؤُهُ إيّاهُ إلّا عيْنُ قوْلِهِ حينَ يُناديهِ باسْمٍ مِنْ أسْمائِهِ فيَقولُ: يا اللهُ، أو: يا ربُّ،

(١) أخرجه مسلم مطوَّلًا (١٧٦٣)، وغيره من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

فالدُّعاءُ نداءٌ، وإجابةُ هذا القدْرِ -الذي هوَ الدَّعْوةُ وبِها سُمّيَ داعيًا- أنْ يُلبِّيَهُ الحقُّ فيقولَ: لبَّيكَ، فهذا لا بُدَّ منْهُ منَ اللهِ في حقِّ كُلِّ سائلٍ؛ ثُمَّ ما يأتي به بعْدَ النِّداءِ فهوَ خارجٌ عَنِ الدُّعاءِ، وقدْ وقَعَتِ الإجابةُ كما قالَ؛ ويُوصِلُ بعْدَ النِّداءِ منَ الحَوائجِ ما شاءَ، فلم يضْمَنْ إجابَتَهُ فيما سأَلَ، بلْ إمَّا تُقضَى حاجَتُهُ أوْ لا، رحْمةً به؛ فقَدْ يسْأَلُ ما لا خيْرَ لهُ فيه، بلْ ما يترَتَّبُ عليْهِ هلاكُهُ منْ حيْثُ لا يشْعُرُ، وهذا غايةُ الكَرَمِ".

***

٨. إذا فتَحَ لكَ وِجْهةً مِنَ التَّعرُّفِ فَلا تُبالِ معَها أنْ قَلَّ عمَلُكَ، فَمَا فتَحَها علَيْكَ إلّا وهوَ يُرِيدُ أنْ يتعرَّفَ إلَيْكَ، أَلَمْ تعْلَمْ أنَّ التَّعرُّفَ هوَ مورِدُهُ علَيْكَ، والأعْمالَ أنْتَ مُهْدِيها إليهِ، وأيْنَ ما تُهْدِيهِ إلَيْهِ مِمّا هوَ مورِدُهُ علَيْكَ؟!

(**إذا فتَحَ لكَ وِجْهةً مِنَ التَّعرُّفِ**) به بمَعْرِفةِ أسْمائِهِ وصِفاتِهِ، أو بما يُضادُّ مُرادَكَ ويمْنَعُ أوْرادَكَ، ويُشْعِرُكَ بقُدْرتِهِ ويُعْلِمُكَ بقَهْرِهِ وقوَّتِه، كمرَضٍ وبلاءٍ ونحْوِ ذلكَ همًّا وغمًّا، يُفوِّتُ العمَلَ الظّاهِرَ، (**فَلا تُبالِ معَها أنْ قَلَّ عمَلُكَ**) فإنَّهُ تعالَى يُريدُ تطْهيرَكَ مِنْ دَنَسِكَ، وخُلوصَكَ مِنْ غِشِّكَ، فإنَّ المصائبَ والآلام، مُكفِّراتٌ للذُّنوب بلا كَلام، كما وردَ عنْهُ علَيْهِ السَّلام(١)، (**فما فتَحَها علَيْكَ**) سالِكًا بكَ مسْلَكَ المُقرَّبين، المُؤدّي إلى حقائقِ التَّوحيدِ واليَقين، (**إلّا وهوَ يُريدُ أنْ**) يُقبِلَ علَيْكَ و(**يتعرَّفَ إلَيْكَ**)، لنهْجِهِ بكَ مِنْهاجَ الخَواصِّ وأهْلِ الاخْتِصاص.

فإذا فتَحَ لكَ بابًا مِنَ المعْرفةِ بجَنابِه، فقد أهَّلَكَ لِتكون مِنْ أحبابِه؛ فإنَّ المعْرِفةَ أوَّلُ المواهِبِ ونِهايةُ الطّالِبِ والمطالِبِ؛ فعِنْدَ ذلِكَ لا تُبالِ بقِلّةِ العمَلِ، وهُمومِ الزَّلَلِ، فإنَّهُ ما فتَحَ لكَ ذلكَ

(١) من ذلك ما هو متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٦٦٠)، ومسلمٌ (٢٥٧١)، وغيرهما من حديث عبدالله ابن مسعود رَضِيَاللهُعَنْهُ مرفوعًا بلفظ: (ما من مسلم يصيبه أذى، مرض فما سواه، إلا حط الله له سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها).

الباب، إلَّا وقدْ أرادَكَ للقُرْبِ مِنْ ذلكَ الجَناب، وهُنالكَ يتعرَّفُ إليْكَ بأنْواعِ التَّكريم، ويُهْدي لجَنابِكَ ما لَمْ تكُنْ بِهِ عليم.

(**أَلَمْ تعْلَمْ أنَّ التَّعرُّفَ هوَ موردُهُ عليْكَ**)، وما منْهُ لا يدْخُلُهُ الخَلَلُ ولا يُبْطِلُهُ الزَّلَلُ، (**والأعمالُ أنتَ مُهْديها إليْهِ**)، وما مِنْكَ محَلُّ كُلِّ عيْب، ومعْدَنُ كُلِّ رَيْب، (**وأيْنَ ما تُهْديهِ إليْهِ**) مِنْ عمَلِكَ المغْلول، وحالِكَ المدْخول، (**مِمَّا هوَ موردُهُ عليْكَ**) مِنَ المعارِفِ والعُلوم، والمواهِبِ والفُهوم؛ فالأعْمالُ أنْتَ مُهْديها، والتَّعَرُّفُ وارداتُهُ التي يُبْديها، وأيْنَ ما يوْرِدُهُ مِنَ المواهِبِ إليْك، مِنْ أعْمالِكَ العائدةِ عليْك؟! فشتّانَ ما بيْنَهُما، كيْفَ وبيْنَهُما في الحُكْمِ ما بيْنَكُما في الوَصْفِ، ربٌّ وعبْدٌ كيْفَ يشْتَبِهان؟! فالعمَلُ الذي تُهْديهِ إليْهِ -وإنْ علا- لا يُقاوِمُ نتيجةَ ما يُهْديهِ إليْكَ مِنَ البَلاءِ؛ ومِنْ ثَمَّ كانَ فرَحُهُمْ بِهِ أعْظَمُ منْهُ بالنِّعْمةِ.

قالَ التّونسيُّ[1]: "شأنُ أهْلِ الطَّريقِ كثْرةُ الأعْمالِ في الابْتداءِ، فإذا فتَحَ الحقُّ لهُمْ باباً مِنْ أبْوابِ التَّعرُّفِ بهِ شغَلَهُمْ بِهِ عَنْ أكْثَرِ العمَلِ، فيظُنُّ السّالِكُ تخلُّفَه عَنِ السَّيْرِ معَ أنَّهُ في عُروجٍ؛ فإذا لاحَ لهُ بارِقُ الفَناءِ عَنِ الأوْصافِ البشَرِيَّةِ، وأُذِنَ لهُ في دُخولِ دِهْليزِ حضْرةِ البَقاءِ، سمِعَ ما لَمْ يكُنْ يسْمَعُهُ، ورأى ما لَمْ يرَهُ حالَ التَّعبُّدِ مِنَ الأنْوارِ والأسْرارِ، فيشْتَغِلُ بالمُشاهَدةِ عمّا كانَ فيهِ مِنْ مباعِثِ العِبادةِ، فيقولُ مَنْ لَمْ يفهَمْ مقاصِدَ الطَّريقِ: سُلِبَ فُلانٌ، وما درَى أنَّهُ ارْتَقى لمقامِ الفناءِ الموصِلِ للبقاءِ، والأخذِ عَنْ حالةِ الأعْمالِ إلى أوَّلِ مُشاهدةِ الجَمالِ، وهوَ المُعبَّرُ عنْهُ عِنْدَهُمْ بفَتْقِ الرَّتْقِ، أي: كانَ بابُ المعْرِفةِ مُنْطبِقًا فانْفتَحَ، فنزَلَتْ علَيْهِم الوارِداتُ، فأيْنَ ما يورِدُهُ الحقُّ عليهِمْ ويُتْحِفُهُمْ بِهِ مِنْ جميلِ التَّعرُّفاتِ، مِمّا يُهْديهِ إليْهِ العامِلُ مِنْ صُنوفِ العِباداتِ؟! شتّانَ بيْنَ خاطِبٍ ومخْطوب، ومُحِبٍّ ومحْبوب".

***

(١) أبو المواهب محمد بن أحمد بن محمد بن داود بن سلامة، أبو عبد الله اليزلتيني التونسي المغربي ثم القاهري المالكي، ويعرف بابن زغدان، له: شرح الحكم لابن عطاء، ورسالة في جواز السماع، ورسالة قوانين حكم الإشراق إلى صوفية جميع الآفاق، وديوان شعر سماه مواهب المعارف، وعدة أحزاب وغير ذلك. توفي سنة ٨٨٢. الضوء اللامع للسخاوي (٧/٦٦)، والشذرات لابن العماد (٩/٥٠٢).

٩. تنَوَّعَتْ أجناسُ الأعمالِ بِتنَوُّعِ وارِداتِ الأحوالِ.

(**تنَوَّعَتْ أجناسُ الأعمالِ**) الظّاهِرةِ مِنْ إيمانٍ وكُفران، وطاعةٍ وعِصيان، وإساءةٍ وإحسان، ورغبةٍ وزَهادة، وكسَلٍ وعِبادة، وإقْبالٍ وإدْبار، ومعْرِفةٍ وإنْكار، إلى غيْرِ ذلِكَ مِنْ تنَوُّعاتِ مظاهِرِ الأعْمالِ في العُمّالِ، (**بِتنَوُّعِ وارِداتِ الأحوالِ**) الباطِنةِ التي ترِدُ علَى القُلوبِ مِنَ المعارِفِ الرّبّانيّةِ والأسْرارِ الرُّوحانيّة.

يعْني: تنَوُّعُها فرعُ تنَوُّعِ الأعمالِ القلبيّة؛ لأنّها ناشِئةٌ عنها، فالأعمالُ تابِعةٌ أبدًا لأحوالِ القلْبِ، كما بيَّنَهُ قولُهُ الآتي: "حُسْنُ الأعْمالِ نتائِجُ حُسْنِ الأحْوالِ"(١)، فالقَلْبُ هوَ المُتلَقّي ما يرِدُ مِنْ غيْبِ اللهِ وقدَرِهِ المحْكومِ بهِ على العبْدِ مِنْ خيْرٍ وشرّ، ونفْعٍ وضُرّ.

فتنوُّعُ أجْناسِ الأعْمالِ نتيجَتُهُ توافرُ أنْواعِ الكَمالاتِ؛ فلكُلِّ عمَلٍ أثَرٌ وارِدٌ، كما يُدرِكُهُ كُلُّ سالِكٍ مُشاهِدٍ.

وفي معْنَى هذا الشُّهودِ اسْتَغْرَقَ مَنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصّوفيّة، واخْتَلَفوا في اسْتِغْراقِهِمْ بحَسَبِ ما غَلَبَ علَى كُلٍّ مِنْهُمْ مِنَ الحالِ المُتجلّي فيهِ، فمَنْ غلَبَ علَيْهِ حُبُّ الآخرةِ أكْسَبَهُ الزُّهْدَ، أوِ الارْتِقاءُ إلى مَنازِلِ القُرْبِ أكْسَبَهُ الورَعَ، أوْ حُبُّ الكَشْفِ والاطِّلاعِ أكْسَبَهُ دَوامَ الرّياضةِ والذِّكْرِ، أوِ الجَلالُ أكْسَبَهُ الخَوْفَ والهَيْبةَ، أوِ الجَمالُ أكْسَبَهُ الرَّجاءَ والأُنْسَ، أو الحياءُ أكْسَبَهُ المُراقَبَةَ، أوِ الرِّضا أكْسَبَهُ الطُّمَأْنينةَ والسُّكونَ، أوِ الكَمالُ غلَبَ علَيْهِ المعْرِفةُ.. إلى غيْرِ ذلِكَ مِنَ التَّنوُّعاتِ.

وفي البِدايةِ يُعبَّرُ عَنْها بالتَّلْوينِ، وفي النِّهايةِ بالتَّلْوينِ في التَّمْكينِ، حتَّى يُصْبِحَ أحَدُهُمْ كُلَّ يوم في طَوْرٍ وزيٍّ؛ لأنَّهُمْ كُلّما تجَلّى لهُمُ الحَقُّ بتَعَرُّفٍ مِنَ الأوْصافِ أظْهَروا ما ناسَبَهُ مِنَ الاتِّصافِ، وِفاقًا بيْنَ عالَمَيِّ الغَيْبِ والشِّهادةِ، والمُلْكِ والمَلَكوتِ.

---

(١) انظر الحكمة رقم ٤٦ ص ١٢٧.

تنبيهٌ: قالَ بعْضُ الأبْدالِ: "سأَلْتُ اللهَ أنْ يُطْلِعَني على أعْمالِ العِبادِ، فرأَيْتُ صورَ الأَعْمالِ تنْزِلُ علَيْهِمْ، فيَعْملُ كُلٌّ بحَسبِ ما ينْزِلُ علَيْهِ"، وقالَ بعْضُهم: "رأَيْتُ سلاسِلَ بالأعْناقِ تقودُهُم لِما أُريدَ منْهُمْ".

و"الوارِداتُ" جمْعُ "وارِد"، وهوَ ما يَرِدُ على القَلْبِ مِنَ المعارِفِ الإلَهيّةِ والأَسْرارِ الرّوحانيّةِ.

فائدةٌ: العِلْمُ إمّا أنْ يُفيدَ بعْثًا على العَمَلِ وحثًّا علَيْهِ، أوْ كيْفيّةَ العَمَلِ ووجْهَهُ، أو أمرًا وراءَ ذلكَ خبَريًّا يهْوِي إلَيْهِ؛ فالأوَّلُ: عِلْمُ الوَعْظِ والتّذْكيرِ، والثّاني: عِلْمُ المُعامَلةِ والعُبوديّةِ، والثّالِثُ: عِلْمُ المُكاتَبةِ؛ والأوَّلُ يدورُ علَى قوْلِهِ تعالَى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، والثّاني على: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، والثّالِثُ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، و(مَنْ عَمِلَ بِما عَلِمَ، ورَّثَهُ اللهُ عِلْمَ ما لمْ يعلَمْ)(١)، ولا يُنافيهِ: (إنّما العِلْمُ بالتّعلُّمِ)(٢)؛ لأنَّهُ في الأصْلِ لا في الفَرْعِ.

***

١٠. الأعْمالُ صوَرٌ قائِمةٌ، وأرْواحُها وُجودُ سِرِّ الإخْلاصِ فيها.

(الأعْمالُ) العِلميّةُ والعَمَليّةُ **(صوَرٌ قائِمةٌ)** أيْ: أشْباحٌ بلا أرْواحٍ، **(وأرْواحُها)** التي بِها حياتُها وصَلاحُها **(وُجودُ سِرِّ الإخْلاصِ فيها)** فبِفَقْدِهِ تصيرُ ميتةً ذاهِبةَ الآثارِ، ساقِطةً عَنْ درَجةِ الاعْتِبارِ.

وسِرُّهُ هوَ الصِّدْقُ المُعبَّرُ عنْهُ عِنْدَ أهْلِ الفُتوّةِ بالتّبرُّءِ مِنَ الحَوْلِ والقوّةِ؛ فالأعْمالُ أعراضٌ،

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية (١٠/١٥) قال: "ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين، عن عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ، فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل".

(٢) جزء من حديث أخرجه البزار (٢٠٥٥)، وغيره من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا. وقال الهيثمي في المجمع (١/١٢٩): "رواه البزار في حديث طويل، ورجاله موثقون"، وفي الباب عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

جواهِرُها مقاصِدُ العُمّال، إذْ بِها النَّقْصُ كما أنَّ بِها الكَمال، وكُلُّها دائِرةٌ على الإخْلاص، كما يعلمُهُ أهْلُ حضْرةِ الاخْتِصاص، فجاهِدْ لتَصِلَ إلى هُداك، وتكُنْ مِمَّنْ يعْبُدُ اللهَ كأنَّكَ تراهُ، فإنْ لمْ ترَهُ فإنَّهُ يَراك.

وعلامةُ المُخْلِصِ أنْ لا يتَغَيَّرَ بالامْتِحان، بعْدَ وُرودِ نِعَمِ الامْتِنان؛ فإذا رأَيْتَ مَن اسْتَوَى عِنْدَهُ العَدوُّ والحَبيب، فذاكَ الخالِصُ المُخْلِصُ القَريب، ومَنْ أفْرَدَ الحقَّ بالطّاعة، كانَ المُخْلِصَ عِنْدَ الجَماعة؛ وإخْلاصُ المُخْلِصِ يظْهَرُ بحاله، دون ترْجمةِ قاله، ومَنْ رأَيْتَهُ يحْرِصُ على ظُهورِ قبائِحِهِ الخسيسة، ويكْتُمُ أحْوالَهُ السَّنيّةَ النَّفيسة، فاسْتَدِلَّ بذَلِكَ على مقامِ اخْتِصاصِه، وعُلوِّ درَجَتِهِ في إخْلاصِه، وإذا رأيْتَ مَنْ إذا أُثْنِيَ علَيْهِ رَكَنَ إلى ذلِك، فاعلَمْ أنَّهُ كذّابٌ هالِك.

والمُخْلِصُ المُحِقُّ لا يخْفَى حالُهُ على الخاصَّةِ النُّقّاد، وإنْ الْتَبَسَ علَى العَوامِّ بحَسَبِ الاعْتِياد؛ لأنَّ ما اسْتُودِعَ في غيْبِ الجَنان، يظْهَرُ على ظاهِرِ الإنْسان، وما عسَى أنْ يكْتُمَ اللِّسان، وقَدْ فضَحَتْهُ فراسةُ الأذْهان، ولابِسُ خِلْعةِ الإخْلاص، مُتوَّجٌ عِنْدَ العَوامِّ والخَواصّ، وذلِكَ بيِّنٌ مفْهوم، وظاهِرٌ حقٌّ معْلوم. وإذا رأَيْتَ نفْسَكَ تكْسَلُ عَنِ التَّعَبُّدِ في الخَلاء، وتنْشَطُ لها في الملإ، فاعلَمْ أنَّكَ بعيدٌ عنِ الإخْلاص، لمْ تَحُمْ حَوْمَةَ الخَواصّ؛ وعلامةُ المُخْلِصِ ازْدِيادُ نشاطِهِ إذا خلا بالحَقّ، وبَعُدَ عنْ مواطِنِ الخَلْق، وكُلُّ عمَلٍ تعْمَلُهُ لأجْلِ المخْلوقين، يُبْعِدُكَ عنْ ربِّ العالَمين، فأَقِمْ على نفْسِكَ الميزان، وانْظُرْ هلْ أنْتَ في كفّةِ الرُّجْحان؟!

وإخْلاصُ كُلِّ عبْدٍ في أعْمالِهِ بحَسَبِ رُتْبَتِهِ مِنْ نقْصِهِ وكَمالِه:

– فمَنْ كانَ مِنَ الأبْرار، فمُنْتَهَى درجةِ إخْلاصِهِ سلامةُ أعْمالِهِ مِنَ الأغْيار، مِنْ نحْوِ رياءٍ وتصَنُّعٍ وإعْجاب، رغْبةً فيما وُعِدَ بهِ المُخْلِصون مِنْ جزيلِ الثَّواب، ورهْبةً مِمّا أوْعِدَ به المُخلِّطون مِنْ أليمِ العذاب، وهذا مِنَ التَّحقُّقِ بمَعْنَى: "إيّاكَ نعْبُدُ، ولكَ نُصَلّي ونسْجُدُ"(١)، وحاصِلُهُ: إخْراجُ الخَلْقِ عنْ مَرْآه، في أعْمالِ دُنْياهُ وأُخْراه، معَ بقاءِ رُؤْيَتِهِ لنَفْسِهِ في النِّسْبةِ إلَيْها، والرُّكونِ والاعْتِمادِ علَيْها.

(١) من دعاء طويل ورد في حديث مقطوع، أورده الطبراني في كتاب الدعاء [باب القول في قنوت الوتر].

- ومَنْ كانَ مِنَ المُقرَّبين، فقدْ جاوَزَ هذهِ الرُّتْبَةَ بيَقين؛ فإخْلاصُهُ إفْرادُ شُهودِ الحقِّ في الحَركاتِ والسَّكَنات، بغَيْرِ أنْ يرَى لنَفْسِهِ حوْلًا ولا قوَّةً في حالةٍ مِنَ الحالات، وهذا مقامُ الصِّدْقِ الحقيق، الذي يصِحُّ بِهِ مقامُ الإخْلاصِ على التَّحقيق، وصاحِبُهُ مُتحقِّقٌ بمعنَى: "إيَّاكَ نسْتَعين"، أي: لا بأنْفُسِنا وحوْلِنا، بل بِكَ يا مُعين.

وأمَّا إذا رأيْتَ مَنْ يسْكُنُ إلى الخلْقِ ويرْكَنُ إليهم، ويعْتَمِدُ في أحْوالِهِ عليهِم، ويزْعُمُ مقامَ الإخْلاصِ والتَّقْوى، فاحْذَرْهُ فإنَّهُ مِنْ أهْلِ الخِداعِ والأهْواء.

قالَ التّونسيُّ: إذا تجَلَّى الحقُّ للعَبْدِ في صورةِ الاستِدلالِ بالأثَرِ علَى المُؤثِّرِ، فقَدْ أتاهُ في ظُلَلٍ مِنَ غَمامِ الكائِنات، وحجَبَهُ عنْهُ بأسْتارِ التَّطوُّرات، وإذا تجَلَّى لهُ في صورةِ ذاتِه، وخاطبَهُ مِنْ شجَرةِ صِفاتِه، على لِسانِ صاحِبِ شرْعِه بقَوْلِهِ: (مَنْ عرَفَ نفْسَهُ عرَفَ ربَّهُ)[1]، فتَحَ لهُ بابَ الطَّريق، وأدْخَلَهُ دِهْليزَ التَّحْقيق، وإذا تجَلَّى لهُ في صورةِ فناءِ الرُّسومِ والمعالم، والغُنْيةِ بهِ عنْ سائِرِ العَوالم، فقَدْ أباحَهُ الوِصالَ كِفاحا، وناداهُ أقبِلْ ولا تخَفْ صُراحا.

وهذهِ مقاماتٌ ثلاثةٌ: الأوَّلُ إسْلام، والثَّاني إيمان، والثَّالثُ إحْسان، وروحُ صورةِ كُلِّ مقامِ الإخْلاصُ فيه؛ فالإخْلاصُ في مقامِ الإسْلام: تمَحُّصُ القصْدِ مِنْ شائبةِ الشِّرْكِ، وفي مقامِ الإيمان: رُؤيةُ المِنّةِ في المُمْتَنِّ بهِ بسابِقِ العَطا لِكَشْفِ الغطا، وفي مقامِ الإحْسانِ: الفناءُ عنْ أنْ ترَى أنْتَ أو أنا لحُصولِ المُنا وغيْبةِ العَنا.

ثُمَّ العُمّالُ مُختلِفو الأعْمالِ، والإخْلاصُ بحَسَبِ ما أُعْطيَ كُلٌّ مِنَ الدَّرجاتِ، وهيَ في هذهِ الدّارِ صورٌ معْنَويّةٌ، وستكونُ في الآخِرةِ حِسّيّةٌ، يعْرِفُها صاحِبُها في سوقِ المعْرِفةِ، فيدْخُلُ فيها، ومعْرِفَتُهُ لها عمَلُهُ بها، ودُخولُهُ فيها تحلِّيهِ بأنْوارِها وأُنْسِهِ بأشْكالِها، فإنَّهُ يأْتيهِمْ في أحْسَنِ ما يعْهَدونَهُ مِنَ اللُّطْفِ والجَمالِ، بلْ أكْمَلِ ما يتَمَنّونَهُ مِنَ الوِصالِ، وهذا معنَى خبرِ (إنَّ في الجنّةِ

---

(١) ذكر عددٌ من الحفَّاظ أنه ليس بحديث مرفوع، وإنما هو من كلام يحيى بن معاذ الرازي. انظر: "المقاصد الحسنة" للسخاوي (ص٦٥٧، رقم ١١٤٩)، و"الدرر المنتثرة" للسيوطي (ص١٨٥، رقم ٣٩٣)، وغيرهما. وقد ألمح العجلوني في تعليقه إلى أن هذه العبارة لها أصل، حيث ذكر أنه قد ورد في "أدب الدنيا والدين" عن عائشة رضي الله عنها: سئل النبي ﷺ: من أعرف الناس بربه؟ فقال: (أعرفهم بنفسه).

لسوقًا، لا بيْعَ فيها ولا شِراءَ، إلّا الصُّوَرَ)[1]، وأمْرُ الآخِرةِ مبْنيٌّ على خرْقِ العاداتِ، وما وراءَ طَوْرِ العقْليّاتِ والنَّقليّاتِ، فسَقَطَ الاعْتِراضُ بأنَّ الأعْمالَ أعْراضٌ.

تنبيهٌ: قالَ الشَّيْخُ الشَّعْرانيُّ[2] في "الأخْلاق" -كغيْرِها-: "العارفُ يُشاهِدُ أقْوالَهُ وأفْعالَهُ صوَرًا صاعِدةً نَحْوَ السَّماءِ، ويعْرِفُ حَسَنَها مِنْ قبيحِها، ولا يَحْتاجُ في مَعْرِفَتِها إلى تحريرِ وزْنِها على الكِتابِ والسُّنّةِ، فإنَّ الحِسَّ أصْدَقُ شاهِدٍ مِنَ المعاني المفهومةِ، ومَنْ لم يصِلْ هذا المقامَ فليعملْ على عدَمِ الكَذِبِ في أقْوالِهِ، لِتَصْدُقَ رُؤياهُ فيَطَّلِعَ على نقْصِ مقامِهِ بما يراهُ في مَنامِه". هذا كَلامُهُ ولا يَخْفَى ما فيه.

ثُمَّ قالَ -أعْني شيْخَنا الشَّعْراني-: "وكُنْتُ وأنا صغيرٌ إذا غفَلْتُ عَنِ الذِّكْرِ أرَى نفْسي معَ البَهائِمِ، ورُبَّما أنْتَبِهُ وأنا مُعانِقٌ لِلثَّوْرِ، وإنْ صلَّيْتُ بالقُرآنِ كامِلًا في ركْعةٍ، أرَى نفْسي معَ المخبِّطين، فأعْرِفُ أنّي في مقامِ البَهائِمِ لَمْ أصِلْ لمقامِ العارِفينَ، فأُكْثِرُ مِنَ الاسْتِغْفارِ".

تنْبيهٌ: سُئِلَ بعْضُهم: مَنْ كانَتْ بدايتَهُ الإخْلاصُ كالأنْبياءِ، كيْفَ يُقالَ لهُ: اعْبُدِ اللهَ مُخلِصًا؟! فأجابَ بأنَّ إخْلاصَ أهْلِ كُلِّ مقامٍ بحَسَبِ درَجَتِهِ، وخِطابُ الحقِّ بالأمورِ عامٌّ في جميعِ العِبادِ إلّا مَنِ اسْتَثْناهُ الشَّرْعُ؛ فالمؤمنُ يُؤمَرُ بالإخْلاصِ الخالي عَنِ الرِّياءِ، والعارفُ بالإخْلاصِ الخالي عنْ طلَبِ العِوَضِ، والنبيُّ بإخْلاصٍ يدِقُّ عنْ عُقولِنا ذوْقُهُ؛ لأنَّ النُّبوّةَ مبْدَؤُها مِنْ بعْدِ مُنْتهى الوِلايةِ، فلا ذوقَ لوَلِيٍّ في إخْلاصِ نبيٍّ، وإنْ تكَلَّمَ فيهِ بحَسَبِ الإرْثِ، فهوَ كمَنْ

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (١٣٤٣) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء، إلا الصور من النساء والرجال، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها، ...).

(٢) هو الإمام الفقيه الصوفي العارف، أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني، ولُد سنة ٨٩٨هـ، بقلقشنده بمصر، ونشأ بساقية أبو شعرة من قرى المنوفية وإليها نُسب، أخذ عن الشمس الدواخلي، والجلال المحلي، ونور الدين الجارحي، وغيرهم، ويروي عامة عن القاضي زكريا والحافظ السيوطي والكمال الطويل القادري والقلقشندي، وصَحِبَ الخوَّاص والمرصفي والشناوي، وتآليفه كثيرة في علوم الشريعة وآلاتها، منها: البدر المنير في غريب حديث البشير النذير، وكشف الغمة جمع فيه أدلة المذاهب الأربعة، ومختصر الفتوحات المكية، واليواقيت والجواهر، والأخلاق المتبولية، وغيرها. انظر: "الكواكب الدرية للمناوي" (٣/٣٩٢)، و"الكواكب السائرة" للغزي (٣/١٥٨)، و"فهرس الفهارس" للكتاني (٢/١٠٧٩).

يتكَلَّمُ على خَيالِ نُجومِ السَّماءِ في البَحْرِ؛ وأقَلُّ إخْلاصِهِمْ أنْ لا يشْهَدوا أمْرًا في الوُجودِ لغَيْرِ اللهِ، ويسْتَصْحِبونَهُ دائمًا، وهذا يكادُ أنْ لا يكونَ مقْدورًا للبَشَرِ.

ثُمَّ إنَّما تَحْصُلُ حقيقةُ الصِّدْقِ لمَنْ آثَرَ الخُمولَ على الشُّهْرةِ، لمُناقضَتِها للعُبوديَّةِ التي هيَ أعْظَمُ المَطالِبِ، فلذَلِكَ عقَّبَهُ بقَوْلِه:

***

١١. ادفِنْ وُجودَكَ في أرْضِ الخُمولِ، فما نبَتَ مِمّا لَمْ يُدفَنْ لَمْ يتِمَّ نتاجُهُ.

(**ادفِنْ وُجودَكَ**) أي: غيِّبْ ما تُذْكَرُ بهِ مِنَ العُلومِ والأعْمالِ والأحْوالِ والأفْعالِ (**في أرْضِ الخُمولِ**)، بأنْ تتأمَّلَ ما جُبِلْتَ عليْهِ مِنَ المُنقِصاتِ، فلا تعْتَدَّ بما يظْهَرُ منْكَ مِنَ الأحْوالِ والكَراماتِ، وبأنْ تُظْهِرَ لنَفْسِكَ نفْيَ دعْواها، وتَنافُسَها على غوائِلِها وبَلْواها، وتفِرَّ مِنَ الخلْقِ قدْرَ الإمْكانِ، وتسْتُرَ عنْهُمْ حالَكَ كيْفَ ما كانَ.

والخُمولُ ضِدُّ الشُّهْرةِ، ويُعبَّرُ عنْهُ بمَقامِ الإخْفاءِ، (**فما نبَتَ**) بعْدَ دفْنِه تَمَّ نتاجُهُ، وما نَبَتَ (**مِمّا لمْ يُدفَنْ**) في أرْضِه (**لمْ يتِمَّ نتاجُهُ**) وإنْ ظهرَ نورُهُ وابتِهاجُهُ، فكذا ما ظهرَ مِنَ الأعْمالِ وما بطَنَ؛ فالتَّغيُّرُ الهوائيُّ يُسرِعُ لكُلِّ ظاهِرٍ، حِسًّا في الحِسِّيِّ ومعنًى في المعْنَويِّ، وشاهِدُهُ قوْلُ عيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لصَحْبِه: "أينَ تنبُتُ الحبَّةُ؟ قالوا: في الأرْضِ، قالَ: فكذا الحِكمةُ، إنَّما تنْبُتُ في قلْبٍ مِثْلِ الأرْضِ"، ولهذا قالَ المرسي: "مَنْ أرادَ الظُّهورَ فهوَ عبْدُهُ"، فلا بُدَّ للمُريدِ مِنْ إسْقاطِ جاهِهِ، وإخْمالِ ذِكْرِهِ ليُحِبَّهُ اللهُ ويرْفَعَ مِنْ قدْرِهِ. قالَ سيِّدُ الأوْلياءِ ﷺ: (إنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنْ عِبادِهِ الأصْفياءِ الأخْفياءِ)[1].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٨٩)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٧٩٨)، والطبراني في الأوسط (٤٩٥٠)، والكبير (٢٠/رقم ٥٣)، والحاكم (٤/١)، وغيرهم من طرق عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: "إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء..."، وصححه الحاكم.

فطوبَى لِكُلِّ تَقيٍّ نقيٍّ خامِل، الذي سلَمَ مِنْ إشارةِ الأنامِل، وتعسًا لِمَنْ قعَدَ في الصَّوامِعِ والجَوامِعِ والمَجامع، ليُشارَ إلَيْه بالأكُفِّ والأصابع، خزائنُ الأمناءِ مكْتومة، وكُنوزُ الأوْلياءِ مخْتومة، والكامِلُ كامِنٌ يتطامَنُ، والناقِصُ قصيرٌ يتَطاوَلُ، والعاقِلُ قُبَعةٌ، والجاهِلُ طُلَعةٌ[1]، فاقبَعْ قُبوعَ الحيّاتِ، واكْمُنْ في الظُّلُماتِ كما الحياة، وصُنْ كنْزَكَ في التُّراب، وسيْفَكَ في القِراب؛ فالنباهةُ فِتْنةٌ، والوَجاهةُ مِحْنةٌ، فكُنْ كنْزًا مستورا، ولا تكُنْ سيْفًا مشْهورا، ولوْ عرَفَ الجَدلُ صوْلَةَ البُخارِ وعضّةَ المِنْشارِ، لما تطاوَلَ شِبْرًا، وما تخايَلَ كِبْرًا، وسيَقولُ البُلْبُلُ المُغرِّدُ ليْتَني كُنْتُ غُرابًا، ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠].

ثُمَّ الخُمولُ عِنْدَ القَوْمِ واجبٌ في ابْتداءِ السُّلوكِ، محْبوبٌ بعْدَهُ، ومِنْ ثَمَّ قالوا: الخُمولُ نِعْمةٌ وكُلُّ النّاسِ تأباهُ، والظُّهورُ نِقْمةٌ وكُلُّ النّاسِ يتَمَنّاهُ، والظُّهورُ قطعُ الظُّهورِ، وليْسَ في الخُمولِ عار، بلْ هوَ غايةُ الفَخار، والنَّجاةُ مِنَ الأشْرار.

ليْسَ الخُمولُ بعارٍ * على امْرِئٍ ذي كمالِ
فليْلةُ القدْرِ تخْفَى * وتِلْكَ خيْرُ اللَّيالي

وقَدْ كانَ رأْسُ التّابعينَ أوَيْسُ[2] أخْمَلَ قوْمِهِ ذِكْرًا، وأشَدَّ النّاسِ لحالِهِ سَتْرًا، وقد نسَجَ على ذلِكَ مَنْ بعْدَه مِنَ العارِفينَ الفُحول، وللهِ درُّ الشَّرَفِ ابنِ الفارِضِ[3] حيْثُ يقول:

فلا بابَ لي يُغْشَى ولا جاهَ يُرتجى * ولا جارَ بي يُحْمَى لِفَقْدِ حَمِيَّتِي

---

(١) التطامُن: الانخفاض وحني الظهر، والقُبَعَة: من يُخفي رأسه، والطُّلَعَة: من يظهرها. [لسان العرب]

(٢) أخرج أحمد (١٥٩٤٢)، والحاكم (٣/٤٥٥) وغيرهما: (خير التابعين أويس)، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٢٢): إسناده جيد.

(٣) عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، أبو حفص وأبو القاسم، شرف الدين ابن الفارض: سيِّد شعراء عصره ويُلقَّب بسلطان العاشقين. وُلِدَ في ذي القعدة سنة ٥٧٦هـ، ونشأ في بيت علم وورَع. ولمَّا شَبَّ اشتغلَ بفقه الشافعية وأخذ الحديث عن ابن عساكر، وأخذ عنه الحافظ المنذريُّ وغيره. ثم حُبِّب إليه سلوك طريق الصوفية، فتزهَّد وتجرَّد، وذهب إلى مكة في غير أشهر الحجِّ، فكان يُصَلِّي بالحرم، ويُكثر العزلة في وادٍ بعيد عن مكة، وفي تلك الحال نَظَمَ أكثر شعره. وعادَ إلى مصر بعد خمسة عشر عامًا، فأقام بالأزهر، وقَصَدهُ الناسُ بالزِّيارة، ووقع الخلاف عليه، وأكثر أهل العلم على تعظيمه واعتقاد الولاية فيه، تُوفِّي في ثالث جمادى الأولى سنة ٦٣٢هـ. انظر: شذرات الذهب (٧/٢٦١).

وقدْ بالغوا في إسْقاطِ منازِلِهمْ مِنَ القُلوبِ لِتَفْرَغَ أفْئِدَتُهُمْ للدُّخولِ إلى حضْرةِ علّامِ الغُيوبِ.

واعلَمْ أنَّ الخُمولَ يختَلِفُ باختِلافِ المقاماتِ: فخُمولُ المُريدِ خُروجُهُ عنْ أوْصافِه النَّفْسانيَّةِ حتَّى لا يرَى لهُ مُلْكًا ولا مِلكًا، ولا عِلْمًا ولا عمَلًا، ولا جاهًا ولا جهةً، ولا قوْلًا ولا فِعْلًا، وخُمولُ السّالكِ إخْفاءُ عمَلِهِ الصّالحِ بإظْهارِ نقيضِهِ الطّالحِ.

فمِنْهُمْ مَنْ تبْرُزُ رُوحانيَّتُهُ في صورةِ امْرأةٍ ويُباشِرُها مُباشرةَ الرَّجُلِ للمرأةِ وذلِكَ مِنْهُ وإلَيْهِ، ومِنْهُمْ مَنْ يشْرَبُ الخَمْرَ فيعودُ عسَلًا لما مُنِحَ مِنْ قلْبِ الأعْيانِ، ومِنْهُمْ مَنْ لا يُرى يُصلّي ولهُ الانْخِلاعُ الرُّوحاني يذْهَبُ بروحِهِ حيْثُ شاءَ وبدَنُهُ بمحَلٍ واحِدٍ، ومِنْهُمْ مَنْ يتَصَوَّرُ بكُلِّ صورةٍ كقضيبِ البانِ[1]، صلَّى الرُّباعيَّةَ كُلَّ ركْعةٍ بصورةٍ وزيٍّ، ومِنْهُمْ مَنْ تغَيَّرَ قلْبُهُ لتَعْظيمِ النّاسِ لهُ، فيَرتَكِبُ قَبيحًا لتنفِرَ خواطِرُهُمْ، كمَنْ دخَلَ الحمّامَ ولبِسَ غيْرَ ثيابِهِ وتوانى في المشْيِ، حتَّى أُدْرِكَ وضُرِبَ وسمّوهُ لِصَّ الحمّامِ، وغالِبُ هؤلاءِ مُلامَتيّةٌ؛ فإنَّ أساسَ طريقِهِمِ الدُّخولُ تحْتَ إساءةِ الظَّنِّ بِهِمْ، والظُّهورُ للخَلْقِ بما يوحِشُهُمْ، ليَسْلَمَ لهُمْ حالُهُمْ معَ اللهِ، وقدْ بادَرَ إلى اللَّوْمِ والإنْكارِ مَنْ لم يفهَمْ مقاصِدَ الصّوفيّةِ الأخْيارِ؛ وذلِكَ مِنْ جهلِه العَجيبِ، ألَمْ تسمَعْ لِسانَ الحالِ يقولُ: "ارْجِعْ مِنْ قريبٍ؛ لئَلّا ترْميكَ الغَيْرةُ عَلَيْهِم بسَهْمِ المُصيبِ".

وإنَّما يُعينُ على الخُمولِ العُزْلةُ كما قالَ:

***

١٢. ما نفعَ القَلْبَ شيءٌ مِثْلُ عُزلةٍ، يدْخُلُ بِها ميدانَ فِكرةٍ.

(**ما نفعَ القَلْبَ شيءٌ**) في مُداواةِ أمْراضِهِ، التي هيَ غلَبةُ أحْكامِ الطَّبْعِ فيه، مِنْ صُحْبتِهِ للأضْدادِ، ووُقوفِهِ معَ المُعْتادِ، وانْقيادِهِ لهَوى النَّفْسِ، وأُنْسِهِ بعالَمِ الحِسِّ، (**مِثْلُ عُزلةٍ**) حِسّيّةٍ

(١) الحسين بن عيسى بن يحيى الحسني، أبو عبد الله، المعروف بقضيب البان (٤٧١-٥٧٣هـ) متصوف من أهل الموصل، تفقه حنبليا، وصحب عبد القادر الجيلاني وغيره. له أخبار في الزهد كثيرة. [الأعلام للزركلي ج٢/٢٥١]

ومعْنويّةٍ إذْ بِها ينْجَلي مِنَ الكُدوراتِ البشَريَّةِ، ويبْعُدُ عَنْ أُنْسِهِ بعالمِ حِسِّهِ، فتنْفَتِحُ لهُ خزائنُ الأسْرارِ، وتتَجَلّى لهُ بَوارِقُ الأنْوارِ.

فأنْفَعُ دواءٍ للقَلْبِ العَليلِ، عُزلةٌ تحْجُبُهُ عَنِ الخِلِّ والخَليلِ، تُعينُهُ على الفِكْرِ الدّائمِ، والغَرَضِ اللاّزمِ، فقلَّما سلِمَ مُخالِط، مِنْ مُغْتابٍ أو خالِط، وشأنُ الطِّباعِ السَّرِقة، وصُحْبةُ النّاسِ نارٌ مُحرِقة، فالنَّجا النَّجا، واللَّجا إلى اللهِ اللَّجا، فقدْ عزَّ الصَّديق، وقلَّ الرَّفيقُ الرَّفيق.

أوْحَى اللهُ تعالَى إلى موسَى عليه السلام: "يابْنَ عِمْرانَ كُنْ يقْظانًا، وارْتَدْ لنَفْسِكَ إخْوانًا، وكُلُّ أخٍ أو صاحِبٍ لا يُؤازِرُكَ على مسَرَّتي فهوَ لكَ عدوٌّ"[1]. وقالَ الجَنيدُ -رحِمَهُ اللهُ- قالَ لي المُصطَفَى ﷺ في النَّوْمِ: "إنِ اسْتَطَعْتَ أنْ لا تَعْرِفَ ولا تُعْرَفَ، فافعَلْ"، وقالَ ابنُ عرَبي: قالَ لي شيْخي: "سُدَّ الباب، واقْطَعِ الأَسْباب، وجالِسِ الوَهّاب، ليُكَلِّمُكَ بغَيْرِ حِجاب".

لكِنَّ الكَلامَ في عُزلةٍ (**يدْخُلُ بها مَيدانَ فكرةٍ**) في الحَقائِقِ؛ فكُلُّ عُزلةٍ لا تصْحَبُها فِكْرةٌ فليْسَ بِها عِبْرةٌ، وكُلُّ فِكرةٍ بغَيْرِ عُزلةٍ لا يتِمُّ نَتاجُها، فالنّافِعُ اجْتِماعُهُما وأعْظَمُ بهِ نفْعًا؛ فبالعُزلةِ يسْلَمُ مِنَ الخَلائِقِ، وبالفِكْرةِ تظْهَرُ لهُ الحَقائِق، وبالعُزلةِ ينْجو مِنَ الأغْيار، وبالفِكْرةِ تُسْتنتَجُ الأنْوار؛ فالعُزلةُ منْزِلُ الفِكْرِ، و"في بيْتِهِ يُؤتَى الحَكَمُ"[2]. ويكْفي في شرَفِ التَّفَكُّرِ معَ العُزْلةِ قوْلُ صاحِبِ هذِهِ المِلّةِ: (تفَكُّرُ ساعةٍ فيها عِبادةُ ستّينَ سنةٍ)، وفي رِوايةٍ: (ثمانين)[3].

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (١٦٠/٢) قال: وروي في الأخبار السالفة.. فذكره.

(٢) من أمثال العرب. قال الميداني في مجمع الأمثال: هذا مما زعمت العرب عن ألسن البهائم، قالوا: إن أرنبًا التقطت ثمرة فاختلسها الثعلب فأكلها، فانطلقا يختصمان إلى الضب، قالت الأرنب: يا أبا الحِسْل [كنية الضب] فقال: سميعًا دعوت. قالت: أتيناك لنختصم إليك. قال: عادلاً دعوتما. قالت: فاخرج إلينا. قال: في بيته يؤتى الحكم. قالت: إني وجدت ثمرة. قال: حلوة فكليها. قالت: فاختلسها الثعلب. قال: لنفسه بغى الخير. قالت: فلطمته. قال: بحقك أخذت. قالت: فلطمني. قال: حر انتصر. قالت: فاقض بيننا. قال: قد قضيت. فذهبت أقواله كلها أمثالاً.

(٣) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١٤٤/٣)، واقتصر الحافظ العراقي على تضعيفه، قال في تخريج الإحياء (٤٢٣/٤): حديث "تفكر ساعة خير من عبادة سنة" أخرجه ابن حبان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة بلفظ "ستين سنة" بإسناد ضعيف، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بلفظ "ثمانين سنة" وإسناده ضعيف جدا، ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ "خير من قيام ليلة"، ونسبه بعضهم إلى أقوال الصالحين، والله أعلم.

ومجاري الفِكْرِ المؤدّي إلى الحَقائقِ أنْ [تنزلَ](١) بفِكْرِكَ لسرِّكَ في سرِّكَ. ثمَّ النّاسُ ثلاثةٌ: مُعتزِلٌ بقَلْبِهِ لا بجَسَدِهِ، وهذا كائنٌ بائنٌ، راحِلٌ مُقيمٌ، وهوَ حالُ أهْلِ الكمالِ، ومُعْتزِلٌ بجَسَدِهِ لا بقَلْبِهِ ولا عِبْرَةَ به حالًا، لكِنَّهُ متعرِّضٌ لنفَحاتِ الرَّحْمةِ، ومُعْتزِلٌ بهما، وهوَ المُخْتلي.

والمَيدانُ أصْلُهُ مجالُ الخيْلِ، فشبَّهَ جولانَ الفِكْرِ في مجاريهِ بجَوَلانِ الخيْلِ في مَيْدانها.

تنبيهٌ: قالَ ابنُ عربي: ليْسَ عِنْدَ العارفينَ خَلْوةٌ؛ لأنَّ الكَوْنَ كُلَّهُ معْمورٌ حيٌّ، ناطقٌ بتَسْبيحِ خالقِه، ومَنِ اتَّخَذَ الخَلْوةَ استحلاءً للفَراغِ الذي يجِدُهُ ويُقوّيهِ للاستعْدادِ، فهوَ ما برِحَ في حَظِّ نفْسِهِ، وقَدْ ذمَّ اللهُ الذين يتساءلون عنْ أمْرٍ ليْسوا له بأهْلٍ. انتهى.

تنبيهٌ آخَرُ: قالَ بعْضُ الكاملينَ: الخَلْوةُ أخَصُّ مِنَ العُزلةِ، وهيَ بوُجوهِها وصورَتِها نوْعٌ مِنَ الاعْتِكافِ لَكِنْ لا بالمَسْجِدِ، وربَّما كانَتْ بِه، وأكْثَرُها عِنْدَ القَوْمِ لا حَدَّ لها، لكِنَّ السُّنَّةَ تُشيرُ للأرْبعينَ، كمَواعيدِ موسَى. وفي الحَديثِ: (مَنْ أخْلَصَ للهِ أرْبَعينَ يوْمًا، تفَجَّرَتْ ينابيعُ الحِكْمةِ مِنْ قلْبِه علَى لِسانِه)(٢)؛ والقَصْدُ في الحَقيقةِ إلى الثَّلاثينَ؛ إذْ هيَ أصْلُ المواعَدةِ، وجاورَ المُصطَفَى ﷺ شهْرًا، كما في مُسْلِمٍ وغيْرِهِ(٣). وهيَ للكاملِ زيادةٌ في حالِه، ولغيْرِهِ ترَقيةٌ، ولا بُدَّ مِنْ أصْلٍ يرْجِعُ إلَيْهِ، والقَصْدُ بِها تَطْهيرُ القَلْبِ مِنْ أدْناسِ المُخالَفةِ، وإفْرادُ القَلْبِ بذِكْرٍ واحدٍ وحقيقةٍ واحِدةٍ، لكِنَّها بِلا شيْخٍ خطِرةٌ، ولها فُتوحٌ عظيمةٌ، وقدْ لا تَصْلُحُ لقَوْمٍ، فليَعْتَبِرْ كُلُّ أحَدٍ بهذا. انتهى.

مُهِمَّةٌ: قالَ الحُصريُّ(٤): "مِنَ النّاسِ قِسْمٌ إذا عملَ الخَلْوةَ لا يَصْلُحُ لهُ شيءٌ، وإذا ترَكَ

---

(١) جاء في المخطوطة "تقول"، ولعله تصحيف!

(٢) أخرجه بألفاظ متقاربة: أبو نعيم في الحلية (١٨٩/٥) عن أبي أيوب مرفوعًا، والقضاعي (٤٦٦) من حديث ابن عباس مرفوعًا. وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٣٤٤)، وأبو نعيم (١٠/٧٠)، وغيرهما عن مكحول مرسلًا، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١٤٤/٣)، وتعقّبه السيوطي في اللآلئ (٢٧٦/٢) بأن الحافظ العراقي اقتصر على تضعيفه (الإحياء ٨٩/٢، و٣٧٦/٤)، وذكر السيوطي طرقه وشواهده، وزاد عليها ابن الصِّديق في المداوي (١٠٨/٦-١١١).

(٣) أخرجه مسلمٌ (١٦١) من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: (جاورت بحراء شهرا).

(٤) علي بن إبراهيم، أبو الحسن الحُصري الصوفي الواعظ، كان شيخ العراق ولسانها، صحب الشبلي وغيره=

نفْسَهُ مع ما هو بِهِ، فُتِحَ لهُ معَ ذلكَ مِنْ قوّةِ الباطنِ؛ وذلكَ لأنَّ نفْسَ العارِفِ تأْخُذُ مِنْ كُلِّ شيءٍ بحَسَبِهِ، فإذا أُوقِفَتْ على شَيءٍ واحِدٍ تقَيَّدَتْ".

قالَ التّونسيُّ: "وكُلُّ قلْبٍ اشْتَغَلَ بحالةٍ مِنَ الحالاتِ أوْ مقامٍ مِنَ المَقاماتِ، فهوَ محجوبٌ بِهِ عَنِ الرُّقيِّ لما فوْقَهُ، سَواءٌ وقَفَ السّالِكُ أو سارَ، أو هَرْوَلَ أوْ طارَ، ما لَمْ يحُطَّ رحْلَ راحِلتِهِ ببابِ الفَنا، المُبلِّغِ كعْبَةَ المُنَى".

ثُمَّ هذا القَلْبُ الطّالِبُ لِلنَفْعِ قَلْبٌ مريضٌ يحْتاجُ لمُعالِجٍ يُلاطِفُهُ ليَبْرأَ مِنْ سقَمِهِ، فيَبْدَأُ بجِسْمِ المادّةِ، ثُمَّ بإنْقائِهِ، ثُمَّ بالرّياضةِ والعُزْلةِ ودَوامِ الذِّكْرِ.

واعْلَمْ أنَّ الإنْسانَ هو مجْموعُ الكَمالِ والنَّقْصِ، والعُلوّ والسُّفْلِ، واللَّطيفِ والكَثيفِ، والنّورِ والظَّلامِ، والكَشْفِ والأوْهامِ، فلِهَذِهِ المعاني المُتضادّةِ والأوْصافِ المُتعانِدَةِ تخْتَلِفُ علَيْهِ الأَحْوالُ، والوُصولُ إلى الكَمالِ؛ لأنَّ وُجودَهُ مُركَّبٌ مِنْ ماءٍ وتُرابٍ وهَواءٍ ونارٍ، فإذا غلبَتْ علَيْهِ المائيّةُ حصَلَ لهُ البَرْدُ والرُّطوبةُ، وعنْهُما ينْشَأُ السَّهْوُ والغَفْلَةُ، فتُفْقَدُ بركَةُ العُمْرِ، وتَفوتُ فائدةُ تعَلُّقِ الرُّوحِ بالبَدَنِ، لفَوْتِ اصْطِيادِهِ بشَبكَةِ البَدَنِ هذا الطّائرَ، أو التُّرابيّةُ حصَلَ البَرْدُ واليَبَسُ، ومِنْهُ المَلَلُ والسَّآمةُ، فتُفْقَدُ لذّةُ العِبادةِ، ومِنْهُ يكونُ الكَسَلُ، أو الهوائيّةُ حصَلَ الرُّطوبةُ والحَرارةُ، فيَنْشَأُ عنْهُ الطَّيْشُ والخِفّةُ والعَجَلةُ وفقْدُ النَّشاطِ وغيْرُها ممّا يُلائِمُ الطَّبْعَ، أو النّاريّةُ فالخُشونةُ والحرارةُ، ومِنْهُما يتَوَلَّدُ سوءُ الخُلُقِ والسَّآمةُ، وغلَبةُ نارِ الشَّيْطَنةِ ونارِ النَّفْسِ، والحَسَدُ والعَداوةُ، وجميعُ الأخْلاقِ النّاريّةِ، ومِنْها يكونُ نارُ الجُوعِ والعَطَشِ.

فهَذِهِ أمْراضٌ لازِمةٌ لِلسّالِكِ وغيْرِهِ، والموَفَّقُ مَنْ سُلِكَ بِهِ طريقُ اعْتِدالِ المِزاجِ؛ فإنَّ القَلْبَ معنًى لطيفٌ يُكَدِّرُ صَفاءَهُ أدنى شيءٍ، فلِهَذا كانَ سفَرُ القَلْبِ مشَقَّتُهُ عظيمةٌ، وأخْطارُهُ جسيمةٌ، لنَفاسةِ مطْلَبِهِ، وبِهِ يُعْلَمُ أنَّ كُلَّ ما يعْرِضُ للسّالِكِ في طَريقِهِ مِنْ حقيقةِ ذاتِهِ وحضْرةِ صِفاتِهِ لا مِنْ خارجٍ؛ لأنَّكَ الجامِعُ لجميعِها.

=وكان أوحد طريقته، من أجلِّ المشايخ وأظرفهم وألطفهم، له لسان في التوحيد يختصُّ هو به، ومقامٌ في التفريد والتجريد مُسلَّمٌ له، توفي سنة ٣٧١. طبقات الصوفية (ص٣٦٥)، والرسالة القشيرية (١١/٣٣٨).

ومِثْلُ قلْب السّالِك مرآةٌ تَراكَمَ علَيْها غيْمُ الصَّدإ، وبمُجاهَدة العبادة، ولُزوم الذِّكْر يكونُ جَلاؤُهُ، وفي أوَّلِ الجلاءِ يلوحُ لهُ صورُ الخَيالِ بألْوانٍ وأشْكالٍ، فيَشْهَدُ في مبْدإ سيْرِه وُجودَهُ كغَيْمٍ كدرٍ، فإنْ صحِبَهُ الشَّيْطانُ رآهُ كغَيْمٍ أحْمَرَ، فإنْ فنِيَ عَنْ حظِّه رآهُ كغَيْمٍ أبْيضَ، وتَتراءى لهُ النَّفْسُ كلَوْنِ السَّماءِ، لها نبْعانٌ كنَبْعِ الماءِ مِنْ ينْبوعِه، فإنْ صحبَت الشَّيْطانَ تراءَتْ كماءٍ ونارٍ مُظلمةٍ، والشَّيْطانُ كنارٍ كدرةٍ، وقدْ يراهُ شخْصًا أسْوَدَ طويلًا، فيَفْزَعُ إلى الله بقوْله بصِدْقِ الالتِجاءِ: "يا غِياثَ المُسْتَغيثينَ أغِثْني"، ولا يَلتفتُ لهُ، فيعبثُ به، فإذا داومَ الذِّكْرَ رأى الذِّكْرَ كنارٍ تصْفَرُّ تحْرِقُ جميعَ الحُظوظِ والشَّهَواتِ، ثُمَّ يتَخَيَّلُ كأنَّهُ في مفازةٍ يقْطَعُها، ثُمَّ كأنَّهُ ينْزِلُ بئرًا، ثُمَّ كأنَّهُ ببِلادٍ وقُرًى، ثُمَّ كأنَّهُ صعَدَ مِنَ البئْرِ، ثُمَّ يشْهَدُ خُضْرَةً، وهيَ علامةُ حياةِ قلْبِه، ثُمَّ نارًا صافيةً، وهيَ علامةُ قوَّةِ همَّتِه، ثُمَّ زُرْقَةً، وهيَ علامةُ حياةِ نفْسِه؛ فإنْ شَهِدَ صُفْرَةً فعَلامةُ ضعْفِها، وعلامةُ شُهودِ الخُضْرةِ انشِراحُ الصَّدْرِ، واخْتِلاطُ الألْوانِ حالةُ تلْوينِ الأمْرِ، وثِيابُ الخُضْرةِ تمْكينٌ، وهوَ آخرُ لونٍ يبْقَى وبعْدَهُ تسْطُعُ الأنْوارُ، وفي هذهِ الحالِ يرَى القَلْبَ كماءٍ صافٍ، ثُمَّ يرَى الوُجودَ كأنَّهُ بئرٌ عميقٌ يراهُ فوْقَهُ فأمامَهُ فتَحْتَهُ، ثُمَّ يعْقُبُهُ نورٌ أخْضَرٌ. وهذا السَّيْرُ يكونُ نوْمًا ثُمَّ يقَظةً؛ فافزَعْ إلى الذِّكْرِ ترَى أعْجَبَ ممَّا رأيْتَ! ثُمَّ يحْصُلُ لهُ فَناءٌ، وتَراهُ كبئرٍ مِنْ نورٍ فيهِ خُضْرةٌ، فإنْ أظْلَمَ فلِنُزولِ الشَّيْطانِ فيه يُمانِعُ ملائكةَ الرَّحْمةِ، فافزَعْ إلى الذِّكْرِ تُميِّزِ الجنسَ مِنْ غيْرِه.

وأكْثَرُ ما يكونُ وُرودُ المَلائكةِ مِنْ خَلفِه، لاسْتِنادِ الظَّهْرِ إلى الأَمْنِ، والسَّكينةُ مِنْ فوْقٍ، وعَلامةُ الخَيْرِ تكْرارُ الصَّلاةِ على المُصطَفَى ﷺ بغَيْرِ قصْدٍ، وفي هذهِ الحالِ يتَبدَّلُ الشَّوْقُ بالمُشاهَدةِ، وينْكَشِفُ الغِطاءُ عَنِ البَصيرةِ، وتنْقَلِبُ الحَواسُّ بحَيْثُ ترَى وتسْمَعُ بغَيْرِ ما كُنْتَ تعْهَدُهُ مِنْ حاسَّةٍ وجارِحةٍ، ولا يمْنَعُكَ بحْرٌ ولا نارٌ، ولا عُلوٌّ ولا سَفْلٌ، وقدْ تطيرُ وتمْشي على الماءِ وتتَصَرَّفُ بالهِمَّة.

تنْبيهٌ: في كَلامِ المُؤلِّفِ حذْفٌ تقْديرُهُ: "ما نفعَ القَلْبَ شيءٌ مِثْلُ عُزْلةٍ تَدْخُلُ بها مَيْدانَ ذِكْرٍ، تدْخُلُ بِهِ مَيْدانَ فِكْرةٍ"؛ لأنَّ الفِكْرةَ بعْدَ الذِّكْرِ غالبًا، إذْ هيَ لا تكونُ إلّا عَنْ صفاءِ

القَلْبِ مِنَ الأكْدارِ، والمُرادُ: التَّفكُّرُ في آلاءِ اللهِ لا في ذاتِهِ، كما صرَّحَ بِهِ في الحديثِ بقَوْلِهِ: (تفكَّروا في خَلْقِ اللهِ ولا تفكروا في اللهِ؛ فإنَّكُمْ لنْ تقْدِروا قَدْرَه)[1].

وللفِكْرةِ ابْتِداءٌ ووَسَطٌ وغايةٌ؛ فالابْتِداءُ: اسْتِعْمالُها في تذَكُّرِ التَّبِعاتِ لردِّ الظُّلاماتِ، وتذَكُّرِ أفْعالِه القَبيحةِ ليَنْدَمَ ويعزِمَ أنْ لا يعودَ؛ لأنَّ مَنْ لا توْبَةَ لهُ لا عمَلَ لهُ وإنْ عمِلَ مِنَ البِرِّ ما عمِلَ؛ والتَّوسُّطُ: التَّفكُّرُ في إنْعامِ اللهِ بالجُودِ على الوُجودِ، والغايةُ: التَّفكُّرُ في دقائقِ المَعارفِ الرَّبَّانيّةِ والعُلومِ الدِّينيّةِ التي بها يلِجُ القَلْبُ حضْرةَ القُدسِ، ويُخْلَعُ علَيْهِ فيها خِلْعةُ الأُنْسِ، حيْثُ المُشاهَدةُ والمُفاتَحةُ، والمواجَهةُ والمُطالَعةُ، والمُنادَمةُ والمُكالمةُ بلذيذِ الخِطابِ عِنْدَ رفْعِ الحِجابِ.

وقضيّةُ كلامِ المُؤلِّفِ أنَّ الفِكْرَ أفْضَلُ مِنَ الذِّكْرِ، وهوَ ما ذهَبَ إلَيْهِ ذاهِبونَ.

قالَ في شرْحِ العَوارِفِ[2]: "وهو ظاهِرٌ إنْ أُريدَ بهِ الذِّكْرُ اللِّسانيُّ المُجرَّدُ، أمّا الذِّكْرُ النَّفْسانيُّ فقالَ الدَّقّاقُ[3]: إنَّهُ أتمُّ مِنَ الفِكْرِ؛ لأنَّهُ تعالَى يُوصَفُ بالذِّكْرِ لا بالفِكْرِ"، وذهَبَ بعْضُهم إلى تفْضيلِ الذِّكْرِ مُطْلَقًا، قالَ بعْضُهم: "والحَقُّ أنَّ الحُكْمَ مُخْتَلِفٌ باخْتِلافِ الأحْوالِ ومَراتِبِ الرِّجالِ".

(١) أخرجه أبو نعيم (٦/٦٦) من حديث عبدالله بن سلام مرفوعًا. والحديث له طرق وشواهد وألفاظ قال عنها الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة (رقم ٣٤٢): "وأسانيدها ضعيفة، لكن اجتماعها يكتسب قوة، والمعنى صحيح، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعا: لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خلق الله الخلق، فمن خلق الله، فمن وجد من ذلك شيئا فليقل آمنت بالله" اهـ. وأخرج ابن أبي شيبة في كتاب العرش (١٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٢)، و(٢٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٦١٨)، و(٨٨٧) وغيرهم من حديث ابن عباس موقوفًا بلفظ: " تفكروا في كل شيء، ولا تفكروا في ذات الله عز وجل.." وإسناده جيد كما قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٣/٣٨٣).

(٢) كتاب "زوارف اللطائف شرح عوارف المعارف" للمخدوم المهائمي، علي بن أحمد بن علي الهندي الشافعي، علاء الدين أبو الحسن، المتوفى سنة ٨٣٥هـ، شرح فيه كتاب شهاب الدين أبي حفص عمر السهروردي، المتوفى سنة ٦٣٢هـ.

(٣) أستاذ الصوفية، الحسن بن علي بن محمد، أبو علي الدقاق النيسابوري، شيخ أبي القاسم القشيري، نيسابوري الأصل، تعلم العربية وحصّل علم الأصول، وخرج إلى مرو وتفقه بها على الخِضري، وبرع في الفقه، ولما استمع ما يحتاج إليه من العلوم، أخذ في العمل وسلك طريق التصوف، وصحب الأستاذ أبا القاسم النصراباذي. اشتهر ذكره في الآفاق وانتفع به الخلق، توفي سنة ٤٠٦. انظر: تاريخ الإسلام (٩/١٠٤)، وطبقات السبكي (٤/٣٢٩).

فائدةٌ: قالَ في "الأخْلاق": ليْسَ لفقيرِ التَّصدُّرُ للِخَلْوةِ ونَحوِها، حتَّى يَمْشي على الماءِ، ويَطيرَ في الهَواءِ، ويُمْسِكَ النَّارَ فَلا تحْرِقُهُ، ويُكاشَفَ بأسْرارِ الخَلائِقِ. قالَ: وأرْبعُ مَراتِبَ تزاحَمَ النَّاسُ علَيْها بغَيْرِ حقٍّ: تلقينُ الذِّكْرِ، وإلْباسُ الخِرْقةِ، وإرْخاءُ العَذَبةِ، وإدْخالُ الخَلْوةِ، **أمّا** التَّلْقينُ فشَرْطُ الشَّيْخِ كَونُهُ -بقُدْرةِ اللهِ- يُفرِغُ على المُريدِ حالَ تلْقينِه جميعَ ما قُسِمَ لهُ مِنْ عُلومِ الشَّريعةِ، فلا يحْتاجُ بعْدَ التَّلْقينِ إلى مُطالَعةِ كِتابٍ، وشرْطُهُ في الخِرْقةِ أنْ يسْلبَهُ جميعَ الأخْلاقِ الرَّديَّةِ حالَ قوْلِه: انزَعْ جُبَّتَكَ أو قميصَكَ أو طاقيَّتَكَ مثَلًا، فلا يبْقَى بباطِنه خُلُقٌ سيِّءٌ، فلا يحتاجُ بعْدَهُ لمُعالَجةِ إزالَتِها، وإرْخاءُ العذَبةِ شرْطُهُ أنْ يخْلَعَ علَيْه النُّموَ والزِّيادةَ في كُلِّ ما نظَرَهُ أو مسَّهُ بيَدِه، حتَّى لوْ مسَّ حجَرًا أوْ خشَبًا امْتَدَّ معَهُ، وإدْخالُ الخَلْوةِ شرْطُهُ العِلْمُ بما في الكِتابِ والسُّنّةِ، ومعْرِفةُ الخَواطِرِ ومِنْ أيْنَ تنْبَعِثُ، مِنْ حضَراتِ جميعِ الأسْماءِ أمْ بعْضِها على التَّعْيينِ، وحِفْظُ المُريدِ مِنَ النَّزَغاتِ، ومعْرِفةُ ما لهُ مِنْ أنْواعِ الفُتوحِ". انْتَهى.

ثُمَّ لمّا كانَ المُرادُ مِنَ العُزْلةِ والفِكْرةِ إشْراقَ القلْبِ بنورِ المعْرفةِ، ولا يَحْصُلُ معَ غلَبةِ أحْكامِ الطَّبْعِ، والانْصباغِ بالشَّهَواتِ، والانْطِباعِ بصوَرِ الكائناتِ، اسْتَنْكَرَ المُؤلِّفُ ذلكَ علَى مَنْ يزْعَمُهُ، فقالَ:

***

١٣. كيْفَ يُشرِقُ قلْبٌ صُوَرُ الأكْوانِ مُنْطَبعةٌ في مِرْآتِه؟! أمْ كيْفَ يرْحَلُ إلى اللهِ وهوَ مُكبَّلٌ بشَهَواتِه؟! أمْ كيْفَ يطْمَعُ أنْ يدْخُلَ حضْرةَ اللهِ وهوَ لمْ يتَطَهَّرْ مِنْ جنابةِ غفَلاتِه؟! أمْ كيْفَ يرْجو أنْ يفْهَمَ دَقائقَ الأسْرارِ وهوَ لمْ يتُبْ مِنْ هفَواتِه؟!

(**كيْفَ يُشْرِقُ قلْبٌ صُوَرُ الأكْوانِ**) أيْ: أعْيانُ المَوْجوداتِ (**مُنْطَبعةٌ**) أي: مُرتَسِمةٌ (**في مِرْآتِه**) أيْ: مُسْتَوليةٌ على بصيرَتِه بِقُوّةِ سُلْطانِها، فهوَ راكِنٌ إلَيْها مُعْتَمِدٌ علَيْها، حتَّى منَعَهُ

انْطِباعُها مِنْ شُهودِ تجلّيّاتِهِ. وذلِكَ الانْطِباعُ إمّا مِنْ حيْثُ الضَّرَرُ والنَّفْعُ؛ فإنَّهُ يوجِبُ الاعْتِمادَ علَيْها والرُّكونَ إلَيْها، أوْ مِنْ حيْثُ الجَمالُ والاسْتِحسانُ الموْجِبُ للحُبِّ لاقْتِضاءِ العُبوديّةِ لها، أو مِنْ حيْثُ الشَّهْوةُ لاقْتِضاءِ الغفْلةِ لها؛ وعلامةُ انْطِباعِ الكَوْنِ إيثارُهُ والميْلُ لهُ والشَّغَفُ بِهِ.

والحاصِلُ أنَّهُ لا يُشْرِقُ القَلْبُ بالأنْوارِ ما دامَ ينْطَبِعُ فيهِ صُورُ الأغيارِ، ولا يَطْمَعُ في اجْتِماعِ الظُّلْمةِ والنّورِ إلا كُلُّ جاهِلٍ مغْرورٍ؛ وذلِكَ لأنَّ الإشْراقَ إشْعالُ أشِعّةِ النّورِ جميعَ ما تَمَّ صِقالُهُ من مِرْآةِ القَلْبِ، ولا يتَهَيَّأُ ذلِكَ إلّا بعْدَ خُلوِّ المحَلِّ مِنَ انْطِباعِ صورِ الكائناتِ المُشْغلةِ لهُ، إذِ الواحِدُ لا يقْبَلُ وَصْفيْنِ، كما أنَّ الوَصْفَ لا يُعَمِّرُ محَلَّيْنِ، ليْسَ للقَلْبِ إلّا وِجْهةٌ واحِدةٌ فما توَجَّهَ إلَيْها حُجِبَ عنْ غيْرِها.

ألا ترَى إلى خبَرِ (إنَّ المَلائِكَةَ لا تدْخُلُ بيْتًا فيهِ صورةٌ)[1] كيْفَ دلَّ على أنَّ القَلْبَ لا يعْمُرُ بجُنْدِ المَلائِكةِ دون الشَّياطينِ ما لَمْ يتَطهَّرْ مِنْ صورَ الشَّهَواتِ الشّاغلةِ عنِ التَّحقُّقِ بأنْوارِ المقاماتِ! وإذا كانَتِ المَلائِكةُ لا تدْخَلُ بيْتًا فيه صورةٌ، فأحْرى أنْ لا يعْمُرَ قلْبٌ باللهِ اشْتَغَلَ بسِواه، وركَنَ لغَيْرِ موْلاه.

فإنْ أرَدْتَ مُشاهَدةَ أنْوارِ التَّجلّياتِ القُدُسيّةِ والعَجائِبِ الرُّوحانيّةِ، اِصْقِلْ مرآةَ قلْبِكَ مِنَ الأكدارِ البَشَريّةِ، بأنْ تُجرِّدَهُ عَنْ كُلِّ وصْفٍ مِنَ الصِّفاتِ المُعَوِّقةِ، بلْ تُخْليهِ مِنْ كُلِّ دقيقةٍ مُبايِنةٍ مُفرِّقةٍ، ألا ترَى أنَّ المرآةَ الحسَنةَ لَمّا خلَتْ مِنَ الأكْوانِ، انْطبَعَ فيها صورُ الألْوانِ؛ فالقَلْبُ إذا تفرَّغَ مِنِ انْطِباعِ الطِّباعِ، وتخَلَّصَ مِنْ توهُّماتِ الأوْضاعِ، أشْرَقَ فيهِ نورٌ فأحْرَقَ الشَّهواتِ، فتَراءتْ لهُ الكائناتُ، وأبْصَرَ ما مضَى وما هوَ آتٍ.

وذلِكَ الإشْراقُ لهُ بِدايةٌ ونِهايةٌ؛ فبِدايَتُهُ: تجَلِّيهِ بالأشِعةِ دُونَ ذاتِ المُشْرِقِ، ورُبَّما يكونُ كالبَرْقِ، ورُبَّما دامَ ساعةً وساعَتيْنِ، والغايةُ هيَ: تجَلِّيهِ -أي: تحَقُّقُهُ- بذاتِ المشْرِقِ دوامًا بيَقينٍ يمْحَقُ كُلَّ ظنٍّ ووهْمٍ.

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٢٢٦)، و(٥٩٥٨)، ومسلمٌ (٢١٠٦)، وغيرهما من حديث أبي طلحة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، وفي الصحيح أيضًا عن عائشة وابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُم.

(أمْ كيْفَ يرْحَلُ إلى اللهِ) بقَطْعِ عقَباتِ النَّفْسِ **(وهوَ مُكبَّلٌ بشَهَواتِهِ؟!)** أي: مُعتَقَلٌ مُقيَّدٌ بها، والمُقيَّدُ لا يُمكِنُهُ السَّيْرُ، فلا يرْجِعُ إلى اللهِ مَنْ قيَّدَتْهُ الشَّهَوات، وعوَّقَتْهُ اللَّذاتُ والإرادات، بلْ كُلَّما أرادَ النُّهوضَ أخْلدَتْهُ، فإنْ نَهَضَ أمْسَكَتْهُ، فإنْ سارَ منَعَتْهُ، فإنْ أسْرَعَ ثبَّطَتْهُ، فكُلَّما اجْتَمَعَتْ بهِ رغْبةٌ غدوًّا، فرَّقَتْها جُنودُ الشَّهْوةِ عشيًّا، فلا يُمكِنُهُ رحيلُه عنْ عوالِمِ طبْعِهِ إلى حضْرةِ الحقِّ، فلِذَلِكَ لزِمَ ترْكُها لذَوي الإرادةِ ولو مُباحةً، ولِذَلِكَ قالوا: "لدْغُ الزَّنابيرِ على الأبْدانِ المُتقرِّحة، أسْهَلُ مِنْ لدْغِ الشَّهَواتِ على القُلوبِ المُتوجِّهة".

(أمْ كيْفَ يطْمَعُ أنْ يدْخُلَ حضْرةَ اللهِ)، وهيَ دائرةُ ولايَتِهِ ومقامُ اخْتصاصِهِ لخَواصِّ عِبادِهِ، ذكَرَهُ بعْضُ الشُّرّاحِ، وقالَ بعْضُهُمْ: "إذا أطْلَقوا حضْرةَ اللهِ فالمُرادُ كُلُّ وقْتٍ رأى العَبْدُ نفْسَهُ فيهِ بيْنَ يدَيِ اللهِ، وأنَّهُ تعالَى ينْظُرُ إليْهِ، فما دامَ هذا مشْهودُهُ فهوَ في الحضْرةِ، فإذا توارَى عنه هذا الشُّهودُ خرَجَ مِنْها"؛ واللائقُ بالسِّياقِ هُنا الأوَّلُ.

(وهوَ لمْ يتطَهَّرْ مِنْ جنابةِ غفَلاتِهِ؟!) المُقْتَضيةِ لإبْعادِهِ، أي: كما يمْتَنِعُ عَنِ المُتَّصِفِ بالجَنابةِ البَشَرِيَّةِ دُخولُ المَسْجدِ والقِراءةُ، يمْتَنِعُ علَى مَنِ اتَّصَفَ بجَنابةِ غفَلاتِهِ ولمْ يُطَهِّرْ قلْبَهُ مِنْها الدُّخولُ إلى الحضْرةِ الإلَهِيَّةِ؛ لأنَّها مُطهَّرةٌ لا يدْخُلُها إلّا مُطهَّرٌ مِنَ جَناباتِ الغفَلاتِ.

(أمْ كيْفَ يرجُو أنْ يفْهَمَ دَقائقَ الأسْرارِ) التي تأتي مِنْ قِبَلِ اللهِ علَى وجْهِ الإكْرامِ **(وهوَ لمْ يتُبْ مِنْ هفَواتِهِ؟!)** أي: لا يرْجو فهْمَ دقائقِ الأسْرارِ من لمْ يتُبْ مِنْ هفَواتِ هذِهِ الدّارِ، كيْفَ يفْهَمُ أسْرارَ المُلْكِ والمَلَكوتِ مَنْ هبَطَ مِنَ جنَّةِ اليقَظةِ إلى أرْضِ الغفْلةِ التي هيَ البَهْموتُ؟!، وكيْفَ يتوبُ مِنْ هفْوَتِهِ مَنْ هوَ أسيرُ شهْوتِهِ؟! فذاكَ ممْنوعٌ، وإنْ وقَعَ معَ اسْترسالٍ فيها كانَ مكْرًا واسْتِدْراجًا، ومَنْ رامَ شيئًا بدونِ ما يُعينُ عليْهِ، وتدَلَّى بغَيْرِ سبَبٍ إليْهِ، فقَدْ رامَ المُحال، وجعَلَ نفْسَهُ ضُحْكةً بيْنَ الرِّجال، فحُقَّ لِلمُؤلِّفِ أنْ يتَعجَّبَ ممَّنْ هذِهِ حالَتُهُ، حيْثُ أرادَ الجمْعَ بيْنَ دَوائرِ الأضْدادِ فيما يرومُهُ مِنَ المُرادِ، وشأنُ الأضْدادِ عدَمُ الاجْتماعِ، وما جعَلَ اللهُ لرَجُلٍ مِنْ قلْبيْنِ. قالَ الشّاذلي: "الصُّحْبةُ معَ اللهِ بتَرْكِ الشَّهَواتِ والمُشْتَهَياتِ، ولا يصِلُ عبدٌ إلى اللهِ معَ شهْوةٍ مِنْ شهَواتِهِ ولا إرادةٍ مِنْ إرادَتِهِ".

تتمّةٌ: قالَ الجيلاني[1]: "لا يدْخُلُ أحَدٌ مِنْ عتَبةِ الوِلايةَ حتَّى يسْمَعَ النِّداءَ مِنْ قلْبِه، إلّا مَنْ أرادَ دُخولَ حضْرةِ الحقِّ، فليَتْرُكِ الحُظوظَ كُلَّها ويَخْلَعْ نعْلَيْه، وهُما دُنْياهُ وأُخْراهُ، ويتَجرَّدْ عَنْ جميعِ الأكْوانِ، ويتَعَرَّى عنْ سائِرِ الأماني، ثُمَّ يدْخُلُ! فمَنْ لمْ يتَجَرَّدْ كما ذُكِرَ لا يُمْكِنُ أنْ يطأَ بِساطَ الحضْرةِ أبَدًا".

تكْميلٌ: قالَ بعْضُ العارِفينَ: "علامةُ كمالِ الطَّهارةِ عَنِ الأوْصافِ الذَّميمةِ ثُبوتُ المَحَلِّ عِنْدَ هُجومِ المقاديرِ، وسُكونُ الجِبِلَّةِ عِنْدَ الصَّدْمةِ الأولَى، وبقاءُ الحَقيقةِ مُستَغْرِقةً عِنْدَ الصَّعْقةِ".

تنْبيهٌ: عُلِمَ مِمّا مرَّ أنَّ أوْلياءَ الصّوفيّةِ إنَّما يعْمَلون على جلاءِ القَلْبِ وتطْهيرِهِ وتصْقيلِهِ فقَطْ، بخِلافِ العُلَماءِ يعْمَلون في اكْتِسابِ نفْسِ العُلومِ وإحْظائِها إلى القَلْبِ.

وقدْ ذُكِرَ أنَّ أهْلَ الصّينِ وأهْلَ الرّومِ تَباهوا بيْنَ يدَيْ بعْضِ المُلوكِ بحُسْنِ صِناعةِ النَّقْشِ والصّورةِ، فأمَرَ المَلِكُ أنْ يُسلَّمَ إلَيهِمْ صُفَّةٌ[2]، ينْقُشُ أهْلُ الصّينِ مِنْها جانِبًا وأهْلُ الرّومِ منْها جانِبًا، ويُرْخى بينَهُمْ حِجابٌ يمْنَعُ اطِّلاعَ كُلِّ فريقٍ على الآخَرِ ففُعِلَ ذلِكَ، وجمَعَ أهْلُ الرّومِ مِنْ كُلِّ صِبْغٍ غريبٍ عجيبٍ ما لا يُحْصَرُ، ودخَلَ أهْلُ الصّينِ مِنْ غيْرِ صِبْغٍ، وهُمْ يَجْلون جانِبَهُم ويَصْقُلونَه، فلمّا فرَغَ أهْلُ الرّومِ ادَّعَى أهْلُ الصّينِ أنَّهُمْ فرَغوا، فعجِبَ المَلِكُ من قولِهِم وأنَّهم كيف فرغوا مِنَ النَّقْشِ بغَيْرِ صِبْغٍ، فقيلَ: كيْفَ فرَغْتُمْ مِنْ غيْرِ صبْغٍ؟! قالوا: ما علَيْكُمْ، ارْفَعوا

(١) سلطان المشايخ وسيد أهل الطريقة في وقته، محيي الدين عبد القادر ابن أبي صالح بن عبد الله بن جنكي دوست الجيلي، صاحب المقامات والكرامات وشيخ الحنابلة، ولد رَضِوَاللَّهُعَنْهُ بجيلان سنة ٤٧١، وقدم بغداد شابًا، وتفقّه على القاضي أبي سعد، وسمع الحديث، وكان يأكل من عمل يده، وحصل له القبول التام من الناس، واعتقدوا ديانته وصلاحه، وانتفعوا به وبكلامه ووعظه، وانتصر أهل السنة بظهوره، واشتهرت أحواله وأقواله وكراماته ومكاشفاته، وهابه الملوك فمن دونهم، له كتب منها: الغنية لطالب طريق الحق، والفتح الرباني، وفتوح الغيب، وتحفة المتقين وسبيل العارفين، وغيرها، وهو من سادات الأمة المحمدية ومؤسس الطريقة القادرية، تُوفِّي رَضِوَاللَّهُعَنْهُ ببغداد في ليلة السبت عاشر ربيع الآخر سنة ٥٦١. وأفرد ترجمته كثير من العلماء منهم: موسى بن محمد اليونيني في كتاب مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني، والسيد جعفر البرزنجي المفتي في كتاب الجنى الداني في مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني. انظر: تاريخ بغداد (٢١/ ١٢٧)، ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ١٨٧)، وسير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٣٩).

(٢) الصُّفّةُ من البنيان: شبه البهو الواسع الطويل. [لسان العرب]

الحجابَ! فرَفَعوهُ، فإذا جانِبُهُمْ قدْ تَلألأتْ فيه عَجائِبُ الصَّبْغِ الرّوميّةِ معَ زيادةِ إشْراقٍ وبَريقٍ ولَمعانٍ يَكادُ يَخْطِفُ الأبْصارَ، إذْ كانَ جانِبُهُمْ قدْ صارَ كالمِرآةِ المَجْلوّةِ لكَثْرةِ التَّصْقيلِ، فازْدادَ حُسْنُ جانِبَهُمْ بمَزيدِ الصَّفاءِ.

فكَذَلِكَ عِنايةُ الأَوْلياءِ بتَطْهيرِ القَلْبِ وجَلائِهِ وتزْكيَتِه وصَفائِهِ، حتَّى تتلألأَ فيه جَلِيّةُ الحَقِّ بنِهايةِ الإشْراقِ، كفِعْلِ أهْلِ الصّينِ فيه، وعِنايةُ العُلَماءِ والحُكَماءِ باكْتِسابِ نفْسِ العُلومِ وتَحْصيلِ نقْشِها في القَلْبِ، وشتّانَ ما بيْنَهُما.

***

١٤. الكَونُ كُلُّهُ ظُلْمةٌ، وإنَّما أنارَهُ ظُهورُ الحَقِّ فيه، فمَنْ رأى الكَوْنَ ولَمْ يشْهَدْهُ فيه أو عِنْدَهُ، أوْ قبْلَهُ أوْ بعْدَهُ، فقَدْ أعْوَزَه وُجودُ الأنوارِ، وحُجِبَتْ عنْهُ شُموسُ المَعارِفِ بحُجُبِ الآثارِ.

(**الكَوْنُ**) بالنَّظَرِ إلى ذاتِه (**كُلُّهُ ظُلْمةٌ**) لأنَّهُ عدَمٌ مَحْضٌ، والعَدَمُ ظُلْمةٌ ماضيًا وحالًا ومآلًا لعدَمِ اسْتِقْلالِهِ، والظُّلْمةُ لا يُهْتَدى بِها، فلَزِمَ رفْضُهُ، وبذَلِكَ ينْتَفي الاعتِمادُ على العَمَلِ وغيْرِهِ.

(**وإنَّما أنارَهُ ظُهورُ الحَقِّ فيه**) وتجَلّيه علَيْه بعِلْمِه مِنْ حيْثُ إبْرازُه، ظُهورَ دلالةٍ وتعْريفٍ، لا ظُهورَ حُلولٍ وتَكْييفٍ، فهوَ بهذا الاعْتِبارِ وُجودٌ مُستَتِرٌ؛ لأنَّ الوُجودَ نورٌ، ولهذا فرَّ أهْلُ الاستِبْصارِ مِنَ الوُقوفِ معَ الآثارِ، وقالوا: الكَوْنُ وإنْ كانَ وُجودُهُ نورًا، فالنّورُ مِنْ صانِعِه لا لذاتِهِ، فاعْتَبِرْهُ بمَنَوِّرِهِ لا بنورِهِ، فهوَ مُنَوِّرُ جميعِ الكائناتِ، ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]؛ فالكَوْنُ مِشْكاةٌ فيها زُجاجةُ الأفْعالِ، الجامِعةُ لزَيْتِ النَّفْسِ، المُعْتَصَرِ مِنْ زيْتونةِ الأوْصافِ الكَماليّةِ، لا شَرْقيّةٌ جَماليّةٌ، ولا غَرْبيّةٌ جَلاليّةٌ.

(**فمَنْ رأى الكَوْنَ**) أيْ: اعْتَبَرَ وُجودَهُ مِنْ حيْثُ ما ظَهَرَ فيه وبِهِ مِنَ التَّصرُّفاتِ العاديّةِ وغيْرِهِما، (**ولَمْ يشْهَدْهُ فيهِ**) فاعِلًا ومُدبِّرًا، (**أو عِنْدَهُ**) قائمًا لهُ وعلَيْه بما يجِبُ، حتَّى غيَّبَ

حُظوظَهُ فيه فلَمْ تبْقَ لهُ شهْوةٌ، (**أوْ قَبْلَهُ**) سابقًا عليْه في الوُجودِ إذْ هوَ خالقُهُ، لوُجوبِ وُجودِهِ لذاتِه لا غيْرِه، (**أوْ بعْدَهُ**) بأنْ يشْهَدَ بقاءَهُ بعْدَ فناءِ الكَوْنِ، (**فقَدْ أعْوَزَهُ**) أي: منَعَهُ عدَمُ شُهودِ ذلكَ (**وُجود الأنْوارِ**) أي: أنْوارِ المُكوِّنِ الكاشِفةِ عَنِ الحَقائقِ، أي: فقَدَ حقيقةَ وُجْدانِها، لغَلَبةِ ظُلمةِ الآثارِ، وغيْبةِ مَشارِقِ الأنْوارِ بنَظَرِه إلى الأغْيارِ، فهوَ مُحتاجٌ إلى نورٍ إلهيٍّ ليَقْتَدي بِهِ، (**وحُجبَتْ عنْهُ شُموسُ المَعارِفِ**) اليَقينيّةِ (**بحُجُبِ الآثارِ**) أي: بسَتائرِ الكَوْنِ الوَهْميّةِ العَدَميّةِ، فهوَ تائهٌ في الظُّلُماتِ، واقِفٌ عِنْدَ الكائناتِ، جاهِلٌ بالمُكوِّنِ.

ومَنْ شَهِدَهُ فيه نسيَها بِه، فلَمْ تنطَبِعْ في مِرْآتِه، ومَنْ شَهِدَهُ عِنْدَها لَمْ يتَعَلَّقْ بشَهْوَتِه، ومَنْ شَهِدَهُ قَبْلَها لَمْ يتَعَلَّقْ بغَفْلته، ومَنْ شَهِدَهُ بعْدَها رَجَعَ مِنْها إليْه فتابَ مِنْ هفوَتِه، ومَنْ شَهِدَ الكَوْنَ كُلَّهُ ظُلْمةً، وأنَّ الحَقَّ هوَ الذي أنارَهُ، فُتحَتْ لهُ أبْوابُ تجلّياتِه، لمَصيرِه بقَلْبٍ مُفْرِدٍ فيه توْحيدٌ مُجرَّدٌ، فهَذا الشّاهِدُ -كيْفَما كانَ- كامِلُ الأنْوارِ، مُظْهِرُ الأسْرارِ، وإنْ تفاوَتتِ الرُّتَبُ.

قالَ التّونسيُّ: "وبَيانُ مَراتِبِ أهْلِ الشُّهودِ في معنى هذا الوُجودِ أنَّ مِنهُمْ مَنْ شهِدَ نورَ الحقِّ قبْلَهُ، وهم مَنِ اسْتَدَلَّ بالمُؤثِّرِ على الأثَرِ، ومِنْهُمْ مَنْ شَهِدَهُ بعْدَهُ، وهُمْ مَنِ اسْتَدَلَّ بالأثَرِ على المُؤثِّرِ، وهُمُ العامّةُ أبْناءُ العَمَلِ، ومِنهُمْ مَنْ شَهِدَهُ فيه، وهم مَنْ شَهِدَ قيامَ صفاتِ أفْعالِهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى بهِ، ومِنهُمْ مَنْ شهِدَهُ عِنْدَهُ، وهم مَنْ شَهِدَ دَوامَ تجَلِّيهِ، فلا يشْهَدُ الآثارَ لما علَيْه مِنِ اصْطِلامِ الأنْوارِ، فإنْ رجَعَ إلى بعْضِ المحْسوسِ وجَدَهُ كالخَيالِ، ثُمَّ رُدَّ إلى حضْرةِ القُدّوسِ في الحالِ".

والحاصِلُ أنَّ المُشاهدةَ قدْ تنَوَّعَتْ باخْتلافِ الشّاهد، والحقُّ فيها هوَ الواحِدُ، فمَنْ شهِدَهُ بالمشْهَدِ الأوَّلِ، فقَدْ أشْرَقَتْ لهُ الأنْوارُ، فاسْتَدَلَّ بالمُؤثِّرِ على الآثارِ، أو بالمَشْهَدِ الثّاني فقَدْ لاحَتْ لهُ الأواني وصارَ في الدِّهْليزِ ومِنَ البابِ عبرَ، فاسْتَدَلَّ بالمُؤثِّرِ على الأثَرِ، ومَنْ شهِدَهُ فيهِ أوْ عِنْدَهُ فقَدِ اسْتَغْرَقَ في الحقِّ جَهْدَهُ، لا زالَ يُعاني حتَّى لاحَتْ لهُ المعاني، أشْرَقَ لقَلْبِه اللَّوائحُ اللّامعة، فأشْرَفَ منْها على آيةِ الواقعةِ، فهوَ مِنَ الذينَ لا يغْفَلون عَنْ مُنازَلَةِ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥].

وحاصِلُ هذينِ المَشْهَدَيْنِ شُهودُهُ تعالَى معَ الكَوْنَينِ، لكنَّ المَعيَّة الأولى معيَّةُ اتِّصالٍ، والثَّانيةَ معيَّةُ انْفِصالٍ، ولَيْسَ فيها زمانٌ ولا مكانٌ، كيْفَ وهما مِنْ جُمْلَةِ الأكْوانِ؟! والفَرْقُ بيْنَ هذهِ الحَقائِقِ، لا يعْرِفُهُ إلّا ذائِقٌ، وقَدْ زلَّتْ فيهِ الأقْدامُ، وتحَكَّمَتْ على العُقولِ الأوهامُ.

تنْبيهٌ: قالَ بعْضُهُمْ: لا يَصِحُّ لعارِفٍ يرَى اللهَ قبْلَ كُلِّ شيءٍ ومعهُ وبعْدهُ عَداوتُهُ لأحدٍ؛ لأنَّهُ لا يجِدُ مَنْ يُرسِلُ عَداوتَهُ علَيْهِ، بلْ إنْ شهِدَهُ قبْلَ كُلِّ شيءٍ حجبهُ عنْ رؤيةِ ذلِكَ الشَّيءِ، وإنْ شهِدَهُ معَ ذلِكَ الشَّيءِ سقَطَ ذلِكَ الشَّيءُ، كما قالَ الجنيدُ: "إذا قُرِنَ الحادثُ بالقَديمِ اضْمَحَلَّ"، وإنْ شهِدَهُ بعْدَ كُلِّ شيءٍ على الأثَرِ، لمْ يجِدْ زمَنًا يُثْبِتُ فيهِ أفْعالَ الخَلْقِ لَهُمْ دونَ اللهِ، لِيُرْسِلَ عليهِمْ عَداوتَه.

***

١٥. مِمّا يدُلُّكَ على وُجودِ قهْرِهِ سُبْحانَهُ أنْ حجَبَكَ عنْهُ بِما ليْسَ بِمَوْجودٍ معَهُ.

(**مِمّا يدُلُّكَ على وُجودِ قهْرِهِ سُبْحانَهُ**) لخَلْقِهِ (**أنْ حجَبَكَ عنْهُ بِما**) أي: بِرُؤْيةِ ما (**ليْسَ بِمَوْجودٍ معَهُ**) حقيقةً، وهوَ الأكْوانُ المُتَّصفةُ بالعَدَميَّةِ، وقدْ تقرَّرَ في العُقولِ أنَّهُ تعالَى خالِقُ كُلِّ شيءٍ، فالكُلُّ مِنْهُ وإلَيْهِ، فوُجودُ كُلِّ شيءٍ بِهِ ولهُ لا معَهُ؛ لأنَّ الكُلَّ عدَمٌ، والعَبْدُ محْجوبٌ بِها عنْهُ، وهوَ عدَمٌ، فالعَدَمُ حجَبَ العَدَمَ، واحْتِجابُ المُعْدَمِ بالعَدَمِ دليلُ ظُهورِ الوُجودِ بِالوُجودِ بِلا حُجُبٍ، وذلِكَ مِنْ أكْبَرِ شواهِدِ العَظَمةِ.

وما احتَجبَتْ إلّا برفعِ حِجابِها * ومِنْ عجَبٍ أنَّ الظُّهورَ تسَتُّرُ[1]

وحينئذٍ فمَنْ كانَ لهُ إلى اللهِ وِجْهةٌ تحَقَّقَ بأنَّ كُلَّ شيءٍ هالِكٌ إلّا وجْهَهُ، لا يشْهَدُ إلّا الحَيَّ القَيّومَ، ويقْطَعُ بأنَّ ما سِواهُ مَعْدومٌ؛ لكنَّهُ تعالَى لعَظَمةِ كمالِهِ وشِدَّةِ قهْرِهِ وجَلالِهِ حجَبَ

(١) من شعر أبي العباس المرسي، من قصيدة مطلعها "أعندك من ليلى حديث محرَّرٌ".

العُقولَ بما ليْسَ بمَوْجودٍ بلْ عدَم في عيْنِ الشُّهودِ، فأنْتَ بكَ عَنْكَ محْجوبٌ، فلوْ فَنَيْتَ لبَقيْتَ بالحَقِّ المطْلوبِ، وبذَلِكَ تبيَّنَ أنَّ حجْبَ الخَلْقِ بِهِمْ، وأمّا الباريّ -تقَدَّسَ- فلا يصِحُّ كوْنُهُ حِجابًا ولا محْجوبًا، فتوهُّمُ وُجودِ الغَيْرِ معَهُ مُحالٌ عِنْدَ أهْلِ الكَمالِ.

فبِهَذا الشُّهودِ، السِّوَى مفْقود، ومن رأي السِّوى، فهوَ على غيْرِ اسْتِوا؛ لنُفوذِ إرادةِ القَهّارِ فيهِ الغالِبَةِ على أمْرِهِ، ووُجودِ الأشْياءِ كُلِّها مُفاضةٌ عَنْ وُجودِ صِفاتِهِ وأسْمائِهِ، لمْ يخْرُجْ عنْها ذرّةٌ فيما فوْقَ الفَوْقِ وتحْتَ التَّحْتِ.

ومَنْ غلَبَ علَيْهِ هذا الشُّهودُ، صفا لهُ الشَّراب، ورأى الكائِناتِ كالسَّراب، وأُتحِفَ بسَماعِ الخِطاب، وهذا معْنَى الفَناءِ عَنِ الكائِناتِ بمُكوِّنِها، وَعِنِ الشُّهودِ بالمشْهودِ؛ فلِذَلِكَ ترَى صاحِبَ هذا الاصْطِلامِ لا تُؤثِّرُ فيهِ الأوْهامُ، وكُلَّما رأى طَوْرًا مِنْ أطْوارِ الكائناتِ ردَّهُ إلى شُهودِ التَّجلّياتِ، وما مِنْ شيءٍ إلّا يدُلُّكَ علَيْهِ، لكِنَّكَ لا تدْري كيْفَ تسيرُ إلَيْهِ، دلَّتْ مصْنوعاتُهُ على وحْدانيَّتِهِ، وبرْهَنَتْ آياتُهُ على فرْدانيَّتِهِ.

وفي كُلِّ شيءٍ لهُ آيةٌ * تدُلُّ على أنَّهُ واحِدُ[(١)]

قالَ الخوّاصُ: "إذا كَمُلَ العبْدُ في مقامِ الحُضورِ معَ اللهِ صارَ قلْبُهُ معَهُ في الأماكِنِ والأزْمانِ، لا يتكلَّفُ للحُضورِ معَهُ كما لا يتَكلَّفُ لِدُخولِ النَّفَسِ وخُروجِهِ، ورُبَّما أُعْطيَ هذا المقامَ في السَّكْتةِ التي عقِبَ الذِّكْرِ، فيَصيرُ يشْهَدُ الحَقَّ بعْدَ كُلِّ شيءٍ ومعَهُ وقبْلَهُ وبعْدَهُ، فلا يحْجُبُهُ عَنْ ربِّهِ شيءٌ".

وممّا يوضِّحُ ذلِكَ ما أتَى بِهِ المؤلِّفُ مِنْ أطْوارِ التَّجلّياتِ التِّسْعِ، الحاويةِ لتَنْزيهِ الذّاتِ، وتقَدُّسِ الصِّفاتِ، وتجَلّي الأسْماءِ عَنْ باطِنِ المُسبَّباتِ، بأجلى العِباراتِ وألْطفِ الإشاراتِ في قوْلِه:

(١) من شعر أبي العتاهية، إسماعيل بن القاسم بن سويد (١٣٠-٢١١هـ)، شاعر مكثر، سريع الخاطر، في شعره إبداع، كان ينظم المائة والمائة والخمسين بيتا في اليوم الواحد. يعد من مقدمي المولدين، من طبقة بشار وأبي نواس وأمثالهما. كان يجيد القول في الزهد والمديح وأكثر أنواع الشعر في عصره. ولد ونشأ قرب الكوفة، وسكن بغداد وتوفي فيها. [الأعلام للزركلي، ج١/٣٢١]

١٦. كَيْفَ يُتَصوَّرُ أنْ يحجُبَه شَيء، وهوَ الذي أظهرَ كُلَّ شيءٍ؟! كَيْفَ يُتَصوَّرُ أنْ يحْجُبَهُ شيء، وهوَ الذي يظهَرُ بِكُلِّ شيءٍ؟! كَيْفَ يُتَصوَّرُ أنْ يحْجُبَهُ شيء، وهوَ الذي ظهرَ في كُلِّ شيءٍ؟! كَيْفَ يُتَصوَّرُ أنْ يحْجُبَهُ شيء، وهوَ الذي ظهرَ لِكُلِّ شيءٍ؟! كَيْفَ يُتَصوَّرُ أنْ يحْجُبَهُ شيء، وهوَ الظّاهِرُ قبْلَ وُجودِ كُلِّ شيءٍ؟! كَيْفَ يُتَصوَّرُ أنْ يحْجُبَهُ شيء، وهوَ أظْهَرُ مِنْ كُلِّ شيءٍ؟! كَيْفَ يُتَصوَّرُ أنْ يحْجُبَهُ شيء، وهوَ الواحِدُ الذي ليْس معَهُ شيءٌ؟! كَيْفَ يُتَصوَّرُ أنْ يحْجُبَهُ شيء، وهوَ أقْرَبُ إلَيْكَ مِنْ كُلِّ شيءٍ؟! كَيْفَ يُتَصوَّرُ أنْ يحْجُبَهُ شيء، ولوْلاهُ ما كانَ وُجودُ كُلِّ شيءٍ؟! يا عَجَبًا كيْفَ يظْهَرُ الوُجودُ في العَدَمِ؟! أمْ كَيْفَ يثْبُتُ الحادِثُ معَ مَنْ لَهُ وصْفُ القِدَمِ؟!

(**كَيْفَ يُتَصوَّرُ أنْ يحجُبَه شيءٌ، وهوَ الذي أظهرَ كُلَّ شيءٍ**) مِنَ العَدَمِ إلى الوُجودِ، فكانَ وكيلًا علَيْهِ لِكُلِّ موجودٍ، بما أفاضَ علَيْهِ مِنْ رحْمَتِه وآثارِ قُدْرتِه حتَّى صارَ مِرآةً لما فيه، وإذا كانَ هوَ الذي أظْهَرَ كُلَّ شيءٍ، فكَيْفَ يُتَصوَّرُ أنْ يحْجُبَهُ شيءٌ؟! وهذا الإظْهارُ امْتِنانٌ مِنْ حضْرةِ اسْمِهِ المَنّانِ؛ والظّاهِرُ بِهِ مِنَ المَظاهِرِ مقْهورٌ تحْتَ القاهِرِ، والمقْهورُ لا يكونُ حِجابًا للقاهِرِ، فدَقِّقِ الاعْتِبارَ، تكُنْ مِنْ أهْلِ الاسْتِبصارِ!

(**كَيْفَ يُتَصوَّرُ أنْ يحْجُبَهُ شيءٌ، وهوَ الذي يظهَرُ**) وُجودُهُ (**بِكُلِّ شيءٍ**) بما أظْهَرَ فيه، فكانَ عِرْفانُهُ على قدْرِ تعْريفِه، فلِهَذا قيلَ: ما ثَمَّ إلّا عارِفٌ بِهِ على قَدْرِهِ، وهذا ظُهورُ الحَقِّ بعْدَ إظْهارِ الخلْقِ، فالأوَّلُ تجلّي اسْمِهِ الباطِنِ، والثّاني تجلّي اسْمِهِ الظّاهِرِ، وهذا الظُّهورُ يكونُ لِلخاصّةِ بالأسْماءِ والصِّفاتِ، ولِلعامّةِ بالنَّظَرِ في المُكوَّناتِ.

(**كَيْفَ يُتَصوَّرُ أنْ يحْجُبَهُ شيءٌ، وهوَ الذي ظهرَ في كُلِّ شيءٍ**) أيْ: ظهرَ في

المَصْنوعاتِ بالصَّنْعةِ المُحْكَمةِ المُتْقَنةِ، التي هي على وَفْقِ العِلْمِ والحِكْمةِ، أوْ يُقالُ: ظهرَ في كُلِّ شيءٍ بِما أظْهرَ فيهِ مِنَ القَضاءِ والتَّصرُّفِ والتَّدْبيرِ.

(**كيْفَ يُتَصوَّرُ أنْ يحْجُبَهُ شيءٌ، وهوَ الذي ظهرَ لِكُلِّ شيءٍ**) أي: ظهَرَ لهُ بقيامِهِ بهِ تعالَى دون قيامِ ذلِكَ الشَّيءِ بنَفْسِهِ؛ فلِهَذا كانَ كُلُّ شيءٍ يُسَبِّحُ بحَمْدِهِ طوعًا أوْ كرهًا.

وسُئِلَ بعْضُهُمْ: كيْفَ يشْكو المُحِبُّ للهِ البِعادَ، والحقُّ لم يزَلْ في قلْبِ العَبْدِ يشْهَدُهُ بِنورِ الإيمانِ وسِرِّ الإيقانِ؟! فقالَ: تأوُّهُ بعْضِ المُحِبّينَ وشكْواهُ البِعادَ جهْلٌ باللهِ، ولو عرَفَهُ بصِفاتِ الكَمالِ والجَلالِ لغارَ علَيْهِ -معَ شِدّةِ ظُهورِهِ- أنْ ينْظُرَ إلَيْهِ بعَيْنٍ فانيةٍ.

(**كيْفَ يُتَصَوَّرُ أنْ يحْجُبَهُ شيءٌ، وهوَ الظّاهِرُ قبْلَ وُجودِ كُلِّ شيءٍ**) أزَلًا؛ لأنَّ وُجودَ كُلِّ شيءٍ صُنْعُهُ، فكانَ قبْلَ وُجودِهِ، فهوَ الأوَّلُ الذي لا مُفْتَتَحَ لوُجودِهِ.

(**كيْفَ يُتَصَوَّرُ أنْ يحْجُبَهُ شيءٌ، وهوَ أظْهَرُ مِنْ كُلِّ شيءٍ**) لأنَّهُ موجودٌ وغيْرُهُ معْدومٌ، ولا يصِحُّ ظُهورُ الموْجودِ دون موْجِدِهِ، لكِنْ إذا عظُمَ نورُ المشْهودِ عزَّ إدْراكُهُ في الشُّهودِ، ألا ترَى أنَّ الخُفّاشَ في الحِسِّ لا يُطيقُ رُؤيةَ الشَّمْسِ؟!

مثلُ النَّهارِ يزيدُ أبْصارَ الورَى * نوراً ويُعْمي أعْيُنَ الخُفّاشِ[1]

وأفْعَلُ التَّفْضيلِ ليْسَ على بابِهِ بلْ هوَ مِنْ قبيلِ التّنزُّلِ للأفْهامِ التي غلبَتْ علَيْها الأوْهامُ؛ لأنَّهُ تعالَى واجِبُ الوُجودِ، وما سِواهُ مُمكِنُ الوُجودِ، ولا جامِعَ بيْنَ المُمْكِنِ والواجِبِ حتَّى يجْرِيَ القِياسُ، فدَعْ عنْكَ الفِكْرَ والوَسْواسَ.

(**كيْفَ يُتَصَوَّرُ أنْ يحْجُبَهُ شيءٌ، وهوَ الواحِدُ الذي ليْس معَهُ شيءٌ**) أزَلًا وأبدًا، وإنَّما وُجودُ الخَلْقِ بهِ لا بِهِمْ، وما ثَمَّ إلّا اللهُ وأفْعالُهُ، ولأنَّ مَنْ سِواهُ لهُ مِثْلٌ يُقاسُ بهِ علَيْهِ، إذْ ما جازَ لأَحَدِ المِثْلَيْنِ جازَ للآخَرِ، وهوَ لا مِثْلَ لهُ؛ فالحَقُّ مُتَوحِّدٌ، والتَّوحيدُ نورٌ، والحِجابُ ظُلْمةٌ، واجْتِماعُ الضِّدَّيْنِ مُحالٌ.

(١) من شعر هبة الله بن صاعد، أمين الدولة، المعروف بابن التلميذ (٤٦٥-٥٦٠هـ).

(كيْفَ يُتصَوَّرُ أنْ يحْجُبَهُ شيءٌ، وهوَ أقْرَبُ إليْكَ مِنْ كُلِّ شيءٍ) لإحاطَتِه بقيّوميَّتِه عليْكَ، وتصرُّفِهِ فيكَ بكُلِّ شيءٍ قبلَ وُجودِ كُلِّ شيءٍ، فهوَ أقْرَبُ إليْكَ حتَّى مِنْ نفْسِكَ ونَفَسِكَ، قالَ تعالَى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٥].

(كيْفَ يُتصَوَّرُ أنْ يحْجُبَهُ شيءٌ، ولوْلاهُ لما كانَ وُجودُ كُلِّ شيءٍ) لافْتِقارِ كُلِّ شيءٍ؛ لأنَّهُ واجِبُ الوُجودِ لذاتِهِ، وما سِواهُ واجِبٌ لغَيْرِهِ، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، فحقيقةُ قيامِ القَيّوميّةِ بالمَخْلوقاتِ هوَ الذي أوْجَدَها قيامُ الصِّفاتِ، فلوْ محا مِنْ عيْنِكَ خَيالَ الخَيالِ، شهِدْتَ في كُلِّ الكَوْنِ مَنْ لمْ يزَلْ ولا يزالُ.

ألا كُلُّ شيءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ[١]

وفيهِ ردٌّ لِمَنْ قالَ: "إنَّ للحَقِّ حِجابًا مِنْ ذاتِهِ"، وأما ما ورَدَ: (حِجابُهُ النّورُ)[٢]، و(إنَّ للهِ سَبْعينَ ألْفَ حِجابٍ)[٣]، ونَحْوَ ذلكَ، فهذهِ الحُجُبُ في الحَقيقةِ تعرُّفاتٌ، وإنَّما هيَ حُجُبٌ لِمَنْ وقَفَ معَها دونَ أنْ يشْهَدَ المُتعرَّفَ بها.

(يا عَجَبًا) الألِفُ بدَلٌ عن الإضافةِ، والمعنى: يا عَجَبي احْضُرْ، كما قرَّرَه التَّفتازانيُّ[٤] في حاشيةِ الكشَّافِ، **(كيْفَ يظْهَرُ الوُجودُ في العَدَمِ؟!)** معَ أنَّهُ ظُلمةٌ والوُجودُ نورٌ، فأنَّى يجْتَمِعانِ؟ **(أمْ كيْفَ يثْبُتُ الحادِثُ معَ مَنْ لَهُ وصْفُ القِدَمِ؟!)** معَ أنَّ الحادِثَ لا قيامَ لَهُ

(١) للشاعر الجاهلي لبيد بن ربيعة، وقد وصف النبي ﷺ هذا الشطر بأنه أصدق كلمة قالها شاعر.
(٢) أخرجه مسلم (١٧٩)، وغيره من حديث أبي موسى رضي الله عنه مرفوعًا.
(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٧٨٨)، وأبو يعلى (٨٢)، وأبو الشيخ في العظمة (٢٦٣)، والطبراني في الكبير (٦/رقم ٥٨٠٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢٦٣)، و(٨٥٤)، وغيرهم من حديث عبدالله بن عمرو وسهل بن سعد رضي الله عنهم مرفوعًا، وضعَّفه البيهقي.
(٤) مسْعُود بن عمر التفتازانيُّ، الإمام الكبير صاحب التصانيف المشهورة المعروف بسعد الدِّين، ولد بتفتازان في صفر سنة ٧٢٢، وأخذ عن أكابر أهل العلم في عصره كالعضد وطبقته، وفاق في كثيرٍ من العُلوم وطار صيته واشتهر ذكره ورحل إليه الطلبة، وشرع في التصنيف وهو في ست عشرة سنة، ومن مُصنَّفاته الجليلة "شرح تلخيص المفتاح"، و"شرح رسالة الشمسية"، و"شرح العقائد"، و"تهذيب الكلام" و"الحاشية على تفسير الكشَّاف"، تُوفِّي بعدها يوم الاثنين الثاني والعشرين من شهر محرم سنة ٧٩٢، وقيل ٧٩١. انظر "الدرر الكامنة" لابن حجر (٦/١١٢)، و"البدر الطالع" للشوكاني (٢/٣٠٣).

بنَفْسِه، ولا وُجودَ لهُ مِنْ ذاتِه، والقَديمُ لا ثُبوتَ لشيءٍ معَ ظُهورِ صفاتِه؛ إذِ الباطِلُ لا يثْبُتُ معَ الحَقِّ، ألا كُلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطِلُ، فإذا ظهرَ الحقُّ اختَفَى كُلُّ شيءٍ وبطَلَ.

عطَسَ رجُلٌ عِنْدَ الجَنيدِ فقالَ: الحمْدُ للهِ، فقالَ: كَمِّلْهُ[١]، قالَ: وأيُّ قَدْرٍ للعالَمِ حتَّى يُذْكَرَ معَهُ؟! قالَ: قُلْهُ، فإنَّ الحادِثَ إذا قُرِنَ بالقَديمِ تَلاشَى وبَقِيَ القَديمُ وحْدَه.

والقِدَمُ في حقِّه سُبْحانَهُ وتَعالَى باعْتبارِ ذاتِهِ العَلِيّةِ سَلْبُ العَدَمِ السّابِقِ على الوُجودِ، وإنْ شِئْتَ قُلْتَ: عدَمُ الأَوَّلِيّةِ لوُجودِهِ، أو عدَمُ افْتِتاحِ وُجودِهِ. ولهذا قالَ بعْضُ الأثباتِ: تجَلِّي ذاتِ الحَقِّ يمحَقُ الكائناتِ، وتجَلِّي صِفاتِهِ يوجِبُ لها الثَّباتَ، ولذَلِكَ لا تُطاقُ دونَهُ الذّاتُ بالأَبْصارِ، ولا يُدرَكُ كُنْهُها بالعُقولِ والأفْكارِ، أنَّى لحائرٍ حادِثٍ سَقيمٍ أنْ يثْبُتَ لوُجوبِ الوُجودِ القَديمِ؟!

كُلُّ المعارِفِ والعَوارِفِ أُغْرِقَتْ * في بحْرِ إجْلالِ الوُجوبِ الأَوَّلِ
يا طالِبًا لجَوازِهِ بجَوازِهِ * هذا الجَوازُ قدِ اسْتَحالَ بمَعْزَلِ

قالَ في التَّنْويرِ[٢]: "لوِ انْهتَكَ حِجابُ الوَهْمِ، لوقَعَ العَيانُ على فقْدِ الأعْيانِ".

والحاصِلُ أنَّهُ سُبْحانَهُ أظْهَرَ الأَشْياءَ وأبْدَعَها، ولِلدَّلالةِ علَى كمالِهِ اخْترَعَها، فأنَّى تَكونُ حِجابًا؟! لا يتوهَّمُها كذَلِكَ إلّا مَنْ حارَ صَوابًا، ظهَرَ بمُبدَعاتِه وخَفِيَ عنِ العُقولِ بذاتِهِ، لوْلا خلْقُهُ ما اهْتُدِيَ إليه، فلا يكونُ شيءٌ منْها حِجابًا علَيْه، تجَلَّتْ حضْرةُ أسْمائِهِ وصِفاتِهِ في كُلِّ شيءٍ مِنْ مُكوَّناتِهِ، فهوَ الظّاهِرُ في كُلِّ شيءٍ، فلا يحْجُبُهُ شيءٌ، والخَفِيُّ عَنْ كُلِّ شيءٍ فلا يعْلَمُهُ شيءٌ.

بدَتْ باحْتِجابٍ واختَفَتْ بمَظاهِرٍ * على صِبغِ التَّلْوينِ في كُلِّ بَرْزَةِ[٣]

(١) أي بصيغة "الحمد لله رب العالمين"، كما في رواية أبي داود والترمذي من حديث سالم بن عبيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال النبيّ ﷺ: (إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد للّه ربّ العالمين ...) الحديث.

(٢) كتاب التنوير في إسقاط التدبير، لابن عطاء الله السكندري، وقد سبق أن أصدرته كشيدة للنشر والتوزيع ضمن سلسلة تراث الأزهريين.

(٣) من شعر سلطان العاشقين ابن الفارض، من تائيته الكبرى التي مطلعها:
سَقَتْني حُمَيّا الحُبِّ رَاحَةُ مُقْلَتِي * وَكَأْسِي مُحَيّا مَنْ عَنِ الحُسْنِ جَلَّتِ

وصْفُ الظَّاهِرِيَّةِ لهُ أزلًا وأبدًا، فلا يَحْجُبُهُ شيءٌ على طولِ المَدى، هوَ أظْهَرُ مِنْ كُلِّ شيءٍ؛ لأنَّهُ عيْنُ الوُجودِ، ومِنْ حضْرَتِهِ تعيَّنَ كُلُّ مَشهودٍ، (كانَ اللهُ ولا شيءَ معَهُ، وهوَ الآنَ كذَلِكَ)(١)، فتخَلَّصْ مِنْ ليْلِ وهْمِكَ الحالِكِ، لا شيءَ في الحقيقةِ إلَّا واحدٌ، كلُّ مَنِ اسْتَفادَ الوُجودَ فهوَ عدمٌ في عيْنِ الشَّاهِدِ، كيْفَ يقَعُ الحِجابُ بما هوَ السَّرابُ؟!، يا هذا، الحقُّ مُحيطٌ بالجَواهِرِ والأعْراضِ، عالِمٌ بالسَّرائرِ والأغْراضِ، هوَ أقْرَبُ إلَيْكَ مِنْ كُلِّ قريبٍ، فكَيْفَ يُحْجَبُ عَنْكَ؟! ما ذاكَ إلَّا عَجيبٌ، كيْفَ يُحْجَبُ الرَّبُّ عَنِ المَرْبوبِ؟! مَنْ ظَنَّهُ كذَلِكَ فهوَ المحْجوبُ، لوْلا توَجُّهُ عِنايَتِهِ نحْوَ المُمْكِناتِ لَمْ تَظهَرْ مِنَ العَدَمِ، لوْلا سناهُ لَمْ تخْلُصْ مِنْ حالِكِ الظُّلَمِ، فسُبْحانَ مَنْ ألْبَسَها ثَوْبًا مِنْ حضْرةِ الوُجودِ، لوْلاهُ لَمْ تبْرُزْ إلى عيْنِ الشُّهودِ، كيْفَ يُحْجَبُ بِها وهيَ صنائِعُه؟! كيْفَ لا تَدُلُّ علَيْهِ وهيَ بدائِعُه؟! تعالَتْ حضْرةُ ذاتِهِ عَنِ الظُّهورِ في مخْلوقاتِهِ، لا ظُهورَ للوُجودِ في العَدَمِ، ولا ثُبوتَ للحُدوثِ معَ القِدَمِ.

ولَقَدْ أبْدَعَ المُؤلِّفُ –رحِمَهُ اللهُ– في قوْلِهِ: "الكَوْنُ كُلُّهُ ..." إلى هُنا غايةَ الإبْداعِ، وأتَى بما يُطْرِبُ الأذْهانَ وتَلَذُّ بِهِ الأسْماعِ، مُشْتَمِلًا على جميعِ مُتَعلّقاتِ الظُّهورِ، وإبْطالِ حِجابَتِهِ كُلِّ ظلامٍ ونورٍ، وأراكَ فيهِ الحَقَّ رؤيةَ بُرهانٍ، ورفَعَكَ مِنْ مقامِ الإيمانِ إلى أعلى مَراتِبِ الإحْسانِ، بأوْجَزِ لفْظٍ وأتَمِّ بيانٍ، وأفْصَحِ عِبارةٍ، وألْطفِ إشارةٍ.

قالَ الشَّارِحُ(٢): وهذا الفصْلُ نُخبةُ الكِتابِ، ولُبُّ لُبابِ الألْبابِ، تكَلَّمَ في صدْرِهِ على بدايةِ الهِدايةِ، وأشارَ في آخِرِهِ إلى نِهايةِ النِّهايةِ؛ لكِنَّهُ معْدِنُ غُرورِ الجُهّالِ، ومزَلّةُ أقْدامِ الرِّجالِ، فمِنْ مُنْكِرٍ ومُتَعصِّبٍ، ولا أحْمَقَ مِنْ مُتعَصِّبٍ بِباطِلٍ، أوْ مُنْكَرٍ لما هوَ بهِ جاهِلٌ؛ فإنْ عرَفْتَ فاتَّبِعْ، وإنْ جهِلْتَ فسَلِّمْ وارتَدِعْ، وعلَيْكَ بكَمالِ التَّنْزيهِ، ونفْيِ التَّشْبيهِ، وتمَسَّكْ بأنَّهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وتجَنَّبْ أباطيلَ مَنْ تفَلْسفَ معَ ادِّعائِهِ

(١) أخرج البخاريُّ (٧٤١٨)، وغيره من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: (كان الله ولم يكن شيء قبله)، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/٤١٠): وهو بمعنى "كان الله ولا شيء معه".

(٢) هو التونسي أبو المواهب جمال الدين محمد بن أحمد، المعروف بابن زغدان، وقد أكثر العلامة المناوي من الاقتباس منه، مشيرا إليه بقوله "قال التونسي" أو "قال الشارح".

التَّصوُّفِ، وما وقَعَ لسلَفِ هذهِ الطَّائفة مِمّا يُنْكِرُهُ الشَّرْعُ؛ فإنْكارُ ظاهِرِهِ لازِمٌ، والتَّسليمُ لَهُمْ واجِبٌ، إذِ التَّكْفيرُ خطَرٌ، وتركُ النَّكيرِ غِشٌّ للشَّريعةِ.

وقَدْ سُئِلَ الغُوري عُمْدةُ المغْربِ عَنِ ابْنِ عرَبي فقالَ: "أعْرَفُ بِكُلِّ فنٍّ مِنْ أهْلِه"، قيلَ: ما سألناكَ عَنْ هذا، قالَ: "اخْتُلِفَ فيهِ مِنَ الكُفْرِ إلى القُطْبانيّةِ"، قيلَ: فما تُرَجِّحُ؟ قالَ: "التَّسْليمُ، سلِّمْ تَسْلَمْ، والسَّلامُ".

تنْبيهٌ: إذا رأَيْنا في كَلامِ أحَدٍ مُوهِمًا أو مُبْهَمًا لزِمَنا تأَوُّلُهُ بما يرُدُّهُ لأصْلِ الحَقِّ ويوافِقُ الأُصولَ الشَّرْعيّةَ، وليْسَ صوفيٌّ بأَوْلَى مِنْ فقيهٍ ولا عكْسُه، بلِ الصّوفيُّ أعْذَرُ وأوْلَى بتأْويلِ كَلامِهِ؛ لضيقِ العبارةِ عَنْ مقاصِدِه، ورَوْمِهِ التَّحْقيقَ بإشارَتِه، فإنْ سُوِّغَ التَّأْويلُ في أحَدِهما لزِمَ في الآخرِ، والقَوْلُ بأنَّهُ لا يُتَأَوَّلُ إلّا كَلامُ المعْصومِ يُنادي علَيْهِ بالرَّدِّ والنَّقْضِ تأْويلُ الأئِمّةِ كَلامَ مِثلِهِمْ مِمّا لا يكادُ يُحْصَى، وقاعِدةُ "التَّوقُّفُ في مَحَلِّ الاشْتِباهِ مطْلوبٌ" مذمَّةٌ فيما اسْتَبانَ وجْهُهُ مِنْ خيْرٍ أوْ شَرٍّ، ومبْنَى الطَّريقِ على ترْجيحِ الظَّنِّ الحسَنِ عِنْدَ موْجِبِهِ وإنْ ظَهَرَ مُعارِضٌ، حتَّى قالَ ابْنُ فورك[1]: "الغلَطُ في الحُكْمِ بإدْخالِ ألْفِ كافِرِ النّارَ معَ شُبْهةِ إسْلامِه، أخَفُّ مِنَ الغَلَطِ في إخْراجِ مُؤمِنٍ مِنَ الإيمانِ لشُبْهةٍ ظهَرَتْ مِنْهُ". وسُئِلَ مالكٌ[2] عَنْ أهْلِ الأهْواءِ: أكُفّارٌ هُمْ؟ قالَ: "مِنَ الكُفْرِ فرُّوا". والتَّكْفيرُ خطَرٌ عظيمٌ يعودُ على صاحِبِهِ بضَرَرٍ جسيمٍ، فإيّاكَ، والسَّلامُ.

---

(١) شيخ المتكلمين الأستاذ أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك، المتكلم الأصولي، الأصبهاني، بلغت تصانيفه في أصول الدين وأصول الفقه ومعاني القرآن قريبا من المئة. منها: مشكل الحديث وغريبه، والحدود، وأسماء الرجال، والتفسير، وغريب القرآن، وغيرها، توفي سنة ٤٠٦. وفيات الأعيان (٤/٢٧٣)، طبقات السبكي (٤/١٢٧).

(٢) إمام دار الهجرة، أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الحميري، ثم الأصبحي، المدني أحد الأئمّة الأربعة المتبوعين، وإليه يُنسب المالكية، المولود بذي المروة بالمدينة المنورة سنة ٩٣ على الأصح. قال الشافعي: "جعلت مالكا بيني وبين الله حُجَّةً، وإذا ذُكر العلماء فمالكٌ النجم الثاقب". صنَّف "الموطأ" وشهرته تغني عن التطويل في ترجمته، تُوفي بالمدينة المنورة ودفن بالبقيع سنة ١٧٩. انظر: "التاريخ الكبير" للبخاري (٧/٣١٠)، و"حلية الأولياء" (٦/٣١٦)، و"منازل الأئمة" للأزدي (ص ١٨٣)، و"وفيات الأعيان" (٤/١٣٥).

وعبارة "من الكفر فروا" المذكورة وردت عن الإمام علي رَضِوَاللَّهُعَنْهُ عندما سئل عن الخوارج، ووردت أيضا عن الإمام مالك رَضِوَاللَّهُعَنْهُ عندما سئل عن المعتزلة.

وفي سِراجِ العُقولِ للقزْويني[1] عَنْ إمامِ الحرَمَيْنِ[2] أنَّهُ سُئِلَ عنْ بعْضِ كلامِ غُلاةِ الصَّوفيَّةِ فقالَ: "لوْ قيلَ لنا فَعلوا ما يقْتَضي التَّكْفيرَ مِنْ كَلامِهِمْ مِمَّا لا يقْتَضيه، قُلْنا هذا طمَعٌ في غيْرِ مطْمَعٍ، فإنَّ كَلامَهُمْ وعِرُ المَدْرَكِ بعيدُ المسْلَكِ، يغْتَرِفُ مِنْ تَيَّارِ بِحارِ التَّوْحيدِ، ومنْ لَمْ يُحِطْ بِنهاياتِ الحقائِقِ، لَمْ يحْصُلْ مِنْ دلائِلِ التَّكْفيرِ على وَثائِقَ".

***

١٧. ما ترَكَ مِنَ الجَهْلِ شَيْئًا مَنْ أرادَ أنْ يُظْهِرَ في الوَقْتِ غيْرَ ما أظْهَرَهُ اللهُ فيه.

(**ما تَرَكَ مِنَ الجَهْلِ شَيْئًا مَنْ أرادَ أنْ يُظْهِرَ في الوَقْتِ**) أيْ: الزَّمَنِ الحاضِرِ (**غيْرَ ما أظْهَرَهُ اللهُ فيه**) مِنْ نِعمةٍ وطاعةٍ وضِدِّهِما، لِمُضادَّةِ العقْلِ بإرادةِ رفْعِ الواقِعِ وإيقاعِ المُمْتنِعِ، .. والشَّرْعِ باعْتِراضِهِ على ربِّهِ وسوءِ أدَبِهِ معَهُ فيما قضاهُ وأرادَهُ، .. والعادةِ بعدَمِ رِعايَتِهِ حِكْمَةَ اللهِ في خلْقِهِ، واعْتِبارِهِ بِسُنَّةِ اللهِ في مُريدِ ذلِكَ، لاقْتِضائِها عدَمَ إسْعافِهِ بِمُرادِهِ؛ فلِذلِكَ كانت مُعانَدَةُ الوَقْتِ غايةً لانْسِدادِ طُرُقِ العِلْمِ الثَّلاثةِ علَيْهِ.

والوَقْتُ: الزَّمَنُ الذي لا يقْبَلُ غيْرَ ما ظهرَ فيه بِحُكْمِ التَّصْريفِ الإلَهِيِّ، فإذا أقامَكَ الحَقُّ في حالةٍ لا تُنكَرُ شرْعًا فلا تُرِدْ غيْرَها قطْعًا؛ فإنَّ الإرادةَ للهِ لا للعَبْدِ، فإنْ أبَى إلّا مُرادَهُ حِيلَ

(١) أبو محمد طاهر بن أحمد بن محمد القزوينيّ، يعرف بالنّجّار، أديب متفنّن، له تصانيف منها: سراج العقول في منهاج الأصول، ومسالك البحث، ونقض التعليم وكشف التوهيم، ويواقيت العلوم ودراري النّجوم، وذخر الخواصّ في تفسير سورة الإخلاص، وغيرها، توفي سنة ٥٨٠. معجم الأدباء للحموي (١٤٥٦/٤)، والدر الثمين لابن الساعي (ص٤٠١)، والوافي بالوفيات للصفدي (٢٢٥/١٦).

(٢) أبو المعالي عبد الملك ابن الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي يعقوب يوسف بن عبد الله، الجويني، الفقيه الشافعي، المعروف بإمام الحرمين؛ أعلم المتأخّرين من أصحاب الإمام الشافعي، ولد سنة ٤١٩، خرج إلى الحجاز وجاور بمكة أربع سنين وبالمدينة، يدرّس ويفتي، ومن تصانيفه: نهاية المطلب في دراية المذهب، والشامل في أصول الدين، والبرهان في أصول الفقه، وتلخيص التقريب وغيرها، توفي سنة ٤٧٨. انظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٤٣/١٦)، وطبقات الشافعية للسبكي (١٦٥/٥).

بيْنَهما، ووقَعَ في ورْطةِ الجهْلِ بالحِكْمةِ الإلَهيَّةِ المُقْتَضيةِ مُرادَ اللهِ دون مُرادِه، وإنَّما يوقِعُ في الحيرةِ اختيارُ الخِيَرةِ، و﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، ولا نتيجةَ لإرادةِ العَبْدِ معَ مُرادِ الرَّبِّ، ومَنْ عَلِمَ أنَّ أفْعالَهُ على مُقْتَضَى الحِكْمةِ، فلا يغفَلْ عَنْ سِرِّ حِكْمَتِه فيما أقامَهُ فيه، فإنْ فعَلَ تعَجَّلَ الرّاحةَ، وقامَ بأدَبِ العُبوديّةِ بيْنَ يدَي الرُّبوبيّةِ، وسلَكَ الصِّراطَ المُسْتَقيمَ، واتَّبَعَ الهَدْيَ القَويمَ، وكرَعَ مِنْ منْهَلِ الرِّضا، ودخَلَ بحْبوحةَ جنّةِ التَّسْليمِ لِلقَضا، فلا يُحِبُّ تأخيرَ ما عُجِّلَ، ولا تعْجيلَ ما أُخِّرَ، وتِلْكَ الحَياةُ الطَّيِّبةُ، ومَنْ أرادَ مُزاحَمةَ ذَوي الأقْدارِ، فلْيَرْضَ بمَجاري الأقْدارِ، وبِهَذا الشُّهودِ يسْتَوي عِنْدَهُ القبْضُ والبَسْطُ، والخفْضُ والرَّفْعُ، والعِزُّ والذُّلُّ، والغِنَى والفقْرُ، ونحْوُها. والتَّأدُّبُ بأدَبِ الوَقْتِ يطْرُدُ المقْتَ، ألا ترَى إلى الفاروقِ حلَفَ زمَنَ المَجاعةِ أنْ لا يَجْمَعَ بيْنَ أُدْمَينِ حتَّى يوسِعَ اللهُ علَى النّاسِ؟![1]

فهَذِهِ الآدابُ الظّاهرةُ، أمّا الباطنةُ فللقَوْمِ أحْوالٌ وارداتٌ تُخْرِجُهُمْ عَنِ الاخْتيارِ، فمَنْ سلَّمَ لها سلِمَ، ومَنْ عارَضَها ندِمَ، ويُعبَّرُ عنْها بِالوَقْتِ، وهوَ ما يُصادِمُهُمْ بهِ مِنْ تصْريفِه فيهِمْ قهْرًا، فلذلِكَ قالوا: "الوَقْتُ سيْفٌ قاطِع، فمَنْ لايَنَهُ سلِمْ، ومَنْ خاشَنَهُ اصْطَلَمْ"، وقَدْ يُريدون بالوَقْتِ غيْرَ ذلكَ، كطيبِ القَلْبِ، ومِنْهُ قَوْلُهُمْ: "فلانٌ طابَ وَقْتُهُ"، وكالاجْتِماعِ للسَّماعِ، ومِنْهُ: "صنَعَ فُلانٌ وقتًا"، و"حضرنا وقتًا"، ولَيْسَ ذلِكَ بمُرادٍ هُنا. ثُمَّ علامةُ إرادةِ غيْرَ ما أظْهَرَهُ اللهُ فيهِ التَّلهُّفُ على عدَمِ موافَقتِه لغَرضِه، والسَّلامةُ مِنْ ذلِكَ بالتَّسْليمِ.

***

١٨. إحالَتُكَ الأعمالَ على وُجودِ الفَراغِ مِنْ رُعوناتِ النُّفوسِ.

(**إحالَتُكَ الأعمالَ على وُجودِ الفَراغِ مِنْ رُعوناتِ النُّفوسِ**) أي: حماقاتُها الدّالّةُ على قِلّةِ العَقْلِ، جَمْعُ "رُعونةٍ" -بالضَّمِّ: نوْعٌ مِنَ الحماقةِ يُظَنُّ بِذِيهِ العقْلُ ولَيْسَ بعاقِلٍ، وهذا المُحيلُ

[1] (١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [الجزء السابع – ثم دخلت سنة ثماني عشرة].

كذلِكَ لأنَّهُ أحالَ على مُحالٍ وهوَ الفراغُ في دارِ الأكْدارِ، ولأنَّهُ وُثوقٌ بغيْرِ موْثوقٍ بهِ، وهوَ النَّفْسُ في عزمِها التي لا تفي بهِ غالبًا، ولأنَّهُ إهمالٌ للحَزْمِ والعَزْمِ المُرادِ للعُقَلاءِ حذَرًا مِنْ تقَلُّباتِ الدَّهْرِ؛ إذْ قدْ يفْجأُهُ المَوْتُ فيَحْصُلُ الفَوْتُ، ولأنَّهُ إيثارٌ للدُّنْيا على الآخرةِ، فليَعمَلْ بالمُمْكِنِ ولا يُضَيِّعُ حقَّ الوَقْتِ، فلِكُلِّ وقْتٍ سهْمٌ مِنَ العُبوديَّةِ تقْتَضيه الرُّبوبيَّةُ.

وبالجُمْلةِ فإحالتُكَ الأعْمالَ الأُخْرَوِيَّةَ على فَراغِكَ مِنَ الأشْغالِ الدُّنْيَوِيَّةِ علامةُ أنَّكَ مِنَ الحماقةِ بمكانٍ، وعساكَ تعبُرُ قبْلَ ذلكَ الزَّمانِ، فتلْكَ حسْرَتُكَ التي لا تَبيدُ، والنَّدَمُ الذي لا علَيْهِ مزيدٌ؛ ولهذا قالَ المُصطَفى ﷺ: (الكَيِّسُ مَنْ دانَ نفْسَهُ وعمِلَ لما بعْدَ المَوْتِ، والأحْمَقُ مَن أتْبَعَ نفْسَهُ هَواها وتمَنَّى على اللهِ الأماني)[1]، فبادِرْ ما دُمْتَ قادِرْ، وجاهِدْ حتَّى تُشاهِدْ.

وإنَّما يوجِبُ إحالةَ الأعْمالِ على الفَراغِ التَّسْويفُ النّاشِئُ عَنِ الكَسَلِ وطولِ الأمَلِ، واجْتِهادُهُ فيما ضُمِنَ لهُ دون ما طُلِبَ مِنْهُ. قالَ أبو مَدينَ: "عُمْرُكَ نفَسٌ واحِدٌ، فاحرِصْ أنْ يكون لكَ لا علَيْكَ".

ومَنْ تعَلَّقَ بوَعْدِ الأماني لمْ يُفارِقِ التَّواني، فإنْ قُلْتَ: لا أعْمَلُ حتَّى أفْرُغَ مِنْ كذا، مضَتِ الأوْقاتُ، وأنتَ بهذِهِ الحالاتِ، والمَوْتُ لكَ بالمِرْصادِ، أبَيْتَ أمْ سَلَّمْتَ القيادَ، ذاكِرُكَ وأنتَ ناسيه، مُراقِبُكَ وأنْتَ مُساهيه، فالبِدارَ البِدارَ، ولا تقُلْ لعلَّ العُمْرَ يطولُ كفُلانٍ وفُلانٍ، فقَدْ لا تبْلُغُ ما بَلَغوا مِنَ الأعْمارِ، ويُحالُ بيْنَكَ وبيْنَ ما نالوا مِنَ الأوْطارِ، فالحازِمُ مِنْ شمَّرَ عَنْ ساقِ الاجْتِهادِ، وفارَقَ المألوفَ والمُعْتادَ، وتَعبَ قليلًا فاسْتَراحَ كثيرا، وعاشَ في الدُّنْيا قانِعًا فقيرا، فنالَ في الآخرةِ مُلْكًا كبيرا، فإيّاكَ والتَّعلُّلَ بقِلَّةِ صفاءِ الزَّمانِ، فإنَّهُ يقْطَعُكَ عَنِ السَّيْرِ في كُلِّ آنٍ، واعمَلْ بقَوْلِ شُرّاحِ هذا الشان:

وكُنْ صارِمًا كالوَقْتِ، فالمقْتُ في "عسَى" * وإيّاكَ "علّا" فهو أخْطَرُ عِلَّةِ

(١) أخرجه أحمد (١٧١٢٣)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، والطبراني في الكبير (٧/رقم ٧١٤١)، والصغير (٨٦٣)، والحاكم (٥٧/١)، وغيرهم من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وحسَّنه الترمذيُّ.

والنّاسُ ثلاثةٌ: رجُلٌ ساعَدَهُ القدرُ فعَمِلَ في فَراغِهِ وشُغْلِه، وهوَ مِنَ المغْبوطينَ، ورَجُلٌ وجَدَ فراغًا فلم يعمَلْ، وهو مِنَ المغْبونينَ؛ لخبر: (خصْلَتانِ مغْبونٌ فيهما كثيرٌ مِنَ النّاس: الصِّحّةُ والفَراغُ)[1]، ورَجُلٌ لَمْ يجِدْ فَراغًا وجعلَهُ عِلّةً للتَّسْويفِ، فأحالَ علَيْهِ العملَ، وهوَ مِنَ المُغْتَرِّينَ.

***

١٩. لا تطْلُبْ منْهُ أنْ يُخْرِجَكَ مِنْ حالٍ لِيَسْتَعْمِلَكَ فيما سِواهُ، فلَوْ أرادَكَ لاسْتَعْمَلكَ مِنْ غيرِ إخراجٍ.

(**لا تطْلُبْ مِنْهُ أنْ يُخرِجَكَ مِنْ حالٍ**) أقامَكَ فيهِ بحَيْثُ اسْتَقامَ لكَ واسْتَقَمْتَ فيهِ (**ليسْتَعْمِلَكَ فيما سِواهُ**) مِمّا هوَ أصْلَحُ أوْ أرْبَحُ في ظَنِّكَ دُنْيَوِيًّا أوْ أُخْرَوِيًّا؛ لأنَّهُ تخَيُّرٌ على مولاك، ولا خيرَ لكَ في ذاك؛ فالأدَبُ ترْكُ الاعْتِراض، بتَرْكِ تمنِّي الخُروجِ لغرَضٍ مِنَ الأغْراض، وقَدْ تُجابُ وتخْرُجُ غيرَ مصْحوبٍ بِعافيةٍ، فتتكَدَّرُ مشارِبُكَ الصّافية، ومتَى فعَلْتَ فقَدْ زَلَّتِ القدَمُ، فبادِرْ بالتَّوبةِ والنَّدَم، وارجَعْ إلى الإقامةِ فيما أقامَكَ فيهِ؛ لأنَّ الرِّضَى بذلِكَ قيامٌ بحَقِّ العُبوديّةِ، ووُجْدانُ الراحةِ، والسَّلامةُ مِنْ تكدُّرِ التَّدْبيرِ وكدَرِ التَّغْيير.

معَ أنَّ الجمْعَ غيْرُ مُمتنعٍ عندَ تدْقيقِ الفَهْم، فطَلَبُ الانْتِقالِ مِنَ اتِّساعِ دائِرةِ الوَهْمِ كما قالَ: (**فلَوْ أرادَكَ لاسْتَعْملكَ مِنْ غيْرِ إخْراجٍ**) بأنْ يمْنَحكَ فوائدَ التَّجْريدِ معَ الأسْبابِ، أوْ عكْسِه، ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠]، فكمْ مِنْ مُتجَرِّدٍ وُسِّعَ عليْهِ رِزْقُهُ، ومُتَسَبِّبٍ اتَّسعَ وقْتُهُ، فجمعَ بيْنَ التَّعبُّدِ والتَّسبُّبِ.

ولمّا استَأذَنَ المُؤلِّفُ شيْخَهُ المرسيَّ في ترْكِ العِلْمِ الظّاهِرِ لبُعْدِ الوُصولِ معَهُ، قالَ: "أقِمْ فيما أنْتَ فيهِ، وما قُدِّرَ لكَ على يدِنا يصِلُ إلَيْكَ"، كما تقدَّمَ[2].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٤١٢)، وغيره من حديث ابن عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(٢) انظر ص ٢٧-٢٨.

وحينئذ أنتَ بيْنَ إحْدَى ثَلاث: إمّا أنْ تُقامَ فيما أنتَ فيه فقطْ، وهيَ سلامةٌ ورحْمةٌ، أو يسْتَعْمِلُكَ بإخْراجٍ، فتُحصِّلَ غنيمةَ العُبوديّةِ مَنوطًا بغَنيمةِ الفائدةِ المطْلوبةِ، أو يُهيِّئُ لكَ الخروجَ بفقْدِ الإقامةِ والاسْتِقامةِ، فخُروجُكَ بنَفْسِكَ سوءُ أدَبٍ واتّهامٌ للكَريمِ الحَليمِ، يجُرُّ للمقْتِ والعطَبِ، وليْسَ في هذا ما يُعْتذَرُ به لإحالةِ الأعْمالِ على الفَراغِ، فيُقالُ: لوْ أرادَ الحقُّ لاستَعْمَلَني بغيرِ اخْتياري، ما ذاكَ إلّا لأنَّ العَبْدَ يتقلَّبُ بيْنَ حالَتَيِ الدُّنْيا والآخِرةِ؛ فالدُّنْيا المُشْغلةُ عَنِ الآخرةِ يطْلُبُ الخُروجَ مِنْها، والآخِرةُ تتَفاوَتُ نتائجُها، فإذا أُقيمَ في بعْضِها لا يطْلُبُ الخُروجَ مِنْهُ.

ولهذا قالَ بعْضُ أهْلِ الكَمالِ: إقامةُ رسْمِ الحِكْمةِ لازِمٌ كالاستِسْلامِ للقُدْرةِ، فلزِمَ إقامةُ العَبْدِ حيْثُ أُقيمَ مِنْ غيرِ التِفاتٍ لغيرِهِ، وإنْ كانَ الغيرُ أتمَّ في نظَرِهِ، ما لَمْ يختَلَّ شرْطُ الإقامةِ بتَخلُّفِ الفائِدَةِ العاديّةِ، أو عدَمِ إمْكانِ الحُقوقِ الشَّرْعيّةِ، فيتَعيَّنُ الانْتِقالُ للمِثْلِ، حتَّى إذا تعذَّرَ الكُلُّ زادَ التَّجْريدُ بلْ لزِمَ، فقَدْ أقَرَّ المُصطَفى ﷺ على التَّجْريدِ أهْلَ الصُّفَّةِ[1]، وأمَرَ بالتَّسبُّبِ حكيمَ بْنَ حِزامٍ لمّا تعَلَّقَتْ نفْسُهُ بالعَطاءِ[2]؛ فلهَذا قالَ الخوّاصُ: "ما دامَتِ الأسْبابُ في النَّفْسِ قائمةً، فالتَّسَبُّبُ أوْلَى؛ لأنَّ القعودَ لا يصْلُحُ لمَنْ لم يسْتَغْنِ عَنِ التَّكلُّفِ".

تنْبيهٌ: هذِهِ الحِكْمةُ معَ قوْلِهِ آنفًا: "إرادَتُكَ التَّجْريدَ..." إلى آخِرِهِ، أخذَهُ مِنْ قوْلِ الجيلاني في فواتِحِ الغَيْبِ: "إذا أقامَكَ في حالةٍ، فلا تطْلُبِ الانْتِقالَ مِنْها إلى أعلى أو أدنى، بلْ تربَّصْ حتَّى ينْقِلَكَ بغيرِ إرادَتِكَ، وإذا أوْقفَكَ بالبابِ فلا تطْلُبِ الدُّخولَ إلى الدّارِ، واصبِرْ حتَّى

---

(١) ورد في صحيح البخاري (٦٤٥٢)، وغيره: (أهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها).

(٢) ورد في البخاري (١٤٧٢)، ومسلم (١٠٣٥)، وغيرهما أن حكيم بن حزام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: (سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى. قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا...) الحديث.

تدْخُلَها بعْدَ تكْرارِ الإذْنِ، وإيّاكَ أنْ تقْنَعَ بالإذْنِ مرّةً؛ لجَوازِ كوْنِه مكرًا وخَديعةً مِنَ الملِكِ، فإذا كانَ الدُّخولُ جبْرًا مَحْضًا، لم يُعاقِبْكَ على الدُّخولِ، وإنّما العُقوبةُ بشُؤمِ الاخْتيارِ، والشِّدَّةِ وسوءِ الأدَبِ، وترْكِ الرِّضَى بما أقامَكَ فيه، وإذا دخَلْتَ بإذْنٍ فأطرِقْ رأسَكَ غاضًّا طرفَكَ مُتأدِّبًا مُبادرًا إلى ما أمرَكَ به مِنْ خِدمتِه، غيرَ طالبٍ للتَّرقّي امْتِثالًا لقَوْلِه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآيةُ [الحجر: ٨٨]، نَهاهُ عَنِ الالتِفاتِ لغيرِ الحالةِ التي هوَ فيها.

ثُمَّ الطَلَبُ للانْتِقالِ مِنْ حالةٍ إلى أُخرَى لا يَخْلو أنْ يكون ذلِكَ قُسِمَ لهُ أوْ لغَيْرِه، أوْ لَمْ يُقسَمْ لأحَدٍ، بلْ أوْجَدَهُ اللهُ فِتنةً؛ فالمقْسومُ [لهُ] يصِلُ لا محالةَ في الوَقْتِ المُقَدَّرِ، فلا فائدةَ للشِدّةِ وسوءِ الأدَبِ في طلَبِه، وأمّا المَقْسومُ للغَيْرِ فلا فائدةَ للعَناءِ في طلَبِه، وما لَمْ يُقسَمْ لأحدٍ بلْ جعَلَهُ فِتنةً، كيْفَ يرْضَى عاقِلٌ جلْبَ فِتْنةً لنَفْسِه؟! فالخيْرُ كُلُّهُ والسَّلامةُ في حِفْظِ الحالِ.

ثُمَّ إذا رَقيتَ مِنَ الدّارِ للغُرفةِ ثُمَّ السَّطْحِ، فضاعِفْ أدبَكَ، وإيّاكَ والالْتِفاتَ لِما هو أقْرَبُ مِنْ ذلِكَ إلّا بإذْنٍ مُتكرِّرٍ.

تنْبيهٌ: قالَ ابنُ عرَبي: لا ترى أحدًا راضيًا بحالٍ في الوُجودِ أبدًا، وعِلّتُهُ أنَّ الحقَّ كُلَّ يومٍ مِنْ أيّامِ الأنْفاسِ في شأنٍ، فيُحرِّكُ العالَمَ تلْكَ الشُّؤونُ الإلهيّةُ، فيَطْلُبُ العَبْدُ الانْتقالَ ممّا هوَ فيهِ كائنًا ما كانَ، لكِنَّ الكامِلَ وإنْ طلَبَ الانْتِقالَ راضٍ بحالِهِ في وقْتِهِ وفي طلَبِه، وأكثرُ العالَمِ لا يطْلُبُ الانْتِقالَ إلّا لعدمِ الرِّضَى بحالِه، فلا تجِدُ صالحًا ولا غيرَهُ يرضَى بحالِه، فهذا سِرٌّ سارٍ في العالَمِ؛ ولهذا ما ترى أحدًا إلّا ويذُمُّ زمنَهُ ويحْمَدُ الماضي، حتَّى حُكيَ عنْ آدَمَ أنَّهُ قالَ في نظْمِه بلِسانِ ترْجَمَتِه:

تغيَّرتِ البِلادُ ومَنْ عليْها * فوَجْهُ الأرْضِ مُغْبَرٌّ قبيحُ

فالإنْسانُ يذُمُّ يوْمَهُ ويمدحُ أمسَهُ، وكانَ أمْسِ يذُمُّ يومَهُ ويمْدَحُ ما قبْلَهُ هكذا.

ولطَلَبِ الانْتِقالِ سببٌ آخرُ عجيبٌ، وهوَ أنَّ الإنْسانَ جُبِلَ على القلَقِ مِنَ الضِّيقِ، فطلَبَ الانْفِساحَ، ويتخَيَّلُ أنَّ كُلَّ خارجٍ عنْهُ فيهِ الانْفِراجُ مِنَ الضِّيقِ الذي فيه، وذلِكَ أنَّ الإنْسانَ إذا كانَ في حالٍ ما مقْبوضٌ علَيْهِ بذلكَ الحالِ لإحاطَتِه به، فيَجِدُ نفْسَهُ محْصورًا، ويرى

الخارِجَ عَنْ ذلِكَ انْفساحًا؛ لأنَّ الخارِجَ عَنْ حالِه لَيْسَ واحِدًا بعيْنِه، فيضيقُ علَيْه الأمْرُ، فلذلكَ يجدُ سِعةً فيما عدا حالِه، فإذا خرَجَ لَمْ يجدْ ذلكَ الاتِّساعَ المُتوهَّمَ إلّا حالةً واحدةً تحيطُ به، فيَجدُ الضِّيقَ لحصْرِه فيها، ولا يزالُ ذلكَ ديْدَنَهُ، واللهُ يُخْرِجُهُ مِنَ اسْمٍ لآخرَ، فمَنِ اتَّخذَ اللهَ وقايةً أخرجَهُ مِنَ الضِّيقِ، وأزالَهُ عنْهُ، فاتَّسَعَ في مدلولِ الاسْمِ "الله" مِنْ غَيْرِ تعْيينٍ؛ فلذلكَ يرْزُقُهُ مِنْ حيْثُ لا يحْتَسِبُ، فيَرْجِعُ محيطًا بما أُعْطِيَ، فلَهُ السِّعةُ دائِمًا والرِّضَى سَرْمَدًا.

***

٢٠. ما أرادَتْ همّةُ سالِكٍ أنْ تقِفَ عِنْدَ ما كُشِفَ لها إلّا نادَتْهُ هَواتِفُ الحَقيقةِ: "الذي تَطْلبُهُ أمامَكَ"، ولا تبرَّجَتْ ظَواهِرُ المُكوَّناتِ إلا ونادَتْهُ حقائِقُها: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

(**ما أرادَتْ همّةُ سالِكٍ**) أيْ سائِرٍ إلى ربِّه، كُشِفَ لهُ في أثْناءِ سُلوكِه عَنْ أنْوارٍ، وبدَتْ لهُ أسْرارٌ، (**أنْ تقِفَ عِنْدَ ما كُشِفَ لها**) مِنَ المعارِفِ والعُلومِ، والأنْوارِ والفهومِ، وأسْرارِ الوُجودِ في الحَيوانِ والمعْدَنِ والنَّباتِ، وسَماعِ تسْبيحِ الكائناتِ بجَميعِ اللُّغاتِ، ومنافِعِ كُلِّ شيْءٍ ومضارِّه، وخواصِّه وأسْرارِه؛ فإنَّ السّالِكَ إذا اتَّصَفَ بالصِّدْقِ والإخْلاصِ، وحصَلَ لهُ الصَّفا والخَلاصِ، تلوحُ لقَلْبِه أنْوارٌ، ويبدو لهُ من عالَمِ الملَكوتِ أسْرارٌ، ويُكْشَفُ لهُ حينَئِذٍ خمسةٌ وعِشْرون كشْفًا، مُفرَدةٌ بالتَّدْوينِ، مُبيَّنةٌ بالتَّعْيينِ.

فما أرادَتْ همَّتُهُ الوُقوفَ عِنْدَ ذلكَ المكْشوفِ ظنًّا أنَّهُ الغاية، وأنَّهُ قدْ بلَغَ في سيْرِه النِّهاية، (**إلّا نادَتْهُ هَواتِفُ الحَقيقةِ**) وهيَ التي يسْمَعُها السّالِكُ في بدايَتِه، تارةً مِنْ أسْتاذِه المُراعي لهُ، وتارةً مِنَ الكائناتِ القَرينةِ لهُ بلِسانِ الحالِ تفكُّرًا واعْتبارًا، وتارةً مِنَ القَلْبِ، وتارةً مِنَ الملائكةِ نُصْحًا لهُ وحُبًّا لما رأوهُ علَيْه مِنْ همَّتِه:

(**الذي تَطْلبُهُ**) مِنْ معْرِفةِ الحقِّ التي لا تتناهى حتَّى في الآخِرةِ؛ لأنَّ المعْرِفةَ بحَسَبِ معْروفِها،

(**أمامَكَ**) وأنْتَ بعدُ في الطَّريقِ، وقوفُكَ معَ غيْرِ المحْبوب، عِندَهُ مِنْ أعْظَمِ الذُّنوب.

إذا أفنيتني عَنْ كُلِّ غيْرٍ * فقَدْ أبقيتني في كُلِّ خيْرِ
وإنْ أوقفتني في البابِ عبْدًا * فقَدْ أغْنيتَني عَنْ كُلِّ سَيْرِ
وإنْ أعفيْتَ يا أمَلي رُسومي * فقَدْ عمَّرْتَ بالتَّقْديسَ دَيْري(١)

ثُمَّ الوُقوفُ وُقوفُ قنوعٍ، ووُقوفُ رُؤيةِ الانْتِهاءِ، ووقوفُ اسْتِئناسٍ، قالوا: ووَقْفةُ المُريدِ شرٌّ مِنْ فتْرَتِهِ؛ لأنَّ الفتْرَةَ تُجْبَرُ بالتشْميرِ، والوقْفةُ تقْطَعُ عَنِ التَّوجُّهِ، وهوَ رأْسُ الحِرْمانِ.

وبالجُمْلةِ: مَنْ وقَفَ عِنْدَما كُشِفَ لهُ سُلِبَ وطُرِدَ؛ فإذا لمْ يلتَفِتْ لهُ وسارَ حتَّى قطَعَ تِلْكَ المنْزِلةَ وخلَّفَها وراءَ ظهْرِهِ، كُشِفَ لهُ كشْفٌ أعْلَى مِنَ الأوَّلِ، وهكذا، فلا يزالُ السّالكُ يقولُ عَنْ كُلِّ مقامٍ لمْ يرْتَقِ مِنْهُ: هذا خاصٌّ بالكُمَّلِ؛ فإذا ذاقَهُ ولاحَ لهُ مقامٌ فوْقَهُ عرَفَ أنَّهُ في مقامِ المُريدِ إلى أنْ يلْقَى اللهَ، فإنَّ النِّهايةَ منْقولةٌ غيْرُ معْقولةٍ، وتنْتَهي هِمَمُ العارِفِ وهوَ معَ الحقِّ على أوَّلِ قدَمٍ، فلا يَفي لهُ عُمْرُهُ بما تعَلَّقَتْ به هِمَّتُهُ مِنَ المعْرِفةِ، ألا ترَى إلى قوْلِ شيْخِ الطّائفةِ الجنيدِ: "مكثْتُ مُدّةً وعِنْدي وقْفةٌ في قوْلِهِمْ: يصِلُ ذاكِرُ اللهِ إلى حالةٍ لو ضُرِبَ وجْهُهُ بسَيْفٍ ما أحَسَّ، إلى أنْ وجَدْتُ ذلكَ".

ثُمَّ إذا كُشِفَ لهُ تِلْكَ الكُشوفُ وخلَّفَها خلْفَه، يتجَلَّى لهُ ظواهِرُ المُكوَّناتِ كما قالَ: (**ولا تبرَّجَتْ ظَواهِرُ المُكوَّناتِ**) بزينَتِها الخارِقةِ للعادةِ، مِنْ تسْخيرِ الأكْوانِ، وقلْبِ الأعْيانِ، والتَّجلّي بكُلِّ طلْعةٍ تُبْهِجُ النّاظِرَ، وتُحيِّرُ الباصِرَ، وتُدْهِشُ الخاطِرَ، فعِنْدَ هذا الكشْفِ تُريدُ الهِمّةُ حطَّ رَحْلِها، ظنًّا أنَّ ذلكَ هوَ النِّهايةُ التي ليسَ وراءَها غايةٌ، فما أرادَ ذلكَ (**إلا ونادَتْهُ حقائقُها**) أي بَواطِنُها الزّهيّةُ، أو ما بدَتْ لأجْلِه ودلَّتْ عليْه مِنَ القُدْرةِ الإلهيّةِ: غُضَّ طرْفَكَ (﴿**إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ**﴾ [البقرة: ١٠٢]) أي: لا تَقِفْ معَنا، فتُحجَبُ عَنْ ربِّنا، فإنَّما نحْنُ اختبارٌ لكَ، أو: فإنَّكَ إنْ فعَلْتَ، كفَرْتَ نِعْمةَ مَوْلاكَ فيما أَوْلاكَ، أو: إنْ فعَلْتَ، فتنّاكَ وفتْنَتُنا كُفْرٌ، أي: غِطاءٌ عَنِ الكَشْفِ الذي تَرومُهُ، وهوَ كشْفُ البَواطِنِ دون الظَّواهِرِ.

(١) من شعر قطب العارفين، الشيخ علي وفا.

وبالجُمْلةِ فالوُقوفُ بالهِمّةِ على شيءٍ دون الحقِّ خُسْران، والاشْتِغالُ بالطَّلَبِ مِفْتاحُ كُلِّ رَباحٍ وأمان، فيا للهِ العَجَبَ، كيْفَ يصيرُ النّورُ ظَلامًا والكَشْفُ حِجابًا؟! قالَ أبو مَدْيَنَ:

إذا عظُمَ الضّياءُ يعودُ ضِدًّا * تصاريفُ القَضاءِ حكَتْ بذاكا

ولهذا مَنِ اشْتَغلَ بأنْوارِ المقاماتِ حُجِبَ عمّا وراءَها مِنْ أسْرارِ التَّعرُّفاتِ وخَفايا التَّجلّيات، ومَنْ حُجِبَ عَنِ اللهِ بالنّورِ، فهوَ كمَنْ حُجِبَ عنْهُ بالظُّلْمةِ، فمَتى وَقَفْتَ معَ أنْوارِ العَطاءِ، سُدِلَ عليكَ حِجابُ الغِطاءِ.

والحاصِلُ أنَّ مَنْ وقَفَ معَ شيءٍ حُجِبَ بهِ، وليْسَ القَصْدُ مِنْ نتائجِ المُجاهَدةِ ما يبدو مِنْ أنْوارٍ وجَلواتٍ، بلِ القِيامُ بحقِّ المعْبودِ، وأنْ لا تتَوجَّهَ إلا إليهِ، فإنْ أتْحفَكَ بنَوالِهِ فاسْتَعِذْ بهِ مِنْ بَلائِهِ، واحْذَرْ أنْ يشْغلَكَ العَطاءُ عَنْ كشْفِ الغِطاءِ، فتُحجَبُ بالآثارِ عَنْ ربِّ الدّارِ؛ فإذا أشْرَفَكَ على عجائبِ مُلْكِهِ ومَلَكوتِهِ، وأطْلَعَكَ على خَزائنِ جنَّتِهِ ورَحموتِهِ، فقُلْ: لا أبْغي سِواكَ، ولا أرومُ إلّا إيّاكَ. قالوا: عطِشَ بَعضُهُمْ بالباديةِ فارتفعَ ماءُ البِئرِ لفَمِّها، فرفعَ رأسَهُ للسماءِ وقالَ: اعْلَمُ أنَّكَ قادرٌ لكنْ لا أُطيقُ هذا، فلوْ قيَّضْتَ لي بعْضَ الأعْرابِ يصْفَعُني صفْعةً ويسْقيني شربةً.

واعلَمْ أنَّ الطَّلبَ كُلَّهُ معلولٌ إلّا ما على وجْهِ العُبوديّةِ والقيامِ بحَقِّ الرُّبوبيّةِ، فلِذَلِكَ قالَ:

***

٢١. طَلبُكَ منْهُ اتِّهامٌ لهُ، وطَلبُكَ لهُ رغْبةٌ منكَ عنْهُ، وطَلبُكَ لغيرِهِ لقِلّةِ حيائكَ مِنْهُ، وطَلبُكَ مِنْ غيْرِهِ لوُجودِ بُعْدِكَ عنْهُ.

(**طَلبُكَ منْهُ**) أي: سؤالُكَ لهُ ما تُريدُهُ مِنَ الحَوائجِ، معَ عِلْمِكَ بأنَّهُ عالِمٌ بحالِكَ وبِما هوَ الأصْلَحُ لكَ، (**اتِّهامٌ لهُ**) لمُنافاتِهِ للثِّقةِ بهِ، (**وطَلبُكَ لهُ**) أي: طَلَبُكَ الاتِّصالَ بهِ، بمَعْنى الكَسْبِ بطَريقِ الأعْمالِ وصَفاءِ الأحْوالِ، (**رغْبةٌ منْكَ عنْهُ**) حيْثُ أسَأْتَ الأدَبَ بظَنِّكَ أنَّكَ تصِلُ

إلَيْهِ بعَملِكَ المعْلولِ وحالِكَ المحْلولِ، وهوَ إذا أرادَ، أوْصَلَكَ إلَيْهِ بما منْهُ إلَيْكَ لا بما منْكَ إلَيْه، ولأنَّهُ إنَّما يُطْلَبُ الغائِبُ، وهوَ تعالَى حاضِرٌ أقْرَبُ إلَيْكَ مِنْ حبْلِ الوَرِيد، والحاضِرُ لا يُطْلَبُ، فلَوْ اسْتَشْعرتَ قُرْبَهُ ما طلَبْتَهُ، قالَ الثَّوْري: "الحَقُّ لا يغيبُ، وإنَّما غيْبَتُهُ عدَمُ خلْقِ الذِّكْرِ، والرؤيةُ بالقَلْبِ، ومَنْ ظنَّ أنَّ القَريبَ بعيدٌ، فهوَ محجوبٌ بحِجابِ غيْبَتِهِ عَنِ الحقِّ الظَّاهِرِ لأهْلِ السَّرائِرِ"؛ هذا ما جَرَى علَيْهِ جمْعٌ، وتبِعَهُمُ المؤلِّفُ.

وذهبَ الجُمْهورُ إلى أنَّ الطَّلَبَ منهُ تعالَى لا اتِّهامَ لهُ فيهِ، كيْفَ وقدْ أمرَ بهِ في النَّصِّ القُرآني، وعُدَّ مِنْ كَمالِ وصْفِ العُبوديّةِ، وأنَّ طلبَكَ لهُ تعالى محْبوبٌ مأمورٌ بهِ، ولا يكونُ بُعْدًا بل كُلَّما قَرُبَ العَبْدُ طلَبَ القُرْبَ، ومَنْ رأى أنَّهُ قَريبٌ فهو بعيدٌ. وجمعَ جَمْعٌ بيْنَ أطرافِ كلامِهِم بأنَّ الطَّلَبَ المذْمومَ ما كانَ على جِهةِ الاقْتِضاءِ، والمحمودَ ما على جِهةِ إظْهارِ الفاقةِ، والتَّلبُّسِ بالأدَبِ، وذُلِّ العُبوديّةِ بيْنَ يدَيِّ الرُّبوبيّةِ. والحاصِلُ أنَّ الطَّلَبَ معَ الضَّجَرِ والقَلَقِ، اتِّهامٌ للرَّبِّ الذي خلق، والطَّالِبُ مِنْهُ معَ السُّكونِ، تَعَبُّدًا وفاقةً غيْرُ مفتونٍ.

(**وطَلَبُكَ لغيرِهِ**) أي: طلَبُكَ الوَصْلةَ بغيرِهِ لِأمرٍ دُنيَويٍّ أوْ أُخْرَويٍّ (**لقِلّةِ حيائِكَ منْهُ**)، فلو اسْتَحييتَ مِنْهُ حقَّ الحَياءِ لَمْ تلتَفِتْ للأعْيانِ، ولوْ قدَّرْتَهُ حقَّ قدْرِهِ لم تذْكُرْ معَهُ سِواهُ، معَ أنَّهُ الواحِدُ القَهّارُ، فطَلَبُكَ لغَيْرِهِ إنَّما أوْجَبَهُ وُجودُ الحِجابِ، والتَّمسُّكُ بالأسْبابِ.

(**وطَلَبُكَ مِنْ غيْرِهِ لوُجودِ بُعْدِكَ عنْهُ**) فلوْ كانَ غيرُهُ بعيدًا مِنْكَ كُنْتَ قريبًا منْهُ، ولوْ حضَرْتَ بقَلْبِكَ معَهُ ما أمْكَنَكَ الطَّلَبُ مِنْ غيرِهِ؛ لتيقُّنِكَ أنَّ الأُمورَ كُلَّها بيدِهِ، فالطَّلَبُ مِنْ غيْرِهِ إنَّما هوَ لتوَهُّمِ أنَّ الغيْرَ يُعْطي ويمْنَعُ، ويضُرُّ وينْفَعُ.. نعوذُ باللهِ مِنْ هذِهِ الغَفْلةِ المُرديةِ والحالةِ المُخْزيةِ!

فقُلْ على ممَرِّ الأيّامِ واللَّيالي: "حسبي مِنْ سؤالي عِلْمُهُ بحالي"، واستَحضِرْ أنَّهُ المُحيطُ بكَ إحاطةً شاملةً، والمُنْعِمُ بالسَّوابِغِ الكاملةِ، لو تأخَّرَتْ عنْكَ رِعايَتُهُ طَرْفةً لتَهدَّمَتْ منْكَ الأرْكانُ، وتَلاشَى عِنْدَكَ الرّاجِحُ مِنْ طرَفَيِّ الإمْكانِ، أوْجَدَكَ مِنَ العَدَمِ، وأمَدَّكَ بالنِّعَمِ، فمتَى طلَبْتَ غيْرَهُ تعَرَّضْتَ لمقْتِ الغَيْرةِ، لو استَحيَيْتَ حقَّ الحَيا، لَمْ تلتَفِتْ أبَدًا إلى السِّوى.

كيْفَ تُنيطُ حاجَتَكَ بمَنْ لا يُمكِنُه نفْعُ نفْسِه؟! أمْ كيْفَ ترجُو حَقيراً فقيراً كأبْناءِ جِنْسِه؟! كيْفَ تطْلُبُ مِنْ غيْرِهِ أو تقْصِدُ إلى شيءٍ مِنْ غيْرِه؟! فإنْ أبيْتَ إلّا التَّعْويلَ على العَبيدِ، فما أنْتَ إلّا الطَّريدُ البَعيد، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. قالَ بعْضُ أهْلِ الكَمالِ: الثَّناءُ باللِّسانِ تعْريضٌ بالسُّؤالِ، على ما هوَ المألوفُ مِنْ صَنيعِ العُفاةِ معَ أولي الإحْسانِ والمعْروف، كما قالَ ابنُ أبي الصَّلْتِ لجدعان:

أأطْلُبُ حاجَتي أمْ قدْ كَفاني * حياؤكَ إنَّ شيمتَكَ الحياءُ
إذا أثْنى عليكَ المرءُ يومًا * كفاهُ مِنْ تعَرُّضِهِ الثَّناءُ

فإذا كانَ هذا في مخْلوقٍ، فكيفَ بربِّ الأرْبابِ؟!

تنْبيهٌ: قالَ ابنُ عرَبي: الطَّلبُ لمنْ هوَ موجودٌ بالمعيّةِ لا يصِحُّ؛ لأنَّ الطَّلبَ لا يتَعلَّقُ إلّا بمَعْدوم.

***

٢٢. ما مِنْ نَفَسٍ تُبْديهِ إلّا ولهُ فيكَ قدَرٌ يُمْضيه.

(ما مِنْ نَفَسٍ تُبْديهِ إلّا ولهُ فيكَ قدَرٌ يُمْضيه) أي: يُنفِذُهُ لقَيّوميّتِه على جميعِ خلْقِه، يعني: أنفاسُكَ محسوبةٌ عليْكَ، فما مِنْ نفَسٍ إلّا وللهِ قضاءٌ فيهِ يسوقُهُ إليكَ، وقدرٌ يُمضيهِ فيكَ، فعليكَ بدوامِ المُراقبةِ وعدمِ الغفلةِ عن(١) المُحاسَبةِ، فهي أنفاسُكَ المعدودةُ، وللرقيبِ عليْكَ شُهودُه، وإذا كانَتْ جُزئيّاتُكَ ودقائقُكَ قد استَوعبَتْها الأقدارُ، وكانَ جميعُ ذلكَ منْكَ يقتضي حُقوقًا لازمةً مِنْ حُقوقِه سُبحانَهُ تقومُ بها، وأنتَ مُطالَبٌ بها مسئولٌ عنها وعنِ الأنفاسِ التي هي أمانةٌ عندَكَ، لم يبقَ فيكَ مجالٌ لتدبيرِ أمرِكَ، ولا محلٌّ لمُتابَعةِ هَواكَ، ومَنْ شَهِدَ ذلكَ تجنَّبَ الطَّلبَ بأنْواعِهِ، ولمْ يُعوِّلْ إلّا على مُجرَّدِ كرَمِه.

(١) في مخطوطة الأزهرية: "عند".

وَكُلُّ نَفَسٍ يقْتَضي تجلّيًا، وهوَ يقْتَضي معْرِفةً، وهيَ توجِبُ عُبوديّةً أدْناها السُّكونُ تحتَ مَجاري الأقْدارِ، فيكونُ في كُلِّ نَفَسٍ سالِكًا طريقًا إليه، ولذَلِكَ قالوا: "الطُّرُقُ إلى اللهِ بعددِ أنْفاسِ الخلائِقِ". وأدَبُ العَبْدِ في أنْفاسِهِ أنْ يجْعَلَها لهُ لا عليه؛ لأنَّها خزائِنُ أعْمالِهِ النّافعة لهُ يوْمَ يفْتَقِرُ غالِبُ النّاسِ، وقَدْ كانَ بعْضُهم يعُدُّ ما يفوتُهُ مِنَ الأنْفاسِ فيما يمْضُغُ مِنَ الأكْلِ، فيسِفُّ السَّويقَ لِئلّا يشْتَغِلَ بالأنْفاسِ في الأكْلِ دون الذِّكْرِ؛ وهَذِهِ مُراقَبةٌ سَنيّةٌ عدَّها السَّلَفُ أعْلَى مقاماتِ السُّلوكِ؛ لكِنْ فُتِحَ لبَعضِهم بأكْملَ منها، وهوَ مُراقَبةُ طرْفَةِ العَيْنِ، والمُراقَبةُ تحقيقُ القَلْبِ بنظَرِ الحقِّ على سِرِّهِ وجَهْرِهِ في كُلِّ زمَنٍ فردٍ؛ فمَنْ راعَى اللهَ في الأنْفاسِ، راقَبَهُ في عُمومِ أحْوالِهِ، فيعلَمُ أنَّهُ رقيبٌ علَيْهِ، وأقْرَبُ مِنْ حبْلِ الوَريدِ إلَيْهِ، فعَلَيْكَ بمُراعاةِ سِرِّكَ، قالَ الخرّازُ[1]: "بيْنا أنا أسيرُ في الباديةِ، إذا بحِسٍّ خلْفي فهالَني، فأرَدْتُ ألتَفِتُ فلمْ ألتَفِتْ، فرأَيْتُ شيْئًا واقِفًا على كتِفي، فانْصرَفَ وأنا مُراعٍ لسِرِّي، فالتَفَتُّ فإذا بأسَدٍ عظيمٍ".

تنْبيهٌ: قالَ ابنُ عرَبي: "مَنْ أدْرَكَ في نفْسِهِ التَّغْييرَ والتَّبْديلَ في كُلِّ نَفَسٍ؛ فهوَ العالِمُ بقَوْلِهِ تعالَى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]".

***

٢٣. لا تترقَّبْ فُروغَ الأغْيارِ، فإنَّ ذلِكَ يقْطَعُكَ عَنْ وُجودِ المُراقَبةِ لهُ فيما هوَ مُقيمُكَ فيهِ.

(لا تترقَّبْ فُروغَ الأغْيارِ) أي: لا تنتَظِرْ لعَملِكَ فراغَكَ مِنَ الأغْيارِ التي أقامَكَ اللهُ فيها، فلا تَتَرقَّبْ وقْتًا غيرَ ما أنتَ فيهِ، بلِ اعمَلْ في كُلِّ وقْتٍ بحِكْمةٍ، وقُمْ بِكُلِّ حقٍّ في محَلِّهِ، فقَدْ قالوا: "سيروا إلى اللهِ عُرْجًا ومكاسيرَ، ولا تنْتَظِروا الصِّحّةَ فإنَّ انْتِظارَها بَطالةٌ".

(١) شيخ الصوفية أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز، صحب ذا النون والسري وبشر بن الحارث وغيرهم، وهو من أئمة القوم وجلة مشايخهم، قيل إنه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء، توفي سنة ٢٧٩. طبقات الصوفية للسلمي (ص١٨٣)، الرسالة القشيرية (٩٨/١)، تاريخ بغداد (٣١/٥).

(فإنَّ ذلكَ يقطَعُكَ عَنْ وُجودِ المُراقَبةِ لهُ فيما هوَ مُقيمُكَ فيه) لأنَّ مُراقبَةَ الثَّاني تُضَيِّعُ حقَّ الأوَّلِ، فلهُ مِنَ الحقِّ ما للثّاني، فبوُجودِهِ ارْتفعَ حُكْمُ ما قبلَهُ وتعَيَّنَ حُكْمُهُ؛ فعليكَ بالقيامِ بحَقِّ الوَقْتِ، ولا تَقُلْ "غدًا" فذاكَ عيْنُ المقْتِ، أنْتَ مطْلوبٌ بمُراقَبةِ وقْتٍ أنْتَ فيه، فلا تنظُرْ لغَيْرِهِ وقُمْ بهِ حتَّى تمْضيه، فذاكَ أدَبُ القَوْمِ، والصّوفيُّ ابْنُ اليَوْمِ؛ ومَنِ استَعْمَلَ ذلكَ صارَ شُغْلُهُ فراغًا، وتَعَبُهُ راحةً، ومُترَقِّبُ الفَراغِ للعَمَلِ كمَنْ يقولُ: لا أتَداوَى حتَّى أجدَ الشِّفاءَ، فيُقالُ لهُ: لا تجِدُهُ حتَّى تتَداوَى، فلا هوَ يتَداوَى، ولا يَجِدُهُ، فكَذا هذا يقولُ: لا أعْمَلُ حتَّى أتفرَّغَ، ولا يتفرَّغُ حتَّى يعمَلَ، فلا هوَ يعْمَلُ ولا يتفرَّغُ.

على أنَّ الفراغَ مُحالٌ عادةً؛ إذِ الدُّنيا دارُ شُغْلٍ وكَدَرٍ، فاحمِلْ مِنَ الصَّبْرِ ترْسا، واتَّخذْ في كُلِّ مأتَمٍ عُرْسا، واعْلَمْ أنَّ الأيّامَ لا تدورُ بإرادَتِكَ، والأحْكامَ لا تجْري بإرادَتِكَ، فانقرْ ثمارَها نقْرَ العَصافيرِ، ولا ترقُبْ أوْقاتَها رقْبَ النَّواطيرِ. قيلَ للتُّسْتَري: "متَى يسْتَريحُ الفَقيرُ؟"، قالَ: "إذا لَمْ يرَ وقتًا غيْرَ الذي هوَ فيه".

فالصّادِقُ يكونُ في كُلِّ وقْتٍ بحُكْمِهِ، فإذا ورَدَ عليْهِ ما يشْغَلُهُ فيهِ استَوْحشَ منْهُ. وقَدْ جاءَ رجُلٌ لابْنِ أدْهَمَ[1] بألْفٍ، حالَ توجُّهِهِ وجمعيته، فقالَ: "ما هذا؟"، قالَ: "دنانيرُ، خُذْها!"، قالَ: "اشترَيتُ هذِهِ القعدةَ بمُلْكِ خُراسانَ، تُريدُ تُفْسِدُها عليَّ بدنانيرك، اذهبْ!".

فعَلَيْكَ بأدَبِ الوَقْتِ، تسْلَمْ مِنَ المقْتِ، وتَترادَفُ علَيْكَ البَركاتُ في جميعِ الحالاتِ.

---

(١) الإمام العارف، سيِّد الزهاد، أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر، كان من أبناء الملوك والمياسير، خرج متصيِّدًا فهتف به هاتف أيقظه من غفلته، فترك طريقته في التزيُّن بالدنيا، ورجع إلى طريقة أهل الزهد والورع، خرج إلى مكة وصحب بها سفيان الثوري والفضيل ابن عياض، ودخل الشام فكان يعمل ويأكل من عمل يده، وبها مات، وأسند الحديث عن بعض التابعين، وطلب العلم، ثم استقل بالزهد، وروى عنه بقية بن الوليد وسفيان الثوري وشقيق البلخي وسهل بن هاشم، وغيرهم، ترجمه ابن عساكر في "التاريخ" ترجمةً مطوَّلةً، وأخباره وأحواله معروفةٌ مشهورةٌ، ومناقبه جمة، أفردها ابن الحلبي بالتأليف، تُوفي سنة ١٦١، وقيل: ١٦٢، ودُفن بسوقين، حصن ببلاد الروم، وقيل بالشام. انظر: "حلية الأولياء" لأبي نعيم (٣٦٧/٧)، و"تاريخ بغداد" (٣١/٢١)، و"طبقات الصوفية" للسلمي (ص ٣٥) و"الرسالة القشيرية" (ص ٣٥) و"تاريخ دمشق" لابن عساكر (٢٧٧/٦).

تنبيهٌ: قالَ بعْضُ العارفِين: "تفكُّرُ المُريد فيما مضَى مِنْ ذُنوبِهِ ليَسْتَغْفِرَ لا بأسَ به، بخلافِ العارِفِ؛ لأنَّ الاشْتغالَ بالماضي يُضِيعُ وظيفةَ الوَقْتِ، فإنَّ علَيْهِ في كُلِّ نَفَسٍ عُبوديّةً يُؤدّيها، وصاحِبُ هذا المشْهَدِ لا يَرَى شيئًا مِنْ عِبادَتِه تُقْضَى، لأنَّ الوَقْتَ إذا ذهَبَ فارغًا خُتِمَ على صحيفَتِهِ فارغةً، فكَيْفَ يطْلُبُ تفْريغَ محلٍّ ليَمْلأَ به آخرَ، والكُلُّ مُناقَشٌ علَيْهِ ومُحاسَبٌ به، فلكُلِّ دقيقة مِنْ درجةٍ مِنْ عُمْرِهِ دائرةٌ، ولكُلِّ ثانية مِنْها دائرةٌ، ولكُلِّ درجةٍ دائرةٌ، وهكَذا، فلا يُمْكِنُ دُخولُ دائرةٍ في أُخرَى، ولا يعْرِفُهُ إلّا أهْلُ الكَشْفِ".

***

٢٤. لا تَستَغرِبْ وُقوعَ الأكْدارِ ما دُمْتَ في هذِهِ الدّارِ، فإنَّها ما أبرَزَتْ إلّا ما هوَ مُسْتحَقُّ وَصْفِها وواجِبُ نَعْتِها.

(**لا تَستغرِبْ وُقوعَ الأكْدارِ ما دُمْتَ في هذِهِ الدّارِ، فإنَّها ما أبرَزَتْ إلّا**) بعْضَ ما ظهرَ فيها مِنْ (**ما هوَ مُسْتحَقُّ وَصْفِها ووَاجِبُ نعْتِها**)، كما اقْتَضاهُ شاهِدُ حالِها عندَ استِقْراءِ أفْعالِها؛ لأنَّها مأخوذةٌ مِنَ الدَّناءَةِ، والدَّنِيءُ كدِرٌ، والكَدِرُ لا يصْفو، وإنْ صَفا لا يدومُ، وكَيْفَ يصْفو والطَّبْعُ حاكِمٌ علَيْهِ، والأكْدارُ مِنْ كُلِّ فجٍّ مُتوَجِّهةٌ إلَيْه؟! فلا تَسْتغرِبْ ما يرْميكَ به القَدَرُ، إنَّما أنت عُرْضَةٌ لسِهام، وغرَضٌ لمواقِعَ آلامِه؛ دارٌ شأنُها الذُّلُّ والهَوان، كيْفَ تصْفو لكَ يا إنْسان؟! مسَرّاتُها مقرونةٌ بالغَمِّ، وحَلاواتُها معْجونةٌ بالسُّمِّ.

أَتطْلُبَ أنْ تعيشَ بغيرِ هَمٍّ * ودارُ الهَمِّ أنْتَ بِها مُقيمُ؟!

وإذا طبعَ اللهُ ذاتَ مَوْجودٍ على شيْءٍ وجعلَهُ وصْفًا ذاتيًّا لهُ، فتَخَلُّفُه محالٌ؛ فمنْ طلَبَ منْها غيْرَ ذلِكَ فقدْ جهِلَ وضْعَها.

طُبعتَ علَى كَدَرٍ وأنْتَ تُريدُها * صَفْوًا مِنَ الأقْدارِ والأكْدارِ
ومُكلِّفُ الأيّامِ ضِدَّ طِباعِها * مُتطلِّبٌ في الماءِ جَذْوةَ نارِ

قالَ جعْفَرٌ الصّادِقُ[1]: "مَنْ طلبَ ما لَمْ يُخلَقْ، أتْعَبَ نفْسَهُ ولَمْ يُرزَقْ، قيلَ: وما ذاكَ؟ قالَ: الرّاحةُ في الدُّنْيا". وقالَ الجُنيدُ: "ما أَسْتَبْشِعُ ما يَرِدُ عليَّ مِنَ العالَمِ؛ لأنّي أَصَّلْتُ أصْلًا، وهوَ أنَّ الدُّنْيا دارُ غمٍّ، وأنَّ العالَمَ كُلَّهُ شرٌّ، ومِنْ حُكْمِه أنْ يلْقاني بما أكْرَه، فإذا تلقّاني بما أُحِبُّ فهوَ أفْضَل، وإلّا فالأصْلُ الغَمُّ". فالعارِفُ بحَقائِقِ الذَّواتِ يَجْزِمُ بأنَّ كُلَّ حقيقةٍ لا يصْدُرُ عَنْها إلّا ما يليقُ بنَعْتِها، فمَنْ وطَّنَ نفْسَهُ على ذلِكَ أراحَها، وعاشَ دهْرَهُ كُلَّهُ في عاقبةٍ، وحُكْمُ عكْسِهِ عَكْسُ حُكْمِه.

***

٢٥. ما توَقَّفَ مَطْلَبٌ أنتَ طالِبُهُ بربِّكَ، ولا تيَسَّرَ مطْلَبٌ أنتَ طالِبُهُ بنفْسِكَ.

(**ما توَقَّفَ مَطْلَبٌ أنتَ طالِبُهُ بربِّكَ**) أي: بالاعْتِمادِ علَيْهِ والتَّوسُّلِ بِهِ إليهِ؛ إذْ لا أرْحَمَ بالعَبْدِ مِنْ مالِكِهِ، فمَنْ طلبَ باللهِ للهِ، فتَحَ لَهُ؛ لأنَّهُ غنيٌّ كريمٌ قادرٌ، وقدْ وعدَ مَنْ يستَفتِحُ بابَهُ بالفَتْحِ، وعلامةُ ذلِكَ التَّفْويضُ والتَّوكُّلُ والاستِقامةُ في التَّوجُّهِ؛ فإذا توفَّرتِ الثّلاثُ، سَهُلَ المطْلَبُ، وإنْ لمْ يوجَدِ المُرادُ؛ لأنَّ عاقِبَتَهُ الرِّضَى.

(**ولا تيَسَّرَ مطْلَبٌ**) دينيٌّ أو دُنْيَويٌّ (**أنتَ طالِبُهُ بنفْسِكَ**) لنَفْسِكَ، مُعتَمِدًا علَى حوْلِكَ وقوَّتِكَ، مُستَنِدًا إلَيْهِما في تحصيلِ المطلوبِ، وعلامَتُهُ حُبُّ الموافَقةِ بغَيْرِ تفْويضٍ، واعْتِمادُ الأَسبابِ بغَيْرِ توَكُّلٍ، والتَّهوُّرُ في وجْهِ التَّحْصيلِ بدونِ استِقامةٍ، وبِها يعودُ الضَّررُ، وإنْ سَهُلَ المطْلوبُ صورةً فهوَ حِرْمانٌ حقيقةً؛ لما في ضِمْنِهِ مِنْ مُفارقةِ الحقِّ والاعتِمادِ على الخَلْقِ، فمَنِ

(١) الإمام أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ؛ ولد سنة ٨٠ وكان من سادات أهل البيت، ولقّب بالصادق لصدقه في مقالته، رأى بعض الصحابة، وحدث عن أبيه الباقر، وعروة بن الزبير، وعطاء بن أبي رباح، وغيرهم، وحدَّث عنه: ابنه موسى الكاظم، وأبو حنيفة، وابن جريج، وابن إسحاق، وسفيان، ومالك، وفضله أشهر من أن يذكر، تُوفِّي سنة ١٤٨ بالمدينة. انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (١٩٢/٣)، ووفيات الأعيان (٣٢٧/١).

اعتَمدَ على كسْبِهِ وتدْبيرِهِ وما ألِفَهُ مِنَ العَوائِدِ، وُكِلَ إلى نفْسِه، ومَنْ وُكِلَ إلَيْها خابَ أمَلُهُ. قالَ المؤلِّفُ: "ما أدْخلكَ اللهُ فيهِ توَلِّيًا، أعانَكَ علَيْه، وما دخلتَ فيهِ بنَفْسِكَ، وُكِلْتَ إلَيْه".

ولهذا كانَ المُصطَفى ﷺ إذا نابَهُ أمْرٌ فزِعَ إلى الصَّلاة[1]، وكانَ المَرسي إذا سألَهُ إنْسانٌ في شفاعةٍ يقولُ: "ترَى أنّي أُنزلُ حاجَتَكَ باللهِ؟"، فإنْ قالَ: "نَعَمْ" قُضيَتْ، وإنْ أبَى ترَكَهُ. فأهْلُ اللهِ حالَ المِحْنةِ والحاجةِ يفْزَعون إلى اللهِ، ويلْجَأون إلَيْه بالضَّراعةِ بيْنَ يدَيْه، علْمًا أنَّهُ لا يُنْجيهِمْ إلّا هُو، وغيْرُهُمْ يفْزَعُ إلى العَوائِدِ والأسْبابِ، ويقِفُ بِذا البابِ وذا البابِ، فلَمْ يَزِدْهُمْ ذلكَ إلّا الحيرةَ.

فأشْرَفُ تِلْكَ المطالِبِ في سُلوكِ سبيلِ التَّوحيدِ؛ فالتَّعلُّقُ فيهِ باللهِ أصْوَبُ، وفي جميعِ الجُزْئيّاتِ الرُّجوعُ إليهِ أوْجَبُ؛ فلِهَذا أفْرَدَهُ بحِكمةٍ بقَوْلِهِ:

***

٢٦. مِنْ علامةِ النُّجحِ في النِّهاياتِ، الرُّجوعُ إلى اللهِ في البداياتِ.

(**مِنْ علامةِ النُّجْحِ**) للمُريدِ (**في النِّهاياتِ**) بحُصولِ المُرادِ مِنْها، (**الرُّجوعُ إلى اللهِ في البداياتِ**)، وهيَ حالةُ سُلوكِهِ بالتَّوكُّلِ علَيْهِ وإقامةِ حُقوقِهِ، ومِنْ علامةِ الخُسْرانِ في النِّهاياتِ الرُّجوعُ إلى النَّفْسِ في البداياتِ، فحَيْثُ كانَتِ البدايةُ للهِ، كانَتْ النِّهايةُ للهِ، ومَنْ رجَعَ إلى اللهِ في سُلوكِهِ بالأَوْبةِ الصّادِقة، وأقْلعَ عَنْ أوْصافِ نفْسِهِ الذَّميمةِ الفاسِقة، ورجَعَ إلى التَّخلُّقِ بأخْلاقِ ربِّهِ الكريمة، فازَ بالكَرامةِ العَظيمة، ومَنْ رجَعَ إلى اللهِ في البِدايةِ بالاسْتِعانةِ والاعْتِماد، نجَحَ في نِهايَتِهِ بالوُصولِ إلى المُراد.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٢٩٩)، والبخاري في التاريخ الكبير (١٧٢/١)، والطبرى في تفسيره (٢٦٠/١)، وأبو عوانة في مسنده (٦٨٤٢)، وغيرهم من حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلفظ: (كان النبي ﷺ إذا حَزَبَهُ أمْرٌ صَلّى). وأخرج أحمد (١٨٩٣٧) بإسناد صحيح من حديث صهيب الرومي، وفيه فيما حكاه النبيُّ ﷺ عن نبي من الأنبياء السابقين: (فقام إلى الصلاة، وكانوا إذا فزعوا، فزعوا إلى الصلاة).

قالَ بعْضُ أهْلِ التَّحْقيق: "ما رجعَ مَنْ رجعَ إلّا مِنَ الطَّريق"، فعليكَ بتصْحيحِ طريقِ السُّلوك، فما كُلُّ مَنْ سلَكَ وصَلَ إلى حضرةِ ملِكِ المُلوك، فتلْكَ حضْرةٌ لا يلجُها إلّا مُهذَّب، ومقامٌ لا ينالُهُ إلّا مُقرَّب؛ والسّالكُ النَّجيحُ تلوحُ لهُ بَوارقُ الأسْرار، وتُعجَّلُ لهُ خلعةُ الأنْوار، وأوَّلُ ما يُبَشَّرُ بهِ الرُّؤيةُ النّوميّةُ، ثُمَّ السِّنةُ، ثُمَّ يقْوَى كشْفُهُ حالَ غيْبةِ حِسِّه، ثُمَّ يُكشَفُ لهُ عيانًا بحَسَبِ المَراتِب، ومَنْ لم يرجعْ إليْهِ تعالَى ويبرأْ مِنْ حوْلِهِ وقوَّتِه، وُكِلَ إلى نفْسِهِ فخُذِلَ، كما قيلَ:

إذا لمْ يُعِنْكَ اللهُ فيما تُريدُهُ * فلَيْسَ لمخْلوقٍ إليْهِ سبيلُ
فإنْ هوَ لمْ يُرشِدْكَ في كُلِّ مسْلَكٍ * ضلَلْتَ ولوْ أنَّ السَّماءَ دليلُ[1]

ومَنْ كانَ غِناهُ بالمالِ لمْ يزَلْ فقيرا، ومنْ قصدَ غيْرَ اللهِ لمْ يزَلْ محرومًا حَقيرا، ومَنِ اسْتَعانَ بغَيْرِ اللهِ لمْ يزَلْ مخْذولًا مَلومًا.

فائِدةٌ: قالَ ابنُ عرَبي: "مِنَ المعْلوم في طريقِ أهْلِ اللهِ أنَّهُ لابُدَّ لكُلِّ داخِلٍ في الطَّريقِ مِنْ فَتْرةٍ، وذلِكَ لازِمٌ، ثُمَّ إذا حصَلَتْ، فإمّا أنْ يعْقُبَها رُجوعٌ إلى العِبادةِ والاجْتِهادِ، وهُمْ أهْلُ العِنايةِ الإلهيّةِ، وإما أنْ تصْحَبَهُ الفتْرةُ فلا يُفْلِحُ أبدًا".

***

٢٧. مَنْ أشْرَقَتْ بِدايَتُه، أشْرَقَتْ نِهايَتُه.

(**مَنْ أشْرَقَتْ بدايَتُهُ**) بالرُّجوعِ إلى اللهِ في مُلِمّاتِه، ووُثوقِه به في مُهِمّاتِه، (**أشْرَقَتْ نِهايَتُهُ**) بالحُصولِ في حضْرَتِهِ، والدَّوام بخِدْمَتِه، ومَنْ في اللهِ تلَفُه، فعَلَيْه خلَفُه، ومَنْ أشْرَقَتْ بدايَتُهُ بالأنْوار، أشْرَقَتْ نِهايَتُهُ على تِلْكَ الدِّيار، ومَنْ أشْرَقَتْ بِدايَتُهُ بحَسَبِ أُصولِها، أشْرَقَتْ نِهايَتُهُ

(١) من شعر أبي فراس الحمداني، الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربعي (٣٢٠-٣٥٧هـ).

على محصولها، مَنْ أشْرَقَتْ بِدايَتُهُ بالتزام الطَّريقة، أشْرَقَتْ نِهايَتُهُ بكَشْفِ الحَقيقة، مَنْ أشْرَقَتْ بِدايَتُهُ برَفْعِ الهِمَّةِ عَنِ الأَكْوان، أشْرَقَتْ نِهايَتُهُ بالكَشْفِ والعَيان؛ إذِ البداياتُ مَجلاةٌ للنهايات، ومَنْ كانَتْ باللهِ بدايَتُهُ فإلَيْهِ نِهايتُهُ، ومَنْ علَتْ هِمَّتُهُ عَنِ الأَكْوانِ، وصلَ إلى مكَوِّنِها، ومَنْ وَقفَتْ هِمَّتُهُ علَى شيءٍ دون الحقِّ فاتَهُ، ذكرَهُ ابنُ الجلّاءِ[1] وغيْرُهُ.

وقالَ التُّونسيُّ: "إشْراقُ أهْلِ البدايةِ غيْرُ ما لأهْلِ النِّهايةِ"؛ فيكونُ هذا مِنْ بابِ التَّرقّي، وذلِكَ أنَّ المُريدَ غيْرُ السّالِكِ، فالإشْراقُ للسّالِكينَ لا للمُريدينَ، فالسّالِكُ تُشْرِقُ علَيْهِ أنْوارُ تصْحيحِ المقاماتِ، فتثبُتُ لهُ أسْرارُ التَّجلّياتِ بالمعارِفِ القُدُسيّةِ؛ والأسْرارِ الرَّبّانيّةِ، والاطِّلاعاتِ الكشْفيّةِ، والإدْراكاتِ الذَّوْقيّةِ، وغيْرِ ذلِكَ ممّا لا يُسْطَرُ؛ ولهذا قالَ بعْضُهُمْ: "كُلُّ الحَقائِقِ وإنْ تجَلَّتْ لكَ، لا عِبْرَةَ بها ما لم يظهَرْ عليْكَ أثرٌ مِنْها؛ لأنَّ ما لا يصِحُّ في عالَمِ الشَّهادةِ شاهِدُهُ، فهوَ مفقودٌ في عالَمِ الملَكوتِ".

ولمّا ادَّعيْتُ الحُبَّ قالَتْ: كذبْتَني * فمالِيَ أرى الأعْضاءَ مِنْكَ كَواسيا

فائدةٌ: قالوا: "العارِفُ يحِنُّ إلى البِدايةِ"، قالَ أبو العَبّاسِ ابنُ مسْروقٍ[2]: "مررْتُ معَ الجنيدِ ببعضِ دُروبِ بغْدادَ، وإذا بقائِلٍ يقولُ:

منازِلُ كُنْتَ تهْواها وتَأْلفُها * أيّامَ أنْتَ علَى الأيّامِ منْصورا

فبكى الجُنيدُ شديدًا ثُمَّ قالَ: يا أبا العَبّاسِ، ما أطْيَبَ مَنازِلَ الأُلفةِ والسُّرورِ والأُنْسِ، وأوْحَشَ مقامَ المُخالَفاتِ والجَفاءِ، لا أزالُ أحِنُّ إلي ابْتداءِ إرادَتي، وجِدّةِ سعْيي، ورُكوبي الأخْطارَ والأهْوالَ، طمعًا في الوُصولِ، وها أنا الآنَ أتلهَّفُ على أوْقاتي الماضيةِ".

---

(١) العارف، شيخ الشام أبوعبد الله أحمد بن يحيى المعروف بابن الجلّاء، صحب ذا النون وغيره، وهو أحد كبار مشايخ الصوفية، وله كلام رائق، توفي سنة ٣٠٦. طبقات الصوفية للسلمي (ص١٤٤)، وحلية الأولياء (١٠/٣١٤)، وتاريخ بغداد (٥/٤٢٢)، والرسالة القشيرية (١/٨٤).

(٢) شيخ الصوفية الإمام أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق الطوسي، من قدماء مشايخ القوم وجلتهم، صحب الحارث المحاسبي والسري السقطي وغيرهما، توفي سنة ٢٩٩. طبقات الصوفية للسلمي (ص١٨٩)، وحلية الأولياء (١٠/٢١٣)، وتاريخ بغداد (٥/٣٠٦).

تنبيهٌ: البدايةُ شُغْلٌ بنَعْتِ المُجاهدة، والنِّهايةُ لذَّةٌ بأنْواعِ المُشاهدة،

وإنْ شِئْتَ قُلْتَ: البِدايةُ إماطةُ طبْعٍ وتطْهيرٌ، والنِّهايةُ ملَكةُ كمالٍ وتنْويرٌ،

وإن شِئْتَ قُلْتَ: البِدايةُ تخَلّي ثُمَّ تحَلّي، والنِّهايةُ استِعْدادٌ لنورِ التَّجلّي،

وإنْ شِئْتَ قُلْتَ: البِدايةُ بُعْدٌ عنِ الأوصافِ الذَّميمة، وهرَبٌ من الأخلاقِ اللئيمة،

وإنْ شِئْتَ قُلْتَ: البِدايةُ مِلءُ الإناءِ بأنا، والنِّهايةُ تفريغُهُ مِنْ أنْتَ وأنا،

وإنْ شِئْتَ قُلْتَ: البِدايةُ منْها تُعلَمُ النِّهايةُ فَراسةً دون كشْفِ عِبارةٍ، وذلك معلومٌ بالعادةِ،

وإنْ شِئْتَ قُلْتَ: إذا ثبَتَ أساسُ البِدايةِ على القواعِدِ، وجدَ صاحِبُهُ ما يرومُ مِن المقاصِدِ والفوائِد.

***

٢٨. ما اسْتُودِعَ في غيْبِ السَّرائِر، ظهرَ في شَهادةِ الظَّواهِر.

(ما اسْتُودِعَ في غيْبِ السَّرائِر) أي: البواطِنِ مِنْ خيْرٍ وشرٍّ **(ظهرَ في شَهادةِ الظَّواهِرِ)** بالعملِ على ما هُنالِكَ، فالظّاهِرُ مِرآةُ الباطِنِ؛ ما اسْتُودِعَ في غيْبِ السَّرائِرِ مِنَ المعْرِفةِ باللهِ، ظهرَ في شهادةِ الظَّواهِرِ بالإيحاشِ إلى الله، ما اسْتودِعَ في غيْبِ السَّرائِرِ مِن الجهْلِ باللهِ، ظهَرَ في شهادةِ الظَّواهِرِ بالاستِنادِ لغيْرِ الله.

فظَواهِرُ أحْكامِ الأُمورِ تدُلُّ على خفايا الصُّدور، والأسْرارُ تدُلُّ على السَّريرةِ، وما خامَرَ القَلْبَ فعلَى الوُجوهِ أثرُهُ يلوحُ، والكَلامُ صِفةُ المُتكلِّم، وما فيكَ ظهرَ على فيكَ، والظّاهِرُ عُنْوانُ الباطِنِ.. (لو خشعَ قلْبُ هذا لخشعَتْ جوارِحُهُ)[1]، ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، (خَصْلَتانِ لا تجْتمِعانِ في مؤمِنٍ: البُخْلُ وسوءُ

(١) أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر (٣/ ٢١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا. والحديث مشهور من كلام ابن المسيب أخرجه عنه ابن المبارك في الزهد (١١٨٨)، وعبدالرزاق في المصنف (٣٣٠٩) وابن شيبة في المصنف (٦٧٨٧)، وغيرهم.

الخُلُقِ)[١]، (خَصْلَتانِ لا يجْتَمِعانِ في مُنافِقٍ: حُسْنُ سَمْتٍ، وفِقْهٌ في دينٍ)[٢].

فمَنْ قامَ للهِ في أمورِهِ فقَدْ ظَفِر، ومَنْ نهضَ فيها بنَفْسِهِ فقَدْ خَسِر؛ مطْلَبٌ أنْتَ فيه بنَفْسِكَ يبْعُدُ فلاحُه، ومأْرَبٌ أنْتَ فيهِ بربِّكَ قريبٌ نجاحُه، ما تعسَّرَ عليكَ مطْلَبٌ ولا تكدَّرَ لكَ مأْرَبٌ إلّا لِسُوءِ الأدَبِ. والقُلوبُ أوْعيةٌ إذا امتلأتْ مِنَ الحقِّ، فاضَتْ زيادةُ أنْوارِها على الجَوارِحِ، أوْ مِنَ الباطِلِ، فاضَتْ زيادةُ ظُلْمَتِها علَيْها؛ فالظّاهِرُ عُنْوانُ الباطِنِ، والوَجْهُ مِشْكاةُ القَلْبِ التي يتَجلَّى فيها نورُهُ أوْ ظُلْمَتُهُ، فأهْلُ الصَّفاءِ يظْهَرُ علَيْهِم النورُ معَ الأُنْسِ، والكَدَرِ بالعَكْسِ، فما خَفيَ في غيْبِ الجَنانِ يَظْهَرُ على ظاهِرِ الإنْسانِ، وما عسَى أنْ يكْتُمَ اللِّسان، وقَدْ فضَحَتْهُ فَراسةُ الأذْهان؛ ولهذا جاءَ في الخَبَرِ: (ما أسَرَّ عبْدٌ سريرةً، إلّا ألْبَسَهُ اللهُ رِداءَها، إنْ خيْرًا فخَيْرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ)[٣].

ومهما يكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خليقةٍ * وإنْ خالَها تخْفَى على النّاسِ تُعْلَمِ

فعُلِمَ مِنْ ذلكَ أنَّ باطِنَ العَبْدِ يُعرَفُ مِنْ ظاهِرِ حالِه؛ لأنَّ الأسِرَّةَ تَدُلُّ على السَّريرةِ، ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقالَ ذلكَ الرَّجُلُ[٤] عَنِ المُصطفَى ﷺ: (فلمّا رأيْتُهُ علِمْتُ أنَّهُ ليْسَ بوَجْهِ كذّابٍ)، وقالَ تعالَى عَنِ المُنافقينَ: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]. وقيلَ: "النّاسُ حَوانيتُ مُغْلَقةٌ؛ فإذا تكَلَّمَ الرَّجُلانِ، تبيَّنَ العَطّارُ مِنَ البَيْطارِ"؛ لأنَّ الكلامَ صِفةُ المُتكلِّم، وما فيكَ ظهرَ على فيكَ، فمَعْرِفةُ الرَّجُلِ مِنْ ثلاثٍ: كَلامِهِ، وتصرُّفِهِ، وطَبْعِهِ، وتُعْرَفُ كُلُّها مِنْ مُغاضَبتِهِ، فإنْ لزَمَ الصِّدْقَ وآثَرَ الحقَّ وسامَحَ الخَلْقَ،

---

(١) أخرجه الطيالسي (٢٣٢٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٨٢)، والترمذي (١٩٦٢)، وأبو يعلى (١٣٢٨)، والدولابي (١٨٤٠)، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٨)، وغيرهم من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا. وفي الباب عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذيُّ (٢٦٨٤)، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/رقم ١٧٠٢)، والأوسط (٧٩٠٦) مرفوعًا، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٢٢٥): "وفيه حامد بن آدم، وهو كذّابٌ"، ولكن له طرقه وشواهد عن عثمان وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قد يصل بمجموعها إلى درجة الحسن، انظر المداوي (٥/٤٢٧).

(٤) هو عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، راوي هذا الحديث الذي أخرجه أحمد (٢٣٧٨٤)، والدارمي (١٦٠٤)، والترمذيُّ (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤)، والحاكم (٣/١٣)، وغيرهم، وصحَّحه الترمذيُّ والحاكم.

فهوَ ذاكَ، وإلّا فليْسَ هُناكَ. قيلَ: "أوْحَى اللهُ إلى عيسَى: كُلُّ إنْسانٍ يُشْبهُ فِعْلَهُ"، وإلى داودَ: "يتكلَّمُ المرْءُ بِما فيهِ"، وإلى موسَى: "كُلُّ إناءٍ بالذي فيهِ يرْشَحُ"؛ وحاصِلُهُ: أنَّ حُسْنَ الأدَبِ الظَّاهِرِ، آيةُ ما أخْفَتْهُ الضَّمائِرُ.

وقيلَ: وجدَ الجُنيدُ أصْحابَ أبي حفْصٍ في غايةِ الأدَبِ معَهُ فقالَ: أدَّبْتَ أصْحابَكَ أدَبَ المُلوكِ، فقالَ: "لا، لكِنَّ حُسْنَ الأدَبِ في الظَّاهِرِ، عُنْوانُ الأدَبِ في الباطِنِ". ووُصِفَ لأبي يزيدَ[1] رجُلٌ بالوِلايةِ، فقصدَهُ فوجدَهُ بالمَسْجِدِ، فبصقَ، فرجعَ، فقيلَ لهُ فيهِ؟! فقالَ: "رجُلٌ لمْ يؤتَمَنْ على أدَبٍ مِنْ آدابِ السُّنَّةِ فكَيْفَ يُؤتَمَنُ على أسْرارِهِ تعالَى؟" فاسْتَدلَّ بخَرابِ الظَّاهِرِ على خَرابِ الباطِنِ.

تتِمَّةٌ: قالَ رجُلٌ لأبي يزيدَ البَسْطامي: "رأيْتُكَ اللَّيلةَ بصورةِ خِنْزيرٍ، قالَ: صدَقْتَ؛ لأنّي مِرآةُ الوُجودِ، فرأيْتَ صورةَ نفْسِكَ فيَّ، فظَنَنْتَ أنَّكَ أنا".

***

٢٩. شتَّانَ بينَ مَنْ يسْتَدِلُّ بهِ أو يسْتَدِلُّ عليْهِ، المُسْتدِلُّ بهِ عرَفَ الحقَّ لأهْلِهِ، وأثْبَتَ الأمْرَ مِنْ وُجودِ أصْلِهِ، والاسْتِدْلالُ عليْهِ مِنْ عدَمِ الوُصولِ إليهِ، وإلّا فمتَى غابَ حتَّى تسْتَدِلَّ عليْهِ؟! ومتَى بَعُدَ حتَّى تكونَ الآثارُ هيَ التي تُوصِّلُ إلَيْهِ؟!

(١) سلطان العارفين أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي، نسبته إلى بسطام (بلدة بين خراسان والعراق) أصله منها، ووفاته فيها، كان جدُّه مجوسيًّا وأسلم، وهم ثلاثة إخوة آدم وطيفور وعلي، وكلهم كانوا زهّادًا عبّادًا أرباب أحوال، يقال: إنه روى عن إسماعيل السدي، وجعفر الصادق، وله مقالاتٌ كثيرةٌ ومجاهداتٌ مشهورةٌ وكراماتٌ ظاهرةٌ، قال المناوي: وقد أفردت ترجمته بتصانيف حافلة، ولشمس الدين الأطعاني "روضة الحبور ومعدن السرور في مناقب الجنيد البغدادي والعارف أبي يزيد طيفور"، وللشيخ عبد الحليم محمد "سلطان العارفين أبو يزيد البسطامي"، تُوفِّي سنة ٢٦١ وقيل٢٦٤. انظر: "حلية الأولياء" (٣٣/١٠)، و"طبقات الصوفية" (ص ٦٧- ٦٨)، و"وفيات الأعيان" (٥٣١/٢).

(**شتَّانَ بينَ مَنْ يسْتَدِلُّ به**) علَى الكائناتِ، وهُمُ الواصِلون إليه، واجَهَهُمْ بوَجْهِه وتعرَّفَ إلَيهِمْ فعَرَفوهُ، فانحَجَبَتِ الكائناتُ عنْهُمْ، فلم يَروها، فهُمْ يسْتَدِلّون به علَيْها حالَ تدلّيهِمْ، (**أو يسْتَدِلُّ علَيْه**) بها، وهُمُ السّائِرونَ، فهُمْ حالَ سُلوكِهِمْ محْجوبون عَنْ ربِّهِمْ برؤيةِ غيْرِه، والحقُّ غيْبٌ عنْهُمْ، فَهُمْ يسْتَدِلّون بها علَيْه حالَ ترَقّيهِمْ، فشَتّانَ -أيْ: بُعْدانَ وفُرقانَ- ما بيْنَهُما وإنِ اتّفَقا في التّعلّقِ، فقَدِ اخْتَلَفا في التّحقُّقِ، فبَوْنٌ بَعيدٌ بيْنَ مَنْ ينظُرُ بنورِ الأكوانِ، ومَنْ ينظُرُ بنورِ المُكوِّنِ، فالسّالِكُ محجوبٌ عنْ ربِّه برؤيةِ الآثارِ، فالأكْوانُ موجودةٌ عِندَهُ، فيَسْتَدِلُّ بها علَيْه، والمجْذوبُ واجَهَهُ الحقُّ بذاتِه ورفَعَ لهُ الحِجابَ، وأُحْضِرَ في حضرةِ الاقْتِرابِ، فاحتجَبَتْ عنهُ الأغْيارُ فلَمْ يرَها شيْئًا، فهوَ يُسْتدَلُّ بهِ علَيْها حالَ تدلّيهِ؛ والواقِفُ معَ رؤيةِ الدَّليلِ بالكائناتِ مَحْجوبٌ عنْ عيانِ المُشاهَداتِ، قانِعٌ بالقِشْرِ عَنِ اللُّبابِ، وإنْ كانَ مِنْ أولي الألبابِ، فشَتّانَ بيْنَ واقِفٍ بالبابِ، وبيْنَ مَنْ أُهِّلَ لكَرامةِ الخِطابِ.

وما البَحْثُ في الآثارِ إلّا مُبْعِدٌ * عَنِ المقصَدِ الأسنى مِنَ الغايةِ القُصْوَى
فلا تقتَنِعْ بالقِشْرِ دون لُبابِهِ * ولا تحتَجِبْ في البابِ عن حضْرةِ النَّجْوَى

وقَدْ مُدِحَ الإمامُ الرّازي(١) عِنْدَ بعْضِ العارِفينَ بأنَّهُ أقامَ علَى وَحْدانيّةِ اللهِ ألْفَ دليلٍ، فقالَ: "أفي اللهِ شكٌّ؟ لو عرَفَهُ لما أقامَ دليلًا واحِدًا"، ووُجِدَ الإمامُ آخِرًا وبيَدِه مصْحَفٌ وهوَ يبْكي ويقولُ: "اللّهُمَّ إنّي مؤمِنٌ بما في هذا"، فقيلَ لهُ فيه، فقالَ: "كُنْتَ أعْتَقِدُ دليلًا عقْليًّا مُنْذُ عِشْرينَ سنةً، فنَظَرْتُ فيهِ الآنَ فإذا بهِ شُبْهةٌ، وما يدْريني أنَّ كُلَّ ما بيَدي كذَلِكَ"، وأنْشَدَ:

نِهايةُ إقْدامِ العُقولِ عِقالُ * وأكْثَرُ سعْيِ العالَمينَ ضَلالُ
ولمْ نسْتَفِدْ مِنْ بحْثِنا طولَ عُمْرِنا * سِوَى أنْ جَمَعْنا فيهِ قيلَ وقالوا

---

(١) محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازيّ: الإمام المُفسِّر، أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل، قرشيُّ النسب، أصله من طبرستان، ومولده في الري سنة ٥٤٣، أو ٥٥٤، وإليها نسبته، ويقال له ابن خطيب الريّ، رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان، أقبل الناس على كتبه في حياته يتدارسونها. من تصانيفه تفسير "مفاتيح الغيب"، و"لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات"، و"المحصول في علم الأصول"، و"نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" وغيرها. تُوفِّي في هراة سنة ٦٠٦. انظر: "طبقات الشافعية" للسبكيِّ (ت: ١٠٨٩) [الطبقة السادسة].

فشَقائقُ أبْحاثِ الجدال، أوْهامٌ في مقاماتِ الخَيال، لا تُفيدُ صاحِبَها غيْرَ قعْقَعةِ اللِّسان، معَ خُلُوِّ الخُشوعِ للجَنان، مَنْ قنعَ بها زلَّتْ بهِ القَدَم، ومَنْ وقَفَ معَها أورَثَتْهُ النَّدم.

لقَدْ طُفْتُ في تِلْكَ المعالمِ كُلِّها * وسيَّرْتُ طرْفي بيْنَ تلكَ المعالمِ
فلَمْ أرَ إلّا واضِعًا كفَّ حائرٍ * على ذقْنِه أو قارِعًا سِنَّ نادمِ(١)

ولهذا حرَّمَ بعْضُ الأئمّةِ النَّظرَ في عِلْمِ الكَلام، إلّا على عارِفٍ يسْمَعُ وينْظُرُ، ويذوقُ ويشْهَدُ، ويطوفُ على أبْكارِ المعارِفِ، ويذوقُ كُلَّ طعْمٍ حتَّى تتبيَّنَ لهُ خواصُّ الأشْياءِ ولا يفوتُهُ شيءٌ، كالإمامِ الغزاليِّ(٢)؛ فإنَّهُ خاضَ بِحارَ العُلومِ، ومَيَّزَ الجيِّدَ مِنْ ضِدِّهِ، وأخَذَ ما يحتاجُهُ، وترَكَ ما سِواهُ.

(**المُسْتدلُّ بهِ عرَفَ الحقَّ**) الذي هوَ النَّظرُ لواجِبِ الوُجودِ قبْلَ جائزِهِ، (**لأهْلِهِ**) الذي هوَ واجبُ الوُجودِ لذاتِه؛ فإنَّهُ أظْهَرُ مِنَ الجائزِ؛ لدَلالةِ العقْلِ عليْهِ أوَّلًا بقَضيّةِ الإطْلاقِ، إذ إنَّما يُفْهَمُ وُجودٌ، ثُمَّ يُحمَلُ عليْهِ موجودٌ لا يُفْهَمُ في وُجودِهِ، إلّا أنَّهُ مُطلَقٌ غيْرُ مُقيَّدٍ، وذلِكَ يوجِبُ كَمالَهُ بكُلِّ وجْهٍ، ومِنْ لازِمِهِ اتِّصافُهُ بالكَمالاتِ، ثُمَّ مِنْ كَمالِ الأوْصافِ ظُهورُ آثارِها؛ فعرفَ الموجودَ مِنْ وُجودِهِ، والأوْصافَ مِنْ ذلِكَ الموجودِ، ثم عرفَ الأفعالَ مِنَ الأوْصافِ، فنظرَ الشَّأنَ على وجْهِهِ.

(**وأثْبَتَ الأمْرَ**) الذي هوَ حُدوثُ الكَوْنِ وما يَعْتَورُهُ، (**مِنْ وُجودِ أصْلِهِ**) الذي هوَ إيجادُ الخلْقِ بكرَمِ الحقِّ وفضْلِهِ، وظُهورُهُمْ عَنْ أثَرِ وصْفِهِ بفِعْلِهِ. وهذهِ طَريقُ أهْلِ التَّدلّي في البُرْهان،

(١) للإمام الشهرستاني، صاحب "الملل والنحل".

(٢) مُحمَّد بن مُحمَّد بن أحمد الطوسي، الإمام الجليل أبو حامد الغزاليُّ، حُجَّة الإسلام وفخر الأنام، اشتغل في مبدأ أمره بطوس على أحمد الرادكاني ثم قدم نيسابور واختلف إلى دروس أمام الحرمين، وجدَّ في الاشتغال حتَّى تخرَّج في مُدَّة قريبة وصار من الأعيان في زمن أستاذه، له مُصنَّفاتٌ مشهورةٌ: منها: "إحياء علوم الدِّين"، و"البسيط" و"الوسيط" و"الوجيز" و"الخلاصة" وهذه الأربع في الفقه، وله "المُسْتَصْفى" في أصول الفقه و"بداية الهِدَاية"، و"تهافت الفلاسفة"، و"جواهر القرآن"، و"المنقذ من الضلال"، وغيرها كثير، وفضله وعُلاه شهير، وكانت وفاته بطوس سنة ٥٠٥هـ. انظر ترجمته في: "طبقات الشافعية" للسبكي (١٩١/٦)، و"الوافي بالوافيات" للصفدي (٢١١/١).

ومَنْ أنكَرَها لَمْ يأتِ بطائلٍ ولا بيان، وقالَ جمْعٌ: لا تكونُ المعْرِفةُ في بِدايتِها إلّا كسْبيّةً بالتَّرقّي، ثُمَّ تعودُ ضروريّةً بالتَّدلّي، وهوَ ما تفْهَمُهُ العامّةُ.

والأوَّلُ هو الذي عندَ أهْلِ الطَّريقِ علَيْهِ المُعوَّلُ، فأهْلُ اللهِ لا يعْرفون شيْئًا بشيءٍ، ولا يتَّخذون أمْرًا لآخرَ، بلْ كُلُّ أمْرٍ بنَفْسِهِ، فيعْرِفون اللهَ باللهِ، والعالَمَ بالعالَمِ، والأسْماءَ بالأسْماءِ، ولا فِكْرَ لَهُمْ في استِنْباطِ شيءٍ كغَيرِهِمْ؛ فلهُمُ الشُّهودُ الدّائِم، والكَشْفُ المُلازِم.

قالَ الشّاذْلي: "كيْفَ يُعْرفُ بالمعارِفِ مَنْ بِهِ عُرِفَتِ المعارِف؟! أمْ كيْفَ يُعْرَفُ بشيءٍ مَنْ سبقَ وُجودُهُ وُجودَ كُلِّ شيءٍ؟!".

وكيْفَ يصِحُّ في الأذْهانِ شيءٌ * إذا افْتقرَ النَّهارُ إلى دليلِ(١)

فطوبَى لِمَنْ رُفِعَتْ عَنْهُ الأسْتار، واستَغْنَى عَنِ الجِدالِ والأنْظار.

رفَعَتْ لنا عَنْ وجْهِها طرفَ الخبا * أهْلًا وسهْلًا بالحَبيبِ ومرْحَبا(٢)

(**والاسْتِدْلالُ عليْهِ**) بالعالَم (**مِنْ عدَمِ الوُصولِ إليْهِ**) لأنَّهُ لا يُستدَلُّ إلّا علَى خَفيٍّ أو غائبٍ، ولا خفاءَ ولا غيْبةَ معَ وُصولٍ، والأدِلّةُ إنَّما تُنْصَبُ لِمَنْ يطْلُبُ الحقَّ، لا لِمَنْ يشْهَدُه، فالشّاهِدُ غَنيٌّ بوُضوحِ مشْهودِهِ عَنِ الدَّليلِ .

(**وإلّا فمتَى غابَ حتَّى تسْتَدِلَّ عليْهِ**) بشيءٍ، لوْلاهُ لما كانَ ظُهورُ ذلكَ الشَّيءِ؟! ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧]. (**ومتَى بَعُدَ حتَّى تكونَ الآثارُ هيَ التي تُوصِّلُ إلَيْهِ؟!**) لأنَّهُ سُبْحانَهُ أقْرَبُ إلى العَبْدِ مِنْ كُلِّ شيءٍ، وإنَّما احْتجَبَ عنْهُ لشِدّةِ قُربِهِ منهُ؛ فالآثارُ ليسَتْ طريقًا لمعْرِفتِهِ، وإنْ وصَّلَتْ ظاهِرًا فلَيْسَ لها ذلكَ مِنْ حيْثُ ذاتُها، بلْ لكَونِهِ ولّاها رُتبةَ التَّوصُّلِ، فما وصَّلَ إليهِ غيْرُهُ، لكنَّهُ واضِعُ الأسْبابِ، وهي لِمَنْ وقَفَ عِنْدَها عيْنُ الحِجابِ، ومِنَ النّاسِ مَنْ لا يقْبَلُ الحَقائقَ لبُعْدِهِ عَنْ مواطِنِها معَ قصْدِ الحقِّ.

---

(١) من شعر أبي الطيب المتنبي، من قصيدة مطلعها: "شَديدُ البُعدِ مَن شربِ الشَّمولِ".

(٢) من شعر قطب العارفين، الشيخ علي وفا.

قالَ مُريدٌ لشَيْخِه: "أيْنَ اللهُ؟ قال: سحقَكَ اللهُ، أتطْلُبُ مِنَ العَيْنِ أيْنَ؟ وأنْشَدَ:

لقَدْ ظهَرْتَ فلا تخْفَى على أحَدٍ * إلّا علَى أكْمَهٍ لا يعْرِفُ القَمَرا

وأنْشَدَ ابنُ عبّاد[1]:

عجِبْتُ لمنْ يبغي علَيْكَ شَهادةً * وأنْتَ الذي أشْهَدتَهُ كُلَّ شاهِدِ

وأنْشَدَ التّونسيُّ:

طلَبُ الدَّليلِ على وُجودِكَ غيْبةٌ * عنْ نورِكَ الوَضّاحِ في الأَكْوانِ

كيْفَ الدَّليلُ لنا وأنْتَ مُدِلُّنا * إنَّ الدَّليلَ حِجابُ كُلِّ عِيانِ

وكُلُّ حقيقةٍ أخَذْتَها عَنِ الغَيرِ، ودَلَّتْكَ على سِواهُ في السَّيْرِ، فهيَ لكَ حِجابٌ في الحالِ والمآبِ، هذا وإنْ دقَّقْتَ أفكارَ الأنظارِ، فطيرُ العَناءِ بِكَ في جوِّ الخَيْبةِ طارَ، فاترُكِ العَقْلَ العَقُولَ، وكثْرَةَ الأبحاثِ والفُضولِ.

عِقالُ عقْلِكَ بالأوْهامِ معقولُ * قدْ قلَّبَ القلْبَ منكَ القالُ والقيلُ

تَهيمُ في مهْمَهِ الأوهامِ مِنْ ولَهٍ * أفادَهُ فيكَ معقولٌ ومنقولُ

نحتَّ بالفِكْرِ معبودًا وقُلْتَ بهِ * وصُنْتَ عقدًا بكفِّ الحقِّ محلولُ

قدْ عِشْتُ مِثْلَكَ دهرًا في مكابدةٍ * ولي فؤادٌ بهذا الداءِ معلولُ[2]

وبذلكَ استبانَ أنَّ ما شهِدَ الحقَّ مَنِ اسْتدَلَّ علَيْه، وما وصلَ لهُ منْ زعَمَ أنَّهُ يسيرُ إلَيْه، إذ لو شهِدَهُ لكانَ برؤيَتِهِ في طربٍ، ولو وصلَ إليهِ لزالَ عنهُ العناءُ والتَّعب.

وحاصِلُ ما مرَّ أنَّ أهْلَ العِنايةِ ما بينَ سالِكٍ مُنيبٍ ومُجتبىً حبيبٍ؛ فالأوَّلُ جعلَ دليلَهُ الآثارَ، ولولاها لما عثرَ على هاتيكَ الدّيارِ، والثّاني تعرَّفَ لهُ الحقُّ فوحَّدَ، وظهرتْ لهُ سُبُحاتُ

(١) الفقيه الصوفي العارف بالله، محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن عباد النفري الرندي، له كلام عجيب في التصوف وقلم انفرد به ومسلم له فيه، من أشهر كتبه: غيث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية، وكفاية المحتاج، والرسائل الكبرى، وغيرها. توفي سنة ٩٧٢. نيل الابتهاج (٤٧٢/١)، والأعلام (٢٩٩/٥).

(٢) من شعر العارف بالله، الشيخ محمد وفا.

التَّغريدِ فمجَّد، فشهدَ أنَّهُ واجِبُ الوُجود، وما سواهُ عدمٌ في عيْنِ الشُّهود، فأنَّى تلوحُ لهُ الأغيار؟! أم كيفَ يرى شيئًا مِنَ الآثار؟! ثُمَّ تدَلَّى مِنَ الحضرةِ الفَرْدانيّةِ؛ ليشهدَ بدائِعَها الأكوانيّةِ، فكانَ هوَ الدَّليلُ بظُهورِهِ علَيْها، ولولا سنا نورِهِ لم يهتَدِ إليها، فسُبْحانَ الظّاهِرِ فلا أظْهرَ منهُ ليُستَدلَّ بهِ عليْه، وسُبحانَ الواحِدِ فلا وُجودَ لشيءٍ معهُ حتَّى يوصِّلَ إليْه.

تتمّةٌ: قالَ ابنُ عربي: "لا تَدخُلُ الشُّبهُ في الأسرارِ والمعارِفِ الرَّبّانيّة، إنَّما محلُّها العُلومُ النَّظريّة؛ فإنَّهُ ما ثمَّ دليلٌ يوصِّلُ إلى اللهِ أبدًا، إذ غايةُ الدَّليلِ أنَّهُ موضوعٌ يدُلُّ على واضِعٍ، لا على حقيقةِ الواضِعِ، فلا أدلَّ على اللهِ منهُ أبدًا". وقالَ: "كُلُّ منْ آمنَ عنْ دليلٍ فلا وُثوقَ بإيمانِهِ، لأنَّهُ نظريٌّ، فهوَ مُعرَّضٌ للقَوادِحِ بخِلافِ الإيمانِ الضَّروريِّ الذي يوجَدُ في القلبِ ولا يُمكِنُ دفْعُهُ، وكذا كُلُّ عِلمٍ حصَلَ عنْ نظَرٍ وفِكرٍ، فإنَّهُ مدخولٌ لا يسلَمُ مِنْ دُخولِ الشُّبهِ عليهِ ولا الحيرةِ فيهِ". انتهى.

ثُمَّ كمَّلَ هذِهِ الحِكمةَ بقولِهِ:

٣٠. ﴿لِيُنفِقْ ذو سَعةٍ مِّنْ سَعَتِهِ﴾ الواصِلون إليه، ﴿ومَنْ قُدِرَ عليهِ رِزْقُهُ﴾ السّائِرون إليه.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَة مِّن سَعَتِه﴾ [الطلاق: ٧] وهُمْ **(الواصِلون إليه)** وسَّعَ عليهِمْ رزقَ القُلوبِ مِنَ المعارِفِ اللَّدُنِّيّةِ، والفَهْمِ عَنِ اللهِ بالإشارةِ في المُخاطباتِ والمُناجاةِ، حتَّى استَدلّوا بهِ عليهِ، فهُمْ أهْلُ سَعةٍ في ذلِكَ، فخرَجوا مِنْ سِجنِ رؤيةِ غيرِهِ إلى فَضاءِ توحيدِهِ، فاتَّسَعتْ مسافةُ نظَرِهِمْ، فأنفَقوا على قدْرِ ما عِندَهُمْ مِنَ السَّعةِ، فالواحِدُ مِنْهُمْ يُنفِقُ مِنْ سَعةِ عِرفانِهِ ويتَنَعَّمُ أبدًا بجِنانِهِ، ويتصَرَّفُ كيفَ شاءَ في عوالِمِهِ وأركانِهِ.

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧]، وهم **(السّائِرون إليه)** ولم يصِلوا، قُدِرَ عليهِمْ رِزْقُ العُلومِ، فحُبِسوا في مضيقِ خَيالاتِ الرُّسومِ، فأنْفَقوا ممّا أتاهُمُ اللهُ مِنَ

الرِّزْقِ المُقتَّرِ المُضيَّقِ، حتَّى احتاجوا إلى الاستدْلالِ على ما هوَ غنيٌّ عنِ الدَّليلِ، فلا يزيدُهُمْ الاستِدلالُ إلّا حيرةً واضطرابًا؛ والآيةُ وإنْ نزَلَتْ في الإنفاقِ، فحمْلُها على أعمِّ أتمُّ إذا وافقهُ دليلٌ خارجٌ، فالانتِزاعُ لا يُمنعُ، والإشارةُ لا تَدفعُ الأصْلَ، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

وأرزاقُ المعارِفِ والعُلومِ هيَ أرزاقُ الأرواحِ، وتتفاوَتُ الرُّتَبُ فيها؛ فواحدٌ عُمُرَهُ لمعنى واحِدٍ يُعاني، وآخرُ تترادَفُ عليهِ أُلوفٌ في وقتٍ واحِدٍ منَ المعاني، وبعضُهُمْ يسكرُ منْ كأسٍ، وآخرُ يُعدُّ بكُلِّ النّاسِ، وشارِبٌ يشربُ مرّةً، ولا يذوقُ بعدَها خمْرَةً، وخِلٌّ يُسقَى بالدِّنّانِ، فيدومُ سُكرُهُ على مدى الزَّمانِ، ومُصطفًى يشرَبُ البحارَ، ويراها ككأسٍ يُدارُ، ويقولُ هل منْ مزيدٍ، منْ ذلكَ الشَّرابِ العتيقِ الجديدِ؟ وقدْ يصيرُ بعدَ الشُّربِ ساقيًا للشَّرابِ، مُنادمًا للأحبابِ، فهؤلاءِ حقًّا هُمْ أهلُ العُلومِ واللّطائفِ، والأسْرارِ والمعاني والمعارِفِ، أولئكَ سُكّانُ الملإِ الأعلى، والمعنى الأجلى، حيّاهُمُ اللهُ وربّاهُمْ.

ومحصولُ ما تقرَّرَ آنفًا أنَّ السّائرَ لم يزلْ في مضيقِ الأكوانِ، يُكابدُ الطَّريقَ زمانًا بعدَ زمانٍ، أنوارُ التَّوجُّهِ منْ مُعاملةٍ ومُجاهدةٍ تَهديهِ، كما أنَّ الواصِلَ أنْوارُ المواجهةِ منْ تعرُّفٍ وتودُّدٍ تُناديهِ، فالأُولى للسّالكِ دليلٌ، ولولاها لَمْ يُشفَ لهُ غليلٌ، والواصِلُ غنيٌّ بمولاه، لا يرى إلّا إيّاه، فهي هديّةٌ لقَلْبِه، لاستِغراقِهِ في توحيدِ ربِّه، فهوَ منَ الذينَ يحضُرون تارةً، وأُخرى يغيبون هجيرةً، ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، وهذا ما أرادهُ المؤلِّفُ بقولِه:

***

٣١. اهتدَى الرّاحِلون إليهِ بأنوارِ التَّوجُّهِ، والواصِلون لهُمْ أنوارُ المُجاهَدةِ، فالأوَّلون للأنوارِ، وهؤلاءِ الأنوارُ لهُمْ، لأنَّهمْ للهِ لا لشيءٍ دونَهُ ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذرهُمْ في خَوضِهِمْ يَلعَبونَ﴾.

(**اهتدَى الرّاحِلون إليهِ**) وهُمُ السّائِرون (**بأنوارِ التَّوجُّهِ**) التي يتوصَّلون بِها إليهِ مِنْ عِبادةٍ ومُجاهدةٍ، فالنورُ في كلامِ القومِ ليسَ على بابِهِ؛ لأنَّهُ الضَّوءُ الوَهّاجُ، وكذا في قولِهِ: (**والواصِلون لهُمْ أنوارُ المُجاهَدةِ**) مِنْهُ إليهِمْ، مِنْ تعرُّفٍ وتقرُّبٍ وتودُّدٍ وتحبُّبٍ.

(**فالأوَّلونَ**) اهتَدَوا بنورٍ مُكتسَبٍ، وهؤلاءِ بنورٍ غيرِ مُكتَسبٍ بل مُندَفِقٍ مِنْ حضرتِهِ -تقدَّسَ- بلا واسِطةٍ؛ فلذلكَ كانَ الأوَّلون عبيدًا (**للأنوارِ**)، لاحتياجِهِمْ إليها في التَّوصُّلِ بها، ولجعلِهِمْ إيّاها مِنْ أعظمِ عُدَدِهِمْ وأقوى مُعتَمدِهِمْ، فلا يُمكِنُهُمْ فِراقُها، وإن فارَقوها حزِنوا وأيِسوا مِنْ مُرادِهِمْ، لمُفارَقةِ المُعوَّلِ عليهِ في تحصيلِ المطلوبِ.

(**وهؤلاءِ الأنوارُ لهُمْ**) مُفاضةٌ عليهِمْ، قاطِعةٌ لهمْ معَ غَنائهِمْ عنها؛ فالأوَّلون أصحابُ الأحوالِ، وهؤلاءِ أصحابُ المقاماتِ، فحُكِموا بالمقامِ ولم يحكُمْ فيهِمُ الحالُ، (**لأنَّهمْ للهِ لا لشيءٍ دونَهُ**) مِنْ مقامٍ ولا حالٍ، فلا التِفاتَ لهم بسِواهُ في فقدٍ ولا وِجدانٍ، ولا طاعةٍ ولا عِصيانٍ؛ فالسّالِكُ يستَضيءُ بنورِ الهِدايةِ، وهؤلاءِ يهتدون بسِرِّ العِنايةِ.

واعلمْ أنَّ كُلَّ ما سِواهُ باطِلٌ ولعِبٌ، كائنًا ما كانَ مِنَ الأحوالِ والمقاماتِ؛ فإنَّها مَشْغَلةٌ وحِجابٌ، فلذلكَ ضمَّنَ كلامَهُ آيةً مُناسِبةً للمقامِ، اقتباسًا مِنْ غيرِ إشعارٍ بأنَّها مِنَ القُرآنِ، إذ هوَ شرطُهُ كما أفصحَ بهِ بعضُ عُلماءِ البَيانِ، فقالَ: ﴿**قُلِ اللهُ**﴾ مُفردًا لهُ بالتَّوحيدِ بعدمِ مُلاحظةِ غيرِهِ، وهذا حقُّ اليَقينِ، فهو ما كانَ بتحقيقِ الانفصالِ عنْ لَوَثِ الصَّلصالِ بوُرودِ رائدِ الوِصالِ.قالَ الغزاليُّ: "وليسَ المُرادُ بهِ القولَ باللِّسانِ، إنَّما اللِّسانُ تُرجُمانٌ يصدُقُ مرّةً ويكذِبُ أُخرَى، وإنَّما بموقِعِ نظرِ اللهِ، المُترجَمِ عنهُ، وهو القلبُ، وهو معدنُ التَّوحيدِ ومنبعُهُ".

﴿**ثُمَّ ذرهُمْ في خوضِهِمْ يَلعَبونَ**﴾، أي: اترُكهُمْ يتَشاغَلون بما لا حقيقةَ لهُ، إذِ اللَّعِبُ الاشتِغالُ بذلكَ، والوُجودُ كُلُّهُ كذلكَ مِنْ حيثُ التَّحقيقِ؛ لأنَّ كُلَّ ما سِواهُ خوضٌ ولعِبٌ.

ألا كُلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطِلُ

فما سِوَى هذا الشُّهودِ، غيرُ مُعتَبرٍ ولا مقصودٍ. قالَ تعالَى عمَّنْ زُحزِحَ عنْ هذا اليقينِ المُبينِ: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥]، فابعُدْ عنهُمْ، فهُمْ عنْ ظُلَمِهِمْ محجوبونَ،

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩]، وهذا اللَّعبُ إنَّما أوجبهُ الشَّكُّ والتَّردُّدُ بينَ حالتين، والتَّردُّد يقتضي اختياراً، ولنْ تَخلُصَ للهِ ما لم تمَحَقْ مِنْكَ كُلَّ إرادةٍ سوَى إرادَتِه، وكلُّ منْ وجدَ حالًا أو مقامًا وتمتَّعَ به، فهو فاقدٌ للهِ، ومنْ وجدَ اللهَ وجدَ كُلَّ شيءٍ، ومنْ فقدَهُ فقدَ كُلَّ شيءٍ.

وخصَّ هذهِ الآيةَ بالاستشهادِ لجمعِها للحقائقِ.

***

٣٢. تشوُّفُكَ إلى ما بطَنَ فيكَ مِنَ العُيوبِ، خيرٌ مِنْ تشوُّفِكَ إلى ما حُجِبَ عنكَ مِنَ الغُيوبِ.

(**تشوُّفُكَ إلى ما بطَنَ**) أي: خفيَ (**فيكَ مِنَ العُيوبِ**) أي: النَّقائصِ في الأخلاقِ أوِ الأفعالِ أو الآدابِ، لتبحثَ عنْ دسائِسِها، وتُزيلَ ما أمكنَ مِنْ مكامِنِها، وخصَّ الخفيّةَ وهيَ الأمراضُ القلبيّةُ؛ لعُسرِ النَّظرِ فيها وصُعوبةِ مُداواتِها، وأمّا الجليّةُ فإزالتُها أسهلُ وأقربُ.

(**خيرٌ مِنْ تشوُّفِكَ إلى ما حُجِبَ عنكَ مِنَ الغُيوبِ**) مِنْ خفايا القدرِ، ولطائفِ الحِكَمِ والعِبَرِ، وعجائبِ الملَكوت، وغرائبِ اللّاهوتِ والنّاسوت؛ وذلكَ لأنَّ النَّظرَ في العُيوبِ حقُّ الأدبِ، وطلبُ الغُيوبِ قدْ يجرُّ إلى العَطبِ؛ لأنَّ الاشتغالَ بحرُ الكَمالِ، وطلبُ الغُيوبِ رُبَما وصَّلَ للضَّلالِ، ولأنَّ العُيوبَ حِجابُ الغُيوبِ، وفتحُ بابِ الغَيْبِ التَّطهُّرُ مِنَ العيْبِ، فطلبُ الغُيوبِ بدونِ إماطةِ العُيوبِ، إتيانٌ للشيءِ مِنْ غيرِ بابهِ، ولأنَّ معرفةَ العُيوبِ ترُدُّكَ إلى ربِّكَ بالافتِقارِ، وبِـ[معرفةِ] الغُيوبِ قد تَهلَكُ بالعُجْبِ والافتِخارِ، فما أحسَنَ شأنَكَ لو نظرْتَ في مرآةِ الاعتبارِ ما شأنُك.

فمنْ تشَوَّفَ إلى عُيوبِهِ الباطِنةِ ومساويهِ الكامِنةِ، ولم يزلْ حتَّى عثرَ عليها وانساقَ ببصيرتِهِ إليها، ثُمَّ صفَّى عملَهُ مِنْ كدَرِهِ، وخلَّصَ نفسَهُ مِنْ نارِهِ وشَرَرِه، فذاكَ هو القائمُ بحقِّ ربِّهِ، المُستَعِدُّ لظُهورِ الحقائِقِ لقلبِهِ.

ومنْ تشَوَّفَ لما حُجبَ عنهُ مِنَ الغَيْبِ، فهوَ حظُّهُ بغيرِ مينٍ ولا ريْبٍ. قال في "أصولِ العُقولِ": "مَنْ لا يعرِفُ حقيقةَ نفسِهِ وعُيوبَها، لم يصِلْ إلى المعْرِفةِ وكانَ خلفَ الحِجابِ".

ومبنى السُّلوكِ على أنَّ التَّخلّي عنِ الأوصافِ المذمومةِ مُقدَّمٌ على التَّحلّي بالمحمودةِ، إذ تخليصُ السَّبيكةِ مِنَ الغشِّ أولَى من إكثارِ مزجِها بخالِصٍ؛ ومِنَ القواعِدِ الشَّرعيّةِ أنَّ درءَ المفاسِدِ مُقدَّمٌ على جلبِ المصالِحِ، ولهذا قالوا: "كُنْ طالبَ استِقامة، ولا تكُنْ طالبَ كرامة"؛ فإنَّ نفسَكَ تهتزُّ لطلبِ الكَرامةِ ومولاكَ يُطالبُكَ بالاستِقامة، ولأنْ تكون بحقِّ ربِّك، أولَى مِنْ أنْ تكون بحظِّ نفْسِك.

قالَ التّونسيُّ: "رأينا مَنِ اجتَهدَ في الرِّياضةِ حتَّى لاحَ لهُ بعضُ بَوارِقَ، فعُظِّمَ لأجلِها معَ بقائِهِ معَ نفسِهِ، فلعِبتْ بِهِ، وأنفقَ ما حصلَ لهُ مِنَ اجتِهادِهِ في حُظوظِ نفسِه، وباعَ آخرتَهُ بشَهوةِ دُنياهُ، معَ احتِقارِهِ للفُقراءِ وتعظيمِ الأغنياءِ، سيَّما منْ يواليهِ بالعَطاءِ، ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ [المجادلة: ١٩].

وهذا الدّاءُ الدَّفينُ يوجِبُهُ السَّعيُ في جلبِ النّورِ قبلَ دفعِ الظُّلمة، ومَثَلُه كمنْ لهُ بيتٌ مملوءٌ نحوَ عقارِبَ، فضاقَ عطَنُهُ[1] مِنْ عِشرتِها، فاجتهدَ في تحصيلِ حيَوانٍ ينفَعُ، فأسكنَهُ معَ المؤذي، فلمّا أدخلَ النَّوعَ على غيرِهِ اقتَتلا، فنصرَ ما ينفعُ مُدّةً معَ مكابدتِهِ لذاكَ، فقَويَ الأكثرُ على الأقلِّ، والأقوَى على الأضعفِ، والمألوفُ على غيرِهِ، فأماتَ المُنتَفعَ بِهِ وبقيَ المؤذي، وطالَتْ سطوتُهُ وقويَتْ شوكتُهُ، فخسرَ مالَهُ ونفسَهُ؛ فالبيتُ القلبُ، والمؤذي أخْلاقُكَ الرَّديّةُ، كجهْلٍ وكِبرٍ ومكرٍ وغِشٍّ وعُجْبٍ، والنّافعُ ما حصَّلتَهُ مِنْ قليلِ عِلْمٍ وعمَلٍ وذِكْرٍ ورياضةٍ.

فهذا حالُ أهلِ الغُرورِ، أمّا أهلُ الوُصولِ فلا يُدخِلون البيْتَ نافعًا إلّا بعدَ إخلائِهِ مِنَ المؤذي؛ فمَنْ هوَ باقٍ معَ الكدوراتِ، وأرادَ التَّحقُّقَ بالمقاماتِ، فتِلكَ نُفوسٌ وشَهواتٌ، توقِعُ صاحِبَها في الهَلكاتِ، وبمُخالفةِ النَّفسِ سعِدَ منْ سعِدَ، وبمُطاوَعتِها شَقيَ منْ شَقِي.

---

(١) أي ضاق صبره، يقال: فلان واسع العطن: واسع الصّبر والحيلة عند الشدائد. وضدّه: ضيّق العطن. [المعجم الوسيط]

فاعملْ على عداوتها، وجاهِدْها جِهادَ العَدوِّ، واسمعْ قولَهُ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] تسعَدْ.

تنْبيهٌ: قدْ أفادَتْ هذهِ الحِكمةُ العَليّةُ قاعدةً مِنْ قواعِدِ الصّوفيّةِ، وهيَ أنَّ اختيارَ المُهِمِّ وتقديمَهُ في كُلِّ شيءٍ شأنُ الصّادقينَ؛ فكُلُّ مَنْ طَلَبَ مِنْ عُلومِ القَوْمِ دقيقَها قبلَ علمِهِ بحمْلِ أحكامِ العُبوديّةِ منْها، وعدَلَ عنْ جَليِّ الأحكامِ إلى غامِضِها، فهو مخدوعٌ لهَواهُ، سيّما إنْ لم يُحكِّمِ الظَّواهِرَ الفِقهيّةِ، ولم يُحقِّقِ الفَرْقَ بينَ السُّنّةِ والبِدعةِ، فهي البَليّةُ والرَّزيّةُ، ومِنْ ذلكَ مَنْ طالبَتْهُ نفسُهُ بالتَّحلّي قبلَ التَّخلّي، أو ادَّعَى لها ذلِكَ، فهو لا شكَّ هالِكٌ.

وللهِ درُّ العارِفِ السَّرِّيِّ السَّقَطيِّ[1] حيثُ قالَ: "مَنْ عرفَ اللهَ عاش، ومَنْ مالَ إلى الدُّنيا طاش، والأحمقُ الجاهِلُ يغدو ويروحُ في لاش[2]، والعاقِلُ عنْ عُيوبِهِ فتّاش".

فائِدةٌ: قالَ ابنُ عربي: "الجاهِلُ لا يرى جهلَهُ وعيبَهُ؛ لأنَّهُ في ظُلمَتِهِ، والعالِمُ لا يرى عِلمَهُ؛ لأنَّهُ في ضياءِ نورِهِ وبهجَتِهِ، ولا يرى ذلِكَ إلّا الغيرُ، فالمرآةُ تُخبِرُكَ بعُيوبِ صورَتِكَ وتُصدِّقُها معَ جهلِكَ بما أخبرَتْ، والعالِمُ يُخبِرُكَ بعُيوبِ نفسِكَ معَ عِلْمِكَ بما أخبرَكَ وتُكذِّبُهُ، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]".

***

٣٣. الحقُّ لَيْسَ بمحْجوبٍ، وإنَّما المحْجوبُ أنْتَ عَنِ النَّظرِ إليهِ، إذ لو حجبَهُ شيءٌ لسترَهُ ما حجبَهُ، ولو كانَ لهُ ساترٌ لكانَ لوُجودِهِ حاصِرٌ، وكُلُّ حاصِرٍ لِشيءٍ فهوَ لهُ قاهِر، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨].

(١) أبو الحسن سري بن المغلس السَّقَطي، أحد رجال الطريقة وأرباب الحقيقة، كان أوحد زمانه في الورع وعلوم التوحيد، وهو خال الجنيد وأستاذه، توفي سنة ٢٣٥. حلية الأولياء (١٠/١١٦)، طبقات الصوفية (ص٥١)، طبقات الأولياء لابن الملقن (ص١٦٠).

(٢) أي: لا شيء.

(**الحقُّ ليْسَ بمحْجوبٍ**) عَنِ النَّظرِ إليكَ لاستِحالةِ الحِجابِ في حقِّهِ كما يأتي، (**وإنَّما المحْجوبُ أنْتَ عَنِ النَّظرِ إليه**) لامْتِلاءِ صدْرِكَ مِنْ دُخانِ الشَّهواتِ، وعمَى بصيرَتِكَ مِنَ العُيوبِ وأدناسِ الذُّنوبِ، فالحِجابُ حِجابانِ: حِجابُ بصَرٍ، وحِجابُ بصيرةٍ؛ فحِجابُ البصَرِ عيبُكَ الأصلي الذي هوَ النَّقْصُ والفناءُ، ولا رؤيةَ لهما إلّا في الآخرةِ، فلا رؤيةَ للبَصَرِ إلّا هُناكَ، كما قالَ المُصطَفى ﷺ: (إنَّكُمْ لنْ تَروا ربَّكُمْ حتَّى تموتوا)[1]، وحِجابُ البصيرةِ عيبُكَ العارضُ، فإذا زالَ كُشِفَتْ لكَ الحقيقةُ فأبصَرْتَها عَيانًا.

وأما الحِجابُ في حقِّهِ تعالى فمُستَحيلٌ (**إذ لو حجبَهُ شيءٌ لستَرهُ ما حجبَهُ**)، أي: لو كانَ محجوبًا شُهودُهُ، كانَ مستورًا وُجودُهُ، ووُجودُهُ أظهرُ مِنْ أنْ يظْهرَ، ومَنْ شكَّ في ظُهورِهِ فلِعماهُ وعدَمِ شُهودِهِ لظاهِرِ وُجودِهِ، وإنَّما حجبَ الخُفّاشَ عَنِ الإبصارِ ما غلبَ عليهِ مِنْ تراكُمِ الأنوارِ.

(**ولو كانَ لهُ ساترٌ لكانَ لوُجودِهِ حاصِرٌ**) فإنَّ السَّاتِرَ حاصِرٌ لكونِهِ يُصيِّرُ المحجوبَ في جِهةٍ مِنهُ، فلا حاصِرَ لوُجودِهِ ولا نهايةَ لهُ، فلا سِتْرَ ولا حَجْبَ، ومنْ سترَ شيئًا أخفاهُ، والإخفاءُ قهرٌ، (**وكُلُّ حاصِرٍ لشيءٍ فهوَ لهُ قاهِرٌ**)، وقدْ قامَ الدَّليلُ عقلًا أنَّ الإلهَ لا يكونُ مقهورًا بلْ قاهِرًا، وإلّا لزمَ كونُهُ مقهورًا قاهِرًا وهو مُحالٌ، فإذا قُلتَ أنَّهُ سُترَ، فقدْ جعَلتَهُ مقهورًا ﴿**وهوَ القاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ**﴾ فوْقيَّةً معنَويَّةً، كما يُقالُ: السُّلطانُ فوقَ الوزيرِ، فهوَ العَليُّ في المنزِلةِ لا المنزِلِ، وفي المكانةِ لا المكانِ، فهيَ فوقيَّةٌ تليقُ بجلالِهِ، لا تَزيدُهُ قُربًا إلى العرشِ والسَّماءِ، بلْ هو رفيعُ الدَّرجاتِ عنِ العرْشِ، كما هو رفيعُها عنِ الثَّرى، فمتى أردْتَ كشفَ الغيبِ، فأمِطِ العيْبَ.

***

(١) أخرجه أحمد (٢٢٧٦٤)، والدارمي في الرد على الجهمية (١٨٢)، وابن أبي عاصم (٤٢٨)، والبزار (٢٦٨١)، والطبراني في مسند الشاميين (١١٥٧)، وأبو نعيم (١٥٧/٥)، وغيرهم من حديث عبادة ابن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٢٠/١): "قد صرح مسلم في روايته من حديث أبي أمامة بقوله ﷺ: واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا"، ولم أجده في صحيح مسلم.

٣٤. اخرُجْ مِنْ أوصافِ بشَريَّتِك، عنْ كُلِّ وصفٍ مُناقِضٍ لعُبوديَّتِك، لتكون لنِداءِ الحقِّ مُجيبًا، ومِنْ حضْرَتِهِ قريبًا.

(**اخرُجْ مِنْ أوصافِ بشَريَّتِكَ**) وهي العوائدُ البَهيمية والشَّهَواتُ النَّفسانيّةُ وغيرُ ذلكَ، ومنها ما يَتعلَّقُ بظاهِرِكَ وهو العملُ، ومِنها ما يَتعلَّقُ بباطِنِكَ وهوَ العقيدةُ؛ والأوَّلُ: مِنهُ موافِقٌ للأمرِ وهو الطّاعةُ، ومِنهُ مُخالِفٌ وهو المعصيةُ، والثّاني: مِنهُ موافِقٌ للحقيقةِ، وهو الإيمانُ والعِلْمُ، ومِنهُ مُخالِفٌ وهو النِّفاقُ والجهلُ، ويُسمَّى النَّظرُ في الأوَّلِ تفقُّهًا، وفي الثّاني تصرُّفًا.

والظاهِرُ تبَعٌ للباطِنِ؛ لأنَّ القلبَ ملِكٌ وجوارِحُهُ جُنودُهُ، وشأنُ الرَّعيّةِ طاعةُ الملِكِ في الأمرِ والنَّهيِ، والقلبُ هو العالِمُ باللهِ والعاقِلُ للهِ، والسّاعي إليهِ والمُتقرِّبُ إليه، والمُكاشَفُ بما عِندَ اللهِ ولديهِ، وإنَّما الجوارِحُ أتباعٌ وخدمٌ يستَخدِمُها ويستَعْمِلُها استِعْمالَ الملِكِ للعَبيدِ والرّاعي للرَّعيّةِ، وهو المُخاطَبُ والمُعاتَبُ والمُطالَبُ والمُعاقَبُ، وهو الذي يسعَدُ بالقُربِ مِنَ اللهِ، ويفلَحُ إذا زكّاهُ، وهو الذي يشقَى إذا دنَّسهُ ودسّاهُ، وهو المُطيعُ بالحقيقةِ للهِ، وإنَّما الذي ينتَشِرُ على الجَوارِحِ مِنَ العِبادةِ أنوارُه، وهو العاصي المُتمرِّدُ على اللهِ، وإنَّما السّاري إلى الأعضاءِ مِنَ الفَواحِشِ آثارُه، وبإظلامِهِ واستِنارتِهِ تظهرُ محاسِنَ الظّاهِرِ ومساويه، إذ كُلُّ إناءٍ يرشَحُ بما فيه.

وصلاحُ القلبِ بطَهارتِهِ مِنْ صِفاتِهِ الذَّميمةِ: ككِبْرٍ وعُجْبٍ ورياءٍ وسُمعةٍ وحِقْدٍ وحسَدٍ وحُبِّ مالٍ وجاهٍ، وما ينشأُ عنْ ذلكَ مِنْ عداوةٍ وبُغْضٍ، واحتِقارِ فقيرٍ، وعدمِ الثِّقةِ بالرِّزْقِ، وخوفِ سُقوطِ المنزلةِ مِنْ قلبِ الخلْقِ، وشُحٍّ وبُخْلٍ وطولِ أملٍ، وبطَرٍ وغِشٍّ، ومُباهاةٍ وتصنُّعٍ ومُداهنةٍ، وقسْوةٍ وغفْلةٍ وجفاءٍ، وطيْشٍ وعجَلةٍ وحِمْيةٍ، وقِلةِ رحمةٍ وحياءٍ، وتركِ قنْعٍ وحُبِّ رياسةٍ، وانتِصارٍ للنَّفسِ.. إلى غيرِ ذلكَ مِنَ الصِّفاتِ المُناقِضةِ للعُبوديّةِ مِنْ أوصافِ البشَريّةِ، المطلوبِ إخلاءُ المكانِ عنها بقولِهِ:

(**عنْ كُلِّ وصفٍ مُناقِضٍ لعُبوديَّتِكَ**) فاخلَعْها وتخلَّقْ بضِدِّها مِنْ نحوِ: تواضُعٍ وإخلاصٍ،

وصدقٍ وذلّةٍ وافْتِقارٍ، وعِفّةٍ وزُهْدٍ، حتّى تصيرَ نفْسُكَ معَكَ كأنّها جُبِلتْ مُطمَئنّةً أصَالةً، مُراقبةً للهِ باللهِ، لا تطلُبُ سِواهُ، ولا ترضَى إلّا إياهُ.

فإذا تخَلَّيْتَ ثُمَّ تحلَّيْتَ على الوصْفِ الذي رَسَموهُ، والتَزمْتَ ما قرَّروهُ، طهُرَ قلبُكَ، وزكَتْ نفْسُكَ، واتَّسمَتْ بمحاسنِ الصِّفاتِ التي تنالُ بها مِنَ الوِصالِ غايةَ الكمالِ، **(لتكونَ)** حينَئذٍ **(لنداءِ الحقِّ مُجيبًا)** لأنَّهُ إذ ذاكَ يُناديكَ باسمِ العُبوديّةِ "يا عبدي"، فتُجيبُ باسمِ الرُّبوبيّةِ "لبّيكَ يا ربُّ" فتكونُ صادقًا في إجابَتِكَ مُتحقِّقًا في نِسْبَتِكَ، (و) تكون أيضًا **(مِنْ حضْرَتِه)** أي: دائرةِ ولايَتِهِ واختِصاصِهِ **(قريبًا)** لوُجودِ بُعدِكَ عنْ نفسِكَ، وإرادةِ وجهِهِ بالعملِ، فمنْ أجابَ الشّارِعَ في الأفعالِ قرُبَ مِنْ حضرةِ ذي الجلالِ.

وهذا الخِطابُ إنّما يعيهِ ذو قلبٍ سليمٍ طاهِرٍ نقيٍّ، قدْ حلَّ في نفسٍ مُطمئنّةٍ، تأدَّبتْ بآدابِ العُبوديّةِ؛ فإذا أقامَكَ الحقُّ مقامَ العُبوديّةِ، وحُزْتَ رُتبةَ القُربِ مِنْ حضرةِ الرُّبوبيّةِ، صِرْتَ محفوظًا مِنِ اقتِحامِ الأوْزارِ، مُيسَّرةً لكَ أعمالُ الأخيارِ، مُتحلّيًا ظاهِرًا وباطِنًا أشرَفَ التَّحلّي بالصِّفاتِ الحميدةِ، مُتخلّيًا عنِ الصِّفاتِ الذَّميمةِ.

فإذا تخلَّصْتَ هذا الخلاص، أُدخِلْتَ معَ أهْلِ الاختِصاص: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ أي: بالخُلُقِ النَّفيسِ، ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠] أي: حضرةِ التَّقديسِ.

والحاصِلُ: أنَّ منْ تخلّى عنْ أوصافِ بشَريَّتِهِ، وتحلّى بأوصافِ عُبوديَّتِهِ، فهوَ الحُرُّ صِدْقًا، والعبدُ للهِ حقًّا، حازَ حقيقةَ السُّلوكِ، وفازَ بقُربِ حضرةِ مَلِكِ المُلوكِ. ولأوصافِها أصولٌ يعرِفُها أهلُ الوُصولِ: حُبُّ جاهٍ ومالٍ، وكِبْرٌ وعُجْبٌ ورياءٌ، وحِقدٌ وحسدٌ، بِئسَ الخِصالَ، وفُروعٌ تكدِّرُ العَملَ: غِلٌّ وغِشٌّ، وبخلٌ وأملٌ، ومُداهنةٌ وفظاظةٌ، وغفلةٌ وطيْشٌ، وجفاءٌ وغلاظةٌ.

وملاكُ الكُلِّ رؤيةُ النّفسِ، فمنْ حطَّ قدرَها أمِنَ مِنَ اللَّبْسِ، طابَ في اللهِ عيشُهُ، وذهبَ عنهُ غيُّه وطيشُهُ، اطمأنَّتْ نفسُهُ، ودامَ باللهِ أُنسُهُ، وأذهَبَ في تهذيبِها كُلَّ لذّةٍ، بإبعادِها عنْ عادِها فاطمأنَّتْ.

قالَ الشّاذلي: "إذا أكرمَ اللهُ عبدًا نصبَ لهُ العُبوديّةَ بينَ عينيه، وسترَ عنهُ حُظوظَ نفسِه، فهو يتقلَّبُ في عُبوديَّتِه، والحُظوظُ عنهُ مستورةٌ، وإذا أهانهُ نصبَ لهُ حُظوظَ نفسِه، وسترَ عنهُ عُبوديَّتَهُ، فهو يتقلَّبُ في شهَواتِهِ، وعُبوديَّتُه عنهُ بمعزلٍ".

تنْبيهٌ: قالَ التّونسيُّ: "قولُ بعضِ القومِ: نوديتُ، أو يُقالُ، أو قيلَ لي كذا، هذا النِّداءُ يختلِفُ باختِلافِ أحوالِهِمْ ومقاماتِهِمْ، فمِنهُمْ منْ يُنادى مِنْ شيخِهِ المُراعي لهُ، ومِنهُمْ مِنَ الملائكةِ الحافّينَ، ومِنهُمْ من سِرِّهِ".

تتِمّةٌ: قالَ بعضُ الأئمّةِ: "شأنُ أكابِرِ الأُمّةِ العملُ على تحصيلِ مقامِ دُخولِ الحضرةِ الإلهيّةِ الحقيقيّةِ لا المُتجليّةِ، ولا يَكتفِي بالمُتجليّةِ التي يحكمُ عليها اللّيلُ والنّهارُ، كما هو شأنُ مَنْ أرواحُهُمْ تحتَ مُقعَّرِ فلكِ القمرِ[1]، وإنّما يكتفي بارتِفاعِهِ إلى الحضرةِ التي لا ليلَ فيها ولا نهارَ، وَضَوْءُها وضّاحٌ كحالِ أهلِ الجنّةِ فيها، ولمّا دخلَ الجارحيُّ[2] هذهِ الحضرةَ صارَ يكتُبُ الكَراريسَ العَديدةَ حالَ ظُلمةِ اللّيلِ كما يكتُبُ بالنّهارِ، مِنْ غيرِ فرقٍ".

فائدةٌ: قالَ شيخُنا الشَّعْراني سمِعتُ الدَّشطوطيَّ[3] يقولُ: "طلبْتُ مِنْ اللهِ مقامَ الحُضورِ بينَ يديْهِ، فتجلّى لي مِنْ حضْرَتِهِ أمرٌ ذابَتْ مِنْهُ مفاصِلي، فصرْتُ أطلُبُ طُلوعَ روحي فلا أُجابُ، فتوسَّلتُ بالمُصطَفَى ﷺ، فرَحِمني وأسْدَلَ عليَّ الحِجابَ".

(١) حدد علماء الهيئة لكل نجم أفلاكه، ولكل فلك مُقعَّره ومحُدَّبه، وفي حاشيته على شرح الدردير للخريدة، ذكر الشيخ المطيعي أن حقيقة النوم أنه برزخ بين الحياة والموت، ونقل عن الخوّاص أن محله "ما تحت الكواكب ومقعر فلك القمر خاصة"، وعليه فأرواح النائمين هي التي تحت مقعر فلك القمر، والله أعلم.

(٢) الشيخ الفقيه الصوفي أبو السعود محمد بن دغيم الجارحي القاهري، المعتقد عند الملوك فمن دونهم، حفظ القرآن واشتغل بالفقه والنحو، ثم أقبل على العبادة والمجاهدة، ومكث عشرين سنة صائما، وله مجاهدات وكرامات، توفي سنة ٩٢٩. الطبقات الكبرى للشعراني (١١٧/٢)، وشذرات الذهب (٢٣١/١٠)، والكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة (٤٧/١).

(٣) العارف بالله تعالى، زين الدّين عبد القادر بن محمد الدشطوطي –نسبة إلى دشطوط من قرى الصعيد– الشيخ الصالح المعمّر المعتقد المجرّد صاحب الكرامات، من شيوخ العارف الشعراني، كان ضريرا، وعمّر جوامع بمصر وقراها، ووقف الناس عليها أوقافًا كثيرة. الطبقات الكبرى للشعراني (١٢٤/٢)، طبقات الأولياء للمناوي (٦٣/٤)، وشذرات الذهب (١٨٠/١٠).

٣٥. أصلُ كُلِّ معصيةٍ وغفْلةٍ وشهْوةٍ الرِّضَى عنِ النَّفْسِ، وأصلُ كُلِّ طاعةٍ ويقَظةٍ وعِفّةٍ عدمُ الرِّضَى عنها. ولأنْ تصحَبَ جاهلًا لا يرضَى عنْ نفسهِ خيرٌ مِنْ أنْ تصحَبَ عالمًا يرضَى عنْ نفسِه، فأيُّ عِلمٍ لعالمٍ يرضَى عنْ نفسِه! وأيُّ جهلٍ لجاهلٍ لا يرضَى عنْ نفسِه!

(**أصلُ كُلِّ معصيةٍ وغفْلةٍ وشهْوةٍ الرِّضَى عنِ النَّفْسِ**) لأنَّهُ يوجِبُ اتِّباعَ أمرِها، وهي أمّارةٌ بالسّوءِ، ويُغطّي عُيوبَها ويُصيِّرُ قبيحَها حسنًا، كما قيلَ:

وعينُ الرِّضَى عنْ كُلِّ عيبٍ كليلةٌ[1]

وعلامتُهُ الشَّفقةُ عليها، والإغضاءُ عنْ عُيوبِها، قالَ الأنماطي[2]: أقربُ شيءٍ إلى مقْتِ اللهِ رؤيةُ النَّفسِ وأحوالِها، وأشدُّ مِنهُ طلبُ العِوَضِ على فِعلِها، فمنْ خالَفَ نفسَهُ واتَّبعَ هواهُ، خسِرَ دُنياهُ وأُخراهُ، ومنْ خالَفَها ونهى هواهُ عنْ بُلوغِ مُناهُ، فالجنّةُ مأواهُ، فـ"أل" في "النَّفس" للعهْدِ لا للجِنْسِ، والمعهودُ النَّفْسُ النّاقِصةُ التي هيَ محلُّ الغفَلاتِ والمُخالَفاتِ، والغفلةُ إهمالُ الحُقوقِ الواجِبةِ والمندوبةِ بالاسترسالِ معَ دواعي الهوَى.

(و) كما أنَّ أصلَ كُلِّ معصيةٍ الرِّضى عنها، (**أصلُ كُلِّ طاعةٍ ويقَظةٍ وعِفّةٍ عدمُ الرِّضى عنها**) لأنَّهُ الباعِثُ على تتبُّعِ عُيوبِها، والتَّخلّي عنها والتَّحلّي بضِدِّها، وعلامتُهُ اتِّهامُها، والتَّحفُّظُ مِنْ آفاتِها، وحملُها على المكارِهِ في جميعِ أوقاتِها.

ومحصولُ ما تقرَّرَ: أنَّ الرِّضَى عنِ النَّفسِ يُغطّي العُيوبَ ويستُرُ الشَّهوةَ، فتوقِعُ في الذُّنوبِ،

---

(١) صدر بيت للإمام الشافعي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وتمامه: "وَلَكِنَّ عَينَ السُّخطِ تُبدي المَساويا".

(٢) الإمام العلامة شيخ الشافعية، أبو القاسم عثمان بن سعيد بن بشار الأنماطي الأحول البغدادي، من كبار الفقهاء الشافعية، أخذ الفقه عن المزني والربيع بن سليمان المرادي، اشتهرت به كتب الشافعي ببغداد، وعليه تفقه شيخ المذهب أبو العباس بن سريج، توفي سنة ٢٨٨. تاريخ بغداد (٢٩١/١١)، وفيات الأعيان لابن خلكان (٢٤١/٣)، وسير أعلام النبلاء (٤٢٩/١٣).

ومَنْ سَخطْ عليها استقبَحْ حالَها، وتيَّقظْ لما توردُهُ مِنْ مِحالِها[1]، فتخمُدُ نارُ شهوتِهِ، ويزدادُ وصفُ عِفَّتِهِ، فمنْ أجهَدَها بفِعْلِ الأوامِرِ، وراقبَها مراقبةَ عارِفٍ ماهِرٍ، فما أشرفَ حالَهُ، وما أنعمَ بالَهُ.

قالَ بعضُهُمْ: منْ راقبَ اللهَ في خُطواتِهِ عصَمَهُ في حركاتِهِ، ومنْ علِمَ الدَّسائِسَ فقدْ حازَ النَّفائسَ، ومنْ عرَفَ المفاسِدَ فسُوقُ علمِهِ غيرُ كاسِدٍ، ومَنْ رضِيَ عنْ نفْسِهِ لم يظفَرْ بأُنْسِهِ. قيلَ: استأذَنَ بعضُهُمْ المَرسي في قراءةِ "رِعايةِ المُحاسِبيِّ"[2] المؤلَّفةِ في عُيوبِ النَّفسِ فقالَ: "يُغنيكَ عنها كلِمتانِ: اتَّقِ اللهَ بشرطِ العِلمِ، ولا ترضَى عنْ نفسِكَ بشيءٍ".

والرِّضَى عنها وعدمُهُ ينشأُ غالبًا عنْ صُحبةِ الأخيارِ والأشرارِ، فإنَّ المرءَ على دينِ خليلِهِ، ومنْ تحقَّقَ بحالةٍ لم يخلُ حاضِروهُ منها، فلذلكَ قالَ: **(ولأنْ تصحَبَ جاهِلًا)** مِنْ شيخٍ أو قرينٍ أو خادمٍ أو زوجةٍ أو شريكٍ أو نحوَ ذلكَ **(لا يرضَى عنْ نفسِهِ، خيرٌ)** في تحصيلِ فائدةِ الصُّحبةِ **(مِنْ أنْ تصحَبَ عالمًا يرضَى عنْ نفسِهِ)** لأنَّ شأنَ السّاخِطِ عليها الإنصافُ مِنْ نفسِهِ، والتَّواضُعُ للخلقِ، وطلبُ الحقِّ بالصِّدقِ، فصُحبتُهُ تقتَضي اكتِسابَ هذهِ المحاسِنِ؛ لأنَّ الطَّبعَ لِصٌّ، والرّاضي شأنُهُ الكِبرُ، وقِلّةُ الإنصافِ، والتَّصرُّفُ بالرِّياسةِ، فصُحبتُهُ تُثمرُ العُبوديّةَ لهُ أوَّلًا والقطيعةَ آخرًا، لأنَّكَ ولو بذلتَ الجَهدَ في رِضاهُ، رأى أنَّ حقَّهُ عليكَ فوقَ ذلكَ، فلا يرضَى عنكَ، وإنْ رضِيَ فهو كَلا شيءَ، فالعملُ معَهُ كالرَّقْصِ عِنْدَ العميانِ، ثُمَّ هو لا يغفِرُ زلّةً ولا يُقيلُ عثرةً ولا يرجِعُ لرأيٍ، ثُمَّ إنْ كانَ عالمًا فعِلْمُهُ زيادةٌ في كِبْرِهِ، وطُغيانٌ في شرِّهِ، أو جاهِلًا فجهلُهُ وبالٌ عليهِ وعلى رفيقِهِ، وإنْ كانَ رئيسًا لم يُنتفَعْ بدينٍ ولا بدُنْيا معَهُ؛ ثُمَّ الصّاحِبُ إنَّما يُرادُ للنُّصحِ والشَّفقةِ والمعونةِ، وهيَ مِنَ الرّاضي عنها مفقودةٌ؛ لجهلِهِ بقدرِ نفسِهِ وإغفالِهِ حقَّ صاحِبِهِ، وإن فعلَ شيئًا منها أُعجِبَ بهِ ومَنَّ، حتَّى يودَّ رفيقُهُ أنَّهُ لم يفعَلْهُ.

---

(١) المحال: المكر والحيلة.

(٢) كتاب "الرعاية لحقوق الله" من أشهر مؤلفات المُحاسِبي، أبي عبد الله الحارث بن أسد، عرف بهذه النسبة لكثرة محاسبته نفسه، من علماء مشايخ القوم بعلوم الظاهر وعلوم المعاملات والإشارات، وهو أستاذ أكثر البغداديين، مات ببغداد سنة ٢٤٣. حلية الأولياء (١٠/٧٣)، طبقات السلمي (ص ٥٨).

(**فأيُّ علمٍ**) نافعٍ (**لعالِمٍ يرضَى عنْ نفسِه!**) وقدْ جهلَ ما بينَ جنْبَيه، ولم يعلمْ حقَّ ربِّه عليْه، (**وأيُّ جهلٍ**) ضارٌّ (**لجاهلٍ لا يرضَى عنْ نفسِه!**) معَ عِلمِه بعُيوبِها وما يُقرِّبُهُ إلى ربِّه، فجهلُهُ الموجِبُ لعدمِ رِضاهُ عنها صارَ في غايةِ النَّفعِ؛ فكأنَّهُ بتحصيلِ هذا العِلمِ لا جهلَ عِندَهُ، وإنَّما انقلبتِ الأحكامُ لانقلابِ الحقائقِ، إذ حقائقُ الجهلِ: الفِرارُ مِنَ الحقِّ، واتِّباعُ الباطِلِ، والحُكمُ بما لا يصِحُّ، وهذا حالُ الرّاضي عنها؛ وحقائِقُ العِلمِ: العملُ بالحقِّ، وتجنُّبُ الباطِلِ، وإعطاءُ كُلِّ شيءٍ ما يليقُ بهِ، وهذا حالُ السّاخِطِ عليها.

فالعِلمُ بالصّورةِ لا عِبرةَ بهِ، وإنَّما هو صِناعةٌ، والجهلُ بالصّورةِ لا يضُرُّ بذيهِ[1]، لتحصيلِهِ ما يحتاجُهُ بسُؤالِهِ معَ سلامةِ حالِهِ، وذاكَ كُلَّما ازدادَ مسألةً ازدادَ جهلًا بربِّهِ وبنفسِهِ. وقد استَعاذَ المُصطَفَى ﷺ منْ عِلمٍ لا ينفعُ، وحذَّرَ مِنهُ، وأخبرَ أنَّ صاحِبَهُ أشدُّ النّاسِ عذابًا، قالَ ﷺ: (اللَّهُمَّ إنّي أعوذُ بِكَ مِنْ عِلمٍ لا ينفعُ، وقلبٍ لا يخشَعُ، ودُعاءٍ لا يُسْمَعُ، ونفسٍ لا تَشْبَعُ) رواهُ التِّرمَذي عن ابنِ عمر[2]، وقالَ: "أشدُّ النّاسِ عَذابًا يومَ القيامةِ عالِمٌ لم ينفَعْهُ اللهُ بعِلمِهِ" رواهُ البيهقي عنْ أبي هُريرةَ[3]. وبالجُملةِ لا خيرَ في صُحبةِ مَنْ صُحبتُهُ تُميتُ القلبَ، وتُبعِدُ مِنَ الرَّبِّ، أنتَ بخَليلِكَ مُقتَدٍ، وبأفعالِهِ مُهتدٍ، فالزمْ صُحبةَ منْ تدُلُّكَ على الخيرِ أقوالُه، وتُنهِضُكَ إلى اللهِ أفعالُه. قالَ التّونسيُّ: هذا ميزانٌ حرَّرَهُ المؤلِّفُ في معرفةِ الأخلاقِ، يوزَنُ بهِ مُدَّعي العِلمَ والمعرفةَ.

ومن جهِلَ أخلاقَ نفسِهِ وزعَمَ أنَّهُ عالِمٌ بغيرِها، فهو جاهِلٌ، وأمارةُ جهلِهِ رِضاهُ عنها المؤثِرُ للدّنيا وحُبِّ العاجِلِ، وأوَّلُ مُهِمٍّ على المكلَّفِ بعدَ معرِفةِ الباري، السَّعيُ في طهارةِ نفسِهِ مِنَ الأخلاقِ الرَّدِيّةِ، فمنْ لم يُطهِّرْها وزعَمَ أنَّهُ عالِمٌ كَذَّبَهُ الوِجدانُ القائِمُ بهِ، وإنَّما حجبَ النّاسَ عنِ الاشتِغالِ بذلكَ قِلّةُ الإدراكِ لدَقائقِ النُّفوسِ المُزيِّنةِ للباطِلِ، لحظِّها وحبِّها الراحةَ والفرَحَ بالعاجِلِ واستبعادِ الآجِلِ، وذلك مكرٌ واستِدراجٌ.

---

(١) أي بصاحبه.

(٢) سنن الترمذي (٣٤٨٢)، والحديث أخرجه مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/٤٧٤)، والبيهقي في الشعب (١٦٤٢)، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (١٠٧٩)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

قالَ ابنُ عبّادٍ: "ومُطالعةُ كُتُبِ التَّصوُّفِ وموالاةُ أهلِه بالتَّعرُّفِ نافِعةٌ لذلكَ"، ومُرادُهُ: كُتُبُ المُعامَلةِ، فهي النّافعةُ للمُريدِ لكونِها تُكسِبُهُ الخُلُقَ الحميدَ، دون ما هو عِلْمُ المُكاشَفةِ؛ فإنَّها تضُرُّهُ لاطِّلاعهِ على مقامِ أهلِ النِّهايةِ، وهوَ في البِدايةِ، فتُحدِّثُهُ نفسُهُ أنَّهُ وصَلَ رُتبةَ الكَمالِ، وهو في مبادِئِ الحالِ، فيقعُ في الغلطِ، والنَّفسُ تدُسُّ السُّمَّ في الدَّسمِ، فليحذَرْ هذا البابَ، وإلّا أُسْدِلَ عليهِ الحِجابُ.

وقالَ الشَّيخُ زَرُّوقُ[1]: "الرِّياضةُ تمرينُ النَّفسِ لإثباتِ حُسنِ الأخلاقِ ودفعِ سَفسافِها، وبهذا الوجهِ اختِصاصُ عِلمِ التَّصوُّفِ، وأخْذُهُ مِنْ كُتُبِ السُّلَمي[2] أقربُ لتحريرِهِ وتحقيقِهِ، وتحصيلِهِ وتأصيلِهِ وتفصيلِهِ، بخِلافِ رِسالةِ القُشَيْرِيِّ؛ فإنَّ ذلكَ منها مُتعذرٌ، لأنَّ مدارَها على الحِكاياتِ وما خفَّ مِنَ الأحكامِ مِنْ غيرِ تأصيلٍ، وكُلٌّ منها يتعذَّرُ السُّلوكُ مِنهُ حقيقةً لوجوهٍ ثلاثةٍ ..."، وأطنبَ في تقريرِها[3].

وأمّا صُحبةُ القومِ، فمِنهُمْ واصِلٌ مكشوفٌ، وغيرُ واصِلٍ لكنَّهُ مُتَّبِعٌ غيرُ مُبتدِعٍ، فصُحبَتُهُ أنفعُ للمُريدِ للُزومِهِ لرُسومِ الشَّريعةِ، وهي مركزُ المُريدِ، فنفعُهُ بهِ أكثرُ مِنَ الواصِلِ العامِلِ على شاكِلةِ ما كُشِفَ لهُ في عالَمِ الغيبِ مِنْ مركَزِ الحقيقةِ كالخَضِرِ.

ثُمَّ إنَّ النَّفسَ في القُرآنِ ذُكِرتْ بأوصافٍ ثلاثةٍ: أمّارةٍ ولوّامةٍ ومُطمئنّةٍ، فاللَّوامةُ نفسٌ حيَوانيّةٌ أخلدَتْ لأرضِ الشَّهواتِ، والأمّارةُ شيطانيّةٌ غلبَ عليها حُبُّ المُخالفاتِ، والمُطمَئِنّةُ عاقِلةٌ ناطِقةٌ ملكيّةٌ خلُصَتْ وطهُرَتْ مِنَ الكَدوراتِ، فرُفِعَ عنها الحِجابُ، وأُهِّلَتْ لحضرةِ

(١) أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي، أبو العباس، زروق، ولد سنة ٨٤٦، ونشأ يتيما، تفقَّه في بلده وقرأ بمصر والمدينة، وغلب عليه التصوف، ومن كتبه: شرح مختصر خليل، والنصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية، والقواعد في التصوف، وله عدة شروح للحكم العطائية، وشرح رسالة أبي زيد القيرواني، وغير ذلك. توفي سنة ٨٩٦. الضوء اللامع (٢٢٢/١)، ونيل الابتهاج (٢٣٠/١).

(٢) الإمام الحافظ المحدِّث أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السُّلَمي، شيخ خُراسان، ولد (٣٣٠) شيخ الصوفية وصاحب تاريخهم وطبقاتهم وتفسيرهم، توفّي في شعبان سنة ٤١٢. تاريخ بغداد (٢٤٦/٢)، وسير أعلام النبلاء (٢٤٧/١٧)، وطبقات الشافعية للسبكي (١٤٣/٤).

(٣) انظر النص في "قواعد التصوف"، القاعدة رقم ٦٩.

الجَنابِ، فهذهِ الثَّلاثةُ هي المطروقةُ في الأسماعِ والأوضاعِ؛ لكِنْ قسَّمَها العارِفُ علِي وفَا[1] إلى أحدَ عشرَ وانتزَعَها مِنْ حديثِ أُمِّ زَرْعٍ، وجعلَهُ مقصوراً بها في رِسالة.

***

٣٦. شُعاعُ البصيرةِ يُشهِدُكَ قُربَهُ منكَ، وعينُ البصيرةِ تُشهِدُكَ عدمَكَ لوُجودِهِ، وحقُّ البصيرةِ يُشهِدُكَ وُجودَهُ، لا عدمَكَ ولا وُجودَكَ.

(**شُعاعُ البصيرةِ**) الذي هو نورُ العقلِ الهادي للإيمانِ، وقيلَ: هو بيانٌ وحُجّةٌ واضِحةٌ تظهَرُ بكثرةِ الفِكرِ في آلاءِ اللهِ ومصنوعاتِهِ، (**يُشهِدُكَ قُربَهُ منكَ**) بالإحاطةِ والعِلمِ حتَّى ترى أنَّهُ أقربُ مِنْ حبلِ الوَريدِ، فلا يراكَ حيثُ نهاكَ، ولا يفقِدُكَ حيثُ أمرَكَ، لِعلمِكَ باطِّلاعهِ عليكَ، وهو تعالى قريبٌ أبدًا، لكِنَّ شُهودَ الخلقِ لهُ على قدرِ بصائرِهِم.

(**وعينُ البصيرةِ**) التي هي نورُ العِلمِ، وقيلَ: المُستَفادُ مِنَ المرتَبةِ الأولى بكثرةِ مُلازمةِ الشُّهودِ والوُقوفِ عِنْدَ الحُدودِ، (**تُشهِدُكَ عدمَكَ لوُجودِه**) أي: لأجلِ وُجودِهِ الذي تضمَحِلُّ الموجوداتُ معهُ حتَّى لا ترى لنفْسِكَ عملًا ولا حالًا، لِافْتِقارِكَ واضْطِرارِكَ.

(**وحقُّ البصيرةِ**) أي عينُ يقينِها الذي هوَ نورُ الحقِّ، (**يُشهِدُكَ وُجودَهُ**) وحدَهُ بلا واسِطةٍ، فلا ترى موجودًا سِواهُ، (**لا عدمَكَ ولا وُجودَكَ**).

فلا يُثبِتُ لنَفْسِهِ وُجودًا؛ لمُشاهدَتِهِ نقصَ وُجودِهِ، ولا عدمًا؛ لعِلمِهِ بوُجودِ نفسِهِ، ومِنْ ثَمَّ يدخُلُ في الحيرةِ والدَّهَشِ، فتجَلِّي وصفِ الباقي أوجَبَ فناءَ العَوالمِ والمَعالمِ، ولِسانُ فرْدانيَّتِهِ في الأفرادِ حيَّرَ المُتعلِّمَ والعالِمَ، ومنْ صفا قلبُهُ واستَنار، علِمَ إحاطةَ الحقِّ بهِ في جميعِ الأطوار،

(١) أبو الحسن علي بن محمد بن وفا الشاذلي المالكي، اشتغل بالأدب والوعظ وحصل له أتباع، وكان عارفا بالفنون له نظم كثير، من تصانيفه: الباعث على الخلاص في أحوال الخواص، والكوثر المترع في الأبحر الأربع في الفقه، وديوان شعر معروف، وتفسير. توفي سنة ٨٠٧. إنباء العمر لابن حجر (٣٠١١/٢)، شذرات الذهب (١٠٦/٩).

مَنْ شهِدَ هذا المشْهَدَ السَّعيد، تحقَّقَ أنَّهُ أقرَبُ إليهِ مِنْ حبلِ الوَريد، فالزمْ هذا الشُّهود، فإنْ غفَلْتَ فتُبْ واحذرْ أن تعود، ومنْ نظرَ بنورِ العلمِ شهِدَ أنَّهُ عدم، لا وُجودَ لحادِثٍ معَ وصفِ القِدَم، وُجودٌ بينَ عدَمين، عدمٌ بغيرِ مَيْن، ومَنْ نظرَ بنورِ الحقِّ غابَ حتَّى عنْ نفسِه، فلم يرَ معَ اللهِ شيئًا وذلكَ غايةُ قُدسِه، هوَ الموجودُ حقًّا، وما سِواهُ عدمٌ صِدقًا، الشَّيءُ حقيقةً منْ قامَ بنفسِهِ، وليس إلّا واحِد، فهوَ المُحبُّ والمحبوبُ، والمشهودُ والشّاهِد.

وقد قرَّرَ المؤلِّفُ ثلاثةَ مشاهِدَ يجدُها المشاهِدُ مرتَّبةً: شُعاعِ البصيرةِ، وعينِ البصيرةِ، وحقِّ البصيرةِ؛ فالأوَّلُ: مقامُ علمِ اليقينِ، والثّاني: عينُ اليقينِ، والثّالثُ: حقُّ اليقينِ، وهذه المقاماتُ حضَراتُ القُربِ منهُ تعالى؛ فالشُّعاعُ مبدأُ النّورِ، وهو أوَّلُ مشهودٍ في البِدايةِ في مَظهرِ العقلِ الهادي للحقِّ، وفيهِ يشهَدُ قُربَ الحقِّ منهُ، فإذا ترقَّى لعيْنِ البصيرةِ، أشهَدَتْهُ عدمَهُ الجُزئي الدّاخِلَ تحتَ إحاطةِ الحقِّ، وهوَ مقامُ الفناءِ عنِ الوُجودِ بحضرةِ المشهودِ؛ فإذا ماتتْ أوصافُ خَلْقِهِ، خلعَ عليهِ خِلعةَ البقاءِ، وأتاهُ الحقُّ بحقيقةِ حقِّهِ، ففنيَ عنْ وُجودِهِ وعدمِهِ، وشَهِدَ الحقَّ أبدًا، كما كانَ أزلًا، ما معَهُ سِواهُ، ولا شَهِدَهُ بالحقيقةِ إلّا إيّاهُ، قال عليه السلام[1]:

***

٣٧. كانَ اللهُ ولا شيءَ معَهُ، وهوَ الآنَ على ما عليهِ كانَ.

(**كانَ اللهُ**) موجودًا في الأزلِ (**ولا شيءَ معَهُ**)[2]، لا ملَكًا ولا غيرَهُ، قالَ الجنيدُ استِنباطًا مِنَ الحديثِ: (**وهوَ الآنَ على ما عليهِ كانَ**)، كينونةٌ لا يصحَبُها الزّمانُ، ولا يُقيِّدُها وُجودُ الأكوانِ، بلِ الزّمانُ الذي هوَ حركةُ الفَلَكِ أمرٌ موهومٌ لا حقيقةَ لهُ في نفسِ الأمرِ، وقدْ كانَ اللهُ

(١) هكذا في مخطوطة الأزهرية، وهي صيغة دعاء معهود استخدامها مع الرسل، استخدمها هنا المناوي في الدعاء للولي العارف ابن عطاء الله، رضي الله عن الجميع.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤١٨)، وغيره من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: (كان الله ولم يكن شيء قبله)، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤١٠): وهو بمعنى "كان الله ولا شيء معه".

قبلَ وُجودِه، والمُرادُ: أنَّهُ لا شيءَ معَهُ في أبدِه، كما لم يكُنْ معَهُ شيءٌ في أزلِه؛ لثُبوتِ أحَديَّتِه. قيلَ لبعضِهِمْ: أينَ اللهُ؟ قالَ حيثُ كانَ قبلَ أنْ يخلُقَ المكانَ، قيلَ: فأينَ كانَ؟ قالَ: حيثُ هوَ الآنَ. يعني هوَ لا يُعرَفُ بالأينَ ولا بالكَونِ، وشُهودُ ذلِكَ بجريانِه في عوالِمِ القلبِ، حتَّى لا يبقَى فيها مُتَّسعٌ لِشيءٍ مِنَ الأغيارِ، كما قيلَ:

فلمْ يبقَ إلّا الحقُّ لمْ يبقَ كائنُ * فما ثَمَّ موجودٌ ولا ثَمَّ بائنُ

وللهِ درُّ القائلِ:

سبَرْتُ العِلمَ تفصيلًا وجُملة * وطُفتُ الكون بالتَّحقيقِ كُلَّه

فما ألفَيْتُ غيرَ اللهِ شيئًا * تجلَّى دون معلولٍ وعِلَّه

ثُمَّ ما ذكرَهُ المؤلِّفُ هوَ ما أشارَ إليه قولُهُمْ: عِلمُ اليقينِ وحقُّ اليَقينِ وعيْنُ اليقينِ. قالَ ابنُ عربي: "منْ شهِدَ الخلقَ لا فِعْلَ لهُمْ فازَ، ومَنْ شهِدَهُمْ لا حياةَ لهُمْ جازَ، ومَنْ شهِدَهُمْ عيْنَ العَدَمِ فقدْ وصلَ". قالَ الشّارحُ: "معناهُ ليسَ المُعتَقِدُ كالمُبرهِنِ، ولا المُبرْهِنُ كالموقِنِ، ولا هُما كالمُتمكِّنِ، لا كما فهِمَهُ مَنْ أوَّلَهُ بتنقيصِ القومِ، فما ثَمَّ إلّا المعتَقَدُ الأوَّلُ، وإنَّما الزّيادةُ في التَّحقُّقِ بهِ حتَّى ينطَبِعَ معناهُ في كُلّيّةِ العبدِ انطباعًا لا يُمكِنُ فكُّهُ".

ولهذهِ المعاني مجالٌ ذكَرَهُ العُلَماءُ في كُتُبِهِمْ بغامِضِ القولِ وواضِحِه؛ كـ "كتابِ التَّوحيدِ والتَّوكُّلِ" مِنَ الإحياءِ، وأوائلِ "رِسالةِ القُشَيْري"، وأعظَمُها نفعًا وأسلَمُها كُتُبُ المُصنِّفِ كـ"اللَّطائفِ" و"التَّنويرِ"، قالَ ابنُ عبّاد: "ما في كُتُبِ التَّصوُّفِ المُطوَّلةِ والمُختَصرةِ مِثلُهُ، ومسلَكُهُ فيهِ توحيديٌّ لا يسَعُ أحدٌ إنكارَهُ، ويكتسِبُ المتَّصِفُ بهِ كُلَّ صِفةٍ حميدةٍ، ويُطهِّرُهُ مِنْ كُلِّ خُلُقٍ ذميمٍ، ويتعيَّنُ تحصيلُهُ على كُلِّ مُريد، و"قوتُ القُلوبِ" لأبي طالب[1] يوصِلُ كُلَّ مطلوبٍ، وناهيكَ بـ"النَّصائحِ" للمُحاسِبي، فاتَّخِذْ مُطالعَتَه ورِدًا، و"أُصولُ السُّلَّمي" الموضوعُ في عُيوبِ النَّفسِ صغيرُ الحجمِ عظيمُ الفائدةِ. انتهى.

---

(١) الإمام الزاهد أبو طالب محمد بن علي بن عطية، الحارثي المكي، صاحب كتاب قوت القلوب؛ كان رجلا صالحا مجتهدا في العبادة، ويتكلم في الجامع، وله مصنفات في التوحيد، وسكن بغداد فوعظ فيها، فحفظ عنه الناس أقوالا هجروه من أجلها، توفي سنة ٣٨٦. سير أعلام النبلاء (٥٣٦/١٦).

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ لِكُلِّ فريقٍ طريقًا، فللعاميِّ تصوُّفٌ حوَتْهُ كُتُبُ المُحاسِبي، وللفقيهِ تصوُّفٌ رامَهُ ابنُ الحاجِّ[1] في "مدخله"، وللمُحدِّث تصوُّفٌ حامَ حولَهُ ابنُ العربي في "سِراجِه"[2]، وللعابِدِ تصوُّفٌ دارَ عليهِ الغَزالي في "مِنهاجه"[3]، وللمُترِّيَض تصوُّفٌ نبَّهَ عليهِ القُشَيْري في "رِسالَتِه"، وللناسِكِ تصوُّفٌ حواهُ "القوتُ" و"الإحياءُ"، وللحكيم تصوُّفٌ ضمَّنَهُ الحاتِميُّ[4] كُتبَهُ، وللمنْطِقيِّ تصوُّفٌ نحا إليهِ ابنُ سبعينَ[5]، وللحَرْفِيِّ تصوُّفٌ جاءَ بِهِ البُوني[6] في "أسرارِهِ"، وللأُصوليِّ تصوُّفٌ قامَ الشّاذليُّ بتحقيقِهِ، قال: "فليَعتبِرْ كُلٌّ بأصلِهِ مِنْ محلِّهِ".

***

٣٨. لا تتعدَّينَّهُ هِمَّتُكَ إلى غيرِهِ، فالكريمُ لا تتخطّاهُ الآمالُ.

(**لا تتعدَّينَّهُ**) بالنّونِ للتّوكيدِ، والهاءِ للهِ، ورفعَ قولَهُ (**هِمَّتُكَ**) على أنَّهُ فاعِلٌ على ما فهِمَهُ بعضُ الشُّرّاحِ، وجعلَهُ بعضُهم "تتعدَّ" بغيرِ توكيدٍ، و"نيَّةَ" بالياءِ، وأضافَهُ لقولِهِ "هِمَّتكَ"، أي:

---

(١) أبو عبد الله محمّد بن محمّد العبدريّ الفاسيّ المعروف بابن الحاج: العالم المشهور بالزهد والورع والصلاح، توفّي بالقاهرة سنة ٧٢٧هـ، وكتابه المدخل كما قال في مقدّمته: "وسمّيته بمقتضى وضعه كتاب المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النّيّات والتّنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت وبيان شناعتها وقبحها". انظر شجرة النور الزكيّة (٢١٣/١).

(٢) كتاب "سراج المريدين في سبيل الدين" لأبي بكر ابن العربي المعافري الإشبيلي، المتوفى سنة ٥٤٣هـ.

(٣) كتاب "منهاج العابدين" للإمام الغزالي.

(٤) هو ابن عربي.

(٥) قطب الدين أبو محمد، عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر، المعروف بابن سبعين، المقدسي الرقوطي، كان صوفيا على قواعد الفلاسفة، وله كلام كثير في العرفان وتصانيف، وله أتباع ومريدون يعرفون بالسبعينية لهم غلو فيه، ولمشايخ الصوفية تحذير من كتبه وكلامه، ونُسب إلى أمورٍ الله أعلم بها، وقال عنه العارف الشعراني في الطبقات: كان من أكابر المشايخ، ولم يَنقل عنه شيئًا، توفي سنة ٦٦٨. الوافي للصفدي (٣٧/١٨)، طبقات الأولياء لابن الملقن (ص٤٤٢)، الطبقات الكبرى للشعراني (١٧٧/١).

(٦) العارف أبو العباس أحمد بن علي بن يوسف البوني، صاحب المصنفات في علم الحروف، مغربي الأصل، نسبته إلى (بونة) بإفريقية، على الساحل، من مصنفاته: شمس المعارف الكبرى، واللمعة النورانية، والمسك الزاهر وغيرها، توفي بالقاهرة سنة ٦٦٢. طبقات الأولياء للمناوي (٣٥/٢).

لا يتجاوزُ قصدُ هِمَّتِكَ **(إلى غيرِه)** بطلبِ ذلكَ الغيرِ أوِ الطَّلبِ منهُ، اكتفاءً بهِ واقتِصاراً على ما عِندَهُ، واقتداءً بهَدْيِ الأبِّ الرَّحيمِ الخليلِ الجليلِ، لما وُضِعَ في المنجَنيقِ فأتاهُ روحُ القُدُسِ جبريل، فقالَ: "ما حاجتُكَ؟"، قال: "حسبي مِنْ سؤالي عِلمُهُ بحالي"[1]، وعملًا بقولِ الكريمِ ابنِ الكريمِ عِنْدَ خُروجِهِ مِنَ السِّجنِ: "حسبي مِنْ دُنياكُمْ ديني، وحسبي مِنْ ديني ربِّي الكريمُ".

(فالكريمُ) ذاتًا ومعنًى وفِعلًا **(لا تتخطّاهُ الآمالُ)** إلى غيرِهِ في شأنٍ مِنَ الشُّؤونِ؛ لأنَّ جمالَهُ يُغني عنِ اختيارِ غيرِهِ، وإحسانَهُ يصرِفُ الوجْهَ لهُ دون غيرِهِ، سيِّما ولا غيرَ إلّا بِه.

جاءَ في أثرٍ: يقولُ اللهُ: "عبدي اجعَلْني مكانَ همِّكَ، أكْفِكَ كُلَّ همِّكَ، ما كُنْتَ بي فأنْتَ في محلِّ القُربِ، وما كُنْتُ بِكَ فأنْتَ في محلِّ البُعْدِ، فاختَرْ لنَفْسِكَ"[2].

وحينَئذٍ فالهِممُ العليّةُ لا تقصِدُ إلّا ربَّ البريّةِ، وهو المَولى على التَّحقيقِ، والمُولي لكُلِّ خيرٍ وتوفيقٍ، خزائنُ السَّماءِ والأرضِ بيَدِه، فكيفَ يتعَدّاهُ الفقيرُ في كُلِّ نَفَسٍ إلى مدَدِه؟! فالواجِبُ على كُلِّ أحدٍ أن لا يُنزِلَ حوائجَهُ إلّا بالواحِدِ الأحدِ. قالَ العارِفُ علي وفا: "علَى قَدْرِ ارتِقاءِ هِمَّتِكَ في نيَّتِكَ، يكونُ ارتِقاءُ درَجتِكَ عِنْدَ عالمِ سريرتِكَ".

والنّيّةُ أقسامٌ: نيّةٌ باللهِ، ونيّةٌ للهِ، ونيّةٌ لأمرِ اللهِ، ونيّةٌ لرجاءِ وعدِ اللهِ، ونيّةٌ لخوفِ وعيدِهِ، وأعلاها النّيّةُ باللهِ وللهِ؛ لأنَّ الأصْلَ كونُ العبْدِ بيْنَ يدي مولاهُ، وإنَّما العِللُ والأسبابُ لوُجودِ البُعدِ وإرخاءِ الحِجابِ، وبإرخائِهِ على عيْنِ القلْبِ يقصِدُ غيرَ الرَّبِّ، وتتخَطّى الكريمَ الآمالُ؛ وهذا شأنُ مَنِ استَوْلَى عليهِ شُهودُ الفَرقِ، وظنَّ النَّفعَ والضُّرَّ مِنَ الخَلقِ، وأهلُ اللهِ مُنزَّهون عَنْ ذلكَ، وإذا أنِفَتْ هِمَمُ المُترفِّعينَ مِنْ أبناءِ الدُّنيا سُؤالَ كرائمِهِمْ، فأهلُ اللهِ أولَى!

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرِّقَّة والبكاء (١٦٥)، وأبو نعيم في الحلية (١٦٥)، وغيرهما، عن مقاتل وسعيد من قولهما، وروي عن غيرهما، ولا أصل له مرفوعًا. وذكره البغويُّ في التفسير (٣/٢٩٤) بصيغة التمريض عن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذكره ابن عجيبة في البحر المديد (٥/٨٠) عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي. وأخرج الحاكم في المستدرك وصححه (٤/٣٢٨) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: (من جعل الهموم هما واحدا كفاه الله ما همه من أمر الدنيا والآخرة، ومن تشاعبت به الهموم لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك).

قالَ المُتنبّي[1]:

تجَنَّبْ كِرامَ النّاسِ واستَغْنَ عنهُمُ * ولا تطْلُبنَّ الدَّهرَ فضلَ كريمِ

فإنَّ الأيادي للكِرامِ مَذلّةٌ * فكيفَ إذا كانَتْ يدٌ للئيمِ

هذا حالُهمْ وهُمْ في الحضيضِ، فكيفَ بمَنْ تعلَّقتْ هِمَمُهُمْ بمعالي المقاصدِ، ولم يرْكنوا إلّا إلى الكَريمِ على الإطلاقِ؟! والكريمُ مَنْ إذا قدَرَ عفا، وإذا وعدَ وفا، وإذا أعطى زادَ على مُنتَهى الرَّجا، ولم يُبالِ كَمْ أعْطَى ولا لمنْ أعْطَى، وإنْ رُفِعَتْ لغيْرِهِ حاجةٌ لا يرضَى، وإذا جُنِيَ عليهِ عاتَبَ وما استَقْصَى، ولا يُضيِّعُ منْ لاذَ بهِ والتَجا، ويُغنيهِ عَنِ الوَسائلِ والشُّفَعاءِ، وليْسَ ذلكَ إلّا اللهُ، ومَنِ اتَّصَفَ بهذهِ الصِّفاتِ ينْبَغي أنْ لا تتخطّاهُ الآمالُ، وأنْ تُحَطَّ ببابِهِ الرِّحالُ.

اللهُ يغضَبُ إنْ تركْتَ سُؤالَهُ * وبُنَيَّ آدمَ حينَ يُسألُ يغضَبُ

والكريمُ مِنَ الخَلْقِ إنّما تكَرَّمَ ببعْثِ خاطِرِ الكَرمِ مِنْ سرِّهِ، فلولاهُ لما تكرَّمَ، والخلقُ ليْسَتْ إلّا ستائرَ على العُقولِ، ومَنْ سألَ سِوَى الكَريمِ دلَّ على أنَّهُ لئيمٌ دَنيُّ الهِمَّةِ، قليلُ القيمةِ والقِسمةِ، نعوذُ باللهِ مِنَ الحِرمانِ وسوءِ الخِذْلانِ.

***

٣٩. لا ترْفَعنَّ إلى غيرِهِ حاجةً هوَ مُورِدُها عليْكَ، فكيْفَ يرفَعُ غيرُهُ ما كانَ هو لهُ واضِعًا؟! منْ لا يستَطيعُ أنْ يرفعَ حاجةً عنْ نفسِهِ فكيْفَ يستَطيعُ أنْ يكون لها عنْ غيرِهِ رافِعًا؟!

(**لا ترْفَعنَّ إلى غيرِهِ حاجةً هوَ مورِدُها**) مُنزِلُها (**عليْكَ**) مِنْ نحوِ فقرٍ ومرضٍ وظلامةٍ

(١) أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد، أبو الطيب الجعفي الشاعر، المعروف بالمتنبي، ولد سنة ٣٠٣، اتصل بسيف الدولة وانقطع إليه وأكثر القول في مديحه، ثم مضى إلى مصر فمدح بها كافور الخادم، وأقام هناك مدة، ثم خرج من مصر وورد العراق ودخل بغداد وجالس بها أهل الأدب وقرئ عليه ديوانه، توفي سنة ٣٥٤. انظر: تاريخ بغداد (٣٢٤/٤)، تاريخ دمشق (٧٦/٧١)، وفيات الأعيان (١٢٠/١).

وغيرِها؛ فإنَّ الأغيارَ كُلَّها مُفتقِرةٌ إليه، وما أوْرَدَ عليْكَ الاحتياجَ إلّا لتضْرَعَ إليهِ في شأنِه، فإنَّهُ غنيٌّ قويٌّ، وغيرُهُ عاجزٌ فقيرٌ، وما وضَعَهُ لا يُمْكِنُ غيرُهُ دفْعَهُ.

(**فكيْفَ يرفَعُ غيرُهُ ما كانَ هو لهُ واضِعًا**) وهوَ الغالِبُ على أمرِهِ، القَويُّ القادرُ المُطلَقُ، وغيرُهُ العاجزُ المُطلَقُ، قالَ عارفٌ: "قيلَ لي في يقظةٍ كالنَّومِ أو نومٍ كاليَقَظةِ: لا تُبْدِيَنَّ فاقةً لغَيري، فأُضاعِفُها علَيْكَ مُكافأةً لسوءِ أدبِكَ، إنَّما ابتَليْتُكَ بالفاقةِ، وحكَمْتُ لنفسي بالغِنَى، لتَفْزَعَ منْها لديَّ، وتضْرَعَ بها إليَّ، وتتوكَّلَ فيها عليَّ، وسَمْتُكَ بالفاقةِ وحكَمْتُ لنفْسي بالغِنَى؛ فإنْ وصلْتَها بي وصلْتُها بالغِنَى، وإن وصَلْتَها بغيري، قطَعْتُ عنكَ موادَ معونَتي طرْدًا عَنْ بابي".

و(**منْ لا يستَطيعُ أنْ يرفعَ حاجةً عنْ نفسِهِ**) إذا نزلَتْ، ولا يمكِنُهُ جلبَها إنْ تخلَّفتْ (**فكيْفَ يستَطيعُ أنْ يكون لها عنْ غيرِهِ رافِعًا**) أو جالبًا، أي: مَنْ كانَ عاجزًا عَنِ النَّفْعِ والدَّفْعِ عَنْ نفسِهِ، فهوَ عنْ غيرِهِ أعْجَزُ، "ليتَ الفِجْلَ يهضِمُ نفْسَهُ"[1]؛ فاستعانةُ مخلوقٍ بمخلوقٍ كاستعانةِ مسجونٍ بمسجونٍ، فلا تُنزِلْ حاجتَكَ بغيرِ موْلاكَ، فهوَ وليُّها في أُخراكَ وأُولاكَ، كيفَ تُنزِلُ حوائجَكَ بعبدٍ معَ عِلمِكَ بعجزِهِ؟! منْ لا يستَطيعُ رفعَ نازلةٍ عنْ نفسِهِ كيْفَ يرفَعُها عنْ غيرِهِ مِنْ أبناءِ جِنسِهِ؟! فلا تستَنْصِرْ إلّا بهِ فهو الوَليُّ النّاصِر، ولا تعتَصِمْ إلّا بحبلِهِ فإنَّهُ العزيزُ القادِر.

وأصلُ هذا الثِّقةُ باللهِ والتَّوكُّلُ عليه، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقدْ مدحَ اللهُ قومًا تمسَّكوا بحبلِ ثِقتِهِ في الشَّدائِدِ، فكانَ لهمْ نِعْمَ المولَى والكَفيلُ، حيثُ قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، فلمّا بِعُروتِهِ تمسَّكُوا، طابَ ذِكرُهُمْ وتمسَّكوا، ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

---

(١) من الأمثال التي أوردها الميداني في مجمعه، ويضرب لخيبة الأمل فيما يظن به النفع فيتمنى النجاة من ضرره، فالفجل يسبب الجُشَاء لمن أكله، ويزعمون أنه يهضم الطعام! والمعنى: ليت الفجل هضم نفسه ولم يتعبنا، فذلك يكفينا منه ولسنا طامعين في هضمه لغيره من الأطعمة.

فيا أيُّها السّائلُ كُفَّ يدكَ السُّفْلَى، واجعَلْ على باب اليُمْنَى قُفلًا، ولا تسألْ لئيمًا أوتيَ مِنَ العاجلة نقْلَا[1]، ولا ترضَ لنفسكَ رِقًا لتملأَ به زِقًّا، وأجمِلْ في الطَّلب؛ فإنَّكَ لنْ تبيتَ حتَّى تملأَ زِقَّك، ولنْ تموتَ حتَّى تستكمِلَ رزقَك، تطلُبُ الرِّزْقَ وهوَ طالبُك، وتستبْطِئُ نُزولَهُ وهوَ مُصاحِبُك، ويشتاقُهُ جميعُكَ وهوَ ضجيعُك، وتستقبِلُ قادِمَهُ وهوَ في بلدِك، وتنشُدُ ضالَّتَهُ وهوَ في يدِك، فاختَرْ لنفسِكَ دينَ الأدَب، وأدغِمْ في تصريفِ شَكواكَ أنينَ السَّغب[2]، واحذِفْ مِنْ تضاعيفِ كَلامِكَ نحوَ حرفِ الجرِّ وسينِ الطَّلب، ولا تهتمَّ لحلقِك، فإنَّ الرِّزقَ هُيِّئ لكَ قبلَ خلقِك، وارفَعْ خصاصَتكَ بجلبابِ الفُتوّة، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وأصلُ ما تقرَّرَ كُلُّهُ ومِلاكُهُ حُسْنُ الظَّنِّ باللهِ، فلهذا قالَ:

***

٤٠. إنْ لم تُحسِنْ ظنَّكَ به لأجلِ وصْفه، حسِّنْ ظنَّكَ به لأجْلِ مُعامَلتهِ معَكَ، فهلْ عوَّدَكَ إلّا حَسَنًا؟! وهلْ أسْدَى إليكَ إلّا مِننًا؟!

(**إنْ لم تُحسِنْ ظنَّكَ به لأجلِ وصْفه**) بأنْ تنظُرَ لكَمالهِ في جَلالهِ، وجَمالهِ في كَمالهِ، فتعلمَ أنَّهُ جميلٌ، والجميلُ لا يفعلُ إلّا جميلًا، فتقطعَ الآمالَ عنْ سِواهُ؛ لما تحقَّقتَهُ مِنْ كمالِ وصفِهِ بالصِّفاتِ العليّة، ونعتِهِ بالنُّعوتِ السَّنيّة، (**حسِّنْ ظنَّكَ به**) في أمرِ الدُّنيا بأنْ تظُنَّ بهِ أنّه يوصِلُ إليكَ المنافعَ ويدفَعُ عنكَ المضارَّ، والأُخرَى بأنْ تكون قويَّ الرَّجاءِ في قَبولِ العمَلِ وتوفيةِ الأجْرِ عليه، فكيفَما كانَ حَسِّنْ ظنَّكَ به (**لأجْلِ مُعامَلتِهِ معَكَ**) مِنْ شُمولِكَ بفضلهِ وكرَمِهِ، وسُبوغِكَ بجودِهِ ونِعَمِه، بأنْ تنْظُرَ إلى إحسانِهِ السّابقِ وإفضالِهِ اللّاحِقِ، فيحملُكَ ذلكَ على حُسْنِ الظَّنِّ بهِ فيما تؤمِّلُهُ مِنْهُ، وقطعِ النَّظرِ عنْ تأميلِ غيرِهِ، ويُعينُ على ذلكَ مُشاهَدَتُكَ لفعلِهِ الجَميلِ، كما قالَ:

---

(١) النَّقْلُ والنِّقْلُ والنَّقَلُ: النعل الخَلَق. [لسان العرب]

(٢) سَغِبَ يَسْغَبُ سَغَبًا، أي جاع، ويتيمٌ ذو مَسْغَبَةٍ، أي ذو مجاعة. [الصحاح في اللغة]

(فهلْ عوَّدَكَ إلّا حَسَنًا) مِنْ نِعَمِهِ؟! (وهلْ أسْدَى إليكَ إلّا مِنَنًا) مِنْ كرَمِهِ؟! فهوَ المُحسِنُ لكَ في كُلِّ آنٍ، المُتفَضِّلُ عليكَ بالامتنانِ، وأفعالُهُ معكَ لا لعِلّةٍ، فكما كانَ لكَ ولا عِلّةَ، فكُنْ لهُ ولا عِلّةَ، وتأمَّلْ تجِدْ ما مِنْهُ إليْكَ إنَّما هوَ محضُ إحسانٍ، وعطاءٌ بلا امتِنانٍ، أوجَدَكَ مِنَ العدَمِ، وأمَدَّكَ بالنِّعَمِ، وخصَّكَ بالكَرَمِ، وجعلَكَ مؤمِنًا بغيرِ سالِفةٍ ولا قدمٍ.

قالَ الشّاذلي: "إنّا لا نُحبُّ إلّا اللهَ"، فقالَ لهُ رجُلٌ: قدْ أبى ذَلكَ جدُّكَ حيْثُ قالَ: (جُبلَتِ القُلوبُ على حُبِّ منْ أحسَنَ إليها)[1]، قالَ: "إنّا لمْ نرَ مُحسِنًا إلّا اللهَ فلمْ نُحبَّ سِواه".

وحُسْنُ الظَّنِّ باللهِ لأهْلِ اللهِ باعتبارِ ما يتعرَّفُ لهمْ مِنْ تجلّياتِ قُدسِه، ويُتحِفُهُمْ بِهِ في حضَراتِ أُنسِهِ، فمنْ أُقيمَ في مقامِ حُسْنِ الظَّنِّ أُقيمَ في مقامِ الأُنْسِ، ومنْ أُقيمَ في مقامِ ضِدِّهِ، أُقيمَ في مقامِ الوحشةِ؛ فينبَغي إيثارُ مقامِ الأُنْسِ بهِ تعالى على الوَحْشةِ مِنْهُ.

والحاصِلُ: أنَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّهُ بربِّهِ لنُعوتِهِ العليّةِ، واطمأنَّ فؤادُهُ لِصفاتِهِ السَّنيّةِ، فازَ بنورِ اليَقينِ، وتمسَّكَ بالسَّببِ المَتينِ، فهو عِنْدَ النَّوازِلِ مُطمَئِنُّ الفُؤادِ، حتَّى كأنَّه الواصِلُ إلى عينِ المُرادِ، فما أحسَنَ عيشَهُ، وما أذهَبَ همَّهُ وطيشَهُ، تنساقُ إليه المنافِعُ بلا نَكَدٍ، وتنحازُ لهُ المرافِقُ بغيرِ كَبَدٍ، لا يستفِزُّهُ طلبٌ، ولا يُزعِجُهُ سببٌ. ومَنْ حَسُنَ ظَنُّهُ به لإنعامِه، وما يُسديهِ إليهِ مِنْ إكرامِه، فذاكَ بمعزلٍ عَنِ التَّمكينِ، لم يزلْ لتلَوُّنِ الأفعالِ في مقامِ التَّلوينِ، رُبَّما ضعُفَ عنْ حملِ المشاقِّ، فانساقَ وهْمُهُ إلى سوءِ الظَّنِّ وبئسَ ما ساقَ، فعليهِ ردُّ هذا الخاطرِ، بقوْلِ الملِكِ القادرِ: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فرُبَّ مِحنةٍ كانَتْ مِنْحة، ورُبَّ شِدّةٍ كانَتْ فُتْحَة[2].

ومنْ قصُرَ عنْ رُتبةِ الكَمالِ، فلم يصِلْ إلى المقامِ الأوَّلِ، فلا أقلَّ مِنْ أنْ يكون في المقامِ الثّاني، فما فازَ باللّاحِقِ إلّا مَنْ حازَ السّابِقَ، وذلِكَ يكونُ بمُشاهَدةِ كمالِ وصفِ الحقِّ

(١) أخرجه ابن حبّان في روضة العقلاء (ص٢٤٣)، وأبو نعيم (١٢١/٤)، والخطيب في التاريخ (٣٥٨/٧)، والقضاعيُّ في مسند الشهاب (٥٩٩)، وغيرهم. ونصَّ عليٌّ بطلانه مرفوعًا وموقوفًا السخاويُّ في المقاصد الحسنة (ص٢٨٠ رقم ٣٦٥). وانظر بسط الكلام عليه في الأجوبة المرضية للسخاوي أيضًا (٣٧٠/١).

(٢) الفُتْحَة: الفُرْجة في الشيء [لسان العرب]

ومُشاهدةِ إحسانِه بغيرِ عِوَضٍ، فالثّاني: تجلّي الأفعالِ وهو مشهودُ العامّة، والأوَّلُ: تجلّي الأوصافِ وهو مشهودُ الخاصّة، كُلٌّ بحَسَبِ مقامِه ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]. وكيفَما كانَ حُسْنُ الظَّنِّ به [فهو] حَسَنٌ، هَبْهُ في مقامِ الفاضلِ أوِ المفْضولِ، لكنْ في مقامِ شُهودِ الأفعالِ حُسْنُ ظنِّه يقْوَى ويضْعُفُ باعتبارِ كثرةِ النِّعَمِ وقِلَّتِها، فتراهُ لا يزالُ مُتلوِّنًا لتَلوُّنِ وارداتِ النِّعَمِ، ومنْ شهِدَ الأوصافَ ثابتٌ لا يتزلْزَلُ، مُتمكِّنٌ لا يتلوَّنُ؛ لتحقُّقِه بكمالِ تصرُّفِ الحقِّ في القبْضِ والبسْطِ، فلا يزيدُ حُسْنُ ظنِّه بالعَطاءِ، ولا ينقُصُ بالمنْعِ.

وقدْ وردَتْ أخبارٌ كثيرةٌ في الحثِّ على حُسْنِ الظنِّ، منْها الحديثُ القُدُسيُّ: (أنا عِنْدَ ظَنِّ عبدي بي)[1]، وهذا حديثٌ عظيمٌ في مقامِ التَّحقيقِ، وذلكَ أنَّ تجلّي الحقيقةِ الرَّبّانيّةِ إنَّما تُشرِقُ بحسَبِ وُسْعِ مشْهدِ الإنسانيّةِ، فبأيِّ كشفٍ شهِدْتَها وجَدْتَها. قالَ العارفُ مُحمَّدُ وفا[2]: "مِنْ مشْهَدِكَ يأتيكَ روحُ مدَدِك، وعلى قدرِ يقينِكَ تظفَرُ بتمكينِك، وحُسْنُ الظَّنِّ نِعْمَ الرَّفيقُ في سَفرِ هذا الطَّريقِ، وهوَ عِندَ الموْتِ أعظَمُ وأحْسَنُ".

ولمّا فرغَ مِنْ ذِكرِ الطَّلَبِ مِنْهُ، شرَعَ في طلَبِه فقالَ:

٤١. العجبُ كُلُّ العَجبِ مِمَّنْ يهرَبُ ممّا لا انفكاكَ لهُ عنهُ، ويطلبُ ما لا بقاءَ لهُ معَهُ، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

(العجبُ كُلُّ العَجبِ مِمَّنْ يهرَبُ ممّا لا انفكاكَ لهُ عنهُ) وهوَ مالِكُهُ، **(ويطلبُ ما لا بقاءَ لهُ معَهُ)** وهوَ الخلْقُ والدُّنْيا، وما يُلائِمُ شهْوَتَهُ وهواهُ! وحُقَّ لذلكَ أنْ يُتعَجَّبَ مِنهُ؛

(١) أخرجه البخاريُّ (٧٤٠٥)، ومسلمٌ (٢٦٧٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) العارف بالله، المحقّق محمد بن محمد بن محمد المعروف بسيدي محمد وفا، والد بني وفا المشهورين، المالكيّ الشّاذليّ، تخرّج على يد الأستاذ ابن باخل، حصل له قبول من أعيان الدولة وغيرهم، وكان له فضيلة ومشاركة حسنة ونظم ونثر ومعرفة بالأدب، من مصنفاته: العروس، والشعائر، والمشاهد، وغيرها، توفي سنة ٧٦٠. الطبقات الكبرى للشعراني (١٩/٢)، والكواكب الدرية للمناوي (٦٦/٣).

لأنَّهُ استبْدلَ الذي هو أدنَى بالذي هو خيرٌ، وآثرَ الفَاني على البَاقي، وتركَ المُهمَّ معَ اشتغاله بالباطلِ، وأعرَضَ عنْ ربِّهِ بما لا حقيقةَ لهُ، وعدلَ بمَنْ لا يُغنيهِ بدلًا ممَّا لا غِنى لهُ عنهُ، وذلكَ مِنْ عمَى البصيرةِ؛ فإنَّهُ وضعٌ للشَّيءِ في غيرِ محلِّهِ، ﴿**فإنَّها لا تعمَى الأبصارُ، ولكِنْ تعمَى القُلوبُ التي في الصُّدورِ**﴾ عنْ دَرْكِ الحقائقِ، وهذا هو العمى حقيقةً، فيا عجبًا لعاقلٍ هربَ مِنْ مولاهُ، وعاقلٍ أقبلَ على شهوَتِهِ وهواهُ!!

وهذه الحِكمةُ نتيجةُ ما قبلَها؛ لأنَّ منْ لم يُحسِنْ ظنَّهُ بربِّهِ فرَّ مِنْهُ وطلبَ غيرَهُ، وذلكَ لا يُفيدُهُ إذ لا انفكاكَ لهُ عنْ ربِّهِ، ولا بقاءَ لهُ معَ غيرِهِ، وهذا حالُ أكثرِ النَّاسِ، تراهُمْ أبدًا في حيرةٍ مِنْ حالهِمْ، وارتِحالٍ بأفكارِهِمْ وآمالِهِمْ مِنْ مطلَبٍ إلى آخرَ، لاهتِمامٍ بالحُطام.

ولهذا الارتِحالِ المؤثِرِ للضَّلالِ، قالَ:

٤٢. لا ترحَلْ مِنْ كونٍ إلى كونٍ فتكونَ كحمارِ الرَّحَى، يسيرُ والذي ارتَحلَ إليهِ هو الذي ارتَحلَ عنهُ، ولكِنْ ارحلْ مِنَ الأكوانِ إلى المُكوِّنِ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، **انظُرْ إلى قولِه ﷺ: (فمَنْ كانَتْ هجرَتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ، فهجرَتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ، ومَنْ كانَتْ هِجْرتُهُ إلى دُنيا يُصيبُها أو امرأةٍ ينكِحُها، فهجرَتُهُ إلى ما هاجرَ إليهِ)[١]، وتدبَّرْ هذا الأمرَ إنْ كُنْتَ ذا فهمٍ قويمٍ، والسَّلامُ.**

(**لا ترحَلْ**) بهمَّتِكَ (**مِنْ كونٍ إلى كونٍ**) بأنْ تعْمَلَ طالبًا للدَّرجاتِ ونيلِ المعالي مِنَ المقاماتِ، حتَّى عنْ إرادةِ الدُّنيا لإرادةِ الآخرةِ؛ فإنَّ ذلكَ نقصٌ في الحالِ وشَوْبٌ في إخلاصِ الأعمالِ، والأكوانُ مُتساويةٌ في كونِها أغيار، وإنْ وُجدَ في بعضِها أنوار، (**فتكونَ كحمارِ الرَّحَى يسيرُ، والذي ارتَحلَ إليهِ هو الذي ارتَحلَ عنهُ**).

(١) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (١) ومسلمٌ (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

يعني: لا تنتَقِلْ عنْ نفسِكَ لمثلِها، لا في طلبِ ذلكَ المِثْلِ ولا في الطَّلبِ منهُ؛ فإنْ فعلتَ كُنتَ كحمارِ الطَّاحونِ، في سيرٍ دائمٍ وتعبٍ مُتَّصِلٍ مُلازمٍ، مِنْ حيثُ بدأَ عادَ، لا استَراحَ ولا قطعَ مسافةً، وأنْتَ مِنْ فقيرٍ خرجْتَ وبمِثْلِه تعلَّقتَ، ومنْ عمِلَ لطلبِ الدَّرجاتِ العليّةِ والمراتِبِ السَّنيّةِ، دُنيَويّةٍ أو أُخرَويّةٍ فقدِ ارتحَلَ، فلا تجعَلِ الأكوانَ بكَ مراحِلَ، فتكُنْ كحمارِ الرَّحى، المُرتحَلُ منهُ هو الذي إليهِ راحِلٌ، ألقِ الأكوانَ ظِهْرِيًّا، وارحلْ مِنها إلى ربِّكَ نجيًّا، لا يكُنْ حظُّكَ مِنَ السَّيرِ، أنْ تصِلَ بهِ إلى الغيْرِ؛ ومثَّلَهُ بالحِمارِ مُبالغةً في تقبيحِ حالِ العامِلِ لغيرِ اللهِ مِنَ الأغْيارِ، وإنْ كانَ بعضُها أنوارْ.

(ولكِن ارحلْ مِنَ الأكوانِ إلى المُكوِّنِ) بأنْ تقصِدَ بأعمالِكَ الوفاءَ بالعبوديّةِ، والقيامَ بحقِّ الرُّبوبيّةِ، مِنْ غيرِ التِفاتٍ إلى مُطالبةٍ بشيءٍ على أيِّ حالٍ يكونُ، بحيثُ ترْفعُ هِمَّتَكَ إليهِ وتجعَلُ جميعَ مُهِمّاتِكَ وقفًا عليهِ، لا تُريدُ سِواهُ، ولا تعرِفُ في الدّارينِ إلّا إيّاهُ؛ فإنَّهُ ما رحلَتْ هِمَمُ العارِفينَ إلّا إليهِ، ولا عوَّلَ الذّائقونَ إلّا عليهِ، ما مِنْ مطلبٍ إلّا واللهُ أعزُّ منهُ، وكفاكَ حديثُ: (أكثرُ أهلِ الجنّةِ البُلْهُ)[1]، كُنْ للهِ عبدًا وأوفِ بعهدِهِ كما أوفاكَ عهدًا، ولا تعملْ لغرضٍ يعودُ إليكَ.

والرِّحلةُ مِنْ كونٍ إلى كونٍ ثلاثةٌ: رِحلةٌ مِنَ الأخلاقِ المذمومةِ إلى المحمودةِ، ورحلةٌ مِنْ كونِ الأماكِنِ المفضولةِ إلى الفاضلةِ، ورحلةٌ مِنْ كونِ عملِ الحسَناتِ إلى كونِ الثَّوابِ عليها بالدَّرجاتِ، وكُلُّها ناقصةٌ؛ فالأُولى إذا كانَتْ بنيّةِ اكتِسابِ الخُلُقِ الحميدِ حُبًّا لكَمالِهِ وبُغضًا لنقْصِهِ- نقصٌ، ما لم يكُنْ للهِ، والثّانيةُ حميدةٌ في نفسِها، لكن إذا رأى النَّفعَ مِنْها دونَ مُكوِّنِها، فهو محجوبٌ بها؛ فإنَّها أكوانٌ لا تضُرُّ ولا تنفَعُ، لكِنْ عِنْدَها لا بِها، والثّالثةُ محمودةٌ بوجهٍ مذمومةٌ بآخرَ، كخَلاصِهِ مِنْ دارِ الفَناءِ إلى دارِ البَقاءِ سالمًا مِنَ العذابِ؛ فوجهُ الذَّمِّ شُغْلُهُ بحظِّ نفسِهِ عنْ مُشاهدةِ ربِّهِ، وليسَ مِنْ شأنِ العارِفِ، قالَ بعضُهُمْ: "إنَّ للهِ عِبادًا لو أدخلَهُمُ الجنَّةَ، وحجبَهُمْ فيها عنهُ، استَغاثوا كما يستَغيثُ أهلُ النّارِ".

---

(١) أخرجه البزّار (٦٣٣٩)، والبيهقيُّ في "الشعب" (١٣٠٤)، والقضاعيُّ (٩٨٩)، وغيرهم من حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: (أكثر أهل الجنة البُلْه) بإسنادٍ ضعيفٍ.

وشبَّه بحمارِ الرَّحي لأنَّ الأكوانَ وإنْ تفاضلَتْ في المِقْدارِ مُتَساويةٌ في الافتِقارِ للواحِدِ القهّارِ، ولأنَّ حِمارَ الرَّحَى لم يَدْرِها حتَّى يعمى عليهِ سيرُهُ بينَ يديْه، وكذا الدائرُ في الأكوانِ أعمَى عَنِ الشُّهودِ ورؤيةِ المقصودِ، وإنْ شئتَ قُلْتَ: سبَبُ دوَرانِه عليها اشتياقُهُ إليها، فلو اشتاقَ لِمُنشئِها لم يدُرْ عليها، ولذلكَ شُبِّهَ بطويلِ الأُذُنينِ لعدمِ فَهْمِه وبَلَهِه.

والرِّحلةُ إلى اللهِ بالفَناءِ عَنِ الكائناتِ برؤيةِ مُكوِّنِها هي المطلوبةُ، وأوَّلُ طريقٍ يسلُكُهُ السّالِكُ في رحلَتِهِ التَّخلُّقُ بأسماءِ اللهِ، وذلِكَ يكونُ بمثلِ نزاهةِ القُدّوسِ والعليمِ والحليمِ، وبذلِ الكريمِ، وغفرِ الرَّحيمِ، واحتِمالِ الصَّبورِ، وبرِّ الشَّكورِ.. إلى غيرِ ذلكَ مِنَ الأسماءِ التي للتَّخلُّقِ لا للتَّعلُّقِ، وهذا أوَّلُ مقاماتِ الفَناءِ الأوَّلِ؛ ثُمَّ الفناءُ الثّاني، وهو المُعبَّرُ عنهُ بالفَناءِ عَنِ الفَناءِ، المُرقِّي لحضرةِ البقاءِ، بأوصافِ الحقِّ المُمْحِقةِ لأوصافِ الخلْقِ، وهذه الرِّحلةُ غايةُ النُّهى لمن انتَهَى، ﴿**وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى**﴾ أزلًا وأبدًا، بدءًا وعَودًا، فما ترجوهُ مِنَ الخلقِ لا يُمكِنُ إلّا بتمكينِ الحقِّ، فدعِ الكُلَّ جانبًا، واتَّخِذْ مولاكَ صاحِبًا، رُجوعًا لقولِ المُصطَفى ﷺ: (إليْكَ انتَهتِ الأماني يا صاحبَ العافيةِ)(١)، ووُجدانُ ثمرةِ ذلكَ هُنا وُجدانُ الرّاحةِ مِنَ العناءِ، بوُجودِ اجتِماعِ سِرِّ العبدِ على سِرِّ الرَّبِّ.

وتفصيلُ الرِّحلةِ باعتِبارِ حضراتِ التَّجلّياتِ الأسمائيّةِ لا ينبَغي كشفُهُ لعدَمِ إذنِ الشَّرعِ فيه.

فالعامِلُ للهِ بإخلاصٍ يكونُ انتهاءُ سيرِهِ إليه، فعمَلُهُ وفاءٌ بقضيّةِ العُبوديّةِ وقيامٌ بحقِّ الرُّبوبيّةِ، والعامِلُ بقصدِ مقامٍ يرقَى إليه، أو حالٍ يرِدُ عليه، عملُهُ لحظِّ نفسِه، فهو محجوبٌ عن حضرةِ قُدسِه؛ ولهذا قالَ: (**انظُرْ**) نظَرَ تأمُّلٍ واعتبارٍ (**إلى قولِه ﷺ**: (**فَمَنْ كانَتْ هِجرَتُهُ إلى اللهِ ورسولِه، فهِجرَتُهُ إلى اللهِ ورسولِه**) يعني: فاعملْ على ذلكَ بأنْ تُهاجرَ إليهما، ولا تتوجَّهْ للغيْرِ، ومَنْ كانَ في اللهِ تلفُهُ فعليه خلفُهُ، ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

---

(١) أخرجه الطبراني (٦٦٩٤)، والبيهقي في الشعب (٩٦٧٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٤٩٥)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وحسنه الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٨٩).

(ومَنْ كانَتْ هِجْرتُهُ إلى دُنيا يُصيبُها أو امرأةٍ ينكِحُها) خصَّها لأنَّها بينَ مراتِبِ الدُّنيا والدِّينِ، أو لأنَّها أعظمُ فتنِ الدُّنيا، أو لأنَّها المُهِمُّ في الوقتِ، أو ليُنبِّهْ على المُتَّصلاتِ والمُنفَصِلاتِ، **(فهِجرَتُهُ إلى ما هاجرَ إليهِ)** مِنْ حظِّ نفسِهِ الدَّنِيَّةِ في الأمورِ الدُّنيَوِيَّةِ.

وتأمَّلْ كيْفَ جعلَ جزاءَ كُلِّ مُؤمِّلٍ ما أمَّلَهُ، وثوابَ كُلِّ قاصِدٍ ما قصَدَهُ، ولم يُكرِّرِ الدُّنيا إشعارًا بعدَمِ اعتِبارِها؛ لخِسَّتِها ولأنَّ وُجودَها لهوٌ ولعِبٌ، فهو كلا وُجودٍ.

(وانظُرْ قولَهُ: فهِجْرتُهُ إلى ما هاجرَ إليهِ) وما تضمَّنهُ مِنْ إبعادِ ما سِواه، معَ قولِهِ: (فهِجرَتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ)، حيثُ كرَّرَ الأوَّلَ اعتِبارًا بهِ، دون الثّاني احتِقارًا لهُ، أو كرَّرَ الأوَّلَ للاستِطابةِ، وأهمَلَ الأخيرَ للاشتِغالِ، أو كرَّرَهُ تحقيقًا للثُّبوتِ والعملِ والعَظمةِ، وأهملَ الأخيرَ إيماءً للنَّفيِ وعدمِ الجدوَى؛ فإذا فهِمْتَهُ خرجَ لكَ منه: لا عبرةَ بما سِوى اللهِ ورسولِهِ!

فلذلِكَ قالَ: **(وتدبَّرْ هذا الأمرَ)** المُرادَ مِنَ الحديثِ، وهوَ ما يقتَضيهِ الحقُّ والحقيقةُ مِنْ نفيِ السِّوى، **(إنْ كُنْتَ ذا فهمٍ قويمٍ)**.

أي: تأمَّلِ الفَرقَ بينَ مقامِ مَنْ هاجَرَ إلى اللهِ ورسولِهِ، وبينَ مقامِ مَنْ هاجَرَ إلى حظِّ نفسِهِ، حيثُ نبَّهَ صدرَ الحديثِ على الرَّحيلِ الكامِلِ، كما نبَّهَ آخِرُهُ على الرَّحيلِ السّافلِ، وقد أشارَ المُصطَفَى ﷺ إلى ذمِّهِ بألطفِ إشارةٍ، ولوَّحَ إلى النَّهيِ عنهُ بأوجزِ عِبارةٍ، فرِدْ هذا الحوضَ الفائِقَ، واشربْ مِنهُ كأسًا إنْ كُنتَ ذائقًا، فصلَّى اللهُ على المُزَّمِّلِ والكامِلِ مِنْ ربِّهِ المُكمِّلِ، وفيهِ إعلامٌ -يُعلي قدرَهُ ﷺ- بأنَّ مَنْ هاجَرَ إلى اللهِ هاجَرَ إلى رسولِهِ، وعكسُهُ.

(والسَّلامُ) على مَنِ اتَّبعَ الهُدَى، وختمَ بهِ لأنَّ المسألةَ أخذَتْ حقَّها أمرًا ونهيًا، وخبرًا وبُرهانًا، ودليلًا شرعيًّا ومثلًا مضروبًا، وأصلًا وفرعًا، وقرآنًا وسُنَّةً، واعتِبارًا وغيرَ ذلكَ.

ولمّا جَرَتْ عادةُ المُرتَحِلِ أنَّهُ لا بُدَّ في رِحلَتِهِ مِنْ رفيقٍ يصحَبُهُ، عقَّبَهُ بقولِهِ:

***

٤٣. لا تصحَبْ منْ لا يُنهِضُكَ حالُهُ، ولا يدُلُّكَ على اللهِ مقالُهُ.

(**لا تصحَبْ منْ لا يُنْهِضُكَ حالُهُ، ولا يدُلُّكَ على اللهِ مقالُهُ**) وهو مَنْ لم يُنازِلِ الحقائِق، ولا رفعَ هِمَّتَهُ عَنِ الخلائِق، بلْ رضيَ عنْ نفسِه، وتكبَّرَ على أبناءِ جنسِه، لِضَررِ صُحبَتِه، إذ الطَّبعُ لِصٌّ، فلا تصحَبْ إلّا مَنْ هِمَّتُهُ مُعلَّقةٌ باللهِ، مُرتَفِعةٌ عَنِ الخلق، قد امْتَلأَ قلبُهُ بمُشاهدةِ الحقائِق، فإذا نظرتَ إليهِ وجَدْتَهُ مشغولًا باللهِ، وإذا تكلَّمَ فإنَّما يدُلُّكَ على اللهِ، لا يلجأُ إلّا إليهِ، ولا يتَوكَّلُ إلّا عليهِ.

والصُّحْبةُ في اللهِ أصلٌ كبيرٌ، حثَّ عليها مِنْ أهلِ اللهِ جمعٌ كثيرٌ، ورغَّبَ فيها الشّارِع، فبادِرْ إليها وسارِع؛ فبالصُّحبةِ يتَنفَّسُ عَنِ الرُّوحِ الكَرْب، ويُساعِدُ على السَّفرِ إلى اللهِ جُنودُ القَلْب، وأحقُّ النّاسِ بالصُّحبةِ وأولَى، مَنْ لم يُعلِّقْ هِمَّتَهُ إلّا بالمولَى، ذاكَ الذي تنهَضُ بكَ صُحبَتُه، وتنفعُكَ مودَّتُهُ وخِلَّتُه، هو الكِبريتُ الأحمر، والكَنزُ الذي بِهِ قلَّما يُظفَر، ما كيمياءُ السَّعادةِ إلّا صُحبةُ أهلِ السّيادة، ما كيمياءُ المعارِفِ إلّا صُحبةُ الكامِلِ العارِف، قالَ المَرسي: "ما أصنعُ بالكيمياءِ؟ لقدْ صحِبتُ أقوامًا يسيرُ أحدُهُمْ إلى شجَرةٍ يابِسةٍ، فتُثمِرُ حالًا".

وقدَّمَ "مَنْ يُنهِضُ حالُهُ" على ما بعدَهُ -وهو أولَى بالتَّقدمِ- لأنَّ مَنْ لهُ حالٌ صادِقٌ معَ اللهِ لم يحصُلْ لهُ حتَّى عمِلَ بالقالِ النّافِعِ، ولعلَّهُ أرادَ بِهِ المُربّي الكامِلَ الفعّالَ بهِمَّتِهِ في المُريد، المُرقّي لهُ في سُلوكِه؛ لأنَّهُ المُرادُ لأهلِ الإرادة، فعليهِ طلبُهُ في الآفاق، فإنْ فقَدَهُ رجعَ إلى بدَلِه من ذي قالٍ صادِقٍ، فإنَّهُ يكفيهِ معَ صِدقِ النِّيَّة، ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

أوحَى اللهُ إلى موسَى: "إنْ كُنْتَ يقْظانًا، ارتَدِ لنفسِكَ إخوانًا، وكُلُّ خِدْنٍ[1] لا يؤازِرُكَ على مسرَّتي، فهو لكَ عدوٌّ". قالَ الشّاذلي: "مَنْ دلَّكَ على الدُّنيا غشَّكَ، أوِ العملِ أتعبَكَ، أو على اللهِ نصحَكَ وأراحَكَ".

---

(١) الخِدْنُ والخَدِينُ: الصديق، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥].

ودخلَ الشّاذليُّ على أبي النَّجا(١) وهو على المُغْتَسل، فسلَّمَ عليهِ، فردَّ عليهِ السَّلامَ، فقالَ: "يا أخي، لا تنسَ العهدَ الذي بيننا"، ففتحَ عينَيهِ وقالَ: " لم أنْسَهُ".

وقد أجمَعَ أهلُ الشَّرعِ والطَّريقِ، على ذمِّ الرَّفيقِ البَعيدِ عَنِ التَّوفيقِ، ليسَ الأخُ مَنْ يستَمسِكُ بعُروةِ الإخاءِ في أوانِ الرَّخاءِ، ليسْتَغنيَ بدينارِكَ ويصْطَلي بنارِكَ، يتبرَّكُ بعرفانِكَ ليبرُكَ على رُغفانِكَ، يطوفُ حولَكَ ويرومُ طولَكَ، ثُمَّ إنْ زلَّتْ قدَمُكَ أو زالَتْ نعمُكَ، قابَلَ إحسانَكَ بالإساءةِ ونكاحَكَ بالبراءةِ، يطرُقُكَ محشودًا فيزحَمُكَ، ويترُكُكَ وحيدًا ولا يرحمُكَ، يشتُمُكَ إنْ بدرَتْ منكَ ضَرْطةٌ، ويشْمَتُ بكَ إنْ عرضَتْ لكَ ورطةٌ، يهواكَ ما دارَتْ رحاكَ، ويرْضاكَ ما هبَّتْ صَباكَ، حتَّى إذا تغيَّمَ هواكَ ارتَدَّ عنْ دينِهِ، وحنَثَ في يمينِهِ.

إنَّما الصَّديقُ الصَّادقُ مَنْ لا يُصادِقُكَ عبثًا، والطَّهورُ الطَّاهرُ ما لا يحمِلُ خَبَثًا، هو الذي يصحبُكَ فقيرًا وغنيًّا، ويأكُلُكَ نضيجًا ونيًّا، لا يُغادِرُكَ راكِبًا وراجلًا، ولا يودِّعُكَ نازلًا وراحِلًا، يُعاوِنُكَ وإنْ جلسْتَ، ويُعامِلُكَ وإنْ أفلسْتَ، يُرافِقُكَ أسهَلْتَ أو أحزَنْتَ، ويُساوِقُكَ جرِيْتَ أو حرَنْتَ، يُثافِنُكَ(٢) إذا هويتَ، ويُعاوِنُكَ إذا قويتَ، أولئكَ خيارُ الخُلَصاءِ وكِرامُ الجُلَساءِ، ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

تنْبيهٌ: قالَ بعضُهم: "الرَّفيقُ في الطَّريقِ هو الشَّيخُ"، فلا وُصولَ إلّا بأحدِ طريقَينِ: جذبٍ إلهيٍّ، أو سُلوكٍ على يدِ شيخٍ، وبِدون ذلكَ الوُصولُ مُحالٌ، وقدْ طلبَ قومٌ الوُصولَ بغيرِهِما، وغابَ عنهُمْ أنَّ طريقَ التَّصوُّفِ عِلمٌ وعمَلٌ، فكانَ غايتُهُم الحرمانَ.

وقدْ نفى بعضُهُمْ طريقَ التَّصوُّفِ رأسًا وقالَ: "ليسَ ثمَّ طريقٌ إلى اللهِ غيرُ ما نحنُ فيهِ مِنَ الفقهِ ونحوِهِ". وظنَّ بعضُهم أنَّ التَّصوُّفَ حِفظَ نُقولٍ، تُحْفَظُ بغيرِ عملٍ، فأخذَ يدرُسُ نحوَ رسالةِ القُشَيْري والعَوارِفِ، ويقرِّرُهُما بحسَبِ فهْمِهِ المُخالِفِ لما عليهِ هذهِ الطَّوائفُ، وظنَّ أنَّهُ صارَ

(١) هو الشيخ أبو النجا الفوي، كان معاصرا للشاذلي، ومن أخص أصحاب العارف الكبير الشيخ عتيق الدمشقي. ذكره المناوي في "إرغام أولياء الشيطان بذكر مناقب أولياء الرحمن".

(٢) ثافن الرجل: لازمه حتى عرف باطن أمره. [المعجم الوسيط]

صوفيًّا بغيرِ عملٍ، وما درى أنَّ دائرةَ الولايةِ تأخذُ مِنْ نهايةِ دائرةِ غيرِها، كما أنَّ دائرةَ النُّبوّةِ تأخُذُ مِنْ بعدِ نهايةِ الولايةِ؛ فكذا عِلمُ التَّصوُّفِ مبدؤهُ مِنْ بعدِ نهايةِ الفهْمِ والفِكرِ، فلا يُسمَّى صوفيًّا إلّا مَنْ عمِلَ بعِلمِه على وجهِ الإخلاصِ، وعرَفَ إخلاصَ القومِ ورُسومَهُمْ، ومشى على طريقِهِمْ، ومنْ ظنَّ أنَّهُ يصِلُ بغيرِ شيخٍ فقدْ أخطأَ، ومثَلُ منْ حفِظَ نُقولَ أهلِ الطَّريقِ بغيرِ شيخٍ ولا ذوقٍ ولا تخلُّقٍ، كمَنْ حفِظَ كِتابًا في الطِّبِّ مِنْ غيرِ معرفةِ تنزيلِ الكُلّيّاتِ علَى الجُزئيّاتِ، وقعَدَ يُطَبِّبُ النّاسَ.

وكَمْ جرى خِلافٌ بينَ أهلِ المغربِ المُتأخِّرينَ في الاكتِفاءِ بالكُتُبِ، وكتبوا بذلِكَ لِلبلادِ، فأجابَ كُلٌّ على حسبَ فتْحِه، وجُملةُ الأجوبةِ تدورُ على ثلاثٍ:

الأوَّلُ: أنه يُنظَرُ! فشيخُ التَّعليمِ يكفي عنهُ الكُتُبُ لحاذقٍ يعرفُ مواردَ العِلْمِ، وشيخُ التَّربيةِ يكفي عنهُ صُحبةُ ديِّنٍ عاقِلٍ ناصِحٍ، وشيخُ التَّرقيةِ يكفي عنهُ اللِّقاءُ.

الثّاني: النَّظرُ لحالِ الطّالِبِ، فالبليدُ لا بُدَّ مِنْ شيخٍ يُربّيهِ، وغيرُهُ يكفيهِ الكُتُبُ لترقّيهِ؛ لكنَّهُ لا يسْلَمُ مِنْ رُعونةِ نفسٍ وإنْ وصَلَ.

الثّالثُ: النَّظرُ للمُجاهدةِ، فالتَّقوَى لا تحتاجُ إلى شيخٍ لبيانِها وعُمومِها، والاستِقامةُ تحتاجُهُ، ومُجاهدةُ الكشفِ والتَّرقيةُ لا بُدَّ فيها مِنْ شيخٍ يُرجَعُ إليهِ في فُتوحِها، كرُجوعِ المُصطَفَى ﷺ للعرضِ على ورَقَةَ[1] ليُعلِمَهُ بأخبارِ النُّبوّةِ ومبادئِ ظُهورِها، وهذا أقربُ.

تتمّةٌ: قالوا: صُحبةُ المُبتدئِ للمُنتَهي الذي لا يقِفُ معَ مراسِمِ الرُّسومِ الظّاهِرةِ ضررٌ، وصُحبةُ المحجوبِ للمحجوبِ أنفَعُ مِنْ صُحبةِ المُكاشَفِ بالغُيوبِ؛ لأنَّهُ يفعَلُ على شاكِلةِ ما شاهدَ في الملَكوتِ، وقد لا يُطابِقُ ما في المُلكِ، وحُكمُ الغيْبِ غيرُ حُكمِ الشَّهادةِ، تأمَّلْ قِصّةَ الخَضِرِ معَ موسَى! فمنْ تقيَّدَ بالحِسِّ الظّاهِرِ مِنْ أربابِ الأحوالِ والمقاماتِ يُقْتَدى بهِ، ومَنْ لا فَلا.

(١) ورقة بن نوفل بن أسد القرشي، كان ممن رغب عن عبادة الأوثان وطلب الدين الحنيف في الآفاق وفي الكتب، وكانت خديجة تسأله عن أمر النبي ﷺ فيقول لها: ما أراه إلا نبي هذه الأمة الذي بشر به موسى وعيسى، وقيل إنه أسلم وروى حديثا رواه عنه ابن عباس. الإصابة لابن حجر (٦/٤٧٤).

٤٤. رُبَّما كُنتَ مُسيئًا، فأراكَ الإحسانَ منكَ صُحبتُكَ مَنْ هوَ أسوَأُ حالًا منكَ.

(**ربَّما كُنتَ مُسيئًا، فأراكَ الإحسانَ منكَ صُحبتُكَ مَنْ هوَ أسوَأُ حالًا منكَ**) لما جُبلَتْ عليهِ النُّفوسُ مِن استِشْعارِ فضْلِها عِندَ رؤيةِ مَنْ دونَها، فيرى نفسَهُ فيقَعُ في العُجْبِ المُهلِكِ، فإنِ انْصبَغَ بأخلاقِهِ فهي البَليّةُ العُظمَى، فإذا صحِبْتَ أقلَّ منْكَ عملًا وأكثرَ زللًا، فاحذرْ أنْ ترَى نفسَكَ مُحسِنًا؛ فإنَّ الشَّيطانَ يُسفْسِطُ بذلكَ على قُلوبِ العارِفينَ، بلِ انظُرْ إلى أعلى منْكَ عملًا لا عِلمًا، واصْحَبِ الأشرافَ مِنْ أهلِ اللهِ.

أوَما ترى الجِلدَ الحَقيرَ مُقبَّلًا * بالثَّغرِ لمَّا صارَ جِلْدَ المُصحَفِ

***

٤٥. ما قلَّ عملٌ برزَ مِنْ قلبٍ زاهِدٍ، ولا كثُرَ عملٌ برزَ مِنْ قلبٍ راغِبٍ.

(**ما قلَّ عملٌ برزَ مِنْ قلبٍ زاهِدٍ**) في الدُّنيا؛ لأنَّ عملَهُ مقبولٌ لسلامتِهِ مِنَ الآفاتِ المُفسِدةِ، فيتَوفَّرُ قليلُه فيكثُرُ، ومقصودُ الحقِّ مِنْ عِبادِهِ قُلوبُهُمْ كما في حديثِ: (إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلى صُوَرِكُمْ، وإنَّما ينظرُ إلى قُلوبِكُمْ)[1]، وإذا خلا القلْبُ مِنْ حُبِّ الدُّنيا عمِلَ بضِدِّهِ.

وجَنينةُ[2] العملِ الصَّالِحِ بعدَ التَّوحيدِ الزُّهدُ، وبِهِ يعظُمُ عِندَ اللهِ وإنْ قلَّ عمَلُهُ، إذِ الشَّيطانُ لا سُلطانَ لهُ على الخلقِ إلَّا بهذِهِ الجيفةِ الملعونةِ، والزّاهِدُ عزَلَ الشَّيطانَ مِنْ سلطَنتِهِ عليهِ؛

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٥٦٤)، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.
(٢) كلّ خليط من دقيق أو نخالة أو غيرها مُزج بالماء حتّى تلزّج. [المعجم الوسيط]

فتقدَّسَ عمّا يقدحُ في إخلاصِهِ وخدمَتِهِ، والزّاهدُ تركَ حُظوظَ الدُّنيا جاهًا ومالًا، منزلةً وحمدًا، وثناءً وكمالًا، فصارَ قريبًا إلى النَّجاةِ، سليمًا مِنَ الآفاتِ، عمَلُهُ وإنْ قلَّ كثيرٌ، وثوابُهُ عِندَ اللهِ كبيرٌ.

(**ولا كثُرَ عملٌ برزَ مِنْ قلبِ راغِبٍ**) في الدُّنيا لمُزاحَمتِهِ بالأضدادِ، ولتَعاوُرِ الآفاتِ المُبطلةِ للعملِ عليهِ لأجلِ تلكَ الرَّغبةِ، فلا يُقبَلُ منهُ إلّا ما خلَصَ، فيقِلُّ كثيرُهُ. قالَ الشّاذلي: "دخلَ عليَّ بالمغْرِبِ أحدُ الكُبراءِ، فقالَ: ما أرى لكَ كثيرَ عملٍ، فبِمَ فُقْتَ النّاسَ وعظَّموكَ؟ قُلتُ: بحسنةٍ واحدةٍ افترَضَها اللهُ على نبيِّهِ تمسَّكتُ بها، الإعراضُ عنهُمْ وعنْ دُنياهُمْ"، قالَ تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩].

وفي تركِها الراحةُ مِنَ الخَواطِرِ الرَّديّةِ والتَّذلُّلِ لأهلِها. سُئِلَ معروفُ الكرخيُّ[1] عنِ الطّائعينَ: "بمَ قدِروا على الطّاعةِ؟" قالَ: "بإخراجِ الدُّنيا مِنْ قُلوبِهِمْ"، ولم يقُلْ مِنْ أيديهِمْ؛ لأنَّها كانَتْ بيدِ بعضِ الأصفياءِ كداوودَ، وذي القَرنيْنِ، وبعضِ الصَّحبِ والتّابعينَ، ولا اعتراضَ عليهِم، كيْفَ وفي الحديثِ القُدُسيِّ قالَ اللهُ: "يا دُنيا مَنْ خدَمَني اخدِميه"[2]؛ فالذَّمُّ الواردُ في الكُتُبِ السَّماويّةِ والسُّنّةِ المُحمَّديّةِ ليسَ لذاتِها، بلْ لصرفِها في غيرِ وجْهِها، فدُنْيا أهلِ اللهِ التي بأيديهِمْ آخِرةٌ مُعجَّلةٌ يُنفِقونَها للهِ، فهي بأيديهِم لا في قُلوبِهِمْ، فما وردَ مِنْ ذمِّ الدُّنيا ومدحِها أصلُهُ هذا، وعلامتُهُ أنْ لا يُفرَحَ بوُجودِها، ولا يُحزَنَ لفقدِها.

(١) الشيخ الإمام، أحد الأئمة الأعلام، معروف بن فيروز الكرخي، نسبة إلى كرخ بغداد، وهو من موالي علي ابن موسى الرِّضا، وأسلم على يديه، من أجلّة المشايخ وقدمائهم المذكورين بالورع والفتوّة، صحب داود الطائي، وكان أستاذ سري السقطي، وكان مشهوراً بإجابة الدعوة، وأهل بغداد يستسقون بقبره ويقولون: "قبر معروف ترياق مُجرَّب"، وكان أحمد بن حنبل يختلف إليه، وأفرد ابن الجوزي مناقبه في مصنَّف، وأخبار معروف ومحاسنه أكثر من أن تعد. تُوفِّي ببغداد سنة ٢٠٠، وقيل: ٢٠١. انظر: "حلية الأولياء" (٨/٣٦٠)، و"طبقات الصوفية" للسلمي (ص٨١)، و"وفيات الأعيان" (٥/٢٣١).

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٨/٤٤) والحاكم في معرفة علوم الحديث (ص ١٠١)، والقضاعي (١٤٥٤)، وغيرهم عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا. قال الخطيب: تفرد بروايته الحسين عن الفضيل، وهو موضوع. وأخرجه الشجريُّ كما في ترتيب الأمالي (٢/٢٢٩) من حديث أنس مرفوعًا بإسناد ضعيف، وله شاهد بمعناه عند الطبراني في الكبير (١٩/رقم ١١)، والبيهقي في الشعبِ (٩٣٤٣) عنْ قتادة بن النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، وقال البيهقي في إسناده مجاهيل.

ثُمَّ الزُّهدُ أعمُّ مِنَ الورعِ؛ لأنَّهُ إبقاءُ البعضِ، والزُّهدُ قطعُ الكُلِّ، هذا كُلُّهُ في مقامِ شُهودِ الفرقِ، أمّا إذا لاحتْ أنوارُ مشاهدِ الجمْعِ، وكُشِفَ لهُ أسرارُ كُلِّ ذرّةٍ وما انطوتْ عليه مِنَ الحِكَمِ الإلهيّةِ، فيغتبطُ بكُلِّ ما زهِدَ فيه لشُهودِ حِكمةِ الصّانعِ في مصنوعاتِه، وإشراقِ أنوارِ التّجلّي في مرآتِهِ، ويكونُ مقامُ الزُّهدِ حينئذٍ خسيسًا لا يُلتفَتُ إليه؛ لأنَّ الدُّنيا حقيرةٌ فكيفَ يتقرَّبُ إلى اللهِ بجيفةٍ؟! ومَنْ شهدَ عظمةَ المشهودِ فهو ملِكٌ، ولا يُقالُ في حقِّ ملِكٍ أنَّهُ زهِدَ في جيفةٍ! فتركُهُ[1] مقامُ الخواصِّ المُقرَّبينَ عنْ حسناتِ الأبرارِ أصحابِ اليَمينِ.

ولهذا قالَ بعضُهُمْ: "إنْ أردْتَ أنْ تسْعَدْ، ففي زُهدِكَ ازهدْ؛ فالذي تزهدُ فيهِ حقيرٌ، وأمرُهُ عِنْدَ اللهِ يسيرٌ".

ولهذا قالَ الشِّبليُّ[2]: "الزُّهْدُ غفلةٌ؛ لأنَّ الدُّنيا لا شيءَ، والزُّهدُ في لا شيءَ غفلةٌ"، وفي العوارِفِ: "الزّاهِدُ في الزُّهدِ مَنْ كاشَفَهُ اللهُ بأُنْسِهِ، فتركَ الدُّنيا لمُرادِ الحقِّ لا لمُرادِ نفسِهِ".

تنبيهٌ: قالَ ابنُ عربي: "لمّا رأى الأكابرُ أنَّ كُلَّ ما سِوى اللهِ حِجابٌ، أرادوا هتْكَ ذلِكَ الحِجابَ فلم يُمكِنْهُمْ إلّا بالزُّهْدِ فيهِ، لكنْ نقولُ إنَّ اللهَ خلقَ أجناسَ الخلْقِ لتنظُرَ فيه نظرًا يوصِلُنا للعلمِ بخالقِهِ، فما خلقَهُ لنزْهَدَ فيهِ، فلزِمَنا الانكِبابُ عليْهِ ومحبَّتُهُ لكونِهِ طريقًا للنَّظرِ الموصِلِ للحقِّ، فمنْ زهِدَ في الدَّليلِ زهدَ في المدلولِ، وخسِرَ الدّارَيْنِ، وجهِلَ حِكْمةَ اللهِ في العالَمِ.

فالكامِلُ منْ أعطى كُلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ، ويبدأُ بحقِّ نفسِهِ؛ لأنَّها أقربُ إليْهِ مِنْ كُلِّ مَنْ لهُ عليْهِ حقٌّ مِنَ الخلْقِ، وحقُّ اللهِ أحقُّ بالقَضاءِ، وحقُّهُ عليْهِ إيصالُ كُلِّ حقٍ لمُسْتحِقِّهِ، و﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١].

---

(١) أي: فتركُ الزهد.

(٢) أبو بكر الشبلي واسمه دلف، يقال ابن جحدر، ويقال ابن جعفر، ويقال اسمه جعفر بن يونس، خراساني الأصل بغدادي المنشأ والمولد، تاب في مجلس خير النساج، وصحب الجنيد، وصار أوحد وقته حالا وعلما وكان عالما فقيها على مذهب مالك. توفي سنة ٣٣٤. طبقات الصوفية (ص ٢٧٥)، تاريخ بغداد (١٤/٣٩١).

وقدْ خلقَنَا وخلقَ فينا مَنْ يطلُبُ الجزاءَ المُلِذَّ، وينفِرُ طبعًا مِنَ المؤلِمِ، وخلقَ لنا نفسًا ناطقةً مُدبِّرةً مُسْتعِدَّةً لِقَبولِ ما كُلِّفْنا بِهِ، وهي محلُّ خِطابِهِ، فيجِبُ عليها وفاءُ أصحابِ الحُقوقِ حُقوقَهُمْ، نُطقًا وحالًا وكمالًا، فالسَّمْعُ يُطالِبُ بحقِّهِ، وكذا البصرُ والفرجُ والقلْبُ.

وأمرَهُ الحقُّ أنْ لا يغفَلَ عنْ هذهِ الجَوارِحِ ويُصرِّفُها فيما لها، وجعلَ هذهِ القوى تطلُبُ حُقوقَها مِنَ النَّفسِ النَّاطِقةِ؛ فالعارِفُ يعلمُ أنَّ فيهِ مَنْ يطلُبُ مُشاهَدةَ ربِّهِ، ومعرِفتَهُ الفِكريَّةَ والشُّهوديَّةَ، فعليْهِ أنْ يؤدِّيَهُ حقَّهُ مِنْ ذلِكَ، وفيهِ مَنْ يطلُبُ الأكْلَ المُلائِمَ لمزاجِهِ، والشُّرْبَ، والمَنْكحَ، والملْبسَ، والسَّماعَ وغيرَها مِنْ أنواعِ النَّعيمِ المحسوسِ، فعليْهِ أنْ يؤدِّيَ الذي عيَّنَهُ لهُ الحقُّ مِنْ ذلِكَ.

ومَنْ هذا حالُهُ كيْفَ يصِحُّ لهُ الزُّهْدُ في شيءٍ مِنَ الموجوداتِ وما خُلِقَتْ إلّا لهُ؟!، ولكِنَّهُ مُفتَقِرٌ لما لهُ وما لغيْرِهِ، فلا ينظُرُ في الوُجوهِ الحِسانِ إلّا لما لهُ، وأمّا لغيْرِهِ فيكُفُّ عنْهُ بصرُهُ، وهكذا". انتهى.

ثُمَّ استظهرَ على هذه الحِكمةِ بما هوَ كالتَّعليلِ لها بقولِهِ:

***

٤٦. حُسنُ الأعمالِ نتائجُ حُسنِ الأحوالِ، وحُسنُ الأحوالِ مِنَ التَّحقُّقِ في مقاماتِ الإنزالِ.

(**حُسنُ الأعمالِ**) أي: كمالُها وجمالُها (**نتائجُ حُسنِ الأحوالِ**) أي: ناشئٌ عنِ الأحوالِ الحسَنةِ وهي السَّلامةُ مِنَ العِللِ، والدَّعاوي الموسومةِ بالصِّدقِ الموجبةِ للمعرِفةِ والمحبّةِ.

(**وحُسنُ الأحوالِ**) التي هي المعرِفةُ والمحبّةُ واليقينُ، وما ينشأُ عنها مِنْ سلامةِ العمَلِ مِنْ آفاتِ النَّقصِ، ومحاسنُ الأخلاقِ (**مِنَ التَّحقُّقِ في مقاماتِ الإنزالِ**) وهي ارتواءُ القلبِ بما يُنزلُهُ الحقُّ فيهِ مِنْ مقاماتِ العُلومِ والمعارِفِ، بحيثُ ينتَفي عنهُ كُلُّ ريْبٍ.

وقد رتَّبَ المؤلِّفُ بعضَ هذهِ الثَّلاثةِ على بعضٍ أخذًا مِنْ قولِ الغزالي: "لا بُدَّ في كُلِّ مقامٍ مِنْ مقاماتِ اليقينِ مِنْ عِلمٍ وحالٍ وعملٍ؛ فالعِلمُ يُنتِجُ الحالَ، والحالُ يُنتِجُ العملَ".

وقالَ بعضُهم: "هي عِبارةٌ عمّا نزلَ القلْبَ مِنَ المعارِفِ ونحوِها، فمَنْ معرِفَتُهُ أتمُّ فحالُهُ أكمَلُ، ومَنْ حالُهُ أكمَلُ فعِلمُهُ أكمَلُ".

وقيلَ: "مقاماتُ الإنزالِ مُستَفادةٌ مِنَ التَّنزُّلاتِ الواردةِ على القلْبِ مِنْ معاني الأسماءِ والصِّفاتِ، فبِقدْرِ التَّنزُّلاتِ مِنَ الرَّبِّ تكونُ التَّوجُّهاتُ مِنَ العبْدِ".

فإذا أرادَ اللهُ بعبْدٍ خيرًا أفاضَ عليهِ مِنَ المعارِفِ ما أهَّلَهُ للإنزالِ، فينتُجُ لهُ حُسْنُ الأحوالِ التي هي وسيلةُ حُسْنِ الأعمالِ، وحينئذٍ فمنِ ارتَوى قلبُهُ بنوازِلِ العُلومِ والمعارِفِ، خلَصَتْ طاعَتُهُ مِنَ العِلَلِ والزَّخارِفِ، ومتى تخلَّصَتْ مِنَ العِلَلِ حسُنَتْ أعمالُهُ، فلَمْ يُكدِّرْها خللٌ؛ فالعِلْمُ أبدًا يُنتِجُ الحالَ، كما أنَّها تُنتِجُ العمَلَ المصحوبَ بالكَمالِ، فليسَ المُرادُ بالحالِ هُنا وارِدًا لا سببَ فيهِ، وهو الذي يُقابِلُ المقامَ؛ لأنَّ ذاكَ نتيجةُ الأعمالِ كما رسَمَهُ كُمَّلُ الرِّجالِ.

قالَ في التَّنوير: "ولا يدُلُّ على فهمِ العبْدِ كثرةُ عمَلِه ومُداوَمَتُهُ على وِردِهِ، إنَّما يدُلُّ على فهمِهِ ونورِهِ غِناهُ بربِّهِ، وانحياشُهُ إليهِ بقلبِهِ، وتحرُّرِهِ مِنْ رِقِّ الطَّبعِ، وتحلّيهِ بحِليةِ الوَرَعِ".

فائدةٌ: قالَ بعضُ الكامِلينَ: "لا بُدَّ مِنْ عِبادةٍ ومعرِفةٍ وزهادةٍ لِكُلِّ عابِدٍ وعارِفٍ وزاهِدٍ، لكِنَّ منْ غلبَ عليْهِ طلَبُ العِلْمِ كانَ عابِدًا، ومعرِفتُهُ وزُهدُهُ تبَعٌ لِعبادَتِهِ، ومَنْ غلَبَ عليهِ تركُ الفُضولِ، كانَ زاهِدًا، وعِبادَتُهُ ومعرِفَتُهُ تبَعٌ لزُهدِهِ، ومَنْ غلبَ عليهِ النَّظَرُ لإسقاطِ الخَلْقِ، كانَ عارِفًا، وعِبادَتُهُ وزُهدُهُ تبَعٌ لأصلِهِ؛ فالنِّسبُ تابِعةٌ للأُصولِ، وإلّا فالطُّرُقُ مُتداخِلةٌ، ومَنْ فهِمَ غيرَ ذلِكَ فقدْ أخطأَ، نعم تخفَى لأمرٍ وتقوَى لآخرَ بحَسَبِ البِساطِ". انتهى.

ثُمَّ مدارُ الأعمالِ على الذِّكرِ، وكمالُهُ بالحُضورِ فيهِ؛ لكِنَّهُ لا يُترْكُ لفَقْدِهِ، بلِ اذْكُرْ ربَّكَ على كُلِّ حالٍ، كما قالَ:

***

٤٧. لا تترُكِ الذِّكْرَ لعدَمِ حُضورِكَ معَ اللهِ فيهِ، فإنَّ غفْلَتَكَ عنْ وُجودِ ذِكْرِهِ، أشدُّ منْ غفْلتِكَ في وُجودِ ذِكْرِهِ، فعسى أنْ يرْفعَكَ منْ ذِكْرٍ معَ وُجودِ غفْلةٍ إلى ذِكْرٍ معَ حُضورِ يقَظةٍ، ومنْ ذِكْرٍ معَ وُجودِ يقَظةٍ إلى ذِكْرٍ معَ وُجودِ حُضورٍ معَ اللهِ، ومنْ ذِكْرٍ معَ وُجودِ حُضورٍ إلى ذِكْرٍ معَ غَيْبةٍ عمَّنْ سِوَى المذْكورِ، ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠].

(**لا تترُكِ الذِّكْرَ**) فإنَّ قدرَهُ عظيمٌ، وخطرَهُ جسيمٌ، وصاحِبَهُ جليسُ الرَّبِّ الكريمِ، قالوا: "وهو منشورُ الولايةِ"، أي: مرسومٌ مِنَ اللهِ للعبدِ، كمراسيمِ مُلوكِ الدُّنيا بالولايةِ والوظائفِ، وللهِ المثلُ الأعلَى، فمَنْ وُفِّقَ لدَوامِهِ، فقدْ أُعطِيَ مرسومَها. وهو تحقيقُ الإرادةِ، ومنارُ الوصلةِ، وعلامةُ صِدقِ البِدايةِ، ودلالةُ صفاءِ النِّهايةِ، وصاحِبُهُ أبدًا مِنْ أهلِ العنايةِ، الذِّكرُ مطلوبٌ بكُلِّ حالٍ، وصاحِبُهُ أبدًا في النَّعيمِ مُختالٌ، أوحى اللهُ إلى موسى: "تدري لِمَ ألقيْتُ عليكَ محبَّةً منِّي؟ لأنَّكَ اتَّبعْتَ مسرَّتي بأمري، فاجعَلني مِنكَ على بالٍ، ولا تنْسَ ذِكْري بكُلِّ حالٍ".

فعليكَ بصورةِ الذِّكرِ وإنْ كُنتَ غافِلًا، ولا تترُكَهُ (**لعدَمِ حُضورِكَ معَ اللهِ فيهِ**)، فإنَّ فيهِ سُلطانًا عظيمًا، لكنَّهُ معَ عدمِ الحُضورِ لا يظهَرُ عِنْدَ الوُجودِ؛ لقوّةِ حِجابِ الغفلةِ، فاذكُرْهُ بلِسانِكَ ولو معَ غفلةِ جَنانِكَ، عملًا بقولِهِ تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقولِهِ: ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، ولم يُقيِّدْ بالحُضورِ، ولحديثِ: (أحَبُّ الأعْمالِ إلى اللهِ أنْ تموتَ ولِسانُكَ رطبٌ بذِكْرِ اللهِ)[١]، فلمْ يذكُرْ إلّا اللِّسانَ؛ فذلِكَ لأنَّهُ مقدورُ العبدِ ابتداءً ودوامًا، والحُضورُ عَنِ الفِكْرِ، وقد لا يحصُلُ، والميسورُ لا يسقُطُ بالمعثورِ، فيذْكُرُهُ حالَ الغفْلةِ باذِلًا الجُهْدَ في الحُضورِ بقدرِ الاستِطاعةِ.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٨١٨)، والطبراني في الكبير (٢٠/رقم ١٨٠)، والدعاء (١٨٥٢)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص ٤)، وغيرهم من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

قالَ بعضُ أهلِ الكَمالِ: "التزامُ اللّازمِ للملزومِ يوصِلُ إليه، وبهذا فضَلَ الذِّكرُ غيرَهُ؛ فإذا أردْتَ أنْ يلزمَكَ فالزمْ ملزوميَّتَهُ". وقدْ قالَ سُبحانَهُ: ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، ولا أعظَمَ مِنْ هذهِ الكَرامةِ، وجعلَ لِكُلِّ شيءٍ حدًّا ووقتًا إلّا ذِكْرَهُ، حيثُ قالَ: ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾، وفي حديثِ ابنِ حبّانَ: (اذْكُرِ اللهَ حتَّى يقولوا مجنونٌ)[1]، وإيّاكَ أنْ تترُكَهُ تعلُّلًا بقولِ الشَّيطانِ لكَ: "إنَّكَ في ذِكْرٍ بمُجرَّدِ اللِّسانِ، غيرُ حاضِرٍ معَ اللهِ، فعدمُهُ أولَى"، فهذا ظاهِرُهُ نُصْحٌ، وباطِنُهُ خديعةٌ ومكرٌ.

(**فإنَّ غفلَتَكَ عنْ وُجودِ ذِكْرِه، أشدُّ مِنْ غفلتِكَ في وُجودِ ذِكْرِهِ**) لأنَّ الغفلةَ عنهُ طردٌ عنِ اللهِ وإعراضٌ بالكُلِّيَّةِ، والغفلةُ فيهِ حُضورٌ بجُزئيةٍ، ولأنَّ في ذِكرِهِ تزيينُ جارِحةٍ بالعِبادةِ، والغفلةُ تُفوِّتُها، ولأنَّ في ذِكرِهِ تعرُّضٌ لنَفَحاتِ الرَّحمةِ، والغفلةُ إهمالٌ لذلِكَ، والإقبالُ معَ ضَعفٍ، خيرٌ مِنَ الإدبارِ رأسًا.

قَالَ الواسِطِي[2]: "السّاهي في ذِكرِهِ أشدُّ غفلةً [منه][3] النّاسي لذِكرِهِ". وقيلَ لأبي عُثمانَ الحيري[4]: "نذكُرُ اللهَ ولا نجِدُ حلاوةً ولا حُضورًا؟! فقالَ: احمَدوا اللهَ على أنْ زيَّنَ جارِحةً مِنْ جوارِحِكُمْ بطاعَتِهِ". وقالَ بعضُهم: "اشكُرِ اللهَ على ما وفَّقَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ وحدَه، ولو أجرَى

---

(١) أخرجه أحمد (١١٦٥٣)، وعبد بن حميد (٩٢٥)، وأبو يعلى (١٣٧٦)، وابن حبان (٨١٧)، والحاكم (٤٩٩/١)، وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وقال السيد أحمد بن الصديق في المداوي (١٦٤/٢): "وهذا الحديث عظيم الشأن جليل المقدار، يشتمل على فوائد كثيرة أوصلها العارف أبو عبد الله محمد بن علي الزواوي الباجي إلى مائة وستة وستين فائدة في مجلد لطيف سمّاه: عنوان أهل السر المصون وكشف عورات أهل المجون بما فتح الله به من فوائد حديث: (اذكروا الله حتى يقولوا مجنون)".

(٢) الإمام العارف أبو الفتح الواسطي، أذن له سيدي أحمد الرفاعي بالتوجُّه إلى ديار مصر فامتثل واستقرَّ بالإسكندرية، فظهر حاله وكثرت أتباعه، توفي بالإسكندرية ودفن بها سنة ٥٨٠. طبقات الأولياء لابن الملقن (ص٤٨٩)، والطبقات الكبرى للشعراني (١٧٦/١).

(٣) جاء في الأصل المخطوط "مِن"، وبها يكون معنى العبارة مخالفا للسياق.

(٤) أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور، الواعظ الحيري، ولد بالري ونشأ بها، ثم انتقل إلى نيسابور، وهو في وقته من أوحد المشايخ في سيرته، ومنه انتشر طريق التصوف بنيسابور، توفي سنة ٢٩٨. طبقات الصوفية (ص ١٤٠)، وتاريخ بغداد (١٠١/٩).

بدلَهُ الغَيْبَةَ ما كُنْتَ تصنعُ؟! واللهُ أكرمُ مِنْ أنْ يحضُرَ العبدُ بلسانِهِ ثُمَّ لا يمُنُّ عليهِ بحُضورِ قلبِهِ"، فتعرَّضْ لنفَحاتِ الرَّحمةِ بما في إمكانِكَ، واذكُرْ بلسانِكَ، وجاهِدِ النَّفسَ في حُضورِ حياتِكَ، فلا بُدَّ وأنْ تكونَ، ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

(فعسى) ببركةِ ذِكْرِ اللِّسانِ **(أنْ يرْفعَكَ مِنْ ذِكْرٍ معَ وُجودِ غفْلةٍ إلى ذِكرٍ معَ حُضورِ يقَظةٍ)** أي: انتباهٍ لمدلولِ الذِّكرِ، بالتفاتِ القلْبِ لذلكَ وشُعورِهِ بمُقتَضاه، وقد جعلَ اللهُ سُبحانَهُ جزاءَ ذِكْرِكَ إيّاهُ ذِكرَهُ لكَ، ومَنْ ذكَرَهُ ربُّهُ وفَّقَهُ وهداهُ، وجادَ لهُ وأعطاهُ، ومنَحهُ وأولاهُ. قالَ ابنُ البنّا(١): "ومِنْ أحسَنِ الذِّكرَ ما هاجَ عنْ خاطِرٍ وارِدٍ مِنَ المذكورِ جلَّ ذِكرُهُ".

قالَ بعضُ أهلِ الكمالِ: "ونورانيّةُ الأذْكارِ مُحرِقةٌ لأوْصافِ الذّاكِرِ، ومُشيرةٌ لحرارةِ طبعِهِ بانحِرافِ النَّفسِ عنْ طبعِها، فلذَلِكَ أُمِرَ بالصَّلاةِ على المُصطَفَى ﷺ معَها؛ لأنَّها كالماءِ تُقَوّي النَّفسَ، وتُذهِبُ وَهَجَ الطِّباعِ"، قالَ في "مُفتاحِ الفَلاحِ"(٢): "وعلامةُ الفتحِ ثَورانُ الحرارةِ في الباطِنِ".

(ومِنْ ذِكرٍ معَ وُجودِ يقَظةٍ إلى ذِكرٍ معَ وُجودِ حُضورٍ معَ اللهِ) وهو أنْ يرتَسِمَ معنَى الذِّكرِ في القلْبِ ارتِسامًا لا ينفَكُّ، فمَنْ غفَلَ عنهُ ذِكَرَ غيرَهُ، ومَنْ تنبَّهَ لهُ أنِسَ بهِ المرّةَ بعدَ المرّةِ، ومنْ حضَرَ معهُ خضعَ لهُ، ومنْ نسَى ما سِواهُ فنيَ بهِ، ومَنْ فنيَ بهِ غابَ عَنْ كُلِّ ما سِواهُ، وإلى هذهِ المرتَبةِ أشارَ بقولِهِ:

(ومِنْ ذِكرٍ معَ وُجودِ حُضورٍ إلى ذِكرٍ معَ غيْبةٍ عمَّنْ سِوَى المذْكورِ) حتَّى ينْدَرِجَ الذِّكرُ في مذكورِهِ، ويغيبَ السِّرُّ عِنْدَ ظُهورِهِ، فيكونَ غائبًا في ذِكرِهِ بذِكْرِهِ، وحينئذٍ فمقامُ ذِكْرِ اللِّسانِ فقطْ مقامُ أهلِ الغفلةِ مِنَ العَوامِّ، ومقامُ ذِكرِ اللِّسانِ بيقَظةِ القلْبِ مقامُ أهلِ السُّلوكِ،

---

(١) أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي، أبو العباس، المعروف بابن البناء (٦٥٤-٧٢١هـ) رياضي باحث من أهل مراكش، كان أبوه بناءًا ونشأ هو منصرفًا إلى العلم فنبغ في علوم شتى. له حاشية على الكشاف، ومنتهى السول في علم الأصول، وكليات في المنطق وشرحها، وكليات في العربية، واللوازم العقلية في مدارك العلوم، وتلخيص أعمال الحساب، وهو من أهم مؤلفاته، وغير ذلك. الأعلام للزركلي (ج١/٢٢٢)

(٢) كتاب "مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح" المنسوب لمؤلف الحكم ابن عطاء الله السكندري.

ومقامُ ذِكرِ الحُضورِ في حضرةِ المذكورِ مقامُ الخَواصِّ، ومقامُ الغَيْبةِ بالمذكورِ عَنِ الذِّكرِ مقامُ خواصِّ الخَواصِّ، أهلِ الفَناءِ عنِ الفناءِ، وفي هذا المقامِ ينقَطِعُ ذِكرُ اللِّسانِ ويكونُ العبدُ محوًا في وُجودِ العَيانِ، وهوَ موقِفُ الفَناءِ، وهذا أعزُّ مِنَ الكِبريتِ الأحْمرِ؛ لأنَّهُ مقامُ العارِفينَ.

(و) لكِنْ ﴿ما ذلِكَ علَى اللهِ بعَزيزٍ﴾ لأنَّهُ الغنيُّ الكريمُ، يُعطي مَنْ شاءَ ما شاءَ، وليسَ بمُمتَنِعٍ في قُدرتِهِ ولا بعيدٍ عَنْ كرَمِهِ، وإنَّما على العبْدِ الأسبابُ، وعلى اللهِ فتحُ البابِ، وإنَّما ذلكَ لإثْباتِ الحِكمةِ وظُهورِ العُبوديّةِ، فالعبدُ ما عبدَ إلّا بفضْلِه، ولا ذكرَ إلّا برحمَتِهِ، ولا توجَّهَ إليهِ إلّا بمِنَّتِهِ، فهوَ الذي أمدَّ الذّاكرَ بتوفيقِهِ، ثُمَّ هداهُ لطَريقِهِ، ثُمَّ فتحَ لهُ بمِنَّتِهِ.

تنْبيهٌ: قالَ ابنُ البنّا: "قولُهُمْ: حتَّى يتمكَّنَ إلى حالةٍ يستَغْرِقُ فيها الذّاكِرُ في المذكورِ، ليسَ ذلكَ تمكُّنَ حُلولٍ ولا اتِّحادٍ، بلْ يكونُ القلْبُ عِنْدَ الذِّكرِ في الذِّكرِ فارِغًا مِنَ الكُلِّ، فلا يبقَى فيهِ غيرُ اللهِ، فيصيرُ القلبُ بيتَ الحقِّ، ويمتَلِئُ مِنهُ، فيخرُجُ الذِّكرُ بعدَ قصْدٍ، ويكونُ الحقُّ لِسانَهُ الذي ينطِقُ بهِ، وبذلكَ يندَفِعُ زعْمُ أنَّ في ذلكَ اجتماعَ الضِّدَّيْنِ، وهما الذِّكرُ والغفْلةُ عنِ الذِّكرِ، وهذا لا يعرِفُهُ إلّا السّالِكون وُجدانًا، والعُلماءُ إيمانًا، فإيّاكَ والتَّكذيبَ".

تتِمّةٌ: قَسَّمَ في "العوارِفِ"(١) الذِّكرَ أقسامًا:

الأوَّلُ: ذِكرُ اللِّسانِ دون القلْبِ. الثّاني: ذِكرُ القلْبِ دون اللِّسانِ؛ لاستيلاءِ الذِّكرِ، حتَّى لو سَكَتَ اللِّسانُ ذكَرَ الجنانُ. الثّالثُ: ذِكرُ الذّاتِ وهو تمكُّنُ النّورِ، حتَّى لو ذهبَ الذِّكرُ أصلًا بقيَ النّورُ ببقاءِ الحُضورِ، وحينئذٍ يغيبُ الذّاكِرُ عنْ حِسِّهِ لحلاوةِ ذِكْرِهِ وكمالِ أنسِهِ، حتَّى يُلحَقَ في غيبَتِهِ بالنّائِمِ، وربَّما تجلَّتْ لهُ الحَقائِقُ في معنَى المُلائِمِ، وذلكَ المُسمَّى بالواقعةِ عِندَ القومِ، وهو أشبهُ شيءٍ بما يُرى في النَّومِ، وأعلى مِنهُ أنْ تتجرَّدَ الحقائقُ بغيرِ مِثالٍ، وذلكَ هو الكَشْفُ عِندَ أهلِ الكَمالِ.

ثُمَّ أفضَلُ الذِّكرِ لفظُ "اللهِ" أو "هُو" لأنَّهُ يُنتِجُ نتيجةً تامّةً، ويُثمِرُ ثمرةً عامّةً، بخِلافِ سائرِ الأذكارِ، فلتقيُّدِها لا تُفيدُ إلا مُقيَّدًا.

---

(١) كتاب "عوارف المعارف" للسهروردي، شهاب الدين أبي حفص عمر، المتوفى ٦٣٢هـ.

قالَ ابنُ عربي: "إنْ قُلتُ رجَّحَ أهلُ اللهِ ذِكرَ لفظِ "الله" ولفظِ "هو" على الأذكارِ التي تعطي النَّعتَ، ووجدوا لها فوائدَ، قُلتُ: صدقُوا، وبِهِ أقولُ، لكِنْ ما قصَدوا بذِكرِهِمْ "الله" نفسَ دلالتِهِ على المُعيَّنِ، إنَّما قصَدوا هذا الاسمَ أو الهُوَ مِنْ حيثُ علِموا أنَّ المُسمَّى بهذا الاسم أوِ الضَّميرِ هو مِنْ حيثُ لا تُقيِّدُهُ الأكوانُ، ومَنْ لهُ الوُجودُ التّامُّ، فإحضارُ هذا في نفْسِ الذّاكِرِ عِنْدَ ذِكْرِ الاسمِ، بذلِكَ تقعُ الفائدةُ؛ فإنَّهُ ذِكرٌ غيرُ مُقيَّدٍ.

فإذا قيَّدَهُ بـ "لا إلهَ إلّا الله" لم ينتُجْ لهُ إلّا ما تُعطيهِ هذهِ الدَّلالةُ، وإذا قيَّدَهُ بـ "سُبحانَ اللهِ" لم يُمكِنْهُ أنْ يحضُرَ إلّا معَ حقيقةِ ما يُعطيهِ التَّسبيحُ، وكذا "اللهُ أكبرُ"، و"الحمدُ لله"، كُلُّ ذلِكَ مُقيَّدٌ لا يُنتِجُ إلّا ما تقيَّدَ بهِ، فلا يُمكِنُ أنْ يجنِيَ مِنهُ ثمرةً عامَّةً، فإنَّ حالةَ الذِّكرِ مُقيَّدةٌ.

وقد عرَّفَنا اللهُ أنَّهُ ما يُعطيهِ إلّا بحسَبِ حالِهِ في قولِهِ: (إنْ ذكَرَني في نفسِهِ ذكَرْتُهُ في نفسي ...) الحديثُ[1]، فلهذا رجَّحَتِ الطّائفةُ ذِكرَ لفظةِ "الله" وحدَها، أو ضميرِها مِنْ غيرِ تقييدٍ، فما قصدوا لفظَهُ دون ما يستَحِقُّهُ المُسمَّى، ولهذا المعنى يكونُ ذِكرُ الحقِّ لعبدِهِ باسمٍ عامٍّ يجمَعُ الفَضائلَ اللّاحِقةَ بهِ، حتَّى يكون في مُقابلةِ ذِكرِ العبْدِ ربَّهُ باسمِ اللهِ.

فالذِّكرُ مِنَ العبْدِ باستِحضارٍ، والذِّكرُ مِنَ الحقِّ بحُضورٍ، لأنّا مشْهودون لهُ، وهو معلومٌ لنا لا مشهودٌ؛ فلهذا كانَ لنا الاستِحْضارُ ولهُ الحُضورُ، فالعُلماءُ يستَحْضِرونَهُ في القوّةِ الذّاكِرةِ، والعامّةُ في القوّةِ المُتخيَّلةِ، ومِنْ عِبادِ اللهِ مَنْ يستحْضِرُهُ في القوَّتيْنِ، وهوَ أتمُّ الذِّكرِ؛ لأنَّهُ ذكَرَهُ بكُلِّهِ، ومِنْ هذا البابِ يكونُ ذِكرُ اللهِ لهُ. انتهى.

وقالَ في موضعٍ آخرَ: "الخِطابُ بالغَيْبةِ أنزهُ للهِ مِنَ الخِطابِ بالمواجهةِ والحُضورِ، وأكثرُ أدبًا؛ لأنَّكَ حقيقةً ما حضرْتَ إلّا معكَ، ولا يُمكِنُ أنْ تحضُرَ معَ الحقِّ إلّا على حدِّ ما تُعطيهِ ذاتُكَ، فمعكَ حضرْتَ لا معَهُ، وهوَ معَكَ لا أنتَ معَهُ، فلا يطيقُ تجلِّيَهِ الذّاتيِّ مخلوقٌ أبدًا، تعالَى اللهُ".

---

(١) متفقٌ عليه، أخرجه البخاريُّ (٧٤٠٥) ومسلمٌ (٢٦٧٥) وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا.

فائدةٌ: قالَ بعضُ الأكابرِ: لا يحصُلُ لأحدٍ القُدرةُ في الذِّكرِ وغيرِه على دوامِ شُهودِه أنَّه في الحضرةِ إلّا بعدَ إدمانٍ، لتقلُّبِ النَّفسِ مِنْ صاحِبِها في تِلكَ الحضرةِ، وسرعةِ خُروجِها بإسدالِ الحِجابِ، سيَّما المُلطَّخةَ بالأقذارِ، فهو وإنْ أكرَهَ نفسَهُ على المكثِ في الحضْرةِ ينْقَلِبُ في أسرعِ مِنْ لمحِ البَصرِ، فطريقُهُ أنْ يُكرِهَ نفْسَهُ على المكْثِ فيها شيئًا فشيئًا، مِنْ ثانيةٍ إلى دقيقةٍ، إلى عُشْرِ درجةٍ إلى خُمْسِها إلى رُبْعِها إلى نِصْفِها، وهكذا بالتَّدريجِ إلى ساعةٍ فساعَتيْنِ، إلى يومٍ كاملٍ، أو ليلةٍ كاملةٍ، ثُمَّ جُمعةٍ ثُمَّ شهرٍ ثُمَّ سنةٍ، وهكذا حتَّى لا يَخرُجَ مِنَ الحضْرةِ؛ لأنَّهُ لا يجِدُ مكانًا في الوُجودِ إلّا وهوَ فيها، وقد قالَ سهلُ التَّستَري: "لِي مُنذُ ثلاثينَ سنةٍ أُكلِّمُ اللهَ، والنّاسُ يظنّون إنّي أُكلِّمُهُمْ".

***

٤٨. مِنْ علامةِ مَوْتِ القلْبِ عدمُ الحُزنِ على ما فاتَكَ مِنَ الموافَقاتِ، وتركُ النَّدمِ على ما فعلتَهُ مِنْ وُجودِ الزَّلّاتِ.

(**مِنْ علامةِ مَوْتِ القلْبِ عدمُ الحُزنِ على ما فاتَكَ مِنَ**) وُجودُ مِنَنِ (**الموافَقاتِ**) للمأموراتِ مِنَ الطّاعاتِ، (**وتركُ النَّدمِ على ما فعلتَهُ مِنْ وُجودِ الزَّلّاتِ**) لأنَّ عدمَ الإحساسِ صِفةُ الموتَى، فمَنْ أحيا اللهُ قلْبَه، أحسَّ بما يردُ عليهِ من مؤلمٍ ومُلائمٍ، حِسّيًّا أو معنويًّا؛ فيتألَّمُ بالمعْصيةِ ويفرَحُ بالطّاعةِ، فيطلُبُ المُلائمَ ويفِرُّ مِنَ المؤلمِ، والميِّتُ لا يُحِسُّ بذلكَ فلا يحزَنُ ولا يندَمُ، قالَ ﷺ: (مَنْ سرَّتْهُ حسَنتُهُ، وساءتْهُ سيِّئتُهُ فهو مؤمنٌ)[1] أي: مُصدِّقٌ تصديقَ عيْنِ اليَقينِ، لا عِلمُهُ بأنَّهُ مُؤاخَذٌ على فِعلِ المَنْهيّاتِ مُثابًا على الحسَناتِ، فمنْ هذا نعتُهُ فهوَ حيُّ القلبِ، ومَنْ عداهُ فميِّتُهُ.

والتَّوفيقُ دليلُ محبّةِ اللهِ لعبْدِهِ، كما أنَّ الخِذْلانَ علامةُ بُغضِهِ، فمتى كانَ المؤمنُ حيَّ

---

(١) أخرجه أحمد (١١٤)، والترمذي (٢١٦٥)، والنسائي في " الكبرى " (٩٢٢٥) وابن حبان (٧٢٥٤)، والحاكم (١ /١١٣)، وغيرهم من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، وصححه الترمذي والحاكم.

الفُؤادِ، تلهَّفَ على ما وقعَ مِنْ غيرِ المُرادِ، ومَنْ عَميَ قلبُهُ فهو بنيْلِ حظِّهِ مسرور، وبتلبيس إبليسَ مغرور، ذاكَ الذي تكاملَ غيُّهُ وتواترَ بغيُهُ، فأدرِكْ عُمرَكَ قبلَ الفوْت، وهيِّئ أمرَكَ قبلَ الموت، واغتَنِمْ بياضَ اليوم قبلَ العشيّة؛ فاللَّيلةُ حُبلَى جنينُها في مشيمةِ المشيَّةِ[1]، ولا تغترَّ بكثرةِ موافَقاتِكَ فلعلَّ هذا السِّمَنَ ورم، ولا تغتَرَّ بنَضْرةِ شَبابِكَ فبعدَهُ شيبٌ وهرم، وشمِّرْ قبلَ أنْ يُنسخَ نسرُكَ عُصفورا، وتنبَّهْ قبلَ أنْ يعودَ مِسكُكَ كافورا.

قالَ بعضُهم: "والحزنُ على ما فاتَ إنَّما يُحمَدُ للعبدِ ما دامَ محجوبًا، يختارُ خلافَ ما يختارُهُ لهُ ربُّهُ؛ فإذا رُفِعَ عنهُ الحجابُ، لم يجدْ شيئًا قُسِمَ لهُ ثُمَّ فاتَهُ أبدًا، لأنَّ ذلكَ لا يصحُّ عقلًا ولا شرعًا". ولذلكَ سُئِلَ بعضُ الصّوفيّةِ: "لمَ لمْ يحزَنِ الأكابرُ على ما فاتَهُمْ مِنْ أمرِ الدّارَيْنِ معَ أنَّ الحُزْنَ على فوْتِ الطّاعةِ محمودٌ؟ فقالَ: الحُزْنُ على فوْتِ الطّاعةِ لا يُحمَدُ إلّا في مقامِ الإيمانِ والحِجابِ واعتِمادِ صاحِبِها عليها، أمّا العارفُ فلا يعتَمِدُ على عملٍ قطْ؛ لأنَّهُ مخلوقٌ، وإنْ خطرَ لهُ فوتُ تبجيلِه الحقِّ، قامَ في قلبِهِ أنَّ الحقَّ غنيٌّ عنْ تبجيلِهِ، وهو كامِلٌ دائمًا لا يزيدُ بتبْجيلِهِ ولا ينقُصُ بعدَمِهِ"، وأنشَدوا في ذمِّ الحُزْنِ على الطّاعةِ:

اللهُ أعطَى كُلَّ شَيْءٍ خلقَهُ ثُمَّ هدَى * فما ترَى في فائتٍ قدْ فاتَ فالحُزنُ سُدَى

فلمّا لم يُعوِّلْ أهلُ اللهِ إلّا عليهِ، وهو لا يصِحُّ فوتُهُ، لم يكترِثوا بزيادةِ عمل، بل بعضُهم يشكرِ اللهَ على أنَّهُ لم يقسِمْ لهُ الزّيادةَ، فيقولُ: الحمدُ للهِ الذي أنامَني اللَّيلةَ، ثُمَّ يستَغْفِرُ مِنْ جهةِ تركِ الخدمةِ، ولا يُعارِضُهُ خبرُ: (ما مِنْ أحدٍ يموتُ إلّا نَدِمَ ...) الحديثُ[2]؛ لأنَّ الحُزنَ غيرُ النَّدمِ؛ إذِ الحُزنُ انكسارُ القلبِ، والنَّدمُ التَّلهُّفُ على فوتِ تدارُكِ المقصودِ، وذلكَ مِنْ عُلوِّ الهِمّةِ، ومنْ فهِمَ قولَهُ: (ما مِنْ أحدٍ يموتُ)، وعرفَ الفرقَ بينَ الموتِ والحياةِ أدرَكَ حقيقةَ ما هُناكَ، وإنْ كانَ ما حصَّلَهُ قبلَ الموتِ درجةَ الإحسانِ؛ لأنَّ السَّعادةَ على موتِهِ على مرتَبةِ إحسانِهِ، وهُنا فوائدُ جمَّةٌ لا يحتَمِلُها هذا الموجَزُ.

---

(١) أي المشيئة، بتخفيف الهمزة.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٣)، ومن طريقه الترمذي (٢٤٠٣)، وأبو نعيم في الحلية (١٧٨/٨)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

وعِلاجُ موتِ القلْبِ بالمواظَبةِ على الذِّكرِ بقوّةٍ، وباستِحْضارِ ما توُعِّد بهِ أهلُ الغفْلةِ والمعْصيةِ، وذلِكَ بكثرةِ سماعِ المَواعِظِ المُرقِّقة للقلبِ، لكِنْ لا يُفرطُ في التَّخويفِ؛ لئلّا يقعَ في يأسِ الرَّحمةِ كما بيَّنهُ بقولِهِ:

***

٤٩. لا يعظُمُ الذَّنْبُ عِنْدَكَ عظمةً تصدُّكَ عنْ حُسْنِ الظَّنِّ باللهِ، فإنَّ منْ عرَفَ ربَّهُ استَصْغرَ في جنْبِ كرَمِهِ ذنبَهُ.

(**لا يعظُمُ الذَّنْبُ عِنْدَكَ عظمةً تصدُّكَ عنْ حُسْنِ الظَّنِّ باللهِ**) بأنْ يوقِعَكَ في اليأسِ مِنْ روحِهِ، والقُنوطِ مِنْ رحمتِهِ؛ فكنْ خائفًا راجيًا، ويُقالُ: خمسةٌ في الذَّنبِ أعظَمُ مِنْهُ: تعظِيمُهُ، واحتِقارُهُ، والإصرارُ عليهِ، والمُجاهَرةُ بهِ، والجَراءةُ عليهِ.

ونبَّهَ بقولِهِ "تصُدُّ" على أنَّ الذي لا ينتَهي للصدِّ غيرُ مَنهيٍّ، بلْ مطلوبٌ؛ إذ بهِ يحصُلُ الحُزْنُ والنَّدمُ المأمورُ بهما، فاخرجْ عَنْ سوءِ ظنِّكَ باللهِ يا عبدَ اللهِ، فإنَّهُ عِنْدَ حُسنِ ظنِّ عبدِهِ بهِ بشهادةِ المُصطَفى ﷺ، فظُنَّ بهِ ما هو أهْلُهُ لا ما أنتَ أهلُهُ، وكيفَ يعظُمُ الذَّنْبُ عِندَكَ والصّادِقُ المصدوقُ ﷺ يُبشِّرُنا ويُقسِمُ بالذي نفسُهُ بيدِهِ: (لو لم تُذنِبوا لذهَبَ اللهُ بِكُمْ ولجاءَ بقومٍ يُذنِبون فيسْتَغفِرون اللهَ فيَغفِرَ لهُمْ)[١]؛ فإذا فرطَ مِنْكَ كبائِرُ فلا ترى أنَّكَ طُرِدْتَ لقُبحِها، بلْ تيقَّنْ أنَّهُ يغفِرُها ولا يُبالي؛ لأنَّهُ إذا كانَ عِنْدَ حُسنِ ظنِّكَ بهِ، فكيْفَ باليَقينِ؟!

وأرجى الأعمالِ وأسلَمُها مِنَ الاعتِلالِ عملُ القلبِ، كالتَّوحيدِ وحُسْنِ الظَّنِّ، وأمّا العملُ الظّاهِرُ فقلَّما يسلَمُ مِنَ الآفاتِ، والعملُ لا يُسعِدُ ولا يُشقي، ولا يُدخِلُ الجنّةَ ولا يُنجي مِنَ النّارِ، لخبرِ: (السَّعيدُ مَنْ سعِدَ في بطنِ أُمِّهِ)[٢].

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٧٤٩)، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) أخرجه الآجري في الشريعة (٣٦٦)، والطبراني في الأوسط (٨٤٦٥)، والصغير (٧٧٣)، والبيهقي في القضاء والقدر (١٠٧)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. ورجاله رجال الصحيح كما قال=

ثُمَّ علَّلَ النَّهيَ بقولِهِ: **(فإنَّ منْ عرَفَ ربَّهُ استَصْغرَ في جنْبِ كرَمِهِ ذنبَهُ)** اعتباراً بأنَّهُ الجَوَادُ الغفّارُ، ومَنْ عرفَ ربَّهُ عظَّمَ لأجلِ حقِّ إجلالِهِ ذنْبَهُ، اعتباراً بأنَّهُ المُنتَقِمُ القهّارُ، فاستوى خوفُهُ ورجاؤهُ، ثُمَّ إنْ أدّاهُ ذِكرُ الكَرمِ للاغترارِ، فالهوَى غالِبٌ عليه، أو ذِكرُ مُقابِلِهِ للقُنوطِ، فظُلمةُ النَّفسِ حاكِمةٌ عليهِ، وعظمةُ الذَّنبِ إنْ أدَّتْ لتوبةٍ ففَلاحٌ، أو ليأسٍ فجهلٌ بصِفاتِهِ تقدَّسَ. واليأسُ مِنْ رَحْمتِهِ كُفْر، كما أنَّ الأمنَ مِنْ مكرِهِ خُسْر، ومَنْ حكمَ على نفسِهِ بأنَّهُ طريدٌ مِنَ الخيرِ بعيدٌ عَنِ الجودِ، فقدْ أساءَ الأدَبَ على ربِّهِ، وجهِلَ حِكمةَ العليم.

ولهذا قالَ بعضُهُمْ: "مَنْ استَعْظَمَ ذنْبَهُ فكبُرَ عليهِ، حتَّى صدَّهُ عَنِ الأوبةِ إليهِ فذاكَ السَّعيدُ البالِغُ رُتبةَ الشَّهيدِ، ومنِ استَعْظمَهُ فيئِسَ مِنَ الرَّبِّ فذاكَ قدْ عميَ منهُ القلْبُ".

أيُّ قيمةٍ لكَ ولذنْبِكَ، حتَّى لا يسعَهُ عفوُ ربِّكَ؟! لو كُلُّ مَنْ في السَّماءِ والأرضِ غوَى، ما نقصَ مُلكُهُ كما لا يزيدُ لو خالفوا الهوَى، خلقَ المعصيةَ وقدَّرَها، وجعلَ أهلَها موطِنَ المغفرةِ ومظهَرَها، ورُبَّ مُذنبٍ يكونُ لسيِّدِهِ حبيبًا، ومنْ حضرتِهِ مآلًا قريبًا، وللهِ درُّ القائلِ:

اضرعْ إلى اللهِ واسألْهُ الوِصالَ عسى * تنالَ قُربًا فإنَّ اللهَ وهّابُ
لا تيأسَنَّ وإنْ طالَ الصُّدودُ فقدْ * يخفَى أُناسٌ وهمْ في السِّرِّ أحبابُ

تنْبيهٌ: قالَ التونسيُّ: مَنْ دُعيَ مِنْ بابِ الجمالِ على بِساطِ رجاءِ حُسْنِ الظَّنِّ، فليُبشِرْ أنَّهُ مِنَ المحبوبينَ، ومَنْ دُعيَ مِنْ بابِ الجلالِ على بِساطِ غلبةِ سوءِ الظَّنِّ، فليعلَمْ أنَّهُ مِن المُحبِّين؛ ذلكَ ما تحكُمُ بهِ على نفسِكَ في اعتِقادِكَ في أوصافِ ربِّكَ مِنْ جمالٍ وجلالٍ، وعدلٍ ونِعمةٍ، وفضلٍ ورحمةٍ.

وحِكمَتُهُ تعالَى في وُجودِ معصيةِ العاصي ظُهورُ رحمَتِهِ بهِ، وشفاعةُ نبيِّهِ لهُ، وإظهارُ فخامةِ أصفيائِهِ، وليشفَعَ الأحبابُ فيمَنْ أحبَّهُمْ، ولن يخيبَ مُذنبٌ بينَ رحيمٍ وشُفعاء.

وقد جاءَ رجُلٌ للعارفِ علي وفا يطلُبُ إسعافَهُ بتغييرِ مُنكَرٍ في بعضِ المواطِنِ، فقالَ:

=الهيثمي في المجمع (١٩٣/٧). وفي الباب عن عبدالله بن عمرو وعبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

"مَنْ أحبَّ أنَّ اللهَ لا يُعصَى، فكأنَّهُ أحبَّ تعطيلَ صِفاتِ تجلّيَاتِ أسمائه، وكأنَّهُ يقولُ للغفّارِ لا تغفِرْ، وللسَّتّارِ لا تستُر، وللحليم لا تحلُمْ". قالَ الشّاذلي: "مَنْ أحبَّ أنَّ اللهَ لا يُعصَى في مملَكتِه، أحبَّ أنْ لا تظهرَ مغفرتَهُ على عِبادِهِ"؛ فإنْ أسأتَ ظنَّكَ ناقشَكَ بعدْلِه، وإنْ أحسَنْتَ سامحَكَ بفضلِهِ، وصِفةُ العدلِ للمطْرودينَ، كما أنَّ صِفةَ الفضلِ للمُحبّينَ.

***

٥٠. لا صغيرةَ إذا قابلَكَ عدلُهُ، ولا كبيرةَ إذا واجَهَكَ فضْلُهُ.

(**لا صغيرةَ إذا قابلَكَ عدلُهُ**) بلْ ذُنوبُكَ حينَئِذٍ كُلُّها كبائرُ، (**ولا كبيرةَ إذا واجَهَكَ فضْلُهُ**) بلِ الكَبائرُ حينَئِذٍ كُلُّها صغائرُ، فمَنْ قابلَهُ بعدْلِهِ كبُرَتْ صغائرُهُ، ومَنْ عاملَهُ بفضلِه مُحيَتْ كبائرُهُ، أيُّ كبيرةٍ في جنبِ فضلِ الكَريمِ، وأيُّ صغيرةٍ إذا خالفْتَ الملِكَ العَظيمَ، فصِفةُ العدلِ إنَّما تظهرُ على مَنْ قلاهُ، وصِفةُ الفضلِ إنَّما تظهرُ على مَنْ أدْناهُ، وهو الفعّالُ لما يشاءُ، أسعدَ منْ شاءَ لا بوسيلةٍ سبقَتْ، وأبعدَ مَنْ شاءَ لا بجريمةٍ تقدَّمتْ، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [النساء: ٢٣].

فانظُرْ لعدلِه وفضلِهِ، لا لذُنوبِكَ وعُيوبِكَ، هبها صغائرَ أمْ كبائرَ، وحينَئِذٍ فلا ميْلَ؛ إذ لا عِلْمَ لنا بما يجازي ولا بما يُقابِل، قالَ ابنُ معاذ: "إن أنالهُم فضلَهُ لم يبقَ لهُمْ سيئةٌ، أو عدلَهُ لم يبقَ لهُمْ حسنةٌ"، قالَ تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦]، وكُلُّ ذلكَ على السَّواءِ في حقِّهِ فلا ترْجيحَ، والعدلُ ما للمالِكِ فِعلُهُ بغيرِ مُنازِعٍ، والفضلُ المواجَهةُ بالإحسانِ لا لعِلّةٍ ولا بسببٍ.

واعلمْ أنَّ الحقَّ إذا قابَلكَ، أي حاسبَكَ وناقشَكَ على الصَّغيرةِ عذَّبكَ، لخبرِ: (مَنْ نُوقِشَ

الحِسابَ عُذِّبَ)[1]، بخِلافِ منْ واجهَهُ، فقدْ رحِمَهُ، وقدْ نبَّهَ على ذلكَ المؤلِّفُ بقولِهِ: "قابَلَكَ" في مقامِ المُناقَشةِ على الصَّغيرةِ في حُكمِ حِكْمةِ العدْلِ، و"واجهَكَ" في مقامِ المُسامحَةِ في الكَبيرةِ.

تنْبيهٌ: النّاسُ في المُناقَشةِ فريقانِ: فريقٌ يُدقَّقُ عليهِ للانتِقامِ، وفريقٌ يُدقَّقُ عليهِ لدُخولِ حضرةِ الخِطابِ، ولينعَمَ بنعيمِ العِتابِ، فشتّانَ بينَ منْ سهُلَ عليهِ الحِسابُ بنَعيمِ العِتابِ، وبينَ منْ يُناقَشُ بتوبيخٍ وإهانةٍ، وبيْنَ مَنْ هوَ في عِنايةٍ تحتَ كنَفِ ربِّهِ، فهوَ بهذا الشُّهودِ الممزوجِ بشَرابِ مُنادَمتِهِ في حضرةِ مُكالمتِهِ، قدْ غابَ بهِ وطابَ ولم يجِدْ معَهُ عذابًا.

ولم يزَلِ الأولياءُ يرون في عالمِ النَّومِ والكشْفِ أنَّهُمْ في موقِفِ الحِسابِ يُناقَشونَ، وذلكَ ألذُّ عِندَهُمْ مِنْ كُلِّ شيءٍ. رأى القُشَيْرِيُّ القيامةَ قامَتْ، وأُحضِرَ بينَ يديهِ تعالى، وعاتَبَهُ على تشديدِهِ في الموعِظةِ على النّاسِ، ثُمَّ أمرَ بهِ إلى النّارِ، فلمّا ذهبَ أخذَ يلتَفِتُ فقيلَ: "لِمَ تلتَفِتُ؟" قالَ: "أرجو رحْمةَ ربّي"، فأُمِرَ بهِ فرجَعَ إلى اللهِ، فأُمِرَ بهِ إلى الجنَّةِ، فانتبَهَ يقولُ: "حاسَبُونا فدقَّقوا، ثُمَّ منُّوا فأعتَقُوا"، وأصلُ ذلكَ كُلِّهِ محبّةُ اللهِ لعبْدِهِ؛ فإنْ أحبَّهُ رفِقَ بهِ في كُلِّ الحالاتِ، وآنَسَهُ في جميعِ الوَحَشاتِ، وبدَّلَ سيِّئاتِهِ حسناتٍ.

***

٥١. لا عمَلَ أرجَى للقُلوبِ مِنْ عملٍ يغيبُ عنْكَ شُهودُهُ، ويُحتَقرُ عِندَكَ وُجودُهُ.

(لا عمَلَ أرجَى للقُلوبِ) أي: لإصلاحِها، وحُصولِ النَّفْعِ بهِ في إفادةِ ما ينْشأُ عنْهُ مِنْ تنويرٍ وتعريفٍ، وكمالٍ وجزاءٍ، وغيرِهِما **(مِنْ عملٍ يغيبُ عنْكَ شُهودُهُ)** أي: العملُ بشُهودِ الموفِّقِ إليهِ، حتَّى لا ترى لنفْسِكَ نِسبةً فيهِ، بل لا ترَى لهُ وُجودًا في ذاتِهِ.

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاريُّ (٦٥٣٦)، ومسلمٌ (٢٨٧٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال: "مَن حُوسِبَ عُذِّبَ"، قالت عائشة: فقلت أوليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨] قالَتْ: فقال: "إنّما ذلك العَرْضُ، ولكن: مَن نُوقِشَ الحِسَابَ يَهْلِكْ".

قالَ الكركي[1]: ولو أبدَلَ "القَبولَ" بـ"القُلوبِ"، لأغناهُ عنْ تقديرِ مُضافٍ. والمعنى عليهِ: أنَّ سلامةَ العمَلِ مِنَ الآفةِ أرجَى لقَبولِهِ، والسَّلامةُ منهُ باتِّمامِ نفسِكَ بالقيامِ بحقِّ ربِّكَ ورؤيةِ التَّقصيرِ فيهِ، فتَغيبُ إذ ذاكَ عنْ شُهودِ العمَلِ.

(ويُحتَقرُ عِندَكَ وُجودُهُ) نظرًا إلى أنَّهُ لا يصلُحُ هديَّةً لملِكِ المُلوكِ لما فيهِ مِنَ النَّقْصِ والعِلَلِ والآفةِ، فمنْ رأى تقصيرَهُ في عملِهِ، غابَ عنهُ شُهودُهُ، فدخلَ على مالكِهِ مُجرَّدًا عَنِ العملِ وعَنْ رؤيَتِهِ، فمنْ لم يرَ شيئًا مِنْ أعمالِهِ واستحْقرَها فقد باءَ بكمالِهِ، هو الخالِقُ لأعمالِكَ، فكيفَ تراها مِنْ جُملةِ كمالِكَ؟!، لولا إقدارُهُ لكَ لم تقدِر، لولا إلهامُهُ الصَّبرَ لَمْ تصبِر، فأنتَ عدمٌ في العيْنِ، وأيُّ شيءٍ أنتَ في البيْنِ، فلا تشهدْ نفسَكَ إلّا حقيرًا، ولا ترى عملَها إلّا تقصيرًا؛ فإنَّهُ أرجَى للقَبولِ، وأحْظَى لبُلوغِ المأمولِ.

ولم يبْقَ هوْلٌ دونَها ما رِكبْتُهُ * وأشْهَدُ نفْسي فيهِ غيرَ زكيّةِ

وحاصِلُهُ: أنْ يرَى نفسَهُ مُقصِّرًا، ويراهُ معَ تقصيرِهِ مِنّةً مِنَ اللهِ عليْهِ لتوفيقِهِ إليهِ. وقيلَ الواوُ بمعَنى "أو"، أي: يغيبُ عنْكَ "أو" يُحتَقرُ عِنْدَكَ، وعليهِ فالنّاسُ ثلاثٌ: غائبٌ عنْ شُهودِ عمَلِهِ، ومُحتقِرٌ لهُ، وجامِعٌ بينَهُما؛ فالثّالِثُ أكمَلُ، فالأوَّلُ، فالثّاني.

قالَ التّونسيُّ: فالعملُ عمَلانِ، عملٌ يفتَحُ بابَ الرَّجاءِ للقلْبِ، وعملٌ يسُدُّهُ، فالأوَّلُ السّالمُ مِنْ عِلّةِ تعظيمِهِ، وذلكَ إنَّما يحصُلُ بالغيْبةِ عنْ شُهودِهِ، والغيْبةُ عنْهُ إنّما تحصُلُ باحتِقارِهِ، واحتِقارُهُ إنَّما يحصُلُ بالتَّفطُّنِ لعِللِهِ؛ فإذا سلِمَ مِنْها رآها حقيرةً بالنِّسبةِ لأعمالِ الماضينَ، فيرَى عمَلَهُ أقلَّ مِنْ أنْ يعُدَّهُ أو يراهُ، بل ينْساهُ، فإذا نسيَهُ غابَ عنهُ، فيُسَرُّ حينئذٍ بقَبولِهِ، لمصيرِهِ مُرتفِعًا، قالَ تعالى: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، فإذا رفَعَهُ قبلَهُ، وإذا قبلَهُ غابَ عنْكَ. وأمّا الثّاني فعملٌ ينْظرُهُ صاحِبُهُ بعيْنِ التَّعظيمِ، ولم يغبْ عنْهُ شُهودُهُ، سيَّما إنْ أظْهَرَهُ

(١) جلال الدين محمد بن أحمد بن الكركي الصوفي الشافعي البرهاني، من تآليفه: الفتح الذوقي في الكلام على بعض كرامات سيدي ابراهيم الدسوقي، نور الحدق في لبس الخرق، الهدية الدسوقية في توحيد رب البرية، لسان التعريف بحال الولي الشريف، مرشد الأمم لشرح الحكم، توفي في حدود سنة ٩١٢. هدية العارفين للبغدادي (١/١٣٧)، ومعجم المؤلفين لكحالة (١/٢١٨).

حِسّيًّا كبناءِ نحوِ مسجدٍ ومدْرَسةٍ، مُستغنًى عنهُ، فلا يحصُلُ لفاعلِه إلّا الحسْرةُ يومَ القيامةِ والحُزنُ والنَّدامةُ؛ فاحرِصْ على الإسرارِ، وإيّاكَ أن ترَى أنَّكَ أعطيْتَ أو وهَبْتَ، بلِ اشهَدْ أنَّكَ عبدٌ ألهَمهُ سيِّدُهُ لصرفِ ما جعَلهُ أمينًا عليهِ، ولا تطلُبْ عنهُ ثَوابًا لعدمِ استِحقاقِ العبْدِ على سيِّدِه.

وهذهِ الحالةُ السَّنيَّةُ لا تكونُ إلّا بوارِداتٍ قُدُسيّةٍ، فلذلكَ قالَ:

***

٥٢. إنَّما أورَدَ عليكَ الوارِدَ لتكون بِه عليهِ وارِدًا.

(**إنَّما أورَدَ عليكَ الوارِدَ لتكون به**) أيِ الوارِدِ (**عليهِ وارِدًا**)، ولتكون بما والاك وارِدٌ على مولاكَ، لا لتعتبرَ بأعمالِكَ وتشتغِلَ بأحوالِكَ.

والوارِدُ نورٌ يرِدُ على القلبِ بغيرِ استِعدادٍ غالبًا، وقيلَ: "ما يرِدُ عليهِ مِنَ المعارِفِ الرَّبّانيّةِ واللَّطائِفِ الرُّوحانيّةِ"، وقيلَ: "خَلْقُ الخاطِرِ في القلبِ جلاليًّا أو جماليًّا"، لكنَّ المُرادَ هُنا: ما ينزِلُ بالقلْبِ فيُزعِجُهُ عنْ مُعتادِهِ، ويصُدُّهُ عنْ مُرادِهِ، فهو تعالى يورِدُ على القلْبِ وارِداتِ العظَمةِ والجبَروتِ، ليتقدَّسَ مِنَ الأغيارِ، ويتخلَّصَ مِنَ الأكدارِ، وقصدُهُ إرجاعُ العبْدِ لمولاهُ، وانقِطاعُهُ لما بِهِ تولّاهُ، ويكونُ بواسِطةِ الملَكِ وهو أعلاهُ، وعلامَتُهُ خِفةٌ ونشاطٌ، وبواسِطةِ الجانِّ المؤمنِ، وعلامتُهُ ثِقَلٌ وكسَلٌ، وأمّا أثرُهُ فالنّورُ والعِلمُ والأُنسُ، وبهِ يحصُلُ الحالُ في البِدايةِ، ويثبُتُ المقامُ في النِّهايةِ، ويطهُرُ القلبُ، وتزكو معارِفُهُ، وتكثُرُ لطائِفُهُ.

ومَنْ لا وارِدَ لهُ لا ذوقَ لهُ ولا تحقيقَ، بلْ مزكومٌ عَنْ شمِّ رائحةِ الطَّريقِ، وحِكمةُ وُرودِهِ على السّالكِ والواصِلِ خُروجُهما عَنِ الأوصافِ الرَّديّةِ بحالةِ اضْطِراريّةٍ، لنفْيِ بقايا الأغيارِ، ويحصُلُ التَّحقُّقُ بمقامِ الأحرارِ، فيحصُلُ الوُرودُ على الوَليِّ بِلا علّةٍ، والخُروجُ مِنْ عُبوديّةِ الأكوانِ في الجُملةِ، ومِنْ سِجْنِ النَّفسِ بِلا مُهلة، ولهذا قالَ:

٥٣. أوردَ عليكَ الوارِدَ ليتَسلَّمَكَ مِنْ يدِ الأغيارِ، وليُجرِّدَكَ مِنْ رِقِّ الآثارِ.

(**أوردَ عليكَ الوارِدَ**) لا لتَقِفَ معَ الأنوارِ، وتتقيَّدَ بطلَبِ الإحسانِ والإبرارِ، بلْ (**ليتَسلَّمَكَ**) أي: ليأخُذَكَ قهراً (**مِنْ يدِ الأغيارِ**) الغاصبةِ لك، وهي الشَّهواتُ النَّفسيّةُ والعاداتُ الرَّديّةُ، بحيثُ لا يبقَى لكَ فيها بقيّةٌ، ولا إليها إسنادٌ، ولا عليها اعتمادٌ، بل لتكون لمولاكَ وحدَهُ بلا علّةٍ، وذلكَ هوَ الخُروجُ مِنَ الرِّقِّ كما قالَ: (**وليُجرِّدَكَ**) يعتِقَكَ بسببِ ذلكَ (**مِنْ رِقِّ الآثارِ**) المُستَرِقّةِ لكَ بحُبِّكَ لها، وسُكونِكَ إليها، واعتمادِكَ عليها، فمنْ لاحَتْ لقلْبِهِ الأنوارُ تخلَّصَ مِنْ رِقِّ الأغيارِ. وعدمُ السُّكونِ إليها سببُ الخَلاصِ مِنْ يديها، فتصيرُ حرًّا مِنْها، لا مالكَ لكَ مِنْ زوجةٍ حسَنةٍ، أو مسْكنٍ مُزَخْرفٍ، أو طعامٍ شهيٍ، أو ملبَسٍ بهيٍّ، وتصيرُ الأغيارُ تابعةً لا متبوعةً، ومحكومةً لا حاكِمةً، وبذلكَ تحصُلُ الرّاحةُ الأبديّةُ كما قالوا: "سِجنُكَ نفسُكَ، فإذا خرَجْتَ مِنْها وقعْتَ في راحةِ الأبَدِ". ومنْ لم يرجِعْ إليهِ بوارداتِ اللَّطائفِ والجَمالِ، أوردَ عليهِ مِنْ جلالِهِ وعظَمتِهِ ما يُزعِجُهُ، حتَّى يُخرِجَهُ عنْ عوالِمِهِ المُعْتادة، ويُصيِّرَهُ مِنْ أهلِ السَّعادة.

ومِما تقرَّرَ عُرِفَ أنَّهُ لا يحصُلُ التَّحرُّزُ مِنْ رِقِّ الآثارِ إلّا بعِنايةِ القهّارِ، بتسَلُّمِكَ مِنْ يدِ الأغيارِ، جمعُ "غيْرٍ"، وهوَ وهمُكَ المُكثِرُ لكَ الأهواءَ، النّاشئةَ عنْ إلفِ عادةِ النَّفسِ المُستَرَقّةِ، لسُلطانِ الشَّهْوةِ الحيَوانيّةِ، المالِكةِ لضَعْفِ البَشَريّةِ، ومَن هذا نعتُهُ فهو عبدٌ لأصنافِ وأشتاتٍ مِنْ أنواعِ الشَّهواتِ، فأنَّى لهُ بمقامِ الحُرّيّةِ وهو في رِقِّ العُبوديّةِ؟! تعالى ربُّكَ المليك، أنْ يكونَ لهُ في قلبِ عبْدِهِ شريك، لا يستَوي قلْبٌ للهِ خالِص، بقلبٍ تنازَعَهُ الشُّرَكاءُ فهو ناكِص، ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ [الزمر: ٢٩].

فشتّانَ بينَ منْ جعَلهُ الحقُّ عبْدًا لهُ وحرَّرَهُ ممّا سِواه، وبينَ مَنْ بينَهُ وبيْنَ شَهَواتِهِ خلّاه، والمحْجوبُ في سِجنِ رِقِّه، والمُطلَقُ في فضاءِ عِتقِه، أنَّى يستَويانِ؟!

٥٤. أَوْرَدَ عليْكَ الوارِدَ؛ ليُخرِجَكَ مِنْ سِجْنِ وُجودِكَ إلى فضاءِ شُهودِكَ.

(**أَوْرَدَ عليْكَ الوارِدَ؛ ليُخرِجَكَ مِنْ سِجْنِ وُجودِكَ**) الذي لا سِجْنَ أعظَمَ مِنهُ، وهوَ نفسُكَ الشَّهوانيّةُ، المُقيِّدةُ لكَ بقُيودِ الأَخْلاقِ الرَّديّة، (**إلى فضاءِ شُهودِكَ**) الذي تغيبُ بهِ عنْ مشْهودِك؛ فإنَّكَ مسجونٌ بمُحيطاتِكَ محصورٌ في هيكَلِ ذاتِك، فأنْتَ في وُجودِكَ مسجون، فإذا خرَجْتَ عنكَ فُزْتَ بالدُّرِّ المصون.

فإذا أرادَ أنْ يفتَحَ لكَ ميادينَ الغُيوبِ، أَوْرَدَ عليْكَ الوارِدَ فأخْرَجَكَ مِنَ السِّجْنِ، وأَنْزَلَكَ بساحةِ الرَّاحةِ الأَبَديّةِ، وفتحَ لكَ بابَ مِيْدانِ المُشاهَدةِ السَّرمَديّةِ، ومنْ تخلَّصَ مِنْ هذا المضيقِ، فقدْ سعِدَ على التَّحقيقِ، ومَنْ صحَّتْ لهُ هذهِ الأَحْوالُ، تَهيَّأَ لهُ الارتِحالُ على مَطايا الأَنْوارِ إلى حضْرةِ الأَسرارِ، كما قالَ:

***

٥٥. الأنوارُ مطايا القُلوبِ والأَسْرارِ.

(**الأنوارُ مطايا القُلوبِ**) أي: الأَنْوارُ التي تأتي صُحبةَ الوارِدِ حامِلةً للطائِفِ القُلوبِ، فتُسافِرُ بها إلى حضرةِ علّامِ الغُيوبِ، بإيضاحِ فهمِ السّالِكِ في تِلْكَ المسالِكِ، (**و**) مطايا (**الأَسْرارِ**) إلى حضرةِ ربِّ البَرِيّةِ، ببَيانِ العُلومِ اللَّدُنّيّةِ، فمَنْ أشرَقَ النّورُ في قلبِهِ سارَ على مَطيّةِ فَهْمِهِ، ومَنْ طلَعَ في أُفُقِ سِرِّهِ، سارَ بمَطيّةِ عِلْمِهِ، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، فما أوردَ عليْكَ الوارِدَ، إلّا لتغيبَ بِهِ عنْ كُلِّ شاهِد.. إذا أغناكَ عَنِ الغَيْرِ، فقدْ طوَى عنْكَ مشقّةَ السَّيْرِ، وإذا كانَتِ الأَنْوارُ مطايا إلى الحقِّ حامِلةً إليهِ، فلا تحمِلْ عليها شيئًا مِنَ الباطِلِ.

ولمّا كانَتِ الأنْوارُ مُعينةً للقُلوبِ على مقصدِها شبَّهَها مرّةً بالمطايا ومرّةً بالجُنْد، كما قالَ:

***

٥٦. النورُ جُنْدُ القلْبِ، كما أنَّ الظُّلْمةَ جُنْدُ النَّفْسِ، فإذا أرادَ اللهُ أنْ ينْصُرَ عبدًا أمدَّهُ بجُنودِ الأنْوارِ، وقطعَ عنْهُ مدَدَ الظُّلَمِ والأغْيارِ.

(**النورُ**) الذي هوَ نورُ المعرفةِ، وحقائقُ ما يُسْتَفادُ مِنْ معاني الأسماءِ والصِّفاتِ (**جُنْدُ القلْبِ**) يعني العقْلَ الذي يُقابَلُ بهِ النَّفْسُ والهوَى والشَّيْطانُ، (**كما أنَّ الظُّلْمةَ**) التي هيَ نتيجةُ الهوَى والعادةِ الرَّديّةِ والأخلاقِ الدَّنيّةِ (**جُنْدُ النَّفْسِ**) الأمّارةِ، وهي ظُلمةُ الجهْلِ المقرونةُ بوسْوَسةِ الشَّيْطانِ التي تتقَوَّى بها آثارُها.. والحربُ بينَهُما سِجالٌ؛ وذلكَ لأنَّ النّورَ يحصُلُ بهِ الكشْفُ والعِلْمُ والتَّحقُّقُ، والجهْلَ يحصُلُ بهِ التَّلفُ والتَّخبيطُ، وإذا كانَتِ الأُولى غَلَبَ الهوَى وذهَبَ الحقُّ، أو الثّانيةُ فعكْسُهُ، ولكُلٍّ مُقوّياتٌ وموادٌّ بيَّنَها بقولِهِ:

(**فإذا أرادَ اللهُ أنْ ينْصُرَ عبدًا**) على نفْسِهِ وهواهُ (**أمدَّهُ**) أي أمدَّ قلْبَهُ (**بجُنودِ الأنْوارِ**)، فكُلَّما اعتَرَتْهُ ظُلمةٌ قامَ لها نورٌ فأذْهَبَها؛ فيحْصُلُ لهُ العِلْمُ والتَّحقُّقُ والإلهامُ الذي هوَ الكشْفُ، فيُباشِرُ قلبُهُ ما يعلمُهُ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ، حتَّى يُقبِلَ على الحقِّ ويُعْرِضَ عمَّنْ سِواهُ، ولا يحصُلُ ذلِكَ إلّا بحسَبِ موادِّ الظُّلَمِ، فلذلِكَ قالَ: (**وقطعَ عنْهُ مدَدَ الظُّلَمِ والأغْيارِ**).

وإذا أرادَ خِذْلانَهُ بالعكْسِ؛ فإذا مالَ قلْبُهُ إلى العمَلِ بما يُحمَدُ، ونفْسُهُ إلى العملِ بما يُذَمُّ، وتَحارَبا، فسارَعَ النّورُ الذي هو مِنَ الرَّحمةِ إلى نُصْرةِ القلْبِ، والظُّلمةُ التي هيَ مِنْ وسْوسةِ الشَّيطانِ إلى نُصْرةِ النَّفْسِ، وقامَ صفُّ القِتالِ بينَهُما، فإنْ سبقَتْ أزَلًا سعادتُهُ، اهتدَى قلْبُهُ بالنّورِ، وعمِلَ بميْلِهِ وإنْ آلَمهُ حالًا لما يرجوهُ مِنَ التَّنعُّمِ مآلًا، أو شقاوتُهُ ذُهِلَ قلْبُهُ عَنِ النّورِ، وأعمَتْهُ الظُّلمةُ، واغترَّ بلذّةِ العاجِلِ، وعمِلَ بميْلِ نفسِهِ وإن آلَمهُ مآلًا.

فليفزَعِ العبدُ إلى ربِّه عِنْدَ التقاءِ الصَّفَّيْنِ بالذِّكرِ وصِدقِ الالتجاءِ والتَّعوُّذِ، وهذا ما أشارَ إليهِ البعضُ بقولِه: إنَّ أنوارَ التَّوحيدِ واليَقينِ جُنْدُ القلْبِ فبها يستَعين، كما أنَّ ظُلمةَ الشِّركِ والشكِّ جُنْدُ النَّفسِ بها يمُدُّها العدُوُّ اللَّعين، لم يزالا في قتال، والحرْبُ بينَهُما أبدًا سِجال؛ فإنْ سبَقَتِ العِنايةُ تقوَّى النّور، وتلاشى جُندُ العَدوِّ المغْرور، وإنْ سبقَ الخِذْلان، كُشِفَ ذلكَ النّورُ فرَجَحتْ كفّةُ الخُسران، لا ناصِرَ عِنْدَ التِحامِ تِلكَ الحرْب، إلّا فزعُ القلْبِ إلى ذِكْرِ الرَّبّ، فهو الملِكُ المعبود، وبهِ نصْرُ مَنْ شاءَ مِنَ الجُنود، هو ملجأُ المُتَّقينَ وبهِ يُستَروا، ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وتاللهِ إنَّ هذا لهو الجِهادُ الأكْبر، والموتُ الأقطَعُ الأحمر.

قال الغزاليُّ: للإنسانِ في مُجاهَدةِ الهوَى أحوالٌ: الأوَّلُ أنْ يغْلبَهُ فيمْلكَهُ فلا يُمكِنُهُ خِلافُهُ، وهو حالُ أكثَرِ الخلْقِ، الثّاني: أنْ تكون الحربُ سِجالًا، تارةً لها وتارةً عليها، فهذا مِنَ المُجاهِدينَ؛ فإن اخترَمَتْهُ المَنيّةُ في هذهِ الحالة فهو مِنَ الشُّهداءِ، الثّالِثُ: أنْ يغْلبَ هواهُ فيصيرَ مُستَوليًا عليْه، لا يقْهَرُهُ بحالٍ، وهذا هوَ المُلكُ الكَبيرُ، والنَّعيمُ الخالِصُ، والحُريّةُ التّامّةُ. واعلمْ أنَّ دائرةَ المملَكةِ الإنسانيّةِ جامعةٌ لأنواعِ الأضدادِ مِنْ نورٍ وظُلمةٍ، وكُفرٍ وإيمانٍ، وطاعةٍ وعِصيانٍ، وغيرِها، وقدْ جعَلَ لكُلِّ ضِدٍّ ما يُقابِلُهُ حِكمةً بالغةً، فضِدُّ العقْلِ النَّفْسُ، ومِنْ جُنودِ العقْلِ: الملائكةُ، والنَّفسِ: الشَّياطينُ، وكُلُّ فريقٍ عدوٌّ للآخَرِ عداوةً طبيعيّةً، فلذلكَ الحربُ بينهُما سِجال، وميدانُ هذهِ الحربِ قُلوبُ العِبادِ، ولا بُدَّ أنْ ينْهَزِمَ أحدُ العسْكَرَيْنِ، فعلامةُ النَّصرِ دوامُ شُروقِ الأنوارِ، وعلامةُ الخِذْلانِ تراكُمُ الظُّلَمِ بصوَرِ الأغْيارِ، لكِنْ رُبَّما تأتي سحابةُ غيمٍ على قلْبِ المُريدِ، فيُمْنَعُ مِنْ شُهودِ إشْراقِ نورِ شمسِ المعْرِفةِ؛ لبَقائهِ معَ بعضِ حُظوظِهِ في أرضِ شهْوتِهِ، فإذا تخلَّصَ رقا إلى حضرةٍ كانَ السَّحابُ دونَها، فعِنْدَها يأمَنُ وُجودَ الحِجابِ.

تنْبيهٌ: قالَ الكركي: "هُنا كثيراً ما يتفنَّنُ المؤلِّفُ في المعاني المُتقارِبةِ، فيورِدُها بعِباراتٍ غيرَ واحِدةٍ".

ثُمَّ بيَّنَ ترتيبَ إمدادِ القلْبِ بقوْلِهِ:

٥٧. النّورُ لهُ الكشْفُ، والبصيرةُ لها الحُكْمُ، والقلْبُ لهُ الإقْبالُ والإدْبارُ.

(**النّورُ لهُ الكشْفُ**) عنِ المعاني الغيْبيّةِ منَ المفهومِ والمعلومِ وجميعِ الحَقائِقِ حتَّى تَبدوَ للبَصيرةِ، (**والبصيرةُ**) التي هي ناظِرُ القلبِ (**لها الحُكْمُ**) بصِحّةِ ما شاهَدَتْهُ بذلكَ النّورِ مِنْ حُسْنٍ أو قُبْحٍ؛ فالنّورُ لهُ كشفُ معاني الغيْبِ، وناظِرُ القلْبِ يُفيدُ الحُكْمَ بصِحّةِ المشْهودِ بلا ريْبٍ، (**والقلْبُ لهُ الإقْبالُ والإدْبارُ**) عنِ العمَلِ بمُقتَضَى ما شاهَدَتْهُ البَصيرةُ؛ فإذا حكَمَتْ عليهِ بخيْرٍ، أقبلَ القلْبُ على ذلِكَ الخيْرِ، أو بِضِدِّهِ أدبَرَ عنهُ، أي: تركَهُ همْلاً.

فإذا كانَ النّورُ تامًّا كَشَفَ الشَّيءَ على ما هو عليهِ، وإذا كانَتِ البَصيرةُ مُستَقيمةً حكَمَتْ بهِ على وجْهِهِ، فأقبلَ القلْبُ في محلِّ الإقبالِ، وأدبرَ في موضِعِ الإدبارِ، فإذا فُقِدَ النّورُ أو نقصَ صارَ القلْبُ يخْبِطُ عشْواءَ، فيرى الأمرَ على غيرِ وجْهِهِ، فيُقبِلُ في محلِّ الإدبارِ، وعكْسُهُ، فهو يُشبِهُ الأعمَى، تارةً يُخطِئُ وتارةً يصيبُ، وإن أصابَ فبغيرِ أصلٍ ولا حقيقةٍ.

قالَ التُّونسيُّ: نورُ الكشْفِ نورٌ عُلويٌّ، مُستَفادٌ مِنَ الحضْرةِ الغيْبيّةِ المُطهَّرةِ القُدُسِّيّةِ، الجامِعةِ للعبدِ بعدَ تفرِقَتِه"، فمنْ صحَّ لهُ حصلَ لهُ بصيرةٌ، أي: نورانيّةٌ، يُبصِرُ بها الحقائقَ على ما هي عليهِ، فيحكُمُ لكُلِّ حقيقةٍ بما تسْتحِقُّهُ مِنْ إثباتٍ ونفيٍ، وبقاءٍ وفناءٍ، وكمالٍ ونقصٍ، فيُقبِلُ قلبُهُ على ما حكَمَتِ البَصيرةُ بكَمالِهِ، ويُدبِرُ عمّا حكمَتْ بنقْصِهِ، فتكونُ أعمالُهُ ومَنْ تبِعَهُ على بصيرةٍ، ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فلِهذا لَزِمَ المُريدَ اتِّباعُ شيخِهِ فيما فهِمَ وغيرِهِ؛ لأنَّهُ في حِجابِهِ وشيخُهُ في حضْرةِ المُعايَنةِ، ومَنْ قالَ لشيْخِهِ "لِمَ؟"، لمْ يُفلِحْ أبدًا، لأنَّ مرسومَ الطّاعةِ إذا برزَ مِنْ وُجودِ نفْسِهِ، لمْ تخلُ مِنْ عِلّةٍ نفْسيّةٍ، بخِلافِ ما لو برزَ مِنْ حضرةِ قُدْسِ أستاذِهِ؛ فإنَّهُ محفوظٌ، ولهذا المعنى قالَ:

***

٥٨. لا تُفرِحْكَ الطّاعةُ لأنّها برزَتْ مِنْكَ، وافرحْ بِها لأنَّها برَزتْ مِنَ اللهِ إليكَ ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

(**لا تُفرِحْكَ الطّاعةُ لأنَّها**) أي: لكونِها (**برزَتْ مِنْكَ**) لأنَّهُ يورِثُ العُجْبَ والكِبْرَ وإهمالَ الشُّكرِ، وما هي إلّا جُندُ النَّفسِ والشَّيطانِ، (**وافرحْ بِها لأنَّها برَزتْ مِنَ اللهِ إليكَ**) لإيجابِهِ القيامَ بحقِّ العُبوديّةِ، فمنْ فرِحَ بالطّاعةِ لبُروزِها مِنَ اللهِ فقدْ شكَرَ، أو بظُهورِها بقُدْرَتِهِ فقدِ افتَخرَ؛ فالفرحُ بِها آيةُ الإيمانِ، لكنْ إنْ رأَى العبْدُ ذلكَ مِنْ نفْسِهِ وبحوْلِهِ وقوَّتِهِ، كانَ مذمومًا، وإنْ رآهُ صدقةً مِنَ اللهِ عليهِ، وهديّةً منْهُ إليهِ، كانَ محمودًا؛ لأنَّ ما يجمعُهُ مِنَ الأعمالِ لا يسلَمُ مِنَ الاعتِلالِ، بخلافِ ما يهَبُهُ اللهُ لهُ ويُعينُهُ عليهِ مِنْ فضلِهِ.

والفرحُ بالطّاعةِ ثلاثةٌ: فرحٌ بِها مِنْ حيْثُ رجاءُ الثّوابِ وخوْفُ العِقابِ، وفرحٌ بها مِنْ حيْثُ وجودُها على يدِهِ لتزْكيَتِهِ بها، وفرحٌ بها من حيثُ التَّوفيقُ لها وذِكْرُ الحقِّ لهُ، والثّالثُ أعلى، ثُمَّ الثّاني لما فيهِ مِنَ الافتِقارِ، وأدونُها الثّالثُ لما فيهِ مِنْ شوبِ اعتِمادٍ على العمَلِ، وهو مِنْ أُصولِ العِلَلِ. ﴿**قُلْ بفضْلِ اللهِ وبِرَحْمَتِهِ فبذَلِكَ فليَفْرَحوا هوَ خيْرٌ مِمّا يجْمَعونَ**﴾، قيلَ حتَّى مِنْ عِلمِهِمْ وعمَلِهِمْ، أي: لا يكُنْ فرَحُكُمْ إلّا بفضْلِهِ ورحْمَتِهِ، لا بما تجْمَعونَهُ مِنَ الفَوائِدِ الحاصِلةِ بمِنَّتِهِ؛ لأنَّ الفرحَ بها مُجرَّدةً عينُ الغفْلةِ عنْهُ، والفرحَ بمِنَّتِهِ إجلالٌ لهُ، وهذا لا يُعارِضُهُ أنَّهُ لا يُحِبُّ الفَرحينَ، فذاكَ فرحٌ غيرُ مأمورٍ بهِ، وهو الفرحُ بالدُّنْيا وما مِنها وإليها، وذاكَ فرحٌ بِهِ لأجلِ فقْرِ العُبوديّةِ لغنى الرُّبوبيّةِ.

تنْبيهٌ: قالَ الإمامُ الرّازي: معنى الآيةِ ينبَغي أنْ يكون فرَحُكُمْ بفضْلِ اللهِ عليْكُمْ، لا بأعمالِكُمْ، وهذا مذهبُ أهلِ السُّنّةِ، يقولونَ: "العبدُ وإنْ أطاعَ ربَّهُ بأعظَمِ الطّاعاتِ مِنْ أوّلِ خلْقِ العالَمِ إلى قيامِ السّاعةِ، لا يدخُلُ الجنّةَ إلّا بفضْلِهِ ورحمَتِهِ، وليسَ للعَبْدِ على ربِّهِ دينٌ".

وممّا يدُلُّ على صحّتهِ أنّهُ وإنْ أطاعَ فربُّما وجدَ عبدًا أذكى وأكثرَ صدقًا وعلمًا منْهُ وقعَ في الكُفرِ، فكُلٌّ مِنَ المُطيعِ والعاصي، والمؤمنِ والكافرِ يجوزُ أنْ يصدُرَ مِنْ كُلٍّ منْهُما كُلَّ واحدٍ مِنَ العَمَلَيْنِ؛ فالمُطيعُ اختارَ الطّاعةَ معَ جوازِ أنْ يختارَ المعْصيةَ بدلًا عنْها، فإمّا أنْ يُقالَ: حصلَ الرّجحانُ مِنْ غيرِ مُرجِّحٍ، وهو يُفْضي إلى نفْيِ الصّانعِ، أو يتوقَّفُ على مُرجِّحٍ، وهو إنْ كانَ مِنَ العبْدِ عادَ المطلبُ الأوّلُ، ويُفْضي إلى التّسلسُلِ؛ وإنْ كانَ مِنَ اللهِ فيكونُ صُدورُ الطّاعةِ مِنَ اللهِ في حقِّهِ نِعمةً، وإذا كانَ صُدورُ الطّاعةِ مِنَ العبدِ مِنْ نِعمِ اللهِ عليهِ، فكيْفَ بنِعمةٍ مِنَ اللهِ عليهِ في الدُّنْيا نِعمةٌ منْهُ في الآخرةِ؟!، فهذا بُرهانٌ أوضَحُ مِنَ الشّمسِ على أنَّ كُلَّ ما يحصُلُ إنّما هو بفَضْلِ اللهِ ورحمَتِهِ ﴿فبذَلِكَ فليفرَحوا﴾. انتهى.

***

٥٩. قطعَ السّائرينَ لهُ والواصِلينَ إليهِ عنْ رؤيةِ أعمالِهِمْ وشُهودِ أحوالِهِمْ، أمّا السّائرونَ؛ فلأنّهُمْ لم يتحقّقوا الصِّدْقَ معَ اللهِ فيها، وأمّا الواصِلونَ؛ فلأنّهُ غيّبهُمْ بشُهودِهِ عنها.

(**قطعَ السّائرينَ لهُ**) وهُمُ المُريدون (**والواصِلينَ إليهِ**) وهُمُ المُرادون (**عنْ رؤيةِ أعمالِهِمْ وشُهودِ أحوالِهِمْ**) أي: حجبَهُمْ عنها ليَكونوا لهُ بلا عِلّةٍ، كما كانَ لهم ولا عِلّةَ، وليسْلَموا مِنْ آفةِ الإعْجابِ والنّفسِ، وليتِمَّ لهُمُ الافتِقارُ والاضْطِرارُ، وذلكَ نِعمةٌ لا يُقاوِمُها شُكْرٌ.

(**أمّا السّائرونَ؛ فلأنّهُمْ لم يتحقّقوا الصِّدْقَ معَ اللهِ فيها**) لاتّهامِهِمْ أنفُسَهُمْ دائمًا خوفًا مِنْ خِداعِها لهم، فهُمْ مُنقَطعون إليْهِ برُؤيةِ التّقصيرِ. قالَ الجُنيدُ: "لا يصفو لأحَدٍ قدمٌ في العُبوديّةِ حتّى تكونَ أفْعالُهُ كُلُّها عِنْدَهُ رياءً، وأحوالُهُ دعاوى"، ومِنْ علامةِ مَنْ تولّاهُ اللهُ في أحْوالِهِ: شُهودُ التّقصيرِ في إخلاصِهِ، والغفْلةِ في أذكارِهِ، والنُّقْصانِ في صِدقِهِ، والفُتورِ في مُجاهَدتِهِ، وقِلّةِ المُبالاةِ في فقْرِهِ، فتكونُ جميعُ أحوالِهِ عِنْدَهُ غيرَ مَرضيّةٍ.

(**وأمَّا الواصِلونَ؛ فلأنَّهُ غيَّبهُمْ بشُهودِهِ عنها**) فلمْ يروا عملًا؛ لأنَّ مَنْ شهدَهُ مُحالٌ أنْ يشْهَدَ معهُ سِواهُ، فهو حِجابُهُمْ عَنِ العَوالمِ كُلِّها، لجَزمِهِمْ بأنَّهُ الفعّالُ، وهُمْ آلةٌ مُسخَّرةٌ أو مُسلَّطةٌ بسِرِّ قُدرتِهِ، فلا يرون أنفُسَهُمْ عُمّالًا لها ولا مُستَحِقّينَ لثَوابِها، وإنَّما هي رسمُ عُبوديّةٍ جرى بتوَجُّهِ المِنّةِ بلا عِلّةٍ.

فالسّائرُ إلى اللهِ لا يرى شيئًا مِنْ أعمالِهِ، اتِّهامًا لنفْسِهِ بعَدَمِ كمالِهِ، والواصِلُ غائبٌ بشُهودِهِ حتَّى عنْ نفسِهِ، لا يشْهَدُ السِّوى، وذلكَ غايةُ قُدُسِهِ، فقدْ أسبَغَ نِعمَهُ على الفَريقيْنِ، لكِنَّ الثّاني أعلى، فلا تصفو لكَ المآرِب، حتَّى تكون عنِ الأعمالِ غائب.

فمنْ لم يرَ شيئًا مِنْ أعمالِهِ فقدِ استَعدَّ لكَمالِهِ؛ كما بيَّنَ ذلكَ الواسِطيُّ بقولِهِ لأصحابِ أبي عُثمانَ: "بما كانَ يأمُرُكُمْ؟" قالُوا: بالطّاعةِ ورؤيةِ التَّقصيرِ فيها، قالَ: "أمرَكُمْ بالمجوسيّةِ المحضةِ، هلا أمرَكُمْ بالغيْبةِ عنها بشُهودِ مُجريها ومُنشِئها".

قالَ التُّونسيُّ: "هذا القطعُ، الذي قطعَ بهِ أهلَ السَّيرِ لهُ وأهلَ الوُصولِ إليهِ، عينُ الوصْلِ؛ لأنَّهُ رحيمٌ بمنْ توجَّهَ إليهِ وطلبَ منْهُ الوِصالَ في حضرةِ الاتِّصالِ المُطهَّرةِ مِنْ عِلّةِ النُّفوسِ، كيفَ وهيَ حضرةُ القُدّوسِ؟! انظُرْ كيفَ شهِدَ للسّائرِ أنَّهُ غيرُ صادِقٍ في أعمالِهِ إذا نسبَها إليهِ، وكيْفَ غيَّبَ الواصِلَ عنها شفقةً عليْهِ، وكشَفَ للسّائرِ عنْ عِللِ أعْمالِهِ، وغيَّبَ الواصِلَ عنْ سَنيِّ أحوالِهِ، وفي هذا فتحُ بابِ الفَناءِ الأوَّلِ، وبابِ الفَناءِ الثّاني، فإذا صحَّ الأوَّلُ دخلَ إلى حضرةِ الثّاني، فإذا صحَّ دخلَ إلى حضرةِ البَقاءِ، فحضرَ بعدَ الغيْبةِ، وفرَّقَ بعدَ الجمْعِ، ولا يصِحُّ المقامُ الأوَّلُ حتَّى يرى أفعالَهُ كُلَّها رياءً وأحوالَهُ دعاوًى، ولا الثّاني حتَّى يغيبَ عنْ أحوالِهِ غيبةً لا يرى فيها غيرَ مُجريها".

فَصْلٌ: مَنِ انْقطَعَ عنْ أعمالِهِ وأحوالِهِ، فلينقطِعْ عنْ أطماعِهِ وآمالِهِ مُتوجِّهًا للحَقائقِ، تارِكًا للطَّمعِ في الخلائقِ، وذلكَ ممّا أفادهُ في مُفتَتحِ الرُّبعِ الثّاني[1] مِنَ الكِتابِ بقولِهِ:

(١) اقتصر العلامة المناوي على هذه الإشارة التي تفيد تقسيمه لنص الحكم إلى أربعة أقسام، ولم يرد فيما يلي أي إشارة تبين هذا التقسيم.

٦٠. ما بسَقَتْ أغصانُ ذُلٍّ إلّا عنْ بِذْرِ طمَعٍ.

(ما بسَقَتْ) أي طالتْ **(أغصانُ ذُلٍّ إلّا عنْ بِذْرِ طمَعٍ)** فمنْ نبتَ طمعُهُ طالَ ذُلُّهُ، والطَّمعُ مِنْ آفاتِ النُّفوس، وصاحِبُهُ أبدًا في عُكوس، مَنْ طمِعَ طالَتْ أغْصانُ ذُلِّه، ومَنْ علَّقَ قلبَهُ بالخَلْقِ فذلِكَ لجهْلِه، مَنْ طمعَ فقدْ ذلّ، وعميَ فؤادُهُ واعتَلّ، الطَّمعُ يكْشِفُ نورَ الإيمان، ويكشِفُ قدْرَ الهِمّةِ وغايتُه الحِرمان، فمَنْ أفردَ الحقَّ بالطَّلَب، وأعرضَ عَنِ الخلْقِ وعنْ كُلِّ سَبَب، فهو الحازِمُ على التَّحقيق، الفائزُ بحظِّه مِنَ التَّوفيق.

هذا ومِنَ النّاسِ مَنْ يستَطيبُ رُكوبَ الأخطارِ وورودَ التَّيّارِ ولُحوقَ العارِ والشَّنار؛ لأجلِ الطَّمعِ في الدِّرهَم والدّينار، ويستلِذُّ سفَّ الرَّمادِ ونقلَ السِّمادِ وطيَّ البِلادِ، ويصبِرُ على نحْتِ الجبالِ ونتفِ السِّبال[1] طمعًا في شهوةِ المال، وربُّما بدَّلَ بالإيمانِ الكُفْر، وحفرَ الجبالَ بالظُّفْر، طمعًا في الدَّنانيرِ الصُّفْر، وولجَ ماضِغَيْ الأسْود، للدَّراهِمَ البيضِ والسُّود، لا يكْرَهُ صُداعًا إذا نالَ كُراعًا، يلقى النَّوائِبَ بقلبِ صابرٍ في هوَى الشَّيخِ أبي جابر[2]، يأبى العِزَّ طبيعةً ويرى الذُّلَّ شريعةً، وإنْ أُعطيَ دِرهمًا رأى مَرْهمًا.

واللَّبيبُ مَنْ يختارُ العَفاف، ويعافُ الطَّمعَ والإسفاف، يترُكُ الطَّعامَ طاويًا، ويذرُ الشَّرابَ صاديًا، ويرى المالَ رائحًا وغاديًا، يدعُ الدُّنيا لطُلّابِها، ويطرحُ الجيفةَ لِكلابِها، يكرهُ المنَّ والأذَى، ويعافُ على القذى، إنْ أثْرَى جعلَ موجودَهُ معدومًا، وإنْ أقوَى حسبَ قَفارَهُ[3] مأدومًا، جوفٌ خالٍ وثوبٌ بالٍ ومجدٌ عال، وراءَهُ عِزٌّ وجمال، وناهيكَ بذاكَ تيهًا وإجلالًا، هكذا هكذا، وإلّا فلا لا.

هذا وقد استَعارَ المؤلِّفُ البِذْرَ للطَّمعِ لأنَّهُ أصلُ الذُّلِّ، والذُّلُّ غُصنُهُ لأنَّه فرعُهُ، وطولُهُ

(١) السَّبَلَةُ: الشارب، والجمع السِّبَالُ. [الصحاح في اللغة]
(٢) أبو جابر: كنية الخبز عند العرب، وجابرُ بنُ حَبَّة اسم للخبز أيضا. [لسان العرب]
(٣) القَفارُ بالفتح: الخبز بلا أُدْمٍ. يقال: أكل خبزه قَفار. [الصحاح في اللغة]

باتِّصالِه واتِّساعِه، فالمعْنى: مَنْ طمِعَ ذلَّ على قدرِ طمَعِه؛ لأنَّ الطَّمَعَ في شيءٍ إنَّما ينشأُ عنْ محبَّتِه، ومنْ أحَبَّ شيئًا عبَدَهُ وذلَّ لهُ بقدرِ محبَّتِه فيه. قالَ الداراني[1]: "لو قيلَ للطَّمعِ: مَنْ أبوكَ؟ قالَ: الشَّكُّ في المقْدورِ، ولو قيلَ: ما حِرفَتُكَ؟ قالَ: كسبُ الذُّلِّ، ولو قيلَ: ما غايَتُكَ؟ قالَ: الحِرمانُ". وقالَ المَرسي: "الطَّمعُ حُروفُهُ مجوَّفةٌ، فصاحِبُهُ لا يشبَعُ أبدًا، ويابِسةٌ خاويةٌ، فالمُتعلِّقُ بهِ كذلِكَ".

وعِلاجُ قلعِ شجَرةِ الطمَعَ مِنْ أرضِ الطَّبعِ باليأسِ ممّا في أيدي النّاسِ، وكُلُّ إنسانٍ قُدِّرَ لهُ رِزقُهُ في الأزَلِ مِنْ عاجلٍ وآجِلٍ، ولا ينالُهُ غيرُ ما قُسِمَ، فمَنْ تيقَّنَ هذا انقَطعَ عنْهُ موادُّ الطَّمعِ، واستَراحَ مِنَ الذُّلِّ للخلْقِ، وعاشَ عزيزًا مُطمَئِنًا لا تزْعِجُهُ رياحُ الأملِ؛ لاعْتِمادِهِ ما في الأزَلِ، وبهِ يزكو وصفُ إيمانِه، وتكونُ لهُ العزَّةُ المُستَفادةُ مِنْ رازِقِ العبادِ، المُحلَّى بها سيِّدُ الأعِزّاءِ ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فلا يُهِنْ وصْفَ عِزَّتِكَ بذْلُ مَاءِ وجْهِكَ للخلقِ بذِلَّتِكَ، وعلامةُ مَنْ هذا حالُهُ تعلُّقُهُ بوعْدِ الأماني في كُلِّ قاصٍ ودانٍ.

قالَ أبو عُثمانَ: "خرجْتُ مِنْ بغْدادَ أريدُ الموصَلَ، فبينا أنا أسيرُ إذا بالدُّنْيا عرَضَتْ عليَّ عزَّها وجاهها، فأعرَضْتُ عنْها، فعرَضَتْ عليَّ الجنّةُ حورَها وقُصورَها، فلم أحتَفِلْ بها، فقيلَ لي: لو وقفْتَ معَ الأولى حجبْناكَ عنِ الثّانيةِ، أو معَ الثّانيةِ حجبْناكَ عنّا، فها نحنُ لكَ، وقِسطُكَ مِنَ الدّارَيْنِ يأتيكَ".

ولا توَلَّدَ طمعٌ قط إلّا مِنْ وهمٍ، [فلذلكَ قالَ:]

٦١. ما قادَكَ شيءٌ مِثْلُ الوهْمِ.

(**ما قادَكَ**) يا ذا النَّفسِ النّاقِصةِ (**شيءٌ**) إلّا القَضايا الباطِلةُ الوهميّةُ، (**مِثْلُ الوهْمِ**) أي:

(١) الإمام عبد الرحمن بن أحمد بن عطية، أبو سليمان الداراني، جالس سفيان الثوري، وغيره، وكان من كبار الصالحين، وله حكايات كثيرة يرويها عنه أحمد بن أبي الحواري، توفي سنة ٢١٥. طبقات الصوفية للسلمي (ص ٧٤)، حلية الأولياء (٩/٢٥٤) تاريخ بغداد (١٠/٢٤٧).

خطَراتِ القلْبِ والتَّخيُّلِ والحُسْبانِ، فما قادَكَ إلى المطامِعِ سِوَى أوهامِكَ القَواطِعِ، وما أوقفَكَ معَ الوهْمِ إلّا ضَعْفُ الفهْمِ، الوَهْمُ ليسَ بشيءٍ على التَّحقيقِ، وإنّما هو خيالٌ يرُدُّهُ التَّوفيقِ.

وحقيقَتُهُ: قوّةٌ باطِنةٌ محلٌّ للخيارِ الفِكريِّ، يختَصُّ بأقواها الإنسانُ، وبأضعَفِها بلا فِكرٍ الحيَوانُ، ومحلُّهُ: في نِهايةِ التَّجويفِ الأوسَطِ مِنَ الدِّماغِ، وبه تُدركُ المعاني، فأكثرُ النُّفوسِ في شراكِهِ؛ فإذا تخيَّلوا شيئًا أو ظنُّوهُ فعمِلوا عليهِ، تولَّدَ منهُ الطَّمَعُ، والدّاعي لهُ: توَهُّمُ النَّفعِ مِنَ المطْموعِ فيهِ، وبهِ تحصُلُ العُبوديّةُ لهُ، فمنْ غلبَهُ الوهْمُ نسيَ ما يجُرُّ إليهِ الطَّمَعُ مِنْ نقصٍ ودناءةٍ.

والوهمُ أعظَمُ قاطِعٍ وأكثَفُ حِجابٍ، بينَ العبْدِ وحضرةِ الاقترابِ، وزوالُهُ مِنْ أعظَمِ المُهمّاتِ، فيهِ يطيبُ العيْشُ الدُّنيَويّ، وينكَشِفُ الحِجابُ الأُخْرَويّ، إذ ما دامَ الوهْمُ غالبًا، خِفْتَ زيدًا ورجَوْتَ عمراً، أو حُجبْتَ عَنِ اللهِ برؤيةِ الأغْيارِ، وأعمَتْكَ ظُلَمُ الآثارِ، فلم ترَ نوراً مِنَ الأنوارِ، فوقعْتَ في الشِّركِ الخَفيِّ؛ ففِرْ إلى اللهِ فِرارَ الصّادِقِ الصِّدّيقِ، يدُلُّكَ على منْهجِ الطَّريقِ.

هذهِ آفةُ الوهْمِ الدُّنيَويّةُ، أمّا الأُخْرَويّةُ: فيكثُرُ لكَ الخَيالُ ويقولُ أينَ أنْتَ، وأينَ الرِّجالُ؟ فتُظلِمُ عليْكَ الطَّريقَ، ويصُدُّكَ عَنِ التَّحقيقِ؛ فإنْ لاحَ لكَ بارقُ عِنايةٍ، أرشَدَ إلى الهِدايةِ، فرأيْتَ صورَتَهُ المعنَويّةَ في أقبَحِ شكْلٍ مِنَ الأشْكالِ؛ فإنّها صورةُ الشَّكِّ والإشْكالِ، فتنْفِرَ منهُ نُفورَ الطِّباعِ السَّليمةِ مِنَ الصِّفاتِ الذَّميمةِ، فعِنْدَ زوالِهِ تشْهدُ غمامًا تقشَّعَ عنْ شمْسِ إنسانيَّتِكَ الآدَميّةِ، فترى بنورِ هذهِ الشَّمسِ ما لا يدْخُلُ دائرةَ التَّعبيرِ مِنَ الأسرارِ الرَّبّانيّةِ.

وعِلاجُهُ بمُخالَفةِ الطِّباعِ النّاقصةِ والعَوائِدِ الرَّديّةِ، والتَّأدُّبِ بآدابِ أهلِ الكَمالِ، وخدمَتِهِمْ، وبرؤيةِ أنْ لا فاعِلَ إلّا اللهُ فيما قلَّ وجلَّ، فإذا دُمتَ على صقالِ مرآةِ قلْبِكَ بأنْواعِ المُجاهَدةِ، أبصَرْتَ أنْوارَ المُشاهَدةِ، فأماتَتْ أصنامَ الأوْهامِ وأحيَتْكَ، فكُنْتَ عبْدَ ربِّكَ على الدَّوامِ.

ولا تكُنْ عبْدًا لهُ حتَّى تتحرَّرَ باليأسِ مِنَ الأغيارِ، كما قالَ:

***

٦٢. أنْتَ حُرٌّ ممّا أنْتَ عنهُ آيِسٌ، وعبْدٌ لما أنْتَ لهُ طامِع.

(أنْتَ حُرٌّ ممّا أنْتَ عنهُ آيِسٌ) لأنَّكَ مُعرِضٌ عنهُ، فليسَ لهُ شيءٌ مِنْ وُجودِكَ ولا بينَكُما تعَلُّقٌ، إذِ اليأسُ آيةُ فراغِ القلْبِ مِنهُ وغناؤهُ عنهُ، وذلِكَ حُرّيّةٌ مِنْهُ، **(وعبْدٌ لما أنْتَ لهُ طامِعٌ)** لأنَّهُ آخِذٌ بقلْبِكَ فأنْتَ لهُ بكُلِّكَ، وعليهِ قيل:

العبْدُ حُرٌّ ما قنَعَ * والحُرُّ عبْدٌ ما طمعَ[1]

ولا يرضى بالعُبوديّةِ لمخْلوقٍ إلّا أرذلُ العالَمِ، وقيلَ: "السَّلامةُ في الدّينِ بتركِ الطَّمَعِ في المخْلوقينَ"، فمَنْ تفرَّغَ قلبُهُ مِنَ الأشْياءِ فقدْ تحرَّر، ومَنْ طمِعَ فيها فهو في رِقِّها تقرَّر، بالطَّمعِ سقطَ مِنْ عُلوِّ عِزّهِ العُقاب، وتشبَّكَ في حبائِلِ العَذاب؛ لأجلِ قِطعةِ لحمٍ يأخُذُها بمِخْلبِه، فيَصيدُهُ صبيٌّ يلعَبُ به.

وقيلَ: "فسادُ الدّينِ الطَّمع، وصلاحُهُ الورع"، وقيلَ: "كثرةُ الحِرصِ والطَّمع، توجِبُ الغَمَّ والجزَع"، وقالَ المؤلِّفُ: "لو تطهَّرْ الطامِعُ في الخلْقِ بسبْعةِ أبْحُر، ما طهَّرَهُ إلّا اليأسُ مِنهُمْ"[2]؛ فعليْكَ برفْعِ الهِمّةِ عنهُمْ، فقدْ سبَقَتْ قِسمتُهُ وُجودَكَ، وتقدَّمَ ثُبوتُهُ ظُهورَكَ، وما قُدِّرَ لماضِغَيْكَ أنْ يمضُغاهُ، فلا بُدَّ مِنهُ، فكُلْهُ بعزٍّ ولا تأكُلْهُ بذُلٍّ. مرَّ بعضُ أعوانِ السُّلطانِ على بعضِ الحُكَماءِ يلتَقِطُ ما سقَطَ مِنَ البقْلِ يتَقوَّتُ بهِ، فقالَ: "لو خدمْتَ السُّلطانَ لم تحتَجْ"، فقالَ الحكيمُ: "وأنْتَ لو قنَعْتَ لم تحتَجْ للسُّلطانِ".

وقدْ وضعَ تعالى خمسةَ أشْياءَ في خمسةِ مواضِعَ: الغِنَى في القَناعةِ، والعزَّ في الطّاعةِ، والذُّلَّ في المعْصيةِ، والحِكمةَ في خُلوِّ الباطِنِ، والهيْبةَ في قيامِ اللَّيلِ.

(١) من شعر الإمام الشافعي: العبدُ حرٌّ إن قَنَعْ * والحرُّ عبدٌ إن طمع
فاقنعْ ولا تطمعْ فلا * شيءٌ يشينُ سوى الطمع

(٢) انظر: "التنوير في إسقاط التدبير" لابن عطاء الله، فصل: عوارض ترد في شأن الرزق، ص٢١٤، كشيدة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠١٧.

وقدْ أدمَجَ المؤلِّفُ [في] هذهِ الحِكمةِ مقامَ العُبوديّةِ ومقامَ الحُرِّيَةِ، وقدَّمَ الحُرّيَةَ لأنَّها تُخلِّصُ صاحِبَها مِنْ كُلِّ بَغيّةٍ، فلا يقعُ في شهوةٍ دنيّةٍ، تحوجَهُ للذُّلِّ، (تعِسَ عبدُ الدّينارِ، تعِسَ عبدُ الدِّرهَمِ)[(١)]، ومِنْ ثَمَّ ذهبَ كثيرٌ إلى أنَّهُ[(٢)] أشرَفُ مِنْ مقامِ العُبوديّةِ، لكِنْ ردَّهُ الجُمهورُ بأنَّهُ مُغالَطةٌ؛ إذ مقامُ العُبوديّةِ مَنْ كانَ عبدًا لربِّهِ حُرًّا مِنْ شهوَتِهِ، وأمّا عبدُ شهْوتِهِ، فأحقَرُ مِنْ أنْ يُذْكرَ بشيءٍ.

وحدُّ الحُرّيّةِ: الانطِلاقُ مِنْ رقِّ الأغيارِ، وهي مراتِبُ: حُرّيَةُ العامّةِ مِنَ الشَّهواتِ، والخاصّةِ مِنْ رقِّ المُراداتِ؛ لفَناءِ إراداتِهِمْ في إرادةِ الحقِّ، وخاصّةِ الخاصّةِ مِنْ رقِّ الرُّسومِ والآثارِ؛ لاصطِلامِهِمْ في تجلّي نورِ الأنْوارِ.

والعُبوديّةُ: تصحيحُ النِّسبةِ إلى اللهِ بصِدْقِ القصْدِ إليهِ في سُلوكِ طريقِهِ، فأينَ نِسبةُ العبْدِ إلى سيِّدِهِ مِنْ حالِ مَنْ برِئَ بانطلاقِهِ -أي: خَلاصِهِ- مِنْ رقِّ الآثارِ!! فمقامُ العُبوديّةِ لا يُقاسُ بِهِ، وهو أشْرفُ الأوصافِ، وإنَّما قدَّمَ المؤلِّفُ الحُرّيَةَ؛ لأنَّ بتحقيقِها يرتَقي لمقامِ العُبوديّةِ.

***

٦٣. منْ لم يُقبِلْ على اللهِ بمُلاطَفاتِ الإحْسانِ، قُيِّدَ إليْهِ بسلاسِلِ الامتِحانِ.

(منْ لم يُقبِلْ على اللهِ بمُلاطَفاتِ الإحْسانِ) أي إحسانِهِ الذي لاطفَهُ بهِ على مرِّ الزّمانِ، وموالاتِهِ الفضْلَ عليْهِ والامتِنانِ، بأنْ تكونَ نفسُهُ لئيمةً، (قُيِّدَ إليْهِ) كرهًا (بسلاسِلِ الامتِحانِ) مِنْ وُقوعِ المُلِمّاتِ في الأموالِ والأبدانِ، وعدمِ الإسعافِ بمُرادِهِ، والذُّلِّ فيما يؤمِّلُهُ حتَّى لأهلِ وُدادِهِ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٨٨٧)، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) أي: مقام الحرية.

فهوَ يُريدُ منكَ أنْ لا تلهى، وأنْ ترجعَ إليهِ طوعًا أو كرهًا؛ فالنُّفوسُ الكريمةُ تُقبلُ عليهِ لإحسانِه، واللَّئيمةُ لا ترجِعُ إليهِ إلّا ببَلائِهِ وامتِحانِه، فمنْ لم يُفرِدْ وجْهَهُ لمولاهُ، تسلَّطَ عليْهِ بَلاهُ؛ ليعودَ إليْهِ كرهًا إنْ لمْ يرجِعْ طوعا، سُنّةُ اللهِ في عِبادِهِ؛ فإن تأبَّى قادَهُ بالبأساءِ والضَّرّاءِ؛ فالنَّفسُ الكَريمةُ تُجيبُ دعوةَ ربِّها بالإكرامِ والإحسانِ، واللَّئيمةُ لا ترجِعُ إليْهِ إلّا بأغلالِ الامتِحانِ.

فالنّاسُ في التَّوجُّهِ إلى اللهِ نوعانِ: نوعٌ عبيدُ اللُّطْفِ والنِّعَمِ، فكُلَّما رأوا إحسانًا أطاعُوهُ، ونوعٌ لا يُقبِلون عليهِ إلّا بزَوالِ النِّعَمِ وتوالي النِّقَمِ، وهو الغالِبُ على أخلاقِ العَوامِّ، وعادتُهُ تعالى أنْ يدعوَ عبدَهُ بطَوائِفِ النِّعمِ، وطرائِفِ الكَرَمِ؛ ليكون يومُ قُدومِهِ عليْهِ يومَ عيدٍ، فإنْ تمرَّدَ جعلَ سِلسِلةَ الامتِحانِ في عنُقِهِ، فشَغَلهُ عنْ كُلِّ ما يرومُ ويُحاوِلُ، (عجِبَ ربُّكَ مِنْ قومٍ يُقادون إلى الجنّةِ بالسَّلاسِلِ)[1]، أي عجِبَ كيْفَ لم يُقبِلوا بمُلاطَفاتِ الإحسانِ حتَّى قُيِّدوا بأغلالِ الامتِحانِ؟!

***

٦٤. مَنْ لَمْ يشكُرِ النِّعمةَ فقدْ تعرَّضَ لزَوالِها، ومَنْ شكَرها فقدْ قيَّدَها بعِقالِها.

(**مَنْ لَمْ يشكُرِ النِّعمةَ فقدْ تعرَّضَ لزَوالِها**) مِنْ حيثُ يعلمُ أو لا يعلَمُ، (**ومَنْ شكَرها فقدْ قيَّدَها بعِقالِها**) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، فشُكْرُ النِّعمةِ ضامِنٌ لحِفْظِها عَنِ الزَّوالِ وتغَيُّرِ الحالِ بالانتِقالِ، وزيادَتِها واتِّصالِهِ بمولاهُ؛ وعدمُهُ ضامِنٌ للسَّلْبِ ومقْتِ الرَّبِّ.

والشُّكْرُ فِعلٌ يُنبئُ عنْ تعظيمِ المَنّانِ، هبْهُ ثناءً باللِّسانِ أو محبةً بالجنانِ أو خِدمةً بالأرْكانِ،

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٠١٠)، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: "عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل".

فمتى شكَرَ النِّعمَ باستِعْمالِها فيما لأجلِهِ أنْعَمَ، فقد تعرَّضَ للمزيدِ، وكانَ مِنْ خُلاصةِ العَبيدِ، ومتى كفرَها بضِدِّ ذلِكَ، فما أقربَ زَوالَها، بلْ ربَّما كانَ هالِكًا، وقد أجمعَ حُكَماءُ العرَبِ والعجَمِ على أنَّ الشُّكرَ قيْدُ النِّعَمِ، وما أحسَنَ قولَ الحَكيمِ المسعودِ: "الشُّكْرُ قيدُ الموجودِ وصيْدُ المفقودِ".

ثُمَّ إنْ غِبْتَ عَنِ الشُّكْرِ برُؤيةِ المُنعِمِ، غارِقًا في صِفاتِ الجَلالِ والجَمالِ، بلغْتَ غايةَ الشُّكْرِ، وصِرْتَ مِنْ أهلِ الكَمالِ، ومَنْ ذلِكَ شأنُهُ، عظُمَتِ النِّعْمةُ عِنْدَهُ وإنْ قلَّتْ؛ لأنَّها عِندَهُ لعِظَمِ المُنعِمِ قدْ جلَّتْ.

ثُمَّ زوالُ النِّعَمِ، قدْ يكونُ جليًّا وهوَ السَّلبُ، وخفيًّا وهوَ الاستِدْراجُ، وهوَ يُحذَرُ أكثرَ لغُموضِهِ، فلذلِكَ قالَ:

***

٦٥. خَفْ مِنْ وُجودِ إحسانِهِ إلَيْكَ ودَوامِ إساءتِكَ معَهُ، أنْ يكونَ ذلِكَ استِدْراجًا ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

(**خَفْ مِنْ وُجودِ إحسانِهِ إلَيْكَ ودَوامِ إساءتِكَ معَهُ، أنْ يكونَ ذلِكَ استِدْراجًا**) لتقِفَ معَها وتغترَّ بها، فتفرَحَ بما أوتيتَ، فتُؤخَذَ بغتةً، فمَنْ ظنَّ بالإحْسانِ إليْهِ -وهوَ مُسيءٌ- أنَّهُ على شيءٍ، فهوَ مُستَدرَجٌ قطعًا؛ لأنَّهُ مِنَ المكْرِ الخَفيِّ، وإذا كانَ كُفرانُ النِّعَمِ مُؤذِنًا بالزَّوالِ، فإبقاؤها معَهُ آيةُ الاستِدراجِ والإضْلالِ؛ ولهذا كانَ خوفُ ذلِكَ مِنْ صِفاتِ المؤمِنينَ، وعدَمُهُ مِنْ سِماتِ المُنافقينَ.

قالَ السَّريُّ السَّقَطي: "أنا أنظُرُ إلى أنفي كُلَّ يوْمٍ مراتٍ مخافةَ أنْ يكونَ اسودَّ، خوفًا مِنَ اللهِ أنْ سوَّدَ صورتي لِما أتَعاطاه"، أي مِنَ التَّقصيرِ في كمالِ تعظيمِ الحقِّ -تقدَّسَ-، لا مِنَ المعاصي؛ لأنَّهُ كانَ مُبرأً عنها.

والاستدراجُ في النِّعمةِ يبعَثُ على التَّشميرِ لشُكْرِها، والرُّجوعِ إليْه تعالى فيها وبها؛ إذِ الاستِدراجُ كُمونُ المِنّةِ في عيْنِ النِّعمةِ، أو تواتُرُ المِنّةِ بغيْرِ خوفِ فِتنة، أو انتِشارُ الذِّكرِ دون خوفِ مكرٍ، أو ظاهِرٌ مضبوطٌ وسِرٌّ بالأغيارِ منوطٌ، مِنْ "دَرَجَ الصَّبيُّ": مشى شيئًا فشيئًا، وهوَ لا يشعُرُ.

قالَ تعالَى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمونَ﴾ أنَّهُ استِدْراجٌ، فيُلقى في وهمِهِمْ أنَّهُمْ على شيءٍ، وليسوا كذلكَ. قالَ سهلٌ: "معنى الآيةِ: نُمِدُّهُمْ بالنِّعمِ ونُنْسيهِم الشُّكْرَ، حتَّى إذا رَكَنوا إليْها وحُجِبوا عَنِ المُنْعِمِ أُخِذوا، أو: كُلَّما جدَّدوا ذنْبًا جدَّدْنا نعمةً وأنسَيْناهُمُ الاسْتِغفارَ"، وفي حديثٍ: (إذا رأيْتَ اللهَ يُعطي العبْدَ مِنَ الدُّنْيا ما يُحِبُّ وهوَ مُقيمٌ على مَعاصيه؛ فإنَّما ذلِكَ مِنْهُ استِدراجٌ)، رواهُ أحمدُ وغيرُهُ عَنْ عُقبةَ بنِ عامِرٍ[1].

قالَ الشّاذلي: "قيلَ لي يا عليُّ: لا تأمَنْ مكري وإنْ أمَّنْتُكَ؛ فإنَّ علمي لا يُحيطُ بِهِ مُحيطٌ"، وقالَ الجيلاني[2]: "أعطاني الحقُّ أربَعينَ عهْدًا، أو ميثاقًا، أنه لا يمكُرُ بي، ومعَ ذلِكَ فأنا غيرُ آمِنٍ مِنْ مكْرِهِ، لعِلْمي بسِعةِ إطلاقِه، وأنَّ لهُ أنْ يفعلَ ما يشاءُ". وسُئِلَ بعضُهُمْ: "هل يدخُلُ الوِلايةَ استِدراجٌ؟" فقالَ: "نعَمْ؛ لأنَّ الحقَّ يتنزَّلُ لعِبادِه رحمةً بِهِمْ ليأخُذوا عنْهُ أحكامَهُ، وذلكَ التَّنزُّلُ فيهِ مكرٌ خفيٌّ؛ فإنَّ العبْدَ متى حَمَلَ التَّنزُّلَ على صورةِ ما علِمَهُ مِنْ أحوالِ الخلْقِ هلَكَ، فيَقْبلُ ذلكَ معَ اعتِقادِهِ مُغايَرَةَ صِفاتِهِ لِصفاتِ الحقِّ حذرًا مِنَ المكْرِ".

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٧٣١١)، والزهد (٦٣)، والروياني في مسنده (٢٦٠)، والطبراني في الأوسط واللفظ له (٩٢٧٢)، وغيرهم.

(٢) سلطان المشايخ وسيد أهل الطريقة في وقته، محيي الدين أبو محمد عبد القادر ابن أبي صالح بن عبدالله ابن جنكي دوست الجيلي، صاحب المقامات والكرامات وشيخ الحنابلة، ولد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بجيلان سنة ٤٧١، وقدم بغداد شابًّا، وتفقَّه على القاضي أبي سعد، وسمع الحديث، وكان يأكل من عمل يده، وحصل له القبول التام من الناس، واعتقدوا ديانته وصلاحه، وانتفعوا به وبكلامه ووعظه، وانتصر أهل السنة بظهوره، واشتهرت أحواله وأقواله وكراماته ومكاشفاته، وهابه الملوك فمن دونهم، له كتب، منها: الغنية لطالب طريق الحق، والفتح الرباني، وفتوح الغيب، وتحفة المتقين وسبيل العارفين، وغيرها، وهو مؤسس الطريقة القادرية، تُوفِّي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ببغداد في ليلة السبت عاشر ربيع الآخر سنة ٥٦١. انظر: تاريخ بغداد (١٢٧/٢١)، وذيل طبقات الحنابلة (١٨٧/٢)، وسير أعلام النبلاء (٤٣٩/٢٠).

وكانَ برشيدٍ رجُلٌ مُقيمٌ بخُصٍّ بالسّاحِلِ قُوتُهُ صيْدُ السَّمَكِ، فرأى شابًّا يمشي على الماءِ مِنْ محلٍّ بعيدٍ، فعجبَ، فقرُبَ مِنْهُ فسلَّمَ عليْهِ باسْمِهِ، فأضافَه، فأخَذَ يعتُبُ نفسَهُ سِرًّا حيْثُ لم ينَلْ في شيْخوخَتِه ما نالَ صبيٌّ، فقالَ لهُ الشّابُّ: لا تعجَبْ! الشَّأنُ في الخاتمةِ، أخبَرني والدي أنَّهُ رأى سبعينَ رجُلًا ممَّنْ حصلَ لهُ هذا المقامُ، ثُمَّ مُكِرَ بهِ عِنْدَ الموتِ، وكانَ ذلكَ استِدْراجًا.

ولمّا نظرَ إلى ذلكَ العارفون اشْتدَّ خوفُهُمْ جدًّا، ولولا لُطْفُ اللهِ بهِمْ، بما فرَّحَ قُلوبَهُمْ مِنْ رُوحِ الرَّجاءِ، لاحترَقَتْ أكْبادُهُمْ مِنْ نارِ الخوْفِ، التي سعَّرَها بما أظْهَرَهُ مِنْ نَواميسِ قهْرِهِ وعدْلِهِ، التي لو انكَشَفَتْ حقائِقُها لزَهَقَتِ النُّفوسُ وتقَطَّعَتِ القُلوب.

وكانَ أبو الدَّرداءِ[1] يحلِفُ باللهِ أنَّ منْ أمِنَ السَّلبَ عِنْدَ موْتِهِ، سُلِبَ جزاءً لأمْنِهِ مكْرَ اللهِ.

وقالَ ابنُ مهْديٍّ[2]: لَمّا اشتَدَّ بسُفيانَ الثَّوريِّ[3] الوَجَعُ جعلَ يبكي، فقيلَ لهُ: أتُراكَ كثيرَ الذُّنوبِ؟ فرفَعَ رأسَهُ شِبْرًا مِنَ الأرْضِ، وقال: واللهِ لذُنوبي أهْوَنُ عِنْدي مِنْ هذا، إنّي أخافُ أنْ أُسْلَبَ الإيمانَ قبْلَ الموْتِ".

(١) حكيم الأُمَّة الصحابيُّ الجليل عويمر بن ثعلبة من بني الحارث بن الخزرج أسلم يوم بدر، وشهد أحدًا وأبلى فيها، وولّاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب، وهو أول قاض بها، وهو أحد الذين جمعوا القرآن حفظًا على عهد النبي ﷺ بلا خلاف، واختلف في سنة وفاته، والأصح عند أهل الحديث أنه مات في خلافة عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سنة ٣٢. الاستيعاب لابن عبد البر (١٢٢٧/٣)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٦٢١/٤).

(٢) سيد الحفاظ أبو سعيد عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري البصري اللؤلؤي، وُلد سنة ١٣٥، قال الشافعيُّ: "لا أعرف له نظيرًا في هذا الشأن"، وقال أحمد بن حنبل: "كأنَّ عبد الرحمن بن مهدي خُلق للحديث"، تُوفِّي سنة ١٩٨. "حلية الأولياء" (٣/٩)، و"تاريخ بغداد" (٢٩٣/١٠)، و"سير أعلام النبلاء" (٥٨٩/٧).

(٣) إمام الحفَّاظ أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، ولد سنة ٩٧ في خلافة سليمان ابن عبد الملك، وكان ثقةً مأمونًا ثبتًا كثير الحديث حُجَّةً، روى عن أبيه وزياد بن علاقة وحبيب بن أبي ثابت وأيوب وجعفر الصادق وخلق، وعنه ابن المبارك ويحيى القطان وخلق، قال شعبة وغير واحد: سفيان أمير المؤمنين في الحديث. له من الكتب "الجامع الكبير" و"الجامع الصغير" كلاهما في الحديث، وكتاب في الفرائض، وكان آية في الحفظ، من كلامه: "ما حفظت شيئًا فنسيته"، ولابن الجوزي كتابٌ في مناقبه، واختصره الحافظ الذهبي، تُوفِّي بالبصرة في خلافة المهدي في شعبان سنة ١٦١. انظر: "التاريخ الكبير" للبخاريِّ (٩٢/٤)، و"الطبقات الكبرى" لابن سعدٍ (٣٧١/٦)، و"حلية الأولياء" (٣٥٦/٦).

ورويَ أنَّ بعضَ الأنْبياءِ شكَى إلى اللهِ الجوعَ والعُريَ، فأوحَى إليْهِ: "أما رضيتَ أنْ عصَمْتُ قلبَكَ عنْ أنْ يكفُرَ بي حتَّى تسألَني الدُّنْيا؟" فوضعَ التُّرابَ على رأسِهِ وقالَ: "بلى يا ربُّ".

فإذا كانَ هذا الخوفُ للعارفِينَ معَ رُسوخِ أقدامِهِمْ وقوّةِ إيمانِهِمْ، فكيْفَ بالضُّعَفاءِ؟!"

تنْبيهٌ: قالَ ابنُ اللَّبّانِ[1] وارثُ ياقوتَ العرَشيِّ[2] في حديثٍ:

"إنَّ خوْفَ سوءِ الخاتِمَةِ مخصوصٌ بأعْمالِ أهْلِ الجنّةِ، أمّا أهلُ الإخلاصِ لأعمالِ التَّوحيدِ، فلا يُخشَى عليهِمْ سوءُ الخاتِمةِ لخبرِ: (إنَّ أحدَكُم ليعْمَلُ بعمَلِ أهْلِ الجنّةِ، حتَّى ما يكونُ بينَهُ وبينَها ...) الحديثُ[3]، فأفهمَ بهِ أنَّ المُتقرِّبَ مُتقرِّبانِ: مُتقَرِّبٌ إلى الجنّةِ بأعْمالِها، ومُتقَرِّبٌ إلى اللهِ بذِكْرِهِ، كما ثبتَ في الصَّحيحِ: (أنا معَ عبْدي إذا ذكَرني) إلى قولِهِ: (وإذا تقرَّبَ إليَّ ذراعًا تقرَّبْتُ إليْهِ باعًا)[4]، وذلكَ يُفْهِمُ أنَّ المُتقرِّبَ إلى اللهِ لا يبقَى بينَهُ وبيْنَ اللهِ ذراعٌ؛ لأنَّ ذلكَ الذِّراعَ إنْ كانَ التقرُّبُ بهِ مطلوبًا مِنَ العبْدِ لم يبْقَ بعدَهُ قدرٌ يتَقرَّبُ اللهُ به إليْهِ، وإنْ كانَ موعودًا بهِ مِنَ اللهِ، لزمَ تنجيزُ وعْدِهِ، وتحقَّقَ القُربُ للعَبْدِ، فلا يبقَى بُعْدٌ ولا دُخولٌ إلى النّارِ، فعُلِمَ أنَّ ذلكَ الذِّراعَ مخصوصٌ بأهْلِ القُربِ إلى الجنّةِ، التي لا يلزَمُ أنْ يقربَ مِمَّنْ يقربُ إليها"[5].

***

---

(١) شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد المؤمن الدمشقي نزيل القاهرة المعروف بابن اللبان، ذو المؤلفات ومجالس التذكير، من كتبه: ألفية في النحو، وردّ معاني الآيات المتشابهات إلى معاني الآيات المحكمات في التفسير، وإزالة الشبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات، وتكلم على الناس على طريق الشاذلية فطار له بذلك صيت عظيم، ولكنه ضبطت عليه كلمات على طريق الاتحادية فقام عليه الفقهاء، توفي سنة ٧٤٩. طبقات الأولياء لابن الملقن (ص٩٢)، والدرر الكامنة لابن حجر (٦٠/٥).

(٢) ياقوت بن عبد الله الحبشي الشاذلي، المشهور بياقوت العرشي، أجل تلامذة العارف المرسي، وأخذ عنه ابن عطاء وغيره، نقل عنه العثماني ابن قاضي صفد أنه قال: أنا أعلم الخلق بلا إله إلا الله، توفي سنة ٧٠٧، وذكر ابن حجر في الدرر الكامنة أنه توفي سنة ٧٣٢. الدرر الكامنة لابن حجر (١٧٥/٦)، الطبقات الكبرى للشعراني (١٨/٢)، الكواكب الدرية للمناوي (٧١/٣).

(٣) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٣٣٢)، ومسلمٌ (٢٦٤٣)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) تقدم تخريجه عند قوله: "أنا عند ظن عبدي بي ".

(٥) العبارة كاملة ذكرها السبكي في ترجمته لابن اللبان في طبقات الشافعية الكبرى.

٦٦. مِنْ جهْلِ المُريدِ أنْ يُسيءَ الأدَبَ فتُؤخَّرَ العُقوبةُ عنْهُ، فيقولَ لوْ كانَ هذا سوءَ أدَبٍ لقطَعَ الإمْدادَ وأوْجَبَ البِعادَ، فقدْ يُقطَعُ عنهُ المددُ مِنْ حيْثُ لا يشعُرُ، ولو لم يكُنْ إلّا فقْدُ المزيدِ، وقدْ يُقامُ مقامَ البُعْدِ مِنْ حيْثُ لا يدري، ولو لم يكُنْ إلّا أنْ يُخلّيكَ وما تُريدُ.

(**مِنْ جهْلِ المُريدِ**) بنفْسِهِ وبحقِّ ربِّهِ (**أنْ يُسيءَ الأدَبَ**) بنحوِ إظهارِ دعوى، أو تورُّطٍ في بلوى، ونحوِ ذلِكَ مِمّا يخافُ منْهُ الاستدراجُ، (**فتُؤخَّرَ العُقوبةُ عنْهُ**) إمهالًا، فيظُنَّهُ إهمالًا، (**فيقولَ: لوْ كانَ هذا سوءَ أدَبٍ، لقطَعَ الإمْدادَ وأوْجَبَ البِعادَ**) فيرضَى حالَهُ ويستَحسِنَ أعمالَهُ اعتبارًا بالظّاهِرِ، فيسْتَدِلَّ بعدَمِ تغيُّرِ عادةِ الحقِّ معَهُ على عدَمِ سوءِ أدَبِهِ، وما ذاكَ إلّا لضعْفِ نورِ بصيرَتِهِ أو فقْدِهِ؛ فإنَّ العُقوبةَ عُقوبَتانِ: ظاهِرةٌ عاجِلةٌ، وخفيّةٌ آجِلةٌ، وهذهِ أشَدُّ.

فإذا أساءَ المُريدُ الأدَبَ بإرخاءِ عَنانِ النَّفْسِ في نيْلِ الأرَبِ، فقدْ تعرَّضَ لعدَمِ المَزيدِ بلْ للعَطَبِ، ومتى ترَكَ أدَبَ الوقْتِ، فقدْ تعرَّضَ للبُعْدِ بلْ للمَقْتِ، فعليْهِ التَّدارُكُ بالتَّحفُّظِ في مقامِ الأدَبِ بالاحتياطِ أبَدًا، وتركِ التَّأويلِ سرْمَدًا، فبادِرْ إلى التَّوبةِ لتَطْهُرَ مِنَ التَّدنيسِ، وتكْتسِبَ أوصافَ التَّقديسِ، وتَنَقَّ مِنْ أوصافِكَ اللّئيمةِ الذَّميمةِ، وتخلَّقْ بأوْصافِهِ الحميدةِ المَجيدةِ.

قدْ رشَّحوكَ لأمرٍ إنْ فطِنْتَ لهُ * فاربأ بنفسِكَ أنْ ترعَى معَ الهمَلِ [(١)]

فإيّاكَ وتركَ التَّوبةِ مِنْ سوءِ الأدَبِ وغيْرِهِ، فعلامةُ الفَلاحِ اتِّباعُ طريقِ النَّجاحِ، فتأدَّبْ وكُنْ مِنَ التّائِبينَ، يخلَعَ عليْكَ خِلعةَ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

---

(١) من شعر مؤيد الدين الحسين بن علي بن عبدالصمد الطغرائي الأصبهاني (٤٥٤-٥١٥هـ)، صاحب ديوان الإنشاء للسلطان محمد بن ملكشاه، وقد ولي الوزارة بأربل مدة. كان من أفصح الفصحاء وأفضل الفضلاء وأمثل العلماء، ألف كتاب "مفاتيح الرحمة ومصابيح الحكمة"، وله ديوان شعر جيّد، ومن محاسن شعره قصيدته المعروفة بلامية العجم وكان عملها ببغداد في سنة خمس وخمسمائة يصف حاله ويشكو زمانه، وهي واحدة من أشهر القصائد في التراث الشعري الإسلامي. معجم الأدباء (١٠/٥٦-٧٩).

والآدابُ كُلُّها مُنحصرةٌ في خمسةٍ: حِفْظُ الحُرمةِ معَ اللهِ، ومَنْ لهُ نِسبةٌ إليهِ مِنْ نبيٍّ ووَليٍّ وعالمٍ وغيرِهِمْ، حتَّى العَوامِّ، وعُلوُّ الهمّةِ في أمرِ الدّارَيْنِ، حتَّى لا يتعلَّقَ بشيءٍ مِنَ النَّقائِصِ ظاهرًا ولا باطِنًا، وحُسْنُ الخِدمةِ بلُزومِ الاتِّباعِ وتركِ الابتِداعِ، والتَّبرُّؤِ مِنَ الحوْلِ والقوّةِ في أقلِّ أمْرٍ، ونُفوذُ العزيمةِ، بحيْثُ لا يسمَحُ لنفسِهِ بحِلِّ عزيمةٍ ولا بتَراخٍ في محلِّ تشميرٍ، ولا برُكونٍ لتقْصيرٍ، وشُكْرُ النِّعمةِ بشُهودِ المِنّةِ.

ولِكُلٍّ مِنْها مُعارِضٌ قادِحٌ، هو سوءُ الأدَبِ، ولهُ عُقوبةٌ مِنْ نوعِهِ تليقُ بفاعِلِهِ، فمِنْهُمْ مَنْ عُقوبَتُهُ بالعِقابِ، ومِنْهُمْ بالعِتابِ، ومِنْهُمْ بالحِجابِ، ومِنهُمْ بصَرْفِهِ عَنْ مواقِفِ الأحْبابِ.

قالَ الحدّادُ[1]: "التَّصوُّفُ كُلُّهُ أدَبٌ، لكُلِّ وقْتٍ أدَبٌ، ولكُلِّ حالٍ أدَبٌ، ولكُلِّ مقامٍ أدَبٌ، فمنْ ضيَّعَ شيئًا منها فهوَ بعيدٌ مِنْ حيْثُ يظُنُّ القُرْبَ، ومردودٌ مِنْ حيْثُ يظُنُّ القَبولَ".

وما أساءَ أحَدٌ الأدَبَ ظاهِرًا إلّا عوقِبَ ظاهِرًا، ولا باطِنًا إلّا عوقِبَ باطِنًا، وجهْلُ المُريدِ الذي ذكَرَهُ المُؤلِّفُ بثَلاثٍ: اغترارُهُ بظاهِرِ ما يجري عليْهِ مِنْ إمْدادِهِ بزعْمِهِ، وحُسْنُ ظنِّهِ بنَفسِهِ حالَ تصرُّفِهِ، ونصْرُ غلَطِها بفتْحِ بابِ التَّأويلِ، وذلكَ مِنَ الرِّضَى عنْها ونِسْيانِ خَوْفِ المكْرِ، إذ لا يتَوقَّفُ أمْرُ اللهِ فيهِ على عِلْمِهِ، كما بيَّنَهُ بقوْلِهِ:

(**فقدْ يُقطَعُ عنهُ المددُ مِنْ حيْثُ لا يشعُرُ**) بصرفِهِ عنِ التَّحقيقِ بما علِمَ إلى الاتِّساعِ في عِلمِهِ ومعارِفِهِ، وإبقائِهِ في حالِهِ معَ عدَمِ الشُّعورِ بنقْصِهِ، فلا تسمو همَّتُهُ لغيْرِ ما هوَ فيهِ، فيُحجَبُ عنْ أعلى مِنهُ، وبتيسيرِ مطالبِهِ مِنْ غيرِ تأييدٍ فيها بما يقعُ بِهِ زيادةُ حالِهِ، فيظُنُّهُ سعادةً، وهوَ طردٌ وإبعادٌ، كما قالَ:

(**ولو لم يكُنْ إلّا فقْدُ المزيدِ**) أي مزيدِ الإيمانِ بشَواهِدِ الإيقانِ ومُشاهدةِ العَيانِ، ومزيدِ العلمِ بجَلالِهِ على بِساطِ إجلالِهِ، ومزيدِ الإخلاصِ بأسبابِ الخَلاصِ، ومزيدِ الأعمالِ بحميدِ الخِصالِ،

(١) أبو حفص عمرو بن سلمة النيسابوري، صحب عليا النصراباذي ورافق أحمد بن خضرويه، وكان أحد الأئمة والسادة، وهو أول من أظهر طريق التصوف بنيسابور، وكان حدادا. توفي سنة ٢٦٤. طبقات السلمي (١٠٣/١)، وطبقات الأولياء لابن الملقن (٢٤٨/١).

ومزيدِ التَّوفيقِ بشَواهِدِ الطَّريقِ، ومزيدِ الأحوالِ بطرْدِ الاعتِلالِ، ومزيدِ الخيْراتِ بالتَّرقِّي في المقاماتِ، لكفى بِهِ قاطِعًا قطعًا، ومنْ لم يكُنْ في زيادةٍ فهوَ في نقصٍ عقلًا وسمعًا، وإنْ كانَ الدَّوامُ في الشَّيءِ زيادةً فيه، فللحقائقِ اعتِبارٌ خاصٌّ عِنْدَ أهلِ الاختِصاصِ.

(**وقدْ يُقامُ مقامَ البُعْدِ منْ حيْثُ لا يدري**) وعلامَتُهُ أنْ يسْكُنَ لعَمَلِه، ويقِفَ معَ ظاهِرِ حالِه، وبذلِكَ يتحَقَّقُ الاستِدراجُ، حتَّى يرى الشَّرَّ في محلِّ الخيْرِ وعكسِه، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، فإيّاكَ أنْ تأمنَ مكْرَ اللهِ وإنْ وصلْتَ إلى ما وصلْتَ، وكيْفَ يصِحُّ لعاقِلٍ أنْ يأمنَ سطَواتِ الحقِّ وانتِقامَهُ، وقلبُهُ بيْنَ إصبَعيْنِ مِنْ أصابِعِ الرَّحمنِ، أي بينَ إرادَتيْهِ تعالَى، السَّعادةِ لأقوامٍ والشَّقاوةِ لآخرينَ؛ فعليكَ بالالتِجاءِ إلى اللهِ في كُلِّ حالٍ، والحذرِ مِنْ نفسِكَ، والإعراضِ عَنِ الانتِصارِ لها، ورؤيَتِها بعيْنِ الازدِراءِ، فترى أنَّها أحقَرُ مِنْ كلبٍ وكافِرٍ؛ فإنَّهُ لا يَدري بما يُختَمُ لهُ، ومَنْ خُتِمَ لهُ بسوءٍ فالكلْبُ خيرٌ مِنْهُ.

(**ولو لَم يكُنْ إلّا أنْ يُخلّيكَ و**) فِعلَ (**ما تُريدُ**)، فيصْرِفُكَ عنهُ بمُرادِكَ، ويطْرُدُكَ عنْ بابِه بتَواتُرِ إمدادِكَ، وهذا مكْرٌ إلهيٌّ، ولو كُنْتَ عزيزًا عليْهِ ما ترَكَكَ معَ إرادَتِكَ، فترى أنَّكَ في محلِّ القُرْبِ، وأنْتَ في محلِّ البُعْدِ، قالَ الجنيدُ: "ألطَفُ ما يُخادَعُ بِهِ الأولياءُ الكَراماتُ"، ونقلَ أبو نعيمٍ عنِ الإمامِ أحمَدَ: "لا تأمَنْ مكْرَهُ ولو أدخَلَكَ الجنّةَ، ففيها وقعَ لأبيكَ آدمَ ما وقعَ، وقد يُقْطَعُ بأقْوامٍ فيها، فيُقالُ: كُلوا وأشْرَبوا بما أسْلفْتُمْ، فيقْطَعُهُمْ بالمُطْعَمِ عنهُ، وأيُّ مكرٍ فوقَ هذا"(١).

حُكيَ أنَّ رجُلًا سألَ سمنونَ(٢): ما معنى ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، فأنشَدَهُ:

ويقْبُحُ مِنْ سِواكَ الفِعْلُ عِنْدي * فتفعَلُهُ فيحْسُنُ منْكَ ذاكا

فقالَ: اسألُكَ عنْ آيةٍ مِنَ القُرآنِ فتُجيبُ ببيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ! فقالَ مِنْ أيِّ البِلادِ أنتَ؟

---

(١) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٢١/١٠) عن أبي حمزة الصوفي.

(٢) سمنون بن حمزة الخواص، أبو الحسن، صوفي ناسك من الشعراء، من أهل البصرة، سكن بغداد وتوفي فيها نحو سنة ٢٩٠هـ، صحب السري السقطي وأبا أحمد القلانسي ومحمد بن علي القصاب، وكان يسمى "سمنون المحب" لكون أكثر كلامه في المحبة. الأعلام (ج٣/١٤٠)، الرسالة القشيرية (ص٨٨).

قالَ: مِنَ الجبَلِ، قالَ: مَنِ الذينَ هُمْ في النّاسِ كالكُرّاتِ في البقْلِ، لم أُجبْكَ ببيْتٍ إلّا لأُبيِّنَ لكَ بلِسانِ الحِكْمةِ أنَّ في أقلِّ قليلٍ أدلُّ دليلٍ، تخليَتُهُ إيّاهُمْ معَ مكرِهِمْ مكْرُهُ.

فالزَمِ الأدَبَ، تبْلُغْ أعلى الرُّتَبِ. قالَ أبو مدْيَنَ: "ومَنْ لم يأخُذِ الأدَبَ مِنَ المُؤدِّبينَ، أفْسَدَ مَنْ تبِعَهُ، فلا يُنتفَعُ بهِ إلّا إنْ أخذَ عنهُمْ، لحديثِ: (أدَّبَني ربِّي، فأحْسَنَ تأديبي)(1)"، قالَ الغَزالي: "أدَّبهُ بمِثْلِ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]"، وما وصلَ الأولياءُ إلى اللهِ بكثرةِ العمَلِ بل بالأدَبِ، وبهِ تُنالُ السِّيادةُ في العِبادِ حيثُما سارَ في البِلادِ، قالتْ أمُّ مالِكٍ(2) لمّا وجَّهتْهُ للأخْذِ عنْ ربيعةَ(3): "خُذْ مِنْ أدَبِهِ قبْلَ عِلْمِهِ".

هذا ومِنْ سوءِ الآدابِ المُفضيةُ إلى العطَبِ، خُروجُ المُريدِ عَنْ سوءِ الطَّريقِ، وتعريجُهُ عنْ جادّةِ التَّحقيقِ، بتنزُّلِهِ عنْ مُقتَضَى الحقيقةِ إلى رُخصِ الشَّريعةِ؛ والمُرادُ بها ما كانَ مُعتادًا بحالِ المُريدِ في الاستِرسالِ في اللَّذّاتِ والشَّهَواتِ والوُقوفِ معَ المألوفِ والعاداتِ، وللهِ درُّ ابنُ الفارِضِ حيثُ قالَ:

وأذهَبْتُ في تهذيبِها كُلَّ لذّةٍ * بإبعادِها عَنْ عادِها فاطمَأنَّتِ
ولمْ يبقَ هوْلٌ دونَها ما رَكِبْتُهُ * وأشْهَدُ نفسي فيهِ غيْرَ زكيّةِ

قالَ ابنُ خفيفٍ(4): "الإرادةُ استِدامةُ الكدَرِ وتركُ الرّاحةِ، وليسَ شيءٌ أضَرُّ على المُريدِ مِنْ مُسامحةِ النَّفْسِ في قبولِ الرُّخصِ والتَّأويلاتِ".

---

(١) أخرجه ابن السمعاني في أدب الإملاء كما في كنز العمال (١١/٤٠٦).

(٢) العالية بنت شريك بن عبد الرحمن بن شريك الأزدية. انظر الثقات لابن حبان (٧/٤٥٩)، والديباج المذهب لابن فرحون (١/٨٤).

(٣) شيخ الأئمة أبو عثمان ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ، مولى آل المنكدر، المعروف بربيعة الرأي، سمع أنس بن مالك، والسائب بن يزيد، وعامة التابعين من أهل المدينة، روى عنه مالك بن أنس، وسفيان الثوري، وشعبة بن الحجّاج والليث بن سعد، وغيرهم، وكان فقيهًا عالمًا حافظًا للفقه والحديث، توفي سنة ١٣٦. تاريخ بغداد (٨/٤٢٠)، وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/٢٨٨).

(٤) شيخ المشايخ أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي، كان من أولاد الأمراء فتزهّد، وكان شيخ الوقت حالا وعلما، صحب رويما والجريرى وطاهر المقدسى وأبا العباس بن عطاء، وروى عنه القاضى أبو بكر ابن الباقلاني شيخ الأشعرية، توفي سنة ٣٧١. طبقات الصوفية (٣٤٥)، وتاريخ دمشق (٥٢/٤٠٥).

وقالَ ابنُ الحُسينِ[1]: "إذا رأيْتَ المُريدَ يشتَغِلُ بالرُّخَصِ؛ فاعلمْ أنَّهُ لا يجئُ مِنْهُ شيءٌ". وقالَ ابنُ سينا[2]: "مَنْ أرادَ أنْ يتعَطَّلَ ويتبطَّلَ، فليَلزمِ الرُّخَصَ. أوحى اللهُ إلى داودَ: إنَّما خلقْتُ الشَّهَواتِ لضَعْفِ الخلْقِ، فإيّاكَ أنْ تُعلِّقَ قلبَكَ بشيءٍ مِنْها، فأيسَرُ ما أُعاقِبُكَ بهِ: أنْ أنزِعَ حلاوةَ حُبِّي مِنْ قلبِكَ"[3]. وقال ابنُ أدهَمَ: "لا ينالُ الرَّجُلُ درجةَ الصّالحِينَ، حتَّى يُغلِقَ بابَ النِّعمةِ ويفتَحَ بابَ الشِّدّةِ، وبابَ العِزِّ ويفتحَ بابَ الذُّلِّ، وبابَ الرّاحةِ ويفتحَ بابَ الجُهْدِ، وبابَ النَّومِ ويفتَحُ بابَ السَّهرِ، وبابَ الفقرِ ويفتحَ بابَ الغنى، وبابَ الأملِ ويفتَحَ بابَ الاستِعْدادِ للموْتِ. قالَ العارفُ[4]:

فما ظَفِرتْ بالوُدِّ روحٌ مُراحةٌ * ولا بالوَلا نفْسٌ صفا العيْشِ ودَّتِ
وأيْنَ الصَّفا هيْهاتَ مِنْ عيْشِ عاشِقٍ * وجنّةُ عدْنٍ بالمكارِهِ حُفَّتِ

ومنْ أرادَ استيفاءَ الآدابِ فعليْهِ بكِتابِ "الأمْرِ المُحكَمِ المرْبوطِ فيما يلزم الشَّيْخَ والمُريدَ مِن الشُّروطِ"[5]، ونحْوُه "كِتابُ الوَصيّةِ" مِنْ كِتابِ "التَّدبيراتِ الإلهيّةِ" للحاتميِّ[6]، قالَ الشّارِحُ: "لكِنْ فيهِ أمورٌ لا يقْدِرُ المُريدُ على فهمِها؛ فليَجتَنِبْهُ كُلَّه غيرَ هذا الكِتابِ[7]، أو ليُسلِّمْ غيرُ

(١) شيخ الري أبو يعقوب يوسف بن الحسين بن علي الرازي، صحب ذا النون المصري وأبا تراب النخشبي ورافق أبا سعيد الخراز وسمع أحمد بن حنبل، كان أوحد طريقته في إسقاط الجاه وترك التصنع واستعمال الإخلاص، توفي سنة ٣٠٤. طبقات الصوفية (ص١٥١)، وتاريخ بغداد (٣١٦/١٤).

(٢) هو الحسين بن عبد الله بن سينا، أبو علي، الفيلسوف الرئيس (٣٧٠-٤٢٨هـ)، صاحب التصانيف في الطب والمنطق والطبيعيات والإلهيات، أصله من بلخ، ومولده في إحدى قرى بخارى. ونشأ وتعلم في بخارى، وطاف البلاد، وناظَرَ العلماء، واتسعت شهرته. صنَّف نحو مئة كتاب، بين مطوّل ومختصر، ونظم الشعر الفلسفي الجيد، ودرس اللغة مدة طويلة حتى بارى كبار المنشئين. أشهر كتبه (القانون) في الطب، و(المعاد) رسالة في الحكمة، و (الشفاء) في الحكمة، و(السياسة)، و(أسرار الحكمة المشرقية)، وأرجوزة في (المنطق)، ورسالة (حي بن يقظان). الأعلام (٢٤١/٢-٢٤٢).

(٣) ذكره أبو نعيم في الحلية (٢٠/١٠) عن أبي سليمان الداراني.

(٤) ابن الفارض في قصيدته التائية المشهورة التي مطلعها "سقتني حميًا الحبِّ راحةَ مقلتي".

(٥) أحد مؤلفات الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي.

(٦) "الحاتمي" هو أحد ألقاب الشيخ الأكبر ابن عربي، وكتابه المشار إليه هو "التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية".

(٧) أي: غير "كتاب الوصية" من كتاب "التدبيرات الآلهية".

مُعتَقِدٍ في تلكَ الأمورِ ظاهِرَها"، وكذا كُلُّ كُتُبِه، وعامّةُ كُتُبِ البوني؛ لأنها حِجابٌ عَنِ الحقِّ بما تضْمنَّتهُ مِنَ الخواصِّ والرّياضاتِ ونحوِهما ممّا يوجِبُ التعلُّقَ بالدُّنْيا، ويَشْغَلُ القَلْبَ عَنِ الرَّبِّ، وقد قالَ أبو العبّاسِ ابنُ البنّا: "بايِنِ البُوني وأشكالَهُ، ووافِقْ خَيْرًا النَّسَّاجَ[1] وأمثالَهُ".

ومِنْ سوءِ الأدَبِ التَّفريقُ بينَ المقاماتِ، والحُكْمُ على أهلِها بشَواهِدِ الحالاتِ، ومِنْ أُصولِ الأدَبِ التي يقعُ بتَركِها الطَّرْدُ والإبعادُ: حِفْظُ حُرمةِ المُسلمينَ سيَّما أهلَ دائرةِ الحقِّ مِنَ العُبّادِ والزُّهّادِ، ومِفْتاحُ إسقاطِ حُرمَتِهِمْ احتِقارُ ما منَحَهُمْ مولاهُمْ، وعدمُ الاعْتِدادِ بما مَنَّ بهِ عليهِمْ وأوْلاهُمْ، وهذا كثيرًا ما يعْرِضُ للمُريدِ إذا كانَ في صُحبةِ عارِفٍ، وأنِسَ بما ألِفَهُ منْهُ مِنْ أنواعِ الخوارقِ، ورأى عابِدًا ليسَ عِنْدَهُ إلّا وصفُ العبادةِ فيزدَريهِ، فلذلكَ قال:

***

٦٧. إذا رأيْتَ عبدًا أقامَهُ اللهُ بوُجودِ الأوْرادِ، وأدامَهُ عليها مَعَ طولِ الإمدادِ، فلا تسْتحقِرَنَّ ما منَحَهُ مولاهُ لأنَّكَ لم ترَ عليْهِ سيما العارِفينَ ولا بهجَةَ المُحِبّينَ، فلولا وارِدٌ ما كانَ وِرْدٌ.

(**إذا رأيْتَ عبدًا**) مِنَ الخواصِّ، وهُمْ أبرارٌ ومُقرَّبونَ؛ فالأبرارُ: كُلُّ عابِدٍ زاهِدٍ باقٍ مَعَ حُظوظِهِ وإرادَتِهِ، عامِلٌ ليَحوزَ رفيعَ الدَّرجاتِ في الجنّاتِ، والمُقرَّبونَ: كُلُّ مأخوذٍ عنْ حظِّهِ وإرادتِهِ، المُستَعْمَلُ في القيامِ بحقِّ معبودِهِ عُبوديَّةً وطلبًا لرِضاهُ، وهُمُ العارِفونَ، وكُلٌّ مِنَ الفَريقينِ مُمَدٌّ في مقامِهِ الذي هوَ فيهِ بمددٍ إلهيٍّ اقتضى منْهُ القيامَ بحُقوقِ مقامِهِ.

فمِنْ جهْلِكَ أنْ تحتقِرَ مَنْ (**أقامَهُ اللهُ بوُجودِ الأوْرادِ**) أي: أعمالِ العِبادةِ الموظَّفةِ على الأوقاتِ والأحوالِ، (**وأدامَهُ عليها**) أي: على مواصَلتِها (**مَعَ طولِ الإمدادِ**) بالمعونةِ والتَّيسيرِ،

(١) الولي العارف أبو الحسن محمد بن إسماعيل، المعروف بخير النسّاج، من كبار الصوفية من أهل سامرا، سكن بغداد، وصحب السري وأبا حمزة، وتاب في مجلسه إبراهيم الخواص والشبلي، وله أحوال وكرامات، وعمّر فوق المائة، توفي سنة ٣٢٢. طبقات الصوفية (ص٢٤٧)، وحلية الأولياء (١٠/٣٠٧).

ووُجودِ المؤنةِ والرِّفْقِ في المعيشةِ، وحُصولِ المنافعِ والفَوائِدِ، فذلكَ مِن اختيارِ اللهِ لَهُ، الموجِبِ لتعظيمِهِ واحترامِهِ، وتوقيرِهِ وإكرامِهِ.

(فلا تسْتحقِرَنَّ ما منَحَهُ مولاهُ) مِنْ ذلكَ **(لأنَّكَ)** أي: لكَوْنكَ **(لم ترَ عليْهِ سيما العارفينَ)**، وهيَ نورانيّةُ الجَمالِ الممزوجةُ بالجَلالِ في مقامِ الكَمالِ، وترْكُ الاختيارِ، والبراءةُ مِنَ الحُظوظِ والإراداتِ، والرِّضى والسُّكونُ تحتَ مجاري القَضاءِ، **(ولا بهجةَ المُحبّينَ)** وهيَ أُنْسُ لطافةِ الغَرامِ في حضرةِ الهَيامِ، وإنْ شئْتَ قُلْتَ: سيما العارفينَ هيئةٌ تُخلَعُ عليهِمْ مِنْ إعزازِ الحقِّ لَهُم، بسببِ مُتابَعةِ عِزِّ النُّبوّةِ ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وإنْ شئْتَ قُلْتَ: أنسُ خَفَرِ السَّكينةِ الذي ينشأُ عنْ ذُلِّ خُضوعِ العُبوديّةِ بدَوامِ العِبادةِ في الخلواتِ.

وبذلكَ تبيَّنَ أنَّ بهجةَ المُحبّينَ غيرُ سيما العارفينَ؛ لأنَّ أهلَ المحبّةِ في فرحٍ وطربٍ، وأهلَ المعْرفةِ في تعظيمٍ وأدَبٍ، فلهذا كانَتِ البهجةُ للمُحبّينَ، أي نورانيّةُ أُنْسٍ تُشرِقُ على وُجوهِهِمْ بنظْرةِ جمالٍ، كما أنَّ للعارفينَ سيما تلوحُ على ذاتِهِمْ بهيْبةِ جلالٍ.

وبذلكَ استَبانَ أنَّ أهْلَ العِنايةِ: إمّا عارفٌ مُحِبٌّ، فَنِيَتْ مِنْهُ القصودُ، وغابَ عنِ الشّاهِدِ في المشْهودِ، فهوَ أبدًا ذائبُ الفُؤادِ، ليْسَ لهُ معَ اللهِ مُرادٌ، عبدَ لا لغرضٍ، ودأبَ في اللهِ لا لعِوَضٍ، فهوَ عبدُ اللهِ حقًّا، والمُخلِصُ صِدقًا، بلغَ رُتبةً عُليا، ذلَّ عليها مِنكُمْ من يُريدُ الدُّنْيا، وإمّا زاهدٌ عابدٌ أقبلَ على الأعمالِ، طالبًا بها حُصولَ الكَمالِ، فلازمَ الأورادَ، ولم يزَلْ بِها في جِهادٍ، فهو وإنْ بقَى معَ نفسِهِ، ووقفَ معَ حظِّهِ، لا يحتَقِرُ حالَهُ، ولا يهتَضِمُ كمالَهُ.

قالَ ذو النّونِ[١]: "رأيْتُ رجُلًا شهِدَ قلبي لهُ بالوِلايةِ وتقذَّرتْهُ نفسي، فبَقيتُ بينَ قلبي ونفسي، فقالَ: يا ذا النّونِ، الدُّرُّ وراءَ الصَّدفِ"، معناهُ: لا تنظُرْ للظّاهِرِ؛ فإنَّ السرَّ في الباطِنِ.

(فلولا واردٌ) إلهيٌّ يُعينُهُ على وِردِهِ **(ما)** استَقامَ على عمَلِهِ المُستَمرِّ، وما **(كانَ وِرْدٌ)** على

---

(١) أبو الفيض ذو النون، وقيل: اسمه ثوبان بن إبراهيم، المعروف بالمصري، أصله من النوبة، وكان في إخميم بصعيد مصر، حمل إلى المتوكل فوعظه وأبكاه، ثم عاد إلى مصر، وكان حكيما فصيحا زاهدا، توفي سنة ٢٤٥. طبقات الصوفية (ص ٢٧)، تاريخ بغداد (٨/٣٩٠)، وفيات الأعيان (١/٣١٦).

هذا الزَّمانِ، فلولا وارِدٌ مِنَ الحقِّ يقْتَضي تعظيمَ جنابِه، ما كانَ وِرْدٌ يقتَضي الوُقوفَ ببابِه، إذْ ما كانَ ظاهِرُ ذِكرٍ إلّا عنْ باطِنِ شُهودٍ وفِكْرٍ، بلْ ولولا وارِدٌ ما كانَ انتِسابٌ ولو بِكَذِبٍ، إذِ التَّخصيصُ دليلُ التَّعظيمِ، والتَّعظيمُ لا يتحَصَّلُ إلّا عنْ وارِدٍ، فتعظيمُ صاحِبِه واجِبٌ مِنْ حيْثُ نِسبَتُهُ لربِّه لا مِنْ حيثُ هو، وإنْ كانَ كاذِبًا فلزِمَ إكرامُهُ واحتِرامُهُ لمنِ انْتَسَبَ لهُ، وهوَ باقتِصارِهِ على عملِ البرِّ الظّاهِرِ لم يخرُجْ عنْ دائِرةِ عِنايَتِه وحيطةِ رِعايَتِه، أرأيْتَ ارتِجازَ الصَّحْبِ في الخنْدقِ بقولِهِمْ: "واللهِ لوْلا اللهُ ما اهْتَدَيْنا، ولا تصَدَّقْنا ولا صَلَّيْنا"[١].

هكذا قرَّرَهُ الشّارِحُ، وأصلُهُ لابنِ عرَبي، واستدلَّ لهُ بما أُثِرَ: أنَّ بعضَهُمْ يوقَفُ بيْنَ يديِّ اللهِ يوَمَ القِيامةِ فيقولُ إنَّهُ عمِلَ مِنَ الخيْرِ ما لم يعمَلْهُ، وهوَ كاذِبٌ، فيتجاهلُ لهُ ربُّهُ، فيقولُ: إنَّ اللهَ مشى عليه ما كذَبْتُ؛ فيأمُرُ بهِ إلى الجنّةِ، فتقولُ الملائكةُ: إنَّهُ كذَبَ، فيقولُ: علِمْتُهُ واستَحَيْتُ أنْ أُكذِّبَ شيْبَتَهُ"[٢]. قالَ ابنُ عربي: "وهذا أصلٌ عظيمٌ في مكارِمِ الأخلاقِ، فيلزمُ أهلَ اللهِ التَّخلُّقُ بهِ".

وقالَ بعضُهُمْ: "الانتِسابُ مُشعِرٌ بعظَمةِ المُنتَسِبِ"؛ فلذلكَ لزِمَ احتِرامُ المنتَسِبِ لجانِبِ اللهِ بأيِّ وجهٍ كانَ، وعلى أيِّ وجهٍ كانَ، ما لم يأتِ بما يَكرُّ[٣] على التَّعظيمِ بالنَّقصِ، كمُخالفةِ الشَّريعةِ صريحًا، فيتعيَّنُ رِعايةُ نسَبِهِ وإقامةُ الحقِّ عليْهِ؛ لأنَّ الذي تعلَّقَ بهِ هوَ أمرُهُ، نعَمْ يلزمُ تحقيقُ أمرِهِ فيهِ، وإلّا عادَ الضَّررُ على مُعارِضِه؛ لقصْدِهِ هتْكَ مُنتَسِبٍ لجانِبِ عظيمٍ لمُجرَّدِ هواهُ، فلهذا تضرَّرَ كثيرٌ ممَّنْ اعترضَ على مُنتَسِبٍ لجانِبِ اللهِ وإنْ كانوا مُحقّينَ، إذِ الحقُّ تعالى يُغارُ لهتْكِ جانِبِه، فلزِمَ تحقيقُ المقامِ في النَّكيرِ، وتصحيحُ النِّيّةِ بالغايةِ، وإلّا فالحذرَ الحذرَ.

وفي هذهِ الحِكمةِ تلويحٌ بأنَّ في اختِلافِ المسالِكِ راحةٌ للسّالِكِ، وإعانةٌ لهُ على ما أرادَ

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري (٤١٠٤)، ومسلم (١٨٠٣)، وغيرهما من حديث البراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا.
(٢) ذكره الشيخ الأكبر في الفتوحات (٣٣٥/٣)، ولم يعزه. وفي هذا المعنى أخرج ابن أبي الدنيا في "العمر والشيب" (رقم ٢)، والحارث بن أبي أسامة في "مسنده" (رقم ١٠٨٤)، وأبو يعلى (رقم ٢٧٦٤) عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: (يقول الله تبارك وتعالى: إني لأستحيي من عبدي وأمتي يشيبان في الإسلام، فتشيب لحية عبدي ورأس أمتي في الإسلام، أعذبهما في النار بعد ذلك).
(٣) أي يرجع ويعود.

مِنْ بُلوغِ الأَرَبِ، والتَّوصُّلِ إلى المُرادِ؛ فلذلكَ اختَلفتْ طُرقُ القومِ ووُجوهُ سُلوكِهِمْ: فمِنْ ناسِكٍ يؤثِرُ الفَضائِلَ بكُلِّ حال، ومِنْ عابِدٍ مُتمسِّكٍ بصحيحِ الأعمال، ومِنْ زاهِدٍ يفرُّ مِنَ الخَلائِقِ، ومِنْ عارِفٍ يتعرَّفُ بالحقائِقِ، ومِنْ ورِعٍ تحقَّقَ المقامَ بالاحتياط، ومِنْ مُتمسِّكٍ يتعلَّقُ بالقومِ في كُلِّ موطِنٍ ومناط، ومِنْ مُريدٍ يقومُ بمُقابلةِ البِساط، والكُلُّ في دائرةِ الحقِّ بإقامةِ حقِّ الشَّريعة، والفِرارِ مِنْ كُلِّ ذميمةٍ وشنيعة.

قاعِدةٌ: "طلبُ الشَّيءِ بوجهٍ واحِدٍ معَ الإلحاح، أقرَبُ لِحُصولِهِ وأدعى لدوام المطلوب"؛ فلذلِكَ لزِمَ السّائلُ التزامَ وِرِدٍ واحِدٍ لا ينتَقِلُ عنهُ حتَّى تحصُلَ نتائجُهُ، وإلا فالمنتقِلُ قبلَ الفتحِ، كحافِرِ بئرٍ لا يدومُ على محلٍّ واحِدٍ، وكالمُقطِرِ قطرةً على كُلِّ محلٍ، يُريدُ تأثيرَ المحلِّ بالقطرةِ، أتُراهُ يظهرُ لعمَلِه أثرٌ؟!

وعُلِمَ مِمّا مرَّ أَنَّهما فريقانِ: أهْلُ هِدايةٍ، وأهْلُ عِنايةٍ، كما قالَ:

***

٦٨. قومٌ أقامَهُمُ الحقُّ لِخدمَتِه، وقومٌ اختصَّهُمْ بمَحبَّته، ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

(**قومٌ أقامَهُمُ الحقُّ لِخدمَتِهِ**) حتَّى صلَحوا لجنَّتِهِ، وهُمُ العُبّادُ والزُّهّادُ، وأهلُ الأعمالِ والأورادِ، (**وقومٌ اختصَّهُمْ بمَحبَّتِهِ**) حتَّى تقدَّسوا لقُربِهِ ودُخولِ حضْرتِهِ، وهُمْ أهلُ المحبّةِ والودادِ، والصَّفاءِ واتِّباعِ المُرادِ، وكلُّهُمْ في طاعَتِهِ، فمن شغَلهُ بعِبادَتِه فهوَ في رِضاهُ ومِنَّتِهِ، ومَنْ خصَّهُ بمحبَّتِهِ، فهوَ في فضلِ عطاءِ خُصوصيَّتِهِ.

فبهذا الاعتبارِ لكُلٍّ مِقدارٌ، لكِنَّ صاحِبَ المحبّةِ والمعرفةِ أعلى، وهو في القيمةِ أغلى؛ لأنَّ مقامَ العِبادةِ بِدايةٌ، ومقامَ المحبّةِ هِدايةٌ، ومقامَ المعرفةِ نِهايةٌ، وإنْ شِئْتَ قُلتَ: مقامُ العِبادةِ

كسبٌ، ومقامُ المحبّةِ وصفٌ، ومقامُ المعرفةِ يختصُّ بهِ مَنْ لهُ ذَوْقٌ وشُرْبٌ، وإنْ شِئْتَ قُلتَ: مقامُ العبادةِ مقامُ الكشفِ، ومقامُ المحبّةِ مقامُ اللّطيفِ، ومقامُ المعرفةِ مقامُ الشّريفِ؛ لأنَّ مَنْ لا يصلُحُ لرشْفِ كؤوسِ المعرفةِ صِرفًا، تُمزَجُ لهُ بمُرِّ تعبِ المُجاهَدةِ عسفًا، أو يحجُبُهُ الحقُّ عن دَيْرِها والحانِ، ويزكُمُهُ عنْ نشقِ نسمةِ روضِها الرَّيانِ، فالعاملُ منْ يعمَلُ بتحقيقِ العمَلِ لقصْدِ تحصيلِ الأملِ، والزّاهِدُ الفارُّ مِنْ وُجودِ الخلقِ لينفرِدَ همُّهُ لمولاهُ على بِساطِ الطَّلبِ وإرادةِ السَّلامةِ، والنّاسِكُ المُتمسِّكُ بالفَضائِلِ المواظِبُ على الأورادِ.

والذينَ اختصَّهُمْ بمحبَّتِهِ المُحبّون والعارفون والواصِلونُ، فالمُحِبُّ مَنْ آثرَهُ على كُلِّ شيءٍ، والعارفُ مَنْ شهِدَهُ في كُلِّ شيءٍ، والواصِلُ مَنْ فنِيَ بهِ عنْ كُلِّ شيءٍ، وهمَّ أهلُ الاجتِباءِ، كما أنَّ مَنْ قبلهُمْ أهلُ الاهتِداءِ، والكُلُّ في دائرةِ الحقِّ مُستمِدُّون مِنْ فضلِهِ.

﴿**كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ**﴾، وهذا عامٌّ في كُلِّ طريقٍ وقريبٍ، ﴿**وما كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**﴾ فيُحجَرُ أو يُحصَرُ في نوعٍ أو صِفةٍ، فأشارَ بالآيةِ إلى أنَّ الكُلَّ مِنْ عطائِهِ، يُعطي مَنْ شاءَ ما شاءَ بلا حَجْرٍ، ويمنعُ مَنْ شاءَ ما شاءَ بلا عِلّةٍ؛ فالكُلُّ مِنْهُ وإليهِ، فإذا شهِدَ العبْدُ انفرادَ الحقِّ بهذهِ الإقامةِ، منعَهُ ذلكَ مِنَ الاحتِقارِ، وسلَّمَ الأمرَ لمنْ لهُ التَّدبيرُ والاختيارُ؛ والآيةُ وإنْ كانتْ فيمنْ أرادَ الآخرةَ والدُّنيا، لكنَّ آخرَها يُشيرُ للتَّفاضُلِ في درَجاتِ الآخِرةِ، وعِلّةِ التَّوقيعِ المذكورِ.

قالَ أبو يزيدَ: "اطَّلعَ الحقُّ إلى قُلوبِ عِبادِهِ، فمنْ لم يصلُحْ مِنْهُمْ لحملِ المعرفةِ شغلَهُ بالعِبادةِ". وقالَ الدِّينَوَري[1]: "للهِ عِبادٌ لم يستَصلِحْهُمْ لخِدمَتِهِ، فأهَّلهَمْ لمعرِفتِهِ، وعكسُهُ".

وقالَ سهلٌ: "إنَّ اللهَ يطَّلِعُ على أهلِ قُربِهِ، فيُريدُ أنْ يقسِمَ لهُمْ مِنْ نفسِهِ قِسمًا، فلا يجِدُ لقُلوبِ العُبّادِ والزُّهّادِ موضِعًا مِنْ تلكَ القِسمةِ، فيمُنُّ عليهِمْ بشُغلِهِمْ بالتَّعبُّدِ عنْ نفسِهِ"،

(١) أبو العباس أحمد بن محمد الدينوري، صحب يوسف بن الحسين وعبد الله الخراز وأبا محمد الجريري، ولقي رويمًا، قال السلمي: من أفتى المشايخ وأحسنهم طريقة واستقامة، ورد نيسابور وأقام بها مدة وكان يعظ الناس ويتكلم على لسان المعرفة بأحسن كلام، وتوفي بعد سنة ٣٤٠. طبقات الأولياء لابن الملقن (ص٧٩).

ويدُلُّ لهُ ما في لطائفِ المِنَنِ: "خرجَ العُبّادُ والزُّهّادُ مِنَ الدُّنيا وقُلوبُهُمْ مُقفَلةٌ عَنِ اللهِ"، وهذا كُلُّهُ حِكمةٌ مِنهُ تقدَّسَ، فمِنَ النّاسِ مَنْ جعلهُ الحقُّ لفضلِه ونوالِه، ومِنهُمْ مَنْ جعلَهُ لشُهودِ جمالِه وجلالِه في حضرةِ كمالِه، فتراهُ يأخُذُ أهْلَ الآخرةِ مِنَ الدُّنيا، ويأخُذُ أهلَهُ وخاصَّتَهُ مِنَ الآخرةِ.

قالَ ابنُ مُعاذٍ الزّاهِدُ: "صيدُ الحقِّ مِنَ الدُّنيا، والعارِفُ صيْدُهُ مِنَ الجنّةِ"؛ وهذا الصَّيْدُ لا عِلةَ لهُ، ولا سببَ، ولا وقتَ لهُ معلومٌ، وإنَّما يكونُ بغْتةً، كما قالَ:

***

٦٩. قلَّما تكونُ الوارِداتُ الإلهيّةُ إلّا بغتةً، صيانةً لها أنْ تدَّعيها العِبادُ بوُجودِ الاستِعدادِ.

(**قلَّما تكونُ الوارِداتُ الإلهيّةُ**) التي هيَ التَّنزُّلاتُ العِرفانيّةُ على القُلوبِ، الموجبةُ لتأثُّرِها (**إلّا بغتةً**) دون رَوِيّةٍ ولا استِعدادٍ ولا توقيتٍ؛ فإنْ وردَتْ على استِعْدادٍ، فهيَ كالعدَمِ لِنُدْرتِه، وذلكَ (**صيانةً لها أنْ تدَّعيها العِبادُ بوُجودِ الاستِعدادِ**) معَ أنَّها ليسَتْ كذلكَ.

فوارِداتُ القُلوبِ مِنَحٌ مِنْ علّامِ الغُيوبِ، لا تُنالُ بعملٍ، ولا تُعلَّلُ بعِللٍ، فلا تَرِدُ إلّا بغتةً؛ لئلا يدَّعيها أهلُ الأعمالِ بالاستِعدادِ والتَّأهُّلِ للكَمالِ؛ ولأنَّها مِنْ بِساطِ عزيزٍ، وما كانَ مِنْ عزيزٍ لا يكونُ إلّا عزيزًا مصونًا؛ ولئلّا تكون مُبتذَلةً، فيبطُلُ سِرُّ الاختِصاصِ، وهيَ هديّةٌ يُتحِفُ اللهُ بها عبدَهُ، فتُنزَّهُ عنْ مجيئِها لعِلةٍ، وعطاياهُ لا تُقابَلُ بعملٍ وإنْ جلَّ، فلو أتَتْ باستِعدادٍ، رأوا لأنفُسِهِمْ أهليّةَ الوُرودِ عليهِمْ، فيقدَحُ في العُبوديّةِ، فذلكَ مِنْ رحمَتِه بعِبادِه لئلّا يضِلّوا.

ولهذا قالَ الجيلاني: "الوارِدُ الإلهيُّ لا يأتي باستِدعاءٍ، ولا على نمطٍ واحِدٍ، ولا في وقتٍ مخصوصٍ، ولا يذهَبُ بسببٍ، بخِلافِ الطّارِقِ الشَّيطانيِّ غالبًا".

فالوارِداتُ ثلاثةٌ: إلهيٌّ وملَكيٌّ وشيْطانيٌّ؛ فالإلهيُّ يأتي مِنْ حضرةِ الغيْبِ، فلا يكونُ إلّا بغْتةً؛ لأنَّ عِلمَها مُغيَّبٌ عنِ الإحاطةِ بهِ، والملَكيُّ والجانِّيُّ قدْ يعلَمُهُ أهلُ الاطِّلاعِ، فالوارِدُ

الإلهيُّ في مجيئه كالعُطاسِ لا يُجلَبُ ولا يُدفَعُ. قال التّونسيُّ: هذا في حقِّ أهلِ البدايةِ، أمّا أهلُ النّهايةِ، فلهُمْ مكنةُ الجلبِ والدَّفعِ، وكيفيَّتُهُ وسببُهُ لا يُذكَرُ.

فائدةٌ: الناسكُ الآخذُ بكُلِّ مُمكنٍ منَ الفضائلِ منْ غيرِ مُراعاةٍ لغيرِ ذلكَ، فإنْ رامَ التَّحقُّقَ في ذلكَ فهوَ العابدُ، وإنْ مالَ للأخذِ بالأحوطِ فالورِعُ، وإنْ آثرَ جانبَ التَّركِ طلبًا للسَّلامةِ فالزّاهدُ، وإنْ أخذَ بالتَّخلُّقِ والتَّعلُّقِ فالمُريدُ، وإنْ أرسلَ نفسَهُ معَ مُرادِ الحقِّ فالعارفُ.

ولمّا كانَ الواردُ منْ وُجوهِ الحكمةِ، وجبَ صونُهُ عنْ أهلِ الخدمةِ، فمَنْ أباحَهُ خرَقَ الحُرمةَ، فلهذا قالَ:

٧٠. مَنْ رأيتَهُ مُجيبًا عنْ كُلِّ ما سُئِلَ، وذاكِرًا كُلَّ ما عَلِمَ، ومُعبِّرًا لكُلِّ ما شَهِدَ، فاستَدِلَّ بذلِكْ على جهلِهِ.

(**مَنْ رأيتَهُ مُجيبًا عنْ كُلِّ ما سُئِلَ، وذاكِرًا كُلَّ ما علِمَ، ومُعبِّرًا لكُلِّ ما شهِدَ، فاستَدِلَّ بذلكْ على جهلِهِ**) لعدَمِ اعتبارِهِ المراتبَ في أنفُسِها، ولأنَّهُ أمارةُ الطَّيشِ والخِفّةِ، وعدمِ الثَّباتِ ورقَّةِ الدّيانةِ، وقِلّةِ الأمانةِ وغلبةِ الخيانةِ، فلا كُلُّ سؤالٍ ولا سائلٍ يسوغُ جوابُهُ، ولا كُلُّ علمٍ يُذكَرُ لكُلِّ أحدٍ، ولا كُلُّ مشهودٍ يُعبَّرُ عنهُ، وكما أُمرَ ببذلِ العِلْمِ لأهلِهِ، أُمِرَ بكتمِهِ عنْ غيرِ أهلِهِ، وفي الحديثِ: (حدِّثوا النّاسَ بما يفهَمون)[1].

فيجِبُ في جميعِ المسائلِ، رِعايةُ حالِ السّائلِ، فقدْ لا يكونُ للجَوابِ أهلًا، فيُصانُ عنهُ عِلمُهُ أصلًا، والأمورُ الذَّوقيّةُ لا تُدركُ بعبارةٍ، ولا يسعُ العالِمُ بها إلّا إشارةً، وعُلومُ الكشْفِ

(١) أخرجه البخاري (١٢٧) موقوفًا على الإمام علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: (حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله"، ونحوه ما أخرجه مسلمٌ في مقدّمة صحيحه (١١/١) عن ابن مسعودٍ قال: (ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنةً). وأخرجه الديلمي كما في الفردوس (١٦١١) من حديث ابن عباس مرفوعًا بلفظ: (أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم)، وسنده ضعيفٌ كما ذكره السيوطي في "الدرر المنتثرة" (٣٥)، وغيره.

لا يُفشَى سِرُّها، ولا يحلُّ عندَ العملِ ذِكرُها؛ فلهذا كانَ الجوابُ عنْ كُلِّ سؤال، والتَّعبيرُ عنِ المشهودِ في الحال، والذِّكرُ لكُلِّ معلوم بالمقال، جهلًا عِنْدَ أهلِ الكَمال، كيفَ ومدارِكُ الشُّهودِ يضيقُ عنها نِطاقُ الحصرِ بالإشارةِ، فكيفَ بالعِبارة؟! معَ ما في التَّعبيرِ عنهُ مِنْ إفشاءِ السِّرِّ الذي هوَ خيانةٌ. قالَ الغَزالي: "قدْ تضُرُّ الحقائقُ بأقوام كما يتضرَّرُ الجُعَلُ بالوردِ(١)"، وقالَ الجنيدُ: "الجوابُ على قدرِ السّائلِ لا على قدرِ المسائلِ"، ومِنْ ثَمَّ كُفِّرَ جمعٌ مُحقِّقون وبُدِّعوا، ولا كَفروا ولا فَسقوا ولا ابتدعوا.

وقالَ الحُكماءُ: "زيادةُ العِلمِ في الرَّجُلِ السّوءِ كزيادةِ الماءِ في أُصولِ الحنظلِ، كُلَّما ازدادَ ريًّا ازدادَ مرارةً"، وقيلَ للثَّوري: "ألا تُذكِّرُ أصحابَكَ؟" قالَ: "هُمْ في حِجابِ القطيعةِ".

واعلمْ أنَّهُ قدِ اختَلفَ القومُ في بذلِ عِلمِهِمْ لغيْرِ أهلِه، فمِنْ قائلٍ: لا يبذُلُهُ إلّا لأهلِه، وعليهِ جرَى المؤلِّفُ، ومِنْ قائلٍ ببذلِهِ لأهلِه وغيرِهِمْ، والعِلْمُ أحمى جانبًا مِنْ أنْ يصلَ إليهِ غيرُ أهلِهِ، وإنْ أجهدَ نفسَهُ ذلِكَ الغيرُ في تحصيلِه، وهوَ مذهَبُ الجنيدِ؛ فقدْ قيلَ لهُ: "لمَ تُنادي على اللهِ بينَ يديِّ العامّةِ؟" فقالَ: "إنَّما أُنادي على العامّةِ بينَ يديِّ اللهِ"، أيْ: أُذكِّرهُمْ ما يردُّهُمْ إليهِ، فتتَّضِحُ الحُجّةُ لقومٍ وتقومُ على آخرينَ.

والصَّوابُ اختِلافُ الحُكمِ باختِلافِ النِّسَبِ والأنواعِ، وأنَّ ما كانَ مِنَ الوعظِ والتَّذكيرِ فللخاصِّ والعامِّ، وما كانَ مِنَ البَيانِ والتَّقريبِ فللخاصّةِ مِنَ المُحبّينَ، وما مِنَ الأحوالِ والمُنازَلاتِ فللمُريدينَ والسّالكينَ، وما مِنَ الحقائقِ والمعارِفِ، فلأهلِ المعرفةِ والواصِلينَ، فلكُلِّ مقامٍ مقالٌ، ولكُلِّ عملٍ رِجالٌ.

فائدةٌ: قالَ ابنُ عربي: "كلامُ العارِفِ على صونِ السّامِعِ بحسبِ قوّةِ استِعْدادِهِ وضعفِهِ وشُبهَتِهِ القائمةِ بباطِنِهِ، وكُلُّ مَنْ ثقُلَ عليكَ الجَوابُ عنْ سؤالِهِ فلا تُجبْهُ، فإنَّ وِعاءَهُ ملآنٌ لا يسعُ الجوابَ، فهذا ميزانٌ".

(١) الجُعَل: الخنفساء، وهي تتأذى بريح الورد. يقول المتنبي:
بذي الغباوة من إنشادها ضررٌ *كما تُضرُّ رياحُ الورد بالجُعَلِ

قالَ بعضُ الأعيانِ[١]: "وبهذا الميزانِ يُعلَمُ أنَّ لكُلِّ شيءٍ أهلًا ومحلًّا ووجهًا وحقيقةً؛ فأهليّةُ التَّصوُّفِ لذي توجُّهٍ صادقٍ، أو عارفٍ مُحقِّقٍ، أو مُحبٍّ مُصدِّقٍ، أو طالبٍ مُنصِفٍ، أو عالمٍ تُفيدُهُ الحقائقُ، أو فقيهٍ تُفيدُهُ الاتِّساعاتُ والرَّقائقُ، لا مُتحاملٍ بالجهلِ، أو مُستظْهِرٍ بالدَّعوى، أو مُجازفٍ في النَّظرِ، أو لحوحٍ في التَّعصُّبِ لحوحٍ في العِنادِ للمذْهبِ، أو عامّيٍّ غبيٍّ جامدِ الطَّبعِ مُتقاعدِ الذِّهنِ، أو طالبٍ مُعرِضٍ، أو مصمِّمٍ على تقليدِ أكابرَ مَنْ عرفَ في الجُملةِ". انتهى.

وقالَ بعضُهُمْ: "مِنْ قواعدِ الصّوفيّةِ أنَّ اعتبارَ النِّسبِ في الواقعِ يقضي بتخصيصِ الحُكمِ عنْ عُمومِهِ، ومنْهُ وُجوبُ الغيْرةِ على عُلومِ القومِ منَ الإنكارِ، وحمايةُ عُقولِ العَوامِّ عَنِ التَّعلُّقِ بما يُخَصُّ منها، فتأمَّلْ وأعْطِ كُلَّ حُكمٍ حقَّهُ، فالأعمالُ للعامّةِ، والأحوالُ للمُريدينَ، والفوائدُ للعابدينَ، والحقائقُ للعارفينَ، والعِباراتُ قوتٌ لعائلةِ المُستَمعينَ".

تتمّةٌ: قالَ شيخُنا الشَّعْراني: "ينبَغي شِدّةُ التَّحفُّظِ مِنْ إظهارِ شيءٍ مِنْ أسرارِ الشَّريعةِ ودقائقِ الطَّريقِ لأحدٍ مِنْ طلَبةِ العِلْمِ إلّا إنْ تحقّقَ صِحّةُ اعتقادِهِ في القوْمِ، وإلّا فمِنْ لازمِ ذلكَ الطّالبِ غالبًا ردُّ تلكَ الأسرارِ والدَّقائقِ، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٣٩]، فالعارفُ: مَنْ أخرجَ لكُلِّ واردٍ عليهِ مِن النّاسِ ما يقبَلُه وِعاءُهُ، ويكتُمُ ما زادَ. وقالَ لي شيخُنا زكريّا: "لم تزَلْ طلَبةُ العِلْمِ في كُلِّ زمَنٍ يرمون القوْمَ بالجهْلِ، ولا ينبَغي ذلكَ حتَّى يجتَمِعوا بأحَدِهِمْ ويبحَثوا معَهُ، خوفًا مِنَ المقتِ، فقدْ مُقِتَ بذلكَ كثيرٌ"، قالَ: "وقدْ حماني اللهُ مِنْ حينِ كُنتُ شابًّا مِنَ الإنكارِ على الصّوفيّةِ، فما أنا فيهِ ببرَكتِهِمْ".

تنْبيهٌ: قالَ الشَّعْراني: "أجمَعُوا على أنَّ جميعَ العُلومِ لا يُعلَمُ مُصطَلَحُها إلّا بتوفيقٍ مِنْ أربابِها، إلّا طريقَ القومِ، فإنَّ السّالكَ إذا وضعَ قدَمَهُ فيها، صارَ يعرفُ جميعَ رُموزِهِمْ حتَّى كأنَّهُ الواضعُ لها؛ فكُلُّ مَنِ ادَّعَى الطَّريقَ واحتاجَ لمُطالَعةِ كتابٍ في رُموزِهِمْ فهوَ كذّابٌ، إلّا أنْ يكونَ مُطالَعتُهُ فيها بقصدِ رؤيةِ ما أُنعِمَ بهِ عليهِ ممّا هوَ فوقَ مقامِ مَنْ تقدَّمَهُ، وقدْ هلكَ فيمن لم يَرمِزْ كلامَهُ من أهلِ الطَّريقِ خلقٌ كثيرٌ، ورموهُمْ بالكُفرِ والزَّندَقةِ، وآفتُهُ عدمُ الرَّمزِ، ومِنْ ثَمَّ قيلَ:

(١) هو سيدي أحمد زروق في كتابه "قواعد التصوف".

ألا إنَّ الرُّموزَ دليلُ صِدْقٍ * على المعنَى المُغيَّبِ في الفؤادِ
وكُلُّ العارفينَ لها رُموزٌ * وألغازٌ تدقُّ على الأعادي
ولولا اللُّغزُ كانَ القولُ كُفْرًا * وأدَّى العالمينَ إلى العِنادِ

ولم يزَلِ العارِفون يُخفون ممَّنْ ليسَ مِنْ طريقهم المعارِفَ خوفَ التكفير، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾، وكانَ الحسنُ البصريُّ[1]، ومعروفٌ، والجنيدُ، والسَّري لا يُقرِّرون العِلمَ باللهِ إلّا بعدَ غلقِ الأبوابِ خوفًا على إفشاءِ الأسرارِ بينَ المحجوبينَ.

وبالجُملةِ: فلا يجوزُ لعارِفٍ إظهارُ شيءٍ مِنَ الأسرارِ، إلّا لمَنْ لو فصدَ الشَّيخُ ذِراعَهُ فارَ الدَّمُ مِنْ ذِراعِ ذلكَ التِّلميذِ.

وقالَ بعضُهُمْ: "لم يزلِ الإنكارُ في كُلِّ عصرٍ مِنْ عُلماءِ الشَّرعِ على أهلِ العِلمِ اللَّدُنِّيِّ، أي الذي جاءَ مِنْ لدُنْهُ تعالى؛ لأنَّهُ عِلمٌ تغرَّبَ عَنْ وطنِهِ، وأتى لصاحِبِهِ مِنْ غيرِ طريقِ الفِكْرِ والنَّظرِ، فلا يُذكَرْ لكُلِّ أحدٍ، إذ كثيراً ما يرمون صاحِبَهُ بالكُفرِ والزَّندَقةِ، وإذا أعجبَهُمْ عِلمُهُ الغريبُ في تفسيرِ آيةٍ أو حديثٍ قالوا حسدًا: هذا أخذَهُ مِنْ كُتُبِ المُتقدِّمينَ، معَ أنَّ الذي علَّمَ صاحِبَ الكُتُبِ المُتقدِّمةِ مِنْ لدُنْهُ لا يبعُدُ أن يُعلِّمَ هذا مِنْ لدُنْه".

وقالَ بعضُهُمْ: لا يسعُ عارِفٌ التَّكلُّمَ بكلامٍ واحِدٍ يعُمُّ النّاسَ، تأمَّلْ مَنْ لا عِلمَ لهُ بالطَّريقِ إذا سَمِعَ صوفيًّا يقولُ: "حقيقةُ التَّوبةِ التَّوبةُ مِنَ التَّوبةِ"، قالَ: "هذا خطأٌ؛ لأنَّ التَّوبةَ مِنَ التَّوبةِ إصرارٌ"، وإنَّما مُرادُ الصّوفيِّ: تزكيةُ النَّفْسِ وعدمُ الاعتِمادِ على التَّوبةِ دون رحمةِ اللهِ، ونظيرُهُ قولُ بعضِهِمْ: "حقيقةُ التَّقوَى تركُ التَّقوَى"، ومِنْ ذلِكَ قولُ الشَّرفِ ابنِ الفارِضِ:

وقُلتُ لزُهْدي والتَّنسُّكِ والتُّقَى * تخلَّوا وما بيني وبينَ الهوَى خلّوا

---

(١) إمام أهل زمانه، أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ولد بالمدينة سنة ٢١ في خلافة عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكانت أمه خيرة مولاة لأم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وشبَّ في كنف علي بن أبي طالب، وكان من سادات التابعين وكبرائهم ومناقبه كثيرة، توفي سنة ١١٠. طبقات ابن سعد (١٦/٧)، وحلية الأولياء (١٣١/٢)، ووفيات الأعيان (٦٩/٢).

وقولُهُ:

تمسَّكْ بأذيالِ الهَوى واخلعِ الحيا * وخلِّ سبيلَ النّاسكينَ وإنْ جلّوا

يعني لا تقِفْ معَ الأعمالِ دون اللهِ! وشأنُ القومِ شُهودُ أعمالِهِمْ، يعني الرِّياءَ والدَّعاوي، ولا يشهَدون لهمْ إخلاصًا، ومنْ لا عِلْمَ لهُ بمُصطَلحِهِمْ يُبادِرُ إلى الإنكارِ، ويقولُ: "تركُ الزُّهْدِ والتَّعبُّدِ والتَّقوى مِنْ أفجرِ الفُجورِ"، ولو كانَ لهُ إلمامٌ بطُرُقِ [القومِ] لم يقُلْ ذلكَ.

خاتمةٌ: قالَ بعضُ أهلِ الكمالِ: وُجوهُ الاستِحقاقِ مُستَفادةٌ مِنْ ظاهِرِ الحالِ، وقد يشْتَبِهُ الأمرُ، فيكونُ التَّمسُّكُ بالحذرِ أولى إلّا لعارِضٍ، وقدْ يتَجاذَبُ الشَّيءَ مَنْ يستَحِقُّهُ ومَنْ لا، فيكونُ المنعُ لأحدِ الطَّرفينِ دون الآخرِ كما أشارَ إلى ذلكَ سهْلٌ بقولِهِ: "إذا كانَ بعدَ الثَّلاثمائةَ، فمنْ كانَ عِنْدهُ شيءٌ مِنْ كلامِنا فليدْفنْهُ، فإنَّهُ يصيرُ زُهْدُ النّاسِ في كلامِهِمْ، ومعبودُهُمْ بُطونُهُمْ"، وعدَّ أشياءَ تقضي بفسادِ بثِّهِ، وأنَّه يكونُ كبائعِ سيْفٍ مِنْ قاطِعِ طريقٍ، وهذا حالُ كثيرٍ مِنْ أهلِ هذا الزَّمانِ، اتَّخذوا عُلومَ الحقائِقِ والدَّقائقِ سُلَّمًا لاستِهواءِ قُلوبِ العامّةِ، وأخذِ أموالِ الظَّلمةِ، والقُربِ منْهُمْ والتَّودُّدِ لهمْ، واحتِقارِ الفُقراءِ، والتَّمكُّنِ مِنْ نهبِ الحُطامِ، وتعظيمِ العمائمِ والأكمامِ، حتَّى أنَّ بعضَهُمْ خرجَ عَنِ المِلَّةِ، وقبَلَ ذلكَ منْهُ الجُهّالُ في الجُملةِ بادِّعائهِ الإرْثَ والاختِصاصِ، نسألُ اللهَ السَّلامةَ والخلاصَ.

***

٧١. إنّما جعلَ الدّارَ الآخرةَ محلًّا لجزاءِ عِبادِهِ الصّالحينَ؛ لأنَّ هذهِ الدّارَ لا تسعُ ما يُريدُ أنْ يُعطيَهُمْ، ولأنَّهُ أجَلَّ أقدارَهُمْ عنْ أنْ يُجازيَهُمْ في دارٍ لا بقاءَ لها.

(**إنّما جعلَ الدّارَ الآخرةَ محلًّا لجزاءِ عِبادِهِ الصّالحينَ؛ لأنَّ هذهِ الدّارَ لا تسعُ ما يُريدُ أنْ يُعطيَهُمْ**) مِنْ صُنوفِ النِّعمِ بشَهادةِ الأخبارِ، لِما في عِدّةِ [أحاديثَ] مِنْها:

(إنَّ أدنى أهلِ الجنّةِ منزلةً، مَنْ يُعطيهِ اللهُ أضْعافَ أمثالِ الدُّنيا وزيادةً على ذلكَ)[1]، جلَّ ثوابُ أهلِ الإيمانِ أنْ يكون في دارِ الكدرِ، كيفَ وهوَ لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمِعَتْ، ولا خطرَ على قلْبِ بشَرٍ، نعيمٌ لا يزُول، ومُلْكٌ لا يحُول، دارٌ وسيعةُ الفِناء، لا يعترِيها نقصٌ ولا فَناء.

فائدةٌ: قالَ ابنُ عربي: "أقلُّ النّاسِ طمعًا مَنْ رضِيَ بالدُّنيا، وأكثَرُ مِنْهُ طمعًا مَنْ لم يرْضَ بها وطلبَ الآخرةَ، وأكثَرُ مِنْهُ طمعًا مَنْ طلبَ وجهَ اللهِ"، وهُنا أسرارٌ لا تُسطَّرُ في كِتاب.

(**ولأنَّهُ أجَّلَ أقدارَهُمْ عنْ أنْ يُجازيَهُمْ في دارٍ لا بقاءَ لها**) معَ كونِها خسيسةً ملعونةً ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠].

ثُمَّ الجزاءُ هُناكَ لهُ علامةٌ هُنا ذكرَها بقولِه:

***

٧٢. مَنْ وجَدَ ثمرةَ عَمَلِهِ عاجِلًا، فهوَ دليلٌ على وُجودِ القبولِ آجِلًا.

(**مَنْ وجَدَ ثمرةَ عَمَلِهِ عاجِلًا**) مِنْ حلاوةٍ ولذّةٍ ومُناجاةٍ وأُنْسٍ بمُكاشَفاتٍ وغيرِها مِنَ الفَوائدِ الدّينيّةِ، وما يدفُقُ وينبُعُ مِنْ عينِ القلْبِ مِنَ العُلومِ اللَّدُنّيّةِ، (**فهوَ دليلٌ على وُجودِ القبولِ**) بفضلِهِ المُقتَضي لوُجودِ الرِّضى والجزاءِ بهِ، وذلكَ يدورُ على ثلاثةِ أمورٍ: حُصولِ البِشارةِ بزَوالِ الخوفِ والحُزنِ، والحياةِ الطَّيِّبةِ بالرِّضَى والقناعةِ، وظُهورِ سِرِّ الخِلافةِ بتسخيرِ الكائناتِ وانفِعالِها ظاهِرًا وباطِنًا.

(١) ورد في ذلك أخبار كثيرة، منها ما هو متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٥٧١)، ومسلمٌ (١٨٦)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه مسلم (١٨٩) عن المغيرة بن شعبة مرفوعًا، وفيه: (سأل موسى ربه، ما أدنى أهل الجنة منزلة، قال: هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب، كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم، فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول: لك ذلك، ومثله ومثله ومثله ومثله، فقال في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك).

ومِنْ طيبِ الحياةِ حلاوةُ الطّاعةِ، ومِنْهُ حديثُ: (جُعِلَتْ قُرّةُ عيني في الصَّلاةِ)[1]، وقولُهُ: (يا بِلالُ أرِحْنا بالصَّلاةِ)[2]، وهذهِ الحلاوةُ.. مِنْ أهلِ اللهِ مَنْ يجدُها في البدايةِ والنِّهايةِ، وهُمْ أهلُ العِنايةِ، ومِنهُمْ مَنْ لا يجِدُها إلّا بعدَ مرارةِ المُجاهَدةِ والمُكابَدة.

وبالجُملةِ: فإذا وجدَ العامِلُ حلاوةَ عمَلِه، فهوَ علامةُ رِضَى ربِّهِ بهِ، وذاكَ غايةُ أملِه، إذا رضى مِنكَ العمَلَ، أثابَكَ بما لا يدخُلُ تحتَ الأمَلِ، مَنْ كابدَ العِبادةَ، تنعَّمَ بها وصارَ النَّعيمُ لهُ عادةً، لكنَّ شرطَ الاعتِدادِ بتلكَ الحَلاوةِ إخلاصُهُ في جميعِ الأوقاتِ، وتجرُّدُهُ عَنِ الحُظوظِ والشَّهواتِ، فمتى وقفَ معَ حلاوةِ طاعاتِهِ، فقدْ زالَ عنْ كمالِ درَجاتِه، متى سكَنْتَ إلى ذلِكَ فأنْتَ معَ النَّفسِ، وذلِكَ خفيٌّ وهوَ مِنْ مواطِنِ اللَّبسِ، متى بصرْتَ ذلِكَ فأنتَ بِهِ هالِكٌ زائِل، ألا ترى إلى قولِ الواسِطيِّ: "استِحْلاءُ الطّاعاتِ سُمٌّ قاتِل".

أوحى اللهُ إلى موسى: "نِعمَ العبْدُ بُرْخٌ[3]، لولا أنّهُ يسكُنُ إلى نسيمِ الأشْجارِ، ومَنْ عرَفَني لا يسْكُنُ لغيري". فإذا فتحَ على العبدِ بحَلاوةِ الطّاعةِ قامَ فيها طلبًا لحلاوَتِها، فهوَ ظاهِرًا طالبًا لدَوامِها للهِ، وباطِنًا لحظِّهِ لا وفاءً بحقِّها، بلْ لِما وجدَ مِنَ اللَّذّةِ عِنْدَها، ولهذا قالوا: "الرُّكونُ إلى حلاوةِ العمَلِ والوُقوفُ معَهُ حِجابٌ مانِعٌ لما فوقَهُ مِنَ الاقتِرابِ، لكنْ لمحَ مِنْهُ أهلُ المعرفةِ علامةَ القبولِ في الآخِرةِ". وقالَ الحسنُ: "تفقَّدوا الحلاوةَ في ثلاثٍ، فإنْ وجدْتُموها فأبشِروا وامضوا لقصْدِكُمْ، وإلّا فاعلَموا أنَّ البابَ مُغلَقٌ: عِنْدَ تِلاوةِ القُرآنِ، وعِنْدَ الذِّكرِ، وفي السُّجودِ"، زادَ غيرُهُ: "وبالأسْحارِ"، وقالَ أبو مديَنَ: "مَنْ ذاقَ حلاوةَ المُناجاةِ، زالَ عنهُ النَّومُ"، واحذَرْ أنْ يكون سهرُكَ للالتِذاذِ بها، فتُحرَمَ مِنَ المُشاهَدةِ.

سهرُ العُيونِ لغيرِ وجهِكَ باطِلُ * يا مُنيةَ الأرواحِ والآمالِ

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٩٣)، والنَّسائيُّ (٣٩٤٠)، وأبو يعلى (٣٤٨٢)، والبزّار (٦٨٧٩)، والطبرانيُّ في "الأوسط" (٥٢٠٣)، والحاكم وصحَّحه (٢/١٦٠)، وغيرهم من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٠٨٨)، وأبو داود (٤٩٨٥)، والطحاوي (٥٥٤٩)، وغيرهم عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ.

(٣) العبد الأسود الذي استسقى به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٧٣. إذا أردْتَ أنْ تعرفَ قدْرَكَ عِندَهُ، فانظُرْ فيما يُقيمُكَ فيه.

(**إذا أردْتَ أنْ تعرفَ قدْرَكَ عِندَهُ، فانظُرْ فيما يُقيمُكَ فيه**) لأنَّ المنازِلَ على قدرِ النَّازِلِ، فإنْ وجَّهكَ للدُّنيا فقدْ أهانَكَ، أو أقامَكَ بحقِّهِ مُتهاوِنًا، وبأمرِهِ مُستَخِفًّا، وشعائرِهِ مُستَصْغِرًا فقدْ أحقرَكَ، أو شغلكَ بالخلْقِ فقدْ صرفَكَ، أو للعملِ فقدْ أعانَكَ، أو فتحَ لكَ بابًا في العِلمِ فقدْ أرادَكَ، أو إلى مُناجاتِهِ فقدْ قرَّبكَ، وإنْ واجهَكَ بالبلاءِ فقدْ هداكَ، وإنْ صرفَكَ عَنِ الأعراضِ فقدْ أدَّبَكَ، وإنْ رضيتَ بهِ وعنْهُ فقدْ فتحَ لكَ بابَ الرِّضَى، وهوَ أعظَمُ الأبوابِ.

فالأعمالُ علاماتٌ، والأحوالُ كراماتٌ، والكراماتُ دليلٌ، والعُلومُ وسائلُ، فمنْ أحبَّ معرفةَ قدرِهِ أهوَ أدنَى أو أعلَى، فلينظُرْ ما استعمَلهُ فيهِ المولَى، فإنْ أقامَكَ في أسبابِ القُربِ، فهوَ علامةٌ على الحُبِّ، أو يسَّرَ لكَ أسبابَ التَّقوَى، فقدْ أهَّلَكَ لجوارِهِ في جنَّةِ المأوى؛ فعليكَ بتعظيمِ حُرُماتِهِ، والتَّسارُعِ إلى مرضاتِهِ، فإنَّما هيَ أعمالُكَ تردُ عليكَ فيُجازيكَ، ويسوقُ جنسَها إليكَ، وقدْ جاءَ في حديثٍ: (مَنْ أحبَّ -وفي رِوايةٍ "مَنْ أرادَ"، وفي أُخرَى "مَنْ سرَّهُ"- أنْ يعلَمَ منزِلَتَهُ عِنْدَ اللهِ، فلينظُرْ ما للهِ عِنْدَهُ)(١).

ومراتِبُ العِبادةِ مُتنوِّعةُ الأطوارِ في الظَّاهِرِ، والظَّاهِرُ دليلٌ على الباطِنِ؛ فإذا أُفيضَ على ظاهِرِهِ حالٌ مِنَ الأحوالِ عُلِمَ صلاحُ باطِنِهِ أو فسادُهُ، والدُّنيا باطِنُ الآخِرةِ؛ فإذا أُقيمَ عبدٌ فيها في مقامِ خيرٍ أو شرٍّ، عُلِمَ مِنهُ مقامُهُ في الآخِرةِ، كما يدُلُّ له حديثُ: (أهلُ المعروفِ في الدُّنيا، هُمْ أهلُ المعروفِ في الآخِرةِ)(٢) فلا تحصُدُ في الآخِرةِ إلّا ما تزرعُهُ هُنا، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]، فاسْعَ في الإخلاصِ، تدخُلُ في أهلِ الاختِصاصِ، وسعيُكَ على

(١) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٣٠٦٤)، أبو يعلى (١٨٦٥)، والطبراني في الأوسط (٢٥٠١)، والحاكم وصححه (٤٩٤/١)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: (من أحب أن يعلم...) الحديث.

(٢) أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" (٢٢١) من حديث قبيصة بن برمة الأسدي بلفظ: (أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة).

قدرِ شُهودِكَ وقُربِكَ مِنْ معبودِك، كما أفادَهُ الخبرُ المارُّ: (مَنْ أرادَ أنْ يعلَمَ منزلتَهُ ...) الحديثُ.

فإذا رأيتَ الحقَّ بعيدًا فأنتَ بعيدٌ عنهُ، وإنْ رأيتَهُ قريبًا فأنتَ قريبٌ منْهُ، وإنْ أكرَمْتَ عبادَهُ أكرَمَكَ، وإنْ جللْتَ أمرَهُ أجلَّكَ، وإنْ خِفتَهُ أخافَ منكَ مَنْ يخافُهُ، وإنْ أحبَبتَهُ أحبَّكَ وحبَّبكَ لخلقِهِ، وإنْ أحسَنْتَ ظنَّكَ بهِ حسَّنَ عبادَهُ ظنَّهُمْ فيكَ، إلى غيرِ ذلِكَ مِنَ المشاهِدِ والمسالِكِ.

وتُقرِّرُ الحِكمةُ بمعنًى آخرَ، وهوَ أنَّ أهلَ اللهِ ما بينَ طالِبٍ مِنَ اللهِ، وهُمُ الأبرارُ كالزُّهّادِ وأهلِ الاجتهادِ، وطالِبٍ للهِ، وهُمُ المُقرَّبون كالعارِفينَ الذينَ ليسَ لهم توجُّهٌ إلى تنعُّمٍ بسِوى وجهِهِ تقدَّسَ؛ فإذا أُقِمْتَ في مقامِ الطَّلبِ مِنهُ، فأنْتَ طالِبٌ لسِواهُ، أو لهُ فأنْتَ طالِبٌ شُهودَ مُحيّاهُ، فكُلٌّ لهُ سِمةٌ هوَ بها موسومٌ، ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤].

واعلمْ أنَّ أكبرَ المنازِلِ التَّعلُّقُ بأوصافِهِ معَ التَّحقُّقِ بأوصافِكَ، بلْ أكبَرُ الكراماتِ أنْ يكونَ ظاهِرًا ممتَثِلًا لأمرِهِ وباطِنًا مُستسْلِمًا لقهرِهِ، وإنْ شِئْتَ قُلتَ: الصِّدقُ في العُبوديّةِ والقِيامُ بحقِّ الرُّبوبيّةِ، وإنْ شِئْتَ قُلتَ: الطّاعةُ والغِنَى بهِ عنها، فهذِهِ عِباراتٌ مُترادِفةُ المُؤدَّى، وقدْ نبَّهَ عليها المؤلِّفُ بالعِبارةِ الأخيرةِ فقالَ:

***

٧٤. متى رزقَكَ الطّاعةَ والغِنى بهِ عنها، فاعلمْ أنَّهُ أسبغَ عليْكَ نِعمَهُ ظاهِرةً وباطِنةً.

(**متى رزقَكَ الطّاعةَ**) وهيَ إقامةُ الأمرِ ظاهرًا، (**والغِنى بهِ عنها**) بأنْ تعملَ لأمرِهِ لا لشيءٍ ترجوهُ مِنْ خيرِ الدّارَيْنِ ولا لشيءٍ تخافُهُ، فتكونَ لهُ بِهِ، لا لعِلّةٍ ولا سببٍ، (**فاعلمْ أنَّهُ أسبغَ**) أي: أتمَّ وأكمَلَ (**عليْكَ نِعمَهُ ظاهِرةً**) جَليّةً (**وباطِنةً**) خفيّةً، والمُرادُ: أنَّ أتمَّ النِّعمِ وأعلاها القِيامُ بالعُبوديّةِ في عينِ مُشاهدةِ الرُّبوبيّةِ، وإنْ شِئتَ قُلتَ: إقامةُ الشَّريعةِ معَ موافقةِ أثرِ الحقيقةِ؛ لأنَّ بهِ تقعُ الرّاحةُ والتَّبرُّؤُ مِمّا سِواهُ، فيزولُ البؤسُ والشَّغبُ، وهيَ الرَّحمةُ الكُبرى والنِّعمةُ العُظمَى.

وقيلَ: النِّعمةُ ما وصلَكَ بالحقائقِ وقطعَكَ عنِ الخلائقِ، وقيلَ: ما أسلاكَ عنْ دُنياكَ، وأدناكَ مِنْ مولاكَ، وقيلَ: ما لا يوجِبُ ندمًا ولا يُعقِبُ ألمًا.

وزينةُ الباطنِ بينَ يدي اللهِ اليقينُ الذي مِنْ لازِمِهِ الغِنَى عنِ الأغيارِ، وزينةُ الظّاهرِ الطّاعةُ الظّاهرةُ، فمنْ رُزِقَ هذيْنِ فقدْ أَسبَغَ عليه نِعمَهُ، فالمطلوبُ مِنَ العبْدِ تعديلُ الظّاهرِ بإقامةِ الأوامرِ، والباطِنِ بالغِنَى بهِ عَنْ كُلِّ مُغايرٍ، متى رزقَكَ هذينِ فقدْ أتمَّ لكَ النِّعمَ وشملَكَ بالجودِ والكرمِ. قالَ التّونسيُّ: "رِزقُ الطّاعةِ أصلُ الأرزاقِ، ومحلُّ قرارِ شجَرتِهِ التّقوَى، وجميعُ الأرزاقِ فُروعُ هذِهِ الشَّجرةِ الطَّيِّبةِ".

وعادةُ صاحِبِ الرِّزقِ أنْ يستغني بهِ عمّا سِواهُ، وهذا الوصْفُ حِجابٌ عَنِ الرَّزّاقِ بالرِّزْقِ؛ فإذا رُزِقْتَ الطّاعةَ، فلا تستَغْنِ عمَّنْ رزقَكَ إيّاها، بلِ استَغْنِ بهِ عنْها، واشهدْهَا هديّةً منْهُ إليكَ، بلْ صدقةً مِنْ فضلِهِ، فإذا شهِدْتَ هذا الشُّهودَ بلغْتَ كُلَّ مقصودٍ، وأسبغَ عليْكَ نِعمَهُ الظّاهرةَ بالأعمالِ، والباطِنةَ بسنيِّ الأحوالِ.

واعلمْ أيُّها الطّالبُ أنَّ ربَّكَ لكَ مُطالِبٌ، وخيرُ ما تطلُبُهُ مِنْهُ ما ذكَرَهُ بقولِهِ:

٧٥. خيرُ ما تطلُبُهُ مِنْهُ ما هوَ طالِبُهُ مِنْكَ.

(**خيرُ ما تطلُبُهُ مِنْهُ ما هوَ طالِبُهُ مِنْكَ**) أي ما أمرَكَ بطلبِهِ وطالبَكَ بهِ، وهوَ الاستقامةُ والغِنى عَنِ الحُظوظِ النَّفسيَّةِ، والقيامُ بحقِّ العُبوديّةِ الخاليةِ عنِ اتِّباعِ الهوَى في مقامِ التَّقوَى، وقيلَ: "هوَ التَّخلي عنْ كُلِّ ما سِواهُ، والتَّحلّي بما يُرضيهِ عنْكَ، ويرُدُّكَ إليهِ، والدَّوامُ على ذلكَ حتَّى تلقاهُ، فإنْ كانَ لا بُدَّ لكَ مِنَ الطَّلبِ فاطلُبِ الاستِقامةَ في العُبوديّةِ؛ فإنَّهُ غايةُ الأَرَبِ، وعينُ حقيقةِ الأدبِ، هيَ مطلبُ الحقِّ مِنْ عبدِهِ، فاعملْ عليها تصرْ مِنْ أهلِ وُدِّهِ، واحذرْ أنْ تطلُبَ شيئًا مِنْ حُظوظِكَ، فتسقُطَ مِنْ أوْجِكَ إلى حضيضِكَ، إذا دُمْتَ على ذلكَ، فقدْ عملْتَ بقولِهِ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، وفي أثرٍ: (إنَّ اللهَ لا يسألُ العبْدَ عنْ ذاتِهِ، ولا

صِفاتِهِ، ولا عنْ قضائِهِ وقدرِهِ، ولكِنْ عنْ أمرِهِ ونهيِهِ)، فاطلُبْ ربَّكَ مِنْ حيْثُ يطلُبُكَ.

***

٧٦. الحزْنُ على فُقدانِ الطّاعةِ معَ عدمِ النُّهوضِ إليها مِنْ علامةِ الاغتِرارِ.

(**الحزْنُ على فُقدانِ الطّاعةِ معَ عدمِ النُّهوضِ إليها**) ويُسمَّى الحزنُ الكاذِبُ (**مِنْ علامةِ الاغترارِ**)، وهوَ التَّعلُّقُ بما لا حقيقةَ لهُ، وتعليقُ المقاصِدِ عليهِ؛ فالحُزْنُ على الطّاعةِ آيةُ الإيمانِ إنْ صحِبَهُ قيامٌ إليها، وإلّا فهوَ خِذْلانٌ، فمنْ حزنَ على الطّاعةِ فنهضَ فهوَ مِنَ الأبرارِ، ومَنْ حزَنَ وتقاعَدَ فهو في اغترارٍ، الحُزنُ الصّادِقُ يبعَثُ على الأعمالِ، ويَرقى صاحِبُهُ إلى معارِجِ الكَمالِ، وذاكَ مقامُ أهلِ العِبرةِ؛ ولهذا كانَ المُصطَفى ﷺ مُتواصِلَ الأحزانِ دائمَ الفِكرةِ[١]، وفي حديثٍ: (إنَّ اللهَ يُحِبُّ كُلَّ قلبٍ حزينٍ)[٢]، فدمعُ العيْنِ وحدَهُ مِنْ علامةِ المُنافِقينَ، وفي حديثٍ: (إنَّ المُنافِقَ يملِكُ عينَيْهِ، يبكي بِهِما متى شاءَ)[٣].

قالَ الدّاراني: "ليسَ البُكاءُ بتعصيرِ العُيونِ، بلْ أنْ تترُكَ ما تبكي عليه"، وقالَ رجُلٌ: "واحُزناهُ"، فقالتَ رابِعةُ[٤]: "قُلْ: واقِلّةَ حُزناهُ، لو كُنْتَ محزونًا ما تهَيَّأَ لكَ أنْ تتنفَّسَ".

(١) أخرجه الترمذي في الشمائل (٢١٥)، وغيره من حديث هند بن أبي هالة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البزار (٤١٥٠)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٠١٢)، وأبو نعيم (٦/٩٠)، والحاكم (٤/٣١٥)، وغيرهم من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وصححه الحاكم، ورد الذهبي تصحيح الحاكم بأن في إسناده ضعفٌ وانقطاعٌ، وحسن الهيثمي إسناد الطبراني كما في مجمع الزوائد (٢/٢٩٥).

(٣) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٦٦٢٠)، وأبو بكر الشافعي في الغيلانيات (٩٩)، عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بإسناد ضعيف كما قال السخاوي في المقاصد الحسنة (١/٦١٣).

(٤) رابعة بنت إسماعيل أم الخير، مولاة آل عتيك، العدوية البصرية العابدة المشهورة. أثنى عليها أكثر النّاس، وذكروا لها أحوالا وأعمالا صالحة، ورئيت لها منامات صالحة. توفّيت بالقدس الشريف سنة ١٥٣هـ، وقيل ١٨٥هـ. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (١١/١١٧) و"الوافي بالوفيات" للصفدي (١٤/٣٧)، و"البداية والنهاية" لابن كثير (١٠/٢٠١).

أمّا الحُزنُ الصّادِقُ، وهوَ الحزنُ على الطّاعةِ معَ القيامِ إليها، فهوَ مِنْ أعظَمِ المطالبِ، وصاحِبُهُ -كما قالَ الدَّقّاقُ[1]- "يقطَعُ في طريقِ اللهِ في شهرٍ، ما لا يقطعُهُ غيرُهُ في سنينَ"؛ وعليهِ وردَ (إنَّ اللهَ يُحِبُّ كُلَّ قلبٍ حزينٍ)[2]، وباعِثُهُ ما يجري في الفُؤادِ مِنْ إشارةِ القلبِ لجلالِ الحقِّ حتَّى يقعَ فيهِ خوفٌ أو حياءٌ أو رؤيةٌ أو نحوُها، وفي التَّوراةِ: "إذا أحبَّ اللهُ عبدًا نصبَ في قلبِهِ نائحةً، وإذا أبغضَهُ نصبَ في قلبِهِ مِزماراً" أي دوامَ فرحٍ.

تنْبيهٌ: قالَ بعضُ العارفينَ: "ينبغي الحُزنُ على فوتِ الطّاعةِ مِنْ حيثُ أنَّهُ تعالى يُحِبُّ النَّدمَ على فوتِها، لا مِنْ حيثُ ما لهُ مِنَ الثَّوابِ أو نِسبةُ العمَلِ"؛ لأنَّ النَّدمَ على فوتِ الطّاعةِ لشُهودِ نِسبةِ العمَلِ للعبْدِ، مُحبِطٌ للإخلاصِ عِنْدَ القومِ، وإنْ كانَ النَّدمُ على فوتِها كمالًا في البِدايةِ والنِّهايةِ لكِنْ باعتِبارَيْنِ؛ فإنَّ السّالِكَ حالَ توَسُّطِ سُلوكِهِ لا يميلُ لشيءٍ مُستَقبلٍ دون شيءٍ، فإنَّ صوَّمَهُ اللهُ، صامَ بنيّةِ الشُّكرِ، وإنْ أقامَهُ باللَّيلِ، قامَ بنيَّتِهِ، وإنْ نوَّمَهُ، نامَ بنيّةِ الرِّضَى، لا حزازةَ عِندَهُ في شيءٍ على شيءٍ فاتَ، ولا نظرَ عِندَهُ لما هوَ آتٍ، فمنْ حزِنَ على فوتِ شيءٍ، أو فرِحَ بحُصولِهِ، فهوَ عبدُ ذلِكَ الشَّيءِ، وكانَ البرهانُ المتبولي[3] يقولُ للمُريدِ: "لا يصِحُّ لكَ شيءٌ في الطَّريقِ إلّا إنْ أسَّستَ أساسَكَ على أنَّكَ لا تفرحُ إلّا بربِّكَ، ولا تحزنُ إلّا على حِجابِكَ عنهُ؛ فإنْ فرِحْتَ بغيرِهِ أو حزِنْتَ على فوتِ غيرِهِ فيا طولَ الطَّريقِ عليكَ!؟".

***

(١) أستاذ الصوفية، الحسن بن علي بن محمد، أبو علي الدقاق النيسابوري، شيخ أبي القاسم القشيري، نيسابوري الأصل، تعلم العربية وحصّل علم الأصول، وخرج إلى مرو وتفقه بها على الخِضري، وبرع في الفقه، ولما استمع ما يحتاج إليه من العلوم، أخذ في العمل وسلك طريق التصوف، وصحب الأستاذ أبا القاسم النصراباذي. اشتهر ذكره في الآفاق وانتفع به الخلق، توفي سنة ٤٠٦. انظر: تاريخ الإسلام (١٠٤/٩)، وطبقات السبكي (٣٢٩/٤).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) الولي العارف إبراهيم بن علي بن عمر برهان الدين الأنصاري المتبولي ثم القاهري الأحمدي، أحد المعتقدين المشهورين بالصلاح، وقد جمع العارف الشعراني في كتاب جملة صالحة من أخلاقه التي أخذها من حضرة رسول الله ﷺ، وسماه: الأخلاق المتبولية المفاضة من الحضرة المحمدية، توفي سنة ٨٧٧. الضوء اللامع (٨٥/١)، ونظم العقيان في أعيان الأعيان (ص١٧٩)، والطبقات الكبرى للشعراني (٧٧/٢).

٧٧. ليسَ العارِفُ مَنْ إذا أشارَ وجدَ الحقَّ أقرَبَ إليهِ مِنْ إشارَتِه، بلِ العارِفُ مَنْ لا إشارةَ لهُ، لفنائهِ في وُجودِهِ وانطِوائِهِ في شُهودِهِ.

(**ليسَ العارِفُ**) أي الحقيقيُّ أو الكامِلُ، وهوَ مَنْ أفناهُ الحقُّ عنْ آنيَّتِه، وطواهُ في وُجودِ هويَّتِه، (**مَنْ إذا أشارَ**) بالإشارةِ التي هيَ ألطَفُ مِنَ العِبارةِ، وهيَ كِنايةٌ وتلويحٌ، وإيماءٌ لا تصريحٌ، كما يُفيدُهُ قولُهُ المُتقَدِّمُ: "مَنْ رأيتَهُ مُجيبًا" إلى آخرِهِ، أي ليسَ العارِفُ حقيقةً مَنْ (**وجدَ الحقَّ أقرَبَ إليهِ مِنْ إشارَتِهِ**) لأنَّ المُشارَ إليهِ تعالى بعيدٌ منْهُ؛ لأنَّهُ أقربُ مِنْ أنْ يُشارَ إليهِ، فليسَ بعارِفٍ حقيقةً وإنْ كانَ لهُ قِسطٌ مِنَ المعرِفةِ، ولذلِكَ قيلَ: "الإشارةُ نِداءٌ على رأسِ البُعدِ، وبوحٌ بعينِ العِلّةِ"، وأبعدُهُمْ مِنَ اللهِ أكثرُهُمْ إشارةً إليهِ؛ فالعارِفُ مَنْ فنيَ حتَّى عنْ نفسِهِ بوُجودِ ربِّهِ، وانطوَتْ ذاتُهُ وصِفاتُهُ بوُجودِ قُربِهِ، ذاكَ هوَ الكامِلُ في التَّوحيدِ، البالِغُ رُتبَةَ التَّفريدِ.

ليسَ العارِفُ مَنْ أشارَ إلى التَّوحيدِ فرأى الحقَّ أقرَبَ مِنْ إشارَتِهِ ومِنْ حبلِ الوَريدِ؛ لأنَّ بقاءَ الرسومِ يُنافي التَّوحيدَ المرسومَ، مَنْ لم يَخرُجْ عنْ ذاتِهِ، لم يخلُصْ مِنْ ظُلُماتِهِ. قالَ قُدوةُ أهلِ الصَّفا، مُحَمَّدُ بنُ وفا: "أجلُّ أنفاسِ العارِفِ: الانطِواءُ بالفناءِ الأكبرِ في ظِلِّ الغِنَى الأعظمِ".

وبالجُملةِ: فالإشارةُ تَصْحَبُها العِللُ، والعِللُ بعيدةٌ مِنَ الحقائِقِ، وحقيقةُ الإشارةِ تعلُّقُ العبدِ بنوعٍ مِنَ الأسماءِ والصِّفاتِ حتَّى تكونَ أحوالُهُ كُلُّها جاريةً على ما يقتَضيهِ ذلِكَ النَّوعُ حالًا وعملًا وقولًا؛ فتظهَرُ كُلُّ أحكامِهِ في أعمالِ العبْدِ، فمَنْ كانَ مثلًا إشارَتُهُ للكَرمِ والفضْلِ أو ضِدِّ ذلِكَ، فأعمالُهُ على نوعِ رجاءٍ أو خوفٍ وهكذا.

(**بلِ العارِفُ**) الحقيقيُّ (**مَنْ لا إشارةَ لهُ**) أصلًا، لا لجمالٍ ولا لجلالٍ، لتعلُّقِهِ بما يستَغرِقُ المُشارَ إليهِ، وخُلوِّهِ عنْ كُلِّ مُلاحظةٍ وإشارةٍ وتنبيهٍ ومعنًى، (**لفنائِهِ في وُجودِهِ وانطِوائِهِ في شُهودِهِ**)، فسُقوطُ إشارَتِهِ في حالِهِ لكَمالِ فنائِهِ بشُهودِ الكَمالِ، لا لنقْصِهِ وقُصورِهِ عنْ مدارِكِ الجَلالِ والجَمالِ، فهوَ فانٍ في وُجودِهِ عنْ وُجودِهِ، وفي شُهودِهِ عنْ شُهودِهِ بموجِدِهِ بلْ بمشهودِهِ.

قالَ التّونسيُّ: "وإنَّما امتنَعتِ الإشارةُ في هذا المقامِ لوُجودِ الاصطِلام[1]". وهذا العارفُ في الحقيقةِ هوَ الفاني في حضرةِ التَّداني، لا العارِفُ الذي ناعتُه إشاراتُ المعاني، فمُرادُ المؤلِّفِ الأوَّلُ لا الثّاني؛ لأنَّ المعرِفةَ مِنْ جُملةِ الأسبابِ، وبتَعدادِ الوسائلِ يكونُ وُجودُ الحِجابِ؛ ولهذا قالَ أهلُ التَّحقيقِ: المعرِفةُ حِجابٌ عَنِ المعروفِ، وهذا عِنْدَ غيرِهِمْ غيرُ مألوفٍ، فقَلْبُ هذا العارِفِ قلمُ الرَّحمَنِ، يكتُبُ في لوحِ الإمكانِ ما يكونُ وما قدْ كانَ.

***

٧٨. الرَّجاءُ ما قارنَهُ عملٌ، وإلّا فهوَ أُمنيةٌ.

(**الرَّجاءُ**) الصَّحيحُ الصّادِقُ، وهوَ مِنْ مقاماتِ اليقينِ، (**ما قارنَهُ عملٌ**) في سببِ تحصيلِ المرجوِّ؛ إذ هوَ باعِثٌ على الاجتِهادِ فيهِ كالحُزْنِ؛ لأنَّ مَنْ رجا شيئًا طلبَهُ، كما أنَّ مَنْ خافَ شيئًا هربَ مِنهُ، والرَّجاءُ تعلُّقُ القلبِ بمطموعٍ مآلًا، معَ الأخذِ في العملِ المُحصِّلِ لهُ، وقيلَ: طمعٌ بصُحبةِ عملٍ في سببِ المطموعِ فيهِ لحُصولِهِ، (**وإلّا**) بأنْ لم يُقارِنْهُ عملٌ (**فهوَ أُمنيةٌ**) أي تمنٍ لا حقيقةَ لهُ، واغتِرارٌ بالحقِّ سُبحانَهُ، والأمنيةُ لصاحِبِها مَنِيّةٌ، إذ المنيّةُ إعدامٌ حِسّيٌّ، والأُمنيةُ إعدامٌ معنويٌّ.

والرَّجاءُ إذا قارَنَتْهُ الأعمالُ، فهوَ مِنْ مقاماتِ الكَمالِ، وإذا قارنَهُ فُتورٌ فصاحِبُهُ مغرورٌ، والأُمنيَّةُ قاطعةٌ عنْ فوائِدِ الحَياةِ، ومُبعِدةٌ مِنْ حُصولِ الأغراضِ، فمنِ انتَهكَ الحُرُماتِ، واسترسَلَ في اللَّذّاتِ مُعرِضًا عنِ التَّوبةِ، اعتِمادًا على رجاءِ المعرِفةِ، كانَ ذلِكَ ترَةً[2] عليْهِ.

قالَ الكرخي: "طلبُ الجنّةِ بلا عملٍ ذنبٌ، ورجاءُ الشَّفاعةِ بغيرِ سببٍ غُرورٌ، ورجاءُ رحمةِ مَنْ لا يُطاعُ جهلٌ وحُمقٌ"، وقالَ الحسنُ: "إنَّ قومًا ألهتهُمْ أمانيُّ المغْفِرةِ حتَّى خرَجوا مِنَ الدُّنْيا ولا حسنةَ لهُمْ، يقولُ أحدُهُمْ: أُحسِنُ الظَّنَّ بربِّي، كذَبَ، لو أحسَنَ الظَّنَ بربِّهِ لأحسنَ

(١) الاصْطِلامُ: افْتِعالٌ من الصَّلْم، وهو القطع. [لسان العرب]

(٢) أي نقصًا، وقيل: تبعةً، ومنه حديث: (مَن جَلَسَ مَجْلِساً لم يُذكَر الله فيه كان عليه تِرَةً). [لسان العرب]

العملَ"، ﴿ذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ [فصلت: ٢٣]؛ فإيّاكَ والرُّكونَ إلى راحةٍ قليلةٍ تورِثُ تعبًا طويلًا.

وفي الحديثِ: (الكيِّسُ مَنْ دانَ نفْسَهُ وعمِلَ لما بعْدَ الموتِ، والعاجزُ مَنْ أتبَعَ نفْسَهُ هَواها، وتمنَّى على اللهِ الأمانيَ)[1]، فأدرِكْ عُمْرَكَ قبْلَ الفوتِ، وهيِّئْ أمرَكَ قبْلَ الموتِ، واغتَنِمْ بياضَ اليومِ قبلَ العشيّةِ، فالليلةُ حُبْلى جنينُها في مشيمةِ المشيّة[2]، ولا تغتَرْ بكثرةِ أسبابِكَ، فلعلَّ هذا السَّمَنَ وَرَم، ولا بنضرةِ شبابِكَ فبعدَهُ سببٌ وهرم، وتشمَّرْ قبلَ أنْ يُنسَخَ نسرُكَ عُصفوراً، وتنبَّهْ قبلَ أنْ يعودَ مِسكُكَ كافوراً، واعملْ قبلَ أنْ يصيرَ العملُ أُمنيةً، واستَقِمْ قبلَ أنْ يصيرَ الظَّهرُ حنيةً، واتَّجِرْ قبلَ أنْ تُطرَدَ عنْ سوقٍ تُقامُ طرَفَها فلا يبيعون، واجتَهِدْ قبلَ أن يُكْشَفَ عَن سَاقٍ ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢].

***

٧٩. مطلبُ العارفينَ مِنَ اللهِ الصِّدْقُ في العُبوديّةِ، والقيامُ بحقِّ الرُّبوبيّةِ.

(**مطلبُ العارفينَ مِنَ اللهِ الصِّدْقُ في العُبوديّةِ، والقيامُ بحقِّ الرُّبوبيّةِ**) مِنْ غيرِ رِعايةِ حقٍّ، ولا بقاءٍ معَ نفسٍ، كما هوَ شأنُ غيرِهِمْ، فشتّانَ -كما قالَ أبو مديَنَ- بينَ مَنْ هِمَّتُهُ الحورُ والقُصورُ، وبينَ مَنْ هِمَّتُهُ رفعُ السُّتورِ ودوامُ الحُضورِ، فخيرُ ما تطلُبُ مِنْهُ ما هوَ طالبٌ مِنْكَ؛ والصِّدقُ في العُبوديّةِ التزامُ أحكامِها في كُلِّ وِرْدٍ وصدْرٍ، وهوَ عينُ القيامِ بحقِّ الرُّبوبيّةِ، ومدارُهُ على التَّشمُّرِ للحُقوقِ، والإعراضِ عنْ كُلِّ مخلوقٍ، والاستِسْلامِ تحتَ جرَيانِ الأحكامِ.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٢٣)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، والطبراني في الكبير (٧/رقم ٧١٤١)، والصغير (٨٦٣)، والحاكم (١/٥٧)، وغيرهم من حديث شداد بن أوسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، وحسَّنه الترمذيُّ.

(٢) أي المشيئة، بتخفيف الهمزة.

قالَ التّونسيُّ: "وإنَّما امتنَعتِ الإشارةُ في هذا المقامِ لوُجودِ الاصطِلام[1]". وهذا العارِفُ في الحقيقةِ هوَ الفاني في حضرةِ التَّداني، لا العارِفُ الذي ناعتُه إشاراتُ المعاني، فمُرادُ المؤلِّفِ الأوَّلُ لا الثّاني؛ لأنَّ المعرِفةَ مِنْ جُملةِ الأسبابِ، وبتَعدادِ الوسائلِ يكونُ وُجودُ الحِجابِ؛ ولهذا قالَ أهلُ التَّحقيقِ: المعرِفةُ حِجابٌ عَنِ المعروفِ، وهذا عِنْدَ غيرِهِمْ غيرُ مألوفٍ، فقَلْبُ هذا العارِفِ قلمُ الرَّحمَنِ، يكتُبُ في لوحِ الإمكانِ ما يكونُ وما قدْ كانَ.

***

٧٨. الرَّجاءُ ما قارنَهُ عملٌ، وإلّا فهوَ أُمنيةٌ.

(**الرَّجاءُ**) الصَّحيحُ الصّادِقُ، وهوَ مِنْ مقاماتِ اليقينِ، (**ما قارنَهُ عملٌ**) في سببِ تحصيلِ المرجوِّ؛ إذ هوَ باعِثٌ على الاجتهادِ فيه كالحُزْنِ؛ لأنَّ مَنْ رجا شيئًا طلبَهُ، كما أنَّ مَنْ خافَ شيئًا هربَ مِنهُ، والرَّجاءُ تعلُّقُ القلبِ بمطموعٍ مآلًا، معَ الأخذِ في العملِ المُحصِّلِ لهُ، وقيلَ: طمعٌ بصُحبةِ عملٍ في سببِ المطموعِ فيهِ لحُصولِهِ، (**وإلّا**) بأنْ لم يُقارِنْهُ عملٌ (**فهوَ أُمنيةٌ**) أي تمنٍ لا حقيقةَ لهُ، واغتِرارٌ بالحقِّ سُبحانَهُ، والأمنيةُ لصاحِبِها مَنيّةٌ، إذ المنيّةُ إعدامٌ حِسّيٌّ، والأُمنيةُ إعدامٌ معنويٌّ.

والرَّجاءُ إذا قارَنَتْهُ الأعمالُ، فهوَ مِنْ مقاماتِ الكَمالِ، وإذا قارنَهُ فُتورٌ فصاحِبُهُ مغرورٌ، والأُمنيّةُ قاطِعةٌ عنْ فوائِدِ الحَياةِ، ومُبعِدةٌ مِنْ حُصولِ الأغراضِ، فمنِ انتَهكَ الحُرُماتِ، واسترسَلَ في اللَّذّاتِ مُعرِضًا عنِ التَّوبةِ، اعتِمادًا على رجاءِ المعرِفةِ، كانَ ذلكَ ترَةً[2] عليْهِ.

قالَ الكرخي: "طلبُ الجنّةِ بلا عملٍ ذنبٌ، ورجاءُ الشَّفاعةِ بغيرِ سببٍ غُرورٌ، ورجاءُ رحمةِ مَنْ لا يُطاعُ جهلٌ وحُمقٌ"، وقالَ الحسنُ: "إنَّ قومًا ألهتهُمْ أمانيُّ المغْفرةِ حتَّى خرَجوا مِنَ الدُّنْيا ولا حسنةَ لهُمْ، يقولُ أحدُهُمْ: أُحسِنُ الظَّنَّ بربي، كذَبَ، لو أحسَنَ الظَّنَ بربِّهِ لأحسنَ

(١) الاصْطلامُ: افْتعالٌ مِنَ الصَّلْم، وهو القطع. [لسان العرب]
(٢) أي نقصًا، وقيل: تبِعةً، ومنه حديث: (مَن جَلَسَ مجْلساً لم يُذكَر الله فيه كان عليه ترَةً). [لسان العرب]

العمَلَ"، ﴿ذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ [فصلت: ٢٣]؛ فإيّاكَ والرُّكونَ إلى راحةٍ قليلةٍ تورِثُ تعبًا طويلًا.

وفي الحديثِ: (الكيِّسُ مَنْ دانَ نفْسَهُ وعملَ لما بعْدَ الموتِ، والعاجزُ مَنْ أتبَعَ نفْسَهُ هَواها، وتمنَّى على اللهِ الأماني)[1]، فأدرِكْ عُمْرَكَ قبْلَ الفوت، وهيِّئْ أمرَكَ قبْلَ الموت، واغتَنِمْ بياضَ اليومِ قبلَ العشيّة، فالليلةُ حُبْلى جنينُها في مشيمةِ المشيّة[2]، ولا تغتَرْ بكثرةِ أسبابِكَ، فلعلَّ هذا السَّمَنَ وَرَم، ولا بنضرةِ شبابِكَ فبعدَهُ سببٌ وهرم، وتشمَّرْ قبلَ أنْ يُنسَخَ نسرُكَ عُصفورًا، وتنبَّهْ قبلَ أنْ يعودَ مِسكُكَ كافورًا، واعملْ قبلَ أنْ يصيرَ العملُ أُمنيةً، واستَقِمْ قبلَ أنْ يصيرَ الظَّهرُ حنيةً، واتَّجِرْ قبلَ أنْ تُطرَدَ عنْ سوقٍ تُقامُ طرَفَها فلا يبيعون، واجتَهِدْ قبلَ أن يُكْشَفَ عَن سَاقٍ ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢].

***

٧٩. مطلبُ العارفينَ مِنَ اللهِ الصِّدْقُ في العُبوديّةِ، والقيامُ بحقِّ الرُّبوبيّةِ.

(**مطلبُ العارفينَ مِنَ اللهِ الصِّدْقُ في العُبوديّةِ، والقيامُ بحقِّ الرُّبوبيّةِ**) مِنْ غيرِ رِعايةِ حقٍّ، ولا بقاءٍ معَ نفسٍ، كما هوَ شأنُ غيرِهِمْ، فشتّانَ -كما قالَ أبو مديَنَ- بينَ مَنْ همَّتُهُ الحورُ والقُصورُ، وبينَ مَنْ همَّتُهُ رفعُ السُّتورِ ودوامُ الحُضورِ، فخيرُ ما تطلُبُ مِنْهُ ما هوَ طالبٌ مِنْكَ؛ والصِّدقُ في العُبوديّةِ التزامُ أحكامِها في كُلِّ وِرْدٍ وصدْرٍ، وهوَ عينُ القيامِ بحقِّ الرُّبوبيّةِ، ومدارُهُ على التَّشمُّرِ للحُقوقِ، والإعراضِ عنْ كُلِّ مخلوقٍ، والاستِسْلامِ تحتَ جرَيانِ الأحكامِ.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٢٣)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، والطبراني في الكبير (٧/رقم ٧١٤١)، والصغير (٨٦٣)، والحاكم (١/٥٧)، وغيرهم من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، وحسَّنه الترمذيُّ.

(٢) أي المشيئة، بتخفيف الهمزة.

قالَ التّونسيُّ: "والجامعُ لدَوائِرِ هذا المقامِ القيامُ بالآدابِ المُحمَّديّةِ في الوَظائفِ الشَّرعيّةِ على بِساطِ المُراقبةِ والحياءِ في جميعِ الأنفاسِ بالصِّدْقِ الخالِصِ للهِ وحدَهُ، وإذا طلبْتَ اللهَ بالصِّدْقِ أعطاكَ مرآةً تُبصِرُ فيها عجائبَ الدّارَيْنِ، ومَنْ أُعطِي مرآةَ الكشْفِ علِمَ كيفيّةَ القيامِ بحقِّ الرُّبوبيّةِ".

تتِمّةٌ: قالَ ابنُ عربي: "نهايةُ العارِفينَ منقولةٌ غيرُ معقولةٍ، فما ثَمَّ عِندَهُمْ إلّا بِدايةٌ، وتنقَضِي أعمارُهُمْ وهُمْ معَ اللهِ على أوَّلِ قدمٍ".

فائدةٌ: قالَ أيضًا: "ليسَ للعارِفِ الكامِلِ هِمّةٌ تؤثِّرُ في أحدٍ آذاهُ؛ لأنَّ المعرفةَ لم تدَعْ لهُ هِمّةً يتصَرَّفُ بها، وكُلَّما علَتِ المعرِفةُ نقصَ التَّصرُّفُ؛ للتَّحقُّقِ بمقامِ العُبوديّةِ، ونظرِهِ إلى أصلِ خِلقَتِهِ مِنَ الضَّعفِ والعجْزِ"، وقالَ: "لا يصِحُّ لعبدٍ مقامُ المعرفةِ وهوَ يجهَلُ حُكمًا واحِدًا مِنْ جميعِ شرائعِ الأنبياءِ، فمَنِ ادَّعى المعرِفةَ، واستشْكَلَ حُكمًا واحِدًا في الشَّريعةِ المُحمَّديّةِ أو غيرِها فهوَ كاذِبٌ".

مُهِمّةٌ: قالَ بعضُهُمْ: المُريدُ تغلِبُ أحوالُهُ عليْهِ، فيبدو نورُها على ظاهِرِهِ، والعارِفُ حاكِمٌ على أحوالِهِ، فلا يظهرُ منْهُ إلّا وُجودُ البشريّةِ؛ فلذلِكَ تميلُ النُّفوسُ للمُريدينَ أكثَرَ مِنَ العارِفينَ، ويظهَرُ التَّحقُّقُ عليهِمْ أكثرَ مِنْ أهلِ الكَمالِ.

***

٨٠. قبضَكَ كي لا يُبقيكَ معَ البسْطِ، وبسطَكَ كي لا يترُكَكَ معَ القبضِ، وأخرَجكَ عنهُما، حتَّى لا تكون بشيءٍ دونَهُ.

(**قبضَكَ كي لا يُبقيكَ معَ البسْطِ**) فتطغَى فتهلَكَ، (**وبسطَكَ كي لا يترُكَكَ معَ القبضِ**) فتضيقَ فتضجَرَ، فمِنْ لُطفِهِ بِكَ تلوينُكَ فيهِما، (**وأخرَجكَ عنهُما**) بفنائِكَ عَنْ نفسِكَ وبقائِكَ بربِّكَ (**حتَّى لا تكون بشيءٍ دونَهُ**)، رحمةً مِنْهُ بِكَ.

فالبسْطُ واردٌ يملأُ القلبَ فرَحًا، والقبْضُ واردٌ يملؤهُ ترَحًا، وإنَّما يردانِ على الجَنانِ في أوائلِ سُلوكِ الإنسانِ، حينَ تكونُ نفسُهُ مرّةً مغلوبةً ومرّةً غالبةً، ومرّةً مطلوبةً وأُخرَى طالبةً؛ فإذا اختَطفَهُ الحُبُّ، وتأكَّدَ مِنَ اللهِ القُرْبُ، ترقّى القلْبُ وخرجَ مِنْ حِجابِهِ، وتقشَّعتْ عنْهُ سُحُبُ سَحابِهِ، وعِنْدَ ذلِكَ يخرُجُ مِنْ تصرُّفِ الحالِ، ويفنى عَنِ السِّوى، وذلِكَ هو الكَمالُ؛ فالمُريدُ في بِدايَتِهِ صاحِبُ خوفٍ ورجاءٍ، ثُمَّ يتبدَّلانِ بالقبضِ والبسطِ، ثُمَّ بالهيبةِ والأنْسِ، ثُمَّ يخرُجُ عنْ ذلِكَ كُلِّهِ.

قالوا: وفي طيِّ الجلالِ بسطٌ شديدٌ لا يكادُ صاحِبُهُ يُحِسُّ بالنّارِ، ولو أنَّهُ في الدَّرْكِ السّابِعِ، وسببُهُما منعٌ أو إعطاءٌ، وكُلُّ قبْضٍ أو بسْطٍ لا يُعلَمُ سبَبُهُ فمِنْ إهمالِ صاحِبِهِ أوقَاتَهُ، ولو تطلَّبَ، وجدَ السَّببَ.

وقالَ بعضُهُمْ: القبْضُ والبسْطُ وصفانِ وُجوديّانِ يتعاقَبانِ على القلْبِ، فهوَ تارةً كذا وتارةً كذا، وتارةً في موقِفِ الاعتِدالِ، فإذا رأيْتَهُ بسطَكَ فاعلَمْ أنَّهُ أرادَ إخراجَكَ مِنْ رِقِّ عُبوديّةِ القبْضِ وقهْرِهِ، أو قبَضَكَ فاعلَمْ أنَّهُ أرادَ إزعاجَكَ مِنَ الرُّكونِ لغيْرِهِ، فاحمَدْهُ، وإذا أخرَجَكَ عنهُما فاعلَمْ أنَّهُ أرادَ أنْ يُرقّيكَ إلى مقامِ الفَناءِ والبقاءِ.

وإذا أُشكِلَ على صاحِبِ قبْضٍ سبَبُهُ، فطريقُهُ التَّسليمُ حتَّى يتصرَّمَ وقتُهُ، فإنْ تكلَّفَ نفيَهُ زادَ هُجومًا، فإنْ سلَّمَ بحُكْمِ الوقْتِ، زالَ عنْ قريبٍ.

مَنْ غالَبَ الحقَّ لا ينفَكُّ ذا نصَبِ * ولا يزالُ معَ الأنفاسِ في تعبِ

سلِّمْ تسلَمْ، قالَ تعالَى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فأبشرْ بمَجيءِ البَسْطِ بعْدَ القبْضِ فإنَّهُ مُقدِّمَتُهُ؛ لأنَّ عادةَ العليمِ المُتعالِ أنَّ تجلّي الجلالِ يعقُبُهُ تجلّي الجمالِ، وأكثَرُ ما يعتَري البسْطُ والقبْضُ أهْلَ البِدايةِ لبَقاءِ أوصافِ النَّفسِ الظُّلمانيّةِ.

قالَ بعضُهُمْ: الظّاهِرُ في الوُجودِ إنّما هوَ الجلالُ؛ لأنَّ صِفةَ الجَمالِ محشوّةٌ بمعاني الجلالِ، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، ولهذا قال:

٨١. العارفون إذا انبَسَطوا أخْوَفُ مِنهُمْ إذا قُبِضوا، ولا يقِفُ على حُدودِ الأدَبِ في البسْطِ إلّا قليلٌ.

(العارِفون إذا انبَسَطوا، أخْوَفُ مِنْهُمْ إذا قُبِضوا) خوفًا مِنَ المكْرِ، وغيرُهُمْ إذا بُسِطَ، أرجى مِنْهُ إذا قُبِضَ، فإنَّ حقيقةَ المعرفةِ توجبُ للعارِفِ أنَّهُ إذا واجَهَهُ بجمالٍ ذكرَ جلالَهُ، وإذا واجَهَهُ بجَلالٍ ذكرَ جمالَهُ، فلا ييأَسُ مِنَ اللهِ في شيءٍ، ولا يأْمَنُ مِنْهُ في شيءٍ.

وواردِاتُ أهْلِ المعرفةِ تأتيهِمْ بغيْرِ استِعْدادٍ؛ فإذا بُسِطوا بغيرِ اختيارٍ استَعدّوا للقبْضِ؛ لأنَّ اسْمَهُ الباسطَ في ضِمْنِهِ -مِنْ جهةِ المُقابَلةِ في حضرةِ التَّضادِ- القابضُ، فإذا تحقَّقَ في حضرةِ شُهودِهِ لكَمالِ مشهودِهِ، تيقَّنَ ضرورةَ وُرودِ القبضِ بعدَهُ كعكسِهِ.

(ولا يقِفُ على حُدودِ الأدَبِ) معَ المجالِسِ معَ اللهِ تعالى القائلِ: (أنا جليسُ مَنْ ذكرَني)[1] **(في البسْطِ إلّا قليلٌ)**، فالأدبُ في البسْطِ مِنْ واجباتِ الطَّريقِ، مَنْ راعى العدلَ في بسْطِهِ عثرَ على التَّوفيقِ، العارِفُ خائفٌ في الانبساطِ، مِنْ طُغيانِ النَّفسِ فيرجعُ إلى انحطاطٍ، وأمّا القبضُ فكلُّهُ أدبٌ، ولذلكَ لزِمَهُ الانكسارُ والذِّلّةُ؛ وذلكَ لأنَّ البسْطَ ينشُرُ الحرارةَ بالبدَنِ، فتسترسِلُ النَّفسُ معَ ما يُلابِسُها ويلائمُها، وذلكَ يستدعي سوءَ الأدبِ في الحركةِ والتَّصرُّفِ، إذ لا يُمكِنُ معَهُ حِفْظُ الحُرمةِ للطَّيشِ الباعِثِ على الحرَكةِ القهريّةِ، فلا يقِفُ على حدِّ الأدبِ إلّا مُتمَكِّنٌ تحقَّقَ بحقائقِ حِفْظِ الحُرمةِ، ولذلكَ قيلَ: "قِفْ على البِساطِ، وإيّاكَ والانبساطَ".

ومِنَ القليلِ رجالٌ مِنْ أهلِ اللهِ جلسوا على بساطِ البسْطِ إلى آخرِ عُمْرِهِمْ لم يعقُبْهُمْ قبضٌ بحالٍ، سيَّما أهلَ تعشُّقِ الجمالِ المُطلَقِ، الذين غابَ عنهُمْ شُهودُ القبيحِ، وحضرَهُمْ

---

(١) أخرجه الديلمي عن السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مرفوعًا، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٢٢٤)، والبيهقي في الشعب (٦٧٠)، وغيرهما عن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ موقوفًا، وانظر طرقه وألفاظه في المقاصد الحسنة للسخاوي (١٦٨/١). ويشهد له حديث الصحيحين: (أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني...).

شُهودَ كُلِّ مليحٍ. حكى ذو النّونِ: "كُنْتُ بالطَّوافِ، فسمِعْتُ صوتًا حزينًا، وإذا بجاريةٍ مُتعلِّقةٍ بأستارِ الكعبةِ، تقولُ:

أنتَ تدري يا حبيبي * يا حبيبي أنتَ تدري

فشجاني قولُها حتَّى بكيْتُ وانتَحبْتُ، ثُمَّ قالَتْ: "إلاهي بحُبِّكَ لي إلَّا غفَرْتَ لي"، فتَعاظَمَني ذلِكَ وقُلْتُ: يا جاريةُ، ما يكفيكِ أنْ تقولي: "بحُبّي لكَ" حتَّى تقولي "بحُبِّكَ لي"؟ فقالَتْ: إليكَ عنّي يا ذا النّونِ، ألَمْ تسمَعْ قولَهُ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، فقدَّمَ محبَّتَهُ!".

وحُكيَ في عِلْمِ الهَوى عنْ بعضِهِمْ: كُنْتُ ببَيْتِ المقدسِ فرأَيْتُ إنسانًا نائمًا، فقامَ وقالَ: وعِزَّتَكَ إنْ لَمْ تُطعِمْني خُبزًا وعصيدةً وإلَّا كسَرْتُ قناديلَ بيتِكَ، فقُلْتُ: مجنونٌ أو وليٌّ مُدِلٌّ، ثُمَّ عادَ إلى حالِهِ ونامَ، فإذا بحمّالٍ معَهُ ما ذكرَهُ فوضَعَهُ عِنْدَهُ، فأكَلَ منْهُ، وحمَلَ الرَّجُلُ الباقي، وذهَبَ!!

ثُمَّ علَّلَ ذلِكَ بقولِهِ:

***

٨٢. البَسْطُ تأخُذُ النَّفسُ مِنْهُ حظَّها بوُجودِ الفرَحِ، والقبْضُ لا حظَّ للنَّفْسِ فيهِ.

(**البَسْطُ تأخُذُ النَّفسُ مِنْهُ حظَّها بوُجودِ الفرَحِ**)، والفرَحُ يُجانِبُ الأدَبَ، وموقِفُ الحُظوظِ مُنافٍ للقيامِ بالحُقوقِ، (**والقبْضُ لا حظَّ للنَّفْسِ فيهِ**) لأنَّهُ يَدهَشُها ويُشوِّشُها، والنَّفْسُ لا تركَنُ إلّا للمُلائِمِ، وتفِرُّ مِنَ المُنافِرِ، والبسْطُ يُريحُها، والقبْضُ يُكدِّرُها؛ فإذا أقبَلَتْ على الرّاحةِ فاحمِلْها على التَّعَبِ، وإنْ توجَّهَتْ لارتياحِ البسْطِ فافتَحْ بابَ القبْضِ؛ فالخَيْرُ كُلُّهُ في مُخالَفتِها؛ ولذلِكَ كانَ بعضُهُمْ إذا انبسَطَ أصحابُهُ ليلةً في سماعٍ كفَّهُمْ خوفًا مِنْ وُرودِ سببِ القبْضِ، لما يعلَمُ مِنْ مكائِدِ النَّفْسِ.

قالَ في اللَّطائفِ[١]: "البسطُ مزَلّةُ أقْدامِ الرِّجالِ، فهوَ موجبٌ لمزيدِ حذَرِهِمْ، والقبْضُ أقرَبُ للسَّلامةِ لأنَّهُ وطَنُ العبْدِ؛ لكونِهِ في أثَرِ قبضةِ اللهِ وهوَ محيطٌ به، والقبْضُ هوَ اللّائقُ بهذهِ الدّارِ؛ إذ هيَ وطنُ التَّكليفِ وإبهامِ الخاتِمةِ وعدمِ العِلْمِ بالسّابِقةِ، وأنّى يكونُ البسْطُ لمنْ هذا شأنُهُ!".

قالَ رجُلٌ للجَريري[٢]: "كُنْتُ على بِساطِ الأُنْسِ، وفُتِحَ عليَّ البسْطُ فزَلَلْتُ زلّةً، فحُجِبْتُ عنْ مقامي، فكيفَ السَّبيلُ إليهِ؟ دُلَّني على الوُصولِ إليهِ، فبكى وقالَ: الكُلُّ في قبضتِهِ.

قِفْ بالدّيارِ فهذِهِ آثارُهُمْ * تبكي الأحِبّةَ حسرةً وتشوُّقا

كم قد وقفْتُ بربْعِها مُستخْبِراً * ومُسائِلاً عنْ أهلِها أو مُشفقا

فأجابَني داعي الهوى في رسْمِها * فارَقْتَ مَنْ تهوَى فعزَّ الملتَقَى"

قالَ التّونسيُّ: "والتّأديبُ أسرَعُ لأهلِ التَّقريبِ، وأمّا منْ عداهُمْ ففي الإهمالِ والإمهالِ".

***

٨٣. رُبَّما أعطاكَ فمنعَكَ، ورُبَّما منعَكَ فأعطاكَ.

(**رُبَّما أعطاكَ**) ظاهِرًا نيلَ ما جُبِلْتَ على الميْلِ إليهِ مِنَ اللّذّاتِ والشَّهَواتِ، والكونِ معَ المألوفاتِ والمُعتاداتِ، (**فمنعَكَ**) حقيقةً ما هوَ أعلى مِنْ ذلِكَ.

(**ورُبَّما منعَكَ**) حظَّكَ وأعراضَكَ وحرَّرَكَ مِنْهُما، (**فأعطاكَ**) ما هوَ أشرَفُ وأعظَمُ، فقد يكونُ المنعُ إكرامًا، والعطاءُ إهانةً، فلا تنْقَبِضْ لوُجودِ شيءٍ ولا عدمِهِ نظرًا لما يُظَنُّ في الوُجودِ والعدَمِ، فكُنْ خائفًا راجيًا في عطائِهِ ومنْعِهِ، راجِعًا باللَّجأ والافتِقارِ إليْهِ فيهِما، غيرَ مُطمَئِنٍ لشيءٍ مِنْهُما، فرُبَّما أعطاكَ نيلَ شهَواتِكَ فمنعَكَ حلاوةَ مُناجاتِكَ؛ إذا خلّاكَ وهواكَ فقدْ

(١) أي ابن عطاء الله في "لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن".

(٢) شيخ الصوفية أحمد بن محمد بن الحسين، أبو محمد الجريري، من كبار أصحاب الجنيد، وصحب أيضا سهل بن عبد الله التستري، وهو من علماء مشايخ القوم، أقعد بعد الجنيد في مجلسه لتمام حاله وصحة علمه، توفي سنة ٣١١. طبقات السلمي (ص٢٠٣)، تاريخ بغداد (١٩٧/٥).

خذلَكَ ومنعَكَ هُداكَ، ورُبَّما منعَكَ اللّذّاتِ، فأعطاكَ جزيلَ الهيْئاتِ، ورُبَّما أعطاكَ مِنَ الدُّنيا ما تُريدُ، ولم تشكُرْ فمنعَكَ المزيدَ، فقد يكونُ المنعُ إكرامًا والعطاءُ إهانةً.

قالَ الشّارِحُ: "ما أحسنَ هذهِ الحِكمةَ هُنا؛ فإنَّها ربطَتِ المعنَى، وخاطَتِ الثّوبَ المُفصَّلَ للابِسِهِ في حضرةِ القُربِ، بمَوارِدِ الأحوالِ على أهلِ النَّقصِ والكَمالِ؛ وذلكَ أنَّ الحقَّ إذا أورَدَ على عبدِهِ واردَ بسْطٍ، فسكَنَ إليهِ ورضيَ بِهِ دون ما سِواهُ، فقدْ منَعَهُ فيما أعطاهُ مِنْ خيرٍ كضُرٍّ، وإذا أوردَ عليهِ [وارِدَ] قبضٍ، فلم يسكُنْ إليهِ، وشهِدَ فاقتَهُ وطلَبَ ما فوقَهُ، فقدْ أعطاهُ مآلًا، وإنْ منَعَهُ حظَّهُ حالًا، ويجري ذلِكَ في كُلِّ عطاءٍ ومنعٍ".

قالَ ابنُ عربي: "إذا مُنِعْتَ فذلكَ عطاؤهُ، وإنْ أُعطِيْتَ فذلِكَ منعُهُ، فاخترِ التَّركَ على الأخذِ". قالَ التّونِسيُّ: "وقولُهُ فاختَرْ إلى آخِرِهْ.. سوءُ أدبٍ بالاختيارِ معَ المُدبِّرِ المُختارِ، بلِ الواجبُ عدمُ الاختيارِ أخذًا وتركًا". وأقولُ: هذا مِنَ التّونسيِّ غيرُ مقبولٍ؛ إذْ كلامُ الشَّيخِ الأكبَرِ إنَّما هوَ في العارِفِ، وقدْ تقدَّمَ عنِ الإمامِ الرّازي أنَّهُ ما دامَ العبْدُ يتعرَّفُ، هوَ مأمورٌ بتركِ الاختيارِ؛ فإذا صارَ عارِفًا قيلَ لهُ: "إنْ شِئْتَ اختَرْ، وإنْ شِئْتَ لا تختَرْ" فتدبَّرْ.

وصوَرُ طيِّ العَطاءِ في المنعِ كثيرةٌ، منْها ما ذكرَهُ بقولِهِ:

٨٤. متَى فتَحَ لكَ بابَ الفهْمِ عنْهُ في المنْعِ، عادَ المنْعُ عيْنَ العَطاءِ.

(**متَى فتَحَ لكَ بابَ الفهْمِ عنهُ في المنْعِ، عادَ المنْعُ عيْنَ العَطاءِ**) على التحقيقِ، كما أفادَهُ قولُهُ الآتي: "متى أعطاكَ أشهدَكَ برَّهُ"، وذلِكَ لأنَّهُ يردُّكَ لمولاكَ، ويصلُكَ بهِ مِنْ جهةِ ما بهِ تولّاكَ، والنِّعْمةُ ما وصلَكَ بالحَقائقِ وقطعَكَ عَنِ الخَلائقِ. قالَ التّونسيُّ: "وهذا الفهْمُ هوَ عِلْمُ المعرفةِ المُبيِّنةِ حقائقَ تفْصيلِ ذَواتِ العَطايا عاجلًا وآجلًا، حسّيًّا ومعنَويًّا، في أنواعِ المواهِبِ الرَّبّانيّةِ مِنْ فيْضِ فضلِهِ، وما يمنعُهُمْ إيّاهُ بحِكْمَتِهِ؛ فإذا وهَبَ عبْدَهُ معرِفةَ فِقْهِ تصرُّفاتِهِ الحِكميّةِ أكرمَهُ بجَزيلِ العطيّةِ".

٨٥. الأكوانُ ظاهرُها غِرّةٌ وباطِنُها عِبرةٌ، فالنَّفْسُ تنظُرُ إلى ظاهِرِ غِرَّتِها، والقلْبُ ينظُرُ إلى ظاهِرِ عِبرَتِها.

(**الأكوانُ**) التي للنَّفْسِ فيها حظٌّ، وهيَ زهْرةُ الحَياةِ الدُّنْيا (**ظاهِرُها غِرّةٌ**) لأنَّها حُلوةٌ خَضِرةٌ، (**وباطِنُها عِبرةٌ**) لأنَّها مشهدُ حقيقةِ الحقائقِ مِنَ الغِنى والبقاءِ للرَّبِّ، والفقْرِ والفَناءِ للعبْدِ، (**فالنَّفْسُ تنظُرُ إلى ظاهِرِ غِرَّتِها**) فتنبْسِطُ لوُجودِها وتنقَبِضُ لعدَمِها، فتُهلِكُ صاحِبها، (**والقلْبُ**) يعني البَصيرةَ (**ينظُرُ إلى ظاهِرِ عِبرَتِها**) فيراها جيفةً قذرةً مُهلِكةً، فيعتبِرُ بها، فينبْسِطُ لعدَمِها وينقَبِضُ لوُجودِها، فمَنْ نظرَ إلى ظاهِرِها سرَّتْهُ، أو إلى باطِنِها هدَتْهُ، وإنِ اشتَغلَ بها صَرفتْهُ، وإنِ اطْمأنَّ إليها صَرعتْهُ، وإنْ أعرَضَ عنها فاتَحتْهُ بما فيها، فالعاقِلُ إنَّما ينبسِطُ بإدْبارِها؛ ولهذا كانَ السَّلفُ إذا أقبَلتْ عليهِمْ قالوا: "ذنْبٌ عُجِّلتْ عُقوبَتُهُ"، وإنْ أقبلَ الفقْرُ قالوا: "مرحبًا بشِعارِ الصَّالحين"، فأكوانُ الدُّنيا ظاهِرُها سُرورٌ وباطِنُها شُرورٌ؛ ولهذا نَهيَ المُصطَفَى ﷺ عنْ مدِّ النَّظرِ إليها[١]، فأعرَضَ عنها ولم يُعرِّجْ عليها.

قالَ التّونسيُّ: "الأكوانُ جمعُ كونٍ، ومعنى التَّكوينِ: الخلقُ والإيجادُ، والأكوانُ كثيرةٌ مِنْها قبيحٌ ومليحٌ، فالقبيحُ مُزيَّنٌ لأكثَرِ النَّاسِ، انظُرْ إلى أنواعِ الحَيوانِ المؤذي كحيةٍ وعقربٍ كيْفَ زيَّنَ الحقُّ أوصافَها الظّاهرةَ، وجعلَها رُقومًا ونُقوشًا، فكذا أنواعُ الصّورِ المحبوبةِ مِنْ مطعمٍ وملبَسٍ ومنكَحٍ ومتموَّلٍ، كُلُّها إلى غايةِ الزّخرفةِ والتَّنمُّقِ، ما ذاكَ إلّا لأنَّهُ سُبحانَهُ أتقنَ صُنعَهُ، وألبَسَ بدائعَ صنعَتِهِ أشكالَ الصّورِ الأنيقةِ، وتوَّجَها بتاجِ اللَّطائفِ الرَّشيقةِ؛ ليختَبِرَ عِبادَهُ، حتَّى يعلَمَ مَنْ أرادَ سِواهُ ومَنْ لا مقصدَ لهُ إلّا إيّاهُ، فلهذا كانَتِ الأكوانُ ظاهِرُها اغتِرارٌ، وباطِنُها اعتِبارٌ لمنْ شهِدَ نورَ المُكوِّنِ في مُكوَّناتِهِ، ورأى لطائِفَ الصّانعِ في مصنوعاتِهِ".

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

والنَّظرُ في الأكوانِ يختلفُ باختلافِ منازلِ العرفانِ؛ لأنَّ منْ نظَرَها بالملمَحِ الذي أشرناهُ كانَ مِنْ أهلِ التَّعشُّقِ، ورُبَّما رُقِيَ بهِ إلى مقامِ التَّحقُّقِ، ومَنْ نظرَها بعينِ فنائها نَكبَ عنْها وأعرضَ عنْ طلَبِها، هذا في الأكوانِ العاجلةِ التي ذمَّها الشَّرْعُ، وأمَّا إذا أُطلِقَ لفظُ الأكوانِ لاستِغراقِ الفاني والباقِي، رأيْتَ كُلَّ الأكوانِ ظاهِرَها وباطِنَها عِبرةً بالنِّسبةِ لشُهودِ مُكوِّنِها، مُهيِّجِ القُلوبِ العليمةِ الفاهمةِ عنهُ بتجلّي أطوارِ أكوانِهِ الجَميلةِ؛ لأنَّهُ أجملَ مِنْها، فافهَمْهُ تعلَمْ سِرَّ عدمِ الغُرورِ بظاهِرِ الأكوان، لمنْ نظرَ لقبيحِ بواطِنِها يا إنسان.

على وجهِ ميٍّ مَسْحَةٌ مِنْ مَلاحةٍ * وتحتَ الثِّيابِ العارُ لو كانَ باديا [1]

ولهذا نظرَ المُحقِّقون في الدُّنيا إلى باطِنِها حينَ نظرَ النّاسُ إلى ظاهِرِها، وعايَنوا آجِلَ وصفِها قبلَ عاجِلِهِ، وتركوا مِنْها ما علِموا أنَّهُ يترُكُهُمْ، وأماتوها وهدَموها، وبنوا آخِرَتَهُمْ وعمَّروها؛ فأحياهُمْ ذِكْرُ الموتِ، وأماتَهُمْ حُبُّ الحياةِ الأُخرَوِيّةِ، فكانوا بهذا خيرَ البَرِيّةِ، يُحِبّون اللهَ وذِكرَهُ، أولئكَ أولياءُ اللهِ، وعلامةُ وُجدانِ ذلِكَ قولُ بعضِهِمْ: "ما سطعَتْ فيَّ زينةٌ مِنْ زُخرُفِ الدُّنيا إلّا كشَفَ لي الحقُّ عنْ باطِنِها، فصرفْتُ نفسي عنْها"، وهذا مِنَ العِنايةِ بأوليائِهِ.

***

٨٦. إنْ أردْتَ أنْ يكون لكَ عِزٌّ لا يفنَى، فلا تستَغْنِ بعِزٍّ يَفنَى.

(**إنْ أردْتَ أنْ يكون لكَ عِزٌّ لا يفنَى**) وهوَ الغِنَى عنِ الأسبابِ بمُسبِّبِها، (**فلا تستَغْنِ بعِزٍّ يَفنَى**) مِنَ الغِنَى بالأسبابِ معَ الغُنية عَنِ المُسبِّبِ، إذ هيَ فانيةٌ؛ فالتَّعلُّقُ بِها عِزٌّ فانٍ، وهُما ضِدّانِ، وما ترتَّبَ على الفاني زالَ بزَوالِهِ، فمنِ اعتزَّ باللهِ دامَ عِزُّهُ، أو بغيرِهِ فلا بقاءَ لعِزِّهِ، فأمَدُ العِزِّ بغيرِهِ قليلٌ، منِ استَغنَى بسِواهُ فهوَ الذَّليلُ، مَنِ استَعزَّ بالأَسْبابِ فقلبُهُ في غفلةٍ وحِجابٍ، فإنِ استَمرَّ تُسْلِمُهُ للأغيارِ، فتُذيقَهُ الذُّلَّ في جميعِ الأطوارِ.

(١) من شعر ذي الرُّمة، غيلان بن عقبة بن بهيس. قال فيه أبو عمرو بن العلاء: "افتُتِح الشعراء بامرئ القيس، وخُتِموا بذي الرُّمة". مات بأصبهان كهلا سنة ١١٧هـ.

وقالَ التّونسيُّ: "العزُّ الذي لا يفنَى: عزُّ اللهِ لأصفيائِه، وحقيقتُهُ صفةٌ يُلبسُها الحقُّ عبدَهُ، هيَ رقيقةٌ مِنْ حقيقةِ اسمِهِ العزيزِ، فمنْ زيَّنَهُ بهذهِ الصِّفةِ لا يذلُّ أبدًا، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وما حكَمَ بهِ لا يُمكِنُ نقضُهُ".

وعلامةُ مَنْ كساهُ اللهُ هذهِ الخلعةَ أنْ يجعَلَهُ بالتَّقوَى في أحسنِ طلعةٍ، فمنْ أرادَ الباقيَ فلا يسْتعِزَّ بالفاني، فلا تغترّ بعزِّ أهلِ الدُّنيا، فعنْ قريبٍ تراهُمْ في الذُّلِّ والبعادِ، ولا تحتَقِرْ أهلَ الآخرةِ، فهُمُ الأعزّاءُ في العبادِ، وليسَ العبْرةُ بالعاجلِ إنَّما العبْرةُ في الآجلِ، وعادةُ أهلِ اللهِ الأعِزّاءِ معَ ربِّهِمْ أنْ يُذِلّهُم ثُمَّ يُعِزّهُم، قالَ الشّاذلي: "اللهُمَّ إنَّكَ حكمْتَ على القومِ بالذُّلِّ حتَّى عزُّوا"، وإليهِ أشارَ ابنُ الفارضِ بقولِهِ:

مِنْ درَجاتِ العزِّ أمسَيْتُ مُخْلِدًا * إلى دركاتِ الذُّلِّ مِنْ بعدِ نخْوةِ

ثُمَّ ينشُرُ عليهِمْ لِواءَ العزِّ في الآفاقِ، وهُمْ معَ ذلِكَ في حِجابِ العبْرةِ مستورون، إلّا إنْ أرادَ أنْ يَنصِبَ مِنهُمْ عَلَمًا يُقتَدَى بهِ، فيُبرِزَهُ في أحسَنِ صورةٍ، ويخلَعَ عليهِ اسْمَهُ العزيزَ، فتُقابلَهُ الأكوانُ بالتَّعظيمِ. وقد بلغَ بعضُ أهلِ المغربِ مِنَ العزِّ إلى أنْ كانَتْ بغلتُهُ تُنعَلُ بالفضّةِ وتُغسَلُ بالماورْدِ، واتَّفقَ لِلشِّهابِ السُّهروردي مِنَ العزِّ والتَّعظيمِ إلى أنْ كانَتْ محفَّتُهُ تُحمَلُ على أعناقِ المُريدينَ مِنْ عِراقِ العجَمِ إلى مكّةَ، وقيلَ: "كانَ فيهِمْ سبْعُمائةُ شريفٍ".

ثُمَّ مِنْ وُجوهِ الاعتبارِ أنْ لا تغترَّ بالكَراماتِ، كأنْ تُطوَى لكَ الأرضُ لما بيَّنَهُ بقولِهِ:

***

٨٧. الطَّيُّ الحقيقيُّ أنْ تُطوى مسافةُ الدُّنْيا عنكَ، حتَّى ترَى الآخِرةَ حاضِرةً لديكَ، أقربُ إليْك منكَ.

(**الطَّيُّ الحقيقيُّ أنْ تُطوى مسافةُ الدُّنْيا عنكَ**) أي: تضْمَحِلُّ في نظَرِكَ اضمحلالًا كُلِّيًّا؛ لإشراقِ نورِ اليَقينِ في قلْبِكَ، (**حتَّى ترَى الآخِرةَ حاضِرةً لديكَ**)، بلْ تراها (**أقرَب إليْكَ**

منْكَ)، إذ ذاتُكَ فانيةٌ مُنطَويةٌ، فإذا شهِدْتَ ذلِكَ لم يُمكِنْ أنْ تُحبَّ الغائبَ الفاني وهوَ الدُّنْيا، وتُبدِلَهُ بالحاضِرِ الباقي وهوَ الآخِرةُ؛ ولهذا كانَ أهلُ الرَّغبةِ في الدُّنيا وإيثارِها ضُعفاءَ اليَقينِ.

أمَّا طيُّ مسافةِ الأرضِ بقَطْعِها بلا مشيٍ أو في أقلِّ مُدّةٍ، الذي رُبَّما كانَ استِدراجًا، وطيُّ اللَّيالي والأيّامِ بلا طعامٍ فليْسَ طيًّا حقيقيًّا، فلا تغترَّ بهِ، بلِ المُعتبَرُ طيُّ الدُّنْيا بالزُّهدِ، فإذا لاحَ لكَ لوائحُ اليقينِ، وأشرقَ القلبُ بنورِهِ المتينِ، تلاشَتِ الدُّنيا لديْكَ، ورأيْتَ الآخِرةَ أقربَ منْكَ إليْكَ، لانطواءِ مسافتِها في وُجودِكَ، ورؤيَتِها عدمًا في شُهودِكَ، وهذا هوَ الطيُّ الحقّانيُّ والشُّهودُ الفرْدانيُّ، لا طيُّ المسافةِ، فقد تصحَبُهُ آفَة، ولا طيُّ الأيّامِ واللَّيالي، فقدْ لا يخلصُ للمليكِ العالي.

ولهذا قالَ التّونسيُّ: "ليسَ الشَّأنُ مَنْ تُطوَى لهُ الأرضُ، فإذا هوَ حيْثُ شاءَ، بلْ مَنْ تُطوَى لهُ أوصافُ نفسِهِ"، وقالَ المرتَعِشُ[1]: "مَنْ مُكِّنَ مِنْ مُخالفةِ هواهُ أعظمُ مِمَّنْ يمشي على الماءِ والهَواءِ".

واعلمْ أنَّ الطَّيَّ ثلاثةُ أقسامٍ:

الأوَّلُ: طيُّ الأوصافِ النَّفسيّةِ ومحوُها بالأوصافِ الرُّوحانيّةِ، وبهِ يكونُ طيُّ الأرضِ للقومِ أصحابُ الخُطوةِ الكامِلةِ في الكَوْنِ.

الثّاني: طيُّ الأوصافِ الدُّنيَويّةِ بالأوصافِ الأُخرَويّةِ، وهذا طيٌّ حقيقيٌّ باعتِبارِ أصحابِ اليَمينِ، أربابِ وِلايةِ العمَلِ الصّالِحِ والمتجَرِ الرّابِحِ.

الثّالِثُ: طيُّ أوصافِ الأكوانِ بأوصافِ الرَّحمَنِ، وهذا إنَّما يكونُ للمُقرَّبينَ مِنَ المُصطَفينَ، وهُمْ الذينَ شهِدوا في هذهِ الدّارِ ما وُعِدوا في دارِ القرارِ.

---

(١) أبو محمد عبد الله -وقيل جعفر- بن محمد المرتعش النيسابوري، من كبار مشايخ الصوفية كان من ذوي الأحوال، وأرباب الأموال، فتخلّى منها وصحب الفقراء، صحب أبا حفص الحداد ولقي الجنيد وصحبه، وأقام ببغداد حتى صار أحد مشايخ العراق وأئمتهم، توفي سنة ٣٢٨. حلية الأولياء (١٠/٣٥٥)، وطبقات السلمي (ص٢٦٥)، وتاريخ بغداد (٧/٢٢٨).

٨٨. العطاءُ مِنَ الخلقِ حِرمان، والمنْعُ مِنَ اللهِ إحسان.

(العطاءُ مِنَ الخلقِ حِرمانٌ) لأنَّهُ يوجِبُ حُبَّهُمْ والتَّعلُّقَ بِهِمْ، وصرفَ الوقْتِ بمُكافأتِهِمْ، وذلكَ يوجِبُ ذُهولَ القلْبِ عَنِ الحقِّ، فيفوتُهُ مِنَ المعارِفِ ما لا يُعبَّرُ عنْهُ، وأيُّ حِرمانٍ أعظَمُ منْهُ.

(والمنْعُ مِنَ اللهِ إحسانٌ) لاقتضائِهِ اللَّجْأَ إليهِ، ودوامَ المُثولِ بينَ يديهِ، وحُسْنَ الاختيارِ فيما وُجِّهَ بهِ إليهِ، وذلِكَ عُبوديّةٌ، وأيُّ إحسانٍ أعظَمُ مِنَ التَّوفيقِ إليها، فمَنْ وحَّدَ اللهَ في أفعالِهِ فقدْ استَشْرفَ لكَمالِهِ، ومنْ شهِدَ العَطاءَ مِنَ الخَلْقِ فهوَ محرومٌ، وعِنْدَ أهلِ اللهِ مذمومٌ، ومَنْ شهِدَ المَنْعَ مِنَ اللهِ، فقدْ شهِدَ إحسانَهُ لالتِجائِهِ إليهِ طالبًا جودَهُ وامتنانَهُ، ما ردَّكَ إلى اللهِ فهوَ مِنْ أجلِّ النِّعَمِ، وما قطعَكَ عَنِ السِّوى فهوَ غايةُ الكرَمِ، قالَ القُشَيْرِيُّ: "النِّعمةُ ما قطعَكَ عَنِ الخلائقِ، وجمعَكَ بالحقائقِ، النِّعمةُ ما سلَاكَ عنْ دُنياك، وأدناكَ مِنْ مولاك".

وهوَ لا يمْنعُكَ مِنْ بُخْلٍ ولا عدَمٍ، ولا احتِقارٍ ولا حاجةٍ، بلْ رحمةً بكَ؛ فالمنعُ مِنْهُ عيْنُ العَطاءِ، والعَطاءُ عيْنُ المنعِ لمَنْ فهِمَ مُرادَهُ، ولا يفهمُهُ إلّا صِدّيقٌ، وللهِ درُّ القائلِ:

فلا ألبسُ النُّعمَى وغيرُكَ مُلبِسي * ولا أملكُ الدُّنيا وغيرُكَ واهِبُ

وهذا تربيةٌ ربّانيّةٌ لمَنْ أعرَضَ عنْهُ وطلَبَ مِنْ سِواهُ، انْظُرْ حالَ مَنْ يطلُبُ العَطاءَ مِنَ الخلقِ، كيفَ ابتُليَ بالذُّلِّ والصَّغارِ للكِبارِ والصِّغارِ، وكَيْفَ وضعَ طائرَ إيمانِهِ في حبائلِ الأشْراكِ مِنْ حيثُ دخلَ عليهِ خفيُّ الإشْراكِ، ويا للهِ العجبَ، أيُترَكُ الغنيُّ ويُسألُ الفقيرُ، ويُعْرَضُ عَنِ الكبيرِ وتُرفَعُ الحاجةُ للحقيرِ؟! ما ذاكَ إلّا للعمى وفقْدِ النّورِ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

والمحْجوبُ اللَّئيمُ الذي لم يشهَدْ كرمَ الكَريمِ، تراهُ يُعالِجُ أثقالَ أحمالِ مِنّةِ المخْلوقينَ، ويُكابِدُ نتنَ دَهَنِ مُداهَنةِ المُكثِرينَ، فعيْشُهُ في نكَدٍ ما دامَ الأبدُ، ونقلُ الصُّخورِ على الصُّدورِ

وحملُ أثقالِ الجبالِ أخفُّ مِنْ مِنَنِ الرِّجالِ. وإذا كانَ العطاءُ مِنَ الخلْقِ حرمانًا، وجَبَ الإعراضُ عنهُم بالإقبالِ عليهِ، وذلِكَ يقتَضِي وُجودَ إفضالِه بِلا إمْهالٍ، كما قالَ:

***

٨٩. جَلَّ ربُّنا أنْ يُعامِلَهُ العبْدُ نقدًا، فيُجازيه نسيئةً.

(**جَلَّ ربُّنا أنْ يُعامِلَهُ العبْدُ**) المُتعرِّضُ لهُ بالعملِ الصّالِحِ الخالِصِ (**نقدًا**)، أي مُعاملةً ناجزةً بالطّاعةِ، غيرَ مَوقوفةٍ على زمنٍ يأتي، ولا معلولةٍ بعِلّةٍ، (**فيُجازيه نسيئةً**) أي مُجازاةً مُتأخِّرةً، بلْ هيَ مُعجَّلةٌ حقيقةً وإنْ ظهَرَ أكثَرُها في الآخرةِ، وربَّما أظْهرَ للبعْضِ بعضَها في الدُّنْيا؛ وذلِكَ لأنَّ شأنَ المُستأجِرِ العادلِ أنْ يُعطيَ الأجيرَ أُجرَتَهُ قبلَ فراغِ عمَلِه، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، ووعَدُ الصّادقَ كالجَزاءِ السّابِقِ، والآتي قطعًا كالموجودِ حالًا، والتَّنعُّمُ بانتِظارِ الفائدةِ زيادةٌ في الإحسانِ بها، بلْ في نَظَرِ أهلِ العِرفانِ جزاؤهُ كُلُّهُ مُعجَّلٌ الآنَ، وما جاءَ الخللُ إلّا مِنْ عدَمِ الصِّدْقِ والإخْلاصِ، أما ترى أهلَ الاختِصاصِ كيْفَ عُجِّلَ لهُمْ وُجودُ أنْواعِ الكَراماتِ في الحَياةِ قبْلَ المَماتِ؟! ولو أخلَصْتَ كإخلاصِهِمْ أُكرِمْتَ كإكرامِهِمْ، فدقِّقْ على النَّفْسِ الحِساب، يُرْفَعُ لكَ الحِجاب.

على أنَّهُ لو لم يكُنْ مِنْ جزائِهِ على الطّاعةِ إلّا التَّوفيقَ لها لكفَى، كما قالَ:

***

٩٠. كفَى مِنْ جزائِهِ إيّاكَ علَى الطَّاعةِ أنْ رضيَكَ لها أهلًا.

(**كفَى مِنْ جزائِهِ إيّاكَ علَى الطَّاعةِ**) جزاءً مُعَجَّلًا في بادئِ نظرِكَ، وإنْ كانَ عِنْدَ التَّأمُّلِ كُلُّ جزائِهِ كذلِكَ، (**أنْ رضيَكَ لها أهلًا**) ومَنْ أنْتَ حتَّى أهَّلَكَ لذِكْرِهِ؟! فلا تطلُبْ ثوابًا غيرَ ذلِكَ!

وإنَّكَ مِنْ حيثُ أنْتَ لا يليقُ بكَ إلّا النَّقْصُ؛ فإنَّهُ وصفُكَ اللّازِمُ، وما أجراهُ عليْكَ مِنْ وُجوهِ الكَمالِ مِنّةٌ وإفْضالٌ، وأيُّ جزاءٍ على العمَلِ المؤذِنِ بقُربِهِ أعظَمُ مِنَ التَّأهيلِ لهُ، معَ أنَّهُ دليلُ حُبِّهِ. قامَ بعضُهُمْ لورْدِهِ ليلةً فأصابَهُ بردٌ فبكَى لشدَّتِهِ، وأخذتْهُ سِنةٌ، فقيلَ لهُ: "ما جزاءُ أنْ أنمناهم وأقمناكَ إلّا أنْ تبكي؟!"، فانتبَهَ واستغفَرَ.

فإذا شاهدْتَ مِنْ عظمَتِهِ ما احتَقَرْتَ معَهُ نفسَكَ أنْ يؤهِّلَكَ للقيامِ بخِدْمَتِهِ، معَ إقامَتِهِ إيّاكَ فيها، سَبَاكَ حُبُّهُ، واستَولَى عليْكَ قُربُهُ، فانحبَسَتْ نفسُكَ، واضمَحلَّ وُجودُكَ وحِسُّكَ، وتحيَّرْتَ في كُلِّ مطلبٍ، وذهَبَ بكَ الحياءُ في كُلِّ مذْهَبٍ، فهَذا غايةُ الجزاءِ ونهايةُ العَطاءِ، ويكفي المُطيعَ جَزاءً أنَّهُ أجْلَسَهُ على بِساطِ القُرْبِ مِنْهُ والمُناجاةِ لهُ، والإيواءُ إلى جَنابِهِ، والأُنْسُ بخِطابِهِ، والاعْتِزازُ بالنِّسبةِ إليْهِ، حيثُ وسَمَهُ بيْنَ العُبّادِ بتِلْكَ السِّمةِ.

ووُجودُ الحَلاوةِ في مُباشَرةِ الطّاعةِ، كما قالَ:

***

٩١. كفَى العاملِينَ جزاءً ما هوَ فاتِحُهُ على قُلوبِهِمْ في طاعَتِهِ، وما هوَ مورِدُهُ عليهِمْ مِنْ وُجودِ مؤانَستِهِ.

(**كفَى العاملِينَ جزاءً ما هوَ فاتِحُهُ على قُلوبِهِمْ في طاعَتِهِ**) أي حالَ التَّلبُّسِ بِها مِنَ العَارِفِ، قالَ بعضُهُمْ: "ليسَ في الدُّنيا ما يُشبِهُ نعيمَ الآخرةِ، إلّا ما يجِدُهُ أهلُ التَّملُّقِ ليلًا مِنْ لذّةِ المُناجاةِ"، وقالَ بعضُهُمْ: "في الدُّنيا جنّةٌ مَنْ دخلَها لم يشتقْ إلى جنّةِ الآخرةِ ولا إلى شيءٍ مِنَ الكوْنينِ".

(**وما هوَ مورِدُهُ عليهِمْ مِنْ وُجودِ مؤانَستِهِ**) أي تأنُّسِهِمْ بهِ، وبِما منهُ وإليهِ، وما يُتحِفُهُمْ بهِ مِنَ اللَّطائِفِ، وما ينالُهُمْ مِنَ الإمداداتِ العرفانيّةِ والزَّوائِدِ الإيقانيّةِ، فيتنسَّمون منهُ رُوحَ الأُنْسِ، ويتنعَّمون بهِ في حضرةِ القُدْسِ على بِساطِ الرِّضوانِ، حتَّى يصْطَلِموا بذلِكَ النورِ الأظْهرِ،

الاصْطِلامَ الأعظَمَ الأكبَرَ الذي تتلاشَى فيهِ الأشباحُ وتروحُ فيهِ الأرواحُ، فقدْ فتحَ على قُلوبِ العاملينَ مِنْ حلاوةِ أُنسِهِ ما بهِ يتنعَّمون في حظيرةِ قُدسِهِ، وهوَ دليلُ رِضوانِهِ الذي يتلاشَى دونَهُ كُلُّ ثوابٍ، وأيُّ ثوابٍ يعدِلُ القُرْبَ مِنْ ذلكَ الجنابِ؟! قالَ بعضُهُمْ: "التملُّقُ للحبيبِ، والمُناجاةُ للقَريبِ، ليسَ مِنَ الدُّنْيا بلْ مِنَ الجنّةِ أُظهِرَ لأهلِ اللهِ في الدُّنيا ترويحًا لقُلوبِهِمْ".

فإذا فتحَ الحقُّ على قلبِ العامِلِ بالوارِداتِ الرَّبّانيّةِ، وآنَسَهُ بالأنوارِ القُدُسيّةِ، فقدْ أعظَمَ لهُ الجزاءَ، وكافأهُ بالكثيرِ عنِ القليلِ؛ فإنَّ الأعمالَ وإنْ كثُرتْ في الأعْدادِ قليلةٌ بالنِّسبةِ لما يورِدُهُ تعالى مِنَ المددِ؛ لأنَّ أنوارَ الوارِداتِ أعظَمُ مِنْ أنوارِ الأوراد، سيَّما إذا نسَمَتْ عليهِ بلطائفِ الأُنسِ في حضرةِ القُدْسِ، وأتتْ بأعاجيبِ الخُطَبِ النَّثريّةِ والرَّقائقِ الشِّعْريّةِ، وخاطَبَتْهُ ألسِنةُ الأكوانِ بأنواعِ العِرفانِ، ولاحَ لهُ معنًى ما فيها مِنَ الحُروفِ السِّريانيّةِ، وأعربَتْ عَنْ معانيها الذَّوقيّةِ، وكشفَتْ مُعمَّى الألغازِ بالأسرارِ الخفيّةِ، فشاهَدَ عروسَ الكونِ ليلى، تُجْلَى نهارًا وليلًا، فهُناكَ تذهَبُ الوحْشةُ بأُنْسِ التَّلاقِ، حيثُ لا فرقَ ولا فِراقَ، بلْ كُلَّما حُلِّيَتْ بخِلعةٍ تنعَمُ بها بأكمَلِ طلعةٍ، فمَنْ تُعجِّلَ لهُ هذا الإكرامُ العاجِلِ، كفاهُ بلْ بُشْراهُ بالثَّوابِ الآجِلِ.

ثُمَّ نبَّهَ على غلَطِ مَنْ طلَبَ الجزاءَ على العمَلِ بقولِهِ:

٩٢. مَنْ عبدَهُ لشيءٍ يرجوهُ مِنهُ، أو ليدْفَعَ بِطاعَتِهِ وُجودَ العُقوبةِ عنهُ، فما قامَ بحقِّ أوْصافِهِ.

(**مَنْ عبدَهُ لشيءٍ يرجوهُ مِنهُ**) عاجِلًا أو آجِلًا، (**أو ليدْفَعَ بِطاعَتِهِ وُجودَ العُقوبةِ عنهُ، فما قامَ بحقِّ أوْصافِهِ**)، فمَنْ عبدَ اللهَ رجاءً لنوالِهِ، فهوَ عبدُ حُظوظِهِ وآمالِهِ، ومَنْ عبَدَهُ لذاتِهِ وقامَ بحقِّ صِفاتِهِ فهوَ عبْدُهُ حقًّا ومُخلِصٌ لهُ صِدقًا.

فأوصافُهُ تقتَضي أنْ يُطاعَ فلا يُعصَى، ويُذكَرَ فلا يُنسَى، فلا يُعبَدُ لعِلّةٍ ولا سببٍ، بلْ لحقِّ رُبوبيَّتِهِ وواجِبِ عُبوديَّتِهِ، ومَنْ داخَلَ عملَهُ عِلّةٌ، فهوَ في جهلِهِ وغفلتِهِ وعدمِ حُبِّهِ لربِّهِ ومعرِفتِهِ.

وقد اختَلَفَتْ مقاصدُ العُبّادِ في العِبادةِ بحَسَبِ مقاماتِهِم ومَراتِبِهِم، وفَهمِهِم عنِ اللهِ، وشَوقِهِمْ إلى رؤيَتِهِ، أو تشوُّفِهِم لثوابِهِ. فمنْ عبَدهُ رجاءَ الثَّوابِ وخوفَ العِقابِ صحَّتْ عِباداتُهُ إجماعًا، ولهذا شنَّعَ ابنُ العربي[1] على قولِ رابعةَ: "ما عَبَدتُكَ خَوْفًا مِنْ نارِكَ ولا طَمَعًا في جنَّتِكَ"، وقالَ: "هوَ خِلافُ ما أتَى بهِ الكِتابُ"، لكنْ رُدَّ بأنَّ في الكِتابِ ما يشْهَدُ لهُ، وهوَ قولُهُ ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢]، أي: لا يُريدون إلّا اللهَ -والقُرآنُ أتَى مُبيِّنًا لكلِّ مقامٍ بكُلِّ مطلَبٍ، فمَنْ زعَمَ الإحاطةَ بِفَهْمِهِ كذَّبَه الوجدانُ- بل حكى الإمامُ الرازيُّ الإجماعَ على عدمِ صِحّةِ عِبادةِ مَنْ عبَدَهُ خوفَ عِقابِهِ أو رجاءَ ثوابِهِ.

وشتّانَ بينَ مَنْ يعبُدُ اللهَ للهِ، وبينَ مَنْ يعبُدُهُ لحظِّهِ؛ فالمُحقِّقُ مَنْ عبدَهُ حبًّا وتعظيمًا، ومِمَّنْ في هذا المقامِ الجيلانيُّ، والشّاذليُّ، والوفائيةُ، وابنُ الفارضِ؛ فإنَّهُ أعرضَ عِنْدَ الموتِ عَنِ الجنّةِ وطلبَ وجهَ اللهِ، ومِنهُمُ ابْنُ عربي، فإيّاكَ والإنكار، فإنَّهُ مانعٌ كنزَ الأنوارِ، سلِّمْ تسلَمْ، وإنْ اعتَقدْتَ فهوَ أغنَمْ. لكِنْ عليكَ أنْ تعتَقِدَ أنَّهُمْ لم يُريدوا بقَولِهِمْ: "ما عبَدناهُ خوفًا مِنْ نارِهِ، ولا طمعًا في جنَّتِهِ"، احتِقارًا ولا استِغناءً عنها بلْ إنَّهُمْ لمْ يقصِدوها بالعِبادةِ، بلْ عبَدوهُ لاستِحقاقِهِ لذلِكَ لا لشيءٍ.

وفي الخبرِ: (لا يكُنْ أحَدُكُمْ كالعبْدِ السّوءِ إنْ لم يُعطَ الأُجرةَ لا يعْمَلُ)[2]، (ونِعْمَ العبْدُ صُهَيْبٌ، لو لمْ يخَفِ اللهَ لم يعْصِهِ)[3]، يعني أنَّهُ لا يُخالِفُ اللهَ ولا يعصيهِ، فالحامِلُ لهُ على تركِ

(١) العلامة محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي، أبو بكر ابن العربيّ: صحب أبا حامد الغزالي وانتفع به، وأخذ عنه من لا يحصى كثرة منهم: القاضي عياض وابن بشكوال والإمام السهيلي وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين، وولي قضاء إشبيلية، من كتبه: العواصم من القواصم، وعارضة الأحوذي في شرح الترمذي وأحكام القرآن، والقبس في شرح موطأ ابن أنس، والناسخ والمنسوخ، والإنصاف في مسائل الخلاف، وسراج المريدين، وغيرها، توفي سنة ٥٤٣. انظر: وفيات الأعيان (٤/٢٩٦)، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٤/٦١)، وشجرة النور (رقم٤٤٤).

(٢) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٤/٣٠٦): "لم أجد له أصلًا". وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٤/٥٣) عن وهب بن منبه عن حكيم من الحكماء. وروى أبو نعيم أيضا نحوه عن سفيان ابن عيينة عن أبي حازم (٣/٢٤٢).

(٣) لا أصل له كما في المقاصد الحسنة للسخاوي (ص٧٠١ رقم ١٢٥٩)، والدرر المنتثرة للسيوطي=

المعصيةِ غيرُ الخوفِ، مِنْ رجاءٍ أو حُبٍّ أو حياءٍ أو هيْبةٍ أو عظَمةٍ أو نحوِ ذلكَ.

تنْبيهٌ: قالَ بعضُ العارفينَ: "لا فرقَ بيْنَ عابدِ الوثَنِ، ومَنْ عبدَ اللهَ لغرَضٍ فاسدٍ"، فإنَّ الأصنامَ المعْنَويّةَ كالحِسّيّةِ؛ لأنَّ كُلًّا مِنَ العابدَيْنَ اتَّخذَ مِنْ دون اللهِ ما لم يأذَنْ به، وهُمْ في ذلكَ على طبَقاتٍ، مِنهُمْ مَنْ قصدَ بعِلْمِهِ وعمَلِهِ وما يفْعلُهُ مِنَ الخيْرِ المكانةَ في قُلوبِ النّاسِ، ودوامَ الصّيتِ، وانتِشارَ الجاهِ والرِّفعةِ، ومِنهُمْ منْ قصَدَ أعلى الدَّرجاتِ ونيْلَ الكَراماتِ، والتَّصرُّفَ في الكونِ، والمشْيَ على الماءِ، والطَّيرانَ في الهواءِ، وكشْفَ الغُيوبِ، ومِنهُمْ مَنْ قصدَ نعيمَ الجِنانِ مِنْ حورٍ وقُصورٍ، ومِنهُمْ مَنْ قصَدَ التَّقرُّبَ إلى اللهِ والرِّضَى عنهُ مِنْهُ والمحبّةَ لهُ، ومِنهُمْ مَنْ لا قصْدَ لهُ في عِلمِهِ وعمَلِهِ إلّا عِلمُهُ باستِحقاقِ مولاهُ العِبادةَ لذاتِهِ، والتَّذلُّلَ والخُضوعَ والوُقوفَ عِنْدَ أمرِهِ ونهيِهِ، مُتبرِّيًا عنْ حولِهِ وقوَّتِهِ، وعِلْمِهِ وعمَلِهِ، وقصْدِهِ وإرادَتِهِ، فأتى بعملِهِ على وجْهِ الإخلاصِ لا يرى أنَّهُ قامَ بذرَّةٍ مِمّا كُلِّفَ بهِ، وهذا كُلُّ ذرّةٍ مِنْ عِبادَتِهِ تعدِلُ عِبادةَ ألفَ سنةٍ مِنْ عِبادةِ أولَئِكَ، وهوَ الذي قامَ ببعضِ حقٍّ بعضِ أوصافِهِ تعالَى.

٩٣. متَى أعطاكَ أشهدَكَ برَّهُ، ومتى منعَكَ أشهدَكَ قهرَهُ، فهوَ في كُلِّ ذلكَ مُتعرِّفٌ إليْكَ، ومُقبِلٌ بوُجودِ لُطفِهِ عليْكَ.

(**متَى أعطاكَ**) ما يُلائِمُ طبعَكَ وهواكَ (**أشهدَكَ برَّهُ**)، أي صفاتَهُ البريّةَ مِنْ نحوِ جودٍ وكرمٍ ولُطفٍ وغيرِها، (**ومتى منعَكَ**) ما وافقَها (**أشهدَكَ قهرَهُ**)، أي صِفاتَهُ القهريّةَ مِنْ جبرٍ وكِبرياءٍ وعِزّةٍ وغيرِها.

=(ص١٦٩ رقم ٤٢٣)، وأخرج أبو نعيم في الحلية (١٧٧/١) من حديث عمر مرفوعًا: "إنَّ سالمًا شَديدُ الحُبِّ لله عزّ وجلَ، لو كان لا يَخافُ اللهَ عزّ وجلّ ما عَصاهُ" وإسناده ضعيفٌ كما قال السخاوي. وذكره في كنز العمال (رقم ٣٧١٤٧)، وقال بعده: "أورده أبو عبيد في الغريب ولم يسبق إسناده، وقد ذكر المتأخرون من الحفاظ أنهم لم يقفوا على إسناده، وإنما ذكرته هنا، وإن كان ليس من شرط الكتاب لشهرته ولأنبه على أن أبا عبيد أورده، وأبو عبيد من الصدر الأول قريب العهد أدرك أتباع التابعين، والظاهر أنه وصل إليه إسناده، ولم أذكر في هذا الكتاب شيئا لم أقف على إسناده سوى هذا فقط".

يعني: متى أعطاكَ مِنْ إحسانِه، فقدْ أشهدَكَ مِنْ جُودِه وامتِنانِه، ومتى منعكَ بعضَ بِرِّه، أشهدَكَ مِنْ جلالِه وقهْرِه، فهوَ يتعرَّفُ إليكَ تارةً بجمالِه، وأُخرى بكمالِه وجلالِه؛ وذلكَ لأنَّ المطلوبَ مِنَ الخليقةِ معرفتُهُ تعالى بأسْمائِه وصِفاتِه، ولا قُدرةَ للعبْدِ عليه إلّا بنزولِ النَّوازلِ ووُرودِ الأحكامِ، فما وافقَ الطَّبعَ عطاءٌ، وما خالفَهُ منعٌ؛ فبالعَطاءِ يشهدُ صِفاتَ الجَمالِ كالكَرَمِ، وبالمنْعِ يشهدُ صِفاتَ الجَلالِ كالقهْرِ، ففي منعِهِ عطاءٌ، وهوَ تعرُّفُهُ إليكَ بأنَّهُ القهّارُ، وفي عطائِه تعرُّفُهُ لكَ بأنَّهُ الكَريم.

(فهوَ في كُلِّ ذلكَ مُتعرِّفٌ إليْكَ) بما أوردَهُ عليْكَ، تارةً بجَمالِه، وتارةً بجَلالِه، وتارةً بكَمالِه، **(ومُقبِلٌ بوُجودِ لُطفِهِ عليْكَ)** لتوجيهِهِ إليْكَ ما يوجِبُ توَجُّهَكَ إليهِ، فعليكَ أنْ لا تُفرِّقَ بينَهُما إنْ أرَدْتَ معرفةَ ربِّكَ، ولم يسترِقَّكَ الميلُ بحظِّكَ، فمنْ تألَّمَ بالمنْعِ فهوَ محجوبٌ، ومَنْ شهدَ فيهِ العَطاءَ فهوَ عِندَهُ محبوبٌ، وإنَّما ينالُ ذلكَ مَنْ صفا فهمُهُ، واتَّسَعَ في اللهِ عِلمُهُ.

قالَ الخوَّاصُ: "لا يكونُ الفقيرُ فقيراً حتَّى يكون فيهِ خصلَتانِ: الثِّقةُ باللهِ، والشُّكرُ للهِ فيما زُوِيَ عنْهُ مِنَ الدُّنيا"، وقالوا: "مِنْ علامةِ إهانةِ اللهِ للعبْدِ: قضاءُ أوطارِهِ في هذهِ الدّارِ بسُرعةٍ".

فمَنْ فهِمَ عنْهُ في منعِهِ غيرَ ما تقرَّرَ، فقدْ آلمهُ المنْعُ، كما قالَ:

***

٩٤. إنَّما يُؤلِمُكَ المنعُ لعدَمِ فَهمِكَ عنِ اللهِ فيهِ.

(إنَّما يُؤلِمُكَ المنعُ لعدَمِ فَهمِكَ عنِ اللهِ فيهِ)، ولو فهِمْتَ لحَمَدْتَهُ على كُلِّ حالٍ، ومَنْ علِمَ أنَّهُ تعالَى رحيمٌ بهِ مُتفَضِّلٌ عليهِ، لطيفٌ بهِ لم يتألَّمْ بما يواجِهُهُ بهِ. قالَ بعضُهُمْ: "مَنْ فهِمَ الإشاراتِ، زُفَّتْ لهُ البشاراتُ، ومَنْ لم يفهَمْ يقِفْ على بابِ ربِّهِ مُطرِقًا، خاضِعًا خاشِعًا، فقيراً ذليلًا، لا شيءَ معَهُ عِنْدَ بابِ مولاهُ، عسى أنْ يتولّاهُ، ويفتحُ لهُ بابًا لا يُغلَقُ، ويُنزِلُ عليهِ فيضًا لا مُمسِكَ لهُ".

قالَ أبو عُثمانَ: "الخلقُ كُلُّهُمْ معَ اللهِ في مقامِ الشُّكرِ، ويظُنّون أنَّهُمْ في مقامِ الصَّبرِ"، قالوا: ولا يكمُلُ فقيرٌ حتَّى ينظُرَ نظرَ اللهِ لهُ في المنعِ أفضلَ مِنْ نظرِهِ لهُ في العَطاءِ، وعلامةُ صِدْقِهِ أنْ يجِدَ للمنْعِ حلاوةً كالعَطاءِ.

ومِنْ وُجوهِ العَطاءِ في المنعِ وعكسِهِ ما تضَمَّنَهُ قولُهُ:

٩٥. رُبَّما فتحَ لكَ بابَ الطّاعةِ وما فتحَ لكَ بابَ القَبولِ، وقضَى عليْكَ بالذَّنْبِ فكانَ سببًا للوُصولِ.

(**رُبَّما فتحَ لكَ بابَ الطّاعةِ**) عِلمًا وعمَلًا وحالًا، (**وما فتحَ لكَ بابَ القَبولِ**) لاقترانِها بآفةٍ قادِحةٍ، فقدْ يُفتَحُ بابُ الطّاعةِ، ويُسدُّ بابُ قَبولِها برؤيَتِها والتَّعزُّزِ بحصولِها.

وبابُ القَبولِ هوَ الذُّلُّ والافتِقارُ، وشُهودُ التَّقصيرِ والانكسارِ، فالطّاعةُ عطاءٌ، وعدمُ القَبولِ منْعٌ مصحوبٌ بعَطاءٍ، بل عطاءٌ مصحوبٌ بمنْعٍ فعادَ منعًا، إذ لا عِبرةَ بعمَلٍ غيرِ مقبولٍ، وذلِكَ لأمورٍ: أحَدُها التَّقوَى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، فكُلُّ عملٍ لا يصْحَبُهُ تقوَى لا فائدةَ لهُ إلّا ما يُرجَى مِنْ أُنْسِ النَّفسِ بهِ، ليألفَهُ ويَسهُلَ عليهِ عِنْدَ تيَسُّرِ التَّقوَى، والإخلاصُ، إذ لا يقبَلُ إلّا ما أُريدَ بهِ وجْهُهُ، واتِّباعُهُ بالسُّنّةِ والحقِّ، فمنْ وجدَ هذهِ الثَّلاثةَ فليُبشِرْ بعمَلِه، وإلّا فليَبْكِ على تعَبِهِ بلا حاصِلٍ، فإذا فتحَ على العبدِ بابَ الطّاعةِ فلا يغترَّ، إذ لا يعلَمُ هلْ فُتِحَ لهُ بابُ القَبولِ أم لا؟!

(و) رُبَّما (**قضَى عليْكَ**) ظاهِرًا (**بالذَّنْبِ**) ليُظْهِرَ لكَ عجزَكَ عَنِ القيامِ بحقِّهِ، (**فكانَ سببًا للوُصولِ**) إلى جنابِ الحقِّ، لما يترَتَّبُ عليهِ مِنْ رُجوعِهِ إلى ربِّهِ بالذُّلِّ والانكسارِ، ووُقوفِهِ على قدَمِ الاضطِرارِ، وصيانَتِهِ مِنَ العُجْبِ، واللَّجأ إليهِ أن يَمحيهِ مِنْ ديوانِ المُذنبينَ، فوُجوبُهُ لا يقتَضي طردَكَ عَنْ ربِّ العالَمينَ؛ فإذا قضَى عليْكَ بالذَّنْبِ، فلا تيأسْ! فرُبَّما أزعجَكَ إلى التَّوبةِ والإقْلاعِ، وموافَقةِ الحقِّ ومُخالَفةِ الطِّباعِ. ثُمَّ أيَّدَ ذلِكَ بقولِهِ:

٩٦. معْصيةٌ أوْرَثَتْ ذُلًّا وافتِقارًا، خيرٌ مِنْ طاعةٍ أوْرثَتْ عِزًّا واستِكبارًا.

(معْصيةٌ أوْرَثَتْ ذُلًّا وافتِقارًا) فأخرَجَتِ العَبْدَ عَنْ نفسِهِ، وردَّتْهُ إلى ربِّهِ، (خيرٌ مِنْ طاعةٍ أوْرَثَتْ عِزًّا واستِكبارًا) فأخرجَتْهُ عَنِ العُبوديّةِ إلى ادِّعاءِ وصفِ الرُّبوبيّةِ، فهذهِ معصيةٌ أورَثَتْ صِفاتِ العُبوديّةِ وهيَ أشرَفُ الأوصافِ، فهيَ خيرٌ باعتبارِ اللّازمِ، فالخيرُ في الطّاعةِ بالذّاتِ، والشرُّ فيها بالعرَضِ، وعكسُهُ؛ فإذا أوْجَبَتِ الطّاعةُ ما في المعْصيةِ بالذّاتِ كانَتْ شرًّا، وعكسُهُ، وحاصِلُهُ أنَّهُ لا خيرَ في طاعةٍ لزِمَ عنها ما يُناقِضُ صِفةَ العُبوديّةِ؛ لأنَّهُ يُحبِطُها، كما لا مُبالاةَ بمعْصيةٍ لازمَتْها صِفةُ العُبوديّةِ؛ لأنّها تمحوها. قالَ أبو مدْيَنَ: "انكِسارُ العاصي خيرٌ مِنْ صولةِ المُطيعِ"؛ فإذا أذنَبَ العبدُ فأورثَهُ ذنبُهُ الذُّلَّ والافتِقارَ، كانَ قريبًا مِنَ الغَفّارِ، وإذا أطاعَ فأورَثَتْهُ طاعَتُهُ العِزَّ والاستِكبارَ كانَ قريبًا مِنَ النّارِ، فبِهذا الاعتِبارِ: معصيةٌ تورثُ القُربَ خيرٌ مِنْ طاعةٍ تورثُ البُعْدَ، ومَنْ أذنَبَ فليَسْتَغفِرْ، فإنَّ الاستِغفارَ أمانٌ مِنْ عذابِ النّارِ، ففي حديثِ الدَّيلَميِّ: (العبْدُ آمِنٌ مِنْ عذابِ اللهِ ما استغْفرَ اللهَ)[1]. وقالَ العرشيُّ[2]: "كانَ شيخُنا المَرسي كثيرًا ما يُكرِمُ بعضَ العُصاةِ أكثَرَ مِنْ بعضِ المُطيعينَ، فقيلَ لهُ فيهِ فقالَ: إنَّهُ يظهَرُ لي مِنَ المُطيعِ عِزُّ النّفسِ والكِبرُ بالطاعةِ، ومِنَ العاصي ذُلُّ النّفسِ واحتِقارُها، فأُعامِلُ كُلًّا بحسَبِ ما في باطِنِهِ".

***

٩٧. نعمَتانِ ما خرجَ موجودٌ عنهُما، ولا بُدَّ لكُلِّ مُكوَّنٍ مِنهُما، نِعمةُ الإيجادِ، ونِعمةُ الإمدادِ.

(١) أخرجه أحمد (٢٣٩٥٣)، والدولابي في الكنى والأسماء (٤٧٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٨٦/٥٥)، والديلمي (٤٢٦٤)، وغيرهم عن فضالة بن عبيد، وهو حسن بطرقه وشواهده.

(٢) أي ياقوت العرشي، وقد سبقت ترجمته. انظر ص ١٥٩.

(نعمَتانِ ما خرجَ موجودٌ عنهما، ولا بُدَّ لكُلِّ مُكوَّنٍ منهما)، وهُما **(نعمةُ الإيجادِ)** لإزالَتِها العدمَ السّابقَ، **(ونعمةُ الإمدادِ)** لإزالتِها العدمَ اللّاحِقَ، فلولا الأُولى لم يزَلْ معدومًا، ولولا الثّانيةُ لفني؛ فهوَ المُنعِمُ ابتداءً ودوامًا، فلا تُحصي لهُ إنعامًا، فالحقُّ -كما قالَ أبو مدْيَنَ- مُستَبِدٌّ والوُجودُ مُستَمِدٌّ، والمادّةُ مِنْ عينِ الجُودِ، فلو انقَطعَتِ انهَدمَ الوُجودُ، فلولا المددُ بِالجودِ تلاشى الوُجودُ.

والوُجودُ هُنا يعُمُّ جميعَ ذرّاتِ العالَمِ، عُلويًّا وسُفليًّا، حِسّيًّا ومعنَويًّا، والموجودُ ما وُجِدَ، والمُكوَّنُ ما سيكونُ، والمددُ مُتَوالٍ على ما وُجِدَ وما سيوجَدُ.

قالَ التّونسيُّ: "والمددُ فيما وُجِدَ باعتِبارِ تهَيُّئِ وُجودِهِ في حقيقةِ الجوازِ دون الاستِحالة، فافهَمْهُ فإنَّهُ دقيقٌ"، ومعنى قولِهِمْ: "الحقُّ تجلَّى بالوُجودِ وتجلَّى فيهِ، أنَّ تجلّيهِ [بِهِ] بالإيجادِ، وتجلّيهِ فيهِ بالإمدادِ".

***

٩٨. أنعَمَ عليكَ أوَّلًا بالإيجادِ، وثانيًا بتوالي الإمْدادِ.

(أنعَمَ عليكَ أوَّلًا بالإيجادِ) إذ لا وُجودَ لكَ في الأصلِ، **(وثانيًا بتوالي الإمْدادِ)** فلو انقَطَعْ مددُهُ عنكَ ذرّةً أو أقلَّ صِرْتَ عدَمًا، وإنّما كانَ الإيجادُ نِعمةً؛ لأنَّهُ تعالى غنيٌّ عنكَ، وأنْتَ مُفتَقِرٌ إليهِ في وُجودِكَ، فلو لم يوجِدْكَ كُنْتَ صِرْفَ النَّفْيِ ومحضَ العدَمِ. ووجَّهَ الخِطابَ للمُفردِ بقولِهِ: "أنعمَ عليْكَ" إعلامًا للمُخاطَبِ أنَّ وُجودَهُ جُزءٌ مِنْ دائرةِ الوُجودِ الكُلّيِّ.

واعلَمْ أنَّ الحقَّ أنعمَ عليكَ بأنْواعٍ لا تُحصَى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، وإذا تقرَّرَ أنَّ نِعمَتيَّ الإيجادِ والإمْدادِ لازِمَتانِ لكَ، وأنَّكَ عدمٌ في ذاتِكَ لولاهُما، فالفاقةُ والاضطِرارُ لازِمانَ لوُجودِكَ كما قالَ:

٩٩. فاقَتُكَ ذاتيّةٌ، ووُرودُ الأسبابِ مُذكِراتٌ لكَ ما خفيَ عليكَ مِنْها، والفاقةُ الذّاتيّةُ لا ترفعُها العَوارِضُ.

(**فاقَتُكَ**) إليهِ أبدًا (**ذاتيّةٌ**)، فذاتُكَ تقتَضي الفَقرَ المُطلَقَ، كما أنَّ ذاتَهُ تقتَضي الغِنى المُطلَقَ، فأنْتَ مُحتاجٌ إليهِ أبَدًا حتَّى في الجنّةِ. (**ووُرودُ الأسبابِ**) عليْكَ، مِنْ غنًى وعزٍّ وقوّةٍ وضِدِّها (**مُذكِّراتٌ لكَ ما خفيَ عليكَ مِنْها**) عِنْدَ ترادُفِ الغفَلاتِ والعَوارِضِ المُشعِرةِ بانتِفائها، رحمةً مِنْهُ تعالَى بعبدِهِ.

(**والفاقةُ الذّاتيّةُ لا ترفعُها العَوارِضُ**) بلْ تُثبِّتُها وتؤكِّدُها، فلازِمْ مركزَك، وقُمْ بحقِّ عُبوديَّتك، ولا تتعدَّ طورَك؛ فإنَّ الحقَّ غنيٌّ أبدًا، وأنْتَ مُضطَرٌّ إليهِ أبدًا حتَّى في الآخِرةِ، بلْ وفي الجنّةِ، لكِنَّهُ غَمَسَ اضْطِرارَهُ فيها في المِنّةِ المُفرَغةِ عليكَ، إذِ الحقائقُ لا تختلِفُ غيبًا ولا شهادةً، ولا دُنيا ولا آخِرةً، ولمَّا لم تصِلْ رُتبةُ العوامِّ إلى ما تُعطيهِ حقائقُ وُجودِهِمْ سلَّطَ عليهِم الأسبابَ المُثيرةَ للاضطِرارِ ليتحقَّقوا قهرَ رُبوبيَّتِهِ وعظمةَ أُلوهيَّتِهِ.

فلا تغفَلْ أيُّها الغافِلُ عنْ هذا الشُّهودِ بما أنْعَمَ عليْكَ مِنَ المدَدِ والجودِ، فإنْ نسيتَ أو تناسيْتَ، ذكَّرَكَ الحقُّ بوارِداتِ المُذكِّراتِ في بعضِ الأُمورِ، كوُجودِ قُدْرَتِكَ على النِّكاحِ، وعجْزِكَ عَنِ الإتْيانِ مِنهُ بولَدٍ، فإنْ أتى ورُزِقَ بعضَ حياةٍ، لم تقدِرْ تدفَعَ عنهُ الموْتَ، إلى غيرِ ذلكَ مِنْ صُنوفِ أوصافِ الفاقةِ الذّاتيّةِ، وما أوجَبَ غفلةَ النّاسِ عَنْ شُهودِ الاضْطِرارِ إلّا ما هُمْ فيهِ مِنْ عافيةٍ وبعضِ غِنًى؛ ولهذا قالوا لولا ثلاثةُ أشياءَ ما طأطأَ ابنُ آدمَ رأسَهُ للسُّجودِ: الفقْرُ، والمرَضُ، والموْتُ.

تنْبيهٌ: قالَ ابنُ عرَبي: الإنسانُ وإنْ كانَ بالحقيقةِ عبدًا، ويُشاهِدُ العجزَ والافتِقارَ إلى أدنى الأشياءِ، والتّألُّمَ بقرصةِ نملةٍ، ومعَ ذلِكَ يظهرُ بالرِّئاسةِ والتّقدُّمِ، وكُلَّما تمكَّنَ مِنَ التّأثيرِ في غيرِهِ اشتَدَّ حُبُّهُ لذلِكَ؛ لأنَّهُ تعالَى خلقَهُ على صورتِهِ، ولهُ سُبحانَهُ العِزّةُ والكِبرياءُ والعظَمةُ، فسَرَتْ

هذِهِ الأحكامُ في العبدِ لتبعيَّتِها للصّورةِ التي خُلِقَ عليها؛ فالكاملُ هوَ الذي لا يصرفُهُ خلقُهُ على الصّورةِ عَنِ الفقرِ والذُّلِّ والانكسارِ عُبوديّةً، وإذا وجدَ الكامِلون ذلِكَ ظهَروا بهِ في المواطِنِ التي عَيَّنَ لَهُمُ الحقُّ أن يظْهَروا فيها.

***

١٠٠. خيْرُ أوْقاتِكَ وقْتٌ تشْهَدُ فيهِ فاقَتَكَ، وتُرَدُّ فيهِ إلى وُجودِ ذاتِكَ.

(**خيْرُ أوْقاتِكَ وقْتٌ تشْهَدُ فيهِ فاقَتَكَ**) فترجِعُ لمولاكَ على حُكمِ حالِكَ مِنْ رخاءٍ وشِدّةٍ، (**وتُرَدُّ فيهِ إلى وُجودِ ذاتِكَ**) لوُجودِ حُضورِكَ فيهِ معَ ربِّكَ، وانقِطاعِكَ عَنِ الوَسائِلِ الموجبةِ لبُعدِكَ، فتسْكُنُ النَّفْسُ مِنَ الدَّعوَى، ويدومُ وُقوفُها ببابِ مَنْ ألهَمَها التَّقوَى؛ ولهذا كانَ أشدُّ النّاسِ بَلاءً الأمثَلَ فالأمثَلَ[1]، وما حملَ فِرعونَ على قولِهِ "أنا ربُّكُمْ" إلّا طولُ العَوافي والغِنَى، فخيْرُ أوقاتِكَ وأنْتَ معَ حِسِّكَ، وقتٌ تشْهدُ فيهِ فاقّةَ نفْسِكَ، ترفَعُ حاجَتكَ إليهِ، ولا تُعوِّلُ إلّا عليْهِ.

إذا انقَطعْتَ عَنِ الأسبابِ، وأنزلْتَ حوائِجَكَ بربِّ الأربابِ، فأنْتَ في المقامِ الجليلِ، مقامِ أبينا الخليلِ، حيْثُ قالَ وهوَ بالمحلِّ العالي: "حسبي مِنْ سؤالي عِلمُهُ بحالي"؛ أمّا خيْرُ أوقاتِكَ بغيرِ تقييدٍ، فوقْتٌ تصِلُ فيهِ إلى ذُروةِ التَّوحيدِ، وقتٌ تغيبُ فيهِ عنْ نفسِكَ اللَّصيقِ القريبِ، فهوَ أنفَسُ الأوقاتِ إذ هوَ مقامُ الحبيبِ، نَعَمْ، ولا حِجابَ معَ وُجودِ الفاقّةِ إلى ربِّ العِبادِ، إذ وقتُهُ والحالةُ هذِهِ سُرورٌ وأعْيادٌ، إي والذي رفعَ السَّماءَ إنَّهُ كذلِك، كيْفَ وفيهِ انكِشافُ

(١) أخرجه الدارمي (٢٩٩٠)، والبزار (١١٥٠)، والطحاوي في شرح شكل الآثار (٢٢٠٣)، وابن حبان (٢٩٠٠)، والحاكم (١/ ٤١)، وغيرهم من حديث سهل بن سعد مرفوعًا بلفظ (أشدُّ النَّاس بلاءً الأنْبياءُ فالأولِياءُ، فالأمثلُ فالأمثل). وفي الباب عن أبي سعيد وغيره. ولم يذكر "الأولياء" في بعض الرِّوايات، وجاء في بعضها "ثم الصالحون".

خصّيصةِ العُبوديّةِ، وردُّها إلى ذُلّها بينَ يديِّ الرُّبوبيّةِ، إذ الغالبُ على النُّفوسِ في أوقاتِ الغفلةِ رؤيةُ الاستِغناءِ، فإذا نظرَتْ للعبدِ عينُ العِنايةِ، ردَّتْهُ عن هذهِ الغوايةِ، وأشهَدتْهُ رؤيةَ الافتقارِ، فهذا هوَ الحِرزُ مِنْ آفاتِ النَّفسِ، فإذا أوردَ عليكَ هذا الوارِدَ، فتلقاهُ بالرَّحبِ، واذكُرْ قولَ المُصطَفى ﷺ: (إذا رأيْتَ الفقرَ مُقبلًا، فقُلْ مرحبًا بشِعارِ الصّالحينَ)(١)؛ ووُرودُ الشَّدائدِ يأتي على أهلِ البِدايةِ بالاضْطِرابِ، وعلى أهلِ النِّهايةِ بالاختيارِ.

فائدةٌ: قالَ ابنُ عربي: "مِنْ أعظَمِ الفِتَنِ التي فَتَنَ اللهُ بها الإنسانَ تعريفُهُ إيّاهُ بأنّهُ مُستخْلفُهُ، فامتَحَنَهُ ليرَى أيقفُ عِنْدَ عُبوديَّتِهِ وفاقتِهِ وذُلِّهِ، أو يزهو لأجلِ مرتَبتِهِ؟ فهذا الذي جعلَ النَّفسَ يصْعُبُ عليها المُخالَفةُ، فإذا نظَرَتْ إلى كريمِ أصلِها وعُلوِّ منصِبِها قالَتْ: مِثلي لا يؤمَرُ عليهِ، فتُحجَبُ عَنِ الاتِّساعِ الإلهيِّ، وعَنِ العِلْمِ بشُروطِ الخِلافةِ، فتكونُ المُخالَفةُ موتًا أحمرَ عليها، ولو نظَرَتْ إلى عُبوديَّتِها وفاقَتِها ووقفَتْ عِنْدَ ذلِكَ، أعطَتْها تلكَ المعرفةُ الحياةَ الأبَديَّةَ، فهانَ عليها كُلُّ صعبٍ وصارتْ أوقاتُها كُلُّها حُبورًا وسُرورًا".

وإذا علِمْتَ أنَّ كُلَّ ما سِوَى الحقِّ موسومٌ بالفاقةِ توحَّشْتَ مِنْهُ:

١٠١. متى أوْحشَكَ مِنْ خلْقِهِ فاعلَمْ أنَّهُ يُريدُ أنْ يفتَحَ لكَ بابَ الأُنْسِ بِهِ.

و(**متى أوْحشَكَ مِنْ خلْقِهِ**) بأنْ نفَّركَ مِنَ الاجتماعِ بِهِمْ والرُّكونِ إليهِمْ، (**فاعلَمْ أنَّهُ يُريدُ أنْ يفتَحَ لكَ بابَ الأُنْسِ بهِ**)، لأنَّ القلْبَ لا يخلو عَنِ الشَّيءِ أو ضِدِّهِ، فإذا نفرَ مِنَ

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٦/٤٨٤) وعزاه إلى الديلميِّ من حديث أبي الدرداء، وأخرجه أبو نعيم (٦/٥) عن كعب الأحبار موقوفًا. وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٤/١٩٦): "أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء، ولم يسمع منه، قال: قال رسول الله ﷺ: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام .. فذكره بزيادة في أوله، ورواه أبو نعيم في الحلية من قول كعب الأحبار غير مرفوع بإسناد ضعيف".

الخلْقِ تعلَّقَ بالحقِّ، وإذا شهدَ فقرَهُمْ وجدَ الأُنسَ بغِنى مولاهُ، فأقبَلَ عليهِ بكُلِّهِ كما أعرَضَ عنْهُمْ بكُلِّهِ، فإذا أنِسْتَ بالواحِدِ الصَّمدِ لم يبقَ فيكَ مُتَّسعٌ لأحدٍ.

مَنِ استأنَسَ بالخَلائِقِ حيلَ بينَهُ وبينَ شُهودِ الحقائِقِ، مَنْ أنِسَ بسِواهُ فهوَ المحْجوبُ، ومَنْ أنِسَ بمَوْلاهُ فهوَ المُحبُّ المحْبوبُ. قيلَ لأبي يزيدَ وقدْ كُشِفَ لهُ عَنِ الملَكوتِ وعجائِبِهِ: "هلِ استَحسَنْتَهُ؟" قالَ: "لم أرَ شيئًا أستَحْسِنُهُ"، فقيلَ لهُ: "أنتَ عبدُ اللهِ حقًّا". يعني: لم أستَحسِنْهُ حتَّى أنِسَ بهِ قلبي، وإلّا فكيْفَ لا يستَحْسِنُهُ وقدْ جمعَ كُلَّ كمالٍ وجمالٍ؟!

والوحشةُ انقباضُ السرِّ مِنَ الخلْقِ، والأُنْسُ حياةُ القلبِ بنسيمِ القُربِ، أو وُجودِ الحبيبِ بفقْدِ الرَّقيبِ، أو غيرِهِما، قالَ الشّاذلي: "جرتْ سُنّةُ اللهِ في أصفيائِهِ أنْ يُسلِّطَ عليهِمِ الخلْقَ في ابتداءِ أمرِهِمْ، وفي حالِ نِهايَتِهِمْ كُلَّما مالَتْ قُلوبُهُمْ لغيْرِ اللهِ، ثُمَّ تكونُ الدَّولةُ والنُّصرةُ لهُمْ آخِرًا"؛ وذلكَ لأنَّ السالكَ يتعذَّرُ عليهِ الخُلوصُ إلى حضرةِ اللهِ معَ ميلِهِ للخلْقِ ورُكونِهِ إلى اعتِقادِهِمْ فيهِ، فإذا أذوهُ نفرَ عنهُمْ ولم يركَنْ إليهِمْ، فيصفو وقتُهُ معَ ربِّهِ ويُقبِلُ عليهِ بكُلّيَتِهِ فينْصُرُهُ.

وقالَ الصِّقَلي(١): "وإذا أرادَ تعالَى أنْ يُصافِيَ وليَّهُ ابتلى الخلقَ بهِ في طريقِ الذَّمِّ لهُ، فإذا أظْهَرَهُ بتركِ الانتصارِ ابتَلاهُ بالمدْحِ منهُمْ، فإذا خلَّصَهُ مِنْ رؤيةِ فِعلِهِمْ ورؤيةِ تحمُّلِهِ، رزقَهُ الرأفةَ للخلْقِ، فعِنْدَ ذلِكَ يُكتَبُ صِدّيقًا، وكُلُّ هذا تربيةٌ مِنَ اللهِ".

فإذا رأيْتَ ما يُجريهِ عليْكَ مِنْ وحشةِ الخلقِ وتضييقِهِمْ عليكَ المسالِكَ؛ فافزعْ إليهِ بالوُقوفِ ببابِهِ، واعلمْ أنَّها غَيْرةٌ وقعَتْ منْهُ عليكَ حيثُ دعاكَ لهُ فآنَسَكَ بهِ عِنْدَ الوحْشةِ مِنْ خلقِهِ، فيا لهُ مِنْ عِوَضٍ لا قيمةَ لهُ، وعلامةُ هذِهِ الخِلعةِ وُجودُ الرّاحةِ والخِفّةِ، والأُنْسُ باللهِ عِنْدَ غيْبةِ الخلْقِ،

(١) العارف المحقق أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكري الصقلي، طلب العلم في القيروان وذهب في رحلة إلى المشرق وحج وسمع بمكة سنة ٣٥٠، وكان إلى جانب تصوفه محدثًا فقيهًا أصوليًّا، له مؤلفات منها: الأنوار في علم الأسرار ومقامات الأبرار، الشرح والبيان لما أشكل من كلام سهل بن عبد الله التسترى، صفة الأولياء ومراتب أحوال الأصفياء، توفي في حدود ٣٨٠. معجم المؤلفين (١٨١/٥)، وشجرة النور الزكية (١٤٦/١)، والعرب في صقلية لإحسان عباس (ص١١٥).

وضِدُّهُ عِنْدَ مُلاقاتِهِمْ، فإنْ كُنْتَ بالانعكاسِ، ووجَدْتَ الإيناسَ، فهيَ أمارةُ الإفلاسِ، فهذا ميزانٌ زِنْ بهِ حالَكَ فيما عليكَ وما لكَ، فإنْ أبَتِ النَّفْسُ إلّا الأنْسَ بِهِمْ معَ الوحشةِ منْهُ، فالجأْ إليهِ بالابتِهالِ، فإذا رأيتَ لِسانَكَ أُطلِقَ بالطَّلَبِ فأبشِرْ ببُلوغِ الأَرَبِ، كما قالَ:

١٠٢. متى أطلَقَ لِسانَكَ بالطَّلَبِ، فاعلَمْ أنَّهُ يُريدُ أنْ يُعطيَكَ.

(**متى أطلَقَ لِسانَكَ بالطَّلَبِ**) على وجْهِ العُبوديّةِ إطلاقًا ضروريًّا، بأنْ حلَّ عُقدةَ الصَّمتِ عنْهُ الذي أوْجَبَهُ للاستِغناءِ بالأغيارِ، (**فاعلَمْ أنَّهُ يُريدُ أنْ يُعطيَكَ**) ما شاءَ كما شاءَ متى شاءَ، فمتى شهِدْتَ الفاقةَ فتملَّقْتَ، ورغِبْتَ فيما عِنْدَهُ وتعلَّقْتَ، فهوَ يُريدُ أنْ يَمْنحَكَ الأرَبَ.

قالَ المُصطَفى ﷺ لبعضِ الصَّحابةِ: (مَنْ أُعطيَ الدُّعاءَ لمْ يُحرمِ الإجابةَ)[1]، واللِّسانُ قد جعلَهُ الحقُّ تُرجُمانَ الجَنانِ، والقلْبُ بيتُ الرَّبِّ، فإذا انطلَقَ لِسانُكَ بتحريكِ قلبِكَ فهوَ يُريدُ أنْ يُعطيَكَ، سيَّما إنِ انشَرحَ الصَّدرُ بتحقيقِ التَّيسيرِ، وانطلقَ اللِّسانُ بالتَّعبيرِ.

تنْبيهٌ: قالَ ابنُ عربي: "ما حكمَ عليْكَ بخلافِ غرَضِكَ إلّا لتسألَهُ رفْعَ ذلِكَ عنْكَ، ومَنْ لم يشكو إلى اللهِ معَ الإحساسِ بالبَلاءِ وعدمِ موافَقةِ الغَرَضِ، فقدْ قاوَمَ القهْرَ الإلهيَّ".

جاءَ أبو يزيدَ فبكَى، فقيلَ لهُ فيه، فقالَ: "إنَّما جوَّعني لأبكي". فالأدبُ معَ اللهِ، كُلُّ الأدَبِ، الشَّكوى إليهِ لا إلى غيرِهِ، ويبقَى عليهِ اسمُ الصَّبْرِ، كما قالَ في أيوبَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤]، أي وقتَ الاضْطِرارِ والسُّكونِ إلى الأسبابِ؛ فإنَّهُ لا بُدَّ طبعًا عِنْدهُ مِنَ الاضْطِرابِ وتغيُّرِ المزاجِ؛ ولهذا لطَّخَ الحلّاجُ وجهَهُ بالدَّمِ حينَ قُطِعَتْ أطرافُهُ لئلا يُظهِرَ للعامّةِ تغيُّرَ مِزاجِهِ، غَيْرةً مِنْهُ على المقامِ، معَ أنَّهُ القائلُ في ذلِكَ الحالِ:

ما قُدَّ لي عُضوٌ ولا مِفصَلٌ * إلّا وفيهِ لكُمُ ذِكرُ

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٠٢٣)، والصغير (١٠٢٢)، وابن شاهين في الترغيب (٥٣٢)، والبيهقي في الشعب (٤٢١٠)، وغيرهم من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

بخلافِ الآلامِ النَّفسيّةِ التي شأنُها أنْ تألَمَ النُّفوسُ عِنْدَ وُرودِها، فإنَّهُ يتلقّاها بعضُهُمْ فلا تؤثّرُ في ظاهِرِهِ، وأمّا الألمُ الحِسّيُ الظّاهِرُ فيتحرَّكُ الطَّبعُ عِنْدَ إحساسِهِ إنْ لم يَشغَلْ عنهُ بما يُزيلُ الإحساسَ.

***

١٠٣. العارِفُ لا يزولُ اضْطِرارُهُ، ولا يكونُ معَ غيرِ اللهِ قرارُه.

(**العارِفُ لا يزولُ اضْطِرارُهُ**) لتحقُّقِهِ بفقْرِهِ وعجزِهِ في كُلِّ حالٍ، (**ولا يكونُ معَ غيرِ اللهِ قرارُه**)، والعاميُّ على قلبِهِ حِجابٌ لا يشْهَدُ اضْطِرارَهُ إلّا عِنْدَ نُزولِ الأسبابِ.

والعارِفُ اضطِرارُهُ دائِم، لشُهودِ إمكانِهِ المُلازِم، فهوَ مُضطَرٌّ إلى ربِّ النّاسِ، المُمدِّ لهُمْ على ممرِّ الأنفاسِ، يتلو أبدا: "تعالى الواحدُ الصَّمدُ عنْ أنْ يسْتَغْنِيَ عنْهُ أحدٌ"، فهوَ قدْ تحقَّقَ بوصفِ الافتِقارِ، وأوقفَهُ سيِّدُهُ أبدًا في مركَزِ الاضْطِرارِ، وأشهدَهُ ذُلَّهُ وضعْفَهُ، وفقرَهُ الذّاتيَّ، واحتياجَهُ الصِّفاتيَّ، تحقيقًا وكشفًا وذوقًا، وإدراكًا وعيانًا، لئلّا يُحجَبَ بحِجابِ النَّفسِ المُدَّعيةِ الغِنَى، المُتشبِّعةِ بالزَّخارِفِ الموقِعةِ صاحِبَها في المَتالِفِ، كيْفَ وقدْ أسمَعَها سيِّدُها ضعفَها بقولِهِ: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، قالَ ابنُ عبّاسٍ: "وصفَهُ مَنْ عرفَهُ"، وفي كمالِ هذا الشُّهودِ معرفةُ المعبودِ، (مَنْ عرفَ نفْسَهُ فقدْ عرفَ ربَّهُ)(١)؛ أي مَنْ عرَفَ نفْسَهُ بصِفاتِ نقْصِهِ، عرفَ ربَّهُ بصِفاتِ كمالِهِ؛ فهذا المعنى المغْمورُ باللَّطائِفِ وقفَ عِنْدَهُ كُلُّ عارِفٍ.

تتمّةٌ: حكى القُشَيْريُّ عن الحُصريِّ أنَّهُ كانَ يزورُ شيخَهُ الشِّبلي كُلَّ يوم جُمُعةٍ، فقالَ لهُ الشبليُّ يومًا: "يا أبا الحسَنِ إنْ خطرَ ببالِكَ غيرَ اللهِ مِنَ الجُمُعةِ إلى الجُمعةِ فلا تعُدْ تأتينا؛ فإنَّهُ لا يجئُ مِنْكَ شيءٌ"، فإذا كانَ هذا حالُ السّالِكِ فكيْفَ بالعارِفِ؟!(٢)

(١) سبق تخريجه. انظر ص٤٤

(٢) وردت هذه العبارة في المخطوطة بجعل الحصري هو شيخ الشبلي، وهو تصحيف، فالثابت في الرسالة القشيرية وغيرها أن أبا الحسن علي بن إبراهيم الحصري (ت٣٧١هـ) هو تلميذ الشبلي (ت٣٣٤هـ).

لطيفةٌ: سُئِلَ أبو حمزةَ[1]: "هلْ يتفرَّغُ المُحبُّ إلى شيءٍ سِوَى محْبوبِهِ؟" فقالَ: "لا؛ لأنَّهُ بلاءٌ دائمٌ، وسُرورٌ مُنقطِعٌ، وأوجاعٌ مُتَّصِلةٌ لا يعرِفُها إلّا مَنْ باشرَها".

مُهِمّةٌ: قالَ عطاءُ السّلمي[2]: "مُنْذُ عرَفْتُ اللهَ وأنا أخافُ مقتَهُ"، قيلَ: "ولِمَ؟"، قالَ: "لأنَّهُ يتَجاوَزُ عنِ الجاهِلِ ولا يتَجاوَزُ عَنِ العارِفِ؛ فإنَّ مَنْ عرفَهُ وترَكَ خِدْمتَهُ مقتَهُ".

فائدةٌ: قالَ ابنُ عربي: "مِنْ علامةِ فقْدِ النَّفْسِ: عدمُ الشَّهوةِ لشيءٍ مِنْ أمرِ الدّارَيْنِ".

تذنيبٌ: سُئِلَ بعضُهُمْ: هلِ اليَقينُ يُمكِنُ سلبُهُ كالعِلْمِ؟ فقالَ: لا؛ لأنَّهُ مِنْ "يَقِنَ الماءُ في الحوضِ" إذا استقرَّ.

وقدْ صرَّحوا بأنَّ المعْرِفةَ إذا حَصَلتْ لا يصِحُّ سلْبُها أبدًا، وقولُهُمْ: "فُلانٌ سُلِبَ" أرادوا به سلْبَ الأحوالِ؛ لأنَّ شأنَها الزَّوالُ، وصاحِبُ الحالِ ينْقُصُ عَنْ درَجةِ العارِفِ؛ لأنَّ كُلَّ ما فيه يُلبَسُ تارةً ويُخلَعُ أُخرَى كالثَّوبِ.

قالَ الخَوّاصُ: "أربابُ الأحوالِ كالسُّفُنِ المُشْرَعةِ، فما دامَ الرِّيحُ قائِمًا، فالشِّراعُ باقٍ والسَّيرُ دائِمٌ، فإذا فُقِدَ الرِّيحُ وقفَوا".

وقالَ: "العارِفُ الكامِلُ كراماتُهُ باقيةٌ معهُ، وتصريفُهُ دائِمٌ ولو تركَ النَّوافِلَ والخيْراتِ، وأربابُ الأحوالِ ذوو نقْصٍ، متى ترَكوا قيامَ اللَّيلِ أو كسِلوا عَنْ عِبادةٍ، بطَلَ تأثيرُهُمْ في الكونِ، وصاحِبُ اليَقينِ لا يخافُ زَوالَ شيءٍ".

***

(١) شيخ الصوفية محمد بن إبراهيم، أبو حمزة الصوفي البغدادي البزاز، جالس أحمد بن حنبل وبشر بن الحارث وأبا نصر التمار وسريا السقطي وسافر مع أبي تراب النخشبي، وغيرهم، حكى عنه محمد بن علي الكتاني وخير النساج، وغيرهما. وكان عالما بالقراءات، وكان أحمد بن حنبل يقول له في المسائل: ما تقول فيها يا صوفي. توفي سنة ٢٨٩. حلية الأولياء (١٠/٣٢٠)، وطبقات الصوفية (ص٢٢٧).

(٢) عطاء السلمي البصري العابد، من صغار التابعين، أدرك أنس بن مالك، وسمع من الحسن البصري وغيره، اشتغل بنفسه عن الرواية، وكان شديد الخوف والحياء من الله، لم يرفع رأسه إلى السماء أربعين سنة، قيل توفي بعد سنة ١٤٠. حلية الأولياء (٦/٢١٥)، وسير أعلام النبلاء (٦/٨٦).

١٠٤. أنارَ الظَّواهِرَ بأنْوارِ آثارِه، وأنارَ السَّرائِرَ بأنْوارِ أوْصافِه، لأجْلِ ذلِكَ أفَلَتْ أنْوارُ الظَّواهِرِ، ولَمْ تأْفُلْ أنْوارُ القُلوبِ والسَّرائِرِ، فلهذا قيلَ:

إنَّ شمسَ النَّهارِ تغرُبُ باللَّيلِ * وشَمْسُ القُلوبِ ليْسَ تغيبُ

(**أنارَ الظَّواهِرَ**) مِنْكَ مِنَ الإدْراكِ بالحَواسِّ الظّاهِرةِ (**بأنْوارِ آثارِهِ**) الحادثَةِ مِنَ المعاني واللَّطائفِ المودَعةِ فيها، (**وأنارَ السَّرائِرَ**) مِنْكَ مِنَ المعارِفِ والعُلومِ، واللَّطائفِ والفُهومِ التي اشتَمَلَ عليها باطِنُكَ (**بأنْوارِ أوْصافِهِ**) الأزَليّةِ، فأعظَمَ المِنّةَ عليْكَ ظاهِراً وباطِنًا.

لكنَّ الظَّواهِرَ وُجودُها موقوفٌ على الانفعالِ وهوَ حادِثٌ، والسَّرائِرَ نورُها مُستَفادٌ مِنْ تجَلّي الأوصافِ، وهيَ قديمةٌ، (**لأجْلِ ذلِكَ**) المذْكورِ مِنِ اختلافِ المُتعَلَّقيْنِ في الحُدوثِ والقِدَمِ، والبَقاءِ والعَدمِ، (**أفَلَتْ أنْوارُ الظَّواهِرِ**) بالفَناءِ والزَّوالِ، وانقَضتْ بانقضاءِ الوقْتِ الحاضِرِ بكُلِّ حالٍ، فلمْ يبْقَ لوُجودِها أثَرٌ، (**ولمْ تأْفُلْ أنْوارُ القُلوبِ والسَّرائِرِ**) لتعَلُّقِها بالقَديمِ الباقي، فهي ثابِتةٌ، بلْ مُتزايِدةٌ عِنْدَ ظُهورِ الحقِّ وتجلّيهِ، كما يليقُ بهِ لا بها، فكان ثباتُ كُلٍّ وزوالُهُ بحسبِ مُتعلَّقِهِ وأصلِهِ.

وبذلِكَ استَبانَ أنَّهُ نوَّرَ القُلوبَ بأنْوارِ المعارِفِ والعُلومِ، وأفاضَ عليها مدارِكَ اللَّطائِفِ والفُهومِ، وكُلُّها مظاهِرُ صِفاتِه وآثارُ تجلّياتِهِ، ونَوَّرَ القَوالِبَ بأنْوارِ الإحساسِ والأفْعالِ، وزيَّنَها بخِصالِ الكَمالِ والجَمالِ، وكُلُّها آثارُ فِعالِهِ الدّالّةِ على حِكْمَتِهِ وكَمالِهِ؛ فأنْوارُ الظَّواهِرِ لحُدوثِ مُتعَلَّقِها آفِلةٌ، وأنوارُ السَّرائِرِ لا تزولُ فهيَ كامِلةٌ.

قالَ ابنُ عربي: "وإذا كانَتِ الآثارُ للأسماءِ الإلَهيّةِ، والأسماءُ هيَ المُسمَّى، فما في الوُجودِ إلا اللهُ، خِلافَ ما يُعطيهِ الشُّهودُ العقْلي".

قالَ التّونسيُّ: "وإنارتُهُ تعالَى للأكْوانِ ظاهِرةٌ وخفيّةٌ؛ فالظّاهِرةُ كإنارَتِهِ الأجرامَ العُلْويّةَ وبعضَ المعادِنِ السُّفليّةِ، وما يُستَضاءُ بهِ مِنَ السُّرُجِ، ...".

وقدْ جعلَ الحقُّ النُّسخةَ الإنسانيّةَ نُسخةً مِنَ المظاهرِ العُلويّةِ والسُّفليّةِ، فهوَ باعتبارِ روحِهِ وعقْلِهِ وقلبِهِ عُلويٌّ، وباعتبارِ نفْسِهِ وجهلِهِ وشهْوتِهِ سُفْليّ، فإذا علِمْتَهُ فانظُرْ ما أنالَهُ الصّانعُ ونوَّرَهُ بِهِ مِنْ آثارِ قُدْرتِهِ في ظاهِرِهِ، حيْثُ نوَّرَ عَليْهِ بالحَواسِّ، وجعلَ لهُ بِها كَمالَ الاستعدادِ والإحساسِ، نِعمةً مِنْهُ، حيثُ متَّعَهُ برُؤيةِ المُبصَراتِ بالبَصرِ، وأسمعَهُ المسْموعاتِ بالسَّمعِ، وهكذا.

وهذا التَّنويرُ الظّاهِرُ جاءَ مِنْ حضرةِ صِفاتِهِ المُنوِّرةِ للباطِنِ بأنْوارِ المشاعِرِ والعُلومِ والمعارِفِ؛ فضوْءُ الأنْوارِ الباطِنةِ كضوءِ الشَّمسِ، وضوءُ الظّاهِرِ كنورِ النُّجومِ، وهذهِ الشَّمسُ القُدُسيّةُ أنارَ بِها الحقُّ القُلوبَ العامرةَ بمعْرفتِهِ، والأنوارُ النُّجوميّةُ أنارَ بِها الظّواهِرَ البَشريّةَ، والأُولَى قدْ صانَها الواهِبُ عَنِ الغُروبِ؛ لأنَّ أنوارَ القُلوبِ لا تُحجَبُ بحِجابِ الأفلاكِ، بلْ هيَ عِنْدَ أهلِ الكشْفِ [غيرُ] مُعطَّلةٍ لنورِها، فهيَ مُشرِقةٌ أبدًا على طولِ المدى.

(فلهذا قيلَ):

طلعَتْ شمسُ مَنْ أُحبُّ بليلٍ * فاستَضاءتْ فمالها مِنْ غُروبِ

(إنَّ شمسَ النَّهارِ تغرُبُ باللَّيلِ * وشمْسُ القُلوبِ ليْسَ تغيبُ)

وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الأُمورَ الباقيةَ هيَ التي يُغتبَطُ بِها ويُفرَحُ بحُصولِها، بخِلافِ الآفِلةِ الفانيةِ، فيكونُ العبدُ على قدمِ إبراهيمَ حيثُ قالَ: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

قالَ في اللَّطائفِ: "لوْ كَشَفَ الحقُّ عَنْ مُشرِقاتِ أنْوارِ قُلوبِ أوليائِهِ لانطوى نورُ الشَّمسِ والقمَرِ مِنْ مُشرِقاتِ أنْوارِهِمْ، وأينَ نورُهُما مِنْ نورِهِمْ؟! لأنَّ نورَهما يطرأُ عليهِ الكُسوفُ والغُروبُ بخِلافِ أنْوارِهِمْ. واعلمْ أنَّ مِنَ الرِّجالِ مَنْ نورُ معرفةِ قلبِهِ كنورِ الشَّمسِ، وهُمْ أهلُ التَّفريدِ، ومِنْهُمْ مَنْ نورُهُ كالقمَرِ، وهُمْ أهلُ التَّوحيدِ، ومِنهُمْ مَنْ نورُهُ كالنُّجومِ، وهُمْ أربابُ مقاماتِ العُلومِ".

***

١٠٥. يُخففُ ألمَ البَلاءِ عنْكَ عِلمُكَ بأنَّهُ سُبحانَهُ هوَ المُبلي لكَ، فالذي واجَهتْكَ مِنْهُ الأقدارُ هوَ الذي عوَّدَكَ حُسْنَ الاختيارِ.

(**يُخفِّفُ ألمَ البَلاءِ عنْكَ عِلمُكَ بأنَّهُ سُبحانَهُ**) الرَّحيمُ بِكَ، المتلَطِّفُ عليكَ، النّاظِرُ إليكَ (**هوَ المُبلي لكَ**) بأقدارِهِ وحُسنِ اختيارِهِ، وهوَ جميلُ الوصْفِ كريمُ الفعْلِ، لا يؤلِمُ عبْدَهُ إلّا لمصْلَحةٍ، ولا يختارُ لهُ إلّا ما هوَ خيرٌ وإنْ خفَى علينا حِكمَتُهُ، فمَنْ تحقَّقَ أنَّهُ المُبلي هانَ عليهِ البَلاءُ، وكانَ مِنْ أهلِ الاصطِفاءِ والوَلاءِ، وإذا استَحكَمَ هذا الشُّهودُ صارَ عبدَهُ المُختارَ المودودَ، وقدْ يغيبُ بربِّهِ عَنْ كُلِّ ذلِكَ، وتِلكَ الغايةُ القُصوَى لقلْبِ السّالِك. قالوا: كانَ بالقُرشيِّ[1] داءُ الجُذام، فجاءَهُ الخضرُ بزيْتونةٍ وقالَ: "كُلْها! ففيها شِفاؤكَ"، فأعْرَضَ عنْها وقالَ: "لا حاجةَ لي بها". وسُئِلَ بعضُهُمْ عمَّنْ تلذَّذَ بالبَلاءِ مِنَ الأولياءِ: هلْ واجبُهُ الشُّكرُ أوِ الصَّبرُ؟ فقالَ: "الشُّكرُ، لخُروجِهِ عنْ كونِهِ بلاءً بتلَذُّذِهِ بهِ، والصَّبرُ لا يكونُ إلّا لواجِدِ الألَمِ"، وأنْشَدَ[2]:

وليْسَ يكونُ الصَّبرُ إلّا على أذًى * وُجودًا وتقديراً بأنْواعِ آلامِ

فلا صَبرَ في النَّعماءِ إنْ كُنْتَ عالمًا * بقولِ إمامٍ صادِقِ الحُكْمِ علّامِ

ويُسامِحون ممّا يُحدِثونَهُ لأنفُسِهِمْ مِنِ ادِّعاءِ القوّةِ، إذِ الكُمَّلُ لا يشْهَدون إلّا الضَّعفَ، حتَّى إنَّ بعضَهُمْ ناوَلوهُ ليْمونةً، فلمْ يستَطِعْ حمْلَها.

(**فالذي واجَهتْكَ منْهُ الأقدارُ**) بما تكرَهُهُ (**هوَ الذي عوَّدَكَ حُسْنَ الاختيارِ**) بما تُحِبُّ، فاشكُرْهُ على ما أوْلاكَ، واصبرْ لهُ فيما بهِ توَلّاكَ، ففي البَلايا ألْطافٌ، وفي الرَّزايا إتْحافٌ؛ فإذا ابتَلَى الحقُّ عبْدَهُ ببَلاءٍ، وأشْهَدَهُ أنَّهُ منْهُ لا مِنْ غيرِهِ، كانَ تخفيفًا لِثقَلِ حمْلِ البَلاءِ عنْ روحِهِ إنْ كانَ البَلاءُ رُوحانيًا، وعَنْ بدَنِه إنْ كانَ مِنَ المَصائِبِ والعِلَلِ الجُسْمانيّةِ.

(١) الولي الصالح أبو عبدالله القرشي، قال الإمام الشعراني: كان رضي الله عنه جليل القدر يعظم الفقراء أشد التعظيم، وكان كثيرا ما يجتمع بالخضر عليه السلام. الطبقات الكبرى للشعراني (١/١٣٧).

(٢) الأبيات من نظم الشيخ الأكبر ابن عربي.

قالَ الصِّقِلي: "علِموا أنَّهُ مولاهُمْ بالحَقيقةِ فتوكَّلوا عليْهِ، فلمّا أيْقَنوا بحُسْنِ نظَرِهِ واختيارِهِ لعبادِهِ؛ سلَّموا لهُ قضاءً ورضُوا بحُكْمِهِ، فرضِي عنهُمْ وأرْضاهُمْ في دارِ البَلْوَى بالامتحانِ، فطوبَى لِمَنْ جعلَهُ اللهُ عرَضًا للبَلوَى، ووهَبَهُ الصَّبرَ والرِّضَى". وقدْ أبلَى اللهُ الكُلَّ بالكُلِّ، المؤمِنَ والصَّغيرَ والعالِمَ والفقيرَ بأضْدادِهِمْ وأمْثالِهِمْ؛ ليَظهَرَ شُكرُ الشّاكِرِ فيزيدَهُ منْ فضْلِهِ، وصبرُ الصّابِرِ فيجْزيهِ بغيْرِ حسابٍ، أو يَظهرَ البطَرُ بالنِّعمِ والسَّخطُ بالبَلاءِ، فإمّا سلْبُ نِعمةٍ أو مزيدُ نِقمةٍ، ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢].

***

١٠٦. منْ ظنَّ انْفكاكَ لُطْفِهِ عَنْ قدَرِهِ، فذاكَ لقُصورِ نظَرِهِ.

(منْ ظنَّ انْفكاكَ لُطْفِهِ عَنْ قدَرِهِ، فذاكَ لقُصورِ نظَرِهِ) -وقُصورُهُ منْ ضعفِ اليَقينِ وقلّةِ حُسنِ الظَّنِّ بمَصالِحِ العالَمينَ؛ فلذلكَ كانَ للقُصورِ أهلًا- شرعًا وعادةً، ونقلًا وعقلًا، لقَضاءِ العقْلِ بإمْكانِ أعظَمَ منْهُ، وما وُجِدَ قطُّ بليّةٌ إلّا وفي طيِّها خيرٌ وخفيِّها لُطفٌ، وإذا أحبَّ اللهُ عبْدًا ابتَلاهُ، وما منْ بَليّةٍ إلّا وهيَ مُكفِّرةٌ لذنْبٍ، أو موجِبةٌ لثَوابٍ، أو مُخفِّفةٌ لعِقابٍ، أو مُبشِّرةٌ بمَنفَعةٍ دُنيَويّةٍ، أو مُعرِّفةٌ لجَلالٍ، أو مورِثةٌ لحَقارةِ نفْسٍ، فكُلُّ قدَرٍ قضَتْ بهِ المَشيئةُ الأزَليّةُ يصْحَبُهُ لُطفٌ، ومَنْ ظنَّ خِلافَ ذلكَ كانَ منْهُ قُصورًا في النَّظرِ، أي جهْلًا بالعِلْمِ بقوْلِهِ تعالَى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: ١٩]، أطْلَقَ وصْفَ العُبوديّةِ، فأفادَ أنَّ اللُّطْفَ يشْمَلُ كُلَّ أحَدٍ حتّى الكافِرِ.

ومَنْ تبصَّرَ وجدَ سَريانَ سِرِّ اسمِهِ تعالى "اللطيف" في كُلِّ مُكوَّنٍ منْ لطيفٍ وكثيفٍ، حِسّيًا أو معْنَويًّا. قالَ ابنُ عرَبي: "ما نِقمةٌ إلّا وطيُّها رحْمةٌ، ألا ترى أنَّهُ لولا قطعُ الآكِلةِ[1] هلكَ

(١) الآكلة: داء يصيب عضو الجسم يأكل منه، وتسمى الآن "الغرغرينا". وجاء في سير أعلام النبلاء [الطبقة الثانية، عروة بن الزبير]: عن الزهري، قال: "وقعت الآكلة في رجل عروة، فصعدت في ساقه، فبعث إليه الوليد، فحُمِل إليه ودعا الأطباء فقالوا: ليس له دواء إلا القطع. فقطعت فما تضوَّر وجهه".

صاحِبُها". قالَ التّونِسيُّ: "كثيرٌ يسأَلُ اللهَ اللُّطْفَ الخَفيَّ، وهوَ غلطٌ، بلْ يقولُ: الظّاهِر والخَفيّ".

والحاصِلُ: أنَّ مَنْ شهِدَ المِنَحَ في البَلايا، فهوَ كامِلُ النَّظرِ لعُثورِه على الخفايا، أنْزَلَ بكَ الضُّرَّ لتَرِدَ بهِ إلى بابِهِ، فتلْجأَ بالضَّراعةِ لجَنابِهِ، أيُّ فائدةٍ أشْرَفُ مِنْ هذِهِ الفائدةِ؟! وأيُّ عائدةٍ أغرُّ مِنْ هذِهِ العائدةِ؟! أنزلَ البَلاءَ لتضعُفَ القُوى، فتخْمُدُ النَّفْسُ مِنْ مُتابَعةِ الهوَى، أنزلَ البَلاءَ ليُطيقَهُ القَلْبُ بالصَّبْرِ ثُمَّ الرِّضَى لأحكامِ الرَّبِّ. دخلَ بعضُهُمْ على سويْدِ ابنِ شُعبةَ[1] يعودُهُ، فوجَدَ ثوبًا مُلقًى فما ظنَّ أنَّ تحتَهُ شيئًا، فكشَفَ عنْ وجهِهِ، فقالَ: "لي كذا وكذا لم أطعَمْ ولم أشرَبْ، وما يسُرُّني أنّي نقصْتُ"، فهؤلاءِ القوْمُ شهِدوا المِنَنَ في المِحَنِ، وتلذَّذوا بها تلذُّذَ الصَّحيحِ بالحَسَنِ.

تنْبيهٌ: قالَ شيْخُنا الشَّعراني: "جميعُ ما وقعَ مِنَ الخَلْقِ عطيّةٌ إلهيّةٌ لهُمْ، حتَّى كِبارُ الذُّنوبِ، وهذا غايةُ الكرمِ، وهو عِلمٌ شريفٌ سترَهُ اللهُ عنْ عالمِ الأولياءِ فضلًا عنِ العُلماءِ، وهو مِنْ عِلْمِ الحِكمةِ التي منْ أوتيها فقد أُوتيَ خيْرًا كَثيرًا".

***

١٠٧. لا يُخافُ عليْكَ أنْ تلْتَبِسَ الطُّرُقُ عليْكَ، وإنَّما يُخافُ عليْكَ مِنْ غلَبةِ الهَوَى عليْكَ.

(**لا يُخافُ عليْكَ أنْ تلْتَبِسَ الطُّرُقُ**) إلى الحقِّ (**عليْكَ**)، فلا تدري أيَّ منْهجٍ مِنْها تسْلُكُ، فإنَّ الطَّريقَ واضِحٌ والحقَّ لائحٌ، (**وإنَّما يُخافُ عليْكَ مِنْ غلَبةِ الهَوَى عليْكَ**) حتَّى يعْميَكَ عنْ رؤيَتِها لدَيْكَ، فإنَّهُ إذا غلبَ أعمى البَصيرةَ.

(١) سويد بن شعبة اليربوعي، من بني تميم، وكان من أصحاب الخطط الذين خط لهم عمر بالكوفة. المنتظم لابن الجوزي (٥/٤٦)، وذكر القصة أبو طالب المكي في قوت القلوب (٤٣٣).

فالطُّرُقُ إلى اللهِ واضِحةٌ، وأعلامُ السُّلوكِ إليْهِ لائحةٌ، فلا تَخَفْ مِنَ التباسِ الطَّريقِ، بلْ خفْ مِنْ غلَبةِ الهوَى فينْعَدِمُ التَّوفيقِ، فانتَبِهْ يا ضُجْعةُ، وتيَقَّظْ فإنَّ الهوَى صُرْعةٌ[1]، أمرٌ ذو تبعاتٍ، وقفرٌ ذو تَلْعَاتٍ[2]، ونشوةٌ بعدَها سكَراتٌ، وشهْوةٌ خلفَها حَسَراتٌ، نزعٌ وهولُ المطْلعِ، وقبرٌ وضيقُ المضْجعِ، ووزرٌ والنَّفْسُ عاجزةٌ، وعرَضٌ والأرضُ بارزةٌ، والصِّراطُ طريقانِ، والنّاسُ فريقانِ، سعيدٌ وما أراكَ، وشَقيٌّ وما أدْراكَ، ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ [النجم: ٢٤]، أمْ حَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا.

تنْبيهٌ: اعلَمْ أنَّ اتِّباعَ الهوَى هوَ السَّببُ الكُلِّيُّ للمَكارِهِ الواصِلةِ للعَبْدِ في الدّارَيْنِ، وهوَ قادرٌ على ترْكِ الهوَى؛ لأنَّهُ تعالى أعلَمَهُ بأنَّ الشَّيطانَ عدوُّهُ، وهوَ مُسلَّطٌ عليْهِ، وأخْبَرَهُ بأنَّهُ إذا لمْ يُطِعْهُ فليْسَ لهُ عليْهِ سُلْطانٌ، وبأنَّ هوَى النَّفْسِ سبَبُ تسلُّطِ الشَّيطانِ، وعَلَّمَهُ الأُمورَ التي بها ينجو مِنْ كيْدِ العَدوِّ على ألسِنةِ الرُّسُلِ، والإنسانُ قادرٌ على فِعلِها وترْكِها، فإذا أنذَرَهُ فلم يقبَلْ فلا يلومَنَّ إلّا نفسَهُ، فقدْ أَوْجبَ عليها العِقابَ والدَّسائسَ الشَّيطانيّةَ، مِنْ موافَقةِ النَّفسِ البَهيميّةِ والقوى الشَّهوانيّةِ والغَضبيّةِ؛ لأنَّ للشَّيطانِ قوّةَ الامتزاجِ بالسَّريانِ والخِفّةِ، فتَهيجُ هذه القوى، فتغلُبُ على القُوى الفعّالةِ للخيرِ باستيلائِها، فيحصُلُ مِنها ما في قواها مِنَ الأفعالِ القبيحةِ مِنْ لهوٍ وارتِكابِ مُحرَّمٍ وغفلةٍ عنْ كلِّ ما ينفعُ، وقوّةُ الشَّهوةِ لأفعالِ المكارِهِ والفَسادِ، فعندَ ذلكَ يُزيِّنُ لهُ الشَّيطانُ سوءَ عملِهِ، فيراهُ حسنًا، فإذا عمِلَهُ وحاقَ بهِ وانقضى، بانَ لهُ مِنْ قوّةِ النَّفسِ النّاطِقةِ خطأَ فِعلِهِ وقبيحَ جهلِهِ، فيُلزِمُ نفْسَهُ بنَفسِهِ، ويذُمُّ زمانَهُ ويكرَهُ نوعَهُ وجِنسَهُ، وذلِكَ مِنْ قبيحِ الجهْلِ والخطأِ؛ لأنَّ الأفعالَ القبيحةَ باختيارِهِ، ولهُ قُدرةُ الامتِناعِ مِنْها، فيَرى الفِعْلَ القَبيحَ صادِرًا عَنْ بادِيهِ وليْسَ لهُ حيلةٌ فيه، ويعتَقِدُ أنَّهُ مقهورٌ عليْهِ ويتَمادَى في قسْوَتِهِ، ويلِجُ في ظَلامِهِ وعمْوَتِهِ، وذلكَ هوَ الضَّلالُ البَعيدُ، فلوِ انتَهَى عمّا نُهِيَ عنْهُ، وعنِ اللَّوازِمِ الموصِلةِ إلى الخطأِ، لكانَ سالِكًا طريقَ الصَّوابِ. كذا في "أُصولِ العُقولِ".

---

(١) أي غلّاب، صيغة مبالغة من "صرع".
(٢) التَّلْعَةُ مَسيل الماء، ومن نزل التلْعة فهو على خَطَر إن جاء السيلُ جرَفَ به. [لسان العرب].

تتِمّةٌ: سُئِلَ بعضُهُمْ: لَمَ عوقِبَ الإنْسانُ على هواهُ؟ فأجابَ بأنَّهُ يُعاقَبُ مِنْ حيْثُ التَّحجيرُ عليْهِ في أنْ يجعَلَ هواهُ فيما ندبَهُ الحقُّ إليهِ، لا فيما نهاهُ عنْهُ، فإنَّ رُتبةَ الإطلاقِ إنّما هيَ للحقِّ؛ فمُعاقَبةُ مُتَّبعِ هواهُ لمزاحَمتهِ الرُّتبةَ الإلهيّةَ، وأنشدوا:

خالِفْ هَواكَ فإنَّهُ محمودُ * واعلمْ بأنَّكَ وحدَكَ المقصودُ

فإذا أحكمَ السّالكُ مُخالَفةَ هواهُ، لم يبْقَ عليْهِ إلا امتثالُ الأمْرِ فقطْ، وحينَئذٍ ينظُرُ نفسَهُ بعيْنِ الحقيقةِ فيجِدُها مِلكًا للهِ، ليْسَ لهُ منها شيءٌ، فيُكرِمُها ويُحسِنُ إليها بالأكلِ اللَّذيذِ والمَلابِسِ الفاخرةِ، وينقَلِبُ الحُكْمُ بحُكْمٍ آخرَ، فهيَ ذرّةٌ عُجِّلَتْ لهُ مِنْ نعيمِ الآخرةِ، هذا ما قرَّرهُ شارِحونَ.

وقالَ التُّونسيُّ: "الخِطابُ للعارفِ بدليلِ ذِكرِ الطُّرُقِ بلفْظِ الجمْعِ، ولو كانَ للمُبتدِئِ الذي لا يعْرِفُ غيرَ الطَّريقِ الواضِحِ لكُلِّ أحدٍ لوحَّدَه، والتَّلبيسُ المذْكورُ اعتِقادُ الباطِلِ أنَّهُ حقٌّ لِشوبِ شُبهةٍ خفِيّةٍ على السّالِكِ".

***

١٠٨ . سُبحانَ مَنْ سترَ سِرَّ الخُصوصيّةِ بظُهورِ البَشريّةِ، وظهَرَ بِعظَمةِ الرُّبوبيّةِ في إظهارِ العُبوديّةِ.

(**سُبحانَ مَنْ سترَ سِرَّ الخُصوصيّةِ**) وهيَ ما خصَّ بهِ أهلَ وُدِّهِ مِنَ المعارِفِ، النّاشِئِ عنها استعدادُهُمْ وقابِليَّتُهُمْ لِكُلِّ شأنٍ عظيمٍ، (**بظُهورِ البَشريّةِ**) الذي هوَ أوصافُ الحُدوثِ مِنْ نحوِ ذُلٍّ وفقْرٍ، ولوازِمِ ذلِكَ مِنْ وُجودِ الغَيْرِ والكوْنِ، ولولا هذا السَّترُ كانَ سِرُّ اللهِ مُبتَذَلًا غيرَ مصونٍ، ولا بُدَّ للشَّمسِ مِنْ حِجابٍ وللحسناءِ مِنْ نِقابٍ، (**وظهرَ بعظَمةِ الرُّبوبيّةِ**) التي دلائلُها وشَواهِدُها مبثوثةٌ (**في إظهارِ العُبوديّةِ**)، ولولا ذلِكَ كانَ باطِنًا لا يظهَرُ؛ والعُبوديّةُ: القيامُ بحقِّ الطّاعةِ بشرطِ التَّوقيرِ، والنَّظرُ إلى ما مِنْكَ بعينِ التَّقصيرِ، وقيلَ غيرُ ذلِكَ.

قالَ الشَّاذلي: "وإذا أرادَ اللهُ أنْ يُعرِّفَكَ وليًّا طوَى عنكَ بشَريَّتَهُ"، وبالجُملة فقدْ أظهرَ أحْكامَ البَشريّةِ في الظَّواهرِ ستراً لما أودعَهُ مِنْ خصائِصِ السَّرائِرِ، وناهيكَ بِقوْلِ الكفَرةِ الفجَرةِ لِسيِّدِ مُضَرَ مع وجودِ الحقِّ: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

ولايتُهُ لِأهْلِ ودادِهِ لا يَعلَمُها إلا كُمَّلُ عِبادِه، والأولياءُ عرائِسُ اللهِ، جلَّتِ الأسرارُ أنْ تنجَليَ للأشرارِ، ظهرَتْ عظمةُ ربِّكَ المولى بلُزومِ فاقتِكَ في الآخِرةِ والأولَى، إمكانُكَ بالذّاتِ، دليلُ وُجودِهِ وهوَ أشرَفُ الصِّفاتِ.

قالَ التّونسيُّ: "سترُ الخُصوصيّةِ بظُهورِ البَشَريّةِ، فيهِ سِرُّ الحِكمةِ الإلهيّةِ؛ لأنَّ الحق لمّا أرادَ إبرازَ سِرِّهِ الخَفيِّ خلقَ آدمَ مِنَ الطِّينةِ الأرضيّةِ، وروحَهُ مِنَ الجَواهِرِ العُلويّةِ، فجعَلهُ عُلويًّا سُفليًّا، سَمائيًّا أرضيًّا، ثُمَّ وهبَهُ سِرَّ الخِلافةِ الإلهيّةِ، وخلعَ عليْهِ خِلعةَ الخُصوصيّةِ، فكانَ ذلكَ مِنْهُ تعالَى غيْرةً على سِرِّهِ المصونِ، وقدْ سرَتْ هذِهِ الحِكْمةُ في العِبادِ أنَّهُمْ إذا أرادوا إخفاءَ كَنْزٍ جعلوهُ في محلٍّ أرضيٍّ مُستَترٍ، وربَّما غطّوهُ بما هوَ مُحتَقرٌ في الأعيُنِ؛ فسِرُّ الخُصوصيّةِ في كُلِّ عبدٍ سِرُّ اللهِ الذي تجلَّى بِهِ فيهِ ومحاهُ عنْه بهِ، فكانَ بهذا التَّجلّي والفناءِ سِرًّا مِنْ أسرارِ رُبوبيَّتِهِ، فوجَبَ أنْ تُسترَ بأوصافِ البشَريّةِ".

قالَ علي وفا: "إذا أحبَّ اللهُ عبدًا أدخلَهُ في غيْبٍ مِنْ غياباتِ ملَكوتِهِ أو جبَروتِهِ أو في الظُّلُماتِ الثَّلاثِ"؛ فإنَّ الغُيوبَ هيَ ظُلُماتُ الذّاتِ، الحاجِبةُ للأبصارِ عنْ تصوُّراتِ حقائِقِ الأسْرارِ، ومَنْ تجلّى اللهُ فيهِ بحَقائِقِ أسْرارِهِ، حجبَهُ في غيابةِ حِرزٍ مِن أحْرازِهِ.

ولهذا قالَ ابنُ الفارضِ(١):

ولولا حِجابُ الكَوْنِ قُلتُ، وإنَّما * قيامي بأحْكامِ المَظاهِرِ مُسْكِتي

وإذا كانَ الحِجابُ مِنْكَ والدَّواءُ فيكَ..

***

(١) من قصيدة مطلعها:
فلفظٌ، وكُلّي بي لِسانٌ مُحَدِّثٌ * ولحظٌ وكلّي فيَّ عينٌ لعبرتي

١٠٩. لا تُطالِبْ ربَّكَ بتأخُّرِ مطْلَبِكَ، لكِنْ طالِبْ نفْسَكَ بتأخُّرِ أدَبِكَ.

(لا تُطالِبْ ربَّكَ بتأخُّرِ مطْلَبِكَ) وهوَ وُجودُ الخُصوصيّةِ **(لكِنْ طالِبْ نفْسَكَ بتأخُّرِ أدَبِكَ)** فإنَّهُ عينُ العُبوديَّةِ؛ فإذا رأيتَ مطْلَبَكَ تأخَّرَ، فاتَّهِمْ نفْسَكَ بإساءةِ الأدَبِ، فلو تقَدَّمَ لما تأخَّرَ؛ وأدبُكَ في الطَّلَبِ عدمُ رؤيةِ الاستِحقاقِ لما تطلُبُ، وهذا يوجِبُهُ إدلالُكَ عليهِ، والواجِبُ إذلالُكَ بينَ يديهِ. وقدْ مرَّ الكَلامُ على طرفٍ مِنَ الأدَبِ في الدُّعاءِ أوَّلَ الكِتابِ، ويأتي طرفٌ مِنْهُ عِنْدَ قولِهِ: "لا يكُنْ طلبُكَ تَسبُّبًا إلى العَطاءِ مِنْهُ ..."[١]. قالَ التّونسيُّ -رحِمَهُ اللهُ-: "الشَّيْخُ ليتَهُ راعى ترتيبَ الحِكَمِ المُتناسِبةِ، كُلِّ نوعٍ مِنْها على حِدةٍ، فإنَّهُ لو فعلَ أراحَ، وكانَتْ أنْوارُها تُضيءُ للمُتكَلِّمِ عليها دفعةً على أُفُقٍ واحِدٍ كما يُضِيءُ نورُ المِصْباحِ"[٢].

فائدةٌ: قالَ ابنُ عرَبي: "ما ظهَرَ على العَبْدِ إلّا ما اسْتَقَرَّ في باطِنِهِ، فما أثَّرَ فيهِ سِواهُ، فمَن فهِمَ هذهِ الحِكْمةَ وجعَلَها مشهودةً لهُ، أراحَ نفْسَهُ مِنَ التَّعلُّقِ بغيْرِهِ، وعلِمَ أنَّهُ لا يُؤتَى عليْهِ بخيْرٍ أو شرٍّ إلّا مِنْهُ، وأقامَ العُذْرَ لكُلِّ موجودٍ".

وقالَ بعضُهُمْ: "ما عرفَ أحدٌ مِنَ الحقِّ سوَى نفْسِهِ، و(إنَّما هيَ أعمالُكُمْ تُردُّ عليكُمْ)[٣]، فمِنْ لابِسِ حريرٍ، أو مِنْ لابِسِ مَشاقِ كِتّانٍ أو قُطْنٍ، وما بينَهُما، فلا تلُمْ إلّا نفسَكَ، ولا تلُمِ الحائِكَ؛ فإنَّهُ ما حاكَ لكَ إلّا غزلَكَ".

---

(١) انظر الحكمة رقم ١٦٦ ص ٢٨٠.

(٢) يعبر التونسي بذلك عن وجهة النظر الأخرى المتعلقة بترتيب الحكم، حيث يرى -خلافا لآخرين مثل العلامة زروق- أنها غير متناسبة في ترتيبها. وقد قام العلامة المتقي الهندي بترتيب الحكم العطائية في أبواب، ضم فيها الشبيه إلى شبيهه والنظير إلى نظيره، بما يتيح تناولها حسب موضوعاتها الأساسية، وقد أدرجنا هذا التبويب المسمى "النهج الأتم في تبويب الحكم" في آخر الكتاب.

(٣) اقتباس من حديث أخرجه بهذا اللفظ مطوّلًا أبو نعيم في الحلية (١٢٥/٥) من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. والحديث أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، وغيره بلفظ: (إنما هي أعمالكم أحصيها لكم).

ومِنْ وُجوهِ إساءةِ الأدَبِ أنْ تدعوَ بقَصْدِ الإجابةِ؛ فإنَّهُ قادحٌ في كَمالِ العُبوديّةِ، كما أفادَ قولُهُ الآتي: "لا يَكُنْ طلبُكَ تسبُّبًا إلى العَطاءِ ..." إلى آخرِهِ، وتعتَقدَ أنَّهُ لم يستجبْ لكَ أنَّهُ لم يَستَجِبَّ لكَ؛ فإنَّ ظُهورَ الإجابةِ لكَ غيرُ شرْطٍ، بلْ لهُ إخفاؤها عنْكَ للمصْلحةِ كما مرَّ في قولِهِ: "لا يكُنْ تأخُّرُ أمدِ العَطاءِ ..." إلى آخرِهِ[1]، أو تعْترِضَ عليْهِ في حُكمِهِ إذا أخَّرَ إجابتَكَ، وهذا أقبحُ الكُلِّ.

فالأدبُ رأسُ مالِ السّالِكِ لكونِهِ حقيقةَ العُبوديّةِ، كما أفادَهُ بقولِهِ:

١١٠. متَى جعلَكَ في الظّاهِرِ مُمتَثِلًا لأمْرِهِ، ورزقَكَ في الباطِنِ الاستِسْلامَ لقهْرِهِ، فقدْ أعْظَمَ المِنّةَ عليْكَ.

(**متَى جعلَكَ في الظّاهِرِ مُمتَثِلًا لأمْرِهِ**) فعلًا وتركًا، (**ورزقَكَ في الباطِنِ الاستِسْلامَ لقهْرِهِ**) عطاءً ومنعًا، (**فقدْ أعْظَمَ المِنّةَ عليْكَ**) حيْثُ وفَّقَكَ لخدمَتِهِ، وأراحَ ظاهِرَكَ مِنْ مُخالَفَتِهِ، وسِرَّكَ مِنَ الاعتِراضِ، فلا تلتَفِتْ لشيءٍ مِنَ الدُّنيا بعدهُ فتسْقُطُ مِنْ عينِ الحقِّ؛ لدنائتِكَ بطلَبِ الخَسيسِ بعْدَ التَّلبُّسِ بالشَّريفِ.

قالَ التّونسيُّ: ومَنْ زعَمَ أنَّهُ ماتَ عنْ نفْسِهِ ولم يبْقَ لهُ إرادةٌ، فتراهُ يعطِلُ ويقولُ: "أنا مِتُّ وفنَيْتُ، ولو أرادَ الحقُّ إقامَتي في امتِثالِ الظَّواهِرِ قُمْتُ، وأهلُ الظّاهِرِ في حِجابٍ"، فهذا الحالُ أخْشى أنْ يكون زنْدقةً، وما أحسَنَ قوْلَ المؤلِّفِ "الاستِسلامُ لقهْرِهِ" فأتى بصِيغةِ القهْرِ، فنبَّهَ بهِ على مُخالفةِ طاعةِ النَّفسِ لهَواها واتِّباعِ راحَتِها ومُناها.

فائدةٌ: قالَ ابنُ عربي: "لا يصحَبُ الإسلامَ اعتِراضٌ، ولا يصحَبُ الإيمانَ تأويلٌ، ولا يصحَبُ الإحسانَ سوءُ أدَبٍ، ولا يصحَبُ المعرِفةَ هِمّةٌ، ولا يصحَبُ العمَلَ لذّةٌ، ولا يصحَبُ العالِمَ استِشكالُ حُكمٍ بآخرَ".

---

(١) انظر الحكمة رقم ٦ ص ٣٥

وإنَّما كانَ الامتِثالُ والاستِسلامُ أعظَمَ مِنَّةٍ لما ذَكَرَهُ في قولِهِ:

١١١ . ليْسَ كُلُّ مَنْ ثبتَ تخْصيصُهُ، كمُلَ تخْليصُهُ.

(**ليْسَ كُلُّ مَنْ ثبتَ تخْصيصُهُ**) بالعُلومِ والأعمالِ والكَراماتِ والأحْوالِ، (**كمُلَ تخْليصُهُ**) مِنْ رؤيةِ الأغيارِ والحُظوظِ النَّفسيّةِ وغيرِها مِنَ الآفاتِ، بلِ الغالِبُ أنَّ الكَراماتِ تكونُ لمنْ لم يفْنَ عنْ حُظوظِهِ، فترِدُ لقوّةِ اليَقينِ، أو مُقدِّمةً للمعْرِفةِ، أو اختباراً لِصدْقِ مَنْ ظهَرَتْ لهُ أو عليْهِ، وقلَّما تقعُ لكامِلٍ لما مُنِحَهُ مِنَ الرُّسوخِ واليَقينِ والتَّمكينِ، فما كُلُّ مَنْ ثبَتَ تخصيصُهُ في جميعِ الأطْوارِ، كمُلَ تخْليصُهُ بالفَناءِ عَنِ الأغْيارِ، أولئِكَ معَ أصحابِ اليَمينِ، وهؤلاءِ خواصُّ المُقرَّبينِ، أولَئِك معَ العِبادةِ والزَّهادةِ، وهؤلاء جعَلوا الفَناءَ دَيْدَنًا وعادة، فمَنْ لم يخْلُصْ مِنْ رؤيةِ نفْسِهِ في الأعمالِ، فهوَ راكِنٌ للأسبابِ، مُغتَبِطٌ بوجودِ الحِجابِ، وإنْ شارَكَ الكامِلَ فيما أُتحِفَ بهِ مِنْ لطائِفِ الكَراماتِ ووظائِفِ العِباداتِ، وهذا يُناسِبُ قولَهُ الآتي: "رُبَّما رُزِقَ الكَرامةَ مَنْ لَمْ تكمُلْ لهُ الاستِقامةُ"(١).

وقدْ يكونُ مَنْ لا يُكاشَفُ بشيءٍ أفضَلُ مِمَّنْ يُكاشَفُ، قالَ بعضُهُمْ للجنيد: "كُنْتُ في بِدايَتي يسيلُ ماءُ الوَضوءِ على أعضائي ذهبًا وفِضّةً، قالَ: لا عجبَ، أما رأيْتَ الطِّفْلَ إذا بكَى تشغَلْهُ أمُّهُ بنحْوِ خشخاشةٍ".

وقالَ بعضُهُمْ: "إذا رأيْتَ الرَّجُلَ للكَراماتِ، فطريقُهُ طريقُ الأبْدالِ، أو للنِّعَمِ فطريقُهُ المحبّةُ وهوَ أعلى، أو للذِّكْرِ ويكونُ مُتعلِّقًا بِهِ فطريقُهُ طريقُ العارِفينَ، وهوَ أعلى مِنَ الكُلِّ".

تنْبيهٌ: قالَ التّونسيُّ: كمالُ التَّخليصِ بعْدَ التَّخصيصِ لم يُعْطَ إلّا لأفرادٍ وآحادٍ مِنْ هذهِ الأُمّةِ ومَنْ قبلَها؛ لأنَّ وصفَ البَشريّةِ جُبِلَ على النَّقْصِ والغَلَطِ والجهْلِ بحقيقةِ الحقِّ إلّا مَنْ حفِظَتْهُ العِنايةُ، وهذا الغلَطُ كثيراً ما يقعُ للسّالِكينَ لاشتِباهِ الأنْوارِ عليهِمْ بمَبادئِ مُقدِّماتِ

(١) انظر الحكمة رقم ١٧٩ ص ٢٩٢.

النِّهايةِ في البِدايةِ، وامتِزاجِ بعْضِ الأحْوالِ ببَعْضِ المقاماتِ، أو يتَحقَّقُ بمَقامٍ ويظُنُّ أنَّهُ حصلَ على مقاماتٍ كثيرةٍ، أو يرقَى مِنْ مقامٍ إلى غايةٍ ويظُنُّ أنَّهُ بلغَ النِّهايةَ، انظُرْ ما وقعَ مِنَ الغَلَطِ لأبي يزيدَ وجَمْعٍ مِنَ الصِّديقينَ. قالَ الجُنيدُ: "أدركْتُ سبعينَ عارِفًا، كُلُّهُمْ يعبُدون اللهَ على ظَنٍّ ووهْمٍ"، يعني لمَّا وصَلوا لِلمَقامِ توهَّموا أنْ لا مقامَ وراءَهُ.

***

١١٢. لا يستَحقِرُ الورْدَ إلّا جهولٌ، الوارِدُ يوجَدُ في الدّارِ الآخِرةِ، والورْدُ ينطَوي بانطِواءِ هذهِ الدّارِ، وأولى ما يُعتَنى بهِ ما لا يُخلَفُ وُجودُهُ، الورْدُ هوَ طالِبُهُ مِنْكَ، والوارِدُ أنْتَ طالِبُهُ مِنهُ، وأينَ ما هوَ طالِبُهُ مِنْكَ مِمّا هوَ مطلَبُكَ مِنْهُ؟!

(**لا يستَحقِرُ الورْدَ**) وهوَ ما يكسِبُهُ العبْدُ مِنَ العمَلِ، ويُعنى بالوارِدِ وهوَ ما يرِدُ على باطِنِهِ مِنْ لطائِفَ وأنوارٍ (**إلّا جهولٌ**) بحَقِّ نفسِهِ وحقِّ ربِّهِ، بلِ الورْدُ أحقُّ مِنَ الوارِدِ بالاعتِناءِ لأمرَيْنِ:

الأوَّلُ: (**الوارِدُ يوجَدُ في الدّارِ الآخِرةِ**) على حسَبِ الورْدِ، فحظُّ العبْدِ لا يفوتُ، (**والورْدُ**) الذي بِهِ حصلَ الوارِدُ (**ينطَوي بانطِواءِ هذهِ الدّارِ**) لانقِطاعِهِ بانقِطاعِها؛ إذ الآخِرةُ لا عملَ فيها، فبفَواتِهِ يفوتُ ثَوابُهُ، فكأنَّهُ يقولُ: "الورْدُ ينْطَوي بانْطِوائِكَ، فبادِرْ إليهِ قبلَ انطِفائِكَ"، (**وأولى ما يُعتَنى بهِ**) ويُجتَهَدُ في تحصيلِهِ (**ما لا يُخلَفُ وُجودُهُ**) لفوتِ فائدَتِهِ بفوتِهِ.

الثّاني: (**الورْدُ هوَ طالِبُهُ مِنْكَ**) لأنَّهُ حقُّ العُبوديّةِ، فهوَ حقُّهُ علَيْكَ، (**والوارِدُ أنْتَ طالِبُهُ مِنْهُ**)، فإنَّهُ حظُّ نفسِكَ مِنْهُ، (**وأينَ ما هوَ طالِبُهُ مِنْكَ**) وُجوباً أو ندباً، (**مِمّا هوَ مطلَبُكَ مِنْهُ**) مِنْ حظِّكَ النّاقِصِ وغرضِكَ القالِصِ، (قضاءُ اللهِ أحقُّ وشرطُهُ أوثَقُ)[1]، و(إنَّما الولاءُ لمنْ

(١) اقتباس من حديث متفقٌ عليه؛ أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ، واللفظ له (٢١٦٨)، ومسلمٌ (١٥٠٤)، وغيرهما من حديث السيدة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا مرفوعًا.

أعتقَ)[1]، مطلَبُ ربِّكَ مِنْكَ العبادةُ، فالزَمْها واتّخِذْها عادةً، مَنِ استكْثَرَ مِنْ أورادِهِ فقدْ تزوَّدَ لمعادِهِ، أمرَكَ بذلكَ فمتى تقاعدْتَ فأنْتَ هالكٌ، لا يصِلُ إلى الرُّتبِ العَوالي، مَنْ لم يُكابدِ الأيّامَ واللّيالي، فلا تغفلْ نفسَكَ وتعهَّدْ، واشهَدْ قولَهُ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ﴾ [الإسراء: ٧٩].

فاحتِقارُ الوِرْدِ مكرٌ واستِدراجٌ، ويكونُ مبدأُ ذلكَ أنْ يلوحَ للسّالكِ خيالاتٌ، وتظهرُ لهُ صورُ كراماتٍ، توجبُ استحسانَ حالَتِه واختيارَ بَطالتِهِ، وفي ذلكَ رفضٌ للعُبوديّةِ، وإشارةٌ للطَّردِ والبُعْدِ، ومَنْ لم يكُنْ في مزيدٍ مِنَ الوِرْدِ فهوَ في نقصٍ، ومَنْ كانَ في نقصٍ فالموتُ خيرٌ لهُ.

ووُجِدَ بيدِ الجَنيدِ سُبحةٌ فقيلَ لهُ: أنتَ معَ شرفِكَ تُمسِكُ سُبحةً! قالَ: "طريقٌ وصلْنا به لا نترُكُهُ أبدًا".

قالَ التّونسيُّ: مَنِ احتقَرَ الوِردَ فهوَ جاهِلٌ بقدرِ ما وُفِّقَ لهُ مِنَ العمَلِ؛ لأنَّ الوِرْدَ هديّةُ اللهِ إليكَ، وسحابةُ رحمةٍ أمطَرها عليْكَ، وقدْ أخفَى اللهُ القَبولَ في قليلِ العمَلِ، كما أخفَى الطَّردَ في قليلِ الزَّللِ؛ ولهذا قالَ أبو يزيدَ: "لو صفَتْ لي تسبيحةٌ أو تهليلةٌ ما باليْتُ".

والدَّوامُ على القَليلِ على مرِّ الأيّامِ كثيرٌ، والإكثارُ في بعضِها معَ القطْعِ قليلٌ، بلْ عدمٌ لا يُذكَرُ، فدُمْ علي السَّيرِ جهدَ الاستِطاعةِ، عسَى بعْدَ المشْيِ يكونُ الرُّكوبُ معَ الجَماعةِ، وبعدَهُ الجدُّ في السَّيرِ، وبعدَهُ يكونُ سُرعةُ الطَّيرِ، وبعدَ الطَّيرانِ السريانُ؛ فالبابُ مفتوحٌ، والجودُ ممنوحٌ، و(أحبُّ العمَلِ إلى اللهِ أدوَمُهُ وإنْ قلَّ)[2].

وما أحسن تعليلَه بقولِه: "الواردُ يوجَدُ ..." إلخْ؛ فالعاقلُ يشْتغلُ بما هوَ مُنطَوٍ عنْهُ لا بما هوَ واردٌ عليهِ، وفيهِ ردٌّ على أهلِ الرُّكونِ إلى الرّاحةِ والبَطالةِ، القائلينَ: "اكتَفيْنا بالواردِ عَنِ الوِرْدِ"، تعلُّلًا بما حُكيَ عَنِ الخضرِ مِنْ سُقوطِ كُلفةِ التَّكاليفِ عَنِ الخَواصِّ، وبقولِ الدّاراني: "إذا صارَتِ المُعامَلةُ إلى القُلوبِ، استَراحَتِ الجَوارحُ"!

---

(١) اقتباس من حديث متفقٌ عليه؛ مخرَّجٌ في عدة مواضع في الصحيحين منها ما أخرجه البخاريُّ (٤٥٦) (٢٥٦١)، ومسلمٌ (١٥٠٤)، وغيرهما من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعًا.

(٢) اقتباس من حديث متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٨٦١)، ومسلمٌ (٧٨٢)، وغيرهما من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعًا.

ولا شاهِدَ لَهُمْ في ذلِكَ إذْ معنَى قولِ الخضرِ: لا كُلفةَ في عِبادةِ الخَواصِّ، والدّارانيُّ أرادَ استراحةَ الجَوارِحِ مِنَ المُجاهَدةِ إذا اشتَغلَ العبْدُ بحِفْظِ قلبِهِ مِنَ الخَواطِرِ المذمومةِ. ومَنْ زعمَ أنَّ المعرفةَ تُنجيهِ دون قيامٍ بوصْفِ عمَلِ العُبوديّةِ فقدِ افترَى، وقدْ رُؤِيَ الجنيدُ في النَّومِ فسُئِلَ عمّا فُعِلَ بِهِ فقالَ: "طاحَتْ تِلكَ الإشاراتُ، وغابَتْ تِلكَ العِباراتُ، وفنِيَتْ تِلْكَ العُلومُ، وبلِيَتْ تِلْكَ الرُّسومُ، وما نفَعَنا إلا ركَعاتٌ عِنْدَ السَّحرِ".

تنْبيهٌ: قالَ بعضُ الكاملينَ: إقامةُ الوِرْدِ في وقْتِهِ عِنْدَ إمكانِهِ لازِمٌ لكُلِّ صادِقٍ، فإذا عارضَهُ عارِضٌ أو واجِبٌ، لزِمَ إنفاذُهُ وتعيَّنَ تَدارُكُهُ بمِثْلِهِ لئلّا يعتادَ البَطالةَ، ولأنَّ اللّيْلَ والنَّهارَ خِلفةٌ، والأوقاتُ كُلُّها للهِ، فلا وجهَ للاختِصاصِ إلّا مِنْ حيْثُ ما خَصّصَ، فمِنْ ثَمَّ قالَ بعضُهُمْ: "ليْسَ عِنْدَ ربِّكُمْ ليلٌ ولا نَهارٌ"، يُشيرُ للكَوْنِ بحُكمِ الوَقْتِ، لا ما يفْهَمُهُ البَطّالون مِنْ عدَمِ إقامةِ الوِرْدِ، وقيلَ لبَعْضِهِمْ وبيَدِهِ سِبحةٌ: أتَعُدُّ عليْهِ؟ قالَ: لا بلْ أعُدُّ لهُ.

١١٣. وُرودُ الإمدادِ بحَسَبِ الاستِعدادِ، وشُروقُ الأنْوارِ على حسَبِ صفاءِ الأسْرارِ.

(**وُرودُ الإمْدادِ**) مِنَ الرَّبِّ الجَوادِ (**بحَسَبِ الاستِعْدادِ**) المجعولِ فيكَ، فبقدْرِ الصَّفا يكونُ الوَفا، وبحسَبِ الصِّقالِ يكونُ النَّوالُ، فمَنْ كمُلَ استِعدادُهُ، حصلَ مُرادُهُ، والمدَدُ مِنَ المُمِدِّ الحَكيمِ يأتي على حسَبِ الاستِعْدادِ لقَبولِهِ، ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ [القمر: ٥]؛ ولهذا قالَ بعضُ الأعيانِ: تجلّي الحقيقةِ الإلهيّةِ للأكوانِ يتَفاوَتُ بحسَبِ الاستِعْدادِ والإمكانِ؛ ولذلِكَ مِنَ القوْمِ مَنْ يملُكُ الحالَ، ومِنهُمْ مَنْ يمْلُكُ المقامَ، ويثْبُتُ لهُ التَّجلّي على الدَّوامِ، إلى غيرِ ذلِكَ مِنَ الأقْسامِ ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الرعد: ٤].

على قدرِكَ الصَّهباءُ تُعطيكَ نشوةً * ولستَ على قدرِ السُّلافِ تُصابُ
ولو أنَّها تُعطيكَ يومًا بقدرِها * لضاقَتْ بِكَ الأكوانُ وهيَ رِحابُ

وتجلّي الجمالِ في المَشاهِدِ بحَسَبِ ما عليهِ المُشاهِدِ، فلا تظُنُّ أنَّ الرَّبَّ أخَّرَ عنكَ إمدادَكَ بُخلًا عليْكَ ولا احتِقارًا لكَ، بلْ سبَقتْ كلِمَتُهُ واقتضَتْ حِكمَتُهُ أنَّ أوانِيَ فَخّارٍ فاخورِهِ منها كبيرٌ وصغيرٌ، وصحيحٌ وكسيرٌ، ومنها قويُّ الإمكانِ، ومنها مُتزَلزِلُ البُنيانِ، ومنها سريعُ الزَّوالِ، ومنها قوةُ جمالٍ؛ فلا حرجَ على مَنْ أعطَى كُلَّ آنيةٍ اللّائقَ بها وما يُصلِحُها، فافهَمْ سِرَّ التَّدبيرِ ولا تعترِضْ، نعمْ إذا أرادَ مَنْ لهُ المُرادُ إنقاذَ مَنْ يشاءُ مِنَ العِبادِ، وهَبه الاستِعدادَ، وقالَ لفَخّارَتِهِ: "اتسعي وصِحّي"، فتنقلِبُ عينُ فخّارتِهِ المهينةِ ثمينةً.

(وشُروقُ الأنْوارِ) اليَقينيّةِ العِرفانيّةِ **(على حسَبِ صفاءِ الأسْرارِ)** مِنْ كدَرِ التَّعلُّقِ بالأغيارِ، والرُّكونِ إلى الآثارِ.

تنْبيهٌ: قالَ بعْضُ الكامِلينَ: "ما رُكِّبَ في الطِّباعِ مُعينٌ للنُّفوسِ على ما تُريدُهُ حسَبَ قواها"؛ فلِذلِكَ قيلَ: إذا عُلِّمَ الصَّغيرُ بما تميلُ إليهِ نفسُهُ مِنَ العُلومِ أو الحِرَفِ خرجَ إمامًا فيها، وإذا انتَحلَ المُريدُ ما تُرجِّحُهُ حقيقتُه مِنَ الأذكارِ والأورادِ، كانَ مُعينًا لهُ على مقْصدِهِ بدَوامِهِ، ويُعينُ اللهُ العبْدَ على قدرِ نيَّتِهِ، وما دخلَ فيهِ بانْبِساطٍ كانَ أدعَى للدَّوامِ، أشارَ لذلِكَ في "تاجِ العروسِ"، وتكلَّمَ عليهِ ابنُ أبي جمرة[١] في قولِ حذيفةَ: (كانَ النّاسُ يسألون رسولَ اللهِ عنِ الخيرِ، وأسألُهُ عنِ الشَّرِّ) الحديثُ[٢].

تنْبيهٌ آخَرُ: قالَ الحاتميُّ: الإنْسانُ مجمعُ العَوالِمِ العُلويّةِ والسُّفليّةِ، فهوَ الخُلاصةُ المُجتَمعةُ الخارِجةُ مِنْ دائرةِ مُحيطِ كُلِّ الكوْنِ، فهو مُركَّبٌ مِنْ قوًى شيطانيّةٍ، وقوًى رُوحانيّةٍ، وقوًى ملَكيّةٍ قُدُسيّةٍ، وقوًى حيَوانيّةٍ، وكُلُّ مُركَّبٍ أبدعَهُ اللهُ فيهِ كثيفٌ ولطيفٌ، فمَنْ خُلِقَ مِنْ لطيفٍ لطُفَ، أو مِنْ كثيفٍ كثُفَ، وبتَفاوتِ مِقدارِهِ في اللَّطافةِ والكَثافةِ، يكونُ التَّفاوُتُ في النِّسبةِ الوَهبيّةِ والقوَى الرُّوحانيّةِ والاطِّلاعيّةِ؛ فمَنْ كانَ أصلُ جِبلَّتِهِ مِنَ الجُزءِ المَنْسوبِ إلى اللَّطافةِ في التَّركيبِ،

---

(١) العلامة العارف أبو محمد عبد الله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي المالكي، من العلماء بالحديث، وكان صاحب كرامات، من كتبه: مختصر صحيح البخاري وشرحه، والمرائي الحسان. توفي سنة ٦٧٥. طبقات الأولياء لابن الملقن (١/٤٣٩)، ونيل الابتهاج (١/٢١٦).

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٦٠٦)، ومسلمٌ (١٨٤٧)، من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ووافقَهُ ما ناسَبَهُ مِنَ اللَّطافةِ، كانَ لهُ نِسبةٌ مِمّا ذُكِرَ، ومَنْ كانَ أصلُ خِلقَتِه مِنْ جُزءِ الكَثافةِ، ووافقَهُ نِسبةُ الكَثافةِ، لا يكونُ لهُ نِسبةٌ مِمّا ذُكِرَ أصلًا، ومِنْ ذلِكَ مِمّا تثقُلُ كثافتُهُ وما تخِفُّ؛ فلهذا كانَ الإمدادُ بحَسَبِ الاستعدادِ الأصليِّ، فمَنْ لهُ نِسبةٌ حقيقيّةٌ مِنْ تِلكَ النِّسبِ سهُلَ عليْهِ معرفةُ طريقِ الحقِّ، وغيرُهُ يتغَطّى عليهِ الطَّريقُ ويُحجَبُ عنها، ويصعُبُ عليهِ سُلوكُها فيكونُ محرُومًا؛ والحاصِلُ: أنَّ الإنْسانَ وغيرَهُ مِنْ كُلِّ الذَّواتِ المُرَكَّبةِ مِنْهُمْ مَنْ خُلِقَ مِنْ لطيفِ المَوادِ، فيتَرَكَّبُ فيهِ لطيفُ القوَى، ومِنهُمْ مَنْ خُلِقَ مِنْ كثيفِ المَوادِ، فتجتَمِعُ فيهِ كثيفُ القوَى، وعلى نِسبةِ التَّفاوُتِ في الأنواعِ اللَّطيفةِ والكثيفةِ، يكونُ التَّفاوُتُ في الأحوالِ وصُدورِ الأفعالِ؛ ولذلِكَ اختلَفَتِ الأنواعُ والأشكالُ والأحوالُ والطِّباعُ والأفعالُ، فمَنْ كانَ أصلُ خِلقَتِهِ وفِطرةُ نشأتِه مِنَ اللَّطافةِ اللّاحِقةِ بالموادِّ النّورانيّةِ ارتقَى إلى المراتِبَ العليّةَ، ومَنْ أصلُ جِبلَّتِه مِنَ الكَثافةِ اللّاحِقةِ بالموادِّ المُظلِمةِ الدَّنِسةِ، هبطَ إلى المراتِبِ الشَّيطانيّةِ، الهابطةِ إلى أخسِّ مقامٍ بالتَّعذيبِ والهَوانِ، وذلِكَ بحِكمةِ اللهِ وقدرِهِ السّابِقِ في أزلِهِ. انتهى.

وصفَاءُ الأسرارِ بقدْرِ السَّلامةِ مِنَ الأكدارِ، في تركِ التَّدبيرِ والاختيارِ، فلذلكَ قالَ:

١١٤. الغافِلُ إذا أصبحَ نظرَ في ماذا يفعلُ، والعاقِلُ ينظُرُ ماذا يُفعَلُ بِهِ.

(**الغافِلُ إذا أصبحَ نظرَ في ماذا يفعلُ**) مِنْ شُئونِ دينِهِ ودُنياهُ؛ لأنَّهُ بصَدَدِ نِسبةِ الفِعْلِ لنَفْسِهِ، مصروفٌ عَنِ النَّظرِ لربِّهِ؛ لاستِحكامِ غفْلَتِه، فهوَ حقيقٌ بأنْ يكِلَهُ إلى نفسِهِ، فيتَشتَّتَ قلبُهُ ويتنغَّصَ مُرادُهُ، فكُلَّما فاتَهُ مقصِدٌ تكدَّرَ حالُهُ وتغيَّرَ بالُهُ؛ لتوهُّمِهِ فوتَ مقصودِهِ، فتراهُ أبدًا ينسِبُ تدبيرَ أُمورِهِ إلى الحزمِ المُتَّصِفِ بهِ، غيرَ مُعرِّجٍ على تدبيرِ الحقِّ لهُ، وهذا حالُ مَنْ وُكِّلَ لنفسِهِ، فما أقرَبَ هلاكَهُ! وذلِكَ مِنَ اعتمادِهِ على عمَلِهِ، فهوَ في نقصٍ دائمٍ معَ ظنِّهِ الكمالَ اللّازِمَ، فالكَيِّسُ مَنْ لا تدبيرَ لهُ معَ المولَى، والأحمقُ مَنْ دبَّرَ نفسَهُ ففعلَ ما ظنَّهُ الأَوْلَى، مَنْ دبَّرَ نفسَهُ وُكِلَ إليها وكانَتْ أفعالُهُ أبدًا عليها، متَى أسقَطْتَ التَّدبيرَ، فكُلُّ مطلَبٍ لكَ يسيرٌ.

(**والعاقِلُ ينظُرُ ماذا يُفعَلُ بهِ**) ناسبًا الفعْلَ لربِّه، فهوَ ناظرٌ إليه، راضٍ بما يرِدُ منْهُ عليه، فكُلَّما فاتَهُ مقصدٌ اعتبَرَ وقامَ بحقِّ الحقِّ في كُلِّ أمرٍ ظهيرٍ، فهوَ حقيقٌ بأنْ يكفيَهُ تعلُّقاتِ الأعمالِ، ويُفرِغَهُ مِنْ جميعِ الأشغالِ، ويُرضيَه ويُقِرَّ عينَيه بما يُقيمُهُ فيه مِنَ الأعمالِ أو يورِدَ عليهِ مِنَ الأحوالِ، وناهيكَ بذلكَ سعادةً عظيمةً ومِنّةً جسيمةً، وكانَ الحضرَميُّ كثيراً ما يُنشِدُ:

اتبَعْ رياحَ القَضا * ودُرْ حيْثُ دارَتْ

وسلِّمْ لِسَلْمَى * وسِرْ حيْثُ سارَتْ [1]

فالعاقِلُ الذي حلّاه اللهُ بزينَتِه، ونوَّرَ عليْه بنورِهِ وهيْبَتِهِ، يُسلِّمُ إلى اللهِ، ويخرُجُ مِنْ حولِهِ وقوَّتِهِ إلى حولِهِ وقوَّتِهِ، ويترُكُ الوسَنَ والكسَلَ، فكأنَّهُ بنَذيرِ الموْتِ وقدْ وصلَ. فيا عاقِلُ، الرَّحيلَ! فقدْ عبرَتْ قوافِلُ العُمُرِ، والنَّجا! فقدِ انْكسرَتْ عوامِلُ السَّمرِ، وسِرْ قبلَ أنْ يُسرى بكَ، وأطِعْ منْ يُريدُ اليُسرى بِكَ، وسابِقْ تُبصِرُ مرتَعًا وثيراً ودِعَة، وهاجِرْ تجِدْ في الأرْضِ مراغَمًا كثيراً وَسِعَة.

وفيهِ مِنْ ألقابِ البَديعِ جِناسُ التَّصحيفِ، ويُسمَّى جِناسَ الخطِّ، وهوَ ما تماثَلَ رُكناهُ وضعًا، واختلَفا خطًّا.

***

١١٥. إنَّما اسْتوحَشَ العُبّادُ والزُّهادُ مِنْ كُلِّ شيءٍ لغيْبَتِهِمْ عَنِ اللهِ في كُلِّ شيءٍ، فلو شهِدوهُ في كُلِّ شيءٍ لم يستَوْحِشوا مِنْ شيءٍ.

(**إنَّما اسْتوحَشَ العُبّادُ والزُّهّادُ مِنْ كُلِّ شيءٍ**) حتَّى انحازوا إلى قُللِ الجبالِ، وتركوا الأهْلَ والمالَ (**لغيْبَتِهِمْ عَنِ اللهِ في كُلِّ شيءٍ**)، ووُجدانِ الأشياءَ في نظرِهِمْ، فهُمْ محجوبون عنْ ربِّهِمْ بنظرِهِم لأنفُسِهِمْ ورِعايةِ حظِّهِمْ، عامِلون على التحصيلِ، مُتوَحِّشون مِنَ الخلْقِ لتَوهُّمِهِمْ فوتَهُ

(١) لأبي العباس أحمد بن عقبة الحضرمي، وقال تلميذه زرُّوق معلقا: والذي أفهمه من سلمى أنها الشريعة.

بمُخالَطتِهِمْ، لدُخولِ العِللِ والآفاتِ عليهِمْ بهِ، وهذا مِنْ رؤيةِ النَّفسِ والخَلقِ نفيًا وإثباتًا، وهوَ آيةُ خُلوِّ القلْبِ عَنْ مُشاهَدةِ الخلقِ بالحقِّ.

(فلو شهِدوهُ في كُلِّ شيءٍ) فاعلًا ومُدبِّرًا ومُصرِّفًا أنِسوا بكُلِّ شيءٍ، و**(لم يستَوْحِشوا مِنْ شيءٍ)**، لوُجدانِهِمْ روحَ الأُنْسِ في كُلِّ شيءٍ، ورؤيةِ مطلوبِهِمْ في كُلِّ شيءٍ، والزُّهدُ في المزهودِ شاهدٌ لهُ بالوُجودِ، وإنَّما يتوحَّشُ مِنَ الأشياءِ مَنْ يراها شَيئا. ومَنْ لم يرها شيئًا لِشُهودِهِ فناها أو أنَّها قائمةٌ به تعالَى، فلَمْ يرَها مُجرَّدةً عَنِ اللهِ، بلْ ناشئةً عنْهُ وقائمةً بهِ، فيراهُ قبْلَها وبعْدَها ومعَها، فعُلِمَ أنَّ استيحاشَ العُبّادِ والزُّهّادِ مِنَ الأشياءِ إنَّما هوَ لشُهودِهِمْ أنَّها أضدادٌ يفوتُ برؤيَتِها الغرَضُ، فيفرّوا عنها طمَعًا في العِوَضِ.

قالَ المُصنِّفُ[1]: "هُما ولايَتانِ، وليٌّ يَفنى عنْ كُلِّ شيءٍ فلا يشْهَدُ معَ اللهِ شيئًا، ووليٌّ يبْقَى في كُلِّ شيءٍ فيشْهَدُ اللهَ في كُلِّ شيءٍ وهذا أتمُّ؛ لأنَّهُ سُبحانَهُ لم يُظهِرِ المملَكةَ إلّا ليُشْهدَ فيها، فالكائناتُ مرايا الصِّفاتِ، فمنْ غابَ عَنِ الكونِ، غابَ عنْ شُهودِ الحقِّ فيهِ، فما نصَبَ الكائناتِ لِتَراها، بلْ لترى فيها موْلاها".

وقالَ الحضرميُّ: "ليسَ الرَّجلُ الذي لا يدخُلُ الظُّلمةَ، ولا الظُّلمةَ بالظُّلمةِ، بلْ مَنْ يدخُلُ الظُّلمةَ بالنّورِ". وقالَ بعضُهُمْ: إنَّما توحَّشَ الزُّهّادُ للغيبةِ عَنْ شُهودِ الحقِّ بما استَولَى عليهِمْ مِنْ شُهودِ الخلْقِ، وذلِكَ مِنْ آفةِ وُجودِ السِّوى في فِكرِهِم المُقيَّدِ بتحسينِ العقْلِ وتقبيحِهِ، فلو خلصوا مِنْ عقلِ عِقالِهِ انطلَقوا في فضاءِ الشُّهودِ المُطَّلعِ على أسرارِ الكائناتِ، فأنِسوا بلُطْفِ مَنْ تجلّى باختراعِ كائناتِهِ وظهرَ بلطائِفِ مصنوعاتِهِ، لكِنْ حُجِبوا بعتمةِ الشَّفْعيّةِ عنْ إشراقِ نورِ الوِتْريّةِ، فأظْلمَ عليهِمُ الوُجودِ لعدَمِ الاستِضاءةِ بسِراجِ الشُّهودِ.

قالَ الشّاذِلي: "خرجَ الزُّهّادُ والعُبّادُ مِنَ الدُّنيا وقُلوبُهُمْ مُغفَلةٌ عَنِ اللهِ"، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

---

(١) أي ابن عطاء الله، والعبارة مقتبسة من كتابه "لطائف المنن".

وعمَى البَصيرةِ أشدُّ مِنْ عمَى البَصَرِ؛ لأنَّ هذا يقَعُ بهِ الحِجابُ في الآخِرةِ بخلافِ ذاكَ، فمَنْ غابَ عنْ شُهودِ المُكوِّنِ بالكائناتِ، كانَ محجوبًا بها على ممرِّ الأوقاتِ، ومَنْ قرأَ ما فيها مِنْ سُطورِ الإبداعِ في كِتابِ حِكمةِ الاختراعِ أنِسَ بها في جميعِ المقاماتِ والمجالِسِ، ولو أنَّها بالأطلالِ والرُّبوعِ الدوارِسِ، فهذا نوعٌ مِنِ انقلابِ الأعيانِ بالعِباداتِ، موجِبُهُ المعرفةُ بالإكسيرِ الجابرِ للكَسيرِ، فخُذْ هذا الكَلامَ اليَسيرِ، تحصُلُ بهِ إنْ شاءَ اللهُ على التَّيسيرِ، في ذِهابِ الوحْشةِ بالأُنْسِ، عِنْدَ ربِّنا في حظيرةِ القُدسِ.

***

١١٦. أمرَكَ في هذِهِ الدَّارِ بالنَّظرِ في مُكوَّناتِهِ، وسيكشِفُ لكَ في تِلكَ الدّارِ عنْ كمالِ ذاتِهِ.

(أمرَكَ في هذهِ الدّارِ بالنَّظرِ في مُكوَّناتِهِ)، لتراهُ بنورِ بصيرَتِكَ ظاهِرًا فيها مِنْ وراءِ حِجابِها، (وسيكشِفُ لكَ في تِلكَ الدّارِ عنْ كمالِ ذاتِهِ) لتراهُ ببصرِكَ عيانًا مِنْ غيرِ إحاطةٍ ولا معرفةِ ماهيّةٍ، فأمرَكَ بالنَّظرِ في مُكوَّناتِهِ لتستعدَّ لتجلّيهِ لكَ بذاتِهِ، تجلّى لكَ الآنَ مِنْ وراءِ حِجابٍ، وسيكشِفُ لكَ عنْ ذاتِهِ كالشَّمسِ بغيرِ سحابٍ، العارِفُ ليسَ بهِ قُصورٌ، فيراهُ أبدًا مِنْ خلفِ السُّتورِ.

ثُمَّ إنَّ ذلكَ الكشْفَ بحسَبِ ما شاهَدَتْهُ بصيرتُكَ في الدُّنيا؛ لأنَّ الرُّؤيةَ في الآخِرةِ ليسَتْ إلّا زيادةُ كشْفٍ، وكُلُّ مَنْ كانَ أكثرَ توجُّهًا في الدُّنيا، كانَ أعظمَ تجلّيًا لقلبِهِ، فكانَ أكثرَ رؤيةً في الآخِرةِ؛ فالرُّؤيةُ بقدرِ قوّةِ المعرفةِ، ومُقوّياتُها مُشاهدةُ المختَلِفاتِ مِنْ أفعالِ الخلقِ، ولهذا اختارَ بعضُ العارِفينَ سُكنَى المُدُنِ العِظامِ التي تُشاهدُ فيها الآثارُ الكثيرةُ الاختِلافِ.

ورؤيتُهُ تعالى في الآخِرةِ رؤيةُ وُجودٍ، لا أنَّهُ في جِهةٍ ولا مكانٍ محدودٍ.

***

١١٧. عِلِمَ منكَ أنَّكَ لا تصبرُ عنْهُ، فأشهدَكَ ما برزَ مِنْهُ.

(**عِلِمَ منكَ أنَّكَ لا تصبرُ عنْهُ**) لما أنتَ عليهِ مِنَ الاحتياجِ، وما هوَ عليهِ مِنَ الكَمالِ والجَلالِ، (**فأشهدَكَ ما برزَ مِنْهُ**) مِنَ الأكوانِ والآثارِ، تسليةً لكَ بالأثَرِ عنِ النَّظرِ، وليخفِّفَ عنْكَ ما بكَ مِنْ ثِقَلِ التَّوحيدِ الذي لا يُطاقُ حملُهُ، فأحالَكَ على الآثارِ لعدَمِ الوُصولِ إليهِ إلّا بذلكَ؛ لأنَّ عينَ الحدثِ لا تنفتِحُ لِشُعاعِ شمسِ الأزلِ، فالمخلوقُ إنَّما ينتهي لمثلِهِ، ويَعرِفُ ما كانَ مِنْ شكلِهِ.

***

١١٨. لمّا علِمَ الحقُّ مِنْكَ وُجودَ الملَلِ لوَّنَ لكَ الطّاعاتِ، وعلِمَ ما فيكَ مِنْ وُجودِ الشَّرهِ فحَجَرَها عليْكَ في الأوقاتِ.

(**لمّا علِمَ الحقُّ مِنْكَ وُجودَ الملَلِ**) وهوَ فَترةٌ تعرِضُ مِنَ المُداوَمةِ على نمطٍ واحِدٍ مِنَ العمَلِ استثقالًا لهُ، (**لوَّنَ لكَ الطّاعاتِ**) لتستريحَ بالتَّنقُّلِ مِنْ نوعٍ لآخَرَ وتستخِفَّهُ وتستَحليه.

(**وعلِمَ ما فيكَ مِنْ وُجودِ الشَّرهِ**) وهوَ خِفَّةٌ تدعو للإكثارِ والتَّعجيلِ، وقيلَ: مُجاوَزَةُ الحدِّ في التَّسارُعِ للعَمَلِ، المؤدّي للضَّررِ والملَلِ القاطِعِ للعمَلِ، (**فحَجَرَها عليْكَ في الأوقاتِ**) المُعيَّنةِ، فجعلَ في اليومِ خمسَ صلواتٍ، وفي السَّنةِ صوْمَ شهرٍ، وهكذا، ولكُلٍّ مِنْها وقتٌ لا تصِحُّ إلّا فيهِ، فلمّا علِمَ مِنْكَ محبّةَ الكثْرةِ، حجرَها عليْكَ لئلّا تقعَ مِنْكَ الفَتْرةُ، كُلُّ ذلكَ لتهتمَّ بالتَّعديلِ، فتُخلِصَها على وجهِ التَّكميلِ، فما كُلُّ مَنْ جاعَ صائمًا، ولا كُلُّ مَنْ ركعَ مُصلّيًا عالمًا، وبذلكَ التَّحجيرِ ينتفي الشَّرهُ المؤدّي للسَّآمةِ المؤدّيةِ للتَّركِ أو النَّقصِ، وحُصولُ الإعجابِ برؤيةِ الجُملةِ التي لها أثرٌ في النَّفسِ، وحُصولُ الدَّعوى بالتَّشميرِ. وفي التَّلوينِ والتَّحجيرِ إعانةٌ للموفَّقِ، وحُجّةٌ على المخذولِ، وكرامةٌ للمُحقِّ بتيسيرِ أسبابِ العُبوديّةِ.

١١٩. ليكُنْ همُّكَ إقامةَ الصَّلاةِ لا وُجودَ الصَّلاةِ، فما كُلُّ مُصلٍّ مُقيمًا.

(ليكُنْ همُّكَ إقامةَ الصَّلاةِ) بتعديلِ أركانها وتوفيرِ شُروطِها، وتكميلِ آدابها ظاهرةً وباطنةً بقدرِ الطّاقةِ، ثُمَّ الغَيْبةِ عن شُهودِها برؤيةِ مَنْ تُصلّي لهُ، والمُقيمُ للشيءِ: القائمُ بهِ على جهةِ الكَمالِ مِنْ غيرِ إخلالٍ، **(لا وُجودَ)** صورةِ **(الصَّلاةِ)** فقطْ؛ لأنَّ الأمرَ إنَّما هوَ بالإقامةِ لا بوُجودِ الصّورةِ، بلْ قدْ يكونُ سببًا للعُقوبةِ، قالَ المرسي: "كُلُّ موضعٍ ذُكِرَ فيه المُصلّون في معرضِ المدْحِ فإنَّما جاءَ مِنْ إقامةِ الصَّلاةِ، إما بلفظِ الإقامةِ أو بمعنًى يرجِعُ إليها".

(فما كُلُّ مُصلٍّ مُقيمًا)، ولا كُلُّ عاملٍ مُستَقيمًا، ولا كُلُّ مَنْ جاعَ صائمًا، ولا كُلُّ مَنْ ركَعَ مُصلّيًا عالمًا، روى الإمامُ أحمدُ في المُسنَدِ عنْ عمّارِ بنِ ياسرٍ مرفوعًا: (إنَّ الرَّجُلَ لينْصرِفُ وما كُتِبَ لهُ إلّا عُشْرُ صلاتِهِ، تُسعُها، ثُمنُها، سُبعُها، سُدسُها، خُمسُها، رُبعُها، ثُلثُها، نصفُها)[١]، وفي حديثٍ آخرَ: (إنَّما يُكتَبُ للعبْدِ مِنْ صلاتِه ما عقَلَ)[٢]، وقالَ الحسنُ البصَري: "كُلُّ صلاةٍ لا يحضُرُ فيها القلبُ، فهيَ إلى العُقوبةِ أسرَعُ".

فإذا كانَ لكَ في الصَّلاةِ قُرّةُ عينٍ، وفي الصّيام صفاءُ السِّرِّ مِنْ كُلِّ غينٍ[٣]، فأنْتَ المُصلّي وأنْتَ الصّائمُ، وأنْتَ الفقيهُ وأنْتَ العالِمُ والمؤمِنُ، وثّابٌ إلى المساجِدِ، توّابٌ إلى المشاهِدِ، طوبى لسُبّاقٍ يعرُجون إلى بِقاعِ أمرِ اللهِ إنْ يَفزع، ويعرُجون للصَّلاةِ في بُيوتٍ أذنَ اللهُ أنْ تُرفَع، والقومُ

(١) أخرجه أحمد (١٨٨٧٩)، وأبو داود (٧٩٦)، والنسائي في الكبرى (٦١٥)، وغيرهم.

(٢) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/١٥٩): لم أجده مرفوعا، وروى محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة من رواية عثمان ابن أبي دهرش مرسلا: (لا يقبل الله من عبد عملا حتى يشهد قلبه مع بدنه)، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي بن كعب، ولابن المبارك في الزهد موقوفا على عمار (لا يكتب للرجل من صلاته ما سها عنه)، وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/٦١) بإسناد صحيح عن سفيان الثوري.

(٣) أي غطاء، والغين لغة في الغيم وهو السحاب. [الصحاح في اللغة]

يَصلون ويُصلّونَ، ويسجُدون وهُمُ الأعلونَ، فيا أيُّها المُصلّي كُنْ مِنَ المُخبتينَ المُصلّينَ، ولا تكُنْ مِنَ المُجتنينَ المُضلّينَ، وكُنْ مِنَ المُناجينَ تكُنْ مِنَ النّاجينَ، ولتشْغَلْكَ لذّةُ المُناجاةِ عنْ عرضِ الحاجاتِ، وقبيحٌ أنْ تدعوَ ربَّكَ تضرُّعًا وخيفة، ليُعطيَكَ ملعونةً وجيفة، إنْ مُنِحْتَها فكلْبٌ تشدَّق، وإنْ مُنِعْتَها فتيْسٌ تحدَّق، والبسْ في صلاتِكَ حِليَتَكَ الحِسّيَّةَ والأدب؛ لتُدافِعَ أخبثَيْكَ: الشَّهوةَ والغضب.

***

١٢٠. الصَّلاةُ طهارةٌ للقُلوبِ مِنْ أدناسِ الذُّنوبِ، واستِفْتاحٌ لبابِ الغُيوبِ. الصَّلاةُ محلُّ المُناجاةِ، ومعدَنُ المُصافاةِ، تتَّسِعُ فيها ميادينُ الأسرارِ، وتُشرِقُ فيها شوارِقُ الأنوارِ. علِمَ وُجودَ الضَّعفِ مِنْكَ فقلَّلَ أعدادَها، وعلِمَ احتياجَكَ إلى فضلِهِ فكثَّرَ أمدادَها.

(**الصَّلاةُ طهارةٌ للقُلوبِ مِنْ أدناسِ الذُّنوبِ**) كما أرشدَ إليهِ سيِّدُ أهلِ البدْوِ والحضَرِ، ومَنْ أتى ومَنْ غبَرَ، بقولِهِ في خبَرٍ: (إنَّما مثلُ الصَّلاةِ مثلُ نَهرٍ)[1]، كيفَ وهي ﴿تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وإنَّما مثَلُ الصَّلاةِ كبحرٍ يقتَحِمُ فيهِ كلَّ يومٍ خمسَ مرّاتٍ، كما أشارَ إليهِ بقولِهِ:

(**واستِفْتاحٌ لبابِ الغُيوبِ**) لأنَّها محلُّ الإعراضِ عنِ الجَواهِرِ والأعراضِ وعنْ جميعِ الأغيارِ، وتفريغِ القلبِ لمُناجاةِ الغفّارِ، فمنْ وجَدَ ذلِكَ في صلاتِهِ فليشكُرْ ربَّهُ، وإلّا فليبْكِ على نفسِهِ.

(**الصَّلاةُ محلُّ المُناجاةِ**) لأنَّها محلُّ قُربِ العبْدِ مِنْ ربِّهِ، والمُثولِ بيْنَ يديْهِ بلا واسِطةٍ، ومحلُّ المُخاطَباتِ والمُكالَماتِ، بالذِّكرِ الصّافي في المنْهلِ الوافي، على المواجَهةِ والمُعايَنةِ.

(**ومعدَنُ المُصافاةِ**) بزَوالِ الكَدَرِ عنِ القلْبِ، كيْفَ وبِها الرّاحةُ والصَّونُ عنْ دنَسِ الكونِ،

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٢٨)، ومسلمٌ (٦٦٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ألا ترَى إلى قولِ المُصطَفَى ﷺ معَ ما هوَ عليهِ مِنْ كمالِ الكَمالِ: (أرِحْنا بالصَّلاةِ يا بِلالُ)، وفيها تُرفَعُ الحُجُبُ ويصفو السِّرُّ فيصفو الشُّهودُ، حتَّى لا يُشاهَدَ سِوَى المعبودِ؛ فإذا لم يجِدِ المُصلّي فيها عليهِ سيما القُربِ، دلَّ ذلِكَ على البُعدِ.

(**تتَّسِعُ فيها ميادينُ الأسرارِ**) لبُعدِها عنْ موجِبِ النَّقصِ والإدبارِ، ولكثرةِ ما فيها مِنَ التِّلاوةِ والأذكارِ، وعمومِ الفيْضِ الزَّخارِ، والمُرادُ بالأسرارِ دقائقُ العُلومِ والمعارِفِ، فيَجِدُ المُصلّي في كُلِّ سورةٍ بلْ في كُلِّ آيةٍ بلْ في كُلِّ حرفٍ معنًى، ويتجدَّدُ ذلِكَ لهُ بتجدُّدِ الأوقاتِ على قدرِ الفيْضِ والقصْدِ والهِمّةِ.

(**وتُشرِقُ فيها شوارِقُ الأنوارِ**) حتَّى تتكاثَرَ عليْكَ في الظُّهورِ، فيكونُ قلبُكَ نوراً على نورٍ، كيفَ وهيَ سببُ وُرودِ المعارِفِ وترادُفِ العُلومِ والفُهومِ مِنْ علّامِ الغُيوبِ، فهيَ أُمُّ العِباداتِ وأُسُّ الخيْراتِ، الجامِعةُ للدَّقائِقِ والمعارِفِ والإشاراتِ واللَّطائِفِ، وفي حديثٍ: (منْ كثُرَتْ صلاتُهُ باللَّيلِ حسُنَ وجهُهُ بالنَّهارِ)[1]، ومنْ لم يكُنْ في صلاتِهِ هذِهِ المراسِمُ، فما أبعَدَهُ عنِ المواسِمِ، فما كُلُّ منْ صلَّى لاحَ لهُ الفَلاحُ، ولا كُلُّ منْ صامَ فازَ بالنَّجاحِ.

قالَ أبو طالِبٍ: "حُدِّثْتُ أنَّ المؤمِنَ إذا توضَّأَ تباعَدَ مِنْهُ الشّياطينُ في أقطارِ الأرضِ خوفًا مِنْهُ؛ لتأهُّبُهُ للدُّخولِ على الملِكِ، فإذا كبَّرَ حُجِبَ عنْهُ إبليسُ، وواجهَهُ الجبّارُ بوجهِهِ، فإذا قالَ اللهُ أكبرُ، اطَّلعَ الملِكُ في قلبِهِ فإذا لم يرَ في قلبِهِ أكبَرَ مِنَ اللهِ، قالَ: صدَقْتَ اللَه في قلبِكَ كما تقولُ، فيُشعْشِعُ مِنْهُ نورٌ يلحقُ بملَكوتِ العرْشِ، فيُكْشَفُ له بهِ الملَكوتُ؛ والغافِلُ الجاهِلُ إذا قامَ للوُضوءِ احتَوشَتْهُ الشَّياطينُ كالذُّبابِ على العسَلِ، فإذا كبَّرَ اطَّلعَ الملِكُ على قلبِهِ، فإذا كُلُّ

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٣٣٣)، والبيهقي في الشعب (٢٨٣٠)، وابن عدي في الكامل (٣٠٤/٢)، وغيرهم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: "من كثرت صلاته بالليل، حسن وجهه بالنهار". قال العقيلي: "حديثٌ باطلٌ لا أصل له ولم يتابع ثابتًا عليه ثقةٌ"، وأطنب ابن عديٍّ في ردِّه وأنه منكر، وقد تعقّب ذلك الحافظ السيوطي في اللآلئ (٣٠/٢) بأن للحديث طرقا غير طريق شريك، وقال: "أخرجه ابن ماجه والبيهقي في الشعب من طريق ثابت، وقال القضاعي في مسند الشهاب: روى هذا الحديث جماعة من الحفاظ، وانتقاه الدارقطني من حديث أبي طاهر الذهلي، وما طعن أحد منهم في إسناده ولا متنه..." ثم ذكر له طرقًا أخرى.

شيءٍ أكبرُ مِنَ اللهِ عِنْدَهُ، فيقولُ: كَذَبْتَ ليسَ اللهُ في قلبِكَ كما تقولُ، فيثورُ من قلبِهِ دُخانٌ يلحقُ بعَنانِ السَّماءِ؛ فيكونُ حِجابًا لهُ عنِ الملَكوتِ".

قالَ الحكيمُ: "دعا اللهُ الموحِّدينَ إلى الصَّلواتِ الخمْسَ رحمةً مِنْهُ بهِمْ، وهيَّأَ لهُمْ أنْواعَ الضِّيافاتِ لِينالَ العبْدُ مِنَ كُلِّ قولٍ وفِعْلٍ شيئًا مِنْ عطاياهُ، فالأفعالُ كالأطعِمةِ والأقوالُ كالأشرِبةِ".

(علِمَ وُجودَ الضَّعفِ مِنْكَ فقلَّلَ أعدادَها) بأنْ جعلَها خمسًا معَ بقاءِ ثوابِ الخمسينَ **(وعلِمَ احتياجَكَ إلى فضلِهِ فكثَّرَ أمدادَها)** بأنْ جعلَ للخمْسِ ثوابَ خمسينَ، فأنزِلْ نفسَكَ حيْثُ أنزلَكَ اللهُ مولاكَ، ولا تتكلَّفْ غيرَ ما أتاكَ.

تنْبيهٌ: إنَّما أوجبَ اللهُ هذِهِ الصَّلواتِ الخمْسَ في اليومِ واللَّيلةِ رحمةً مِنْهُ بعبدِهِ، لِعلمِهِ باستيلاءِ الغفْلةِ عليهِ؛ لئلّا يستعبِدَهُ الهوَى وتسترِقَّهُ الدُّنيا، فالصَّلواتُ الخمْسُ سِلسِلةٌ تجذِبُ النُّفوسَ إلى مواطِنِ العُبوديّةِ لأداءِ حقِّ الرُّبوبيّةِ، وتُراقِبُ العبدَ بحُسْنِ المُحاسَبةِ والرِّعايةِ.

تتمّةٌ: قالَ ابنُ عربي: سِرُّ جعلِ الصَّلاةِ خمسًا أنَّ الخمْسةَ تحفَظُ نفسَها وغيرَها الذي هوَ العِشرونَ، وهوَ ثاني عَقْدٍ مِنَ العدَدِ، والعشرةُ أوَّلُ العُقودِ، وأقلُّ ما تكونُ العَقْدَتيْنِ اثنيْنِ، فلذلكَ قسَّمها الحقُّ نِصفيْنِ نِصفًا لهُ ونِصفًا لعبدِهِ، وجعلَها بينَ تحريمٍ وتحليلٍ، فإذا شرعَ فيها لم يصرِفْ ذاتَهُ لغيْرِها مِنَ الأعمالِ، بخلافِ غيرِها مِنْ كُلِّ مشروعٍ، فحفظَتْ نفسَها حتَّى تُسمَّى صلاةً؛ فإنَّ في الصَّلاةِ شُغلًا كما قالَ المُصطَفَى ﷺ[1]، وغيرَها وهو المُصلّي فيبقى عليه اسمُ المُصلّي وحُكمُهُ، ولذلكَ تنوَّعَت خمسا، وجمعَ لهُ في الصَّلاةِ بينَ السِّرِّ والجهرِ، والقوْلِ والفِعْلِ والهيْئاتِ في الحرَكاتِ مِنْ قيامٍ ورُكوعٍ وسُجودٍ، وأثنى على مَنْ أتى بهِنَّ لم يُضيِّعْ مِنْ حقِّهِنَّ شيئًا بالدَّوامِ عليها والخُشوعِ فيها، وجعلَها في اللَّيلِ والنَّهارِ لتعُمَّ الأزمانَ بركَتُها، ثُمَّ إنَّهُ تعالى شرعَ لها طهارةً مائيّةً وتُرابيّةً؛ فإنَّ نشأةَ الإنسانِ لم تكُنْ إلّا مِنْ تُرابٍ وماءٍ وطينٍ، وهوَ خليطُ الماءِ بالتُّرابِ، فجعلَ الطَّهارةَ للصَّلاةِ بما مِنْهُ خلقَنا، فطهارتُنا منا مِنْ ماءٍ وتُرابٍ. انتهى.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (١١٩٩)، ومسلمٌ (٥٣٨)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

١٢١. متَى طلبْتَ عِوضًا على عمَلٍ، طولِبْتَ بوُجودِ الصِّدْقَ فيهِ، يكفي المُريبَ وُجدانُ السَّلامةِ.

(**متَى طلبْتَ عِوضًا على عمَلٍ، طولِبْتَ بوُجودِ الصِّدْقَ فيه**) بأنْ تُوَفِّي بحقِّهِ؛ لأنَّ الجزاءَ لا يكونُ إلّا على كاملٍ ذاتًا وقصدًا، وأنَّى لكَ بذلكَ وأنْتَ مُريبٌ في عملِكَ لأجلِ العِوَضِ؟! فهوَ عملٌ معلولٌ، بلِ لا عِلّةَ أعظمَ مِنْ طلَبِ الثَّوابِ؛ لأنَّهُ حينَئذٍ كالأجيرِ السّوءِ، إنْ أُعطيَ عمِلَ وإلّا أهمَلَ فأُهمِلَ، وحينَئذٍ (**يكفي المُريبَ**) مُجرَّدُ (**وُجدانُ السَّلامةِ**)، أي إذا كانَتْ أعمالُكَ معلولةً وأفعالُكَ مدخولةً، فأنتَ صاحِبُ ريبةٍ، ومنْ هوَ كذلِكَ فرأسُ غنيمتِهِ السَّلامةُ مِنَ العِقابِ على عملِهِ الموصوفِ بما ذُكِرَ.

وبالجُملةِ: متَى طالبْتَهُ بالعِوضِ، طالبَكَ بالإخلاصِ وكُنْتَ مُرائيًا، فيكفيكَ الخلاصُ، فكيْفَ تطلُبُ عِوَضًا مِنَ الخَبيرِ، وعملُكَ لا يخلو عنِ تقصيرٍ؟! قالَ الشّاذلي: "علامةُ صِدْقِ المُريدِ عدمُ طلَبِ العِوَضِ على عِبادَتِهِ؛ فإنَّ عبدَ الأُجرةِ لا قيمةَ لهُ، ولا يُمكِّنُه المؤجِّرُ مِنَ الدُّخولِ على حرمِهِ، وبِمُجرَّدِ أخذِ الأُجرةِ يُفارِقُهُ سيِّدُهُ" وقالَ: "إنَّ اللهَ تعالَى لا يُعطي الكَراماتِ لمنْ طلَبَها أو حدَّثَ بها نفْسَهُ، ولو أنَّ القومَ أحبّوا أنْ يُعرَفوا ما عُرِفوا".

تتِمّةٌ: قالَ المرصِفيُّ(١): "عمِلْتُ مرّةً عملًا صالحًا، فظَننْتُ أني مِمَّنْ عمِلَ صالحًا، ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]؛ فرأَيْتُ تِلْكَ اللَّيلةَ أنّي مِتُّ ودُفِنْتُ وصوِّرَتْ لي أعمالي تحتي حشيةً محشوّةً شوكَ أمِّ غيلانٍ، وأنا أتقلَّبُ عليها عُريانًا، فما رأيتُ أشدَّ مِنْ ذلِكَ، فانتَبهْتُ مُستغْفِرًا، واعتَمدْتُ على فضلِهِ لا على عملي".

(١) الولي العارف نور الدّين علي بن خليل المرصفي، أخذ عنه خلق، ودانت له مشايخ عصره، واختصر رسالة القشيري وتكلم على مشكلاتها، وسماه الورد العذب، وهو شيخ العارف الشعراني، قرأ عليه الشعراني الرسالة القشيرية. الطبقات الكبرى للشعراني (١١٦/٢)، الكواكب الدرية (٧٧/٤).

وقالَ بعضُهُمْ: "اللائقُ بالأدَبِ سؤالُ العفْوِ عمّا جناهُ في العِبادةِ، لا طَلَبُ الأجرِ عليها، إذ لا يخلو مِنْ سوءِ أَدَبٍ، أو فوتِ خُشوعٍ"، وقدْ جاءَ عنِ المُصطَفى ﷺ أنَّ العبْدَ إذا لم يُحسِنْ خُشوعَ الصَّلاةِ تُلَفُّ كما يُلَفُّ الثَّوبُ الخَلِقُ ثُمَّ يُضرَبُ بها وجهُهُ(١).

ثُمَّ أقامَ الحُجّةَ على منْ هذا شأنُهُ بقولِهِ:

١٢٢. لا تطلُبْ عِوَضًا على عمَلٍ لستَ لهُ فاعِلًا، يكفي مِنَ الجزاءِ لكَ على العمَلِ أنْ كانَ لهُ قابلًا.

(**لا تطلُبْ عِوَضًا على عمَلٍ لستَ لهُ فاعِلًا**) حقيقةً، فإنَّهُ تعالى هوَ الخالقُ لهُداكَ وصلاتِكَ، فكيفَ تطلُبُ عِوَضًا عمّا ليسَ حقيقةً مِنْ أفعالِكَ؟!، فطلبُ العِوَضِ على فِعلِ الغيْرِ قبيحٌ؛ وبالجُملةِ: لا عِوَضَ إلّا بعدَ صِدْقٍ، ولا صِدْقَ إلّا بتركِ طلَبِ العِوَضِ، فلزمَ الثّاني للُزومِ الأوَّلِ. قالَ بعضُهُمْ: "عبدُ الثوابِ معدودٌ عند العارفين مِن النِّساءِ، وإنْ كانَ لهُ لِحيةٌ كبيرةٌ بيضاءُ"، وقالَ ابنُ عربي: "منْ صحَّ لهُ قدمٌ في التَّوحيدِ، انتفَتْ عنْهُ الدَّعاوي؛ لأنَّهُ يجِدُ جميعَ صِفاتِهِ المحمودةِ للهِ لا لهُ، والعبدُ لا يُعجَبُ بعمَلِ غيرِهِ ولا بمَتاعِ غيرِهِ".

وقد أجمعَ أهلُ اللهِ على أنَّ من ادَّعى أنَّهُ يُحِبُّ اللهَ، واختارَ معَهُ أو طلبَ عِوضًا على عِبادَتِهِ، فهوَ مُغتَرٌّ كذّابٌ، فالمُخلِصُ مَنْ عبدَهُ ليُعطيَ الرُّبوبيّةَ حقَّها، لأنَّهُ عبدُهُ والسَّيِّدُ يستحِقُّ على عبدِهِ الخِدمةَ، فكيفَ يطلُبُ عِوَضًا؟!

(**يكفي مِنَ الجزاءِ لكَ على العمَلِ أنْ كانَ لهُ قابلًا**)، معَ ما هوَ عليهِ مِنْ فقْدِ الكَمالِ؛ فالفضْلُ لهُ في قَبولِهِ على كُلِّ حالٍ. قالَ خيْرُ النَّسّاجُ: "ميراثُ أعمالِكَ ما يليقُ بأفْعالِكَ، فاطلُبْ ميراثَ فضلِهِ وكرَمِهِ".

(١) أخرجه الطيالسي (٥٨٦)، والشاشي (١٢٩٠)، والطبراني في الأوسط (٣٠٩٥)، وغيرهم من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

وقالَ بعضُهُمْ: إيّاكَ والإنكارَ على منْ قالَ: أعبُدُ اللهَ لا خَوْفًا مِنْ نارِهِ ولا طمَعًا في جنَّتِه"؛ فإنَّ هذا مقامُ المُبتَدئِ لا الكاملِ؛ فإنَّ المُريدَ إذا لازَمَ الذِّكرَ وأكثَرَ مِنْهُ رقَّ حِجابُه، فيرَى الفضْلَ للهِ، ويسمَعُ النِّداءَ مِنْ قلبِهِ: "مَنْ أظلمُ ممَّنْ عبدَني لجنّةٍ أو نارٍ، لو لم أخلقْها لم أكُنْ أهلًا لأنْ أُطاعَ؟!" فيخْجَلُ ويستَحي أنْ يَعبُدَهُ خوفًا أو رجاءً؛ لأنَّ عاقِلًا لم يطلُبْ عِوضًا على فِعْلِ غَيْرِهِ؛ وكُلُّ مريدٍ رقَّ حِجابُهُ شهِدَ أنَّهُ لا دخلَ لهُ في وُجودِ أفعالِهِ إلّا بقدرِ نِسبةِ التَّكليفِ، أدبًا معَ الشَّريعةِ، ويتحقَّقُ أنَّهُ كالآلةِ التي يُحرِّكُها المُحرِّكُ.

وقالَ بعضُهُمْ: أوَّلُ قدم يضَعُهُ المُريدُ في الطَّريقِ شُهودُهُ المُلكَ للهِ، وأنَّهُ خالِقُ كُلِّ شيءٍ، وبهِ يصِحُّ مقامُ الزُّهدِ، وعلامَتُهُ: أنْ يتساوَى عِندَهُ العَطاءُ والمَنْعُ، لكَونِهِ لا يرَى لهُ معَ ربِّهِ مُلكًا في الدّارَيْنِ.

فائدةٌ: مَنْ تحقَّقَ أنَّهُ تعالى لا يُضيعُ أجرَ مَنْ أحسَنَ عملًا، سكنَ قلبُهُ عنْ طلبِ العِوَضِ على أعمالِهِ وعنْ طلبِ الفتحِ، إذ هوَ بعدَ المُجاهدةِ والرّياضةِ لازِمٌ تطلُبُهُ الأعمالُ وتنالُهُ الأنفُسُ، لكنْ تارةً في الدُّنيا، وتارةً في الآخِرةِ.

***

١٢٣. إذا أرادَ أنْ يُظهِرَ فضْلَهُ عليكَ خلقَ ونسبَ إليْكَ.

(**إذا أرادَ أنْ يُظهِرَ فضْلَهُ عليكَ خلقَ ونسبَ إليْكَ**)، أي: خلقَ الطّاعةَ ونسبَها إليكَ، وذلكَ فضلُهُ العظيمُ عليكَ؛ فالكُلُّ بيدِهِ والطّاعةُ بعضُ مددِهِ، أو المعنى: خلقَ لكَ قُدرةً على العملِ، ووفَّقكَ إليهِ، وأعانَكَ عليهِ، وردَّ نِسبَتَهُ إليكَ، فحقُّكَ أنْ لا تنسِبَ لنفسِكَ شيئًا مِنْ محاسِنِ الأعمالِ، ومِنَ الفاعِلِ بالاختيارِ كانَتِ البِدايةُ، وبوصْفِ قيّوميَّتِهِ قامَتِ الأكوانُ إلى غايةٍ لها ونِهايةٍ. قالَ أبو يزيدَ: "غلطْتُ في بدايَتي في أشياءَ، توهَّمْتُ أنّي أذكُرُهُ وأعرِفُهُ وأحِبُّهُ وأطلُبُه، فلمّا انتهيْتُ رأيْتُ ذِكْرَهُ سبقَ ذِكري، ومحبَّتَهُ تقدَّمَتْ محبَّتي، وطلبَهُ لي أوَّلًا حتَّى طلبْتُهُ".

١٢٤. لا نهايةَ لمذامِّكَ إنْ أرجعَكَ إليْكَ، ولا تفرُغُ مدائحُكَ إنْ أظهرَ جودَهُ عليْكَ.

(لا نهايةَ لمذامِّكَ إنْ أرجعَكَ إليْكَ، ولا تفرُغُ مدائحُكَ إنْ أظهرَ جودَهُ عليْكَ)، لأنَّكَ مِنْ حيثُ نفسُكَ مظهرُ كُلِّ نقْصٍ وعيْبٍ، ومِنْ حيثُ فضلُه مظهرُ كُلِّ خيْرٍ، حدِّثْ عنِ البحرَينِ بالوجْهَينِ ولا حرجَ[1]، فإذا وَكَلَكَ إلى نفسِكَ معدنِ المذامِّ وموطنِ الشُّؤمِ والملامِ، فما أبعدَكَ عنِ المدائحِ، وما أكثرَ وُقوعَكَ في القبائحِ، وإذا اصطنعَكَ لنفسِهِ وقرَّبَكَ مِنْ حضرةِ قُدُسِهِ، فقدْ أظهرَ عليكَ الجودَ، وكانَ مِنْكَ الحُسْنُ مشهودا.

قالَ بعضُهُمْ لصحبِهِ: بمَ يرتَفِعُ العبْدُ فوقَ منزلتِهِ؟ قالوا: بفضْلِ اللهِ، قالَ: إنَّما سألتُكُمْ عنِ السَّببِ الخاصِّ، قالوا: عنْدَ الشَّيخِ؟! قالَ: بخلقِ اللهِ لهُ همَّةً أعلى مِنْ همَّتِهِ، فيرفعُهُ بها رُتبةً أعلى مِنْ رُتبَتِهِ". وقالَ بعضُ أهلِ الكَمالِ: ابنُ آدمَ عُجِنَ مِنَ الصَّلصالِ، وابتُليَ بالجهْلِ والفِصالِ، ثُمَّ تاهَ بشرائِفِ الخِصالِ، وما درى أنَّ الخِصالَ الحميدةَ مِنْ مواهِبِ الرَّحمنِ، لا مِنْ مكاسِبِ الإنسانِ، ما العملُ إلّا عطيّةٌ مِنْ عطاياهُ، وما النَّفسُ إلّا مطيّةٌ مِنْ مطاياهُ، إنْ شاءَ زمَّها بزمامِ الهوَى، وإنْ شاءَ تركَها سُدًى، فمنْ يسْتَطيعُ لنفسِهِ خفضًا أو رفعًا، ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ [الفتح: ١١]. قالَ سهلٌ: إذا عمِلَ العبدُ حسنةً وقالَ: "يا ربُّ، أنْتَ بفضلِكَ استعملْتَ وأعنْتَ وسهَّلْتَ"، شكرَ اللهُ لهُ ذلكَ وقالَ: "أنتَ أطعْتَ وتقرَّبْتَ" وإذا نظرَ إلى نفسِهِ وقالَ: "عملْتُ وأطعْتُ وتقرَّبتُ"، أعرضَ اللهُ عنهُ، وإذا أذنَبَ وقالَ: "أنتَ قضَيْتَ وقدَّرْتَ وحكمْتَ"، غضبَ الرَّبُّ وقالَ: "أنْتَ أسأتَ وجهلْتَ وعصيتَ"، وإنْ قالَ: "أنا ظلمْتُ وأسأتُ وجهلْتُ"، أقبلَ المولَى عليْهِ وقالَ: "أنا قضيتُ وقدَّرْتُ وقدْ غفرْتُ".

---

(١) من المثل المعروف "حدث عن البحر ولا حرج!"، والحَرَجُ: الضيق والاثم، مثل يضرب في الشيء الكثير الذي لا ينحصر أو لا يكاد، بمعنى إنَّ المحدث عنه لا يضيق عليه المجال ولا يعوزه مقال.

١٢٥ . كُنْ بأوصافِ رُبوبيَّتِه مُتعلِّقًا، وبأوْصافِ عُبوديَّتِكَ مُتحقِّقًا.

(كُنْ بأوصافِ رُبوبيَّتِه) مِنْ غِنًى وعزٍّ وقُدرةٍ وقوّةٍ (مُتعلِّقًا)، بأنْ تكون ناظرًا إليها مُعتَمِدًا عليها دون ما سِواها، (وبأوْصافِ عُبوديَّتِكَ) مِنْ فقرٍ وذُلٍّ وعجزٍ (مُتحقِّقًا)، بأنْ تراها لازمةً لكَ لا تنفكُّ عنِ النَّظرِ إليها.

والتَّعلُّقُ والتَّحقُّقُ المذكورانِ مُتلازمان لكنْ يختَلِفُ البِساطُ، فتارةً يغلُبُ الغِنَى باللهِ فينبَسِطُ بإحسانِهِ، وتارةً يغلُبُ الفقْرُ إليهِ فيرجعُ إليهِ، فالأوَّلُ موقِفُ بسطٍ وكرامةٍ، والثّاني موقِفُ أدبٍ وتعظيمٍ، هذا المُصطَفَى ﷺ أطعمَ ألفًا مِنْ صاعٍ[١] إظهارًا للغِنَى باللهِ، وشدَّ على بطنِهِ حجَرَيْنِ مِنَ الجُوعِ[٢] إظهارًا للفقرِ إليهِ، فأظهرَ الأوَّلَ عِندَ احتياجِ النّاسِ إليهِ لنقصِ عُقولِهِمْ، والثّاني لتَأديبِهِمْ وتعْليمِهِمْ وهوَ المقصودُ، وما كانَ يُظهِرُ الخَوارِقَ إلّا لشِدّةِ الحاجةِ وخوفِ تزلزُلِ الضُّعَفاءِ.

ثُمَّ بتحقُّقِكَ بأوصافِكَ تُكسَى حُلّةً مِنْ أوصافِهِ، فتكونُ غنيًّا في فقرِكَ، عزيزًا في ذُلِّكَ، ذليلًا في عِزِّكَ، قويًّا في ضعفِكَ، ضعيفًا في قوَّتِكَ، قادرًا في عجزِكَ، عاجزًا في قُدرَتِكَ، فكُلَّما أردْتَ تحقُّقًا في أوصافِكَ ازدَدْتَ تعلُّقًا بأوصافِهِ، حتَّى تثبُتَ لكَ أوصافُ الرُّبوبيّةِ في عيْنِ ثُبوتِ العُبوديّةِ، فيُطلَقُ عليكَ اسمُ الغَنيِّ والقويِّ والقديرِ والعزيزِ ونحوِها ممّا يصِحُّ إطلاقُهُ على العبدِ عِنْدَ التَّلبُّسِ بمعناهُ، لا أنَّ ذلكَ بحقيقةٍ للعبدِ.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٤١٠٢)، ومسلمٌ (٢٠٣٩)، وغيرهما من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وذلك في حفر الخندق، وفيه: (يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعا من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي ﷺ فقال: يا أهل الخندق، إن جابرا قد صنع سورا، فحيهلا ...) إلى أن قال: (وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو).

(٢) أخرجه البخاري (٤١٠١) عن جابر في قصة الخندق أيضًا، وورد في غير موضع في الصحيحين. ولله در الشرف البوصيري حين قال:

وشدّ من سغب أحشاءه وطوى * تحت الحجارة كشحا مترف الأدم

وراودته الجبال الشّمّ من ذهب * عن نفسه فأراها أيّما شمم

قال تعالى: (الكبرياءُ ردائي، والعظَمةُ إزاري، فمنْ نازَعني فيهما قصَمْتُهُ)[1] أي هُما وصفانِ مُختصّانِ بهِ، فمنْ ادَّعاهُما كانَ كمنِ ادَّعَى إزارَ رجُلٍ وقميصَهُ، فلا يُمكنُهُ تسليمُهُ لهُ إلّا بعجزِهِ، ولا عجزَ فلزمَ هلاكُهُ، وللهِ المثلُ الأعلَى.

فإذا تحلَّيتَ بأوصافِهِ لزمَكَ التَّحفُّظُ مِنَ الدَّعوَى، كما نبَّه عليهِ بقولِهِ:

***

١٢٦. منَعكَ أنْ تدَّعي ما ليْسَ لكَ مِمّا هوَ للمخْلوقينَ، أفَيُبيحُ لكَ أنْ تدَّعي وَصْفَهُ وهوَ ربُّ العالَمينَ؟!

(**منَعكَ أنْ تدَّعي ما ليْسَ لكَ مِمّا هوَ للمخْلوقينَ**) مِنْ نحوِ مالٍ وعِلمٍ وعمَلٍ، وجعلَ ذلِكَ عُدوانًا، (**أفَيُبيحُ لكَ أنْ تدَّعي وَصْفَهُ وهوَ ربُّ العالَمينَ؟!**) معاذَ اللهِ، فاعرفْ قدرَكَ، ولا تتعدَّ طورَكَ، فظُهورُ وصفِهِ عليكَ وتحلّيكَ بهِ كما يليقُ بكَ، بحيْثُ تصيرُ غنيًّا عزيزًا بهِ حتَّى تصيرَ "بِسْمِ اللهِ" منْكَ بمنزلةِ "كُنْ" منْهُ، فلا تُريدُ شيئًا إلّا كانَ.. لا يُجيزُ لكَ ادِّعاءَ شيءٍ مِنْ ذلِكَ شرعًا ولا عقلًا، ولا حِكمةً ولا مُروءةً.

وفي الحديثِ: (لا أحدَ أغْيَرُ مِنَ اللهِ)[2]، يعني لا يرضَى بمُشارَكةِ غيرِهِ لهُ فيما اختُصَّ بهِ مِنْ صِفاتِ الرُّبوبيّةِ، وما هوَ حقُّهُ مِنَ الأعمالِ الدّينيّةِ.

وعُلِمَ مِمّا تقرَّر أنَّ المطلَبَ الأعلَى هوَ التَّوحيدُ، والمقْصدَ الأسنَى هوَ التَّفريدُ، لا وُجودَ إلّا للهِ وصِفاتِه، الكونُ كُلُّهُ عدمٌ يُسايرُ ذواتِه، مَنْ عمِلَ على موتِ نفسِه، فقدْ تحقَّقَ بقُدُسِه، بقاءُ النَّفسِ مِنْ أعظمِ الذُّنوبِ، كيفَ تبقى معَ الرَّبِّ المربوبِ؟! الصّوفيُّ دمُهُ هَدَر، ومالُهُ للهِ وفي اللهِ

---

(١) أخرجه أحمد (٧٣٨٢)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) متفقٌ عليه؛ مخرَّجٌ في عدة مواضع في الصحيحين منها ما أخرجه البخاريُّ (١٠٤٤)، ومسلمٌ (٩٠١)، وغيرهما من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعًا.

شَذرٌ مَذَر[1]، كيفَ يكونُ المملوكُ مالِكًا؟! كيفَ يكونُ المُثبِتُ لنفسه مُحِبًّا سالِكًا؟!، منعَكَ أنْ تدَّعي ما لحقِّه، فبالحريِّ أنْ تدَّعي شيئًا مِنْ أوصافِ حقِّه، تباركَ ربُّنا المليكُ أنْ يكون لهُ في مُلكِهِ شريكٌ.

***

١٢٧ . كيفَ تُخرَقُ لكَ العَوائِدُ، وأنْتَ لَمْ تخرِق مِن نفْسِك العَوائِدَ؟!

(**كيفَ تُخرَقُ لكَ العَوائِدُ**) بانكِشافِ الأسرارِ مِنَ الغُيوبِ المكنونةِ بالحُجُبِ والأستارِ، وانكِشافِ عالَمِ القُدرةِ، وظُهورِ ما ليسَ مِنْ شأنِكَ على يدَيْكَ، واتِّصافِكَ بما لا يقتَضيهِ وصفُكَ مِنَ الكَمالاتِ الجاريةِ عليكَ، (**وأنْتَ لَمْ تخرِقْ مِن نفسِكَ العَوائِدِ**) بتركِ مألوفاتِكَ الدَّنيّةِ وعاداتِكَ الرَّديّةِ، فلا ينكشِفُ عالَمُ القُدرةِ لمنْ فيهِ مِنْ بَقايا الحُظوظِ ذرّةٌ، مَنْ لم يخرُجْ عنْ إراداتِهِ لم يظفَرْ بمَطْلوباتِهِ، فمنْ خرقَ عوائِدَهُ خُرِقَتْ لهُ العَوائِدُ جزاءً وِفاقًا. قيلَ لبعْضِهِمْ: بِمَ أدركْتَ ما أدركْتَ؟ قالَ: "وحَّدتُهُ أفضلَ التَّوحيدِ، وخدمتُهُ خِدمةَ العَبيدِ، وأطعتُهُ فيما أمرَني ونَهاني، فكُلَّما سألتُهُ أعطاني".

ثُمَّ مجموعُ خرقِ العَوائِدِ بالتِزامِ الأدبِ، لا بالجدِّ في الطَّلبِ، كما قالَ:

***

١٢٨ . ما الشَّأنُ وُجودُ الطَّلَبِ، بلِ الشَّأنُ أنْ تُرزَقَ حُسنَ الأدبِ.

(**ما الشَّأنُ**) المُعتَبرُ في الطَّريقِ (**وُجودُ الطَّلَبِ**) لحُظوظِكَ مِنْ ربِّ الأربابِ؛ لأنَّ ما عِندَهُ لا يُنالُ بالحيَلِ والأسبابِ.

(١) من أمثالهم: "تفرقوا شَذَر مَذَر" أي ذهبوا في كل وجه. وفي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "إن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شرَّد الشِّرْك شذر مذر" أي فرقه وبدده في كل وجه. [لسان العرب]

(بلِ الشَّأنُ أنْ تُرزَقَ حُسنَ الأدبِ) بتفويضِ الأُمورِ إليهِ والرِّضَى بقسمَتِهِ، وإقامةِ فرضِهِ واتِّباعِ سُنَّتِهِ، ومُخالَقةِ النّاسِ بخُلُقٍ حسَنٍ، والقيامِ بالحُقوقِ على تعَبِ الغِنَى عنْ كُلِّ مخلوقٍ، رُجوعًا إلى رفْضِ الاختيارِ، وقيامًا بنعْتِ اللَّجأِ والانكسارِ، وبذلك يحسُنُ أدبُكَ ويصِحُّ طلبُكَ، فإنَّ هذهِ هيَ الأُصولُ التي مَنْ تركَها حُرِمَ الوُصولَ.

ثُمَّ رأسُ الأدبِ كُلِّهِ يرجِعُ للزومِ وصفِكَ معَ التَّعلُّقِ بوصفِهِ، وإليهِ أشارَ بقولِهِ:

١٢٩. ما طلبَ لكَ شيءٌ مِثْلُ الاضطِرارِ، ولا أسرعَ بالمواهِبِ إليكَ مِثْلُ الذِّلّةِ والافتِقارِ.

(ما طلبَ لكَ شيءٌ) ببناء "طَلب" للفاعل: أي ما طلبَ الحَوائِجَ مِنَ اللهِ **(مِثْلُ الاضطِرارِ)**، أو للمفعولِ: أي ما طُلِبَ مِنْكَ مِثلُهُ، لأنَّ بهِ تصِلُ إلى اللهِ، **(ولا أسرعَ بالمواهِبِ إليكَ مِثْلُ الذِّلّةِ والافتِقارِ)** لاقتِضائِهِ الرُّجوعَ إليهِ بلا علّةٍ، والوُقوفَ بيْنَ يديْهِ بنعْتِ الذِّلّةِ، فمَنْ تحقَّقَ بهذهِ الأوصافِ أسرعَتْ إليهِ المِنَحُ والهِباتُ، إذا لم ترَ فيكَ ما يوجِبُ العَطاءَ، فقد انكَشَفَ عنْ قلبِكَ الغِطاءُ، إذا كُنْتَ معَهُ كالغَريقِ، نجوْتَ إلى ساحِلِ التَّحقيقِ، إذا علِمَ مِنْكَ هذا النَّظرَ أيَّدكَ ببُلوغِ الظَّفرِ، إذا تبرَّأتَ مِنَ القوّةِ والحولِ، أسعفَكَ بواسِعِ الطَّولِ.

قالَ أبو يزيدَ: "قيلَ لي: خزائنُنا مملوءةٌ بالخِدمةِ، فإنْ أردتَنا فعليكَ بالذِّلّةِ والافتِقارِ"، وقالَ بعضُهُمْ: "المُضطَرُّ الذي يقِفُ بيْنَ يدَيِّ ربِّهِ، فيرفعُ يديْهِ إليهِ، فلا يرَى بينَهُ وبينَهُ حسنةً يستَحِقُّ بها شيئًا"، وقالَ الصّوري[1]: "منْ زعمَ أنَّهُ مِنْ أهلِ الطَّريقِ، فليَستَعِدَّ للبَلاءِ، ثُمَّ لا بُدَّ أنْ يضعُفَ عنْ آدابِها، ولا بُدَّ أنْ يُفتَضَحَ، ومَنْ محى اسمَهُ مِنْ أهلِها، لم يمُتْ حتَّى تشهَدَ لهُ الرِّجالُ"، قالَ: "وكَمْ مَن يدَّعي العُبوديّةَ، ويفضَحُهُ ظُهورُ أوصافِ الرُّبوبيّةِ".

(١) الإمام العابد شيخ دمشق، أبو عبد الله محمد بن المبارك بن يعلى القرشي، الصوري، القلانسي. حلية الأولياء (٢٩٨/٩)، وتاريخ دمشق (٢١٩/٥٥)، سير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٩٠).

١٣٠. لو أنَّكَ لا تصِلُ إليهِ إلّا بعدَ فناءِ مَساويكَ ومحوِ دَعاويكَ لم تصِلْ إليهِ أبدًا، ولكِنْ إذا أرادَ أنْ يوصِلَكَ إليهِ سترَ وصفَكَ بوصفِهِ، وغطَّى نعتَكَ بنَعتِهِ، فوصَلَكَ إليهِ بما مِنْهُ إليْكَ، لا بِما مِنْكَ إليهِ.

(**لو أنَّكَ لا تصِلُ إليهِ إلّا بعدَ فناءِ مَساويكَ ومحوِ دَعاويكَ، لم تصِلْ إليهِ أبدًا**) لأنَّ ذلِكَ طبعُكَ وجِبلَّتُكَ التي لا يُمكِنُ فِكاكُها، معَ توارُدِها على كُلِّ شيءٍ مِنْكَ حتَّى الطّاعة، ولو لم يوجدْ مِنْكَ إلّا إرادتُكَ وعملُكَ في تحصيلِ هذا الغرضِ لكانا مِنَ المساوِئِ والدَّعاوي المُحْتاجِ إلى محوِهِما؛ فإذا تَأمَّلْتَ، وجدْتَ محاسِنَكَ كُلَّها مساوِئًا، ولو كُنْتَ رأسَ المُخلصينَ، وأحوالَكَ دعاوي، ولو كُنْتَ أصدَقَ الصّادِقينَ، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

ولهذا قالَ بعْضُ المتَّقينَ: ابْنُ آدمَ مِسكينٌ، يعيشُ ظَلومًا ويموتُ مَلومًا، إنْ تركَ الكَبائرَ صبْرًا قارَفَ الصَّغائرَ جبْرًا، والطّينُ لا يصفو بالضَّرورةِ، والحمأُ المسنونُ لا يخلو عنْ كُدُورةٍ، وهلْ يسلمُ الإنسانُ مِنَ الذُّنوبِ؟! وهلْ يخْلَصُ الصَّلصالُ مِنَ العُيوبِ؟! كلّا ولمّا، وأيُّ عبدٍ لكَ ما ألمّا، هبْكَ تركْتَ المعاصيَ الفاحِشةَ واتَّقيْتَ الأفاعيَ الناهِشةَ، كيفَ الاتِّقاءُ عَنِ الأراقِمِ الدَّسّاسةِ؟!

فازهدْ زُهدَكَ، واجهَدْ جَهدَكَ، وروِّضْ نفسَكَ ما أطلقْتَ، واحفظْ حالَكَ ما نطقْتَ، وافعلْ ما شِئتَ فلا عِصمةَ عنِ الصَّغائِرِ، ولا خلاصَ عنِ الشِّركِ الخفيِّ الغابِرِ، فاتَّقِ اللهَ ولا تتَّكِلْ على طاعتِكَ، فما حيلتُكَ إذا قُطِعَ الطَّريقُ على بِضاعتِكَ، وليكُنْ قلبُكَ راجيًا خائفا، ويومُكَ شاتيًا صائفا، ولا ييأَسُ مِنْ روحِ اللهِ إلا المُنافِقونَ، ولا يأمنُ مكرَ اللهِ إلّا الفاسِقونَ.

تتِمّةٌ: قالَ شيخُنا الشَّعْراني: "حُكمُ الرّياءِ ونحوِهِ واقِعٌ للكُمَّلِ مِنَ الأُمّةِ بقدرِ الجُزءِ البَشَري الذي فيهِمْ، فإنَّهُ يرقُّ ولا ينقَطِعُ".

خاتمةٌ: قالَ المرصَفيُّ: "لا ينبغي لشيخ أنْ يأخُذَ العهْدَ على مُريدٍ أنَّهُ لا يفعَلُ معصيةً مآلاً، وإنَّما يأخُذُ عليْهِ أنَّهُ ينزِعُ كُلَّما أذنبَ".

فائدةٌ: قالوا: لا يصِحُّ زوالُ ما كانَ جبليًّا في النَّشأةِ، وإنَّما العبدُ يُوقى العملَ بالصِّفاتِ الرَّديَّةِ؛ ولهذا قالَ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ [الحشر: ٩]، وما قالَ "ومَنْ يزولُ شُحُّهُ"؛ ولهذا عيَّنَ الشّارعُ للصِّفاتِ الرَّديَّةِ مصارِفَ، فقالَ: (لا حسَدَ إلّا في اثنَتينِ)، فحثَّ على الحسَدِ الذي هوَ غِبطةُ أهلِ الخيرِ، لا على تمنٍّ بزوالِ النِّعمةِ، ونهى عَنِ التَّبختُرِ في المشيِ، وأباحَهُ في الحربِ ليقهرَ بهِ العَدوَّ، وقِسْ عليْهِ، فإنَّ ما في أصلِ النَّشأةِ مُحالٌ أنْ يَزولَ إلَّا بانعِدامِ الذّاتِ.

(ولكنْ إذا أرادَ أنْ يوصِلَكَ إليهِ سترَ وصفَكَ بوصفِهِ، وغطّى نعتَكَ بنَعتِهِ)، فكُلُّ وصفٍ لكَ إذا أقبلَ الحقُّ عليه بمُقابلِهِ مِنْ أسمائِهِ وصِفاتِهِ، تلاشى وُجودُكَ في وُجودِهِ، فيُغنيكَ عنْ شُهودِكَ شُهودُهُ:

- فمنْ قوبِلَ باسمِ الجَلالة غرِقَ في بحرِ الانفرادِ بالحقِّ على نعتِ تفريدِ الحقِّ، فلم يبقَ لهُ أثرٌ ولا خبرٌ،
- أو باسمِهِ الرَّحمنِ تعلَّقَ بِوُجودِ الرَّحمانيّةِ، فطارَ فِكرُهُ عنِ العَوالمِ الحِسّيّةِ وُقوفًا معَ شُكرِ نِعَمِهِ الابتِدائيَّةِ،
- أو باسْمِهِ الرَّحيمِ تمكَّنَ في بابِ التَّعلُّقِ بهِ، فلمْ يُعرِّجْ في حَوائِجهِ على غيرِهِ،
- أو باسْمِهِ الكَريمِ رأى نفسَهُ في قبضتِهِ فسلَّمَ لهُ في مملَكَتِهِ، وقامَ بحقِّ حُرمَتِهِ على بِساطِ خِدمَتِهِ،
- أو باسْمِهِ القُدّوسِ قدَّسَهُ عنِ المُعاملةِ بأفْعالِهِ المخْذولةِ وسِماتِهِ المعْلولةِ،
- أو بالمؤمنِ أمِنَ بهِ، وآمَنَ لهُ في وعيدِهِ ووعدِهِ،
- أو بالمُهَيمنِ راقبَهُ في سرِّهِ وجهْرِهِ؛ لأنَّهُ الشّاهدُ عليهِ في كُلِّ أمرِهِ،
- أو بالسَّلامِ حَسَّنَ الظَّنَّ بِهِ في كُلِّ أمرِهِ، وسلَّمَ الخلقَ مِنْ سوءِ ظَنِّهِ وظُلمِهِ،
- أو بالعَزيزِ ذلَّ لهُ ذُلًّا يُلزِمُهُ بوصفِهِ، وتعزَّزَ بهِ تعزُّزًا لا يُخرِجُهُ عنْ نعتِهِ،

- أو بالجبّار أذعَنَ لأحكامِه، وصغُرَ عند ذِكرِه،
- أو بالمُتكبِّر تضَعْضَعَ تحتَ كِبريائِه كُلُّ شيءٍ مِنْ نفسِه،
- أو الخالِق استَحسَنَ كُلَّ شيءٍ صدرَ مِنْ خلقِه لحقِّه،
- أو البارئ تبرَّأ مِنْ كُلِّ شيءٍ واعتَمدَ عليه في كُلِّ شيءٍ،
- أوِ المُصوِّر اتَّصفَ كُلُّ شخصٍ بما يظهَرُ مِنْ صورتِه، وهكذا.

وأسماؤهُ كُلُّها للتَّخلُّقِ، إلّا الجَلالةَ فلِلتعلُّقِ، فتَأمَّلْهُ واطلُبِ الفتْحَ مِنْهُ عِلمًا وعمَلاً وحالًا، فلا طريقَ لتحقيقِ ذلِكَ إلّا بفتحِ الفتّاحِ، فإذا فتحَ لكَ مِنْهُ بابًا، فقدْ سهَّلَ عليكَ الطَّريقَ، وهداكَ للتَّحقيقِ، وغمسَ فقرَكَ في غِناه، وضعفَكَ في قوَّتِه، وعجزَكَ في قُدرتِه، وذُلَّكَ في عِزَّتِه، فظهرَ عليْكَ بِه الكَمالُ لا بنَفْسِكَ، كما قالَ:

(**فوصَلَكَ إليهِ بما مِنْهُ إليْكَ**) مِنْ توفيقٍ وفضلٍ وكرَمٍ وسترٍ، (**لا بِما مِنْكَ إليهِ**) مِنْ مُجاهدةٍ وعِلمٍ وعمَلٍ وحالٍ، وفي أثرٍ: إنَّ البَلاءَ والهَوى والشَّهوةَ معجونةٌ بطينةِ ابنِ آدمَ، وما في الجِبلَّةِ لا يُتصَوَّرُ نقلُهُ؛ لكِنَّهُ تعالى يمُنُّ بسترِهِ على منْ شاءَ، فيُكْسيهِ حُلَّةً مِنْ فضلِه.

قالَ الشّاذلي: "لنْ تصِلَ إلَيْه ومعَكَ شهوةٌ مِنْ شهَواتِكَ، أو تدبيرٌ مِنْ تدبيراتِكَ، أو اختيارٌ مِنِ اختياراتِكَ". وقالَ المرسي: "لا تصِلُ إليهِ حتَّى تنقَطِعَ عنْكَ شهوةُ الوُصولِ إليهِ"، أي انقِطاعَ أدبٍ لا مللٍ.

١٣١ . لولا جميلُ سترِهِ لم يكُنْ عملُكَ أهلًا للقَبولِ.

(**لولا جميلُ سترِهِ لم يكُنْ عملُكَ أهلًا للقبولِ**) بلْ ولا للوُجودِ، ومنْ أنتَ حتَّى تُوفَّقَ لصورةِ الطّاعةِ؟! وإذا وُفِّقْتَ، فأيُّ قدرٍ لعمَلِكَ المعلولِ المدخولِ حتَّى تُقابِلَ بِه جودَهُ وكرَمَهُ؟!

والنَّفسُ مجبولةٌ على ضِدِّ الخيرِ، فلا تعملُهُ إلّا بوقايةٍ بيْنها وبيْنَ وصفِها الأصلي، وبعدَ الدُّخولِ في العمَلِ فلا يصدُرُ عنها إلّا ناقِصًا، وإنْ صدرَ كامِلًا لحِقَتْهُ العِلَلُ كطلَبِ الأعواضِ

والأغراضِ، فاعتَمِدْ على فضلِهِ وكرمِهِ لا على اجتهادِكَ وعملِكَ، فالعمَلُ مُحتاجٌ للتَّخليصِ والإخلاصِ، وهُما مفقودانِ أو كالمفقودَيْنِ، فأنْتَ مُحتاجٌ إلى حِلمِهِ بكُلِّ حالٍ، كما قال:

١٣٢. أنتَ إلى حِلمِهِ إذا أطعتَهُ أحوجُ مِنْكَ إلى حِلمِهِ إذا عَصَيْتَهُ.

(**أنتَ إلى حِلمِهِ إذا أطعتَهُ أحوجُ مِنْكَ إلى حِلمِهِ إذا عَصَيْتَهُ**)، لأنَّ طاعتَكَ مصحوبةٌ بنظَرِكَ إلى نفسِكَ واستِعْظامِ عمَلِكَ وعُجْبِكَ، وذلِكَ يوجِبُ الخِسَّةَ وسُقوطَ المنزِلةِ عِنْدَهُ، وأقلُّ أحوالِكَ النَّظَرُ إلى أشكالِكَ، وغفْلتُكَ عنِ اتِّهامِ نفسِكَ في أعمالِكَ، ومعصيَتُكَ مصحوبةٌ بافتِقارٍ واضطِرارٍ، مقرونةٌ بذِلَّةٍ واحتِقارٍ وحذَرٍ وخوفٍ، وذلِكَ يوجِبُ الشَّرفَ والرِّفْعةَ عِندَهُ في أعلى الغُرَفِ. ولهذا قالوا: "العِبادةُ إلى طلَبِ العَفْوِ عنْ تقصيرِها أقرَبُ مِنْها إلى طلَبِ الجَزاءِ عليها"، فإذا أمْعَنتَ النَّظرَ علِمْتَ أنَّكَ في الطّاعةِ على خطرٍ، متى نظرْتَ إليها واعتمَدْتَ في النَّجاةِ عليها، سَقَطْتَ مِنْ عيْنِ ربِّكَ، وذلِكَ مِنْ أعظَمِ ذنبِكَ، الحقُّ تعالى لا يكْبُرُ عليهِ غفرُ ذنبٍ مِنَ الذُّنوبِ، وما أقربُهُ مِنَ الخائفِ المكروبِ! وقالَ أبو يزيدَ: "توبةُ المعصيةِ واحِدةٌ، وتوبةُ الطّاعةِ ألفُ توبةٍ".

ولا يختَصُّ السَّترُ بالواقِعِ، بلْ يجري في المُتوقَّعِ كما قالَ:

***

١٣٣. السَّتْرُ على قِسمَيْنِ: سَتْرٌ عنِ المعْصيةِ، وسترٌ فيها، فالعامّةُ يطلُبون السَّترَ مِنَ اللهِ فيها خشْيةَ سُقوطِ مَرتبَتِهِم عِنْدَ الخلْقِ، والخاصّةُ يطلُبون السَّتْرَ عنْها خشْيةَ سُقوطِهِم مِنْ نظَرِ المَلِكِ الحقِّ.

(**السَّتْرُ على قِسمَيْنِ: سَتْرٌ عنِ المعْصيةِ**) حتَّى لا يعرِفَ طريقَها، (**وسترٌ فيها**) لئلّا يفتَضِحَ إذا عمِلَها، فالسَّتْرُ عنها حِجابٌ بينَ العبدِ وبينِها حتَّى لا يراها، فإنْ رآها استقْبَحها

فلا يفعَلُها، والسَّتْرُ فيها حِجابٌ عنِ الفَضيحةِ حالَ التَّلَبُّسِ وبعْدَهُ، والأوَّلُ للخاصّةِ، والثّاني للعامّة.

(**فالعامّةُ يطلُبون السَّترَ مِنَ اللهِ فيها**) عنْ أعيُنِ الخلقِ حالَ فِعلِها، لتعظيم الخلقِ في أعيُنِهِمْ، فلا مُقتَضى لطلَبِهم ذلكَ إلّا (**خشْيةَ سُقوطِ مَرتبَتِهم عِنْدَ الخلْقِ**)، لغَلَبةِ التَّصنُّعِ عليهِمْ لهُمْ، ومحبّةِ حمدِهِم وبُغْضِ ذمِّهِم، ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٨]، فهُمْ لا يفِرّون مِنْها ابتِداءً، ولا يُريدون الفَضيحةَ انتِهاءً، وإنْ أمكنَتهُمْ دون فضيحةٍ أصرّوا عليها، فالعاميُّ بعيدٌ عنِ الحَقائقِ؛ لقُصورِ نظَرِهِ على الخَلائِقِ، فيطلُبُ السترَ في المعصيةِ عنهُمْ، وما درَى أنَّ ربَّهُ أقربُ إليهِ منهُمْ، ألم ترَ خِطابَهُ للأغبياءِ الذين لا يتَفكّرون بقولِهِ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]؟!

(**والخاصّةُ**) مُبرَّءون عنْ هذا الوصفِ، لا التِفاتَ لهُمْ إلى الخلقِ مدحًا ولا ذمًّا، فهُمْ (**يطلُبون السَّترَ عنْها**) بأنْ يُغيِّبَها عنْ نظرِهِمْ، ولا يُخطِرَ بها بقَلبِهِمْ فتميلَ إليها نفسُهُمْ، فيعْملون بها، فهُمْ لا يطلُبون ذلكَ إلّا (**خشْيةَ سُقوطِهِمْ مِنْ نظَرِ المَلِكِ الحقِّ**)، فهُمْ يفِرّون مِنها ابتِداءً، وإنْ طلبوا ستْرَها انتِهاءً لا يضُرُّهُمْ، وذلكَ مِنْ كمالِ إيمانِهِمْ، فالكامِلُ لا يلتَفِتُ إلى الخلقِ ابتِداءً، بلْ يصرِفُ نظرَهُ للهِ، وذلكَ عينُ الهُدَى، أعرضَ عنهُمْ مدحًا وذمًّا، وتحقَّقَ بإحاطةِ الحقِّ قُدْرةً وعِلمًا، فهوَ يطلُبُ مِنْ ربِّهِ السَّترَ عنِ المعصيةِ وُقوعًا أو خُطوراً في قلبِهِ.

ثُمَّ الخاصّةُ فيهِ على مراتِبَ: منهُمْ مَنْ يطلُبُهُ لخوفِ العذابِ، ومنْ يطلُبُهُ لخوفِ الحِجابِ، أو فوتِ الثَّوابِ أو إشْفاقًا مِنَ الطَّردِ عنِ البابِ، وكُلُّها راجعةٌ لما ذُكِرَ مِنَ السُّقوطِ مِنْ نظَرِ الحقِّ، وأكمَلُهُمْ مَنْ يطلُبُهُ حياءً وهيْبةً وإجْلالًا، هكذا هكذا، وإلا فلا لا.

ويترَكَّبُ مِنَ القِسمَيْنِ طلبُ السَّتْرِ فيها إذا حصلَتْ، وعنها إذا لم تحصُلْ، وذلِكَ مُقتَضَى الشَّريعةِ والحقيقةِ، لكِنْ بشرطِ عدمِ الالتِفاتِ للخلْقِ.

***

١٣٤. مَنْ أكرمَكَ فإنَّما أكرمَ فيكَ جميلَ سَترِهِ، فالحمْدُ لمنْ ستَرَكَ، ليسَ الحمْدُ لمنْ أكرمَكَ وشكرَكَ.

(**مَنْ أكرمَكَ فإنَّما أكرمَ فيكَ جميلَ سترِهِ**) لأنَّكَ مِنْ حيثُ أنتَ محلُّ كُلِّ نقصٍ، مُطيعًا أو عاصيًا، فجميلُ سترِهِ هوَ الذي حبَّبَهُمْ فيكَ، ولولاهُ كرهَكَ أقربُ النّاسِ وأحبُّهُم إليكَ، فلا ترى بذلكَ لنفسِكَ وصفًا محمودًا تستحقُّ به الإكرامُ؛ ولهذا قالَ بعضُهُمْ: "ما هُناكَ إلّا فضلُه، ولا تعيشُ إلّا في سَتْرِه". ولو كُشِفَ الغطاءُ لكُشِفَ عنْ أمرٍ عظيمٍ، فالخلقُ إنَّما يتعامَلون بسترِ الحقِّ، ولو كُشِفَتِ البَواطِنُ والضَّمائرُ ما نظَرَ أحدٌ لأحدٍ، ولقلى الإنسانُ أحبابَهُ، فهوَ الذي غطَّى عُيوبَكَ عنِ العِبادِ، وألهَمَهُمُ الثَّناءَ عليكَ معَ المحبّةِ والوِدادِ، فلهُ الحمدُ على جميلِ سترِهِ، والشُّكرُ على دوامِ جودِهِ وبرِّهِ، كما قالَ:

(**فالحمْدُ لمنْ ستَرَكَ، ليسَ الحمْدُ لمنْ أكرمَكَ وشكرَكَ**) فلولا وُجودُ سترِهِ ما شكرَكَ غيرُه، فلا تحمدَنَّ أمرًا ولا تذُمَّهُ، ووُجودُ شُكرِ الخلقِ مِنْ حيْثُ أنَّهُ مأمورٌ بِهِ، قالَ بعضُهُمْ: "يا مُرائي، قلبُ منْ تُرائيهِ بيدِ منْ تعصيه".

***

١٣٥. ما صحِبَكَ إلّا مَنْ صحِبَكَ وهوَ بعيبِكَ عليمٌ، وليسَ ذلِكَ إلّا مولاكَ الكَريمُ.

(**ما صحِبَكَ**) حقَّ الصُّحبةِ (**إلّا مَنْ صحِبَكَ وهوَ بعيبِكَ**) -وفي نُسَخٍ: بحالِكَ- (**عليمٌ**) على التَّفصيلِ، (**وليسَ ذلِكَ إلّا مولاكَ الكَريمُ**) لأنَّهُ لا يترُكُكَ لزَلّةٍ ولا يرُدُّكَ لنقْصٍ ولا عِلّةٍ، وتعْصيهِ فيسْتُرُ، وتتوبُ إليْهِ فيَغفِرُ ويسْتَعذِرُ، ثُمَّ هوَ معَ ذلِكَ يأمُرُكَ وينْهاكَ فتعْصي أمرَهُ، فلا

يدعُكَ لأحدٍ مِنْ خلقِهِ. وبذلِكَ عُرِفَ أنَّ الصّاحِبَ مَنْ بذَلَ إحسانَهُ إليْكَ، وأسبَغَ نعمَهُ وَجودَهُ عليكَ، معَ ما أنتَ عليْهِ مِنْ مُخالَفةِ أمرِهِ، وعدَمِ القيامِ بحقِّ شُكْرِهِ، وليْسَ ذاكَ إلّا مولاكَ، ووَليُّكَ في أُخْراكَ ودُنْياكَ، فلا تصحَبْ سِواهُ فإنَّهُ خيرُ مصحوبٍ، ولا ترغبْ إلّا إليهِ فهوَ المرغوبُ.

***

١٣٦. خيْرُ مَنْ تصْحَبُ مَنْ يطلُبُكَ لا لشيءٍ يعودُ مِنْكَ عليْهِ.

(**خيْرُ مَنْ تصْحَبُ مَنْ يطلُبُكَ لا لشيءٍ يعودُ مِنْكَ عليْهِ**)، وليْسَ ذلِكَ إلّا الغَنيُّ على الإطلاقِ؛ لأنَّ صُحبةَ سِواهُ مقرونةٌ بالأغْراضِ والعِلَلِ، وهوَ تعالَى مُنزَّهٌ عنْ ذلِكَ، فهوَ يُعطيكَ ولا يأخُذُ مِنْكَ، ويُريحُكَ ولا يستَريحُ إليْكَ، فأعْطِ الأدبَ حقَّهُ، ولا تُعرِّجْ على غيرِهِ أبدًا.

وإطلاقُ لفظِ الصُّحبةِ عليْهِ -تقدَّسَ- ثبتَ في خبرِ: (اللَّهُمَّ أنْتَ الصّاحِبُ في السَّفَرِ)[١]، وكما أنَّ صُحْبَةَ الخلقِ لا تُعتَبَرُ فالدُّنيا كذلِكَ، لكِنَّ حِجابَ الوهْمِ وضعْفَ اليَقينِ أضعَفَ ذلكَ، كما قالَ:

١٣٧. لو أشرقَ في قلبِكَ نورُ اليَقينِ لرأيْتَ الآخِرةَ أقربَ مِنْ أنْ ترحَلَ إليْها، ولرَأيْتَ محاسِنَ الدُّنيا وقدْ ظهرَتْ كَسْفةُ الفَناءِ عليها.

(**لو أشرقَ في قلبِكَ نورُ اليَقينِ**) الذي يُري الحقائقَ على ما هيَ عليْهِ، (**لرأيْتَ الآخِرةَ أقربَ مِنْ أنْ ترحَلَ إليْها**)، لأنَّ الآتي قطعًا كموجودٍ حالًا، سيِّما ومبادئُهُ ظاهِرةٌ، مِنْ تغيُّرِ الأحوالِ وفناءِ الأمَلِ والمالِ، (**ولرَأيْتَ محاسِنَ الدُّنيا وقدْ ظهرَتْ كَسْفةُ الفَناءِ عليها**)،

---

(١) أخرجه مسلمٌ (١٣٤٢)، وغيره من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا مرفوعًا.

فتغيبَ عنْ نظرِكَ كأنَّها لم تكُنْ، فإذا أشرَقَتْ أنوارُ اليَقين، ولاحَتْ لوائحُ الحقِّ المُبين، تراءَتْ لكَ حقائِقُ الأُمور، فترَى كَسْفةَ الفَناءِ على دارِ الغُرور، كما ترَى كِسْوةَ البَقاءِ على دارِ السُّرور، تراها أقرَبَ مِنَ القَريب، حاضِرةً عِندَكَ لا تَغيب، وحينَئذٍ يزولُ عنْ قلبِكَ اللَّبْس، وتموتُ مِنْكَ دواعي النَّفس؛ فلا تأمُرُكَ إلّا بخير، ولا تدعوكَ لما فيهِ شؤمٌ وضيَر، وهنالِكَ تسْتعِدُّ للمَوْت، وتُسارِعُ إلى الخيراتِ خوفَ الفَوْت.

والكُسوفُ التَّغيُّرُ، وظُهورُ كسفةِ الفَناءِ على الدُّنيا بما يعتَورُها مِنْ عوارِضِ النَّقص والانقِلابِ، فينتُجُ مِنْ ذلِكَ أنَّ الدُّنْيا فانيةٌ زائلةٌ، والخلقَ لا استِقلالَ لهمْ ولا كمالَ، بلْ لا وُجودَ لَهُمْ في الحقيقة، فالاشتِغالُ بِهِمْ تعلُّقٌ بالوهْمِ دون حقيقة، كما قال:

١٣٨. ما حجبَكَ عنِ اللهِ وُجودُ موجودٍ معَهُ، إذ لا شيءَ معَهُ، وإنَّما حجبَكَ عنْهُ توهُّمُ وُجودِ شيءٍ معَهُ.

(**ما حجبَكَ عنِ اللهِ وُجودُ موجودٍ معَهُ، إذ لا شيءَ معَهُ**) موجودٌ حقيقةً؛ لثُبوتِ أحديَّتِه أزلًا وأبدًا، (**وإنَّما حجبَكَ عنْهُ توهُّمُ وُجودِ شيءٍ معَهُ**) اغترارًا بظاهِرِ الأمرِ، حتَّى تتعدَّى إلى حيائِكَ مِنْ غيْرِهِ وخوفِكَ مِنْ سِواهُ، معَ أنَّهُ سُبْحانَهُ الواحِدُ أبَدًا، لا شيءَ بالحقيقةِ معَهُ على طولِ المدَى، فلا يحجُبُكَ عنْهُ حاجبٌ، إنَّما هوَ وهْمُكَ الكاذِبُ. قالَ ابنُ عرَبي: "منْ طلبَ دليلًا على الوَحْدانيّةِ، فالحِمارُ أعرفُ باللهِ منْهُ"، فاشتِغالُكَ بثناءِ الخلقِ وذمِّهِم، وتعلُّقُكَ بالسَّترِ مِنْ أجلِهِم، وانتِظارُ المنافِعِ مِنهُم، وتوجُّهُكَ للدُّنيا حتَّى حُجِبْتَ عنْ ربِّكَ، مِنْ تعلُّقِكَ بالوهْمِ القاضي باعتِبارِ ذلِكَ وثُبوتِ نِسبَتِهِ في الوُجودِ، وذلِكَ كرجُلٍ باتَ بمكانٍ وأرادَ البِرازَ[1]، فسَمِعَ صوتَ الرِّيحِ في كوّةٍ هُناكَ، فظنَّهُ زئيرَ أسَدٍ فلم يبرُزْ، فلمّا أصبحَ لم يجِدْ شيئًا، فما حجبَهُ وُجودُ الأسدِ، وإنَّما حجبَهُ توهُّمُهُ.

(١) بَرَزَ الرجل يَبْرُزُ بُروزا: خرج. والبِرازُ: المُبارَزة في الحرب. والبِرازُ أيضا: كناية عن ثُفْلِ الغِذاء، وهو الغائط. [الصحاح في اللغة]

تنبيهٌ: قالَ بعضُهُمْ: سببُ الحيرةِ في اللهِ لجميعِ الخلقِ اضْطِرابُ حَقائقِهِمْ؛ فإنَّها من موادٍ مُختَلِفةٍ بينَ لطيفٍ وكثيفٍ، وهوَ الرّوحُ والجِسْمُ، معَ اختلافِ الدَّواعي، إذِ الإنسانُ فُطِرَ على دواعٍ كثيرةٍ، كداعيةِ العقْلِ، وداعيةِ النَّفسِ، وداعيةِ العِلْمِ، والإيمانِ، والحقِّ، والهوَى، والوَهْمِ، والظَّنِّ، والخَيالِ، والفِكْرِ، وغيرِ ذلكَ ممّا لهُ التَّحكُّمُ في هذا الهيكَلِ الجسمانيِّ، بحسبِ تقاطُعِ دَرَجِ أفلاكِ الطِّباقِ السَّبعِ في أزْمِنَتِها المخصوصةِ، الحاكِمةِ على الإنسانِ بظُهورِ آثارِها فيهِ قهراً، فتارةً يتكلَّمُ بحُكمِ الإيمانِ، فلا يتعدَّى قولُهُ الإجمالَ والسَّتْرَ، وتارةً بحُكمِ الحقِّ فلا يتعدَّى قولُهُ التَّسليمَ والأدَبَ، وتارةً بحُكمِ العِلمِ فلا يتعدَّى قولُهُ الحيرةَ والدَّهَشَ، وتارةً بحُكمِ النَّفسِ فلا يتعدَّى قولُهُ التَّفصيلَ والتَّرجيحَ، وتارةً بحُكمِ العقْلِ فلا يتعدَّى التَّقييدَ، وتارةً بحُكمِ الهوَى فلا يتعدَّى التَّخصيصَ والتَّمييزَ، وتارةً بحُكمِ الوهْمِ فلا يتعدَّى الأملَ، وتارةً بحُكمِ الظَّنِّ فلا يتعدَّى النِّسبةَ، وتارةً بحُكمِ الخَيالِ فلا يتعدَّى القياسَ، وتارةً بحُكمِ الفِكرِ فلا يتعدَّى المحسوسَ، هذا مع تنوُّعِ الدَّواعي في الأشخاصِ والأوقاتِ والأحوالِ إلى صفاتٍ مُختلفةِ الآثارِ والأحكامِ، وكُلُّ هذا لا يوجِبُ عِلمًا تامًّا ليسْتَقِرَّ عليهِ الإيمانُ، ويُغني عنِ البحثِ والطَّلَبِ، فليْسَ الحقُّ إلّا معَ منْ شهِدَ أنَّ لا وُجودَ لشيءٍ معَ الحقِّ تعالى. انتَهَى.

***

١٣٩. لو ظهَرتْ صِفاتُه اضمَحلَّتْ مُكوَّناتُه، لولا ظُهورُهُ في المُكوَّناتِ ما وقعَ عليها وُجودُ إبصارٍ.

(**لو ظَهَرتْ صِفاتُهُ**) للقُلوبِ والأسرارِ (**اضمَحلَّتْ مُكوَّناتُهُ**)، فلم يتولَّها ظُهورٌ ولا إظهار، لعدمِ ثُبوتِ الأغيارِ عِنْدَ ظُهورِ آثارِ القهّار.

(**لولا ظُهورُهُ في المُكوَّناتِ**) بما لهُ فيها مِنَ التَّدبيراتِ، (**ما وقعَ عليها وُجودُ إبصارٍ**) لا بالبصائرِ ولا بالأبصارِ، بلْ كانَتْ تكونُ عدمًا محضًا، فما ظهرَ في الكونِ سِوَى آثارِ أوصافِهِ، فهوَ ظهرَ في الأشياءِ فكانت كالسّاترِ، كما شهِدَهُ الكُمَّلُ مِنْ أهلِ البَصائرِ، لولا ظُهورُهُ فيها

لم يقعْ عليها بصرٌ، لو تجلَّى بذاتِهِ لَمْ يبقَ لشيءٍ مِنْها أثرٌ، وإليهِ أشارَ ابنُ الفارِضِ بقولِهِ:

لكَ قُرْبٌ مِنّي ببُعدِكَ عنّي * وحُنوٌّ شهِدْتُهُ في جَفاكَ

***

١٤٠. أظْهَرَ كُلَّ شيءٍ بِأنَّه الباطِنُ، وطوى وُجودَ كُلِّ شيءٍ بِأنّه الظّاهِرُ.

(**أظْهَرَ كُلَّ شيءٍ بِأنَّهُ الباطِنُ**) الذي لا وُصولَ لمعرِفتِهِ إلّا بما ظهرَ مِنْهُ، لدَلالَتِهِ عليْهِ مِنْ حيْثُ ولّاهُ ذلِكَ، (**وطوى وُجودَ كُلِّ شيءٍ بِأنَّهُ الظّاهِرُ**) الذي لا يُمكِنُ ظُهورُ شيءٍ معَ ظُهورِهِ، فطوى وُجودَ الأشياءِ بظُهورِهِ، وأظهرَها ببطونِ نورِهِ، فهوَ الظّاهِرُ المكنون، المُتعالي عنْ رؤيةِ العُيون، فما دلَّ عليْهِ سِوَى رُبوبيَّتِهِ، ولا وصلَ إليه سِوَى رحْمَتِهِ؛ فحِكْمةُ ظُهورِ الخَلْقِ وُجودُ التَّعريفِ، سُترَ بما منْهُ ظهرَ، وظهرَ بما به تستَّرَ، فهوَ الظّاهِرُ مِنْ جهةِ التَّعْريفِ، الباطِنُ مِنْ جهةِ التَّكشُّفِ، مَنْ عرفَ أنَّهُ أجلُّ مِنْ أنْ يُعرَفَ فقدْ عرفَهُ، إنَّما ينتَهي المخلوقُ لمِثلِهِ، ويرجِعُ الحادِثُ لشكلِهِ، وفيه قيلَ: "لا يعْرِفُ اللهَ إلا اللهُ".

***

١٤١. أباحَ لكَ أنْ تنظُرَ ما في المُكوَّناتِ، وما أذنَ لكَ أن تقِفَ معَ ذواتِ المُكوَّناتِ، ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [يونس: ١٠١]، فتحَ لكَ بابَ الإفهامِ، ولم يقُلِ "انظُروا السَّمواتِ" لئلّا يدُلُّكَ على وُجودِ الأجرام.

(**أباحَ لكَ أنْ تنظُرَ ما في المُكوَّناتِ**) مِنْ عجائبِ القُدرةِ والإرادةِ، وبدائعِ العِبَرِ

والآياتِ، تستدِلُّ بها على آثارِ الأسماءِ والصِّفاتِ، وعبَّرَ بـ"أباحَ" إشعارًا بعدمِ وُجوبِ النَّظرِ والاستِدلالِ، أو بأنَّ المطلوبَ أوَّلًا تحصيلُ العَيانِ لا إقامةُ البُرهانِ، لإيذانِهِ بالغيبةِ وهيَ نقصٌ.

(**وما أذِنَ لكَ أن تقِفَ معَ ذواتِ المُكوَّناتِ**) لأنَّها الحِجابُ وهيَ الظُّلُماتُ، فما نُصِبَتْ لتراها، بل لترَى فيها مولاها، ويدُلُّ على ذلِكَ قولُهُ تعالَى: ﴿**قلِ انْظُروا ما في السَّمَواتِ**﴾ حيثُ أتى بـ"في" الظَّرفيّةِ ولم يقُلِ "انظُروا السَّمواتِ" بإسقاطِ "في"؛ فدلَّ على أنَّ محلَّ النَّظرِ ما فيها لا في أعيانِها، فبقولِهِ: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ (**فتحَ لكَ بابَ الإفهامِ**)، بما عبَّرَ بهِ مِنَ الظَّرفيّةِ الدّالّةِ على مظروفِها، الذي هوَ معنًى زائِدٌ على أعيانِها، وهوَ آثارُ القُدرةِ وبدائِعُ الحِكمةِ ودلائلُ الصِّفةِ، فهو الذي تعلَّقُ النَّظرِ بِه.

(**ولم يقُلِ "انظُروا السَّمواتِ"**) بإسقاطِ الظَّرفيّةِ (**لئلّا يدُلُّكَ على وُجودِ الأجرامِ**) وهيَ أغيارٌ لهُ، وفيها بُعدٌ عنهُ؛ لأنَّها صارِفةٌ بالاشتِغالِ بها عنْ عينِ الحقيقةِ وتحقُّقِها، وذلِكَ مِنْ أكبرِ المصائِبِ والآفاتِ.

وحاصِلُهُ: أنَّ المُكوَّناتِ في ذاتِها أغيارٌ؛ فلذلِكَ أمرَ بالنَّظرِ إلى ما فيها مِنَ الأسرارِ، رمزَ لكَ بالظَّرفيّةِ إلى العُلومِ الذَّوقيّةِ، فجعلَ ما في السَّمواتِ محلًّا للنَّظرِ، خوفًا عليكَ مِنَ الغفْلةِ عنِ المؤثِرِ بالأثَرِ، فسِرُّهُ في كُلِّ شيءٍ سائر، ونورُهُ علَّمَ الأوائلَ والأواخِر.

وجُملةُ الأمرِ بكُلّيتِهِ، ومدارُه وحقيقتُه ومبناهُ، ووجهُه ومعناهُ راجِعٌ لما ختمَ بهِ بقولِهِ:

١٤٢. الأكوانُ ثابتةٌ بإثباتِهِ، وممحوّةٌ بأحديّةِ ذاتِهِ.

(**الأكوانُ**) لها مِنْ ذاتِها العدمُ المحضُ، وهي (**ثابتةٌ بإثباتِهِ وممحوّةٌ بأحديّةِ ذاتِهِ**) إذ لو ثبتَتْ لم تكُنْ أحديّةٌ، ولكانَ في ذلِكَ تعدُّدٌ واثنينيّةٌ، فمُرادُ الحقِّ منكَ أنْ تراها بعينِ منْ لا يراها، تَراها مِنْ حيثُ ظُهورُه فيها، ولا تراها مِنْ حيثُ كونيَّتُها؛ فإنْ نظرْتَ الخلقَ مِنْ حيثُ إثباتُ الحقِّ لهمْ رأيتَهُمْ وُجودًا، أو مِنْ حيثُ ما هُمْ عليْهِ مِنْ فقرٍ ونقصٍ رأيتَهُمْ عدمًا.

قالَ الشّاذلي: "إنّا ننظُرُ إلى اللهِ ببصرِ الإيمانِ والإيقانِ، فأغنانا عنْ إقامةِ الدَّليلِ والبُرهانِ".

فمحوُ الأكوانِ شأنُ أهلِ العِرفانِ، أنّى يكونُ معَ ربِّ القِدمِ وُجودٌ لمنْ هوَ في ذاتِه عدمٌ؟! إنّما وُجدَتْ بإيجادِهِ وبقاؤها مِنْ جودِهِ وإمدادِهِ. قالَ في التّنويرِ: "القولُ الفصلُ أنّهُ لا بُدَّ مِنَ الأسبابِ وُجودًا، ومِنَ الغيبةِ عنها شُهودًا، فأثبِتْها مِنْ حيثُ أثبتَها بحِكمَتِهِ، ولا تستنِدْ إليها لِعلمِكَ بأحَديَّتِهِ".

الكُتُبُ النّادِرَةُ الّتي تُرى لأوّلِ مرّةٍ

١٤٣. النّاسُ يمدَحونَك بما يظُنّون فيكَ، فكُنْ أنتَ ذامًّا لنفسِكَ لما تعلَمُهُ منْها.

(**النّاسُ يمدَحونَكَ بما يظُنّون فيكَ**) مِنْ خيرٍ وصلاحٍ، اعتبارًا بما ظهرَ مِنْ سترِ اللهِ عليكَ، (**فكُنْ أنتَ ذامًّا لنفسِكَ لما تعلَمُهُ منْها**) مِنَ القَبائِحِ والرَّذائِلِ، فمنِ احتقرَ نفسَهُ لما يعلمُهُ مِنْها مِنَ العُيوبِ، فقدْ أتى على الغرضِ المطلوبِ، صلحَتْ بذلكَ أعمالُه، وصدقَتْ أحوالُه، هيَ الأمّارةُ بالمَساوي، المُتردّيةُ بشَهواتِها في المهاوي، فلا يغُرَّنّك مدحُ النّاسِ، فإنّهُ عينُ الإفلاسِ، رُبّما كُنْتَ مبعودًا عِندَ مولاكَ، وأنتَ لا تشعُرُ بذاكَ، فكُنْ أبدًا ذامًّا لنفسِكَ، مُتحرِّزًا عنْ مواطِنِ لبسِكَ.

قالَ الشّاذلي: "إذا فنيَتْ مِنَ العبدِ القُصودُ، وغابَ الشّاهِدُ في المشهودِ، ولم يبقَ وصفٌ مذمومٌ ولا محمودٌ، فقدْ دخلَ الجنّةَ في الدُّنيا"، وقالَ بعضُهُمْ: "مَنْ فرِحَ بالمدحِ، فقدْ أمكَنَ الشَّيطانَ أنْ يدخُلَ جُوفَهُ"، وقالَ بعضُهُمْ لمّا مُدِحَ: "اللَّهُمَّ إنَّ عبدَكَ تقرَّبَ إليَّ بمقتِكَ، وأنا أُشهِدُكَ على مقتِهِ".

تنْبيهٌ: قالَ ابنُ عربي: "انظُرْ لما يحوكُ في صدرِكَ لا إلى العوارِضِ، فإنَّكَ بحسبِ ما يحوكُ، فإنْ حاكَ الإيمانَ فأنتَ مؤمِنٌ، وإلّا فأنتَ بحسبِ ذلِكَ وبهِ يُختَمُ لكَ، ولا تنظُرْ لما يبدو للنّاسِ

مِنْكَ، فلا تُعوِّلْ إلّا على ما يحوكُ في صدرِك، فلا يحوكُ إلّا ما سبقَ في الكِتابِ أنْ يُختَمَ به لكَ، والنّاسُ في غفلةٍ عنْ ذلِك، ولا رادَّ لأمرِهِ. واعلمْ أنَّهُ تعالى ما كتبَ إلّا ما علِمَ، وما علِمَ إلّا ما شهِدَ مِنْ صورِ المعلوماتِ على ما هي عليهِ في نفسِها، ما يتغيَّرُ منها وما لا، فشهِدَها كُلَّها حالَ عدمِها على تنوُّعاتِ تغيُّراتِها إلى ما لا يتناهى، فلا يوجدُ إلّا على ما هي عليهِ في نفسِها". انتهى.

فائدةٌ: قالَ ابنُ العريفِ[1]: "الفِتنةُ الباطِنةُ قد عمَّتْ، وهيَ جهلُ كُلِّ أحدٍ بمقدارِهِ، فلزِمَ اعتبارُ العبدِ العافيةَ في نفسِهِ حتَّى لا تنالَهُ الفِتنُ، وإلّا هلكَ دينًا ودنيا، فتأمَّلْ هذهِ الفائِدةَ فإنَّها مِنْ واجِباتِ الوقتِ".

***

١٤٤ . المؤمِنُ إذا مُدِحَ استَحيا مِنَ اللهِ أنْ يُثنى عليهِ بوصْفٍ لا يشهدُهُ مِنْ نفسِهِ.

(المؤمِنُ) الكامِلُ **(إذا مُدِحَ استَحيا مِنَ اللهِ أنْ يُثنى عليهِ بوصْفٍ لا يشهدُهُ مِنْ نفسِهِ)**، فيزيدُ احتِقارًا لها ونُفورًا عنها، ويقوى عِندَهُ رؤيةُ إحسانِ اللهِ لهُ، وشُهودُ فضلِهِ في إظهارِ المحاسِنِ عليهِ، وهذا وإنْ كانَ شُكرًا ينالُ بهِ المزيدَ، فهو سالِمٌ مِنَ السُّكونِ إلى ثناءِ العبيدِ، وحينئذٍ فمنْ أُثنيَ عليهِ بالمحامِدِ، وهوَ مِنْ نفسِهِ لها غيرُ مُشاهِدٍ، حمَلَهُ ذلِكَ على الحياءِ مِنْ مولاهُ، وشُهودِ فضلِهِ فيما أولاهُ، حيثُ أظهرَ المحاسِنَ عليْهِ، وساقَ شُكرَ خلقِهِ إليهِ.

***

(١) الإمام العارف أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي الأندلسي، المعروف بابن العريف؛ كان من كبار الصالحين والولياء المتورِّعين، وله كتاب محاسن المجالس وغيره من الكتب المتعلقة بطريق القوم، وله نظم حسن في طريقهم، وبينه وبين القاضي عياض مكاتبات، توفي سنة ٥٣٦. وفيات الأعيان (١٦٨/١)، وسير أعلام النبلاء (١١٤/٢٠).

١٤٥. أجهلُ النّاسِ منْ تركَ يقينَ ما عِندَهُ لظنِّ ما عِنْدَ النّاسِ.

(**أجهلُ النّاسِ منْ تركَ يقينَ ما عِندَهُ**) أي ما هوَ عليهِ مِنْ ذُنوبٍ وعُيوبٍ، وصِفاتِهِ الرَّديّةِ التي لا يشُكُّ فيها، (**لظنِّ ما عِنْدَ النّاسِ**) وهوَ ما ظهرَ عليهِ مِنْ صالِحِ عملِهِ، فأجهلُ النّاسِ مَنِ اتَّصفَ بقبائِحِ الخِصالِ، واغترَّ بما ظُنَّ فيهِ مِنَ الكَمالِ، تركَ ما عِندَهُ مِنَ اليقينِ، وعوَّلَ على محضِ التَّخمينِ، فهو اللّابِسُ أثوابَ الزّورِ، الرّاضي لنفسِهِ بالغُرورِ.

قالَ المُحاسِبي: "الرّاضي بالمدحِ بالباطِلِ كمنْ يُهزَأُ بهِ ويُقالُ: عَذِرتُكَ[١] ريحُها كالمِسكِ، وهو يفرحُ ويرضى بالسُّخريةِ"!! ومنْ مدحَ إنسانًا بما ليسَ فيهِ، فقدْ بالغَ في هِجائِهِ.

***

١٤٦. إذا أُطلِقَ الثَّناءُ عليكَ ولستَ بأهلٍ، فأثْنِ عليْهِ بما هوَ أهلُه.

(**إذا أُطلقَ الثَّناءُ عليكَ ولستَ بأهلٍ**) لذلكَ، لكونِهِ مفقودًا فيكَ، أو لكونِكَ لم ترَ نفسَكَ أهلًا لهُ مِنْ حيثُ نقصُكَ وقُصورُكَ، (**فأثْنِ عليْهِ بما هوَ أهلُهُ**) مِنَ الفضلِ والجودِ حيثُ سترَ القَبيحَ وأظهرَ الجميلَ، ولم يُسلِّطْ أحدًا يذُمُّكَ، وإنْ سلَّطَ بعضًا، فالحمدُ لهُ حيثُ لم يُطلِقْ ألسِنةَ الكُلِّ؛ فإذا أطلقَ الثَّناءَ عليكَ، وساقَ مدحَ الخلقِ إليكَ، ولستَ بأهلٍ لذلكَ، فاشكُرْهُ فإنَّهُ الربُّ المالِكُ، وليكُنْ ذلكَ موجبًا لِتَطلُّبِ الكَمالِ، والتَّحلّي بمحاسِنِ الخِلالِ.

فائدةٌ: قالَ البُرهانُ ابنُ أبي شريف[٢]: "مِنَ النّاسِ منْ تخصُّهُ الأكابِرُ بالزِّيارةِ، فرُبَّما يقولُ

(١) أَعْذَرَتِ الدّارُ: كثُرَ فيها العَذِرةُ وهي الغائط. [لسان العرب]

(٢) برهان الدّين أبو إسحاق إبراهيم بن الأمير ناصر الدّين محمد بن أبي بكر، المعروف بابن أبي شريف المقدسي المصري الشافعي، تزوج بابنة قاضي القضاة شرف الدّين يحيى المناوي، وناب عنه في القضاء، ودرّس وأفتى، ونظم ونثر وصنّف، من كتبه: شرح المنهاج، وشرح قواعد الإعراب لابن هشام، وشرح العقائد لابن دقيق العيد، وغيرها، توفي سنة ٩٢٣. الضوء اللامع (١/١٣٤)، الكواكب السائرة (١/١٠٢).

لنفسِه: لولا إخلاصُكَ في العملِ ما اعتقَدوكَ ولا زاروك، فيلزمُهُ امتِحانُ نفسَهُ بما لو تحوَّلوا لغيرِهِ وقدَّموهُ عليهِ، فإنْ تغيَّرَ منهُ شعرةٌ فهوَ كاذبٌ".

تتِمّةٌ: قالَ العارِفُ المرصَفيُّ: "لا ينبغي لفقيرٍ التَّصدُّرُ للطَّريقِ حتَّى يمتحِنَ نفسَهُ بالصِّدقِ بينَهُ وبينَ ربِّهِ ولو مرّةً، فيمشي على الماءِ والهواءِ، ويُمسِكُ النّارَ فلا تحرِقُهُ، ويطَّلِعُ على أسرارِ الخلائقِ ويعرِفُ ما فعلوهُ في بُيوتِهِمْ، فمتى لم تقعْ لهُ كرامةٌ فهو مِنَ العوامِّ". انتهى.

وتحريرُ القولِ في ذلكَ ما بيَّنهُ بقولِهِ:

١٤٧. الزُّهّادُ إذا مُدِحوا انقَبضوا؛ لشُهودِهِم الثَّناءَ مِنَ الخلقِ، والعارِفون إذا مُدِحوا انبسَطوا؛ لشُهودِهِم ذلكَ مِنَ الملِكِ الحقِّ.

(**الزُّهّادُ**) يشهدون الخلقَ، وحينئذٍ (**إذا مُدِحوا انقَبضوا؛ لشُهودِهِم الثَّناءِ مِنَ الخلقِ**) خوفًا مِنْ فوتِ نصيبِهِمْ مِنَ الحقِّ، فهُمْ محجوبون عنِ الحقِّ بالخلقِ، عامِلينَ بخبرِ: "المدحُ هوَ الذَّبحُ"[1]. ومرَّ بِشْرٌ الحافي[2] بالنّاسِ فقالوا: "هذا لا ينامُ الليلَ ولا يُفطِرُ النَّهارَ، فبكَى وقالَ: لا أذكُرُ أنّي سهِرْتُ ليلةً كامِلةً، لكِنَّ اللهَ يُلقي في القُلوبِ أكثرَ مِمّا يفعلُهُ العبدُ لُطفًا بهِ".

(**والعارِفونَ**) لا يشهَدون إلّا الحقَّ (**إذا مُدِحوا انبسَطوا؛ لشُهودِهِمْ ذلكَ مِنَ الملِكِ الحقِّ**) فزادَ بذلِكَ حالُهُمْ ومقامُهُمْ، فهُمْ محجوبون عنِ الخلقِ بالحقِّ، عامِلينَ على خبرِ: (إذا مُدِحَ المؤمِنُ ربا الإيمانُ في قلبِهِ)[3].

(١) أخرجه أحمد (١٦٩٠٣)، وابن ماجه (٣٧٤٣)، والبيهقي في الشعب (٤٥٢٨)، وغيرهم عن معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ولفظ أحمد: (وإياكم والمدح فإنه الذبح). وأخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٢٦٣) عن عمر موقوفًا.

(٢) الإمام الرباني أبو نصر بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمن المروزي، المعروف بالحافي: ولد سنة ١٥٢، له في الزهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث، من أهل مرو، وسكن بغداد وتوفي بها سنة ٢٢٧. طبقات الصوفية للسلمي (ص٤٢)، وتاريخ بغداد (٧١/٧)، وفيات الأعيان (٢٧٤/١).

(٣) أخرجه الطبراني (١/رقم ٤٢٤)، والحاكم (٥٩٧/٣)، من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا. وضعَّفه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٢٢٩/١).

فشُهودُ أفعالِ الخلقِ مِنْ حيثُ هُمْ مِنْ نقصِ المعرفةِ بالحقِّ، وشُهودُها مِنْ حيثُ إجراؤُها عليهِمْ مِنَ المعرفةِ به، فالعارفُ يرى ألسنةَ الخلقِ أقلامَ الحقِّ، فإذا أثنوا عليه فرِحَ مِنْ حيثُ أنَّ مدحَ الصَّنعةِ عائدٌ على صانِعِها، فيرُدُّ الصَّنعةَ لصانِعِها، ويشهدُ الفِطرةَ لفاطِرِها، مِنْ غيرِ إعجابٍ ولا اتِّكالٍ على عملٍ، بل يزيدُهُ شُكرًا لمولاهُ وفرارًا ممّا سِواهُ، وغيرُهُ يُقبِلُ ويُدبِرُ بحسبِ ما يواجِهُهُ بهِ الخلقُ، فإنْ كانَ غائبًا فرِحَ بالمدحِ مِنْ حيثُ ثُبوتُ منزلتِه عِندَهُمْ، وظُهورُها بينَهُمْ، فالمدحُ في حقِّهِ ذبحٌ؛ لكونِهِ يدعو لمُراآتهِمْ والتَّصنُّعِ والتَّزيُّنِ لهمْ، وإنْ كانَ زاهِدًا لم يقبلْ ذلكَ منهُمْ بلْ يشكُرُ لذمِّهِمْ أكثرُ مِنْ مدحِهِمْ لخبرِ: (احثوا التُّرابَ في وُجوهِ المدّاحينَ)[1]، وعملُ العارفِ على خبرِ: (إذا أحبَّ اللهُ عبدًا نادى جِبريلَ إنّي أُحِبُّهُ ...) الحديثُ[2]، فهذا العملُ بهِ لخاصٍّ -لا لعُمومِ- الخلقِ. وحاصِلُ ما تقرَّرَ: أنَّ العارفَ غائبٌ باللهِ عمّا سِواه، لا يشهدُ فِعلًا إلّا لمولاه، فإذا مُدِحَ انبسطَ لذلِكَ؛ لشُهودِهِ المدحَ مِنَ المالِكِ، والزّاهِدُ لوُقوفِهِ معَ الأغيارِ، يقبِضُهُ المدحُ خوفَ الاغتِرارِ.

فائدةٌ: لا يلزمُ مِنَ اختِلافِ المسالِكِ اختِلافُ المقصِدِ، بل قد يكونُ مُتحِدًا معَ اختِلافِ مسالِكِهِ، كالعِبادةِ والزَّهادةِ والمعرِفةِ، مسالِكَ لقُربِ الحقِّ على منهجِ الكَرامةِ، وكُلُّها مُتداخِلةٌ، فلا بُدَّ للعارِفِ مِنْ عِبادةٍ، وإلّا فلا عِبرةَ بمعْرفتِه إذا لم يعبُدْ معروفَهُ، ولا بُدَّ لهُ مِنْ زُهدٍ، وإلّا فلا حقيقةَ عِندَهُ إذا لم يُعرِضْ عمّا سِواهُ، ولا بُدَّ للعابِدِ منهُما، إذ لا عِبادةَ إلّا بمعرِفةٍ، ولا فراغَ للعِبادةِ إلّا بزُهدٍ، ولا زُهدَ إلّا بعِبادةٍ، وإلا عادَ بَطالةً.

***

١٤٨. متى كُنتَ إذا أُعطيتَ بسطَكَ العطاءُ، وإذا مُنِعتَ قبضَكَ المنعُ، فاستدِلَّ بذلِكَ على وُجودِ طُفوليَّتِك، وعدمِ صِدقِكَ في عُبوديَّتِك.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٢)، وغيره من حديث المقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: (أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثي في وجوه المداحين التراب).

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٢٠٩)، ومسلمٌ (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(**متى كُنتَ إذا أُعطيتَ بسطَكَ العطاءُ، وإذا مُنعْتَ قبضَكَ المنعُ**) مِنْ حيثُ كونُ كُلٍّ منهُما عطاءً أو منعًا، (**فاستدِلَّ بذلكَ على وُجودِ طُفوليَّتِكَ**) أي أنَّكَ طُفيْليٌّ على مراتِبِ القومِ ولستَ منهم، أو أنَّكَ كالطِّفلِ في عدمِ الدِّرايةِ، (**وعدمِ صِدقِكَ في عُبوديَّتِكَ**) لبقاءِ حظِّكَ وعملِكَ على نيْلِه[1]، ولو كُنتَ كامِلًا استوى عِندَكَ كُلٌّ ما فعلَهُ بِكَ.

فهذه ميزانٌ يعرضُ بها المُريدُ حالَهُ في العَطاءِ والمنعِ، والمدحِ والذمِّ، فإنْ كانَ كذلكَ دلَّ على نقصِهِ وأنَّهُ كالطِّفلِ في إقبالِهِ وإدبارِهِ، لا يشعُرُ بما وراءَ العطاءِ والمنعِ، ولا يفرحُ ولا يحزنُ إلّا لهما، فيحتاجُ للتَّربيةِ ليعودَ إلى الاستِقامةِ، فمنْ حصَلَ في ميدانِ الوُصولِ، فهوَ عنِ السِّوى في ذُهولٍ، كُشِفَ عن قلبِهِ الغِطاءُ، فلا يؤلِمُهُ المنعُ كما لا يسرُّهُ العطاءُ، ذاكَ هو الصّادِقُ في العُبوديّةِ، القائمُ ببعضِ حُقوقِ الرُّبوبيّةِ، ومَن هو بخِلافِ ذلكَ طُفيْليٌّ في الطريقِ، ادَّعى ما ليسَ له فما أبعدَهُ عن التَّحقيقِ.

تنْبيهٌ: قالَ في "الأخلاقِ": "أجمعُوا على أنَّهُ لا يبلُغُ العبدُ مقامَ الأدبِ معَ اللهِ حتَّى يكونَ المنعُ أحبَّ إليهِ مِنَ العطاءِ، والمرضُ أحبَّ إليهِ مِنَ العافيةِ، والفقرُ مِنَ الغِنَى"، وقالَ ابنُ أبي شريفٍ: "مَنْ أحبَّ مِنَ العُلماءِ أنْ يصِفَهُ النّاسُ بالعِلمِ والعمَلِ والإخلاصِ، وكرِهَ وصفَهم لهُ بأضدادِها، لم يشُمَّ مِنَ الإخلاصِ رائحةً، بل يكونُ هو مِنْ أوَّلِ منْ تُسعَّرُ بِهِم النّارُ"، وقالَ الشَّيخُ زكريّا[2]: "علامةُ إخلاصِ العامِلِ أنْ يُقبَضَ إذا وُصِفَ بعِلمٍ أو صلاحٍ، وينبسِطُ إذا وُصِفَ بجهلٍ أو نقصٍ".

***

(١) أي متوقفًا على نيل العطاء.

(٢) شيخ الإسلام زكريَّا بن محمَّد بن أحمد بن زكريَّا الأنصاريُّ القاهريُّ الأزهريُّ قاضي القضاة الشافعيُّ، وُلِدَ سنة ٨٢٦، أخذ عن جماعة منهم البُلقيني والقاياتي والشرف السبكي وابن حجر وغيرهم، وقرأ في جميع الفنون وأذنَ له شُيُوخه بالإفتاء والتدريس، وله تصانيف مشهورة في كل فنٍّ من الفُنُون انتفع النَّاس بها وتنافسوا فيها، وكَثُرت تلامذته وألحق الأحفادَ بالأجداد، وعُمِّرَ حتَّى جاوز المائة أو قاربها ومات سنة ٩٢٦. الضوء اللامع (٣/٢٣٤)، وشذرات الذهب (١٠/١٨٦)، والبدر الطالع (١/٢٥٢).

١٤٩. إذا وقعَ مِنْكَ ذنبٌ، فلا يكُنْ سببًا ليأسِكَ مِنْ حُصولِ الاستِقامةِ معَ ربِّكَ، فقدْ يكونُ ذلكَ آخرَ ذنبٍ قُدِّرَ عليك.

(**إذا وقعَ مِنْكَ ذنبٌ، فلا يكُنْ سببًا ليأسِكَ مِنْ حُصولِ الاستقامةِ معَ ربِّكَ**) بلِ اجعلْهُ مِفتاحَ الإنابةِ إليهِ رجاءً وخوفًا منْهُ؛ لأنَّ اليأسَ مِنْ رحمَتِهِ كالاغترارِ بهِ، ولا يُعظِّمِ الشَّيطانُ عندَكَ الأمرَ بما تعلمُهُ مِنْ نفسِكَ مِنَ النُّكثِ وقلّةِ الوفاءِ، ولا بما تراهُ مِنْ عِظَمِ الذَّنبِ، فإنَّهُ تعالى لا يتعاظمُهُ شيءٌ يغفرُه. قالَ الغزالي: "وإذا اتَّخذْتَ الذَّنبَ والعَوْدَ إليهِ حِرفةً، فاتَّخِذِ التَّوبةَ والعَوْدَ إليها حِرفةً، فـ(ما أصرَّ مَنِ استغْفرَ ولو عادَ في اليومِ سبعينَ مرَّةً)(١)".

وتذكَّرْ حالَ منِ استَقامَ بعدَ عظيمِ الجرائمِ، فبادرْ بالإنابةِ، (**فقدْ يكونُ ذلكَ آخرَ ذنبٍ قُدِّرَ عليكَ**) بأنْ يصرفَكَ الحقُّ عنهُ أو يصرفَهُ عنكَ، أو تُعاجِلَ المنيّةُ قبلَ العوْدِ، أو تَصرفَكَ الموانعُ عن فِعلِهِ، فمِنَ العِصمةِ أنْ لا تجِدَ وأنْ لا تقدِرَ، وإن لم يكُنْ شيءٌ مِنْ ذلِكَ، فالذَّنبُ السّابقُ مُحيَ بالتَّوبةِ، فلمْ يبقَ غيرُ الأخيرِ.

تنْبيهٌ: قالَ ابنُ عربي: "إذا ترادفَتْ عليكَ الغفَلاتُ وكثرةُ النَّومِ، فلا تسخَطْ ولا تلتفتْ لذلكَ، فإنَّ مَنْ نظرَ الأسبابَ معَ الحقِّ أشركَ، كُنْ معَ اللهِ بما يريدُ، لا معَ نفسِكَ بما تُريدُ، لكنْ لا بُدَّ مِنَ الاستِغفارِ".

تتِمّةٌ: قالَ بعضُهم: "ليسَ مِنْ شريفٍ ولا وضيعٍ، ولا عالمٍ ولا جاهلٍ، إلّا وفيهِ عيبٌ، لكِنْ منْ كانَ فضلُهُ أكثرُ مِنْ نقصِهِ وُهِبَ نقصُهُ لفضلِهِ".

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٤)، والترمذي (٣٥٥٩)، وغيرهما من حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا. وقال الترمذي: "هذا حديث غريب، وليس إسناده بالقوي". وقد تعقّبه الزيلعي في "تخريج أحاديث الكشاف" (٢٧٧/١) بقوله: "فالظاهر أنه لأجل جهالة مولى أبي بكر، ولكن جهالة مثله لا تضر لأنه تابعي كبير، ويكفيه نسبته إلى أبي بكر، فهو حديث حسن، والله أعلم". وقد حسّنه أيضاً الحافظ ابن حجرٍ في الفتح (١١٢/١)، وغيرهما.

فائدةٌ: قالَ الباقرُ[1]: "إذا أذنبْتَ فاستَغفِرْ، فإنَّما هي خطايا مُطوَّقةٌ في أعناقِ الرِّجالِ قبلَ أن يُخلَقوا، وإيّاكُمْ والإصرارَ".

***

١٥٠. إنْ أردْتَ أنْ ينفتِحَ لكَ بابُ الرَّجاءِ، فاشهَدْ ما مِنْهُ إليكَ، وإنْ أردْتَ أنْ يفتحَ لكَ بابَ الحُزنِ، فاشهدْ ما مِنْكَ إليهِ.

(**إنْ أردْتَ أنْ ينفتِحَ لكَ بابُ الرَّجاءِ، فاشهَدْ ما مِنْهُ إليكَ**) مِنْ إنعام بلا سببٍ، فكيفَ وقدْ وعدَ ووعدَهُ حقٌّ؟!، قالَ الجنيدُ: "إذا بدتْ عينٌ مِنَ الكرمِ ألحقَتِ المُسيءَ بالمُحسِنِ"، (**وإنْ أردْتَ أنْ يفتحَ لكَ بابَ الحُزنِ، فاشهدْ ما مِنْكَ إليهِ**) مِنْ قبيحِ العمَلِ وفاحِشِ الزَّللِ وسوءِ الأدبِ، فتحزنَ خوفَ العِقابِ أو فوتَ الثَّوابِ.

فإذا شهِدْتَ جُودَهُ بلا سبَبٍ، انفتحَ لكَ بابُ الرَّجاءِ إلى أعلى الرُّتبِ، كيفَ وقد وَعَد، لا يُضيعُ أجرَ عابِدٍ عَبَد، وإذا شهِدْتَ قبائحَ فِعالِكَ، ومذامَّ خِصالِكَ، فتحَ لكَ بابَ الحُزنِ لخوفِ العِقابِ، أو عدمِ الحَياءِ، أو فوتِ الثَّوابِ، وإنْ أردتَ فتحَ بابٍ مِنهُما وهو أعْلى، فاشهَدْ وصفَكَ معَ وصفِ المولى، فتراكَ مِنْ حيثُ أنتَ أهلًا لكُلِّ ضيْرٍ، ومِنْ حيثُ هو أهلًا لكُلِّ خيرٍ، وهُناكَ يعتدِلُ اللَّجا[2]، ويستوي الخوفُ والرَّجا. قالَ رجُلٌ لبعضِ الأنبياءِ: "قُلْ لهُ: كمْ أعصي ولا يُعاقِبُ"، فأوحيَ إليهِ: "قُلْ لهُ: لتعلَمَ أنّي أنا أنا، وأنتَ أنتَ". والذي منه إليكَ نِعمةُ الإيجادِ والإمدادِ والإبعادِ عنِ البلاءِ والمِحَنِ، والذي منك إليهِ مُخالَفةُ الأمرِ، ومُفارَقةُ الوِرْدِ، ونِسيانُ الذِّكرِ

---

(١) السيد الإمام، أبو جعفر محمد بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الملقب الباقر، وإنما قيل له الباقر لأنه تبقر في العلم، أي توسع، ولد سنة ٥٦، في حياة السيدة عائشة وأبي هريرة، وكان من سلالة النبوة، وممن جمع حسب الدين والأبوة، توفي سنة ١١٤. طبقات ابن سعد (٥/٣٢٠)، وحلية الأولياء (٣/١٨٠)، ووفيات الأعيان (٤/١٧٤)، وسير أعلام النبلاء (٤/٤٠١).

(٢) اللجأ، بتخفيف الهمزة للسجع.

١٥١. رُبَّما أفادَكَ في ليلِ القبضِ ما لم تستفِدْهُ في إشراقِ نهارِ البسْطِ، ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١].

(**رُبَّما أفادَكَ في ليلِ القبضِ ما لم تستفِدْهُ في إشراقِ نهارِ البسْطِ**) ورُبَّما كانَ العكسُ، فكُنْ مؤثِرًا لهُ عليهِ، لقُدرَتِكَ على القيامِ بأدَبِهِ دون البسطِ، فاعرِفْ نعمتَهُ عليكَ في القبضِ كما تعرِفُها في البسطِ، كما تعلَمُ أنَّ في اللَّيلِ مِنَ المنافعِ ما ليسَ في النَّهارِ؛ ولهذا قيلَ: "رُبَّما ردَّكَ القبضُ إلى المولى، فهو لكَ أولى وأولى"، أينَ ما ردَّكَ إلى نفسِكَ مِمّا ردَّكَ إلى معدنِ أُنسِكَ؛ القبضُ يسوقُكَ إلى المخافةِ، والبسْطُ يردُّكَ إلى كُلِّ آفةٍ، نعم! والقبضُ أقربُ لوُجودِ الفوائدِ؛ لأنَّهُ وطنُ العبدِ، والحالُ الذي يردُّهُ إلى ربِّهِ، لكنَّ الأدبَ أن تقبَلَ ما واجهَكَ به منهُما مِنْ غيرِ مُبالاةٍ بغيرِهِ، قالَ تعالَى في حقِّ الأبِّ والأبناءِ: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾، فالبسطُ مِنْ بِساطِ الجَمالِ، وهو أصلُ وُجودِنا فهو كالأبِ، والقبضُ نتيجةُ أفعالِنا فهو كالابنِ، فقُمْ بكُلٍّ واحِدٍ في محلِّهِ، ولا تُرِدِ الانتِقالَ عنهُ معَ قيامِ حُكمِهِ.

وهُما مِنْ نتائجِ أنوارِ الأسرارِ، وهي غيرُ محكومٍ عليها، فوجبَ أنْ تُمشّى ولا تُخالَف، كما قالَ:

١٥٢. مطالِعُ الأنوارِ القُلوبُ والأسرارُ.

(**مطالِعُ الأنوارِ**) أي: أنوارِ نُجومِ العِلمِ وأقمارِ المعرِفةِ وشُموسِ التَّوحيدِ، محلُّ شُروقِها (**القُلوبُ والأسرارُ**)، فما طلعَ في القلبِ وتحَقَّقَهُ السِّرُّ انتشرَ في الجوارحِ فأفادَ، وما لا فلا؛ لأنَّ أصلَها فهمٌ أو عِلمٌ بالمفهومِ للقُلوبِ والمعلومِ للأسرارِ، وبذلكَ عُلِم أنَّهُ إذا صانَ قلبَكَ مِنَ الأغيارِ، وحرسَهُ مِنْ ورودِ الأكدارِ، فقد أشرقَتْ فيهِ الأنوارُ.

قالَ البونيُّ: "والأنوارُ ثمانيةٌ: نورُ القلبِ، وعبَّرَ عنهُ بعضُهم بنورِ الطَّبعِ، ونورُ الإيمانِ، ونورُ النَّفسِ، ونورُ الرّوحِ، ونورُ العقلِ، ونورُ السِّرِّ، ونورُ القُرآنِ، ونورُ الكشفِ، ولكُلٍّ منها سِرٌّ شرعيٌّ؛ لأنَّها حقائقُ عرشيَّةٌ: فنورُ القلبِ مُستَمدٌّ مِنْ نورِ الإيمانِ، وبهِ يقبلُ التَّكاليفَ الشَّرعيَّةَ، ومنهُ الفَراسةُ، ونورُ النَّفسِ مِنْ نورِ الرّوحِ، فمنِ استَقامتْ نفسُهُ على الطّاعةِ والطَّهارةِ مِنْ ظلمةِ الطَّبعِ وكدرِ العوائدِ حتَّى يُقابِلَ بنورِها نورَ الرّوحِ، كُشِفَ لهُ حقائقُ العالمِ الجبروتيِّ الذي هو لطيفٌ مِنْ عالمِ المُلكِ والملَكوتِ، وشهدَ لطائفَ تصريفِ الحقِّ في الموجوداتِ، ويرى صُعودَ الكلَمِ الطَّيِّبِ الذي هو ذِكرُ اللهِ مِنْ أفواهِ الذّاكرين نوراً يسطعُ، ونورُ العقلِ مِنْ نورِ السِّرِّ، فمنِ استَقامَ عقلُهُ على معرفةِ بارئِهِ بسُقوطِ مَنْ سِواهُ، شاهدَ عجائبَ الملَكوتِ، وكيفَ ربطَ اللهُ العالَمَ عُلويَّه بسُفليِّه، وجُزئيَّه بكُلِّيِّه بكلِمةٍ واحِدةٍ، ونوَّرُ السِّرَّ مِنْ نورِ القُرآنِ، فمنْ ظهرَ سِرُّهُ بسُقوطِ الأكوانِ، تلقَّى مِنَ القُرآنِ أنوارَ التَّحقيقِ وحقائقَ المعارِفِ". انتهى.

والنّاسُ ثلاثةٌ: أهلُ الكثائفِ، وإنَّما إدراكُهُمْ للمحْسوسِ، وأهلُ الأنوارِ التي تخفى تارةً وتظهرُ أُخرى، وأهلُ الأنوارِ التي تظهرُ فلا تخفَى، أو تخفى فلا تظهرُ.

ثُمَّ مرجِعُ الأوَّلِ[1] -وإنْ تعدَّدَ- لِأصلَيْنِ، بيَّنهُما بقولِهِ:

١٥٣. نورٌ مُستَودَعٌ في القُلوبِ، ومددُهُ النّورُ الوارِدُ مِنْ خزائنِ الغُيوبِ.

(**نورٌ مُستَودَعٌ في القُلوبِ**) وهو الموضوعُ بباطِنِ القلبِ، الفائضُ مِنْ نورِ مُشاهدةِ يومِ الميثاقِ، يومِ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وما هو كذلكَ لا يُمكِنُ انتِقالُهُ ولا الانتِقالُ عنهُ بمُجرَّدِ الهوَى، كيفَ (**ومددُهُ**) إنَّما هوَ (**النّورُ الوارِدُ مِنْ خزائنِ الغُيوبِ**)، الذي هو معاني الأسماءِ والصِّفاتِ، المُستَفادُ مِنَ العِبرِ

(١) أي نور القلب.

والآياتِ والنَّظرِ في الملَكوتِ، وما هوَ مُستَفادٌ مِنْ ذلِكَ لا تعملُ الحيلةُ في وُجودِهِ ولا عدمِهِ.

والنّورُ المودَعُ في القلبِ كنورِ العينِ تُبصِرُ بهِ، لكِنَّ بعدَ وُرودِ نورِ الإلهامِ الوارِدِ مِنْ خزائنِ الغيْبِ، الذي هو كالشَّمسِ المُنبَسِطةِ على المنظورِ فيهِ، فلا إبصارَ إلّا باجتِماعِهِما.

ثُمَّ النّورُ نوعانِ، ذكرَهُما بقولِهِ:

***

١٥٤. نورٌ يكشِفُ لكَ بهِ عنْ آثارِهِ، ونورٌ يكشِفُ لكَ بهِ عنْ أوصافِهِ.

(**نورٌ**) يُدرَكُ بالحواسِّ، وهو الذي (**يكشِفُ لكَ بهِ عنْ آثارِهِ**) مِنْ سماءٍ وأرضٍ، وجنّةٍ ونارٍ، وغيرِهِما مما يتصوَّرُهُ الوهمُ وتُحيطُ بِهِ الجهاتُ، وليسَ بهِ كبيرُ حاجةٍ إلّا مِنْ حيثُ الاستِدلالُ بهِ على المؤثرِ، (**ونورٌ يكشِفُ لكَ بهِ عنْ أوصافِهِ**) الأزليّةِ مِنْ جمالٍ وجلالٍ، وعزٍّ وكمالٍ، وفيه غايةُ نفعِكَ وشرفُ منزلتِكَ، إذ بهِ تتحقَّقُ في المعرفةِ، وترتَفِعُ في المُشاهَدةِ، ولا تحتاجُ إلى دليلٍ بعدَهُ.

فإذا كشفَ لكَ عنْ آثارِهِ تعلَّقْتَ بِها ورأيتَها على ما يليقُ بها مِنْ نقصٍ وزوالٍ في هذهِ الدّارِ، وعلى ما هي عليهِ مِنْ بقاءٍ وكمالٍ في تلكَ الدّارِ؛ فترجو وتخافُ لعلمِكَ بالدُّنيا وانقِراضِها، وبالآخرةِ ودوامِها، فيكونُ رُجوعُكَ بغيرِهِ إليهِ، وإذا كشفَ لك عنْ أوصافِهِ رأيتَ نقصَ كُلِّ شيءٍ بكمالِهِ، بل فناءَ كُلِّ شيءٍ في وُجودِهِ، فيكونُ رُجوعُكَ مِنهُ إليهِ، فلم يبقَ لكَ بغيرِهِ تعلُّقٌ ولا قرارٌ، ولا عنْ سِواهُ إخبارٌ.

ثُمَّ هذهِ الأنوارُ إنَّما توجِبُ ما ذُكِرَ معَ تمكُّنِها مِنَ القلبِ، لا معَ مُجرَّدِ ظُهورِها في عوالِمِهِ، ولذلِكَ قالوا: "إذا كانَ الإيمانُ في ظاهِرِ القلبِ، كانَ المؤمِنُ يُحِبُّ اللهَ حُبًّا مُتوسِّطًا، فإذا حلَّ بباطِنِهِ أحبَّهُ حُبًّا بالِغًا".

تنْبيهٌ: قالَ الإمامُ السُّهرَوَرْديُّ[1]: "النُّفوسُ إذا دامَتْ عليها الإشراقاتُ العُلويّةُ تُطيعُها مادّةُ العالمِ العُلويِّ، والنّورُ السّانحُ من العالمِ الأعلى هو إكسيرُ القُدرةِ والعِلم فيُطيعُهُ العالَمُ، والنُّفوسُ المُجرَّدةُ يتقرَّرُ فيها مِثالٌ مِنْ نورِ اللهِ ويتمكَّنُ فيها. وإخوانُ التَّجريدِ تُشرِقُ عليهِمْ أنوارٌ ولها أصنافٌ، أوَّلُها: نورٌ بارِقٌ يرِدُ وينطوي كلمعةِ بارِقٍ لذيذٍ، ثُمَّ نورٌ بارِقٌ أعظمُ مِنْهُ وأشبهُ مِنه بالبرقِ، لكنَّهُ برقٌ هائلٌ، وربَّما يُسمَعُ منه صوتٌ كصوتِ رعدٍ أو دويٌّ في الدِّماغِ، ثُمَّ نورٌ وارِدٌ لذيذٌ يُشبِهُ وُرودُهُ وُرودَ ماءٍ حارٍّ على الرَّأسِ، ثُمَّ نورٌ ثابتٌ زمنًا طويلًا شديدُ القهرِ يصحبُهُ خدَرٌ في الدِّماغِ، ثُمَّ نورٌ لذيذٌ جدًّا لا يُشبِهُ البرقَ، بل يصحبُهُ بهجةٌ حُلوةٌ تتحرَّكُ بقوّةِ المحبّةِ، ثُمَّ نورٌ مُحرِقٌ يتحرَّكُ مِنْ تحرُّكِ القوى القريبةِ، وقد يحصُلُ منه سماعُ طُبولٍ وأبواقٍ وأمورٍ هائلةٍ، ثُمَّ نورٌ لامِعٌ في خطفةٍ عظيمةٍ، يُظهِرُ مشاهِدًا وأبصارًا أظهرَ مِنَ الشَّمسِ في لذَّةٍ مغرِقةٍ، ثُمَّ نورٌ برّاقٌ لذيذٌ جدًّا، يُتخيَّلُ كأنَّهُ مُتعلِّقٌ بشعرِ الرأسِ زمانًا طويلًا، ثُمَّ نورٌ سانِحٌ معَ قبضةٍ مُتتاليّةٍ فيترائى كأنَّهُ قبضَ شعرَ رأسِهِ ويُؤلِمُهُ ألمًا لذيذًا، ثُمَّ نورٌ معَ قبضةٍ تترائى كأنَّها مُتمكِّنةٌ في الدِّماغِ، ثُمَّ نورٌ يُشرِقُ مِنَ النُّفوسِ على جميعِ الرّوحِ النَّفساني، فيظهرُ كأنَّهُ يزرعُ بالبدنِ شيئًا، ويكادُ يقبلُ روحَ جميعِ البدنِ صورةً نوريّةً، وهو لذيذٌ جدًّا، ثُمَّ نورٌ مبدؤهُ في صولةٍ، وعندَ ابتدائه يجعلُ الإنسانَ كأنَّهُ شيءٌ ينهدِمُ، ثُمَّ نورٌ سانِحٌ يسلُبُ النَّفسَ وتصيرُ مُعلَّقةً محضةً ممّا يُشاهِدُ تجرُّدها عنِ الجهاتِ، ثُمَّ نورٌ يُتخيَّلُ معهُ ثِقلٌ لا يكادُ يُطاقُ، ثُمَّ نورٌ معهُ قوّةٌ تُحرِّكُ البدنَ حتَّى يكادَ ينقطِعُ مفاصِلُهُ. وهذه كُلُّها إشراقاتٌ على النّورِ المُدبِّرِ، فينعكِسُ إلى الهيكَلِ وإلى الرّوحِ النَّفسانيِّ، وهذهِ غايةُ المُتوسِّطينَ، وقد تحمِلُهُمْ هذهِ الأنوارُ فيمشون على الماءِ، ويطيرون في الهواءِ، وقد يصعَدون إلى السَّماءِ معَ الأبدانِ، فيلتَصِقون ببعضِ العُلويّاتِ. وهذه أحكامُ الإقليمِ الثّامِنِ الذي فيهِ جابَلَقُ وجابَلَصُ [وهورقليا] ذاتُ العجائِبِ.

---

(١) أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك السهروردي، شهاب الدين (٥٤٩-٥٨٧)، فيلسوف إشراقي، ولد في سهرورد الواقعة شمال غربي إيران، ونشأ في مراغة وسافر إلى حلب، فنسب إلى انحلال العقيدة، وأفتى العلماء بإباحة دمه، يعد من أفقه علماء عصره بأمور الدين والفلسفة والحكمة، من أشهر كتبه: حكمة الإشراق، وله أيضا: رسالة في اعتقادات الحكماء، وهياكل النور، ومقامات الصوفية ومعاني مصطلحاتهم. وقد اشتهر بالشيخ المقتول تمييزاً له عن الشهاب السُّهروردي، صاحب "عوارف المعارف"، المتوفى ٦٣٢هـ.

وأعظمُ الملَكاتِ مَلَكةُ [موتٍ]، ينسلِخُ النّورُ المُدبِّرُ عنِ الظُّلُماتِ انسلاخًا، وإنْ لم يخلُ عنْ بقيّةِ علاقةٍ معَ البَدنِ، إلّا أنَّهُ يبرُزُ إلى عالمِ النّورِ ويُرى معلَّقًا بالأنوارِ القاهرةِ، ويرى الحُجُبَ النّوريّةَ كُلَّها إلى جلالِ النّورِ المُحيطِ القيّومِ، نورِ الأنوارِ، كأنَّها شفّافةٌ، ويصيرُ كأنَّهُ موضوعٌ في المُحيطِ، وهذا المقامُ عزيزٌ جدًّا، حكاهُ أفلاطون عنْ نفسِهِ، وهرمسُ وكِبارُ أهلِ الحِكمةِ عنْ أنفُسِهِمْ، وهو ما حكاهُ صاحبُ الشَّريعةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عنْ نفسِهِ وجماعةٌ مِنَ المُنسَلِخينَ، ولا تخلو الأدوارُ عن هذهِ الأمورِ، وكُلُّ شيءٍ عِندَهُ بمقدارٍ؛ ومنْ لم يُشاهِدْ مِنْ نفسِهِ هذه المقاماتِ، فلا يعترِضُ على أساطينِ الحِكمةِ وسلاطينِ المعرِفةِ، فإنَّهُ نقصٌ وجهلٌ وقُصورٌ، ومنْ أخلَصَ وخلصَ عنِ الظُّلُماتِ، ورفضَ مشاعِرَها، شاهدَ ما لا يُشاهِدُهُ غيرُهُ". إلى هُنا كلامُ الإمام[1].

ثُمَّ إنَّما يُطلبُ النّورُ لانجلاءِ الظُّلمةِ، فإذا حصلَ مِنْهُ ما يُفيدُ المقصودَ، وجبَ رفعُ الهِمّةِ عنْ طلَبِهِ والالتِفاتِ إليهِ، وقد تكونُ الأنوارُ حِجابًا كالأغيارِ، فلهذا قالَ:

١٥٥. ربَّما وقفَتِ القُلوبُ معَ الأنوارِ، كما حُجِبتِ النُّفوسُ بكثائِفِ الأغيارِ.

(**ربَّما وقفَتِ القُلوبُ معَ الأنوارِ**) فتُحجَبُ عنِ المُنوِّرِ؛ وذلكَ بالأُنسِ بها والتَّعشُّقِ بوُجودِها استِحلاءً لها وحُبًّا فيها، والقُنوعِ والنَّظرِ إليها، ورؤيةِ أنَّها الغايةُ والنِّهايةُ، (**كما حُجِبتِ النُّفوسُ بكثائِفِ الأغيارِ**) مِنَ العادياتِ والشَّهواتِ، وفي معناهُ للشُّشْتري:

تقيَّدْتَ بالأوهامِ لمّا تداخلَتْ * عليكَ ونورُ العَقلِ أورثَكَ السِّجنا
وهِمْتَ بأنوارٍ فهِمْنا أصولَها * ومنْبَعَها مِنْ أينَ كانَ فما هِمنا
وقدْ تحجُبُ الأنوارُ للعبدِ مِثلَما * تُبعدُ مِنْ أوصافِ نفسٍ حوَتْ ضِغنا

فوُقوفُ القلبِ معَ نورِ العُلومِ والمعارِفِ كوُقوفِ النَّفسِ معَ العاداتِ والشَّهَواتِ والزَّخارِفِ.

(١) مع بعض التصرف، من كتابه "حكمة الإشراق".

فائدةٌ: قالَ ابنُ عرَبي: "قالَ الواردُ[1]: إنَّما كانَ العارِفون لا يرون في منامِهِمْ ما يراهُ المُريدُ مِنَ الأنوارِ والأشياءِ الحسَنةِ؛ لأنَّهُمْ ينامون على الخوْفِ ورؤيةِ التَّقصيرِ والتَّفريطِ في حقِّ الحقِّ، والمُريدُ ينامُ على رؤيةِ استِحسانِ حالِهِ ورؤيةِ نتائجِ أعمالِهِ، والنَّوْمُ تابعٌ للحِسِّ، ولهذا كانَ بعضُ العارِفينَ يحِنُّ إلى البِدايةِ".

تتمّةٌ: قالَ ابنُ الجلاءِ: "مَنْ وقفَ بهِمَّتِهِ على شيءٍ دون الحقِّ فاتَهُ الحقُّ؛ لأنَّهُ أعزُّ مِنْ أنْ يرضَى معَهُ بشَريكٍ". وللهِ درُّ ابنِ الفارِضِ حيثُ قالَ:

ولئِنْ رضَى غيري بطَيْفِ خَيالِهِ * فأنا الذي بِوصالِهِ لا أكتفي

***

١٥٦. سترَ أنوارَ السَّرائِرِ بكثائفِ الظَّواهِرِ صيانةً لها أنْ تُبتَذلَ بوُجودِ الإظهارِ، وأنْ يُنادى عليها بِلِسانِ الاشتِهارِ.

(**سترَ أنوارَ السَّرائِرِ**) التي هي ما يتحقَّقُ بهِ الخواصُّ مِنْ أحوالِ المُنازَلاتِ، ومُنازَلاتِ الأحوالِ، وحقائِقِ المعارِفِ، ومعارِفِ الحقائِقِ، (**بكثائفِ الظَّواهِرِ**) التي هيَ الأوصافُ البشَريَّةُ، إذ جعلَها مظهَرًا لها وموقِفًا فيها، وغيرَ مُنفكَّةٍ عنها.

وما ستَرَها بذلكَ إلّا (**صيانةً لها أنْ تُبتَذلَ بوُجودِ الإظهارِ**) فيدَّعيها العِبادُ بوُجودِ الاستعدادِ، فلا يكونُ لها رِفعةً ولا عِزًّا، (**وأنْ يُنادى عليها بِلِسانِ الاشتِهارِ**) بينَ الأغيارِ، فيبطُلُ معنى التَّخصيصِ للمُختَصِّ، ويفتَضِحُ حالُ المُدَّعي، وما كانَ مِنَ العزيزِ لا يكونُ إلّا عزيزاً.

(١) هكذا في المخطوطة، ولعل المقصود وارد ورد عليه بهذه العبارة، فقد كان ابن عربي -كما قال تلميذه القونوي- متمكنا من الاجتماع بروح من شاء من الأنبياء والأولياء الماضين. [شرح الأربعين حديثا، لأبي المعالي صدر الدين القونوي، المتوفى سنة ٦٧٣هـ].

قالَ في "اللّطائفِ": "الأولياءُ أهلُ كهفِ الإيواءِ، قلَّ منْ يعرِفُهُمْ"، فقد سترَ عنكَ أنوارَ المعارفِ بأحكامِ الكثائفِ، فإذا رأيتَ الواحدَ منهُمْ ينكِحُ ويأكُلُ ويشربُ قُلتَ: منْ أينَ لهُ ذلكَ المطلَبُ؟! وما ذاكَ إلّا مِنْ قبيلِ قولِ المَرَدةِ اللّئامِ، ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧]، سترَها صونًا عنِ الابتذالِ، أو لِئلّا يُطّلعَ عليها بحالٍ، سترَها كيلا يُعلَمَ النّاقِصُ مِنَ الكامِلِ، كُلُّ ذلكَ لرحمةِ وُجودهِ الشّامِلِ.

***

١٥٧. سُبحانَ مَن لم يجعَلِ الدَّليلَ على معرِفةِ أوليائهِ إلّا مِن حيثُ الدَّليلُ عليهِ، ولم يوصِلْ إليهِم إلّا مَن أرادَ أنْ يوصِلَهُ إليهِ.

(سُبحانَ مَن لم يجعَلِ الدَّليلَ على معرفةِ أوليائهِ إلّا مِنْ حيثُ الدَّليلُ عليهِ)، فكما لا دليلَ عليهِ إلّا ما أظهرَ، لا دليلَ على أوليائهِ إلّا ما ظهرَ عليهِم، والمولى عزيزٌ عِلمُهُ، بعيدٌ إلّا على الخاصّةِ فهمُهُ، لا يوصَلُ إليهِ بالجَهدِ والسِّعايةِ، بل بالاختِصاصِ والعِنايةِ، صانَهُ عنِ الأغيارِ، وملأَ قلبَهُ مِنَ الأسرارِ، وفي بعضِ الكُتُبِ المُنزلةِ: "أوليائي تحتَ قِبائي، لا يعرِفُهم غيري"؛ ولهذا قالَ المرسي: "معرفةُ العارفِ أصعبُ مِنْ معرفةِ اللهِ، فإنَّ اللهَ معروفٌ بكَمالِهِ وجمالِهِ، وحتّى متى تعرِفُ مخلوقًا مِثلَكَ؟!"

وعنْوَنَ بالتَّسبيحِ إشعارًا بعظمةِ الأمرِ، وأنَّ لهُ ذلكَ، وتنْبيهًا على أنَّ الأولياءَ مُنزَّهون بتنزيهِهِ، وإشارةً لعدمِ المُساواةِ في الدَّلالةِ؛ والمقصودُ: أنَّهُ تعالى لا يُعرَفُ إلّا بما أظهرَ مِنْ أفعالهِ، والوليُّ لا يُعرَفُ إلّا بما بدا مِنْ أوصافِهِ، وكما أنَّهُ تعالى لا يُعرَفُ إلا بتوفيقِهِ، فالوليُّ لا يُعرَفُ إلّا بتوصيلِ الحقِّ لهُ.

قالَ بعضُهم: "والوليُّ مَنْ تولّاهُ اللهُ، فلمْ يدعْهُ لغيرِهِ، وتولّى اللهَ، فلم يُعرِّجْ على ما سِواهُ، وعلامتُهُ: إيثارُ الحقِّ، والإعراضُ عنِ الخلقِ، والتزامُ السُّنّةِ بالصِّدقِ".

تنبيهٌ: قالَ بعضُهم: "ليسَ للأولياءِ حاجةٌ عِنْدَ أحدٍ مِنَ الخلقِ، حتَّى يتعرَّفوا إليهِ بجمعيّةِ قُلوبِهِمْ على الحقِّ، فهم يستَحْيون مِنْهُ أنْ يلتَفتوا إلى أحدٍ مِنْ عبيدِهِ إلّا بأمرِهِ، والوَليُّ لا يتعرَّفُ لنا إلا لإحدَى ثلاثٍ: إمّا أنْ يكون له معَنا نسبةٌ، أو يكون مأذونًا له في ذلكَ، أو يتعرَّفَ بنا مكرًا بنا –والعياذُ باللهِ– وإن لم يقصِدْ ذلكَ؛ ليُظهِرَ ما في بواطِنِنا مِنَ الإنكارِ عليهِ والاستِخفافِ بحقِّهِ والاستِهزاءِ، فتُقامُ الحُجّةُ علينا في معرِفتِنا بهِ، فلهم مقاصِدُ معَ ربِّهِم لا يطَّلِعُ عليها الخلقُ".

وقالَ بعضُهم: "لا يُعرَفُ الوليُّ إلّا بنورٍ يُقذَفُ في قلبِ المُعتَقِدِ فيهِ، ومنْ زعَمَ معرِفتَهُ من أقوالِهِ وأفعالِهِ فقد أخطأَ، وإنَّما يُعرَفُ الأولياءُ بسرائرِهم وأحوالِهم الباطِنةِ، فقد يخْفَوْن في الظُّهورِ، ويظهرون في الخفاءِ".

(**ولم يوصِلْ إليهِم إلّا مَن أرادَ أنْ يوصِلَهُ إليهِ**) لأنَّهُم لا يعرِفون أحدًا إلّا دلّوهُ عليهِ، والمُرادُ بالوُصولِ: معرِفةُ الوليِّ على وجهٍ يقتضي القيامَ بحقِّ حُرمتِهِ، والوُقوفَ عِندَ أمرِهِ ونهيِهِ، والتَّعلُّقَ بحالِهِ وهِمَّتِهِ، وذلكَ مِفتاحُ الوُصولِ، لإيجابِهِ اهتِمامَ الوليِّ بمَنْ يقعُ لهُ ذلكَ، فيشتَغِلُ قلبُهُ بهِ، فيُكرِمُهُ مولاهُ بنظرةٍ لهُ؛ ولهذا يقولُ النّاسُ لأهلِ الخيرِ: "خاطِرَكَ" أي ليكُنْ لك بي اهتِمامٌ، وأكُنْ منكَ على بالٍ.

ولهذا كانَ الإيمانُ بطريقِهم ولايةً، فكيفَ بمعرِفتِهم؟! وإذا كانَ بمعرِفتِهم كذلك فكيفَ بصُحبتِهم؟! وإذا كانَ بصُحبتِهم كذلكَ فكيفَ بمُخالَطتِهم؟! وإذا كانَ بمُخالطتِهم كذلك فما ظنُّكَ بخِدمَتِهم؟! وإذا كانَ بخِدمَتِهم كذلِكَ فما ظنُّكَ بالسُّلوكِ على مِنهاجِهم؟!

وقد استُقرِئَ صحيحًا أنَّهُ ما خالطَ أحدٌ قط مُعتقِدًا إلا نفعَهُ اللهُ مِنهُ بنيَّتِهِ على قدرِ هِمَّتِهِ، "وبقدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ"(١)، فهنيئًا لمنْ ذاقَ، أو رأى مَنْ ذاقَ!

---

(١) اقتباس من بيت المتنبي:
على قدر أهل العزم تأتي العزائم * وتأتي على قدر الكرام المكارم

ولذا ندبَ الشَّرعُ البُروزَ للمطَرِ لكونِه حديثَ عهْدٍ بربِّه(١)، فالعارفُ وليٌّ، والأولياءُ أبوابُ اللهِ، ومعرفتُهم مفاتيحُها، وأسنانُ المِفتاحِ حِفْظُ الحُرمةِ وحُسنُ الخِدمةِ ودوامُ الحِشمةِ واتِّساعُ الرَّحمةِ، فمنْ عامَلَهم بذلكَ، وإلّا فهو على خطَرٍ.

***

١٥٨. رُبَّما أطلعَك على غيْبِ ملَكوتِه، وحجبَ عنكَ الاستِشرافَ على أسرارِ العِبادِ.

(**رُبَّما أطلعَك على غيْبِ ملَكوتِه**) الذي هو الاطِّلاعُ على مكنونِ العِلمِ ودقيقِ المعارِفِ، (**وحجبَ عنكَ الاستِشرافَ على أسرارِ العِبادِ**) أي خفيِّ أمورِهِم، حتَّى لا تعرِفَ عدوًّا مِنْ صديقٍ، ولا صادِقًا مِنْ صِدِّيقٍ، رحمةً بك وبهم، وإبقاءً عليكَ وعليهِمْ، فقد يُطلِعُكَ على غيبِهِ، ويُخفي عنكَ سِرَّ عبدِهِ؛ لئلّا تطَّلِعَ على عيبِهِ سَترًا عليهِ، وبرًّا ساقَهُ إليه.

وقد يُطلِعُكَ على أسرارِهِم، فاحذرْ مِنْ فِتنةِ ذلكَ، كما قالَ:

١٥٩. منِ اطَّلعَ على أسرارِ العِبادِ، ولم يتَخلَّقْ بالرَّحمةِ الإلهيّةِ، كانَ اطِّلاعُهُ فِتنةً عليهِ وسببًا لجرِّ الوَبالِ إليه.

(**مَن اطَّلعَ على أسرارِ العِبادِ، ولم يتخلَّقْ بالرَّحمةِ الإلهيّةِ**) الشّاملةِ للطّائعِ والعاصي والدّاني والقاصي، فيرحَمَ المُذنِبَ، ويحلُمَ على الظّالِمِ، ويصفَحَ عنِ الجاهِلِ، ويُحسِنَ إلى المسيءِ، ويرأفَ بالخلقِ كُلِّهِم، (**كانَ اطِّلاعُهُ فتنةً عليه**) حالًا، إذ يُوجِبُ طيشَهُ وغفلتَهُ، وعُجبَهُ وكِبرَهُ،

(١) أخرج مسلم (٨٩٨)، وغيره من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطر، قال: فحسر رسول الله ﷺ ثوبه، حتى أصابه من المطر، فقلنا: يا رسول الله لم صنعت هذا؟ قال: (**لأنه حديث عهد بربه**).

واشتغالَهُ بالخلقِ عنِ الحقِّ، **(وسببًا لجرِّ الوَبالِ)** أي المكروهِ **(إليه)** مآلًا، مِنْ ادِّعائهِ لصِفاتِ الرُّبوبيّةِ، وتضييقِ رحمةِ اللهِ على عِبادِهِ، وأذيَّتِهم بهتكِ أستارِهِم، والازدراءِ بهم، والاستخفافِ بحقِّهم؛ فمنِ اطَّلعَ على خطايا العِبادِ ولم يتخلَّقْ بالرَّحمة، كانَ ذلكَ عليه نِقمةٌ وأيُّ نقمة، رُبَّما جرَّهُ إلى العُجْبِ بعمَلِهِ، أو التَّكبُّرِ عليهِ لزللهِ. لو كُشِفَ عنِ البَصائرِ لرأيْتَ الخلقَ هذا يُقادُ للخيرِ وهذا إلى الشَّرِّ صائر، قادَهُم بسلاسِلِ الإرادات، هذا إلى الشُّرورِ وهذا إلى السُّرورِ والعِبادات، فسُبحانَ المُتعالي في جلالِه، لا يُسألُ عنْ شيءٍ مِنْ أفعالِه.

يعني: منِ اطَّلعَ على معايِبِ العِباد، ولم يتخلَّقْ بالرَّحمةِ، فقدْ حادَ عنِ الكَمالِ في نفسه، فاحتقرَ أبناءَ جِنسه، فنازعَ ربَّهُ في الكِبرياء، وهو أعظمُ الوبالِ وغايةُ الجزاءِ وأشنعُ النَّكالِ، كيفَ تمقُتُ منْ جاءَ مُنقادًا بسلاسِلِ الإرادة، وهو يعلمُ بُعدَهُ عنْ ساحةِ السَّعادة، سُلِّطَتْ على قلبِهِ المُيولُ، فسيقَ إلى المعصيةِ كأنَّهُ مغلولٌ محمول، إنْ نظرْتَ إليهِ بعيْنِ الحقيقةِ أقمْتَ عُذرَه، أو الشَّريعةِ شددْتَ عليه نُكرَه.(١)

قالَ ابنُ عربي: الشَّفقةُ على الخلقِ أحقُّ بالرِّعايةِ مِنَ الغيْرةِ في اللهِ؛ لأنَّ الغيْرةَ لا أصلَ لها في الحقائقِ الثُّبوتيّةِ لأنَّها مِنَ الغيْريّة، ولا غيريّةَ حقيقيّةَ، ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]، وقالَ تعالَى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، فجعلَ القَصاصَ سيِّئةً، أي إنَّ ذلكَ الفِعلَ سيِّءٌ معَ كونِهِ مشروعًا؛ كُلُّ ذلكَ تعظيمًا لهذه النَّشأةِ التي تولَّى الحقُّ خلقَها بيدِهِ، واستخْلفَها في الأرضِ وأعطاها النِّيابةَ، وحرَّمَ على عِبادِهِ السَّعيَ في إتلافِها بغيْرِ إذنِهِ.

تتمّةٌ: قالَ المرصفيُّ: "لا يبلُغُ عبدٌ الكمالَ حتَّى يتخلَّقَ بالسَّترِ والحِلمِ على جميعِ العالمِ، فيستُرَ فضائِحَهُم ولا يُعاقِبَهم إلّا بطريقٍ كالشَّمسِ". وقالَ بعضُهم: "عِلمُ اتِّساعِ الرَّحمةِ الإلهيّةِ منْ تحقَّقَ بهِ رحِمَ جميعَ العالَم، وليس في العُلومِ أكثرُ نفعًا مِنه، فإنَّه تعالى يرحَمُ صاحِبَه بِعدَدِ مَن رحِمَه مِن جميعِ العالَمِ، ذلكَ فضلُ اللهِ".

---

(١) هذه الفقرة مبدوءة بنص الحكمة كاملة، وردت في المخطوطة الأزهرية بعد الحكمة رقم ١٤٥: "أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس"، وهو ليس سياقها، ولا موضعها وفق الترتيب المشهور للحكم، ولعله خلط من الناسخ، أو يكون الشيخ المناوي قد تعرض لهذه الحكمة مرتين!!

١٦٠. حظُّ النَّفسِ في المعصيةِ ظاهِرٌ جليٌّ، وحظُّها في الطّاعةِ باطِنٌ خفيٌّ، ومداواةُ ما يخفى صعبٌ عِلاجُهُ.

(**حظُّ النَّفسِ في المعصية**) وفِعلُها (**ظاهِرٌ جليٌّ**)، لأنَّ فِعلَها حظٌّ نفسانيٌّ، ولولاهُ لم يُتصوَّرْ وُجودُها، (**وحظُّها في الطّاعةِ باطِنٌ خفيٌّ**) على فاعِلِها، لا يُدرَكُ إلّا بدِقّةِ نظرٍ ومعونةِ توفيقٍ. والمُرادُ أنَّ الطّاعةَ تحتوي على حظٍّ كالمعصيةِ لكنَّهُ خفيٌّ، (**ومداواةُ ما يخفى صعبٌ عِلاجُهُ**) لاحتياجِهِ لدِقّةِ فهمٍ ونفوذِ إدراكٍ؛ ليتطلَّبَ بذلكَ آفاتِ نفسِهِ ولطيفَ خُدَعِها وخفيَّ حظِّها، فيعملَ على ما يصفيها مِنْ ذلكَ؛ والمُداواةُ تابعةٌ لمعرفةِ أصلِ العِلّةِ وسببِها، فإذا بطنَتْ بعُدَ الوُصولُ إليها، فيشُقُّ مُداواتُها.

وقد استَبانَ بذلكَ أنَّ حظَّ النَّفسِ في المعصيةِ ظاهِرٌ، وحظُّها في الطّاعةِ لا يعلمُهُ إلّا القاهِرُ، تفرُّ مما بدا مِنَ الحقِّ المأمورِ، وتسعى لطلبِ الحظِّ المغرورِ، البصيرُ أبدًا لها في اتّهامٍ، لا يغترُّ بما تُزخرِفُهُ مِنَ الكلامِ، ليسَ لكَ في حظِّها مِنَ الطّاعةِ خلاصٌ، إلّا تَحمِلُها على الإخلاصِ؛ فلهذا صعُبَ علاجُها عليكَ، إلّا بعَوْنٍ مِنَ اللهِ إليكَ، فكُنْ في الطّاعةِ أشدَّ اتّهامًا لنفسِكَ مِنها في المعصيةِ، بما ذكرَهُ بقولِهِ:

***

١٦١. رُبَّما دخلَ الرِّياءُ عليكَ مِنْ حيثُ لا ينظُرُ الخلقُ إليكَ.

(**رُبَّما دخلَ الرِّياءُ عليكَ مِنْ حيثُ لا ينظُرُ الخلقُ إليكَ**) فرياؤكَ بالعملِ وأنْتَ بمرأى لا يحتاجُ إلى علامةٍ، ورياؤكَ مُنفرِدًا لا يعلمُهُ إلّا أهلُ الاستِقامةِ، أدقُّ من الدَّقيقِ، لا يدفَعُهُ إلّا عزيزُ التَّوفيقِ، متى قامَ بقلبِكَ تعظيمُ النّاسِ وتسارُعُهم في تحصيلِ أرَبِكَ، فقدْ دخلَ عليكَ الرِّياءُ وأنتَ لا تعلَمُ، ففرَّ إلى الخلاصِ بالإخلاصِ إنْ كُنْتَ تفهَمُ، متى عملتَ لأنْ تظهرَ عليْكَ

الأنوار، وتنسُّمَ نسمةُ الأبرار، فقد أشركْتَ في عملك، وسارعْتَ في حظِّكَ وأملك، إذا طهَّرتَ قلبَكَ مِنْ هذا الشِّركِ الدَّقيق، وغيَّبتَ الخلقَ عنْ نظرِكَ فقد تحقَّقْتَ بالتَّحقيق، وحينئذٍ يستوي عِندَك السِّرُّ والعلَن، وتحظَى مِنَ الحقِّ بالمِنَن.

والرّياءُ يرجِعُ لرؤيةِ العامِلِ للخلقِ، لا لرؤيَتِهِم لهُ، فمنْ نظرَ لهم في عملِهِ فهو مُراءٍ ولو كانَ في جوفِ صخرةٍ في قَعرِ البحرِ، ومنْ لم يُداخِلْهُ ذلكَ بحالٍ فهو مُخلِصٌ ولو في وسطِ جميعِ الخلائقِ.

قالَ بعضُ أهلِ الكَمالِ: إفرادُ القلبِ لله تعالى مطلوبٌ بكُلِّ حالٍ"، فلزِمَ نفيُ الرّياءِ بالإخلاصِ، ونفيُ العُجْبِ بشُهودِ المِنّةِ، ونفيُ الطَّمعِ بوُجودِ التَّوكُّلِ، ومدارُ الكُلِّ على سُقوطِ الخلْقِ مِنْ نظَرِ العبْدِ، فلذلكَ قالَ سهلٌ: "لا يبلُغُ العبدُ الحقيقةَ حتَّى تسقُطَ نفسُهُ مِنْ عينِهِ، فلا يرى في الدّارَيْنِ إلّا هو وربَّهُ، أو يَسقُطُ الخلقُ مِنْ عينِهِ فلا يُبالي بأيِّ حالٍ يرونَهُ فيهِ، ينتفي عندَه كُلُّ شيءٍ مِنْ ذلِكَ، وإلّا دخلَ الرّياءُ عليهِ حيثُ لا ينظُرُ الخلقُ إليهِ.

وللرّياءِ وُجوهٌ مِنَ الاستِشرافِ، منها ما بيَّنَهُ بقولِهِ:

١٦٢ . استِشرافُكَ أنْ يعلمَ النّاسُ بخُصوصيَّتِكَ، دليلٌ على عدمِ صِدقِكَ في عُبوديَّتِكَ.

(**استِشرافُكَ أنْ يعلمَ النّاسُ بخُصوصيَّتِكَ**) أي بما خُصِّصْتَ بهِ مِنْ عِلمٍ وعمَلٍ صالِحٍ، ومحبَّتِكَ الاطِّلاعَ على مثاقيلِ الذَّرِّ مِنْ عملِكَ، إمّا على عينِهِ أو لازِمِهِ، (**دليلٌ على عدمِ صدقِكَ في عُبوديَّتِكَ**)، فلو صدَقْتَ ربَّكَ لم تلتفِتْ لغيرِهِ. قالَ الأقطعُ[1]: "مَنْ أحبَّ أنْ يطَّلعَ الناسُ على عملِهِ فهو مُراءٍ، أو على حالِهِ فهو كذّابٌ".

(١) أبو الخير الأقطع، أصله من المغرب، وله آيات وكرامات، صحب أبا عبد الله بن الجلاء وغيره من المشايخ وكان أوحد طريقته في التوكل، توفي سنة ٣٤٧. طبقات الصوفية (ص٢٨٠)، والرسالة القشرية (ص١٢٢).

وقالَ ابنُ واسعٍ[1]: "أدركْتُ رجالًا يكونُ أحدُهُمْ رأسُهُ معَ امرأتِهِ على وُسادةٍ واحدةٍ، قد بلَّتْ دُموعُهُ ما تحتَ خدِّهِ ولا تشعُرُ به"، وقالَ ابنُ أبي الحواري[2]: "منْ أحبَّ أنْ يُعرفَ بشيءٍ منَ الخيرِ، أو يُذكرَ به فقدْ أشركَ في عبادَتِهِ؛ لأنَّ منْ عبدَ على المحبّةِ لا يُحبُّ أنْ يرى خدمتَهُ غيرُ مخدومِهِ"، وقالَ ابنُ أدهمَ: "ما صدَقَ اللهَ مَنْ أحبَّ الشُّهرةَ".

فإذا أردْتَ السَّلامةَ والصِّدقَ، فلا تنظُرْ للخلقِ، كما قالَ:

***

١٦٣. غيِّبْ نظرَ الخلقِ إليكَ بنظرِ اللهِ إليكَ، وغِبْ عنْ وُجودِ إقبالِهم إليْكَ بشُهودِ إقبالِهِ عليْكَ.

(**غيِّبْ نظرَ الخلقِ إليكَ**) لأنَّهم لا يملكون ضَرًّا ولا نفعًا (**بنظرِ اللهِ إليكَ**) لأنَّهُ المالكُ لهم ولكَ. يعني: لا تنظُرْ لنظَرِ الخلقِ إليك، وانظُرْ لنظَرِ اللهِ إليك، فإنَّهُ يراكَ في كُلِّ حالٍ، ويطَّلِعُ على خفيِّ الخفيِّ مِنْ أحوالِك، والخلقُ لا يعلَمون منْكَ إلّا الظَّاهرَ، وإذا نظرَ إليكَ برحمتِهِ لا يضُرُّكَ نظرُهُم بضِدِّها، أو بنِقمةٍ لم ينفَعْكَ نظرُهُم برحمةٍ، فاستَبانَ أنَّ منْ غابَ عنْ نظرِ الخلقِ وإقبالِهِمْ بنظَرِ الحقِّ وإقبالِه، فقدْ صدقَتْ عُبوديَّتُهُ وسعِدَ في أحوالِهِ، ومنْ نظرَ إلى الخلقِ استَعْجلَ العذابَ بالصُّنعِ والتَّزيُّنِ، وكانَ منَ اللهِ في حِجابٍ؛ فلذلِكَ قالَ:

(**وغِبْ عنْ وُجودِ إقبالِهم إليْكَ**) بالإسعافِ والاحترامِ، (**بشُهودِ إقبالِهِ عليْكَ**) بالإفضالِ

---

(١) الإمام الرباني محمد بن واسع بن جابر بن الأخنس الأزدي، أسند عن أنس وغيره، وكان عالما خيرا متواضعا، وكان الحسن يسميه سيد القراء، وكان يصوم الدهر ويخفي ذلك، توفي سنة ١٢٣. حلية الأولياء (٢/٣٤٥)، وتاريخ دمشق (٥٦/١٣٨)، وسير أعلام النبلاء (٦/١١٩).

(٢) الإمام أبو الحسين أحمد بن أبي الحواري، وأبو الحواري اسمه ميمون، صحب أبا سليمان الداراني وسمع من سفيان بن عيينة وغيره، تكلم في علوم المحبة والمعاملات، وكان الجنيد يقول فيه: إنه ريحانة أهل الشام، توفي سنة ٢٣٠، كما قال السلمي والقشيري، وصحح ابن عساكر أنه توفي سنة ٢٤٦. طبقات السلمي (ص٩١)، والرسالة القشيرية (١/٦٨)، وتاريخ دمشق (٧١/٢٤٥)، وسير أعلام النبلاء (١٢/٨٥).

والإنعامِ، يعني: انظُرْ لإقبالِهِ عليْكَ بنسيانِ إقبالِ الخلْقِ، حتَّى لا تُبالي بهم إقبالًا ولا إدبارًا، اكتفاءً به، فإنَّ ما منَ الخلْقِ إليكَ أمرٌ وهميٌّ ينقادُ إليه كُلُّ ذي عقلٍ قاصرٍ، فيوجبُ لكَ أنواعًا منَ القَبائحِ مَنْ تحسينِ مواقعِ نظرِ الخلقِ منْهُ، كتصنُّعٍ وحشمةٍ وعِشرةٍ بدِهانٍ[1]، وتَخالُفِ الإسرارِ والإعلانِ، معَ أنَّ مَنْ راعى نظرَهُم لا يسلمُ منهُمْ على أيِّ حالٍ، فرِضاهُمْ غايةٌ لا تُدرَكُ، وأحمقُ النّاسِ منْ طلبَ ما لا يُدرَكُ، كما أشارَ لقمانُ بما فعلَهُ: حيثُ دخلَ السّوقَ على حِمارٍ وابنُهُ يسوقُهُ، فقالَ النّاسُ: لم يُشفِقْ على صبِيٍّ، فأركبَهُ خلفَهُ، فقالوا: اثنانِ على حِمارٍ! فنَزلا وساقاهُ، فقالوا: حِمارٌ فارِغٌ، فأركبَ الولدَ وحدَهُ، فقالوا: قِلّةُ أدبٍ!!

فالعاقِلُ لا ينظُرُ إلّا إلى اللهِ، ولا يكترِثُ بذَمِّ ذامٍّ ولا عيْبِ عائبٍ، ويقولُ بلِسانِ حالِهِ، كما قالَ [ابنُ] أسلَمَ[2] بلسانِ قالِهِ: مالي ولهذا الخلقِ؟! كُنْتُ في صُلبِ أبي وحدي، ثُمَّ في بطنِ أُمّي وحدي، ثُمَّ دخلْتُ الدُّنيا وحدي، ثُمَّ تُقبَضُ روحي وحدي، فأدخُلُ قبري وحدي، فإنْ صِرْتُ إلي خيرٍ أو شرٍّ فوحدي، فمالي وللنّاسِ؟![3]

فائدةٌ: قالَ بعضُهم: وجدْتُ قسوةً بقلبي، فقيلَ لي في النَّوْمِ: "إنْ أردْتَ حياةَ قلبِكَ، حياةً لا موْتَ بعدَها، فاخرُجْ عنِ الرُّكونِ إلى الخلْقِ، ومُتْ عنْ إرادَتِك؛ يُحييكَ اللهُ حياةً لا موْتَ بعدَها، ويرفَعُ قدرَكَ في قُلوبِ عِبادِهِ".

***

(١) داهن مُداهَنة، ودهاناً: أَظهرَ خلافَ ما أَضمر. وداهن فلاناً: خدعه وغشَّه. [المعجم الوسيط]

(٢) الإمام الحافظ الرباني أبو الحسن محمد بن أسلم بن سالم بن يزيد، الكندي الطوسي، قال ابن خزيمة: هو رباني هذه الأمة لم تر عيناي مثله، توفي سنة ٢٤٢. حلية الأولياء (٩/٢٣٨)، وسير أعلام النبلاء (١٢/١٩٥)، طبقات الحفاظ للسيوطي (ص٢٣٨).

(٣) هكذا باختصار في المخطوطة، وتمام النص كما في حلية الأولياء: "كنت في صلب أبي وحدي، ثم صرت في بطن أمي وحدي، ثم دخلت الدنيا وحدي، ثم تقبض روحي وحدي، وأدخل في قبري وحدي، ويأتيني منكر ونكير فيسألاني في قبري وحدي، فإن صرت إلى خير صرت وحدي، وإن صرت إلى شر كنت وحدي، ثم أوقف بين يدي الله وحدي، ثم يوضع عملي وذنوبي في الميزان وحدي، وإن بعثت إلى الجنة بعثت وحدي، وإن بعثت إلى النار بعثت وحدي، فما لي وللناس".

١٦٤. مَنْ عرفَ الحقَّ شهِدَه في كُلِّ شيءٍ، ومَنْ فنيَ بهِ غابَ عنْ كُلِّ شيءٍ، ومَنْ أحبَّهُ لم يؤثِرْ عليهِ شيئًا.

(**مَنْ عرفَ الحقَّ شهِدَه في كُلِّ شيءٍ**) فاعِلًا ومُدبِّرًا، فلم يأنَسْ ولم يتوحَّشْ بشيءٍ، فكانَ كُلُّ شيءٍ عِندَهُ ولهُ وبهِ، فهو لا ينظُرُ إلى سِواهُ، إذ مُحالٌ أنْ يراهُ ويشهدُ معَهُ سِواهُ.

(**ومَنْ فنيَ بهِ غابَ عنْ كُلِّ شيءٍ**) فلم يَرَ موجودًا سِواهُ ولا موجِدًا إلّا إيّاهُ، فإذا أفناكَ عنْكَ أبقاكَ بهِ؛ فالفناءُ دهليزُ البَقاءِ، فمنْ صدقَ فناؤهُ صدقَ بقاؤهُ، ومَنْ في اللهِ تلَفُهُ فعليهِ خلَفُهُ، ومَنْ دُكَّتْ جبالُ وجودِه، استمعَ داعي شُهودِه، والفناءُ شُهودُ حقٍّ بلا خلقٍ؛ لاندراجِ حُكمِ الفِعلِ في الصِّفةِ مِنْ حيثُ هوَ أثرُها، وبهِ لا يبقَى خبرٌ عنِ الفعلِ مِنْ حيثُ هو، والصِّفةُ مُضافةٌ لموصوفِها، فليسَ إلّا هو وحدَهُ، وذلِكَ عينُ الغيبةِ عنْ كُلِّ شيءٍ بهِ، فحُبُّهُ العبْدَ ضرورةٌ.

تنْبيهٌ: قالَ ابنُ عربي: "ما الشَّرفُ إلّا في العِلمِ باللهِ، أمّا العِلمُ بسِواهُ فعُلالةٌ يتعلَّلُ بها الإنسانُ المحجوبُ".

(**ومَنْ أحبَّهُ لم يؤثِرْ عليهِ شيئًا**) مِنْ إرادتِهِ وشهَواتِه، فضلًا عنْ غيرِهما مِنَ الخلقِ؛ لأنَّ حقيقةَ المحبّةِ أخذُ جمالِ المحبوبِ محبّةَ القلبِ، حتّى لا يدعَهُ لغيرِه في حالٍ مِنَ الأحوالِ، قال الجوزَجانيُّ[1]: "ثلاثةُ أشياءَ مِنْ عَقْدِ التَّوحيدِ: الخوفُ والرَّجاءُ والمحبّةُ، فزيادةُ الخوفِ مِنْ تركِ الذُّنوبِ لرؤيةِ الوَعيدِ، وزيادةُ الرَّجاءِ مِنِ اكتِسابِ الخيرِ لرؤيةِ الوعْدِ، وزيادةُ المحبّةِ مِنْ كثرةِ الذِّكرِ لشُهودِ المِنّةِ؛ فالخائفُ لا يستَريحُ مِنَ الهرَبِ، والرّاجي لا يستَريحُ مِنَ الطَّلبِ، والمُحِبُّ لا يستَريحُ مِنْ ذِكرِ المحْبوبِ؛ فالخوفُ نارٌ مُنوِّرٌ، والرَّجاءُ نورٌ مُنوِّرٌ، والمحبّةُ نورُ الأنْوارِ".

(١) الإمام أبو علي الحسن بن علي الجوزجاني، من كبار مشايخ خراسان، له التصانيف المشهورة، تكلم في علوم الآفات والرياضات والمجاهدات. طبقات السلمي (ص١٩٦)، طبقات الأولياء لابن الملقن (ص٣٣٣).

وهذهِ المقاماتُ الثَّلاثةُ التي ذكرَها المؤلِّفُ عُمدةُ أبوابِ الوِلايةِ، فالمعنى: الوليُّ العارِفُ باللهِ، والفاني فيهِ، والمُحِبُّ لهُ، فمَنْ لم يجِدْ ذلكَ مِنْ نفسِهِ فلا يدَّعيها، وليعمَلْ على مُجاهدةِ نفسِهِ بما يُكمِّلُها.

ثُمَّ مِنْ لازِمِ المحبّةِ الشّوقُ إلى الوُصولِ وهو قريبٌ، وليسَ إلّا حِجابُ الغِرّةِ[1] بوُجودِ القُربِ، كما قالَ:

***

١٦٥. إنَّما حجبَ الحقَّ عنكَ شِدّةُ قُربِهِ مِنْكَ، وما استترَ لشِدّةِ ظُهورِهِ خفِيَ عنْ الأبصارِ لظُهورِ نورِهِ.

(**إنَّما حجبَ الحقَّ عنكَ شِدّةُ قُربِهِ مِنْكَ**) لإيجابِهِ لاضمِحلالِكَ وذَهابِكَ، والمُضمَحِلُّ لا نِسبةَ بينَه وبينَ الثّابتِ الموجودِ، فكيفَ يُرامُ؟!، فعظيمُ القُربِ هو الذي غيَّبَ عنكَ شُهودَ القُربِ، فقُربُهُ غيَّبَ قُرْبَه، وهذا شأنُ حضرتِهِ معَ الجمعِ مِنَ المُتضادّاتِ. وقالَ بعضُهُمْ: "المُرادُ: القُربُ بالتَّصرُّفِ كما يليقُ بجَلالِهِ وكمالِهِ، وحجبُ الخلقِ إنَّما هو بوُجودِهِم أو موجودِهِم، ثُمَّ كُلَّما اتَّسعَ موجودُهم، واتَّسعَتْ مظاهِرُ التَّصرُّفِ اشتدَّ احتِجابُهُم باشتِغالِهِم، وذلكَ عينُ مظهرِ قُرْبِ الإحاطةِ، فشِدّةُ القُربِ هي الحِجابُ عنِ القُربِ والمُقرَّبِ، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢].

(**وما استترَ لشِدّةِ ظُهورِهِ**) إذ ليسَ حِجابٌ عنهُ إلّا المظاهِرُ الشّاغِلةُ كما تقرَّرَ، وإنَّما (**خفِيَ عنْ الأبصارِ لظُهورِ نورِهِ**) وضعفِ الأبصارِ عنْ مُقاوَمتِهِ، والحِجابُ إنَّما هو للخلقِ، إذ الظّاهِرُ بذاتِهِ لا يُحجَبُ، ألا ترى الشَّمسَ قوّةَ نورِها تحجُبُ البصرَ الضَّعيفَ عنْ إدراكِ كُنْهِها، فشِدّةُ الظُّهورِ هو مانِعُ الرُّؤيةِ، والخُفّاشُ كُلَّما زادَ نورُ الشَّمسِ زادَ عماهُ.

---

(١) الغِرَّة: الغفلة. والغارُّ: الغافل. واغْتَرَّ بالشيء: خُدع به. [الصحاح في اللغة]

١٦٨. جلَّ حُكْمُ الأزلِ أنْ يُضافَ إلى العِلَلِ.

(**جلَّ حُكْمُ الأزلِ أنْ يُضافَ إلى العِلَلِ**)، لأنَّ العِلَلَ مُحدثةٌ مسبوقةٌ، وحُكْمُ الأزلِ قديمٌ سابقٌ، قالَ السَّراجُ[1]: سألتُ بعضَهم عنِ الدُّعاءِ، ما وجهُهُ لأهلِ التَّسليمِ والتَّفويضِ؟ قالَ: تدعوهُ على وجهيْنِ، أحدُهُما: تزيينُ الظَّاهِرِ بِهِ لأنَّهُ نوعُ خِدمةٍ، الثَّاني: الائتِمارُ بما أمرَ اللهُ بِهِ.

***

١٦٩. عِنايَتُهُ بكَ لا لشيءٍ مِنكَ، وأيْنَ كُنتَ حينَ واجهَتْكَ عنايتُهُ وقابلتْكَ رِعايتُهُ؟! لم يكُنْ في أزلِه إخلاصُ أعمالٍ ولا وُجودُ أحوالٍ، بلْ لم يكُنْ هُناكَ إلّا محضُ الإفضالِ وعظيمُ النَّوالِ.

(**عِنايَتُهُ بكَ**) أي اعتناؤهُ بشأنِكَ حيثُ أوجدَكَ مِنَ العدَمِ، وأمدَّكَ بالنِّعمِ، وأيَّدَكَ بالكرَمِ، وعرَّفَكَ بوحْدانيَّتِهِ واتِّصافِهِ بالبقاءِ والقِدمِ، (**لا لشيءٍ مِنكَ**) أي لا باستِحقاقٍ ولا وسيلةٍ سبقَتْ، إذ كُنتَ عدمًا محضًا ونفيًا صرفًا.

(**وأيْنَ كُنتَ حينَ واجهَتْكَ عنايتُهُ، وقابلتْكَ رِعايتُهُ؟!**) لم تكُنْ شيئًا مذكورًا، فقابلتْكَ عِنايتُهُ بإيجادِكَ وإيجادِ ما تحتاجُهُ، وواجهتْكَ رِعايتُهُ حتَّى حفظَهُ عليكَ وحفظَ وُجودَكَ، فإنْ قُلتَ بالعمَلِ فلا جِسمَ حتَّى تعمَلَ، أو بالحالِ فلا قلبَ حتَّى ينشأَ عنْهُ الحالُ، فأنتَ فقيرٌ وهو غنيٌّ، فلم يبقَ إلّا فضلُهُ وكرمُهُ، كما قالَ:

(**لم يكُنْ في أزلِه إخلاصُ أعمالٍ ولا وُجودُ أحوالٍ**) يعني: الثَّوابُ يتعلَّقُ بالعملِ، والأحوالُ بالكَراماتِ، وهُما الوسائلُ عِندَ الطَّلبِ، ولم يكونا في محلِّ القِسمةِ الأزليَّةِ، فليسا عِلةً

(١) أبو نصر السرّاج عبد الله بن علي الطوسي، صاحب كتاب "اللمع" في التصوف.

في شيءٍ (**بلْ**) عِلةُ كُلِّ شيءٍ جودُهُ بلا عِلّةٍ، وحينئذٍ (**لم يكُنْ هُناكَ إلّا محضُ الإفضالِ**) وهو العطاءُ بلا عِلّةٍ (**وعظيمُ النّوالِ**) وهو الجودُ بلا سبَبٍ، أينَ كانَ العبدُ حينَ توجُّهِ العنايةِ إلى إبرازِهِ مِنَ العدَمِ، ثُمَّ مقابَلتِهِ بعدَ ظُهورِهِ بجلائِلِ النِّعمِ؟! ليسَ ثَمَّ عملٌ مِنَ الأعمالِ، إنَّما هُوَ محضُ الجودِ والإفضالِ، فهي الرَّحمةُ الذّاتيّةُ، والصِّفاتُ الاختِصاصيّةُ، لا تُقيَّدُ بسببٍ، ولا تُنالُ بتعَبٍ ولا نصَبٍ.

قالَ الواسطيُّ: "هو سبحانَهُ لا يقرِّبُ فقيراً لفقرِهِ، ولا يُبعِدُ غنيًّا لغناهُ، وليسَ للأغراضِ خطرٌ حتَّى يصِلَ بها ويقطعَ، ولو بَذَلْتَ لهُ الدُّنيا والآخرةَ ما وصَلَكَ إليهِ بهما، ولو أخذتَهُما بأسرِهِما ما قطعَكَ، قرَّبَ منْ قرَّبَ بغيرِ عِلّةٍ، وأَبْعَدَ منْ أَبْعَدَ بغيرِ عِلّةٍ".

وقالَ ابنُ اللَّبّانِ: "إلهي جلَّتْ عظمتُكَ عنْ أنْ يعصيَكَ عاصٍ وينساكَ ناسٍ، لكنْ نفخْتَ روحًا مِنْ أمرِكَ في أسرارِ الكائناتِ، فأطاعَكَ العاصي بعصيانِهِ وذكرَكَ النّاسي بنسيانِهِ؛ إنْ عصَى العاصي داعيَ إيمانِك فقد أطاعَ داعيَ سُلطانِكَ، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وقالَ بعضُهم: "ظواهِرُ الأعمالِ، حَسنُها وقبيحُها، ودائعُ الحقِّ في الجوارِحِ، فكلاهُما علامةٌ، والعلامةُ لا توجبُ شيئًا ولا تَنفيهِ، لكِنْ تدُلُّ على وُجودِهِ ونفيِهِ"، (اعمَلوا فكُلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلِقَ لهُ)[1]، وليسَ العِلمُ بدليلٍ على العمَلِ، وإلّا لما ضلَّ إبليسُ وبلعامُ[2]، كما أنَّ العملَ لا يدُلُّ على الحقيقةِ بذاتِهِ وإلّا لما ضلَّ برصيصا[3] وغيرُهُ.

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٤٩٤٩)، ومسلمٌ (٢٦٤٧)، وغيرهما من حديث علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا
(٢) في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، أورد السيوطي في الدر المنثور عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعم، تعلم اسم الله الأكبر، فلما نزل بهم موسى أتاه بنو عمه وقومه فقالوا: ادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه. قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه مضت دنياي وآخرتي، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، فسلخ مما كان فيه.
(٣) في تفسير قوله تعالى ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦-١٧]=

وقالَ بعضُهم: "العبدُ أسيرٌ بينَ حُكمِ الإرادةِ المُجرَّدةِ عن امتثالِ الأمرِ وبينَ الأمرِ التّابعِ للإرادةِ، فإذا أرادَ للعبدِ امتثالَ الأمرِ امتَثلَهُ لا محالةَ ويُسمَّى مُطيعًا للإرادةِ ظاهرًا باطنًا، أو عدمَهُ لم يُمكِنْهُ، ويُسمَّى عاصيًا للأمرِ مُطيعًا للإرادةِ، فما ثمَّ إلّا مُطيعٌ"؛ لأنَّ منْ لم يُطِعِ الأمرَ أطاعَ الإرادةَ، لكنْ لم يجعلِ اللهُ السَّعادةَ إلّا في الامتثالِ، ومنعَ مِنَ الاحتجاجِ بالإرادةِ.

حُكيَ أنَّ إبليسَ -لعنَهُ اللهُ- قالَ: يا ربِّ كيفَ تأمُرُني بالسُّجودِ ولم تُرِدْهُ منّي، ولو أردتَهُ لم أُخالِفْ؟، قالَ: متى علِمْتَ أنّي لم أُرِدْهُ منكَ، قبْلَ الإباءِ أم بعدَهُ؟، قالَ: بعدَهُ، قالَ: به أخذتُكَ"، وأنشدوا:

وذا مِنْ أعجبِ الأشياءِ عِنْدي * فيأمُرُني ويفعلُ ما يُريدُ
يقولُ ليَ استَقِمْ ويُريدُ منّي * مُخالَفةً تؤكِّدُها الشُّهودُ
فيا قوم اسمَعوا ما قُلتُ فيمَنْ * هو المولى ونحنُ لهُ عبيدُ
يُريدُ الأمرَ لا المأمورَ فانظُرْ * إلى حُكمٍ يشيبُ لهُ الوَليدُ

***

١٧٠. علِمَ أنَّ العبادَ يتشوَّقون إلى ظُهورِ سرِّ العِنايةِ فقالَ: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٧٤]، **وعلِمَ أنَّهُ لو خلّاهُمْ وذلكَ لتركوا العمَلَ اعتِمادًا على الأزَلِ فقالَ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾** [الأعراف: ٥٦].

(**علِمَ أنَّ العِبادَ يتشوَّقون إلى ظُهورِ سرِّ العِنايةِ**) باختِصاصِ بعضٍ دون بعضٍ، بوجهٍ دون وجهٍ، وحالٍ دون حالٍ، (**فقالَ: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾**) فقطعَ الأطْماعَ عنِ

=أورد القرطبي أنه راهبٌ تُركت عنده امرأة أصابها لَمَمٌ ليَدْعُوَ لها، فزيّن له الشيطان فوطئها فحملت، ثم قتلها خوفاً أن يفتضح، فدل الشيطان قومها على موضعها، فجاءوا فاستنزلوا الراهب ليقتلوه، فجاء الشيطان فوعده أنه إن سجد له أنجاه منهم، فسجد له فتبرأ منه فأسلمه.

النَّيْلِ بالاكتِسابِ والتَّوصُّلِ بالأسبابِ، فلا حَجْرَ عليهِ في أفعالِه، فالتَّخصيصُ بحُكْمٍ منْهُ لا بعِلَلٍ، وإنْ كانَ لحِكمةٍ، فهو الموجِبُ لها فلا عِلَّةَ لصُنعِه، **(وعلِمَ أنَّهُ لو خلّاهُمْ وذلكً لتركوا العمَلَ، اعتمادًا على الأزَلِ)** ووُقوفًا معَ النَّفسِ في حُبِّها البطالةَ، وذلكَ لا يصلُحُ لهم مِنْ حيثُ الحِكمةُ، وإنْ صحَّ مِنْ طريقِ الحُكْمِ؛ لأنَّ أفعالَ العِبادِ مظاهِرٌ لمُقتَضياتِ الأسماءِ وآثارِ الصِّفاتِ، **(فقالَ: ﴿إنَّ رَحْمةَ اللهِ)** أي وُجودَها **(قَريبٌ مِنَ المُحْسِنينَ﴾)**.

علِمَ تشوُّفَ عبْدِهِ إلى العِنايةِ، فثبَّتهُ بهذهِ الآيةِ، ثُمَّ حثَّهُ على الأعمالِ بأنَّ رحمتَهُ للمُحسِنِ ليسْعَى في الكمالِ؛ لئلّا يترُكَ العمَلَ اعتمادًا على ما في الأزلِ، فجعلَ الرَّحمةَ بِساطَ الإحسانِ، فمتى وُجِدَ علِمَ أنَّها الموجِبةُ لهُ، فالأعمالُ علاماتٌ لا أسبابٌ في تحصيلِ الخيراتِ، فليسَ قاعدةُ التَّحقيقِ إلّا سابِقةُ التَّوفيقِ.

وممّا تقرَّرَ في تضاعيفِ تقريرِ هذه الحِكْمةِ وما قبلَها، جعلوا مِنَ القَواعِدِ أنَّ طلبَ الشَّيءِ مِنْ وجهِهِ، وقصدَهُ مِنْ مظانِّه أقربُ لتحصيلِهِ، وأنَّ دقائقَ عِلم الصّوفيّةِ مِنَحٌ إلهيّةٌ ومواهِبُ اختِصاصيّةٌ، لا تُنالُ بمُعتادِ الطَّلبِ، لكِنْ علينا مُراعاةُ ذلكَ بالعَمَلِ بما عُلِمَ على قدرِ الاستِطاعةِ، واللَّجأ إلى اللهِ في الفتحِ على قدرِ الهِمّةِ، وإطلاقِ النَّظرِ في المعاني حالَ الرُّجوعِ لأهلِ السُّنّةِ؛ لينتَفيَ الخطأُ ويتيسَّرَ الفتحُ، وفي حديثٍ: (مَنْ عمِلَ بما علِمَ أورثَهُ اللهُ عِلمَ ما لم يعلَمْ)[1].

***

١٧١. إلى المشيئةِ يستندُ كُلُّ شيءٍ، وليسَتْ تستَنِدُ هي إلى شيءٍ.

(إلى المشيئةِ) المُخصِّصة لأحدِ المقدورينَ، النّاشئةِ عنِ القُدرةِ المؤثِّرةِ، النّاشئةِ عنِ العلمِ، **(يستندُ كُلُّ شيءٍ)** مِنْ أمرٍ ونهيٍ وحُكْمٍ وسببٍ وعادةٍ وغيرِها، فلا يصدُرُ شيءٌ منها إلّا بها،

(١) تقدم تخريجه، انظر ص٤٢

وعلى ظُهورِ أثرِها تترتَّبُ الأحكامُ، ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

(**وليسَتْ تستَنِدُ هي إلى شيءٍ**) لاستِحالةِ وُقوعِ النَّقصِ فيما يجبُ لهُ الكمالُ، **أسندَ** الأشياءَ إلى مشيئتِه ثُمَّ أبرزَها إلى الوُجودِ بحِكمَتِه، جلَّتْ مشيئتُهُ أنْ تسْتنِدَ لمعنًى مِنَ **المعاني**، كيفَ يسْتَنِدُ الكامِلُ الباقي إلى النَّاقِصِ الفاني؛ ولهذا قالَ بعضُهم: "أسماءُ الحقِّ تعالى **لا يصِحُّ** كونُها **مُشتَقَّةً** مِنْ شيءٍ، لسبْقِ المُشتَقِّ مِنْهُ على المُشتَقِّ، وليسَ بشيءٍ سابِقٍ لهُ تعالى، **وإنَّما يُقالُ** في اسمِهِ الرَّحمنِ مثلًا: فيهِ معنًى مِن الرَّحْمةِ".

تنْبيهٌ: ذكرَ ابنُ عربي أنَّ بعضَ صحبِهِ أخبرَهُ أنَّهُ رأى واليَ البلَدِ يضرِبُ رجُلًا ضربًا **مُبرِّحًا**، فوقفَ في النَّاسِ وهو يمقُتُ الوالي في نفسِهِ، فأُخِذَ عنْ نفسِه، فشاهَدَ الواليَ مِثلَهُ **واحدًا مِنَ** الحاضِرينَ ينظُرُ إلى المضروبِ، والآمرَ بالضَّربِ غيرُهُ، فعذَرَهُ؛ فهذا رجلٌ محجوبٌ **كُشِفَ عنْ** بصَرِهِ الغِطاءُ فزالَ عنهُ كونُ ذلِكَ جورًا عِندَهُ، وأقامَ عُذْرَ الجائِرِ.

***

١٧٢. رُبَّما دلَّهم الأدَبُ على تركِ الطَّلبِ، اعتِمادًا على قِسمَتِهِ، واشتِغالًا بذِكرِهِ عنْ مسألتِهِ.

(**رُبَّما دلَّهم الأدَبُ على تركِ الطَّلبِ، اعتِمادًا على قِسمَتِهِ، واشتِغالًا بذِكرِهِ عنْ مسألتِه**)، للحديثِ القُدُسيِّ: (مَنْ شغلَهُ ذِكري عنْ مسألتي أعطَيتُهُ أفضلَ ما أُعطِي السَّائلينَ)[1]، كما دلَّهم في بعضِها على الطَّلبِ، إذِ الدُّعاءُ عِبادةٌ، واختِلافُ الأحوالِ **باختِلافِ الأوقاتِ**، فإذا وجدَ بقلبِهِ إشارةً إلى الدُّعاءِ أو السُّكوتِ عمِلَ بهِ، وهذا توسُّطٌ بينَ **المذاهِبِ المُتبايِنةِ**؛ ولهذا قالَ بعضُهم: "الأدبُ لمنِ استَغرقَ معَ اللهِ بالحُضورِ تركُ السُّؤالِ، لغيبَتِهِ إلّا عنِ المذكورِ".

(١) أخرجه الترمذيُّ وحسنه (٢٩٢٦) وغيره، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

وللقومِ في هذا مذاهِبُ يقِفُ عليها السّالِكُ الطّالِبُ: فمِنهُم منْ رآهُ عِبادةً فاتَّخذَهُ ديْدنًا وعادةً، ومنهُم منْ رأى عُلوَّ الهِمّةِ في السُّكوتِ والرِّضَى بالقِسمةِ، ومِنهُمْ من دعا بلِسانِهِ وفوَّضَ بجنانِه؛ والحقُّ أنَّ الدُّعاءَ قد يكونُ مِنَ الأدَبِ، وأنَّ السُّكوتَ رُبَّما يكونُ مِنْ أعلَى الرُّتبِ، ولذلِكَ علامةٌ يعرِفُها أهلُ الاستِقامةِ، متى وجدْتَ بقلبِكَ إشارةَ الدُّعاءِ فهو أولَى، وإشارةَ السُّكوتِ فهو أعلى؛ ووُجودُ البسْطِ والسُّرورِ علامةُ الدُّعاءِ وأنَّهُ مشكورٌ، فإنْ وجدْتَ قبضًا وأنْتَ مبهوتٌ، فالأولَى بِكَ السُّكوتُ.

***

١٧٣ . إنَّما يُذَكَّرُ منْ يجوزُ عليهِ الإغفالُ، وإنَّما يُنبَّهُ منْ تمكَّنَ مِنهُ الإهمالُ.

(**إنَّما يُذَكَّرُ منْ يجوزُ عليهِ الإغفالُ، وإنَّما يُنبَّهُ منْ تمكَّنَ مِنهُ الإهمالُ**)، وكِلاهُما عليه تعالى مُحالٌ، وهذا كالدَّليلِ لما قبلَهُ مِنَ الكَلامِ، كما لا يخفى على ذوي الأفهامِ، قالَ شارِحٌ: "وهذا يُفهِمُ تركَ الطَّلبِ مُطلَقًا، فلعلَّهُ مذهَبُ الشَّيخِ"، وأُيِّدَ بأنَّهُ ليسَ للدُّعاءِ محَلٌّ إلّا التَّحقُّقُ بالافتِقارِ، وكما لا يصِحُّ كونُ الطَّلبِ سببًا، لا يصِحُّ كونُهُ تذكيرًا ولا تنبيهًا، جلَّ حُكمُ الأزلِ أنْ يُضافَ إلى العِلَلِ، ولهذا اختارَ مَن قويَ عليه التَّوحيدُ التَّعريضَ على التَّصريحِ، والسُّكوتَ في محلِّ الدُّعاءِ اكتفاءً بِعلمِ الرُّبوبيّةِ. فيا رافِعَ اليدِّ بالدُّعاءِ، ويا داعيَ الحقِّ بالنِّداءِ، إنَّهُ لا يسمَعُ بالصِّماخِ[1]، فأقصِرْ عنِ الصُّراخِ، أتُنادي باعِدًا أمْ توقِظُ راقِدًا، تعالى اللهُ لا تأخُذُهُ السِّنةُ ولا تُغلِطُهُ الألسِنة، يعلمُ رُموزَ الخُرْسِ، كما يعلمُ لُغةَ التُّرْكِ والفُرْسِ، يسمعُ دبيبَ النَّملةِ الخرْساءِ على الصَّخرةِ الملساءِ في لجُةِ المساءِ، كما يسمعُ بُغامَ الظَّبيةِ الجيْداءِ[2] على صخرِ البَيْداءِ.

---

(١) الصِّمَاخُ: قناة الأذن التي تفضي إلى طبلته [المعجم الوسيط]، والسماخ لغة فيه، ويقال إن الصماخ هو الأذن نفسها [لسان العرب].

(٢) طويلة العنق. الجيَد بالتحريك: طول العُنُق وحُسْنُه؛ رجلٌ أَجْيَدُ، وامرأة جَيْداءُ. [الصحاح في اللغة]

ألا إنَّ رفعَ اليدِ بالدُّعاءِ سُمْعةٌ، ورفعَ الصَّوتِ بالشِّكايةِ شُنْعةٌ، فما هذه الشَّهقةُ والنِّدا، **وما** هذهِ الصَّيحةُ على المدى؟ أمِنَ الضَّربِ تتألَّمُ أمْ مِنَ الرَّبِّ تتظلَّمُ؟ أم معَ نُظرائكَ تتكلَّمُ؟ أتحسبُهُ قسّامًا نسَى قسمَكَ؟ أمْ رزّاقًا جهِلَ اسمَكَ؟ معاشرَ الضَّعَفةِ! تظنّون أنْ لا تأكُلوا أقواتَكُمْ **دون** أنْ ترفَعوا أصواتَكُمْ، ﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٤]، قد ﴿ظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

تنْبيهٌ: أخذَ بعضُ الصّوفيّةِ مِنْ هذهِ الحِكمةِ قاعِدةً سنيّةً، فقالَ(١): النَّظرُ لسابِقِ القِسمةِ وواجِبِ الحِكمةِ هو القاضي بأنَّ الدُّعاءَ عُبوديّةٌ اقترنَتْ بسبَبٍ، كاقترانِ الصَّلاةِ بوقتِها، **فكذا** الذِّكْرُ المُرتَّبُ لفائدةٍ ونحوِها؛ لأنَّكَ إنْ قُلتَ تذكيرٌ فإنَّما يُذكَّرُ مَنْ يجوزُ عليهِ الإغفالُ، أو تنبيهٌ فإنَّما يُنبَّهُ مَنْ يُتَصوَّرُ منهُ الإهمالُ، أو تسبُّبٌ فجلَّ حُكمُ الأزَلِ أنْ ينْضافَ إلى العِلَلِ، وقد جاءَ الأمرُ بهِ وترتَّبتِ الإجابةُ عليهِ، فلزِمَ أنْ يُراعَى مِنْ حيثُ الحِكمةُ، ولذلكَ صحَّ بمفروغٍ منهُ، كـ ﴿آتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وإذا أردْتَ الدُّعاءَ فليكُنْ بقصدِ إظهارِ الفاقةِ، فإنَّها محلُّ الفائدةِ كما يُستَفادُ مِنْ قولِهِ:

١٧٤. وُرودُ الفاقاتِ أعيادُ المُريدينَ.

(**وُرودُ الفاقاتِ**) والبَلايا (**أعيادُ المُريدينَ**) لكوْنِها تجمَعُهُمْ على مولاهُمْ، تارةً بالرَّغبةِ وأُخرَى بالرَّهبةِ، وطوراً بالسُّكونِ تحتَ الإجلالِ.

والفاقةُ ذاتيّةٌ للعبْدِ، وإنَّما يرِدُ عليهِ مُذكِّراتُها، فإذا وردَتْ أثارتْ ذِكرَها فحصلَ شُهودُهُ، وخيْرُ الأوقاتِ وقتٌ تشهَدُ فيهِ فاقتَكَ، وهو أعيادُ العُمرِ عِندَ أهلِ اللهِ؛ لأنَّ العيدَ إنَّما سُمّيَ بهِ لعوْدِهِ بالأفراحِ، ولعوْدِ النّاسِ فيهِ على أهلِهِم بالإنفاقْ، ويتكرَّرُ، ويظهَرُ على كُلِّ أحدٍ فيهِ

(١) هو الشيخ زروق في "قواعد التصوف".

حِليةُ غِناهُ وكمالُهُ بالزّينةِ وغيرِها؛ وكذا الفاقةُ زينةُ المُريدِ وفائدتُهُ، يُفطِرُ فيها على تمرِ المُشاهَدةِ مِنْ صوْمِ المُجاهَدةِ، وينحرُ نفسَهُ بسيْفِ التَّبرّي والمُخالَفةِ؛ ولهذا قالَ بعضُهم: "العيدُ وقتُكَ العائدُ بالفرحِ، وزوالِ الغمِّ عنْ قلبِكَ والتَّرحِ"، فعِنْدَ العامّةِ في نيْلِ شهَواتِهِمْ، والخاصّةِ في فاقتِهِم ومرضاتِهِم؛ لأنَّها المُصفّيةُ لهم عنِ الأكدارِ، الموجبةُ لإفاضةِ الأنوارِ والأسرارِ.

***

١٧٥. رُبَّما وَجَدْتَ مِنَ المُريدِ في الفاقاتِ ما لا تَجِدْهُ في الصَّوْمِ والصَّلاةِ.

(**رُبَّما وَجَدْتَ مِنَ المُريدِ في الفاقاتِ**) مِنْ صفاءِ القلبِ، وطَهارةِ السِّرِّ، والمعرفةِ والحَقيقةِ، (**ما لا تَجِدْهُ في الصَّوْمِ والصَّلاةِ**) وإنْ كانا أرفَعَ -أو مِنْ أرفَعِ- العباداتِ، إذ قدْ يكونُ لهُ فيهِما شُهرةٌ وهوًى، فلا تُفيدُهُ تزكيةً، وورودُ الفاقاتِ مُباينٌ لهما بكُلِّ حالٍ، فالعُبوديّةُ فيها أظهرُ والدَّعْوَى أبعدُ، والفاقةُ تردُّ العبدَ لبارئِهِ، وتشغلُهُ عمّا لا يعنيهِ، ومعَ الذُّلِّ يكونُ النَّصرُ والفتحُ، قالَ بعضُ الثِّقاتِ: "أعظمُ الأحوالِ ما ورَّثَتْ صاحِبَها المقاماتِ، وأشهدتْهُ فقرَهُ وعجْزَهُ في كُلِّ الأوقاتِ".

١٧٦. الفاقاتُ بُسُطُ المواهِبِ.

(**الفاقاتُ بُسُطُ المواهِبِ**) الرَّبّانيّةِ والنَّفحاتِ الرَّحْمانيّةِ؛ لأنَّها محلُّ خُروجِ النَّفسِ مِنَ البيْنِ، لكَونِها محلُّ الأخذِ مِنَ الحقِّ والرُّجوعِ إليهِ بلا واسِطةٍ، والبُسُط -بضَمَّتيْنِ- جمعُ بِساطٍ، وهو ما يجري فيهِ الشَّيءُ ويظهرُ عِندَهُ؛ فالمُرادُ بالمواهِبِ أعمُّ مِنَ الفُتوحاتِ العرفانيّةِ.

قالَ الجيلاني: "أتَيْتُ جميعَ أبوابِ الحقِّ فوَجَدْتُها مُزدَحِمةً، حتَّى أتَيْتُ بابَ الذِّلّةِ والافتِقارِ، فوَجدْتُهُ خاليًا، فدَخلْتُهُ؛ فإذا أنا سبَقْتُ وترَكْتُ النّاسَ يزْدَحِمونَ".

فأهْلُ الفاقة أهلُ المواهِبِ، وفيهِمْ قالَ القائلُ[1]:

للهِ تحتَ قِبابِ العزِّ طائِفةٌ * أخفاهُمُ في رِداءِ الفقْرِ إجلالا
هُمُ السَّلاطينُ في إظهارِ مسْكنةٍ * واستَعبدوا مِنْ مُلوكِ الأرضِ أقْيالا
غُبْرٌ ملابِسُهُمْ شُمْرٌ معاطِسُهُمْ * جَرُّوا على قُلَلِ[2] الخضْراءِ أذْيالا
هذي المناقِبُ لا ثوبانِ مِنْ عدَنٍ * خِيطا قَميصًا فعادا بعدُ أسْمالا
هذي المكارِمُ لا قُعْبانِ مِنْ لبَنٍ * شِيبا بماءٍ فعادا بعدُ أبْوالا

***

١٧٧. إنْ أردْتَ وُرودَ المواهِبِ عليْكَ، صحِّحِ الفقْرَ والفاقةَ لديْكَ، ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة: ٦٠].

(**إنْ أردْتَ وُرودَ المواهِبِ عليْكَ، صحِّحِ الفقْرَ والفاقةَ لديْكَ**)، أي أكِّدْهُما في نفسِكَ حتَّى تستَحضِرَهُما في جميعِ الأوقاتِ، ويتحقَّقُ ذلِكَ بتقديرِ عدَمِك، وقد كانَ هذا دأبُ الكُبَراءِ، ومَن ادَّعَى الغِنى، وقعَ في العنا، (**إنَّما الصَّدقاتُ للفُقراءِ**) فمَنْ تحقَّقَ بذلِكَ، استَحقَّ المواهِبَ ورُفِعَ إلى أعلى المراتِبِ، ومنْ صحَّ فقرُهُ استحقَّ الصَّدقةَ، قالَ بعضُهُمْ: "إلهي صحَّ إفلاسُنا مِنْ طاعتِكَ، فمنْ أحقُّ مِنّا بصدَقةِ عفْوِكَ".

واعلمْ أنَّ الفقرَ في ظاهِرِ الطَّريقةِ غيرُ ما هو في باطِنِ الحقيقةِ؛ فالظاهِرُ فقرُ الزُّهّادِ مِنَ الأعراضِ الدُّنْيَوِيّةِ، والباطِنُ فقرُ الأفْرادِ مِنَ الأعراضِ الأُخْرَوِيّةِ، شُغْلًا باللهِ عمّا سِواهُ، لمنْ شهِدَ ذلِكَ وراءَهُ، وقالَ الشّاذلي: "تصحيحُ العُبوديّةِ بلُزومِ الفقْرِ والذُّلِّ للهِ، وضِدُّها وصفُ الرُّبوبيّةِ، فما لكَ ولهُ، فلازِمْ أوصافَكَ وتحقَّقْ بأوصافِهِ".

(١) للشاعر الغشري سعيد بن محمد بن راشد بن بشير الخليلي الخروصي.
(٢) القُلَّةُ: أعلى الجبل. وقُلَّةُ كلِّ شيء: أعْلاهُ. [الصحاح في اللغة]

واتِّصافُ الرَّبِّ -سُبحانَهُ- بوُجوبِ الغِنى المُطلَقِ هو الذي أوجبَ لنا الفقرَ المُحقَّقَ، وبهذا الاتِّصافِ حصلَتِ الألطافُ؛ لأنَّ مِنْ رحمةِ الغَنيِّ أنْ يجودَ على الفقيرِ، ويجُبُرَ المِسكينَ الكَسيرَ، وما أتى بابَ الغَنيِّ الكَريمِ فقيرٌ فخابْ، ولا قصدَ حِماهُ فغُلِقَ دونَهُ البابْ.

على بابِكَ الأعلَى مدَدْتُ يدَ الرَّجا * ومَنْ جاءَ هذا البابَ لا يختَشِي الرَّدَا

***

١٧٨. تحقَّقْ بأوصافِكَ يُمِدُّكَ بأوْصافِهِ، تحقَّقْ بذُلِّكَ يُمِدُّكَ بعِزَّتِهِ، تحقَّقْ بعَجْزِكَ يُمِدُّكَ بقُدرَتِهِ، تحقَّقْ بضعفِكَ يُمِدُّكَ بحوْلِهِ وقوَّتِهِ.

(تحقَّقْ بأوصافِكَ) أي أوصافِ عُبوديَّتِك مِنْ عجْزٍ وفقْرٍ وذُلٍّ، فإذا أردْتَ مثلًا حاجةً قدَّرْتَ الموتَ بينَكَ وبينَها، **(يُمِدُّكَ بأوْصافِهِ)** أي أوصافِ رُبوبيَّتِهِ، وذلكَ عِزُّ الأبدِ، وكُلَّما ازدَدْتَ تحقُّقًا بوصْفِكَ، ازدَدْتَ مددًا مِنْ وصفِهِ.

قالَ شيخُنا الشَّعْراني في "أجوبةِ أسئلةِ الجنِّ": "أجمَعَ مشايخُ الطَّريقِ على أنَّ منْ فيهِ صِفَتيِّ الغِنَى والعزِّ، لا يُمَكَّنُ مِنْ دُخولِ حضْرةِ الصَّلاةِ أبدًا، فتَقرُّبُنا إلى الحقِّ، إنَّما هو بتخلُّقنا بما ليْسَ مِنْ صِفَتِهِ".

فانظُرْ ما أعجَبَ حضْرةَ القُربِ، يُطْرَدُ منها مَنْ تخلَّقَ بصِفاتِ مالِكِها التي لم يأذنْ فيها، قالَ أبو يَزيدَ: "رأيْتُ الباري فقُلْتُ: يا ربِّ ما أقرَبُ ما يُتقرَّبُ بهِ إليكَ؟ قالَ: بما ليْسَ مِنْ صِفَتيِّ: الذِّلّةِ والافتِقارِ".

واللهُ -سُبحانَهُ- ما شرَعَ لنا الطّاعةَ إلّا ليجْمَعَنا بها عليهِ، فإذا افتَخرْنا بها أو أُعجِبْنا بأنفُسِنا ابتَلانا بالمعاصي، ويُلقي في قُلوبِنا النَّدمَ والوَحْشةَ، فنرجعَ إليهِ ذليلينَ خاضعينَ، فمنْ لا يجيءُ بشَرابِ اللَّيمونِ الذي هوَ الطّاعةُ، جاءَ بحطبِهِ، وهو المُخالَفةُ، وذلكَ قولُهُ: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

(**تحقق بذُلِّكَ يُمدُّكَ بعزَّتِه**) فتَكُنْ عزيزًا بِه، (**تحقَّقْ بعَجْزِك يُمدُّكَ بقُدرَتِه**) حتَّى لا يُمكِنَ أحدٌ في الوُجودِ مقاومتَكَ، فإنْ فعلَ هلكَ حالًا، ومَنِ افتقَرَ للهِ وذلَّ لهُ استَغنَى بِه، ومَنِ استَغْنَى عنْهُ افتَقرَ لكُلِّ شيءٍ، ومَنِ افتقَرَ لكُلِّ شيءٍ فقدْ أوحَشَهُ كُلُّ شيءٍ؛ ومِغْناطيسُ فقرِ الذّاتِ، هو الجاذِبُ للعَطايا والهِباتْ، فمَنْ كانَ وصْفُ افتِقارِهِ أكثرَ، كانَ نصيبُهُ مِنَ الغِنَى والعِزِّ أجزَلَ وأوْفَرَ.

تنْبيهٌ: قالَ الشّاذلي: "مَنْ أرادَ عِزَّ الدّاريْنِ فليدْخُلْ في مذهَبِنا يوْمَينِ، قيلَ: كيفَ، قالَ: يُفرِّقُ أصنامَهُ التي هي الأهْوِيَةُ المذمومةُ عن قلبِهِ أوَّلَ يومٍ، ويُرِحْ مِنَ الدُّنيا بدنَهُ ثاني يوْمٍ، ثُمَّ ليكُنْ كيْفَ شاءَ، فإنَّ اللهَ لنْ يدَعْهُ بلا مدَدٍ ولو بلا شيْخٍ"، وقالَ: "عِزُّ المُريدِ بقَدْرِ ترْكِ هواهُ، فتارِكُ نِصْفِ أهْويَتِهِ لهُ نِصفُ العِزِّ، ورُبعِها ربعُهُ، وهكذا، فمَنْ طلَبَ العِزَّ الكامِلَ يترُكُ الكُلَّ".

(**تحقَّقْ بضعفكَ يُمدُّكَ بحوْلِه وقوَّتِه**) حتَّى يكون كُلُّ شيءٍ ضعيفًا في قوَّتِكَ بحيْثُ لا يُعاديكَ أحدٌ إلّا أذلَّهُ اللهُ، ولا يُغالِبُكَ أحدٌ إلّا أعجزَهُ؛ فالتَّحقُّقُ بالأوْصافِ بِساطُ الكَرامةِ عاجِلًا بظُهورِ التَّصرُّفِ والخِدْمةِ، وآجِلًا بثُبوتِ الرَّحمةِ والنِّعمةِ، والتَّحقُّقُ بواحِدٍ منها يستلزِمُ التَّحقُّقَ بجميعِها، وحُصولُ واحِدٍ يُحقِّقُ لكَ كُلَّها.

فائدةٌ: قالَ الشَّيخُ زكريّا: "شرْطُ منْ يكونُ عِزُّهُ باللهِ أنْ يزدادَ بالطّاعةِ ذُلًّا، كما عليْهِ أهلُ الحضْرةِ، كما أنَّ شأنَ منْ يعتزُّ بغيرِهِ أنْ يزدادَ بالطّاعةِ كِبرًا، كما عليْهِ أهلُ الطَّرْدِ عنْ حضْرتِهِ".

ثُمَّ ذلكَ لا يدُلُّ على كَمالِ الاستِقامةِ، وإنْ دلَّ على الاختِصاصِ كما قالَ:

***

١٧٩. رُبَّما رُزِقَ الكَرامةَ منْ لم تكمُلْ لهُ الاستِقامةُ.

(**رُبَّما رُزِقَ الكَرامةَ منْ لم تكمُلْ لهُ الاستِقامةُ**) تقْويةً ليقينِه، ورُبَّما حُرِمَها منْ كمُلَتْ استِقامَتُهُ، زيادةً في تمكينِهِ، وربَّما أُقيمَ بها لهِدايةِ العِبادِ؛ فالكَرامةُ تدُلُّ على اختِصاصِ صاحِبِها لا

على استِقامَتِهِ، فيَتعيَّنُ تعظيمُهُ واحترامُهُ، لا تقديمُهُ واتِّباعُهُ إلّا أنْ يظْهَرَ عليْهِ كمالُ الاستِقامةِ.

تنْبيهٌ: عُلِمَ مِنْ هذا الكَلامِ أنَّ ثُبوتَ المزيّةِ لا يقضي برفْعِ الآثامِ، وإعمالُ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ لا يرفَعُ خُصوصيّةَ المزيّةِ، فمنْ لزِمَهُ حقٌّ أُلزِمَه، أو ثَبَتَ عليهِ حدٌّ أُقيمَ عليهِ، معَ حِفْظِ حُرمَتِهِ الإيمانيّةِ فلا يُهانُ ولا يُمتَهَنُ؛ فالوَلِيُّ وليٌّ وإنْ أتَى حدًّا وأُقيمَ عليْهِ، ما لم يَخرُجْ لحدِّ الإصرارِ والإدْمانِ، وحينَئذٍ ينْتَفي ظاهِرُ الحُكمِ بولايَتِهِ، لكنْ (لا تلعنْهُ؛ فإنَّهُ يُحِبُّ اللهَ ورَسولَهُ)[1]، (لو سرَقَتْ فاطمةُ ...)[2] -أعاذَها اللهُ-، ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢]، فمِنْ ثَمَّ أفتَى الجَريريُّ[3] بضرْبِ الحَلّاجِ -والشبليُّ بِحَبْسِه- معَ تصريحِهِ بتعْظيمِهِ وبراءَتِهِ مِنْ حقيقةِ ما نُسِبَ إليْهِ[4].

وحكَى بعضُ الصّوفيّةِ: "أنَّ فقيراً زارَ أخاهُ، وكانَ الزّائرُ صاحِبَ تصرُّفٍ عظيمٍ، فتركَهُ ليلةً عِنْدَ عيالِهِ، وباتَ خارِجَ الدّارِ، فقبَّلَ جاريَتَهُ فأخبرَتْ سيِّدَها، وقالَتْ: كيْفَ قُلتَ إنَّهُ صالِحٌ؟! فاستدْعاهُ وقالَ لهُ بحضْرتِها: "اشتهَيْتُ المُشْمُشَ الرَّطْبَ"، وبالدّارِ شجَرةُ مُشْمُشٍ لكنْ في غيرِ أوانِهِ، فأشارَ إليها فأثمرَتْ حالًا، ثُمَّ قالَ لهُ: لي حاجةٌ في الجبَلِ الفُلاني وسمّاها، فطارَ إليهِ فأتاه بها للوقْتِ، فتحيَّرتِ الجاريةُ، فقالَ سيِّدُها: يا أمةَ اللهِ، الخَصائصُ الوصْفيّةُ تشوبُها النَّقائصُ الكسْبيّةُ، والعِصمةُ شرْعًا للنُّبوةِ لا للوِلايةِ؛ لأنَّ الأولياءَ دُعاةُ بَواطِنَ وأسرارٍ، والأنْبياءَ دُعاةُ عَلانيّةٍ وإظْهارٍ". ذكرَ ذلكَ عبدُ الغفّارِ القوصي[5] في كِتابِ "التَّوحيدِ".

---

(١) من حديث أخرجه عبد الرزاق في مصنفه عن زيد بن أسلم قال: أتي بابن النعيمان إلى النبي ﷺ فجلده، ثم أتي به فجلده، قال: مراراً أربعًا أو خمسًا، فقال رجلٌ: اللهم العنه، ما أكثر ما يشرب، وما أكثر ما يجلد، فقال النبي ﷺ: (لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله).

(٢) من حديث متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٤٧٥)، ومسلمٌ (١٦٨٨)، وغيرهما من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وفيه: "وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها".

(٣) شيخ الصوفية أحمد بن محمد بن الحسين، أبو محمد الجريري، من كبار أصحاب الجنيد، وصحب أيضا سهل بن عبد الله التستري، وهو من علماء مشايخ القوم، أقعد بعد الجنيد في مجلسه لتمام حاله وصحة علمه، توفي سنة ٣١١. طبقات السلمي (ص٢٠٣)، تاريخ بغداد (١٩٧/٥).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٣٢٨/١٤).

(٥) الشيخ عبد الغفار بن أحمد بن عبد المجيد بن عبد الحميد، الأقصري المولد، القوصي الدار، المعروف=

وذُكِرَ عنِ العارفِ المرسي: أنَّ رجُلًا مِنَ الأوْلياءِ نام عِنْدَهُ، فزنى بجاريتِه تلكَ اللَّيلةَ، ثُمَّ اغتَسلَ وخرَجَ يمشي على الماءِ في بحرِ إسْكَنْدَرِيّة حتَّى غابَ عنِ العُيونِ، فقيلَ لهُ: ما هذا وذاكَ؟ قالَ: "هذا عَطاؤهُ وذاكَ قَضاؤُهُ"، ومِنْ ثَمَّ قيلَ للجَنيدِ: أيَزْني العارِفُ؟ فقالَ: "وكانَ أمرُ اللهِ قدرًا مقدورًا، والحُكمُ للسَّوابِقِ لا للَّواحِقِ".

فائدةٌ: قالَ ابنُ عربي: "شرطُ الشَّيْخِ أنْ يكون عِندَهُ كُلَّ ما يحتاجُهُ المُريدُ في التَّربيةِ والتَّرقّي، لا ظُهورَ كرامةٍ ولا كشْفَ باطِنِ المُريد" انتهى، والكرامةُ: حُسْنُ مُتابَعةِ الأوامِرِ في البَواطِنِ والظَّواهِرِ.

تتمّةٌ: قالَ شيخُنا الشَّعْراني: "مِنَ الأولياءِ مَنْ تكونُ كرامَتُهُ ظاهِرةً، ولا يشعُرُ به أحدٌ، ومنهم مَنْ تتوقَّفُ كرامَتُهُ على استِقامته، فإذا انحرفَ عَنِ الشَّرعِ بطُلَتْ، ومنهم منْ لا تتوقَّفُ على استِقامته حالًا لما سبقَ في عِلمِ اللهِ مِنْ وِلايَتِهِ التي يموتُ عليها، ومَنْ سبَقَتْ لهُ العِنايةُ لم تضرَّهُ الجِنايةُ".

ثُمَّ الاستِقامةُ توبةٌ بلا إصرارٍ، وعمَلٌ بلا فُتورٍ، وإخلاصٌ بلا التِفاتٍ، ويقينٌ بلا تردُّدٍ، وتفويضٌ بلا تدبيرٍ، وتوكُّلٌ بلا وهَنٍ، وهذا مقامٌ عزيزٌ لا يُحكِمُهُ إلّا منْ تصفَّى كالإبريزِ، وقد تنخرِقُ العادةُ لمنْ ليسَ في هذا المقامِ، ولا أحكمَهُ غايةَ الإحكامِ، والاستِقامةُ هي الكرامةُ الحقيقيّةُ، وكُلُّ كرامةٍ لا يصحبُها الرِّضَى عنِ اللهِ ومِنَ اللهِ فاستِدراجٌ وغُرورٌ.

وقد بانَ ممّا تقدَّمَ أنَّ ظُهورَ الكَرامةِ لا يدُلُّ على كَمالِ استِقامةٍ، فلا يغْتَرُّ بها إلّا مخدوعٌ، ولا يُهمِلُ فضلَ اللهِ فيها إلا مغرورٌ، فلزِمَ التَّحقُّقُ والتَّحقيقُ بما بيَّنَهُ بقولِهِ:

***

=بابن نوح، سمع الحديث من الحافظين أبي محمد الدمياطي والمحب الطبري، وصحب الشيخين أبا العباس الملثم وعبد العزيز المنوفي، وكان أمّارًا بالمعروف نهّاءً عن المنكر، له كتاب الوحيد في التوحيد حكى فيه الغرائب والعجائب وأورد فيه الكثير من شعر نفسه، وتجرّد زمانًا، وتفرّد بالمشيخة عيانًا، توفي سنة ٧٠٨. طبقات الشافعية للسبكي (١٠/٨٧)، وطبقات الأولياء لابن الملقن (ص٤٤٨).

١٨٠. مِنْ علامةِ إقامةِ الحقِّ لكَ في شيءٍ، إدامتُهُ إيّاكَ فيهِ معَ حُصولِ النَّتائِجِ.

(**مِنْ علامةِ إقامةِ الحقِّ لكَ في شيءٍ**) مِنْ كَسْبٍ أو تجريدٍ مثلًا، (**إدامتُهُ إيّاكَ فيهِ معَ حُصولِ النَّتائِجِ**) فما لم يدُمْ أُرِحْتَ منهُ، وما لم تحصُلْ نتيجتُهُ لا عِبرةَ بهِ، بلْ قدْ يكونُ ضررُهُ أكثرَ، فلا اعتبارَ بما قُمْتَ فيه بنفسِكَ مِنْ عِلمٍ أو حالٍ.

فائدةٌ مُهمّةٌ: إقامةُ الأسبابِ ملحوظةٌ في الأصلِ لحِكمةِ إقامةِ العالَمِ لاستِقامةِ وُجودِهِ، فلذلكَ ذُمَّ ما خالفَ وُجوهَ حِفْظِ النِّظامِ، ووقعَ مُتعرِّيًا في الوُجودِ عَنِ الأسبابِ وغيرِها، وأكَّدتْهُ الغيْرةُ الإلهيّةُ بلُزومِ نقصِ المقصدِ، كالفقْرِ في الكيمْياءِ[1]، والذُّلِّ في طلبِ السّيمياءِ، وميتةِ السُّوءِ في علمِ النُّجومِ؛ لأنَّ الكُلَّ خُروجٌ عنْ حِكمةِ الأسبابِ، ومُعانَدةٌ لحُكْمِ الحقِّ، ومُقاومةٌ لهُ في طلبِ الأكمَلِ بالموهومِ، ويزيدُ الأخيرُ بالتَّحسيسِ على مملَكةِ اللهِ كما في "التَّنويرِ".

***

١٨١. مَنْ عبَّرَ مِنْ بِساطِ إحسانِهِ أصْمتَتْهُ الإساءةُ، ومَنْ عبَّرَ مِنْ بِساطِ إحسانِ اللهِ إليْهِ لم يصْمُتْ إذا أساءَ.

(**مَنْ عبَّرَ**) بالتَّشْديدِ: مِنَ التَّعبيرِ وهوَ يُلاءِمُ قولَهُ: أصْمتَتْهُ، أو بالتَّخفيفِ: مِنَ العُبورِ والدُّخولِ، أي مَنْ دخلَ طريقَ الحقِّ أو حضْرةَ الحقِّ (**مِنْ بِساطِ إحسانِهِ**) أي مُشاهَدةِ الإحسانِ مِنْ نفسِهِ، بحيْثُ يرى أنَّهُ عاملٌ بطاعتِهِ انبسَطَ لِسانُهُ بالنُّصحِ للخلْقِ، فإنْ حصلَ منهُ مُخالَفةٌ (**أصْمتَتْهُ الإساءةُ**) خجلاً، فلا ينطلِقُ لِسانَهُ بالطَّلَبِ، بلْ يتشوَّشُ بكُلِّ ما يُشعِرُهُ

(١) المقصود من ذلك تلك الممارسات القديمة كمحاولة تركيب ما يسمى بإكسير الحياة، وما شابه!!!

فواتَ الأَرَب، أو المرادُ: مَنْ دخلَ حضرةَ الحقِّ ناظرًا لنفْسِه إذا أرادَ إظْهارَ ما جرى لهُ مِنْ كرامةٍ أو غيرِها، ناداهُ مُنادى الحقيقةِ: "تذكُرُ كرامتَكَ ولا تذكُرُ زلَّتَكَ!"، فيقِفُ ويفِرُّ ممّا بدا لهُ، فيكونُ حالُهُ قبضًا في قبضٍ، وكِتمانًا في كِتمان، وسترًا في سترٍ، وهذا حالُ الزُّهّادِ والعُبّادِ، وأهلِ الطّاعةِ والأوْرادِ ممَّنْ لم يُخَصَّ بالمعرِفةِ، ولا يبرأُ مِنْ نفسِه، بل نظرَ إلى ما منه [إلى][1] اللهِ مِنْ عملٍ صالحٍ أو طالحٍ.

(ومَنْ عبَّرَ مِنْ بساطِ إحسانِ اللهِ إليْه) وغابَ عنْ رؤيةِ إحسانه، عاملًا على ما به **تولّاهُ** مولاهُ، ناظرًا إليه فيما مَنَّ به عليْه وأولاهُ، **(لم يصْمُتْ إذا أساءَ)** بلْ ينطلِقُ لِسانُهُ عِنْدَ الزَّلَلِ كما ينطَلِقُ عِنْدَ العمَلِ، فلا يحتَشِمُ عِنْدَ التَّعبيرِ، ولا يُبالي بما هو فيه مِنْ جليلٍ وحقيرٍ؛ لرؤيةِ نفسِه مُنعَدِمًا مِنَ البيْنِ، ولمُشاهَدتِهِ تصريفَ الحقِّ لهُ كرؤيةِ العيْنِ، وهذه طريقةُ أهلِ المعْرِفةِ، النّاظرينَ إلى ما مِنَ اللهِ إليهِم، وعليه جرَى قولُهُمْ: "مَنْ عرفَ اللهَ انطلَقَ لِسانُهُ"، وعلى الأوَّلِ قولُهُمْ: "مَنْ عرَفَ اللهَ كَلَّ لِسانُهُ" ومِنْ ثَمَّ اختلَفَتْ طُرُقُ النّاسِ إظهارًا وإخفاءً، وقَبولًا وتبرِّيًا، وقرارًا وفرَحًا، وقد تتعاقَبُ على رجُلٍ واحِدٍ.

فائدةٌ: كانَتْ عائشةُ بنْتُ جعفرِ الصّادِقِ[2] تقولُ: "وعِزَّتِكَ وجلالِكَ، لئِنْ أدخَلتَني النّارَ لآخُذَنَّ توحيدي بيدي، وأدورُ بهِ على أهلِ النّارِ وأقولُ: وحَّدْتُهُ فعذَّبَني".

تتمّةٌ: دخلَ النّاسُ على عفيرة العابدةِ[3] يومًا فقالَتْ: ما شأنُكُمْ؟ قالوا: نسألُكِ الدُّعاءَ، فقالَتْ: لو خرِسَ الخاطبون لكُنْتُ أوَّلَ مَنْ خرِسَ وصارَ أبكمًا، لكِنَّ الدُّعاءَ سُنَّةٌ، اسألُ اللهَ أنْ يجعلَ قِراكُمْ مِنْ بيتي دُخولَ الجنّةِ، ويجعلَ ذِكْرَ الموتِ مِنّي ومِنكُمْ على بالٍ، ويحفظَ علينا جميعَ الإيمانِ إلى الموتِ والسَّلامِ.

---

(١) في المخطوطة "من"، ولا يستقيم السياق بها، وبدليل قوله بعده: "الناظرين إلى ما من الله إليهم".

(٢) عائشة النبوية ابنة جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين وأخت موسى الكاظم، كانت من العابدات المجاهدات، توفيت سنة ١٤٥. الطبقات الكبرى للشعراني (١/٥٦).

(٣) عفيرة العابدة كانت طويلة الحزن، كثيرة البكاء، توفيت سنة ١٨٠. المنتظم لابن الجوزي (٩/٥٦)، والبداية والنهاية لابن كثير (١٠/١٩٠)، والطبقات الكبرى للشعراني (١/٥٧).

خاتمةٌ: قالَ بعضُهُمْ: "كُلَّما كثُرَ تكذيبُ النّاسِ للوليِّ، كثُرَتْ كراماتُهُ، فأكثَرُهُمْ كرامةً منْ كثُرَ تكذيبُ النّاسِ لهُ، وأقلُّهُمْ منْ كثُرَ تصديقُهُ؛ لأنَّ الرَّسولَ إنَّما بُعِثَ لإقامةِ الحُجّةِ على أهلِ الضَّلالِ، فكذا أتباعُهُ ومَنْ هداهُ اللهُ، لا يتوقَّفُ في إجابةِ الدّاعي إلى حضرتِهِ على كرامةٍ، وأنشدوا:

بعضُ الرِّجالِ يرى كونَ الكَراماتِ * دليلُ حقٌّ على نيلِ المقاماتِ
وأنَّها عينُ بُشرى قد أتتْكَ بها * رُسْلُ المُهيْمِنِ مِنْ فوقَ السَّمواتِ
وعِنْدَنا فيهِ تفصيلٌ، إذا عَلِمَتْ * بهِ الجَماعةُ لم تفرحْ بآياتِ
كيْفَ السُّرورُ والاستِدراجُ يصحَبُها * في حقِّ قومٍ ذي جهْلٍ وآفاتِ
وما الكَرامةُ إلّا عِصمةٌ وُجِدَتْ * في حقِّ قوْلٍ وأفعالٍ ونيّاتِ
تِلكَ الكَراماتُ لا تبغي بها بدلًا * واحذرْ مِنَ المكْرِ في طيِّ الكَراماتِ

وأنشدوا:

تركُ الكَرامةِ لا يكونُ دليلًا * فأصِخْ لقولي فهو أقْوَمُ قِيلا
إنَّ الكَرامةَ قد يكونُ وُجودُها * حظَّ المُكرَّمِ ثُمَّ ساءَ سبيلا
فاحرِصْ على العِلمِ الذي كُلِّفتَهُ * لا تتَّخذْ غيرَ الإلهِ بديلا
سترُ الكَرامةِ واجِبٌ مُتحقِّقٌ * عِنْدَ الرِّجالِ فلا تكُنْ مخذولا
وظُهورُها في المُرسَلينَ فريضةٌ * وبها تنزَّلَ وحيُهُ تنزيلا

وإيضاحُهُ أنَّ الوَليَّ يدعو إلى اللهِ بشرعٍ ثابتٍ مُقرَّرٍ قبلَهُ، والنَّبيُّ يدعو إلى شرْعٍ غريبٍ، فاحتاجَ للمُعجِزةِ.

واعلمْ أنَّ التَّعبيرَ تارةً يكونُ عنْ حقيقةٍ بلا تحقُّقٍ، وهو حالُ العُلَماءِ وأهلِ البِدايةِ، فهوَ بعيدُ العِلْمِ والفَهْمِ والتَّأثيرِ، وتارةً عنْ تحقُّقٍ وتمكُّنٍ، وهو حالُ العارِفِ؛ فيُفيدُ التَّأثيرَ والأفعالَ، فلذا قالَ:

***

١٨٢. تسبِقُ أنوارُ الحُكَماءِ أقوالَهم، فحيْثُ صارَ التَّنويرُ وصلَ التَّعبير.

(تسبِقُ أنوارُ الحُكَماءِ) أي الأنوارُ المنْسوبةُ إلى العارفِينَ، التي هيَ أنوارُ معرفَتِهم وقوّةِ يقينِهِمْ بأنَّ الأُمورَ كُلَّها بيدِ اللهِ وحْدَهُ، (أقوالَهم) التي يُرشِدون بها العِبادَ، أي تسبِقُ باللَّجأِ والضَّراعةِ إليهِ أنْ يتولَّى لهم أمرَ قُلوبِ عِبادِهِ، بأنْ يجعلَ فيها أهليّةً واستِعدادًا لقَبولِ ما يُعبِّرون بهِ مِنَ الحِكمةِ، فيُجيبُهمُ اللهُ إلى ذلكَ، وقيلَ: المُرادُ أنَّها تسبِقُ إلى قُلوبِهِمْ، وهُمْ ينطِقون بما يناسِبُها، فتصِلُ إلى قلبِ السّامِعِ على ذلِكَ، (فحيْثُ صارَ) أي: فالمحَلُّ الذي وصلَ إليهِ (التَّنويرُ) مِن قلوبِهم (وصلَ) إليهِ (التَّعبيرُ) فمَنْ نُطقُه عنْ نورٍ تامٍّ، أفادَ المُخاطَبَ نورًا تامًّا، أو عنْ ناقِصٍ فناقِصًا، أو عن هوًى فكذلِكَ؛ لأنَّ ما خرجَ مِنَ القلْبِ دخلَ القلبَ، وما قصرَ على اللِّسانِ لم يتْجاوَزِ الآذانَ.

ثُمَّ إذا وصلَ القلبَ وعرفَهُ لم يمنعْهُ مِنَ التَّمكُّنِ إلّا جُحودٌ أو ضلالٌ؛ ولهذا قالَ بعضُهم: "سبقَتْ أنْوارُ العارِفينَ أقوالَهُم، فأثَّرتْ في القُلوبِ فأصلحَتْ أحوالَها"، العارِفُ يُحيي ميتَ القُلوبِ، فهنيئًا لمنْ شمَلَهُ نظرُ الحكيمِ، وسعِدَ بحضْرتِهِ فهو لها خديم.

***

١٨٣. كُلُّ كلامٍ يبرُزُ، وعليهِ كِسْوةُ القلْبِ الذي مِنهُ برزَ.

(كُلُّ كلامٍ يبرُزُ، وعليهِ كِسْوةُ القلْبِ الذي مِنهُ برزَ) فإذا كانَ القلْبُ مكسوًّا بالصَّفاءِ مِنَ الأكدارِ، مُحَلًّى بإشراقِ الأنوارِ، كانَ الكلامُ البارِزُ منه بترجمةِ اللِّسانِ مكسوًّا بالبَهاءِ والنّورِ، فيقرعُ أُذُنَ السّامِعِ، فيفتحُ بهِ قُفلَ قلبِهِ، هبْ ذلكَ الكَلامَ عادِيًّا أم شَرعِيًّا أم غيرَهُما؛ لأنَّ الألفاظَ حِليةُ المعاني، والمعاني قلبيّةٌ، وما ظهرَ مِنْ بِساطٍ ظهرَ أثرُهُ فيه.

قالَ بعضُهم: "وإذا رأينا منْ يتكلَّمُ بلِسانٍ غريبٍ لم يُعهَدْ لمنْ قبلَهُ مِنَ العُلماءِ، تأكَّدَ تعظيمُهُ وإجلالُهُ، فإنَّ للهِ في كُلِّ دورةٍ عالِمًا يُظهِرُهُ، يُجَدِّدُ مِنَ الشَّرعِ ما أخلقَتْهُ أيدي المُحرِّفِينَ، ومِنْ علامَتِهِ: دقَّةُ مدارِكِهِ مِنْ غيرِ حُبِّ رياسةٍ ولا تمييزٍ على إخوانِهِ الذين يَميزُونَهُ".

***

١٨٤. مَنْ أُذِنَ لهُ في التَّعبيرِ فُهِمَتْ في مسامِعِ الخلْقِ عِبارَتُهُ، وجُلِّيَتْ إليهِم إشارَتُهُ.

(مَنْ أُذِنَ لهُ في التَّعبيرِ فُهِمَتْ في مسامِعِ الخلْقِ عِبارَتُهُ) فلمْ يفتَقِروا إلى تفَهُّمٍ، (وحُلِّيَتْ) بحاءٍ مُهمَلةٍ ومُثناةٍ تحتيّةٍ (إليهِم إشارَتُهُ) مِنَ التَّحليةِ، وفي نُسخةٍ بجيمٍ كذلِكَ مِنَ التَّجلّي وهو الإظهارُ، وفي بعضِها "حُبِّبَتْ" بحاءٍ مُهمَلةٍ وموحَدةٍ مِنَ المحبّةِ.

يقولُ: علامةُ كلامِ المأذونِ أنْ يكون مفهومًا مقبولًا مُحلًّى مُجلًّا محبباً، وكذا كانَ كلامُ الأنبياءِ، إذ لم ينكِرْهُ أحدٌ مِنْ حيثُ ذاتُه، بل أقرَّ بحُسنِه جَحْدًا وعِنادًا، وبذلِكَ أبانَ أنَّ مَنْ أُذِنَ لهُ في التَّعبيرِ، فليسَ في كلامِهِ قُصورٌ ولا تقصيرٌ، بل تُجلَى على المسامِعِ كلِماتُه، وتُستَحلَى أبداً محاوراتُه؛ فلِكلامِهِ حلاوةٌ، ولألفاظِهِ في القُلوبِ طلاوةٌ.

قيلَ لبعضِهِم: ما بالُ كلامِ السَّلفِ أنفعُ مِنْ كلامِنا؟ قالَ: لأنَّهُمْ تكلَّموا لعزِّ الإسلامِ، ونحنُ لطلَبِ الدُّنيا وقَبولِ الخلقِ. وعلامةُ استِكمالِ هذهِ الأوصافِ أنْ يُفتَحَ لكَ بابُ التَّعبيرِ معَ وُجودِ السَّلامةِ مِن آفاتِ النُّطقِ؛ والإذنُ عاديٌّ وشرعيٌّ وذوقيٌّ، فالعاديُّ: التيسيرُ والفيَضانُ، والشَّرعيُّ: تعلُّقُ الأمرِ الشَّرعيِّ بهِ، والذَّوقيُّ: انطِلاقُ اللِّسانِ دون احتِشامٍ ولا تشنُّعٍ.

فإذا صفا القلبُ عنِ الأغْيارِ، أشرقَ بنورِ الرَّبِّ، فتتأثَرُ القُلوبُ عنْ كلامِه، وتنفعِلُ لمواقِعِ سِهامِه، إذا صفا القلبُ نفعَتْ مواعِظُهُ، فليس الواعِظُ إلّا واعِظُهُ، أمّا وعظُ اللِّسانِ، فقلَّما يتأثَّرُ منهُ إنسان، والواعِظُ الغافِلُ نورُ كلامِهِ آفِل.

تتمّةٌ: حكى المؤلِّفُ[1] أنَّ العُلماءَ اجتَمعوا في خيْمةٍ في وقعةِ المنصورةِ في البحرِ الصَّغيرِ، منهُم ابنُ عبدِ السَّلام، وابنُ دقيقِ العيدِ، والشَّيخُ مكينُ الدّينِ الأسمرُ يقرءون رسالةَ القُشيري، فدخلَ الشَّيخُ أبو الحسنِ الشّاذلي فعزموا عليه أنْ يُقرِّرَ لهُمْ، فقالَ: أنتُمْ كُبَراءُ الوقْتِ وقد تكلَّمتُمْ، فما فائدةُ تقريرِ مِثلي؟! فعزموا عليهِ وقالوا: لا بُدَّ، فتكلَّمَ، فخرجَ الشَّيخُ عِزُّ الدّينِ مِنَ الخيْمةِ، ونادى بأعلى صوتِهِ: "هَلُمّوا إلى هذا الكلامِ القريبِ العَهْدِ بربِّهِ فاسْمَعوهُ".

***

١٨٥. ربَّما برزَتِ الحقائِقُ مكسوفةَ الأنوارِ إذا لم يؤذَنْ فيها بالإظهارِ.

(**ربَّما برزَتِ الحقائِقُ**) الرَّبانيّةُ على رِفعَتِها وجلالَتِها (**مكسوفةَ الأنوارِ**) لما غشِيَها مِنْ ظُلمةِ رؤيةِ الأغيارِ، (**إذا لم يؤذَنْ فيها بالإظهارِ**) لعدمِ استِكمالِ الأوصافِ العليّةِ المِقدارِ؛ فمجَّتْها الطِّباعُ وأنكرَتْها القُلوبُ والأسماعُ، فكيفَ بغيرِها مِنَ الفُهومِ والعُلومِ والأسرارِ.

والحقائِقُ ما يقعُ مِنْ نُكَتِ الإلهامِ بالأمورِ العرفانيّةِ في القلْبِ، ولها صورةٌ في النَّفسِ، وعِبارةٌ في الخارِجِ، إذا تمَّ نورُها ظهرَ في الباطِنِ والظّاهِرِ والعِبارةِ مِنْ نورِها ما يشهدُ لصاحِبِها بالتَّحقُّقِ، ثُمَّ إنْ أُذِنَ في التَّعبيرِ عنْهُ برزَتْ بكسوةِ الأنوارِ، وإلا فبنُعوتِ الظُّلمةِ، كأنَّها شمسٌ اعترَاها كُسوفٌ، لا تكادُ تُقبَلُ لِثقَلِها، ولا تُفهَمُ لبُعدِها، فتثبَّتْ في أمرِكَ ولا تعجَلْ بتعبيرِكَ!

قالَ المرسي: "كلامُ المأذونِ عليْهِ طلاوةٌ وحلاوةٌ، وغيرُهُ يخرُجُ مكسوفَ الأنوارِ"، حتَّى إنَّ الرَّجُليْنِ يتكلَّما بحقيقةٍ واحِدةٍ فيُقبَلُ مِنْ أحدِهِما دون الآخَرِ، وربَّما قُبِلَتْ مِنْ واحِدٍ في وقتٍ، ورُدَّتْ عليهِ في غيرِهِ، وربَّما قبلَها رجُلٌ في وقتٍ دون آخرَ، لاختِلافِ الإذْنِ باختِلافِ الوقْتِ والحالِ والزَّمنِ والشَّخْصِ؛ ولهذا قالَ:

---

(١) ابن عطاء الله السكندري في "لطائف المنن".

١٨٦ . عِباراتُهُمْ إمّا لفيضانِ وَجْدٍ أو لقصْدِ هدايةِ المُريدينَ، فالأوَّلُ حالُ السّالِكينَ، والثّاني حالُ أربابِ المَكِنةِ والمُتحقِّقينَ.

(**عِباراتُهُمْ**) عمّا يضطلِعون بهِ مِنْ عُلومِ شِهادَتِهِ وأسرارِ غيْبَتِهِ، لا تصدُرُ إلّا عنْ ضرورةٍ، وتثبُتُ لأحدِ أمريْنِ: (**إمّا لفيضانِ وَجْدٍ**) لأنَّهم مملوكون لهُ حالَ غلَبتِهِ، ولهُمْ فيهِ أحكامُ المجانينِ، مِنَ التَّسليمِ وعدمِ الاقتداءِ بهِمْ، (**أو لقصْدِ هدايةِ المُريدينَ**) وهذا حالُ مَنْ ملكَ حالَهُ ونصَّبَهُ الحقُّ مُرشِدًا؛ فالتَّعبيرُ إمّا لغلَبةِ حالٍ، أو لقصْدِ هدايةٍ وتحصيلِ كمالٍ، فإنْ عبَّرَ الأوَّلُ لا عنْ غلبَةِ الهوى، فهو عِندَ الكُمَّلِ نوْعٌ مِنَ الدَّعوَى، والثّاني إنْ عبَّرَ مِنْ غيْرِ قصْدِ البرِّ، ففي تعبيرِهِ ما لا يخفى مِنْ إفشاءِ السِّرِّ، والصَّمْتُ في غيرِ ذلِكَ مِنْ دأبِ أهْلِ الكَمالِ؛ لامتِلاءِ قُلوبِهِمْ مِنْ هيبةِ ذي الجَلالِ.

وفيَضانُ الوَجْدِ إتيانُه بصِفةِ القهْرِ، والوجْدُ وقعُ الحقيقةِ في القلبِ على وجهٍ يقعُ بهِ استِغراقُهُ فيما وقعَ عليْهِ، ولا يُمكِنُ معهُ ملكةُ كِتمانِ الواقِعِ غالبًا.

وهِدايةُ المُريدِ إرشادُهُ لما بهِ صلاحُهُ بخُروجٍ مِنْ حيرةٍ في ذوقِهِ، أو استِراحةٍ في شَوْقِهِ، أو ترقٍّ في هِمَّتِهِ أو عِلمِهِ أو حالِهِ.

وفيَضانُ الوجْدِ إنَّما يكونُ مِنْ ضعيفٍ، كما أنَّ الإرشادَ لا يكونُ إلّا مِنْ قَويٍّ؛ لأنَّ مقصِدَ الكُمَّلِ الكِتمانُ، وهو لازِمٌ فِرارًا مِنَ التَّلوينِ بالظُّهورِ وغيْرةً على أسرارِ الحقِّ أنْ تُبتَذلَ.

قالَ ابنُ عربي: "مِنْ أدَبِ الكاملِ أنْ لا يُبالِغَ في البَيانِ لأحدٍ مِنَ العُصاةِ، فمنْ بيَّنَ لهُمْ طريقَ الهُدَى بيانًا شافيًا، فقدْ سعَى في إهلاكِهِمْ، فمنْ أرادَ رحمةَ الأُمَّةِ، فليُبْقِ عليهِمْ"؛ ولهذا قالَ في حديثٍ: (إنَّ مِنَ البَيانِ لسِحْرا)[1]، قالَ بعضُهُمْ: "ولا نعلَمُ السِّحرَ إلّا حرامًا".

(١) أخرجه البخاري (٥٠٤١) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(**فالأوَّلُ: حالُ السّالِكينَ**) مِنْ أهلِ البِدايةِ، (**والثّاني: حالُ أربابِ المَكِنةِ**) **أي:** المُتمَكِّنينَ الذينَ لا تُغيِّرُهُم الأحوالُ، (**والمُتحقِّقينَ**) بحَقائِقِ ما يُعبِّرون عنْهُ؛ وذلكَ لأنَّ **السّالكَ** تغلُبُ أحوالُهُ ولا تُتمالَكُ، وليسَ مِنْ أهلِ الاقتِداءِ حتّى يحتاجَ لأنْ يهديَ غيرَهُ، بلْ شُغْلُهُ بنفسِهِ، والمتمكِّنُ غلَبَ على حالِهِ، وحكَمَ على حقائِقِهِ، وفرغَ مِنْ تهذيبِ نفسِهِ، فيفرَغُ لهِدايةِ غيرِهِ؛ والمِكنةُ: التَّمكُّنُ في المعرفةِ بحيْثُ لا تؤثِّرُ فيهِ عوارِضُ مُعارَضةِ التَّقلُّبِ.

ثُمَّ يتعيَّنُ على ذي المَكِنة -عِنْدَ فقْدِ الهِدايةِ- أنْ يُراعيَ في تعبيرِهِ حقَّ نفسِهِ، بأنْ لا يُعبِّرَ إلّا عمّا هو مُتمكِّنٌ فيهِ مُتحقِّقٌ بهِ، و[حقَّ] السّالِكِ بأنْ يأتيهِ بذلكَ على قدرِ حالِهِ وذوقِهِ، دون اتِّساعٍ ولا ضيقٍ، لينتفِعَ بهِ، و[حقَّ] غيرِهما بأنْ يعبِّرَ بما يُفيدُ العامَّ في عُمومِهِ، ولا يدفعُ الخاصَّ في خُصوصِهِ، سليمًا مِنَ الإبهامِ والإيهامِ؛ لئلا يقعَ إنكارٌ أو اعتِراضٌ.

وأمّا المُريدُ فلا يتقيَّدُ بحُكمِ حالِهِ عليْهِ كما قالَ:

---

١٨٧. العِباراتُ قوتٌ لعائلةِ المُستَمِعينَ، وليْسَ لكَ إلّا ما أنْتَ لهُ آكِلٌ.

(**العِباراتُ قوتٌ لعائلةِ**) أي: لقُلوبِ فُقراءِ (**المُستَمِعينَ**) للحَقائِقِ وغيرِها؛ لأنَّهُمْ يطلُبونَها لقِيامِ المعاني، كما أنَّ المُستَطعِمينَ يطلُبون القوتَ لقيامِ الأبْدانِ، فينبغي مُراعاةُ حقِّهِمْ في ذلكَ بتهذيبِهِ وتربيَتِهِ وتقريبِهِ حتّى تسوغَهُ قُلوبُهُمْ وتُدركَهُ عُقولُهُمْ، ولا يُقالُ لأحدِهِمْ ما يضرُّهُ حالًا أو مآلًا، قالَ المُصطَفى ﷺ: (خاطِبوا النّاسَ بما يفهَمونَ)[1].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (١٢٧) موقوفًا على الإمام عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: (حَدِّثوا النَّاسَ، بما يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ ورَسُولُهُ)، ونحوه ما أخرجه مسلمٌ في مقدمة صحيحه (١/١١) عن ابن مسعودٍ قال: (ما أنت بمحدِّثٍ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلّا كان لبعضهم فتنةً)، وأخرجه الديلميُّ كما في الفردوس (١٦١١) من حديث ابن عبَّاس مرفوعًا بلفظ: (أُمِرْنا أنْ نكلِّمَ الناسَ على قدرِ عقولِهم) وسنده ضعيفٌ كما ذكره السيوطيُّ في "الدرر المُنتثرة" (٣٥)، وغيره.

فليْسَ لشيْخٍ أنْ يذْكُرَ لمُريدٍ ما يحارُ فيهِ عقلُهُ، قالَ الغَزالي: "قد تضُرُّ الحقائقُ بقوْمٍ كما يتضرَّرُ الجُعَلُ بالمِسْكِ"(١)، ولا يذْكُرُ لهُ ما لا يوافِقُ ظاهِرَ الشَّرعِ، بلْ يُعمَلُ بقولِ القائِلِ:

فمَنْ فهِمَ الإشارةَ فليصُنْها * وإلّا سوْفَ يُقتَلُ بالسِّنانِ
كحلّاجِ المحبّةِ إذ تبدَّتْ * لهُ شمسُ الحقيقةِ بالتَّدانِ(٢)

وإلى هذه المعاني أشارَ بقولِهِ: (**ولَيْسَ لكَ إلّا ما أنْتَ لهُ آكِلٌ**) ممّا يُلاءِمُ طبعَكَ ومِزاجَكَ، أي كما لَيْسَ لكَ أنْ تأكُلَ ما يقتُلُكَ، لَيْسَ لكَ أنْ تقولَ أو تفعَلَ ما يقتُلُكَ، ولا أنْ تدَّعيَ ما ليْسَ مِنْ شِنْشِنَتِكَ(٣) بمُجرَّدِ فهمِكَ وقوتِكَ، وكما أنْ مآكِلَ المُستَطْعَمينَ مُختَلِفةٌ فلا يصلُحُ لواحِدٍ منهم ما يصلُحُ للآخَرِ، كذا مآكِلُ الآخَرينَ، لا يصلُحُ لواحِدٍ منهم مِنَ العِباراتِ المُتضمِّنةِ لوُجودِ القوتِ المعْنَويِّ ما يصلُحُ للآخرِ، لاختِلافِ المذاهِبِ وتبايُنِ المطالِبِ.

ولا تظُنَّ أنْ كُلَّ مَنْ فهِمَ كلامًا ذاقَهُ، ولا كُلَّ منْ عبَّرَ عنْ شيءٍ تحقَّقَ بهِ، وليسَ لكَ إلّا ما لاقَ بِكَ، وما سمِعْتَهُ فأثَّرَ فيكَ، لا ما تأثَّرَ بهِ غيرُكَ.

قالَ في اللَّطائِفِ: "وإنَّما يكونُ الاقتِداءُ بشيْخٍ دلَّكَ على اللهِ، وليْسَ شيخُكَ مَن سمِعْتَ منهُ، إنَّما شيخُكَ مَنْ أخذْتَ عنهُ، ليْسَ شيخُكَ مَنْ واجهتْكَ عِبارَتُهُ، بل منْ سرَتْ فيكَ إشارتُهُ، ليْسَ شيخُكَ مَنْ دعاكَ للبابِ، بلْ منْ رفعَ بينَكَ وبينَهُ الحجابَ، ليسَ شيخُكَ مَنْ واجهَكَ مقالُهُ، بلْ منْ نهضَ بِكَ حالُهُ، شيخُكَ منْ خرجَ بكَ مِنْ سِجْنِ الهوَى ودخلَ بكَ على المولى، شيخُكَ منْ يجلو مرآةَ قلبِكَ حتَّى تنجَلي فيهِ أنْوارُ ربِّكَ، شَيْخُكَ مَنْ سارَ بكَ حتَّى وَصَلْتَ إليهِ، وما زالَ يُحاذيكَ حتَّى ألقاكَ بينَ يديْهِ، فزجَّ بكَ في نورِ الحضْرةِ، وقالَ: ها أنْتَ وربُّكَ".

---

(١) الجُعَل: الخنفساء، وهي تتأذى بالروائح الطيبة كريح الورد والمسك. وقد سبق إيراد هذه العبارة لكن بلفظ "الورد" بدل "المسك"، وكلاهما وارد في عبارة الغزالي.

(٢) لأبي الحسن علي بن عبد الله النميري الششتري الأندلسي، المتوفى سنة ٦٦٨هـ، من قصيدة مطلعها:
شَهِدْتُ حَقيقتي وعظيمَ شأني * مُقدَّسةً عنْ اِدراكِ العَيانِ

(٣) الشِنْشِنةُ: الخُلُقُ والطبيعَة. [الصحاح في اللغة]

تنْبيهٌ: إذا استغرقَ القلبُ في الذِّكرِ وغلبَ عليه، ففي تِلكَ الحالةِ قد يقومُ مقامَ القُوتِ لصاحبِهِ، فلا يأكُلُ ولا يشرَبُ، قالَ [محمدُ بن] عبدِ الملِكِ بنِ إسماعيلَ[1]: "خرجْتُ أطلبُ عِلمًا وأزورُ خِلًّا، فصعدْتُ جبلًا فرأيْتُ شيخًا مُتعبِّدًا يبكي وهو راكِعٌ، لا يشغلُهُ شيءٌ عنِ اللهِ، مكشوفَ الرَّأسِ حافيًا، فلما نظرَ إليَّ أوجزَ وسلَّمَ، ثُمَّ أنشدَ:

الطُّرْقُ شتَّى وطريقُ الحقِّ مُنفَرِدٌ * والسَّالكون طريقَ الحقِّ أفرادُ

لا يُقصَدون ولا تُقصَدْ منازِلُهمْ * وهُمْ على مهَلٍ يمشون قُصّادُ

والنّاسُ في غفلةٍ عمّا يُرادُ بهم * وكُلُّهـمْ عنْ طريقِ الحقِّ رُقّادُ

فدَنوْتُ فسلَّمْتُ، فردَّ وقالَ: إلى أينَ؟ قُلتُ: أزورُ عبدًا مِثلَكَ، لكِنْ تأمُرْ أصْحَبُكَ، قالَ: أقِمْ على رسلِكَ، فأقمْتُ عِندَهُ عشرةَ أيامٍ لا يأكُلُ ولا يشرَبُ، فضعُفَتْ قوَّتي، فقلت بالانصرافِ، فبكى ثُمَّ أنشدَ:

ليسَ في القلبِ والفؤادِ جميعًا * موضِعًا خاليًا لغيرِ حبيب

أنْتَ أشغلتَني بذِكرِكَ حتَّى * صِرتَ في القلبِ شاهِدًا لا تغيب"

وقالَ أبو مديَن: "الشَّيْخُ منْ شهِدَتْ لهُ ذاتُكَ بالتَّقديمِ وسرُّكَ بالتَّعظيمِ، الشَّيْخُ منْ هذَّبَكَ بأخلاقِهِ، وأدَّبَكَ بإطراقِهِ، وأنارَ باطِنَكَ بإشراقِهِ، وجمعَكَ في حُضورِهِ، وحفِظَكَ في مغيبِهِ".

تتِمّةٌ: قالَ شيخُنا الشَّعْراني: "قد يكونُ الطّالبُ نظيفَ الوِعاءِ، فيمكثُ العِلمُ بقلبِهِ وينتفِعُ بِهِ أُلوفٌ مِنَ النّاسِ، كما وقعَ لمالِكٍ معَ شيخِهِ نافعٍ[2]، ولخليلٍ المالكيِّ[3] معَ المنوفي[4]،

(١) محمد بن عبد الملك بن إسماعيل الواعظ، الحنبلي الأصبهاني، كان له قبول كثير عند أهل بلد، وكان شيخا فاضلا صدوقا متديِّنًا، توفي سنة ٥٩٥. تاريخ بغداد (١٥/٤٠)، والوافي للصفدي (٤/٣٣).

(٢) التابعي الجليل أبو عبد الله نافع مولى عبد الله بن عمر، القرشي ثم العدوي، عالم المدينة، من كبار الصالحين التابعين، يروي عن عدد من الصحابة ومعظم حديث ابن عمر عليه دار، اختلف في سنة وفاته من سنة ١١٧-١٢٠. وفيات الأعيان (٥/٣٦٧)، سير أعلام النبلاء (٥/٩٥).

(٣) العلامة ضياء الدين أبو المودة خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب المالكي، المعروف بالجندي، حامل لواء المذهب بزمانه بمصر، وعليه المدار عند المتأخرين، تُوفِّي سنة ٧٦٧ على الراجح من الأقوال. الدرر الكامنة لابن حجر (٢/٢٠٧)، والديباج (١/٣٥٧)، ونيل الابتهاج (١/٦٨).

(٤) العلامة عبد الله بن محمد بن سليمان المنوفي، أحد شيوخ مصر وأفاضلها علماً وحالاً، تفقه على=

وللنَّوويِّ[(١)] معَ سلار[(٢)]؛ فإنَّ أشياخَهُمْ أعطوهُمْ مادةَ ذلكَ العِلْمِ الذي انتَشرَ عنهُمْ واسْتَتَروا، فلا تكادُ تسمعُ أحدًا يقولُ: قالَ نافعٌ، ولا المنوفيُّ، ولا سلارٌ".

وكما يتعيَّنُ على السّامِعِ ما ذُكِرَ يتعيَّنُ على الملقي أنْ يختارَ لكُلِّ سامِعٍ اللائِقَ، فلأَهْلِ الغفْلةِ الوعظُ والتَّذكيرُ، ولأهلِ الإرادةِ الأحوالُ، ولأهلِ المعرفةِ الحَقائِقُ، وكُلٌّ يُعبِّرُ عنْ بِساطِ حالِهِ مِنْ نقصِهِ وكمالِهِ، كما قالَ:

١٨٨ . رُبَّما عبَّرَ عنِ المقامِ منْ استَشْرفَ عليهِ، ورُبَّما عبَّرَ عنْهُ منْ وصلَ إليهِ، وذلكَ مُلتَبِسٌ إلّا على صاحِبِ بصيرةٍ.

(**رُبَّما عبَّرَ عنِ المقامِ منْ استَشْرفَ**) أي: اطَّلعَ (**عليهِ**) ولم يصِلْ إليْهِ، (**ورُبَّما عبَّرَ عنْهُ منْ وصلَ إليهِ**)، للاستِواءِ في وُضوحِ الأمْرِ عِندَهُما، فقد يُعبِّرُ عنِ المقامِ منْ لاحتْ لهُ لوائِحُهُ، وفاحتْ مِنْ نفسِهِ روائِحُهُ، وقدْ يُعبِّرُ عنهُ منْ بهِ تحقَّقَ، وبمعناهُ في وُجودِهِ تخلَّقَ، ووجْهُ وُضوحِهِ عِندَ الأوَّلِ أنَّ المقاماتِ مُتداخِلةٌ، فمنْ حاذى مقامًا ظهرَ لهُ ما يليهِ، حتَّى كأنَّهُ عيْنُ ما هوَ فيهِ.

=مذهب مالك، واعتزل وانقطع بالمدرسة الصالحية، مقتصراً على خصوصية نفسه، لا يكاد يخرج إلا إلى الصلاة، وله كرامات ظاهرة، ترجم له تلميذه خليل، توفي سنة ٧٤٩. نيل الابتهاج (١/٢١٩)، وشجرة النور (ت٧٤١).

(١) الشيخ الإمام العلامة محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي الدمشقي، ولد في نوى من أرض حوران في الجنوب الغربي من سورية، وذلك في العشر الأوسط من شهر الله المحرم سنة ٦٣١، ونشأ نشأة صالحة، وصنَّف التصانيف النافعة في الحديث والفقه وغيرها كـ"شرح مسلم"، و"الروضة"، و"شرح المهذب"، و"المنهاج"، و"الأذكار"، و"رياض الصالحين"، و"التقريب" و"تهذيب الأسماء واللغات"، وغير ذلك، وبارك الله في علمه وتصانيفه، ولم يتزوج، وولي مشيخة دار الحديث الأشرفية بعد أبي شامة فلم يتناول منها درهمًا، تُوفِّي في رجب سنة ٦٧٦، وأفرده الحافظ السخاوي بالتصنيف في "المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي"، وانظر: "طبقات الشافعية" للسبكي (ت١٢٨٨).

(٢) الشيخ كمال الدين سلار بن حسن بن عمر بن سعيد الإربلي الشافعي، أحد مشايخ المذهب، تلميذ ابن الصلاح وشيخ النووي، اختصر البحر للروياني، وكانت الفتيا تدور عليه بدمشق، توفي سنة ٦٧٠، البداية والنهاية لابن كثير (١٣/٣٠٥)، وطبقات السبكي (٨/١٤٩).

والمُرادُ أنَّ التَّعبيرَ عنِ المقامِ لا يُفيدُ كَوْنَ المُعبِّرِ مُتحقِّقًا به، ولا واصِلًا إليه، بل **مُستَشْرِفًا** عليهِ، والفرقُ بينَهُما غامِضٌ إلّا على ذي بصيرةٍ للتَّداخُلِ، فلا يحصُلُ الفرقُ إلا ببصيرةٍ نافذةٍ وتأييدٍ ربّانيٍّ، (**وذلكَ مُلتَبِسٌ**) أي مُشتبهٌ (**إلّا على صاحِبِ بصيرةٍ**) فلا يلتَبِسُ؛ لأنَّهُ يرى في الكَلامِ صورةَ المُتكلِّمِ الباطِنةِ، وما هو عليهِ مِنْ كمالٍ ونقصٍ.

وعلامةُ المُتمَكِّنِ مِنَ الحقيقةِ سَرَيانُها في كُلّيَّتِهِ، فيختصُّ بها كُلُّ شيءٍ مِن ذاتِهِ ظاهرًا وباطِنًا، سِرًّا وعلانيةً، بغيرِ احتياجٍ إلى سبَبٍ ولا غيرِه.

وعلامةُ المُعبِّرِ عنْ إشرافِ اهتزازُ ذاتِهِ فرحًا عِندَ التَّعبيرِ، وقُصورُهُ في الإخبارِ عنِ المعنَى الجامعِ المُحيطِ، والحاجةُ للأسبابِ والمعونةِ في تحصيلِها في ذاتِهِ وتوصيلِها لغيْرِهِ.

وإذا كانَ الأمرُ مُلتَبِسًا، فالتَّعبيرُ يضُرُّ بالمُبتَدِئِ كما قالَ:

***

١٨٩. لا ينبَغي لسالِكٍ أنْ يُعبِّرَ عنْ وارِداتِهِ، فإنَّ ذلكَ مِمّا يُقِلُّ عَمَلَها في قلبِهِ، ويمنَعُهُ وُجودَ الصِّدْقِ معَ ربِّهِ.

(**لا ينبَغي لسالِكٍ أنْ يُعبِّرَ عنْ وارِداتِهِ**) الإلهيّةِ إلّا لشيْخِهِ ليُرقِّيَهِ أو يوقِّيَهِ، فإنَّهُ قبلَ تمكُّنِهِ مِنَ الحقيقةِ، واستيفائِهِ موجِباتِ الطَّريقةِ، شُغْلُه بنفسِهِ، ومتى عبَّرَ فقدِ اشتَغَلَ بغيْرِهِ، وذلِكَ يُشوِّشُ حالَهُ ويوجِبُ نقصَهُ.

وقد أجمعوا على أنَّ مِنْ أدَبِ السّالِكِ كِتمانَ وارِداتِهِ، وإخفاءَ جميعِ أحوالِهِ وكَمالاتِهِ؛ لأنَّ بهِ يتأثَّرُ القلْبُ ويقَعُ الصِّدْقُ في عُبوديّةِ الرَّبِّ، إلّا عنْ شيْخٍ يعلَمُ الدَّسائِسَ ويُهدي لقلْبِ المُريدِ النَّفائِسَ، فإطْلاعُهُ عيْنُ الأدبِ، فإنَّهُ المُعِدُّ إلى أعلى الرُّتَبِ.

ثُمَّ وجهَ كلامَهُ بقولِ: (**فإنَّ ذلكَ مِمّا يُقِلُّ عَمَلَها في قلبِهِ**) لأنَّها مِرآةٌ تظهَرُ بها القُلوبُ،

فإذا دامتْ في باطِنِه تكرَّرَ معناها في نفسِه وتردَّدَ تردُّدًا يوُجِبُ ارتسامَها في خَيالِه، ثُمَّ لا يزالُ كذلكَ حتَّى يصيرَ مُلازِمًا لا يُفارِقُ، ثُمَّ لا يزالُ حتَّى ينطَبِعَ فيها وتنصبِغَ بها الحقيقةُ، وإذا خرجَتْ مِنَ القلْبِ صارَ لها صورةٌ في الخارِجِ، فأوجبَتْ حديثَ نفسِهِ بما ينشأُ عنها، وهو ما يجري بسبَبِها، فلا يؤثِّرُ شيئًا.

(و) ذلكَ أيضًا (**يمنَعُهُ وُجودَ الصِّدْقِ معَ ربِّهِ**) فإنَّما تُثيرُ الفرحَ بها، وهو حظٌّ نفسانيٌّ، واستِشعارَ المزيَّةِ وهو أعظَمُ، وتعظيمَ الخلقِ وهو بِساطُ الرِّياءِ والتَّصنُّعِ، وأُنسَهُ باطِّلاعِ العِبادِ على أحوالِهِ فتَميلُ النَّفسُ إليهِ.

وقدْ ذكرَ المؤلِّفُ قِلّةَ عملِها ونفيَها للصِّدْقِ، وبقى ثالِثٌ هو الحِرمانُ مِنَ التَّحقُّقِ بها؛ لأنَّ المُريدَ إذا تكلَّمَ صارَ صاحِبَ عِلْمٍ لا صاحِبَ حالٍ.

***

١٩٠. لا تمُدَّنَّ يديْكَ إلى الأخْذِ مِنَ الخلْقِ إلّا أنْ ترى أنَّ المُعطِيَ فيهِم مولاكَ، فإنْ كُنتَ كذلِكَ فخُذْ ما وافقَكَ العِلمُ.

(**لا تمُدَّنَّ يديْكَ إلى الأخْذِ مِنَ الخلْقِ**) بسبَبٍ أو دونِهِ (**إلّا**) بشرطِ (**أنْ ترى أنَّ المُعطِيَ فيهم مولاكَ**)، فإنْ منعوكَ لم تذُمَّهمْ، وإنْ أعطوكَ لا تراهُمْ مُعْطونَ، لكن تُثني عليهم اتِّباعًا لأمرِ الشّارِعِ، وخُروجًا مِنْ رِقِّ إحْسانِ غيرِهِ، وتُسلِّمْ لهم إنْ منَعوا اتِّكالًا على فضلِهِ، عالِمًا بأنَّ ما سبقَتْ بهِ القِسمةُ لا بُدَّ منهُ، وغيرُهُ لا وُصولَ لهُ، وبهِ يصِحُّ مقامُ القناعةِ والتَّوكُّلِ، فإن فُقِدَ هذا الشَّرطُ، صِرْتَ عبدًا للنّاسِ موجِّهًا إليهم قلبَكَ، مُكثِرًا فيما في يدِهِمْ رغبتَكَ.

قالَ السَّريُّ للجنيدِ: "أعرِفُ طريقًا مُختَصرًا إلى الجنّةِ؛ لا تسألْ مِنْ أحدٍ شيئًا، ولا تأخُذْ مِنْ أحدٍ شيئًا، ولا يكُنْ معَكَ شيءٌ تُعطي منه أحدًا". وقالَ ابنُ معاذٍ: "مَنِ استَفتَحَ بابَ المعاشِ بغيْرِ مفاتيحِ الأقدارِ، وُكِلَ إلى المخلوقِ".

والقصدُ مِنْ ذلكَ كُلِّه أنْ تكون مُكتَفيًا باللهِ دون ما سِواهُ، **(فإنْ كُنتَ كذلكَ فخُذْ)**، لكِنْ لا تأخُذْ إلّا **(ما وافقَكَ العِلمُ)** الظّاهِرُ والباطِنُ على أخذِه، أي مُدّةَ موافقتِه لكَ وموافقَتِكَ لَهُ، فلا تأخُذْ إلّا الحلالَ المصحوبَ بالوَرَعِ والرِّفْقِ، مِنْ غيرِ منّانٍ ولا فخورٍ ولا مُظهِرٍ للعَطيّةِ، ولا مِمَّنْ في مالِهِ شُبْهةٌ، هذا عندَ الإمكانِ، فإنْ خِفتَ الضَّرورةَ فلكَ سؤالُ مجهولِ الحالِ.

ورفعُ الهِمّةِ عنِ الخَلْقِ شأنُ أهلِ الطَّريقِ، وصِفةُ ذوي التَّحقيقِ، ومحصولُ ما تقدَّمَ: أنَّهُ إذا انكشَفَ للسّائلِ الغِطاءُ، فتحقَّقَ بأنَّ مِنْ ربِّهِ العَطاءَ، فهُناكَ يحصُلُ لهُ مِنْ نحوِ النَّقدِ ما يسُدُّ بهِ ضرورةَ الفقْدِ، إذا تأمَّلَ المأخوذَ منهُ لذلكَ، فرُبَّ أخذٍ يكونُ بهِ الفقيرُ هالِكْ، وإليهِ أشارَ سيِّدُ كُلِّ مُتَّقِي، بقولِهِ: (لا يأكُلْ طعامَكَ إلّا تقي)[1].

تنْبيهٌ: مِنَ القَواعِدِ أنَّ تكليفَ ما ليسَ في الوُسْعِ جائزٌ عقلًا، غيرُ واردٍ شرعًا، إذْ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقدْ أمرَ كُلَّ مؤمنٍ بطلبِ الحلالِ؛ فوُجودُهُ مُمكِنٌ للكُلِّ في كُلِّ عصرٍ، ونظرَ لوُجودِ أصلِهِ عُمومًا، ولأنَّ الأرضَ لا تخلو مِنْ وليٍّ وهو قُوتُهُمْ، ولا يُكلِّفُنا اللهُ بما في عِلمِهِ بلْ بما نعلمُ، فمنْ لا يعلَمُ بيدِهِ حرامًا، ولا يغْلِبُ على ظنِّهِ دُخولُهُ في مالِهِ بعلامةٍ صحيحةٍ، فلا وجهَ لاعتقادِ الحرامِ فيه، بل المالُ كالماءِ خلقَهُ اللهُ حلالًا كما خلقَ الماءَ طهورًا، هذا لا يُنجِّسُهُ إلّا ما غيَّرَ، وهذا لا يُحرِّمُهُ إلّا ما غيَّرَ، وتفصيلُ ذلكَ تكفَّلَ ببيانِهِ حُجّةُ الإسلامِ[2].

***

١٩١. رُبَّما استَحْيا العارِفُ أنْ يَرفَعَ حاجتَهُ إلى مولاهُ اكتِفاءً بمَشيئَتِهِ، فكيْفَ لا يستَحي أنْ يرْفَعَها لخليقَتِهِ!

(١) أخرجه أحمد (٤٨٣٢)، والدارمي (٢٢٢١)، وأبو داود (١١٣٣٧)، والترمذي (٢٣٩٥)، والحاكم (٤/١٢٨)، وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم.
(٢) انظر قواعد زروق، وكتاب الحلال والحرام من "إحياء علوم الدين".

(**رُبَّما استَحْيا العارِفُ أنْ يَرفَعَ حاجتَهُ إلى مولاهُ اكتِفاءً بمَشيئَتِه**) واعتمادًا على قِسمَتِه، وإذا كانَ كذلِكَ (**فكَيْفَ لا يستَحي أنْ يرْفَعَها لخليقَتِه!**) اعتِبارًا بنعْتِ كُلٍّ منهما، إذا كانَ لا يرفعُها لغنيٍّ كريمٍ، فكيفَ يرفعُها لفقيرٍ ذليلٍ؟!

وكُلُّ ذلِكَ عُلوٌّ للهِمّةِ وتعظيمٌ للرُّبوبيّةِ، فالعارِفُ لترَقِّيهِ إلى أعلى الرُّتَبِ قد يرى أنَّ في السُّؤالِ تركَ الأدَبِ؛ لخُروجِه عنْ مُرادِهِ بمُرادِ مولاهُ، واكتِفاءً فيه بما قسمَ لهُ في آخرتِه وأولاهُ، وإذا كانَ هذا حالُهُ معَ المولَى، فتركُ سؤالِه الخلقَ أولَى؛ ولهذا قالَ في المِنَنِ: "رفعُ الهِمّةَ لسالِكي طريقِ الآخرةِ عنِ الخلقِ، وعدمُ التّعرُّضِ لهم، أزينُ مِنَ الحُليِّ لِلعروس، وهم أحوجُ إليهِ مِنَ الماءِ لحياةِ النُّفوس".

قالَ الواسطيُّ: "إن أدعُ أخفْ أنْ يُقالَ لي: إن سألتَنا ما لكَ عِندَنا اتَّهمْتَنا، أو ما ليسَ لكَ عِندَنا أسأتَ إليْنا، وإن رضيتَ أجرَيْنا لكَ مِنَ الأُمورِ ما قُدِّرَ في الدُّهورِ".

وقالَ بِشرٌ: "الفُقراءُ ثلاثةٌ: فقيرٌ لا يسألُ وإنْ أُعطِيَ لا يأخُذُ، فذاك مِنَ الرُّوحانيّينَ، إذا سألَ اللهَ أعطاهُ وإنْ أقسمَ عليهِ أبرَّهُ، وفقيرٌ لا يسألُ وإنْ أُعطِيَ قَبِلَ، فذاك مِنَ الأوساطِ، عقدُهُ التَّوكُّلُ والسُّكونُ إليهِ تعالى، وهو ممَّنْ تُوضَعُ لهُ الموائدُ في حضرةِ القُدُسِ، وفقيرٌ اعتقدَ الصَّبرَ وموافقةَ الوقْتِ، فإذا طرقَتْهُ حاجةٌ سألَ، وقلبُهُ إلى اللهِ بالسُّؤالِ، فكفّارةُ سُؤالِه صِدقُهُ".

حكايةٌ: قالَ سُفيانُ عِندَ رابِعةَ: "اللّهُمَّ ارضَ عنِّي"، فقالتْ: "أما تستحي أنْ تطلُبَ رِضى مَنْ لستَ عنْهُ براضٍ؟!"، فرابعةُ كانَتْ مِنَ العارِفينَ، والعارِفُ ليسَ شأنُهُ الطَّلبُ؛ لرِضاهُ بِكُلِّ ما يرِدُ عليْهِ مِنْ محبوبٍ ومكروهٍ، وسُفيانُ مِنَ الزُّهّادِ وشأنُهُمُ الدُّعاءُ والسُّؤالُ إظهارًا للعُبوديّةِ بالخُضوعِ والابتِهالِ.

تتمّةٌ: قيلَ لبعضِهِمْ: سلْ حاجتَكَ! فقالَ: "منْ وضعَ قدمَهُ على بِساطِ المعرفةِ لا يصلُحُ أنْ يكون لغيرِ اللهِ عليْهِ مِنّةٌ"، فمنْ نظرَ اللهُ إليهِ بعيْنِ الرَّحمةِ، حجبَ سِرَّهُ عنْ دَنَسِ الأغيارِ، وجعلَهُ خِزانةً للأسرارِ.

***

١٩٢. إذا التبَسَ عليْكَ أمْرانِ فانظُرْ أثقَلَهُما على النَّفسِ فاتَّبِعْهُ، فإنَّهُ لا يثقُلُ عليْها إلّا ما كانَ حقًّا.

(**إذا التَبسَ عليْكَ أمْرانِ**) واجبانِ أو منْدوبانِ، لا مندوحةَ عنهُما، ولا أرجَحيَّةَ لأحدِهِما، ولا يُمكِنُ الجمعُ، كبِرِّ أحدِ أبوَيْنِ بعقوقِ الآخرِ، وحُضورِ جنازتَيْنِ مُتساويتيْنِ، وغيرِ ذلكَ (**فانظُرْ أثقَلَهُما على النَّفسِ**) مِنْ جهةِ الطَّبعِ (**فاتبعْهُ**) لأنَّ مِنْ قواعدِ الطَّريقِ اتِّباعُ الأثقَلِ، وإلّا فأنْتَ في حظِّها غريقٌ، فهيَ أبدًا لا تطلُبُ إلّا الرّاحةَ، فخِلافُها عيْنُ المَلاحةِ، لا ما يثقُلُ مِنْ جِهةِ الحَقيقةِ أو المعنى، وعلامةُ ما مِنَ الطَّبعِ العجلةُ والأمنُ وعمى العاقِبةِ، فإذا توجَّهْتَ لشيءٍ لا تعرِفُ لهُ مادّةً في الأحكامِ تُرجِّحُ تركَهُ على فِعلِهِ، فإنْ كانَ معَ أمنٍ لا خوفٍ، ومعَ عجلةٍ لا تأنٍّ، ومع عمى العاقِبةِ لا بَصارَتِها، فخِفَّتُهُ على النَّفسِ مِنْ هواها.

(**فإنَّهُ لا يثقُلُ عليْها إلّا ما كانَ حقًّا**) لكونِها مجبولةً على الجهْلِ والشَّرَهِ، وشأنُها طلبُ الحظِّ والفرارِ مِنَ الخلْقِ، فإذا أدبرَتْ بلا عِلّةٍ، أو أقبلَتْ بلا دليلٍ، فهو دليلُ هواها، وإنْ كانَ بدليلٍ وظُهورِ حِكمةِ الإيثارِ فمِنَ الحقِّ؛ لأنَّ الأنوارَ تتعاقدُ، كما أنَّ الظُّلُماتُ تتراكَمُ، وهذا ميزانُ أهلِ النُّفوسِ الأمّارةِ، التي تُخطِئُ وتصيبُ، ولا نورَ لها تَهتدي بهِ.

أما ذو النَّفسِ المُطمَئِنّةِ فيعمَلُ على حقيقةِ ما يُلقيهِ إليْهِ الكشْفُ والإلهامُ عِنْدَ تقرُّرِ الدَّليلِ الشَّرعيِّ، بأنْ يبسُطَ نورَ إيمانِه على ما يتوجَّهُ بِصِدْقٍ، فإنْ ظهرَ لهُ كالشَّمسِ أقبلَ بلا تردُّدٍ، وإنْ بانَ لهُ كاللَّيلِ أدبرَ بلا توقُّفٍ، وإنْ كانَ كالغبشِ توقَّفَ فيهِ لاشتباهِ حالِهِ، قالَ المُصطَفى ﷺ: (استَفتِ نفسَكَ وإنْ أفتاكَ المُفتونَ)[١]، فهذهِ الحِكمةُ إنَّما هي ميزانُ العامّةِ.

وذَكَرَ في "اللَّطائِفِ" ميزانًا أصحَّ مِنْهُ وهو الموتُ، بأنْ تُقدِّرَ نُزولَهُ بِكَ، فأيُّ عملٍ سرَّكَ

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٠٠١)، والدارمي (٢٧٢٩)، وأبو يعلى (١٥٨٦)، وغيرهم من حديث وابصة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلفظ: (وإن أفتاك الناس وأفتوك).

أنْ تكون مشغولًا بهِ حينَئذٍ فهو حقٌّ، وما سِواهُ باطِلٌ، وهذا معنى قِصَرِ الأمَلِ الذي هو أصلُ حُسنِ العَمَلِ، وهو أنْ لا يُقدِّرَ لنفسِهِ وقتًا ثانيًا فيكونُ فيهِ حيًّا.

***

١٩٣. مِنْ علامةِ اتِّباعِ الهوَى المُسارَعةُ إلى نوافِلِ الخيْراتِ، والتَّكاسُلُ عنِ القيامِ بحُقوقِ الواجِباتِ.

(**مِنْ علامةِ اتِّباعِ الهوَى**) أي: الميْلِ للأغراضِ النَّفسانيّةِ (**المُسارَعةُ إلى نوافِلِ الخيْراتِ، والتَّكاسُلُ عنِ القيامِ بحُقوقِ الواجِباتِ**) استِعْجالًا للفتْحِ، وأنَّهُ لا يكونُ بمألوفٍ بلْ بمُسْتَغرَبٍ، وذلكَ غُرورٌ؛ فعلامةُ أنَّكَ عنِ الحقِّ غافِلٌ إعراضُكَ عنِ الواجِباتِ، ومُسارَعتُكَ إلى النَّوافِلِ، الخَبيرُ بنفسِهِ والعامِلُ بمواقِعِ لبسِهِ يَعلَمُ أنَّ النَّفسَ تُجبَرُ الفرائِضَ، فهو أبدًا لنفسِهِ رائِضٌ، وأفضَلُ القُربِ قُرْبةٌ هي فريضةٌ، وبعدَها سُنّةٌ مُستَفيضةٌ، الفريضةُ أُدومَةٌ والسُّنّةُ مرومَةٌ، الفرضُ كالقوتِ والسُّنّةُ كالحلاوةِ، وذاكَ نِعمَ الحِملُ وهذهِ نِعمَتِ العَلاوةُ، وذاكَ حتمٌ مَقضيٌّ، وهذا دأبٌ مَرضيٌّ، قالَ ابنُ [أبي] الوردِ[1]: "هلاكُ الخلقِ في حرفيْنِ: اشتِغالٍ بنفْلٍ وتضييعِ فرضٍ، وعملِ الجَوارِحِ بلا مواطأةِ القلْبِ، وإنَّما حُرِموا الوُصولَ بتضييعِ الأُصولِ".

وإقامةُ الواجِباتِ بوُجودِ الصِّدقِ فيها، والقيامِ بلَوازِمِها وآدابِها، ورؤيةِ المِنّةِ في وُجودِها، وقدْ أعانَنا مولانا عليْها بتقليلِها وتقصيرِها، وتقييدِها بالأوقاتِ وتوسيعِها، قالوا: "ومنِ اشتَغلَ عنِ الفرضِ بالنَّفْلِ فهو أحمقٌ، ومثَلُهُ كمنْ دعاهُ الملِكُ إلى حضرتِهِ فقالَ: اصبِرْ حتَّى أفرُغَ مِنْ خِدمةِ غُلامِكَ".

(١) الإمام العارف أبو الحسن محمد بن محمد بن عيسى بن عبد الرحمن بن عبد الصمد، المعروف بحبش ابن أبي الورد الزاهد، من كبار مشايخ العراقيين وجلتهم، وكان من جلساء الجنيد وأقرانه، صحب سريا السقطي وأبا الفتح الحمال وحارثا المحاسبي وبشرا الحافي، ولم يزل مشهورا بالزهد والورع والخلوة، توفي سنة ٢٦٣. طبقات السلمي (ص ١٩٨)، وتاريخ بغداد (٤١٩/٣).

١٩٤. قيِّدَ الطّاعاتِ بأعْيانِ الأوقاتِ كي لا يمنعَكَ عنها وُجودُ التَّسويفِ، ووسَّعَ الوقتَ عليكَ كي يُبقيَ لك حِصّةً في الاختيار.

(**قيَّدَ الطّاعاتِ بأعْيانِ الأوقاتِ**) لتوقِعَها فيها، (**كي لا يمنعَكَ عنها وُجودُ التَّسويفِ**) منكَ بها فيفوتَ ثوابُها.

(**ووسَّعَ الوقتَ عليكَ كي يُبقيَ لك حِصّةً في الاختيارِ**) أي: نصيبًا منه حتَّى تأتي بها في سُكونٍ وتمهُّلٍ مِنْ غيرِ ضيقٍ ولا حرجٍ؛ ولهذا قالَ بعضُهُمْ: "حجَبَ الطّاعاتِ بأوقاتِها كراهةَ أنْ يجُرَّكَ التَّسويفُ إلى فَواتِها، ثُمَّ وسَّعَ الزَّمانَ رفعًا للضِّيقِ والامتِحانِ".

وفي نفي التَّسويفِ كراماتٌ ثلاثٌ: مُبادَرةُ الأمرِ، ومُراقَبةُ الذِّكرِ، وعِمارةُ السِّرِّ، وفي بقاءِ حِصّةِ الاختيارِ التَّوسعةُ بدَلَ الضّيقِ، وظُهورُ النِّسبةِ باختيارِكَ لنفسِكَ، وانشِراحُ الصَّدرِ للعِبادةِ، وفي ذلكَ أتمُّ حُجّةٍ على التّارِكِ.

وحِكمةُ الإيجابِ ما ذكرَهُ بقولِهِ:

***

١٩٥. عَلِمَ قِلّةَ نُهوضِ العِبادِ إلى مُعامَلتِهِ فأوجبَ عليهِمْ وُجودَ طاعتِهِ، فساقَهُم إليهِ بسَلاسِلِ الإيجابِ، (عجِبَ ربُّكَ مِنْ قومٍ يُقادون إلى الجنّةِ بالسَّلاسِلِ).

(**عَلِمَ قِلّةَ نُهوضِ**) عامّةِ (**العِبادِ إلى مُعامَلتِهِ**)، مِنْ إقامةِ العُبوديّةِ لمُشاهَدةِ الرُّبوبيّةِ، وذلكَ هوَ قُرّةُ العيْنِ وغايةُ النَّعيمِ، (**فأوجبَ عليهِمْ وُجودَ طاعتِهِ**) وفي نُسخةٍ "خِدمَتِه"، ورتَّبَ على ذلكَ الثَّوابَ والعِقابَ، فلمّا علِمَ أنَّ مَنْ ينهَضُ لمعامَلتِهِ دونَ تنْبيهٍ وتأْكيدٍ قليلٌ، وأنَّ الأكثرَ

إنَّما يدعو لهوًى أو يشْتغِلُ بدُنيا، عزمَ لهم بالإيجابِ ليكونَ محجّةً للعاقلِ وحُجّةً على الغافِلِ، **(فساقَهُم إليهِ بسَلاسِلِ الإيجاب)** والتَّهديدِ، استدراجًا لَهُم إلى ما فيه نفعُهُمْ مِمّا لا عِلمَ لهُمْ بهِ، فيفعلُ بهم كما يفعَلُ وليُّ الطِّفلِ بهِ، مِنْ تأديبِهِ على استرسالِهِ فيما جُبِلَ عليْهِ، وإلزامِهِ ما يشُقُّ وهو كارِهٌ لهُ؛ لِغرَضِ ما فيهِ نفعُهُ مِمّا هوَ بهِ جاهِلٌ، فساقَهمْ إليهِ بالسَّلاسِلِ لما أنَّهمْ ليسَ فيهِمْ مِنَ الهِمّةِ والعزيمةِ، ما يردُّهُمْ إليهِ بلا غِلٍّ ولا شكيمةٍ.

واستَعارَ السَّلاسِلَ للإيجابِ؛ لِمُناسَبتِها لها من حيْثُ عدمُ الانفِكاكِ، وكونُها قائِدةً أو سابِقةً لمنْ أبى طوعًا، وتوصيلُها لعيْنِ المُرادِ، وهذا حالُ أكثرِ الخلْقِ؛ أمّا أهلُ الصَّفاءِ والمحبّةِ فلو لم يكُنْ وُجوبٌ، لعامَلوا الحقَّ بحقِّ العُبوديّةِ، وراعوا حُرمةَ الرُّبوبيّةِ، حتَّى أنَّ مِنهُم من يُطْلَبُ لدُخولِ الجنّةِ، فيأبى طلبًا للقيامِ بالخِدمةِ، فتوضَعُ في أعناقِهِمْ سلاسِلُ مِنْ ذهبٍ، وإليهِ يشيرُ قولُهُ ﷺ: **(عجبَ ربُّكَ مِنْ قومٍ يُقادون إلى الجنّةِ بالسَّلاسِلِ)**[1] أي: أظهرَ لكَ أنْ يُعجَبَ منهم؛ وذلكَ لأنَّ الجنّةَ محبوبةٌ بالطَّبعِ، جميلةُ الوصْفِ، لِما فيها مِنَ النَّعيمِ المُقيمِ والخُلودِ الدّائمِ، الحامِلِ لكُلِّ ذي لُبٍّ على المُسارَعةِ إليها، وبذلِ الجَهدِ في الوُصولِ إليها ولو تحمَّلَ أعظَمَ المشاقِّ، وهؤلاءِ يمتَنِعون مِنْ ذلك، زاهِدون فيهِ حتَّى قُيِّدوا إليها بالأغلالِ، ومِثلُ هذا مِنَ العَجَبِ العُجابِ.

وأصلُ ذلكَ قولُ بعضِهِمْ: علِمَ قِلَّةَ نُهوضِ عِبادِهِ إلى مُعامَلتِهِ التي هي عيْنُ مُرادِهِ، فأوجَبَها وأكَّدَ الإيجابَ، فساقَهُم بالسَّلاسِلِ لما منحَهُم مِنَ الثَّوابِ، فالعَجَبُ كُلُّ العَجَبِ أنْ يُساقَ الإنسانُ إلى أعلى الرُّتَبِ، لو كُشِفَ عنِ القُلوبِ لرأيْتَ المكروهَ عَيْنَ المحبوبِ.

ثُمَّ ما تقدَّمَ حالُ القوْمِ، أمّا أهلُ الفَهْمِ عنِ اللهِ والإفهامِ، فجَعَلوا الأوقاتَ كُلَّها للمولى، فتنعَّموا بهِ في الآخِرةِ والأولى، وأضافوا إلى الواجِباتِ نوافِلَ الخيراتِ، فصارتْ أعمالُهُمْ كُلُّها قُرُباتٍ، فلا يحتاجون إلى إجبارٍ لِصحّةِ عُبوديَّتِهِمْ للواحِدِ القهّارِ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٠١٠)، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: "عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل".

١٩٦. أوجَبَ عليْكَ وجودَ خِدمَتِه، وما أوجبَ عليْكَ إلّا دُخولَ جنَّتِه.

(**أوجَبَ عليْكَ**) لا لاحتياجِهِ إليْكَ (**وجودَ خِدمَتِه، وما أوجبَ عليْكَ إلّا دُخولَ جنَّتِه**) أوجَبَ عليْكَ الخدمةَ، وما أوجَبَ عليْكَ إلّا دُخولَ دارِ الرَّحمة؛ لأنَّ الأمرَ آيلٌ إليها، والأسبابُ عدَميّةٌ، والطّاعةُ مُتكفِّلةٌ بالجنّة لأنَّها ثَوابُها، وهوَ تعالَى لا يُضيعُ أجرَ مَنْ أحسَنَ عملًا، والآتي قطعًا كموجودٍ حالًا، فطِبْ نفسًا وقرّ عينًا.

وجنّاتُ المُطيع ثلاثةٌ: جنّةُ المُعامَلةِ بعِظَمِ المِنّةِ، وجنّةُ الفُتوحِ بظُهورِ الكَرامة، والجنّةُ الحِسّيّةُ في الآخرةِ، فعليْكَ أنْ لا تُقصِّرَ فيما لزِمَكَ مِنْ خِدمَتِه، فإنْ لم يُساعِدْكَ القدَرُ، فلا تيأَسْ فإنَّ ذلكَ يقدَحُ في يقينِكَ، كما قالَ:

١٩٧. منِ استغرَبَ أنْ يُنقذَهُ اللهُ مِنْ شَهْوَتِه، وأنْ يُخرجَهُ مِنْ وُجودِ غفْلَتِه، فقدِ استَعْجزَ القُدرةَ الإلهيّةَ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

(**منِ استَغرَبَ أنْ يُنقذَهُ اللهُ مِنْ**) أسْرِ (**شَهْوَتِه**) المُكبِّلةِ لهُ عنِ النُّهوضِ إلى حضرتِه، (**وأنْ يُخرجَهُ مِنْ وُجودِ غفْلَتِه**) التي شمِلَتْهُ في تفْصيلِه وجُمْلتِه، لما يشْهَدُ مِنِ استِحكامِ ذلكَ فيه، (**فقدِ استَعْجزَ القُدرةَ الإلهيّةَ**) ومَنِ استَعجزَها كفر أو كادَ، ومَنْ قوي إيمانُهُ بالقُدرةِ، لا يكونُ عِندَهُ شيءٌ أغربَ مِنْ شيءٍ، واستِغرابُ الخَوارِقِ مِنْ ضعْفِ اليَقينِ، كما قالَ: ﴿**وكانَ اللهُ على كُلِّ شيءٍ مُقتَدِرًا**﴾، ومِنْ جُملةِ الأشْياءِ نقلُ هذا العبْدِ مِنْ نقْصٍ إلى كَمالٍ، ومِنْ قبيحٍ إلى حسَنٍ، وقدْ فعلَ ذلكَ بخَلائقَ كانوا مِثلَكَ، فأنقذَهُمْ وخصَّهُمْ بعِنايَتِه، فلا تسْتَغرِبْ

أنْ يُنقِذَكَ مِنَ الشَّهوةِ والهوَى، وأنْ يُخرِجَكَ مِنَ الغفْلةِ بالوُقوفِ معَ السِّوى، فإنَّ قُلوبَ عِبادِهِ ونواصيهِمْ بيَدِهِ، فلا تقنَطْ واقصِدْ بابَهُ بذِلَّةٍ وافتِقارٍ، فعساهُ يُسهِّلُ ما استَصْعبتَهُ، ويُظهِرُ ما استَغْربتَهُ، ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠]، واعتَبِرْ بما صدرَ مِنْ زلَّاتِ الأكابِرِ، تدارَكهُمُ الملِكُ القادرُ، فأصلحَ أعمالَهم وأصفَى أحوالَهم، وبدَّلَ سيِّئاتِهم حسناتٍ، ورفعَهم إلى أعلى الدَّرجاتِ، كابنِ أدهَمَ، وعِياضٍ، وبِشرٍ، وابنِ دينارٍ، وذي النّونِ، والشِّبليِّ، وابنِ المُبارَكِ، فطالِعْ حِكايَتَهم[١]؛ فإنَّها عونٌ، والجأْ إلى اللهِ فإنَّهُ مِفْتاحٌ.

تنْبيهٌ: قالَ بعضُهم: "القُدرةُ الإلهيّةُ لها الإطلاقُ، فلا تتعيَّنُ على نسقٍ واحِدٍ، واللهُ تعالَى لهُ خرقُ العَوائِدِ في أيِّ شيءٍ كانَ"، الإطلاقُ مشيئتُهُ، وإذا كانتِ الجَماداتُ تنخرِقُ فيها العاداتُ، فيصيرُ الماءُ حجرًا وعكسُهُ معَ كونِها ليسَتْ بمحلٍّ تصريفٍ فيها، فكيْفَ بالإنسانِ الذي هو المحلُّ الأعظمُ لجَريانِ الأقدارِ عليهِ؟! ففي لمحِ البصَرِ تتغيَّرُ الأحوالُ وتنْتقِلُ الرِّجالُ.

تتِمّةٌ: ذكرَ الشَّيخُ عبدُ الغفّارِ القوصيّ أنَّ بعضَ أصحابِهِ قعدَ معَ زوجتِهِ يُباسِطُها، فلمّا أرادَ جِماعَها ظهَرَ لهُ ملَكٌ معَهُ دبّوسٌ ليَضرِبَهُ، فارتعدَ وترِكَ، فقالَ بصوْتٍ عظيمٍ: حتَّى متى أنتَ في شهواتِكَ؟ فقالَ: الآنَ، فلم يُجامِعْ حتَّى ماتَ. وكانَ للشَّيْخِ أبي مدينَ أمةٌ سوْداءُ توضِّئُهُ، فنظرَ لثديِها وقدْ برزَ، فوضعَ إصبعَهُ عليهِ وهو غافِلٌ عنِ اللهِ، فاسْوَدَّ إصبعُهُ، فلم يغفَلْ بعدُ.

وإذا عرضَ لكَ شهوةٌ أو غفلةٌ فلا تنْقطِعْ ولا تلْتفِتْ لها، فإنَّ ذلكَ لحِكمةٍ كما قالَ:

١٩٨ . رُبَّما ورَدَتِ الظُّلَمُ عليْكَ ليُعرِّفَكَ قَدْرَ ما منَّ بهِ عليْكَ.

(**رُبَّما ورَدَتِ الظُّلَمُ**) -بضمٍّ ففتحٍ: الشَّهواتُ والغفَلاتُ، أو ظُلُماتُ الاحتِجابِ والغيْبةِ في ليالي الهجْرِ والفُرقةِ، (**عليْكَ ليُعرِّفَكَ قَدْرَ ما منَّ به عليْكَ**) مِنْ نحوِ أنوارِ التَّجلّي، والحُضورِ في نهارِ القُرْبِ، والوصْلةِ، فتشكُرُهُ على ما كانَ أَوْلاكَ بواسِطةِ ما بهِ في هذهِ تولّاكَ.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية، وطبقات الشعراني، وغيرهما.

أوردَ عليْكَ ظُلمةَ الإبعادِ؛ ليُعرِّفَكَ قدرَ نِعمةِ الإمدادِ، ولا يعرفُ قدرَ نِعمةِ الحُضورِ **إلّا** مَنْ هو في ليلِ البُعدِ مغمورٌ، وإنَّما يعرِفُ قدرَ الماءَ مَنْ بُلِيَ بشِدَّةِ الظَّما.

وابتِلاءُ العبْدِ بها تارةً يكونُ طردًا، وتارةً تأديبًا، وتارةً تقريبًا، فإنْ أثمرَتِ انكسارًا **وتذكيرًا** كانتْ تأديبًا، أو إنابةً كانتْ تقريبًا، أو تعلُّقًا بها كانَتْ طردًا، وقيلَ: "الولدُ العاقُّ المُصِرُّ **على** تأبِّيهِ، إنَّما يعرِفُ قدرَهُ يومَ يموتُ أبيهِ".

***

١٩٩. منْ لم يعرِفْ قدْرَ النِّعمِ بوُجدانِها، عُرِّفَ بوُجودِ فُقْدانِها.

(منْ لم يعرِفْ قدْرَ النِّعمِ بوُجدانِها) أي معَ وُجودِها، وذلكَ شأنُ العامّةِ لغلبةِ **الغفْلةِ** عليهِمْ، **(عُرِّفَ بوُجودِ فُقْدانِها)** حتَّى يرجِعَ إلى مولاهُ كَرْهًا إن لم يفعلْ طَوْعًا، **فإذا لم تعرِفْ** مِقدارَ النِّعمِ وأنْتَ لها واجِدٌ، عرَّفَكَ وأنْتَ لها فاقِدٌ؛ قلَّما تعودُ النِّعمُ بعدَ الزَّوالِ، **فالشُّكرُ** عِقالُها، يا لَهُ مِنْ عِقالٍ! ولهذا قالَ بعضُهم: "نِعَمُ اللهِ مجهولةٌ، وتُعرَفُ إذا فُقِدَتْ"، **وقالَ سريٌّ**: "منْ لم يعرِفْ قدرَ النِّعَمِ، سُلِبَها مِنْ حيثُ لا يعلَمُ"، وقالَ فضيلٌ: "إذا كانَتِ النِّعَمُ **وسيمةً**، فاجعَلِ الشُّكرَ لها شكيمةً".

والعبْدُ كُلَّما غَمرَتْهُ النِّعمةُ جهِلَ مِقدارَها، فإذا شاهدَ أصحابَ البَلاءِ والمِحَنِ عرفَ **قدرَ** ما هو فيهِ، وقد كانَ البُرهانُ المتبولي إذا دخلَ مصر أوَّلُ ما يبدأُ بالمارِسْتانِ[1]، **فيَطوفُ على** المرضى؛ ليذكُرَ ما هو فيهِ، ويَشْكُرَ اللهَ على ما صرفَ عنهُ مِنَ البَلاءِ، ويقولُ: "مَنْ أرادَ **أنْ** ينظُرَ إلى قدرِ ما صُرِفَ عنهُ مِنَ البَلاءِ، فليُلازِمْ دُخولَ بيْتِ الوالي والحبْسِ والمرِسْتانِ، **فيَكثُرَ** حمْدُهُ للهِ، فكمْ استَحقَّتِ العيْنُ القلعَ أو العمَى بنظرِها لما لا يحِلُّ! والأُذُنُ الصَّمَمَ لسَماعِها **ما** لا يحِلُّ! وكذا جميعُ الجَوارِحِ".

(١) المصحة أو المستشفى أو دار المرضى، لفظة فارسية معربة.

٢٠٠. لا تُدهِشُكَ وارِداتُ النِّعمِ عنِ القيامِ بحُقوقِ شُكرِكَ، فإنَّ ذلِكَ مِمّا يَحُطُّ مِنْ وُجودِ قدرِكَ.

(**لا تُدهِشُكَ وارِداتُ النِّعمِ**) أي: تتابُعُها وكثرتُها (**عنِ القيامِ بحُقوقِ شُكرِكَ**) اعتباراً بوصفِكَ مِنَ العجزِ عنِ الوَفاءِ بذلِكَ، (**فإنَّ ذلِكَ مِمّا يَحُطُّ مِنْ وُجودِ قدرِكَ**) عِنْدَ ربِّكَ، فإذا ترادفَتْ عليْكَ النِّعَمُ، فلا تَدهَشْ عنِ الشُّكرِ، فإنَّهُ الأهمُّ؛ متى أدهشَكَ ذلكْ، فقد انحطَّ قدرُكَ وأنتَ هالِكٌ. وأصلُهُ: إرادةُ مُقابَلةِ فضلِه بفِعْلِنا، وذلك قِلَّةُ معرفةٍ بجَلالِهِ، ورؤيةُ النَّفسِ ونِسبَتِها في الأفعالِ، واعتِقادُ أنَّ الشُّكرَ رسميٌّ عقليٌّ، فيريدُ مُقابلَةَ ما يقتضيه معقولُهُ بمِثلِه، فلا يَتناهى له ما يُريدُ؛ لعدم تَناهي ما يترتَّبُ عليه فيدْهَشُ، ولو رآهُ رسمًا شرعيًّا كما هو الحقُّ، كفاهُ في شُكرِ النِّعمةِ ما وضعَهُ بإزائها مِنَ العُبوديّةِ، قالَ داودُ: "إلهي، ابنُ آدمَ ما فيه شعرةٌ إلّا فوقَها نِعمةٌ وتحتها نعمةٌ، فمنْ أينَ يُكافِئها؟!" فأوحى اللهُ إليه: "أنّي أُعطيهِ الكَثيرَ وأرضى باليَسيرِ"، وقالَ سهلٌ: "ما مِنْ نِعمةٍ إلّا والحَمْدُ أفضلُ منها".

فالحقُّ أنْ تعمَلَ للهِ بما أمرك في نِعَمِه فلا تعصيه، وتحمَدُهُ عليها مُعتَقِدًا أنَّهُ يقبَلُ اليَسيرَ ويُعطي الكَثيرَ بلا عِلَّةٍ ولا سبَبٍ، وإنَّما أقامَ الأسبابَ حِفْظًا لحُرمةِ الرُّبوبيّةِ، وتحقيقًا للعُبوديّةِ.

وإنَّما يُولِّدُ هذا الدَّهَشَ غالبًا تمكُّنُ الهوى مِنَ القلبِ، وأُلفةُ البَطالةِ حتَّى يتعلَّلَ بتلكَ العِللِ والأماني، والنَّظرُ إلى مناهي الأُمورِ حتَّى تكسَلَ النَّفسُ عنِ المبادئِ، كما قالَ:

٢٠١. تمكُّنُ حلاوةِ الهوَى مِنَ القلبِ هو الدّاءُ العُضالُ.

(**تمكُّنُ حلاوةِ الهوَى مِنَ القلبِ**) أي: رُسوخُ لذَّتِه المُدرَكةِ بالوُجدانِ (**هو الدّاءُ العُضالُ**)، أي: الذي أعضلَ أمرُ بُرئِه فلا تزيدُهُ المُداواةُ إلّا تمكُّنًا وقوّةً.

وإنَّما تتمكَّنُ حلاوَتُهُ منه بالرِّضى عنِ النَّفسِ والغفْلةِ عنها والاسترسالِ معَ مُرادِها، **وإنَّما** كانَ مُعضِلًا لأنَّهُ راتبٌ في النَّفسِ، لازمٌ لها مُلازَمةَ الوصْفِ لموصوفِه، فلا تسمحُ بهِ **إلّا بعدَ** جَهدٍ، ولأنَّهُ لا يكونُ غالبًا إلّا مُلتبِسًا بحظٍّ أو معنًى يَخفى بهِ ضررُهُ إلّا بدِقَّةِ نظرِهِ؛ **ولأنَّهُ إذا** تمكَّنَ أثَّرَ عِللاً على وَفْقِه، فكانَ في محلِّ الحُجَّةِ على صاحبِه، يفتحُ بابَ التَّأويلِ **والجدالِ الذي** هو مفتاحُ الضَّلالِ، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، ولهذا قيلَ: "**نحتُ الجبالِ** بالأظفارِ أيسرُ مِنْ زَوالِ الهوَى إذا تمكَّنَ".

قالَ بعضُهم: "النَّفسُ عدوٌّ للهِ، فمنْ أطاعَها عصاهُ الكونُ كُلُّهُ، ومنْ خالفَها **أطاعَهُ** الكونُ كُلُّهُ؛ لأنَّهُ كُلَّهُ يرضى لِرضَى خالقِه، ويغضبُ لغضبِه".

أُوحى اللهُ تعالى إلى داودَ: "كُنْ خصمًا لي على نفسِكَ؛ فإنْ فعلْتَ، حَقَّتْ **موالاتُكَ لي**"، وقالَ رجُلٌ لأبي يزيدَ: "أوصني"، قالَ: "عادي نفسَكَ، فإنَّ به تصِلُ موالاتُكَ للهِ **وعُبوديَّتُكَ** لَه، وتخدِمُكَ الأشياءُ". قالَ: "ورأيْتُ ربّي في النَّومِ، فقُلْتُ: كيْفَ الطَّريقُ إليْكَ؟ **قالَ: اترُكْ** نفسَكَ وتعالَ".

وإذا كانَ كذلكَ فلا يُزيلُ هوَى النَّفسِ إلّا قاهرٌ، كما قالَ:

٢٠٢. لا يُخرِجُ الشَّهْوةَ مِنَ القلْبِ إلّا خوفٌ مُزعِجٌ أو شوْقٌ مُقلِقٌ.

(**لا يُخْرِجُ الشَّهْوةَ**) المُتمَكِّنةَ (**مِنَ القلْبِ إلّا**) واردٌ قويٌّ، يغلِبُ عليْهِ سُلطانَهُ، **وذلكَ** إمّا (**خوْفٌ مُزعِجٌ**) لا يقَرُّ معَهُ قرارٌ، (**أو شوْقٌ**) إلى الحقِّ (**مُقلِقٌ**) لا يُمكِنُ معَهُ استِقرارٌ، **فلا** استِقلالَ لغيرِهما بذلكَ؛ لأنَّهما يأتيانِ مِنْ بساطِ قهرٍ وجَلالٍ، وإذا بدَتْ أوصافُ الحقِّ **لم يبْقَ** أثرٌ مِنْ أوصافِ الخلْقِ، فالخوفُ انزعاجُ السِّرِّ مِنَ الوزْرِ عِنْدَ مُشاهَدةِ القهْرِ، **والشَّوقُ هياجُ** القَلقِ لتمكُّنِ الخوفِ، وغيرُ المُزعِجِ والمُقلِقِ لا يُفيدُ.

ومِنْ مثيراتِ الخوْفِ النَّظرُ إلى القُبورِ، وذَهابِ الخلْقِ على مرِّ الدُّهورِ:

خليليَّ هُبَّا طالَما قد رقدْتُما * ألا تَنشُدانِ اليومَ ما قد فقدتُما
أيْنَ إخْوانُ عاشَرناهُم وخِلّانُ * أينَ زيدٌ وعمرو وفُلانُ وفُلانُ

أيْنَ رُفقاءُ الكُؤوسِ، ومنْ بقي نسيمُ ريّاهُم في الرؤوسِ، وآثارُ رؤياهُم في النُّفوسِ؟! ألَا يَرعُنا[1] موْتُ الآباءِ والأُمَّهاتِ عنْ أباطِلِ التُّرَّهاتِ، ألَا إنَّ المرءَ غافِلٌ مُطرِقٌ، والموتَ واعِظٌ مُقلِقٌ، ينادي أقوامًا يظُنُّهم قيامًا وهم قُعودٌ، ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: ١٨]، يكرَهون جَرْعَ الموْتِ وهو يقولُ: أنا ساقيكُم، ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨].

تنْبيهٌ: هذهِ الحِكمةُ –أعني قولَهُ: لا يُخرِجُ الشَّهوةَ مِنَ القلْبِ... إلى آخرِهِ– أصلُها لابنِ سابِقٍ[2]، كما حكاهُ عنْهُ السّلمي وغيرُهُ، وعبارتُهُ: "خلقَ اللهُ القُلوبَ مساكِنَ للذِّكرِ، فصارتْ مساكِنَ للشَّهَواتِ، ولا يمحو الشَّهواتِ منها إلّا خوفٌ مُزعِجٌ أو شوْقٌ مُقلِقٌ"[3].

ومِنْ مُثيراتِ الخوْفِ أيضًا العِلْمُ بأنَّهُ لا يُحِبُّ أنْ يكون فيكَ شِرْكةٌ لغيرِهِ:

٢٠٣. كما لا يُحِبُّ العمَلَ المُشترَكَ، كذلكَ لا يُحِبُّ القلْبَ المُشترَكَ، العملُ المُشترَكُ لا يقبلُهُ، والقلبُ المُشْترَكُ لا يُقبِلُ عليْهِ.

(**كما لا يُحِبُّ العمَلَ المُشترَكَ**) بنحوِ شوْبِ رياءٍ أو تصنُّعٍ، (**كذلكَ لا يُحِبُّ القلْبَ المُشترَكَ**) بمحبّةِ غيرِهِ مِنْ شهوةٍ أو غيرِها، وكما لا يُحِبُّ في العملِ إلّا الإخلاصَ، لا يُحِبُّ في القلبِ إلّا الاختِصاصَ.

(١) أصله من الوَرَع وهو الكفُّ عن القبيح، يقال وَرِعَ يَرِعُ رِعةً مثل وَثِقَ يَثِقُ ثِقَةً، ... وفي حديث ابن عوف (وبنَهْيه يَرعُون) أي يكفُّون. [لسان العرب]

(٢) أبو محمد عبد الله بن خُبَيْق بن سابق الأنطاكي، من زهاد الصوفية، تخرج على يوسف بن أسباط، وأسند الحديث، وطريقته في التصوف طريقة النوري. الحلية (١٠/١٨٦)، وطبقات السلمي (ص١٢٠)

(٣) عبارة التنبيه هذه وردت في المخطوطة في نهاية شرح الحكمة التالية "كما لا يحب العمل المشترك..."، وهو ليس موضعها.

ووُجودُ الشِّرْكةِ في العملِ لغيرِ اللهِ مِنْ تعظيمِ القلْبِ سِواهُ، فلو استَحضَرَ عظَمةَ اللهِ ما زَيَّنَ عملَهُ لغيرِهِ. وشِرْكُ الرِّياءِ يدُبُّ دبيبَ النَّملِ في كُلِّ إنسانٍ إلّا منْ عصمَهُ اللهُ بالأمانِ، **القلْبُ بيْتُ الرَّبِّ** فسُكنى غيرِهُ فيهِ أعظمُ ذنبٍ، طهِّرْ قلبَكَ مِنَ الأغيارِ تلوحُ لكَ الأنْوارُ! طهِّرْ بيتَهُ للمَلائكةِ الطّائفينَ ولا تجعلْهُ مأوًى للشّياطينَ العاكفينَ! إنَّما ينفعُكَ القلبُ السَّليمُ، لا مالٌ ولا بنون ولا صديقٌ حميم. والعملُ المُشترَكُ ما داخلَهُ رياءٌ أو تصنُّعٌ أو تكلُّفٌ، والقلبُ المُشْترَكُ ما داخلَهُ هوًى أو أُنسٌ بالخلقِ أو اعتِمادٌ عليهِمْ، ومعنى المحبّةِ منهُ تعالى يرجِعُ للرِّضَى والقَبولِ.

(**العملُ المُشترَكُ لا يقبلُهُ**) فلا يُثيبُ عليه لكونِهِ غيرَ مُختصٍّ بهِ، وهو أغنى الشُّرَكاءِ عنِ الشِّرْكِ، كما في الحديثِ القُدسيِّ[1]، (**والقلبُ المُشْترَكُ لا يُقبِلُ عليْهِ**) لأنَّهُ لا يُحِبُّ ما لهُ أنْ يكون لغيرِهِ، وما لا يقبلُهُ مردودٌ على صاحبِهِ، وإذا رُدَّ عليهِ وُكِلَ إليهِ. وإنَّما لا يَقبلُ هذا ولا يُقبِلُ على هذا لعِزَّتِهِ وجلالِهِ، قالَ ابنُ حِبّانَ: "بينما أنا أدورُ في جبالِ لبنانَ إذا شابٌّ أحرقتْهُ السُّمومُ والرِّياحُ، فلمّا رآني هربَ، فتبعتُهُ وقُلتُ: عِظْني بكلِمةٍ أنتفِعُ بها، قالَ: احذرْهُ فإنَّهُ غيورٌ، لا يُحِبُّ أنْ يرى في قلبِ عبدِهِ سِواهُ".

فائدةٌ: وقعَ للشَّبَليِّ أنَّ زوجتَهُ ناولتْهُ لبنًا فقالَ: "أخافُ أنْ يضُرَّني"، فقعدَ سِنينَ يقولُ في مُناجاتِهِ: "يا ربِّ اغفرْ لي، فإنَّكَ وعدْتَ بالمغفرةِ كُلَّ منْ لا يُشرِكُ بكَ، وأنتَ تعلمُ أنّي لم أشرِكْ"، فقيلَ لهُ: "ولا يومَ اللَّبَنِ؟!" فخَجِلَ، وذلكَ لإضافةِ الضَّررِ إليْهِ.

ووقعَ للجَنيدِ أنَّهُ قالَ: "الأرضُ مُحتاجةٌ للمَطرِ"، فلمّا ماتَ قيلَ لهُ: ما فُعِلَ بكَ؟ قالَ: "خيراً، لكنَّهُ عاتَبَني بكلِمةٍ قُلتُها" فذكرَها، فقالَ: "أَتُنبِئُني أنَّ الأرضَ مُحتاجةٌ للمَطَرِ، وأنا العليمُ الخَبيرُ؟! ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]".

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٩٨٥) وغيره عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: (قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه). وقال الإمام النووي في شرح مسلم (١١٥/١٨): "وقع في بعض الأصول: "وشركه"، وفي بعضها: "وشريكه"، وفي بعضها: "وشركته"، ومعناه: أنا غنيٌّ عن المشاركة وغيرها، فمن عمل شيئًا لي ولغيري لم أقبله بل أتركه لذلك الغير، والمراد: أنّ عمل المرائي باطلٌ لا ثواب فيه ويأثم به".

تتِمّةٌ: قالَ بعضُهُم: "شأنُ الكاملِ تركُ الشَّهواتِ حتَّى يخِفَّ بدنُهُ، ويصيرَ كقُطْنٍ محلوجٍ يكادُ يلحَقُ بالملإِ الأعلى"، ولولا وُقوعُ ذلكَ لأحدَهِم ما قدرَ يطيرُ مِنْ بلدٍ لآخرَ؛ والبدنُ يخِفُّ ويثقُلُ بحسَبِ تناوُلِهِ للشَّهَواتِ قِلَّةً وكثْرةً، فخِفَّتُهُ بقدرِ ميْلِهِ للآخرةِ، وثِقْلُهُ بقدْرِ ميْلِهِ للدُّنْيا، قالَ شيْخُنا الشَّعْراني: "قالَ لي شيْخُنا شيْخُ الإسلامِ زَكريّا: لا يُشتَرَطُ لحُصولِ الطَّيرانِ الإسلامُ، فقدْ وقعَ لجَماعةٍ مِنَ الرُّهْبانِ".

واعلَمْ أنَّ الخوْفَ والشَّوْقَ إنَّما نفعاكَ مِنْ حقائقِ الأنْوارِ، فلذلِكَ عقَّبَهُما بها، فقالَ:

***

٢٠٤. أنوارٌ أُذِنَ لها في الوُصولِ، وأنوارٌ أُذِنَ لها في الدُّخولِ.

(**أنوارٌ**) تردُ على القلْبِ مِنْ خزائنِ الغيْبِ (**أُذِنَ لها في الوُصولِ**) إلى ظاهِرِ القلْبِ فقطْ، فوصلتْهُ ولم تدخُلْ باطِنَهُ، وهوَ ما أثَّرَ فيهِ، ولَمْ يوجِبْ له إقدامًا ولا إحجامًا، فصاحِبُها يُشاهِدُ بها نفسَهُ وربَّهُ، ودُنياهُ وآخِرَتَهُ، فتارةً معَ نفسِهِ وأُخرَى معَ ربِّهِ، وطوراً يسعى في العملِ لآخِرَتِهِ، وطوراً يعمَلُ لدُنياهُ، (**وأنوارٌ أُذِنَ لها في الدُّخولِ**) إلى باطِنِه فخالطتْهُ، فأوجَبَتْ لهُ أنَّهُ لا يُحِبُّ سِواهُ ولا يعبُدُ إلّا إيّاهُ، وهذا هو المطلوبُ.

فالأوَّلُ يوجِبُ الإيمانَ، والثّاني يوجِبُ الإيقانَ، الأوَّلُ يُذكِّرُ باللهِ، والثّاني يُنهِضُ إلى اللهِ، وإذا كانَ الإيمانُ بظاهِرِ القلْبِ، أحبَّ العبْدَ دُنياهُ وآخِرَتَهُ، وكانَ تارةً معَ نفسِهِ وأُخرَى معَ ربِّهِ، فإذا دخلَ باطِنَهُ أبغضَ دُنياهُ وهجرَ هواهُ.

والنّورُ سبَقَ أنَّهُ الظِّلُّ الواقِعُ في الصَّدرِ مِنْ معاني الأسماءِ والصِّفاتِ[1]، وهو نوعانِ: مُستودَعٌ في القُلوبِ، ووارِدٌ مِنْ خزائِنِ الغُيوبِ كما قدَّمَهُ المؤلِّفُ، ولو جمعَهُ كُلَّهُ بمحلٍّ واحِدٍ كانَ أولَى.

---

(١) انظر حديثه عن النور في شرح الحكمة رقم ١٥٣ ص ٢٦٥.

٢٠٥. رُبَّما وردَتْ عليْكَ الأنْوارُ، فوجدَتِ القلبَ محشوًّا بصورِ الآثارِ، فارتحلَتْ مِنْ حيْثُ نزلَتْ.

(**رُبَّما وردَتْ عليْكَ الأنْوارُ**) لتصِلَ للقلْبِ أو تدخلَهُ (**فوجدَتِ القلبَ محشوًّا بصورِ الآثارِ**) مِنْ نحوِ شَهواتٍ وعاداتٍ، فلم تجدْ محلًّا تسْتقرُّ به لامتلاءِ محلِّها وهو القلبُ مِنَ الرُّعوناتِ البشَرِيَّةِ، (**فارتحلَتْ مِنْ حيْثُ نزلَتْ**)، ورجعَتْ مِنَ الطَّريقِ الذي مِنْهُ أتتْ؛ لتقدُّسِها وعدمِ قبولِ المحلِّ بتلطُّخِهِ بالأدناسِ. يعني رُبَّما لمحَ القلْبَ شيءٌ مِنَ المعارِفِ وطافَتْ بهِ، ثُمَّ لم تثبُتْ فيهِ بلْ لم تدخلْهُ؛ لكونِهِ خرجَ مِنْ بِساطِ الهوَى ما صرفَها عنْهُ، مِنْ شهوةٍ أو غفْلةٍ، فذهبَ في هزِّ الرؤسِ وتقطيرِ العُيونِ، وما ذاكَ إلّا لما انطبعَ مِنْ صوَرِ الآثارِ في مرآةِ القلْبِ.

وعلامتُهُ أنْ يتأثَّرَ بما سمعَ أو رأى، أو ذكرَ أو تذكَّرَ، ولا يجدَ لهُ فائدةً في الخارجِ، وأنْ تتَّسِعَ دائرةُ فهمِهِ، ولا تنْتَهي بهِ إلى التَّحقُّقِ بعِلمِهِ، وأنْ يُبصرَ الحقَّ ويعرِفَ الباطِلَ، ويجدَ في نفسِهِ أيْنَ هُما منه، ثُمَّ لا يعملُ عليهِما، ولو دخلَ قلبَهُ لم يُمكِنِ التَّخلُّفُ.

وإذا كانَ كذلكَ:

٢٠٦. فرِّغْ قلبَكَ مِنَ الأغيارِ، تملأْهُ بالمعارِفِ والأسرارِ.

(**فرِّغْ قلبَكَ مِنَ الأغيارِ**) وامحُ عنه حُبورَ[1] الآثارِ بالتَّخلّي عنها والتَّحلّي بضِدِّها، (**تملأْهُ بالمعارِفِ والأسرارِ**) التي هي نتائجُ ما حصلَ بهِ التَّجلّي.

فالمطلوبُ تطهيرُ القلْبِ عمّا سِواهُ، وسِرُّ ذلكَ حِكمةُ المُناسَبةِ، فلا يوضَعُ أرفعُ الأشياءِ في أقلِّها، وهو القلبُ المُتلوِّثُ بالأغيارِ.

---

(١) الحِبْرُ: الذي يكتب به، وموضعه المِحْبَرَةُ. والحِبر أيضاً: الأثَر، والجمع حُبورٌ. [الصحاح في اللغة]

تنبيهٌ: قالَ بعضُهُم: "الأُمِّيُّ الذي لم ينتَقِشْ في مِرآةِ قلبِه شيءٌ مِنَ العُلوم الفِكريّةِ النَّظريّةِ، أقربُ إلى ملءِ قلبِهِ بالأسرارِ؛ لارتِفاعِ الوسائطِ مِنَ الفِكرِ والعقْلِ، فيكونُ عِلمُهُ بالحقِّ مُفاضًا مِنَ الحقِّ بإخبارِهِ تعالى عنْ نفسِهِ على يدِّ ملَكِ الإلهامِ، وتكونُ المسألةُ منهُ وشرحُها منهُ، وذلكَ لبقاءِ الأُمّيِّ على أصلِ فِطرَتِهِ مِنَ الصَّفاءِ.

وأمّا مَنِ انتَقَشَ عُلومَ الأفكارِ في مِرآتِه فيبعُدُ أنْ يدخُلَ قلبَهُ شيءٌ مِنْ عُلومِ الوَهْبِ، وإذا أرادَ اللهُ أنْ يُعطيَهُ منها شيئًا، محا مِنْ قلبِهِ كُلَّ كلامٍ طريقُهُ النَّظرُ، والأحاديثُ النَّبويّةِ لا تُزاحِمُ عُلومَ الوهْبِ؛ لأنَّها وحيٌ، والوحيُّ نورٌ، والأنوارُ تتداخلُ.

وفي الفُتوحاتِ عنِ الغَزالي قالَ: "لمّا أردْتُ الانخراطَ في سِلْكِ القوْمِ وأخْذِ مأخَذِهم، خلَوْتُ بنفسي، واعتزلْتُ عنْ نظَري وفِكْري، واشتَغلْتُ بالذِّكْرِ، فانقدَحَ لي ما لم يكُنْ عندي، ففرِحْتُ وقُلتُ: حصلَ لي ما حصلَ للقوْمِ، فتأمَّلْتُ، فإذا فيهِ قوّةٌ فقهيّةٌ ممّا كُنْتُ عليْهِ فعلِمْتُ أنَّهُ ما خلصَ لي، فعاوَدْتُ الخَلوةَ، فوجدْتُ كما وجدْتُ أوَّلًا وأوضحَ وأسنى، فسُررْتُ ثُمَّ تأمَّلْتُ، فإذا فيهِ قوّةٌ فِقهيّةٌ، فعاودْتُ مِرارًا، والحالُ الحالُ، وغايةُ أمري أنّي تميَّزتُ عنِ النُّظّارِ أصحابِ الأفكارِ، فعلِمْتُ أنَّ الكِتابةَ على المحْوِ ليسَتْ كالكِتابةِ على الصَّفاءِ الأوَّلِ والطَّهارةِ الأولى". انتهى.

وسببُ بُعدِ عُلومِ الوهْبِ على العُقلاءِ أنَّها تجيءُ مِنْ غيرِ طريقِ الفِكرِ، فلا يقبَلُها إلّا على غضاضةٍ؛ لأنَّ الموازينَ العقْليّةَ وكثيراً مِنَ النُّقولِ لا تمشي في دائرةِ طورِ الوِلايةِ، وما أعطى اللهُ صاحِبَ العقْلِ الميزانَ إلّا ليَزِنَ بها للهِ، لا على اللهِ.

والنّاسُ في ترْكِ ميزانِ عَقلِهِمْ على طبَقاتٍ: منهم منْ دخلَ حضرةَ اللهِ بميزانِهِ، فوزنَ على اللهِ، فهو يرُدُّ عليهِ كُلَّ ما لم يقبلْهُ عقلُهُ، فهذا مِنَ الهالكينَ، ومنهم مَنْ وضعَ ميزانَهُ ببابِ الحضْرةِ، ودخلَ بلا ميزانٍ، فهو لا يؤمَنُ عليْهِ إذا خرجَ أنْ يزنَ فيهلَكَ، لكِنَّهُ أكثَرُ أدبًا مِنَ الأوَّلِ، ومنهم منْ سَبَكَ ميزانَهُ وأذابَها حتَّى خرجَتْ عنْ كونِها ميزانًا، فهذا يُرجَى لهُ الفتْحُ.

تتمّةٌ: مراتبُ الأنوارِ ثلاثةٌ: بارِقُ نورٍ يلوحُ للقُلوبِ ويسكُنُ لها، فلا يجدَ غيرُهُ مَساغًا لدُخولِهِ فيها، وبارِقٌ يلوحُ ولا يسكُنُ، بلْ يرتَحِلُ بنفسِ نُزولِهِ، وبارِقٌ يسكُنُ ولا يلوحُ، بلْ يدخُلُ القلْبَ ويغْمرُهُ مِنْ حيْثُ لا يشعُرُ بهِ صاحِبُهُ.

وإذا كانَ كذلِكَ فالأمرُ راجِعٌ إليْكَ منْكَ، كما قالَ:

٢٠٧. لا تستبطِئْ منه النَّوالَ، ولكن استبطِئْ مِنْ نفسِكَ وُجودَ الإقبالِ.

(**لا تستبطِئْ منه النَّوالَ، ولكن استبطِئْ مِنْ نفسِكَ وُجودَ الإقبالِ**)، لا تسْتَبطِئْ منه الأرَبَ، بلْ استَشعِرْ مِنْ نفسِكَ سوءَ الأدَبِ؛ لأنَّ الإقبالَ بِساطُ النَّوالِ، ومنْ أتى بابَ الكَريمِ بنَزاهةِ نفْسٍ وأدَبٍ حصلَ لهُ الأَرَبُ، لإتيانِهِ الأمْرَ مِنْ بابِهِ وتوسُّلِهِ بأسبابِهِ، ومَنْ عكَسَ فجديرٌ بالحرمانِ.

قالَ بعضُهم: "أسرارُ الحقِّ لا تكونُ إلّا في محلٍّ طاهِرٍ مِنْ دنَسٍ، نظيفٍ مِنْ كُلِّ وَسواسٍ وهَوَسٍ؛ لأنَّها مِنْ بِساطِ مُقدَّسٍ، فلا يصِحُّ وُرودُها على محلٍّ دنَسٍ، ويكونُ ذلِكَ مِنْ أصلِ الجِبِلَّةِ ومقامِ الفِطرةِ، سواءٌ واطأتْهُ الجَوارِحُ فلَم تُلِمَّ بذنْبٍ، أو ألَمَّتْ بغيْرِ رضًى ولا استِحسانٍ، ولا إيثارٍ ولا إصرارٍ، فيكونُ حينئذٍ مُرتَسِمًا لا حقيقةَ لهُ، والعوارِضُ لا تقدحُ في الأُصولِ.

***

ثُمَّ الحُقوقُ قِسمانِ:

٢٠٨. حقوقٌ في الأوقاتِ يُمكنُ قضاؤها، وحُقوقُ الأوقاتِ لا يُمكنُ قضاؤها، إذ ما مِنْ وقتٍ يرِدُ إلّا وللهِ عليْكَ فيهِ حقٌّ جديدٌ وأمرٌ أكيدٌ، فكيفَ تقضي فيهِ حقَّ غيرِهِ وأنْتَ لم تقضِ حقَّ اللهِ فيهِ؟!

(حقوقٌ) كائنةٌ **(في الأوقاتِ)** وهي أنوارُ العباداتِ الظّاهرةِ كالصَّلاةِ، وهذهِ **(يُمكنُ قضاؤها)** إذا فاتَتْ، **(وحُقوقُ الأوقاتِ)** وهي المُعامَلاتُ الباطنةِ التي تقتضيها أحوالُ العُبوديّةِ، وواردِاتُ قلبِهِ المُتلوِّنةُ عليْهِ، ووقتُ كُلِّ عبدٍ ما هو عليْهِ مِنْ ذلكَ، فهو مُطالَبٌ بحُقوقِ كُلِّ ذلكَ عِنْدَ وُرودِهِ عليْهِ، وذلكَ مُتتابِعٌ مُتدارِكٌ لا يُمكِنُ فِكاكُهُ، فلذلكَ **(لا يُمكِنُ قضاؤها)** لتَدافُعِ أوقاتِها وتتابُعِ موجِباتِها.

قالَ المرسي: "أوقاتُكَ أربعةٌ فقطْ: نِعمةٌ وبليّةٌ، وطاعةٌ ومعصيةٌ، وللهِ عليْكَ في كُلٍّ منها رسمُ عُبوديّةٍ؛ فوقْتُ النِّعمةِ: الشُّكرُ، والبَلِيّةِ: الصَّبرُ، والطّاعةِ: شُهودُ المِنّةِ، والمعْصيةِ: التّوبةُ والاستِغْفارُ".

وعُلِمَ مِمّا تقرَّرَ أنَّ الأوقاتَ كُلَّها للهِ، **(إذ ما مِنْ وقتٍ يرِدُ)** ولو نفَسًا واحِدًا **(إلّا وللهِ عليْكَ فيهِ حقٌّ جديدٌ)**، هوَ شُكرُهُ على خُروجِ ذلِكَ النَّفَسِ، **(وأمرٌ أكيدٌ)** وهو ما يوجِبُهُ ذلكَ الوقْتُ مِنَ الحُكْمِ، فلا يَسعُكَ إلّا أنْ توَفِّيهِ حينَئذٍ، وكُلُّ نفَسٍ يقتَضي تجلّيًا، وذلك التَّجلّي يقتضي عُبوديّةً، وهي تقتضي تجلّيًا، فأنتَ في كُلِّ نفَسٍ سالِكٌ طريقًا إلى الحقِّ.

والحقُّ الجديدُ ما يتجدَّدُ مِنَ الأحكامِ، كشُكرِ النِّعمةِ، وتَوْبةِ الذَّنْبِ، وصبرِ البَلاءِ، وحَمْدِ العافيةِ، والأمْرُ الأكيدُ ما يتوجَّهُ مِنْ ذلكَ الحقِّ، كالصَّدَقةِ شُكْرًا لنعمةِ المالِ، وردِّ المظالِمِ تحقيقًا للتَّوبةِ؛ وإذا كانَ كذلكَ فكُلُّ وقْتٍ مُستَحِقٌّ لما وُجِّهَ فيهِ، **(فكيفَ تقضي فيهِ حقَّ غيرِه)** مِنْ نفسٍ أو غيرِها، **(وأنْتَ لم تقضِ حقَّ اللهِ فيهِ)** وهو القيامُ بما يُطلبُ مِن الخِدْمةِ، وحِفْظُ وُجودِ الحُرْمةِ، ما ذاكَ إلّا لشُمولِ الغفْلةِ، والاغتِرارِ بوُجودِ المُهلةِ. قالَ المُصطَفَى ﷺ: (قضاءُ اللهِ أحقُّ وشَرطُهُ أوثَقُ)[١].

تنْبيهٌ: قالَ الشّاذليُّ: "الطَّريقُ ليسَتْ بالرَّهبانيّةِ، ولا بأكْلِ الشَّعيرِ، بلْ بحِفْظِ الأوْقاتِ عنِ الضَّياعِ؛ فإنَّ طريقَهمْ جِهادٌ لا صُلْحَ فيه".

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ، واللفظ له (٢١٦٨)، ومسلمٌ (١٥٠٤)، وغيرهما من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعًا.

قالَ الحكيمُ التِّرمذيُّ[1]: "رأْسُ مالِكَ قلبُكَ ووقتُكَ، وقد شغلَتْ نفسُكَ قلبَكَ بهواجسِ الظُّنونِ، وضيَّعَتْ وقتَكَ بارْتِكابِ ما لا يعْنيكَ، فمتى يربحُ مَنْ خسرَ رأسَ مالِهِ؟!".

***

٢٠٩. ما فاتكَ مِنْ عُمْرِكَ لا عِوَضَ لهُ، وما حصلَ لكَ مِنْهُ لا قيمةَ لهُ.

(**ما فاتكَ مِنْ عُمْرِكَ**) وهو ميدانُ عمَلِكَ الصَّالحِ، خاليًا مِنْهُ، فاتَ مِنَ السَّعادةِ بقدْرِهِ، إذْ (**لا عِوَضَ لهُ**) يُستَدرَكُ بهِ فائتُهُ؛ لأنَّ للثاني حقًّا كما للماضي، (**وما حصلَ لكَ مِنْهُ**) أي فيهِ مِنَ الفَوائدِ والعَوائدِ (**لا قيمةَ لهُ**) لأنَّ القيمةَ إنَّما تكونُ لما لهُ مِثْلٌ، ولا مِثْلَ لهُ، فعُمْرُكَ ميزانٌ لأعمالِكَ، بهِ تسْتعدُّ لكَمالِكَ، إنَّما تصِلُ إلى المُلْكِ الكَبيرِ بعُمرِكَ، فاغتَنِمْهُ تصرْ مالِكَ أمْرِكَ، إيَّاكَ أنْ يفوتَكَ مِنهُ الغرضْ؛ فإنَّ فائتَهُ ليسَ لهُ عِوضٌ، بهِ تصِلُ إلى جِوارِ الحَبيبِ ونعيمِهِ، فما حصلَ لكَ مِنهُ ليسَ لهُ قيمةٌ.

ولذلِكَ حرِصَ القَوْمُ على أنفاسِهِمْ وأوقاتِهِمْ، وبادَروا إلى اغتِنامِ ساعاتِهِمْ ولَحظاتِهِمْ، فماتوا على أحسَنِ حالة، لم يُضيِّعوا الوقْتَ في شيءٍ مِنَ البَطالة، كانوا -كما قالَ البصْريُّ- "أشْفَقَ على ساعاتِ المغانمِ منّا على الدَّنانيرِ والدَّراهم"، فأعزُّ شيءٍ الوقتُ، فلذلك قالَ المُصطَفى ﷺ: (ما مِنْ ساعةٍ تمرُّ بابنِ آدمَ لا يذْكُرُ اللهَ فيها إلّا كانتْ عليْهِ حسْرةً يومَ القيامةِ، ومُقتَ)[2]، فإيّاكَ أنْ تقنعَ بوعدِ الأماني والتَّسويفِ، فتُحرَمَ نيْلَ القُرْبِ في المقامِ الشَّريفِ.

---

(١) الإمام أبو عبد الله محمد بن على بن الحسن بن بشر المحدث الزاهد، المعروف بالحكيم الترمذي، كان إماما من أئمة المسلمين، لقى أبا تراب النخشبي وصحب يحيى بن الجلاء، له المصنفات الكبار في أصول الدين ومعاني الأحاديث، ومن كتبه: نوادر الأصول، والفروق، وغرس الموحدين، وغيرها، واعترض عليه بسبب كتاب ختم الولاية وقيل أنه فضل الولاية على النبوة، واعتذر له السلمي ببعد فهم الفاهمين، توفي نحو سنة ٣٢٠. طبقات السلمي (ص١٧٥)، وتاريخ بغداد (٢٠/٢١)، وطبقات السبكي (٢/٢٤٥).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٣١٦)، والبيهقي في الشعب (٥٠٨) من حديث السيدة عائشة.

وإنَّما يُعينُ على مُراقَبةِ الأوقاتِ للهِ والقيامِ بحقِّ العُبوديّةِ حُبُّكَ إيّاهُ، ومحبّةُ غيرِهِ [غيرُ مُعْونةٍ][1] على ذلكَ.

***

٢١٠. ما أحببْتَ شيئًا إلّا كُنْتَ لهُ عبدًا، وهو لا يُحِبُّ أنْ تكون عبدًا لغيرِهِ.

(**ما أحببْتَ شيئًا إلّا كُنْتَ لهُ عبدًا**) لأنَّ المحبّةَ توجِبُ الانقيادَ للمحبوبِ، وأنَّهُ لا يتصرَّفُ إلّا على مقتضى مُرادِهِ، (**وهو لا يُحِبُّ أنْ تكون عبدًا لغيرِهِ**) لأنَّ عِزَّ المَلِكِ يأبى المُشارَكةَ، فالمُحِبُّ عبدُ محبوبِهِ، لا يخرُجُ عنْ مُرادِهِ ومطلوبِهِ.

أنتَ بكُلِّ مَنْ أحببتَهُ قتيلٌ، فالأحقُّ بذلِكَ مَنْ ليْسَ لجَمالِهِ مثيلٌ، وللهِ درُّ ابنُ الفارِضِ حيْثُ قالَ:

أنْتَ القَتيلُ بأيِّ منْ أحبَبْتَهُ * فاخترْ لنفسِكَ في الهوَى منْ تصْطَفي

وإنّما أحبَّ أنْ تكون عبدًا لهُ إجلالًا لقدْرِهِ، لا لحاجةٍ منهُ لكَ.

***

٢١١. لا تنفعُهُ طاعتُكَ ولا تضُرُّهُ معصيَتُكَ، وإنَّما أمرَكَ بهذِهِ ونهاكَ عنْ هذهِ لما يعودُ عليْكَ.

(**لا تنفعُهُ طاعتُكَ، ولا تضُرُّهُ معصيَتُكَ**) لأنَّهُ الغنيُّ العزيزُ على الإطلاقِ الذي لا يحتاجُ لشيءٍ (**وإنَّما أمرَكَ بهذِهِ ونهاكَ عنْ هذهِ لما يعودُ عليْكَ**) لا عليْهِ؛ فإنَّكَ مُفتَقِرٌ إليْهِ،

(١) في مخطوطة الأزهرية "معونة" فقط، ولا يستقيم السياق بها!

والعُبوديّةُ لهُ أعظَمُ فوائدكَ، فجعلَ فيها ما تحتاجَهُ دينًا ودُنيا؛ لتقومَ بها لهما، فتكون حصلْتَ على فائدةِ العُبوديّةِ وتعرَّفْتَ لهُ، فجاءَتِ الرَّحمةُ في تحصيلِ فوائدِ الدّاريْنِ، وإلّا كانَ يُعطيكَ ما وعدَكَ بلا شيءٍ، كما هو في نفْسِ الأمرِ، ذكرَهُ الشّارحُ زرّوقُ، ثُمَّ قالَ: "افهمْهُ واعرفْهُ حقَّ معرفتِهِ، فإنَّهُ عجيبٌ".

فالحقُّ تعالى غنيٌّ عنِ العالَمِ بأسرِهِ، إنَّما تعبَّدَكَ بأمرِهِ ونهيِهِ لما يسوقُهُ إليكَ مِنَ الفائدةِ، لا لما يعودُ عليهِ مِنْ عائدةٍ، هو العزيزُ الجبّارُ، لا يزيدُ في عِزِّهِ الإقبالُ، ولا يُنْقِصُهُ الإدبارُ، كما دلَّ عليْهِ قولُهُ:

٢١٢. لا يزيدُ في عِزِّهِ إقبالُ مَنْ أقبلَ عليْهِ، ولا يُنقِصُ مِنْ عِزِّهِ إدبارُ مَنْ أدبرَ عنْهُ.

(**لا يزيدُ في عِزِّهِ إقبالُ مَنْ أقبلَ عليْهِ، ولا يُنقِصُ مِنْ عِزِّهِ إدبارُ مَنْ أدبرَ عنْهُ**) لأنَّ عِزَّتَهُ صِفةٌ مِنْ صِفاتِهِ، وهي مُنزَّهةٌ عنِ الزّيادةِ والنّقصِ، وصِفاتُهُ لا تتغيَّرُ كذاتِهِ، وهو العزيزُ لذاتِهِ، الذي لا يحتاجُ زيادةَ عِزٍّ، ولا يلحقُهُ نقصٌ؛ لكمالِ وصْفِهِ.

***

٢١٣. وُصولُكَ إلى اللهِ وُصولُكَ إلى العِلْمِ بهِ، وإلّا فجلَّ ربُّنا عنْ أنْ يتَّصِلَ بهِ شيءٌ أو يتَّصِلَ بشيءٍ.

(**وُصولُكَ إلى اللهِ وُصولُكَ إلى العِلْمِ بهِ**) على وجهٍ يسقُطُ فيهِ الاستدلالُ، ويبدو العظمةُ والجلالُ، حتّى تعرفَ أنَّهُ أجلُّ مِنْ أنْ يُعرَفَ، وأعظَمُ مِنْ أنْ يُحَدَّ أو يُكيَّفَ، وهو مُنتهى سيرِ السّائرينَ، ويتفاوَتُ النّاسُ فيه، هذا هوَ الوُصولُ المُشارُ إليهِ بينهُمْ.

(**وإلّا**) يكن بهذا المعنى، بل بالمعنى المفهومِ بينَ الذَّواتِ مِن اتِّصالِ مُهلةٍ أو مُحاذاةٍ (**فجلَّ ربُّنا عنْ أنْ يتَّصِلَ بهِ شيءٌ أو يتَّصِلَ بشيءٍ**) لتعاليهِ عنِ النِّسَبِ والإضافاتِ، إذ هي مِنْ صِفاتِ الخلْقِ التي يمتَنِعُ إجراؤها على الحقِّ؛ لتنزُّهِهِ عنْ سِماتِ الحُدوثِ.

قالَ الجنيدُ: "متى يتَّصِلَ منْ لا شبيهَ لهُ ولا نظيرَ بمَنْ له شبيهٌ ونظيرٌ؟!"، هيهاتَ هذا ظنٌّ عجيب.

كيْفَ الوُصولُ إلى سُعادَ ودونَها * قُنَنُ الجبالِ ودونَهُنَّ حُتوفُ
الرِّجْلُ حافيةٌ وما لِيَ مرْكَبُ * والكفُّ صِفْرٌ والطَّريقُ مَخوفُ

لكِنْ إذا أرادَ وُصولَكَ إليْهِ أفناكَ، فتراهُ بهِ كما هو يراكَ:

أعارتْهُ طرفًا رآها بهِ * فكانَ البَصيرَ لها طرفُها

فاستَبانَ إنَّكَ إنَّما تصِلُ إلى اللهِ وُصولًا عقليًّا، لا وُصولًا جسَديًّا حِسّيًّا، تعالى سُبحانَهُ عنْ ذلِكَ، ومنْ توهَّمَ هاذاك فهو الهالك، تعالى ربُّنا الصَّمدُ عنْ أنْ يصِلَ إليهِ أحَد.

وللوُصولِ مراتِبُ يعلَمُها السّائرُ إلى اللهِ والذّاهِبُ، نبَّهَ عليها الكُمَّلُ لأصحابِ السَّيْرِ الحثيثِ بقولِهِ: (موتوا قبلَ أنْ تموتوا) الحديثُ[1]:

فأوَّلُها: أنْ يغلِبَ على القلْبِ شُهودُ أفعالِهِ، فلا يرى في الكونِ إلّا آثارَ جَلالِهِ، وهُناكَ يموتُ عنِ التَّدبيرِ، ويتملَّى بما بهِ يتحلَّى مِنْ صنائعِ الخبيرِ.

الثّاني: أنْ يغلِبَ شُهودُ الجَلالِ والجَمالِ، فيتَلاشَى سائرُ الصِّفاتِ في نُعوتِ منْ لهُ الكَمالُ، فيموتَ عنْ شُهودِ وصْفٍ لغيرِهِ، ويتملَّى بما انكَشفَ لهُ في سيْرِهِ.

الثّالثُ: أنْ يزولَ عنْهُ العناءُ، ويدخُلُ إلى ساحةِ الفَناءِ، فلا يشهدُ سِوى المحبوبِ، ويتجلَّى لهُ في كُلِّ مرغوبٍ، هُناكَ يموتُ في شُهودِهِ عنْ كُلِّ شيءٍ، حتَّى عنْ وُجودِهِ؛ فهذهِ مِنْ أعلى مراتِبِ الواصِلينَ، وفوقَها رُتْبةُ خواصِّ الكامِلينَ، وهي رُتْبةُ حقِّ اليَقينِ.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الأربعين المتباينة (ص ٩٨): "غير ثابت، وأظنه من كلام السادة الصوفية".

٢١٤. قُربُكَ منه أنْ تكون مُشاهِدًا لقُربِهِ منكَ، وإلا فمنْ أيْنَ أنْتَ ووُجودُ قُربِه.

(**قُربُكَ منه**) إنَّما هو (**أنْ تكون مُشاهِدًا لقُربِه منكَ**) مُشاهَدةً تقتضي عدمَ الهيْبةِ، والتَّأدُّبَ بآدابِ الحضْرةِ، ووُجودَ المُراقَبةِ لهُ حتَّى لا يراكَ حيْثُ نهاكَ، ولا يفقدُكَ حيْثُ أمرَكَ.

ثُمَّ القُرْبُ قُربانِ: قُرْبُ كرامةٍ، وهو مِنَ الحقِّ إليْنا، وآيتُهُ مُشاهدةُ قُربِ الحقِّ منّا قُرْبَ إحاطةٍ بالعِلْمِ والقُدرةِ والإرادةِ، وهو قُرْبُ الحقِّ مِنْ كُلِّ موجودٍ، وقُرْبُ مسافةٍ، وهو مُستَحيلٌ على الحقِّ، كما نبَّهَ عليْهِ بقولِهِ: (**وإلا فمنْ أيْنَ أنْتَ ووُجودُ قُربِهِ**) لأنَّكَ عبْدٌ وهو ربٌّ، وبيْنَ العبْدِ والرَّبِّ ما بيْنَ النّاقصِ بكُلِّ وجهٍ والكاملِ مِنْ كُلِّ وجهٍ، وإذا تأمَّلْتَ القُرْبَ والبُعْدَ وجدْتَهُما عائدَيْنِ لكَ، فحيْثُ توَجَّهْتَ للخلْقِ، كُنْتَ بعيدًا منه، وحيْثُ توجَّهْتَ للحقِّ كُنْتَ قريبًا منه.

وتقريرُ كلامِه: قُرْبُكَ منه على سبيلِ الكَرامةِ أنْ تكون مُشاهِدًا لقُربِهِ منك على وجْهِ الإحاطةِ، وإنْ لم يكُنْ هذا فلا وجهَ للقُربِ في حقِّه.

قالَ البوني: "والقُرْبُ ثلاثةٌ: قُرْبُ العامّةِ بالإيمانِ والأعمالِ وتسليمِ الأفعالِ، الثّاني: قُرْبُ الخاصّةِ، وهو قُرْبُ الصِّفاتِ، الثّالثُ: قُرْبُ خاصّةِ الخاصّةِ، وهو قُربُهُمْ مِنْ حضْرةِ الذّاتِ العَليّةِ بالفناءِ عنِ الأكْوانِ".

تنْبيهٌ: قالَ في "الفُتوحاتِ": الحقُّ تعالى لا مُناسبةَ بيْنَهُ وبيْنَ خلقِهِ البتّةَ، وإنْ أُطلِقَتِ المُناسَبةُ يومًا عليهِ كما أطلقَها الإمامُ الغَزالي، فبضرْبٍ مِنَ التّكلُّفِ، ومرمًى بعيدٍ عَنِ الحقائقِ، وإلّا فأيُّ نِسبةٌ بيْنَ المُحدَثِ والقديمِ، أمْ كيْفَ يُشبهُ مَن لا يقْبَلُ المِثلَ منْ يقْبَلُه؟! هذا مُحالٌ كما قالَ ابنُ العَريفِ في "محاسِنِ المَجالِسِ": "ليْسَ بيْنَهُ وبيْنَ العبادِ نِسبةٌ إلّا العِنايةُ، ولا سببٌ إلّا الحُكْمُ، ولا وقتٌ إلا الأزَلُ، وما بقي فعَمًى وتلبيسٌ"، فانظُرْ ما أحسنَ هذا الكَلامَ النَّفيسَ،

فالعِلمُ باللهِ عزيزٌ عنْ إدراكِ العقْلِ والنَّفْسِ، إلّا يُقالُ: "موجودٌ موْجِدٌ للعالَم"، وكُلُّ ما يُتلفَّظُ به في حقِّ المخْلوقاتِ أو يُتوهَّمُ في المُرَكَّباتِ وغيرِها، فاللهُ في نظرِ العقلِ السَّليم بخِلافِهِ، فليْسَ كمِثْلِهِ شيءٌ؛ فلنْ تصلَ إلى معرفتِهِ إلّا بالعجْزِ عنْ معرفتِهِ، والعجْزُ عنْ دركِ الإدراكِ إدراكٌ، فيعلمُ أنَّهُ موجودٌ واحِدٌ في أُلوهيَّتِهِ، وهذا هو العِلمُ المطلوبُ مِنّا، غيرَ عالِمينَ بحقيقةِ ذاتِهِ التي يعرِفُ سُبحانَهُ نفسَهُ عليها، وهو العِلْمُ بعدمِ العِلْمِ الذي طُلِبَ مِنّا، لما كانَ تعالى لا يُشبِهُ شيئًا مِنَ الخلْقِ، ولا يُشْبِهَهُ شيءٌ. انتهى.

وقالَ الإمامُ أبو المعالي عِندَ موْتِهِ: "خلَّيْتُ أهلَ الإسلامِ وعُلومَهم، وخُضْتُ البحْرَ الأعظَمَ طلَبًا للخُروجِ مِنَ التَّقليدِ، فما وقَعْتُ إلّا على الحيرةِ والعجْزِ، وها أنا رجَعْتُ إلى المقصودِ مِنْ كلِمةِ الإخلاصِ".

وممّا قيلَ في ذلكَ:

أحبَبْتُ مولًى إذا تجلَّى * اقتبسَ البدرُ مِنْ سناهُ

تحيَّرَ الخلقُ فيهِ طُرًّا * وجُملةُ الخلقِ فيه تاهُوا

ولا أُسمّيهِ غيْرَ أنّي * إنْ غلبَ الوجْدُ قُلْتُ يا هُو

***

٢١٥. الحقائقُ تردُ في حالِ التَّجلّي مُجمَلةً، وبعْدَ الوعْي يكونُ البَيانُ، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٨-١٩].

(**الحقائقُ**) التي يقذفُها الحقُّ في سرِّ العارِفِ، وهو العِلْمُ اللَّدُنّي الآتي بغيرِ تكلُّم ولا دِرايةٍ ولا استِعدادٍ، (**تردُ في حالِ التَّجلّي مُجمَلةً**) غيرَ مُتَّضِحةِ الدّلالةِ، لكِنْ يقبَلُها القلْبُ، ويتهيَّجُ بها اللُّبُّ. والحقائقُ ما يجري على لِسانِ أهْلِ الحقيقةِ مِنَ الفَوائدِ والنُّكتِ الحِكَميةِ، وهي لا تردُ بتعمُّلٍ ولا تتوقَّفُ على سببٍ، فإذا وردَتْ على القلْبِ ظهرَتْ فيهِ نُكْتةً مُجمَلةً.

(وبعْدَ الوعْيِ) لها بالتَّأمُّلِ بعدَ الاستِقرارِ والتَّمكُّنِ **(يكونُ البَيانُ)** لمعانيها، والظُّهورُ لأدِلَّتِها، فيلوحُ لها من المباني والمعاني ما لا يخطُرُ ببالٍ، فيؤخَذُ مِنَ الكلمةِ الواحِدةِ ألفُ معنًى، ومِنَ المعنى ألفُ كلِمةٍ، فعُلِمَ أنَّ حقائقَ العُلومِ اللَّدُنّيّةِ إنَّما تَرِدُ مُجملةً، فإذا انفصمَتْ عنِ القلْبِ وَعاها مُفصَّلةً؛ لأنَّ جلالةَ الوُرودِ تُدهِشُ عنِ الفَهْمِ المورودِ، فإذا وردَت عليْكَ حقيقةٌ فاصبِرْ لها، ولا تُقابِلْها بعِلمِكَ فينطفِئُ سِراجُ معرِفَتِكَ، فإذا تمكَّنَتْ مِنَ القلْبِ ووعاها السِّرُّ، فاطلُبْ معانيها.

ويُعرَفُ كونُها حقيقةً بجرَيانِها بحُكمِ التَّصريفِ بغيرِ اختيارٍ ولا سببٍ، وبكَونِها في جريِها مُجملةً مجموعةً ناكِتةً في القلْبِ، خارجةً منهُ خُروجَ السَّهمِ مِنَ القوْسِ، وبظُهورِ معناها وبيانِ وجهِها وتفصيلِها بعدَ وعيِها، قالَ القُشَيْرِيُّ: "أربابُ الحقائقِ يجري بحُكْمِ التَّصريفِ عليْهِمْ شيءٌ لا عِلمَ لَهُمْ بهِ على التَّفصيلِ، وعِنْدَ فراغِهِمْ مِنَ النُّطقِ بهِ، يظهرُ لقُلوبِهِمْ بُرهانُهُ بشَواهِدِ العِلْمِ".

وهذا الأدَبُ مُستَفادٌ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ فالمُرادُ هُنا: إذا جرتِ الحقائقُ فأنصِتْ لها، ولا تتلقّاها بمُعتادِكَ مِنْ دليلٍ وتأويلٍ ونظرٍ في وجهِ التَّفصيلِ، ثُمَّ على اللهِ بيانُها، فخرجَ منه ثلاثةُ آدابٍ: الإنْصاتُ للقَبولِ، والتَّفهُّمُ بعدَ الحُصولِ، والامتِحانُ بالأُصولِ. وحِكمةُ وُرودِها مُجمَلةً ما ذكرَهُ بقولِهِ:

***

٢١٦. متى وردَتِ الوارداتُ الإلهيّةُ إليْكَ هدمَتِ العَوائدَ عليكَ، ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤].

(متى وردَتِ الوارداتُ الإلهيّةُ إليْكَ) أي إلى قلبِكَ المشحونِ بأنواعِ الخبائِثِ، وهي ما يتجلّى للقُلوبِ مِنَ المعارِفِ التي تبرُزُ عنها الحقائقُ، **(هدمَتِ العَوائدَ عليكَ)** ومحتْ جميعَ رُعوناتِك، فلم يبْقَ في القلْبِ مُتَّسَعٌ لغيرِها، فتأخُذُ بمجامِعِهِ، فتستوي في كُلّيّةِ العبْدِ، فينفُثُ بها

طوعًا أو كرهًا لخُلوِّه عمّا سِواها، ودليلُ هدمِها للعَوائِدِ قولُهُ تعالى: ﴿**إنَّ المُلوكَ إذا دَخَلوا قَرْيَةً أفْسَدوها**﴾ أي: غيَّروا حالَها مِمّا هو عليه، وقلَبوا عوائِدَها؛ وكذا إذا وردَتِ الوارداتُ الربّانيّةُ على القُلوبِ أخرجَتْ منها كُلَّ صِفةٍ رَديّةٍ، وألبسَتْها كُلَّ صِفةٍ زَكيّةٍ. قالَ بعضُهُمْ: "إذا دخلَ الرَّبُّ القلْبَ خربَ مِمّا سِواهُ، فلا يُمكِنُهُ جرْيٌ معَ المُعتادِ، ولا تصرُّفٌ بأسبابٍ".

وعُلِمَ مِمّا تقرَّرَ: أنَّ الوارِداتِ الإلهيّةَ هي المُلوكُ، وكُلُّ منْ في قوَى النَّفسِ فهو لها مملوكٌ، فإذا نزلوا تِلْكَ القُرَى هدَموها، ﴿إنَّ المُلوكَ إذا دخَلوا قريةً أفسدوها﴾، يعودُ عِزُّها مذلّةً، وبحرُها المُتلاطِمُ قِلّةً، ولهذا قالَ المَرسي:

لو عاينَتْ عيْناكَ يومَ تزلْزلَتْ * أرضُ النُّفوسِ ودُكَّتِ الأجبالُ
لرأيْتَ شمْسَ الحقِّ يسْطَعُ نورُها * حينَ التَّزلْزُلِ والرِّجالُ رِجالُ

ثُمَّ علَّلَ ذلِكَ بقولِهِ:

٢١٧. الوارِدُ يأتي مِنْ حضرةِ قَهّارٍ، ولأجْلِ ذلكَ لا يُصادِمُهُ شيءٌ إلّا دمغَهُ، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

(**الوارِدُ**) الإلهيُّ موسومٌ بسِمةِ القهْرِ والغلَبةِ؛ لأنَّهُ (**يأتي مِنْ حضرةِ قَهّارٍ**) غالِبٍ على أمرِهِ، فلا يثْبُتُ لظُهورِهِ شيءٌ.

(**ولأجْلِ ذلكَ لا يُصادِمُهُ**) مِنْ رُعوناتِ البَشَريّةِ (**شيءٌ إلّا دمغَهُ**) أي: أصاب دِماغَهُ فأهْلَكَهُ، إذْ كُلُّ ما صدرَ مِنْ حضرةٍ، إنَّما يكونُ على حُكْمِها، فلا بقاءَ لآثارِ الخَلْقِ عِنْدَ ظُهورِ آثارِ الحقِّ، إذا قوبِلَ الحادِثُ بالقَديمِ، تلاشى الحادِثُ وبقي القديمُ.

قيلَ لبعْضِهِمْ: مِنْ أيْنَ تأكُلُ؟ قالَ: مِنْ عِنْدِ اللهِ، قيلَ: أيُنزِلُهُ عليْكَ مِنَ السَّماءِ؟ قالَ: أو لم تكُنِ الأرْضُ لهُ؟! قيلَ: أنتُمْ لا يقومُ لكم أحدٌ بحُجّةٍ، قالَ: الحقُّ لا يقومُ لهُ شيءٌ.

فاستَبانَ أنَّ الوارِدَ الإلهيَّ، إذا كانَ إنَّما يرِدُ مِنْ حضرةِ قهّارٍ، لا تُصادِمُهُ الرُّعوناتُ إلّا محاها، ولِكُلِّ باطِلٍ ماحِقٌ.

(﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾) أي يدفعُ الحقُّ على الباطِلِ في محلِّه، فيُصيبُهُ في دِماغِهِ فيُتلِفُهُ، وعليه قولُهُمْ: "للحقِّ صوْلةٌ وللباطِلِ جوْلةٌ، فإذا جاءَ الحقُّ بصوْلَتِهِ ذهَبَ الباطِلُ مِنْ جَولَتِهِ"؛ وذلكَ لأنَّ الحقَّ مِنْ بِساطِ القوةِ والظُّهورِ، وهما لا يقومُ لهما شيءٌ، ولأنَّهُ مؤيَّدٌ بالحقيقةِ الإيمانيّةِ، مُعتَضِدٌ بالحُجَجِ البُرهانيّةِ، والباطِلُ عكسُهُ؛ ولأنَّ بُرهانَهُ في نفسِهِ، وسُلطانَهُ في ذاتِهِ، فصاحِبُهُ لا يُغْلَبُ.

ثُمَّ مِنْ حقائقِ الوُصولِ أنْ ترى الحقَّ أظهرَ مِنْ أنْ يُستَدَلَّ عليْهِ، وأعزَّ مِنْ أنْ تهدي الإشارةُ إليهِ، فيقولُ ما قالَهُ أهلُ المعرِفةِ والوُصولِ:

***

٢١٨. كيْفَ يحتَجِبُ الحقُّ بشيءٍ والذي يحتَجِبُ بِهِ هو فيه ظاهِرٌ، وموجودٌ حاضِرٌ؟!

(**كيْفَ يحتَجِبُ الحقُّ بشيءٍ والذي يحتَجِبُ بِهِ هو فيه ظاهِرٌ**) لأنَّهُ أظهرَهُ، (**وموجودٌ حاضِرٌ؟!**) معَهُ إذ قهَرَهُ، فلا يصِحُّ احتِجابُهُ بشيءٍ؛ لأنَّ كُلَّ شيءٍ شاهِدٌ بوُجودِهِ وقُربِهِ.

قالَ ابنُ عربي: "شِدّةُ القُربِ حِجابٌ كما أنَّ غايةَ البُعدِ حِجابٌ، وإذا كانَ الحقُّ أقرَبَ إلينا مِنْ حبلِ الوَريدِ، فأيْنَ السَّبعينَ ألفِ حِجابٍ؟!" وقالَ: "الحقُّ غنيٌّ مِنَ الدَّلالةِ عليه، ولولا غِناهُ لكانَ للدَّليلِ فَخرٌ على المدلولِ"، وسُئِلَ بعضُهم: "ما المانِعُ مِنْ رؤيةِ اللهِ في الدُّنيا دون الآخِرةِ، معَ أنَّهُ أقربُ مِنْ حبلِ الوَريدِ؟" فقالَ: "لشِدّةِ قُربِهِ".

إذا كانَ الحقُّ حاضِراً معَكَ، وجبَ الحُضورُ معَهُ بالمُمكِنِ ولو بالرَّجاءِ، كما قال:

***

٢١٩ . لا تيأسْ مِنْ قَبولِ عملٍ لم تجِدْ فيهِ وُجودَ الحُضورِ، فرُبَّما قبِلَ مِنَ العمَلِ ما لم تُدْرِكْ ثمَرتَهُ عاجِلًا.

(**لا تيأسْ مِنْ قَبولِ عملٍ لم تجِدْ فيه وُجودَ الحُضورِ**)، لأنَّ يأسَكَ مِنْ قَبولِهِ سوءُ ظَنٍّ بربِّكَ، واعتِمادٌ على عملِكَ، وذلكَ غَيْبةٌ عنهُ، بلْ لو لم يكُنْ حُضورُكَ بالتَّعبُّدِ والعِرفانِ، فليكُنْ بالطَّمَعِ في الإحسانِ؛ لأنَّ طمعَكَ في اللهِ بلا عمَلٍ أفضلُ مِنْ عملِكَ فيهِ معَهُ، وإنْ كانَ العمَلُ لا بُدَّ منهُ؛ فللعُبوديّةِ لا للاستِحْقاقِ، فلا تيأسْ مِنْ روحِهِ، فرُبَّما أثابَ على العملِ معَ عدَمِ تصحيحِهِ، هو المالكُ لأمورِكَ، فقدْ يقبَلُ عملَكَ معَ عدمِ حُضورِكَ، مَنْ لهُ الإثابةُ بلا عمَلٍ، كيْفَ يُيأسُ منهُ لوُجودِ الخللِ؟! ما ذاكَ إلّا عنْ ضعْفِ شُهودِكَ، فالكَمالُ كُلُّهُ لمولاكَ ومعبودِكَ، فاطلُبْ وطالِبْ نفسَكَ بالكَمالِ، ولا تيأسْ مِنَ اللهِ بكُلِّ حالٍ، فإنَّ الشَّأنَ كما قالَ:

(**فرُبَّما قَبِلَ مِنَ العمَلِ ما لم تُدْرِكْ ثمَرتَهُ عاجِلًا**) مِنْ وُجودِ حُضورٍ أو حلاوةٍ أو غيرَ ذلِكَ، ورُبَّما ردَّ ما عُجِّلَتْ ثمَرتُهُ، وإنْ كانَ الغالِبُ خِلافَه؛ فالعوائدُ لا تقتضي على حُكمِ الرَّبِّ. ومُرادُهُ بالثمرةِ الحُضورُ فيهِ أو بهِ، لما مرَّ عِنْدَ قولِهِ: "مَنْ وجدَ ثمرةَ عملِهِ" إلى آخرِهِ[1].

ثُمَّ شأنُ النَّفسِ أبدًا التَّألُّمُ بفقْدِ الحُضورِ؛ لاعتِمادِها الأسبابَ ردًّا وقبولًا، وهي عِلّةٌ بيِّنةٌ، ولاستِشعارِها الكمالَ فيما فيهِ، بدلًا مِنَ النَّقصِ اللّاحِقِ بضِدِّهِ؛ وللأُنْسِ بالحلاوةِ، وللتَّألُّمِ بفِراقِ اللَّذّةِ، وهي أعظمُ العِللِ، فلذلكَ قالَ الواسِطيُّ: "استِحلاءُ الطّاعةِ سُمٌّ قاتِلٌ". قال المُصنِّفُ: "وصدقَ، فإنَّهُ يصيرُ قائمًا فيها مُتطلِّبًا للحلاوةِ، فيفوتُهُ الإخلاصُ، ويكونُ قائمًا للهِ ظاهِرًا، ولنفسِهِ باطِنًا".

ثُمَّ إذا حضرَ قلبُكَ، وصَفَا وارِدُكَ، لا تُزكِّيهِ كما قالَ:

***

(١) انظر الحكمة رقم ٧٢ ص ١٧٦.

٢٢٠. لا تُزَكِّيَنَّ وارِدًا لا تعرفُ ثمرتَه، فليْسَ المُرادُ مِنَ السَّحابةِ الإمْطارَ، إنَّما المُرادُ منها وُجودُ الإثْمارِ.

(**لا تُزَكِّيَنَّ وارِدًا لا تعرفُ ثمرتَهُ**) أي لا تُعظِّم الواردَ ولا تعتقدْ أنَّهُ كرامةٌ مِنَ اللهِ، حتَّى تعرفَ ثمرتَهُ في ذلكَ، مِنْ تأثُّرِ القلْبِ بهِ، وتبدُّلِ الصِّفاتِ الذَّميمة بحميدةٍ، والوُقوفِ على حدِّهِ، مِنْ عُلوِّ الهمَّةِ، وحُسْنِ الخِدْمةِ، وحِفظِ الحُرمةِ، وشُكْرِ النِّعمةِ، إذْ كُلُّ معرفةٍ لا تُفيدُ عمَلًا لا تُعتَبرُ، وكُلُّ عملٍ لا يصحبُهُ إخلاصٌ لا كمالَ لهُ، قالوا: "مَنْ أدركتْهُ حالةٌ في السَّماعِ، ولم يجدْ بركتَهُ غدًا في عملِهِ، فسماعُهُ لا حقيقةَ لهُ".

ثُمَّ مثَّلَ للواردِ بما ينشأُ عنهُ، فقالَ: (**فليْسَ المُرادُ مِنَ السَّحابةِ الإمْطارَ**) فربَّما كانَ وُجودُها عيْنَ الإضرارِ، فكُنْ على حذرٍ مِنَ الواردِ، فإنَّ في تزْكيتِهِ والفرحِ بهِ نوعَ اغترارٍ، وانخِداعًا بلبسةِ الإظْهارِ، (**إنَّما المُرادُ منها وُجودُ الإثْمارِ**) وبذلكَ يُحتمَلُ ما فيها مِنَ المضارِّ، فإذا تأثَّرَ قلبُكَ بالواردِ، وتبدَّلَتْ صِفاتُ مذامِّكَ بمَحامدَ، فقدِ اجْتَنيْتَ ثمارَهُ، وحلَّتْ عليْكَ أنوارُهُ، وحينئذٍ فيحِقُّ لكَ السُّرورُ، وإلَّا فأنْتَ بهِ مخدوعٌ مغرورٌ.

ثُمَّ هنا مِنْ بديعِ الاستِعارةِ ولطيفِ الإشارةِ جعلُ الواردِ كالسَّحابِ، والتَّأثُّرِ بهِ كالمطَرِ النَّازلِ منه، والعمل بما يقتَضيهِ ثمرتُهُ، فواردٌ بلا تأثُّرٍ كسحابٍ بلا مطَرٍ، وتأثُّرٍ بلا عمَلٍ كمطرٍ بلا ثمرٍ.

وإذا حصلَ للواردِ ثمرُهُ، بحيْثُ ينبَسِطُ نورُهُ، ويظهَرُ سِرُّهُ، فلا تتعلَّقْ بإرادةِ بقائهِ، فإنَّهُ حظٌّ نفسيٌّ، بلِ ارفعْ هِمَّتَكَ عنهُ كما قالَ:

٢٢١. لا تطْلُبَنَّ بقاءَ الوارداتِ بعدَ أنْ بَسَطَتْ أنوارَها وأودعَتْ أسرارَها، فلكَ في اللهِ غِنًى عنْ كُلِّ شيءٍ، وليْسَ يُغنيكَ عنْهُ شيءٌ.

(لا تطْلُبنَّ بقاءَ الوارِداتِ بعدَ أنْ بَسَطَتْ أنوارَها) في عوالِمِ القُلوبِ، **(وأودعَتْ أسرارَها)** بكُلِّ أمرٍ محبوبٍ، فإنَّ الأُنسَ بها جهلٌ ونقصٌ؛ لأنَّ أوقاتَ الصِّفاتِ لا تدومُ، ومَنْ ظَنَّ دوامَها فهو أحمقٌ مغرورٌ، فالوارِداتُ إنَّما تأتي بحمْلِ هديَّةِ التَّعريفِ، فإذا أوصلَتْ ما فيها وأدَّتِ الأمانةَ لِوفائِها، فلا تطْلُبنَّ بقاءَ رسولٍ بعدَ بلاغِ رِسالَتِهِ، ولا أمينٍ بعدَ أداءِ أمانتِهِ.

وإنَّما يفْتَضِحُ المُدَّعون بزوالِ الأحوالِ، وبعزلِهم عنِ مراتِبِ الإنزالِ، هنالِكَ يبدو الفِرارُ وتُهتَكُ الأستارُ، فكم مِنْ مُدَّعي الغِنى باللهِ، وإنَّما غناهُ بطاعتِهِ أو نورِهِ أو فتحِهِ، وكم مِنْ مُدَّعي العِزَّةَ باللهِ، وإنَّما هو بمنزِلتِهِ وصَوْلتِهِ على الخَلْقِ، مُعتَمِدًا على ما ثَبُتَ عِندَهُ مِنْ معرِفتِهِ، فكُنْ عبدَ اللهِ لا عبدَ العِلَلِ.

وعلامةُ بسْطِ أنوارِها: وُجودُ الحلاوةِ، وظُهورُ الحقيقةِ، وبسطُ الحقائقِ، وعلامةُ إيداعِ أسرارِها: تمكُّنُ الحقيقةِ مِنَ النَّفسِ، وجريانُ معناها في كُلِّيَّتِهِ، والغِنى باللهِ، وهو الأَصْلُ الأصيلُ الذي يُدارُ عليْهِ القصْدُ، كما قالَ: **(فلكَ في اللهِ غِنًى عنْ كُلِّ شيءٍ)** مِنْ نورٍ، وعِلْمٍ وعمَلٍ، وحالٍ ومقامٍ، ووارِدٍ وحقيقةٍ، ودُنيا وآخِرةٍ، ونِعمةٍ وغيرِها، فلا تُلاحِظْ شيئًا مِنْ ذلِكَ، فإنَّهُ قادِحٌ في إخلاصِ التَّوحيدِ.

(وليْسَ يُغنيكَ عنْهُ شيءٌ) لثُبوتِ غناهُ عنْ كُلِّ شيءٍ، وعدمِ افتِقارِهِ إلى شيءٍ، وافتِقارِ كُلِّ شيءٍ إليْهِ، ولو شاءَ وهبَكَ المملَكةَ كُلَّها، وما ذاكَ عليْهِ بعَزيزٍ، فإنِ اكتَفيْتَ بهِ أغناكَ، وإنْ تعلَّقتَ بغيْرِهِ وَكَلَكَ إليْهِ وخلّاكَ، فإذا تكيَّفَ باطِنُكَ بالوارِداتِ، ولاحتْ أسرارُها فيكَ بمُشاهَدةِ عظمةِ الذّاتِ، فلا تطلُبْ بقائَها في وُجودِكَ، ولا تيأسْ لفقدِها في شُهودِكَ، فإنَّ لكَ في اللهِ عِوضًا عنْ كُلِّ غيرٍ، إذا أيقنْتَ بهِ فأنْتَ في كُلِّ خيرٍ، قالَ [ابنُ عَطاءٍ][1]: "إيّاكَ أنْ تُلاحِظَ مخلوقًا، وأنتَ تجِدُ إلى مُلاحظةِ الحقِّ سبيلًا".

(١) جاء في المخطوطة "المؤلف"، وهو تصحيف، فابن عطاء المقصود هنا ليس السكندري المؤلف، بل هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء، المتوفى سنة ٣٠٩هـ، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الرابع الهجري. والعبارة المذكورة نقلها عنه الحافظ أبو نعيم في "حلية الأولياء".

وعلامةُ الاكتفاءِ باللهِ الرِّضى عنهُ، والاهتمامُ بأمرِهِ، وعدمُ الالتفاتِ لغيرِهِ؛ لأنَّ العكسَ مِنَ الفقْدِ والبُعدِ، كما قالَ:

***

٢٢٢. تطلُّعُكَ إلى بقاءِ غيرِهِ دليلٌ على عدمِ وُجدانِكَ لهُ، واستيحاشُكَ بفُقدانِ ما سِواهُ دليلٌ على عدمِ وصلتِكَ بهِ.

(**تطلُّعُكَ إلى بقاءِ غيرِه**) مِنَ الأغيارِ (**دليلٌ على عدمِ وُجدانِكَ لهُ**)، ولو وجدْتَهُ لاكتَفَيْتَ بهِ، وهانَ عليكَ كُلُّ ما سِواهُ، (**واستيحاشُكَ بفُقدانِ ما سِواهُ دليلٌ على عدمِ وصلتِكَ بهِ**)، ولو وصلْتَ لهُ كفاكَ الأُنْسُ بهِ عنِ الاستيحاشِ مِنْ غيرِهِ، بلْ يكونُ ذِكرُ الغيْرِ مُصيبةً، فالمُستأنِسُ بهِ لا يَستَوحِشُ بوُجودِ شيءٍ ولا بفقْدِهِ؛ لأنَّهُ يرُدُّ كُلَّ شيءٍ إليهِ، فيُعوِّلُ في كُلِّ شيءٍ عليْهِ، وقد قيلَ: "الوُصولُ فوقَ المأمولِ".

والحاصِلُ: أنَّهُ متى وجدَ العبْدُ ربَّهُ وإليهِ وصلْ، فقد ظفرَ بالمُرادِ وعليهِ حصلْ، هو مُنتَهى الأرَبِ، وغايةُ السُّؤلِ والطَّلَبِ، محطُّ الرِّحالِ ومُنتهى آمالِ الرِّجالِ، مَنْ ظفرَ بهِ نسِيَ كُلَّ محبوبٍ، وأعرَضَ عنْ كُلِّ مرغوبٍ.

***

٢٢٣. النَّعيمُ وإنْ تنوَّعَتْ مظاهِرُهُ فإنَّما هو بشُهودِهِ واقترابِهِ، والعذابُ وإنْ تنوَّعَتْ مظاهِرُهُ إنَّما هو لِوُجودِ حِجابِهِ، فسببُ العَذابِ وُجودُ الحِجابِ، وإتمامُ النَّعيمِ بالنَّظرِ إلى وجهِ اللهِ الكريمِ.

(**النَّعيمُ وإنْ تنوَّعَتْ مظاهِرُهُ**) مِنْ أنواعِ المسرّاتِ (**فإنَّما هو بشُهودِهِ واقترابِهِ**)، إذْ كُلُّ

نعيم دون شُهودِه عدمٌ، وكُلُّ عاقِبةٍ دون اقترابِه ألمٌ، فنعيمُ الآخِرةِ وإنْ تنوَّعَ إلى حورٍ وقُصورٍ وأكلٍ وشُربٍ، فإنَّما ذلكَ لما تضمَّنَ مِنْ قُربِ المولَى، وشُهودِ وجهِهِ الأعزِّ الأعلى، كما أنَّ العذابَ بجَواهِرِهِ وأعراضِهِ إنَّما هو للبُعدِ عنْهُ وإعراضِه، وقد لوَّحَ بذلكَ لأحبابِهِ في مُحكَمِ كِتابِهِ بقولِهِ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥-١٦].

والنَّعيمُ لذَّةٌ يصحبُها سُرورٌ بالمُلتَذِّ بهِ، ومظاهِرُه بما يتجلَّى فيهِ وبهِ مِنَ الفوائِدِ والعوائِدِ، وغيرِهما ممَّا تشتَهيهِ الأنفُسُ وتلَذُّ الأعيُنُ في هذهِ الدَّارِ وتِلْكَ، ولا كَمالَ لهُ بلْ لا صِحَّة إلَّا بوجودِ الهناءِ، ولا هناءَ إلَّا بشُهودِ مِنَّتِه تعالى وشُكرِهِ والنَّظرِ إلى وجهِهِ، وكُلُّ نِعمةٍ لا تُشْهَدُ فيها المِنَّةُ فصاحِبُها مفتونٌ مِنْ حيْثُ وصلتَهُ، ومِنْ حيْثُ خوفُ زَوالِها والشُّغلُ بأسبابِ غيرِها، وكُلُّ نِعمةٍ لا يصحبُها شُكرٌ فإلى الزَّوالِ أقربُ، فالعُقوبةُ فيها وبها ومعها أظهرُ، وكُلُّ نعيمٍ غابَ عنْهُ الحبيبُ، فأيُّ نِعمةٍ بهِ، وأيُّ فائدةٍ فيهِ؟! ثُمَّ لولا تجلِّيهِ بإحسانِهِ ما صحَّ نعيمٌ لمُنعمٍ أبدًا.

(**والعذابُ وإنْ تنوَّعَتْ مظاهِرُهُ**) بأنْواعِ العُقوباتِ، كحميمٍ وزقُّومٍ، وسلاسِلَ وأغلالٍ وأنكالٍ، (**إنَّما هو**) حقيقةً (**بوُجودِ حِجابِهِ**)، ولولاهُ كانَ نعيمًا، إذْ شُهودُ الجميلِ يُنسي المِحنةَ ويُشعِرُ بالمِنَّةِ، ومُشاهدةُ المُعذِّبِ معَ العِلْمِ بجَلالِهِ وكَمالِهِ يُنسي ما هو فيهِ مِنَ التَّعذيبِ، واعْتَبِرْ هنا بقولِهِ تعالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ [يوسف: ٣١].

(**فسببُ العَذابِ وُجودُ الحِجابِ**) حتَّى قالَ في التَّنويرِ: "لو تجلَّى الحقُّ على أهلِ النَّارِ لنَسَوْا ما هُمْ فيهِ مِنَ العذابِ"، وقالَ السَّقَطيُّ: "اللَّهُمَّ ما عذَّبْتَني بشيءٍ، فلا تُعذِّبْني بذُلِّ الحِجابِ"، (**وإتمامُ النَّعيمِ بالنَّظرِ إلى وجهِ اللهِ الكَريمِ**) فلولا الحِجابُ ما صحَّ العَذابُ، ولا يتِمُّ النَّعيمُ إلَّا برؤيةِ المُنعِمِ.

قالَ الشَّارِحُ[١]: وظاهِرُ كلامِهِ أنَّ الحِجابَ شرطٌ لوُجودِ العَذابِ، وأنَّ رؤيَةَ المُنعِمِ شرطُ كمالِ النَّعيمِ لا وُجودِهِ؛ ولذلِكَ في بعضِ النُّسَخِ: "لشُهودِهِ" باللَّامِ، و"بوُجودِ" بالباءِ.

(١) الشيخ زروق.

ولكونِ الحِجابِ سببُ العَذابِ قالَ:

٢٢٤. ما تجِدُهُ القُلوبُ مِنَ الهُمومِ والأَحْزانِ فلأَجْلِ ما مُنِعتْهُ مِنْ وُجودِ العَيانِ.

(ما تجِدُهُ القُلوبُ مِنَ الهُمومِ والأَحْزانِ) عِنْدَ فقْدِ مُرادِها وتشويشِ مُعتادِها، **(فلأَجْلِ ما مُنِعتْهُ مِنْ وُجودِ العَيانِ)** أي: رؤيةُ الواحِدِ الدَّيّانِ، إذ لو عايَنْتَ جمالَ الفاعِلِ، حملَ عنها ألمَ البُعْدِ؛ فإنَّما تجِدْ بقلبِكَ الهُمومَ لبقائِكَ معَ نفسِكَ وحظِّكَ المذمومِ، فلو فنيْتَ فلم يبْقَ فيكَ بقيّة، وعاينْتَ ربَّك بشُهودِ المعيَّة، لانتفى عنْكَ الحزَن، وامتَلأْتَ سُرورًا في السِّرِّ والعَلَن، ألم ترَ إلى قوْلِ المُصطَفى ﷺ لصَديقِه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] مُرشِدًا إيّاهُ إلى توفيقِه، فالمَعيّةُ لا حُزْنَ معَها، وهي درجةٌ فوقَ اليَقينِ.

فمنْ ظفرَ بوُجودِ العَيانِ لم تؤثِّرْ فيهِ الهُمومُ والأحْزانُ، بل يكونُ مُتَّصِلَ الحُبورِ دائمَ السُّرورِ، فباسْتِنارةِ القلْبِ بنورِ العِرفانِ، واحتِظائِه بوُجودِ العَيانِ، يخرُجُ منهُ الهمُّ والأحزان، وإنْ كانَ في وُجودِهما لمنْ لم يبلُغْ هذهِ الرُّتبةَ الجليلةَ فوائدُ ومنافِعُ جزيلةٌ، لخبرِ: (ما يُصيبُ المؤمنَ نصَبٌ ولا وصَبٌ ولا حَزَنٌ، حتى الهمِّ يُهِمُّه، إلّا كفَّرَ عنْهُ مِنْ سيِّئاتِه)[1] .

والهُمومُ ما يلحَقُ القلْبَ مِنَ الكرْبِ لما يُتوقَّعُ، والأحزانُ ما يلحَقُهُ لما وقعَ، فبِساطُهُما توقُّعُ مكروهٍ، أو فوْتُ محبوبٍ، وذلك لا يكونُ إلّا معَ فقْدِ الحقيقةِ، وعدمِ النَّظرِ للقدَرِ، إذ منْ عايَنَ التَّسليمَ سلَّمَ ورضِي، فلا يهتمُّ ولا يغتمُّ.

وإنَّما الهمُّ والحُزْنُ غالبًا لفقدِ الدُّنيا ووُجودِها، فكثيرُها كسيرُها، فلذا قالَ:

***

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٦٤١)، ومسلمٌ (٢٥٧٣)، وغيرهما من حديث أبي سعيدٍ وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا معًا مرفوعًا.

٢٢٥. مِنْ تمامِ النِّعمةِ عليك أنْ يرزُقَكَ ما يكفيكَ، ويمنَعَك ما يُطْغيكَ.

(**مِنْ تمامِ النِّعمةِ عليك أنْ يرزُقَكَ ما يكفيكَ، ويمنَعَك ما يُطْغيكَ**)، فيُفرِغَ سِرَّكَ مِنْ همِّ الفِكرِ في طلبِ الرِّزْقِ، ويُريحَ قلبَكَ مِنَ الشُّغْلِ بالغيْرِ، مع ما في ضِدِّ ذلكَ مِنَ الهمِّ والتَّزلزُلِ الموجِبِ لضعْفِ الإيمانِ في جانِبيِّ الزِّيادةِ والنَّقصِ. ليسَ القصْدُ مِنَ الدُّنيا إلّا ما أعانَك، لا ما أتعبَك وأهانَك، هي دارُ المَزادِ، فاقتصِرْ منها على المُرادِ، الدُّنيا أمرُها يسيرٌ، وقدرُها حقيرٌ، سحابةُ صيْفٍ أو زائرُ طيْفٍ، تفرُّ كأنَّها زهرُ الرَّبيعِ، ثُمَّ تكرُّ فتراها في المَنْظرِ الفَظيعِ، أشبَهُ شيءٍ بالسَّرابِ، وطالِبُها لم يزلْ في عذابٍ، ففي الكَفافِ الرّاحةُ مِنَ التَّعبِ جلبًا ودفعاً، والتَّفرُّغُ للخِدمةِ قلبًا وقالِبًا، ويحصُلُ الشُّكرُ والصَّبرُ في حالٍ واحِدٍ.

***

٢٢٦. ليقِلَّ ما تفرحَ بهِ يقِلُّ ما تحزَنْ عليْهِ.

(**ليقِلَّ ما تفرحَ بهِ يقِلُّ ما تحزَنْ عليْهِ**) مِن انزواءِ فُضولِ الدُّنيا وبالعكسِ؛ لأنَّ الحُزْنَ بالفُقدانِ بقدْرِ الفرَحِ بالوُجدانِ، فمنْ زُويتْ عنهُ فُضولُ الدُّنيا ورضِي، فقدْ ظفرَ بالرّاحةِ والغِنى، قلَّتْ همومُه ودام بالقَنَعِ نعيمُه.

قيلَ لبعضِهم: "لِمَ لا تغتمُّ؟" قالَ: "لأنِّي لا أقتني ما يغُمُّني فقدُهُ"، فالمفروحُ بِهِ هو المحزونُ عليهِ، إنْ قليلًا فقليلًا، وإنْ كثيراً فكثيراً" ومِنْ ثَمَّ قالَ المُصطَفى ﷺ: (خيْرُ الرِّزْقِ ما كفى)[1].

(١) أخرجه أحمد (١٤٧٧)، وابن أبي شيبة (٣٤٣٧٧)، وأبو يعلى (٧٣١)، وابن حبان (٨٠٩)، وغيرهم من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومِنْ أعظَم ما يُفرَحُ بهِ الوِلايةُ، وتحتَها مُصيبةُ العزلِ، فلذا قالَ:

٢٢٧. إن أردْتَ أنْ لا تُعزَلَ، فلا تتولى ولايةً لا تدومُ لكَ.

(**إن أردْتَ أنْ لا تُعزَلَ، فلا تتولى وِلايةً لا تدومُ لكَ**) وكُلُّ وِلاياتِ الدُّنْيا كذلك؛ **لأنّكَ** إمّا تُعزَلَ بالحياةِ وهو أشرُّ، أو بالموتِ وهو أمرُّ، أو تكونَ جاريةً على غيرِ مُرادِكَ، وهي **مُصيبةٌ** حاضِرةٌ، والعقلُ لا يعدِلُ بالسَّلامةِ شيءٌ، فوجبَ أنْ تعزلَ نفسَكَ قبلَ أنْ تُعزَلَ.

وإنْ كانَ ولا بُدَّ، فيكونُ غيرَ مُتشَبِّعٍ بها، وعلامتُهُ أنْ لا يقبَلَها إلّا لأمرٍ يخافُهُ دينًا **أو** دنيا بعدَ الفِرارِ الصّادِقِ، وأنْ يُلازِمَ فيها الحَذَرَ والإشفاقَ، ويكونَ الخُروجُ منها أشهى لهُ **مِنَ** الإقامةِ، فحينئذٍ.

العارفُ إنّما يرغبُ في وِلايةِ العُلومِ والمعارِفِ؛ لأنّها وِلايةٌ لا يعزلُهُ منها أحدٌ، ولا **يؤثِّرُ فيها** مَنْ حسد، متى أردْتَ وِلايةً لا تدومُ، فقد تعجَّلْتَ لقلبِكَ الهُمومَ، وإنَّما يَدعو إليها **فوائدُها**، وهي آيِلةٌ لضِدِّها.

***

٢٢٨. إنْ رغَّبتْكَ البِداياتُ زهَّدتْكَ النِّهاياتُ، إنْ دَعاكَ إليها ظاهِرٌ نهاكَ عنها باطِنٌ.

(**إنْ رغَّبتْكَ البِداياتُ**) أي: بِداياتُ الأُمورِ الدُّنْيَويّةِ كالولاياتِ بحُصولِ الفَوائِدِ **السَّنِيّات** (**زهَّدتْكَ النِّهاياتُ**) بوُقوعِ النَّوائِبِ والحسَراتِ، إنْ رغَّبتْكَ البِداياتُ بوُجودِ المنافِعِ، **زهَّدتْكَ** النِّهاياتُ بوُقوعِ الفَجائِعِ، إنْ رغَّبتْكَ البِداياتُ بتسهيلِ ما تُريدُ توهِنُكَ النِّهاياتُ بالوُقوعِ **فيما** لا تُريدُ.

(**إنْ دَعاكَ إليها ظاهِرٌ**) اغتِرارًا بصورتِهِ (**نهاكَ عنها باطِنٌ**) اعتبارًا بحقيقتِهِ؛ لأنَّ ظاهِرَها غِرّةٌ، وباطِنَها عِبرةٌ، بِدايةُ الأُمورِ تغُرُّ كما أنَّ نهايتَها تضُرُّ، الجاهِلُ ينظُرُ إلى ظاهِرِ البِدايةِ، والعاقِلُ ينظُرُ إلى غايةِ النِّهايةِ، فلا تلتفِتْ لشيءٍ مِنْ أمرِها، وقِرَّ منها عيناكَ تسلَمْ مِنْ شرِّها وضُرِّها.

قالَ وهبٌ(1): "صحِبَ رجُلٌ بعضَ الرُّهبانِ أُسبوعًا؛ ليستَفيدَ منه شيئًا، فوجدَهُ مشغولًا بالذِّكرِ والفِكْرِ لا يفتُرُ، ثُمَّ التفتَ في اليومِ السّابِعِ، فقالَ: يا هذا علِمْتُ ما تُريدُ، حُبُّ الدُّنيا رأسُ كُلِّ خطيئةٍ، والزُّهدُ فيها رأسُ كُلِّ خيرٍ، والتَّوفيقُ نجاحُ كُلِّ بِرٍّ، فاحذرْ رأسَ كُلِّ خطيئةٍ، وارغبْ في رأسِ كُلِّ خيرٍ، واضرعْ إلى ربِّكَ أنْ يهَبَكَ نجاحَ كُلِّ بِرٍّ".

أُفٍّ لأشغالِ الدُّنيا إذا أقبلَتْ، وأُفٍّ لحسْرتِها إذا أدبرَتْ، العاقِلُ لا يركَنُ لشيءٍ إذا أدبرَ كانَ حسرةً، وإذا أقبلَ كانَ شُغلًا.

قالَ بعضُهم: "تركْتُ الدُّنيا لسُرعةِ فنائها، وقِلّةِ غِنائها، وكثرةِ عَنائها، وخِسّةِ شُركائِها".

فيا هذا تركَنُ إلى الدُّنيا، وعنِ قليلٍ تُقلقُكَ، وترفُلُ على ظهْرِ الأرضِ، وعنْ قريبٍ تبلعُكَ، اقصِدْ في مشيِكَ، فإنَّكَ تمشي في عرينِ الآسادِ، وخفِّفِ الوطءَ فما أديمُ الأرضِ إلّا هذهِ الأجسادُ، لعمري مَن عايَنَ تلوُّنَ اللَّيلِ والنَّهارِ لا يغترُّ بزُهدِهِ، ومَنْ علِمَ أنَّ بطنَ الثَّرى مضجعُهُ، لا يمرحُ على ظهرِهِ، ومنْ عرفَ الدَّهرَ حقَّ العِرْفانِ زهدَ فيه، ومنْ شغلَهُ همُّ الموتِ لا يضحَكُ ملءَ فيه، فيا أصحابَنا لا تُركضوا خيْلَ الخُيَلاءِ في ميدانِ العرْضِ، ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦].

***

(١) الإمام الإخباري التابعي أبو عبد الله وهب بن منبه بن كامل بن سيج الصنعاني اليماني صاحب الأخبار والقصص، كانت له معرفة بأخبار الأوائل وقيام الدنيا وأحوال الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، واختلف في سنة وفاته ما بين سنة ١١٠ - ١١٦. طبقات ابن سعد (٥/٥٣٤)، وحلية الأولياء (٤/٢٣)، وتاريخ دمشق (٦٣/٣٦٦)، ووفيات الأعيان (٦/٣٥).

٢٢٩. إنَّما جعلَها محلًّا للأغيارِ، ومعدنًا لوُجودِ الأكدارِ، تزهيدًا لكَ فيها.

(**إنَّما جعلَها محلًّا للأغيارِ، ومعدنًا لوُجودِ الأكدارِ، تزهيدًا لكَ فيها**) فلا تستندْ إليها، ولا تفرحْ عليها، لفَسادِها وعدمِ جدواها وعِنادِها، جعلَها دارَ كَدَرٍ، وأوردَ عليكَ فيها **الآفاتِ والعِبرَ**؛ لتزهَدَ فيها وتهربَ إليْهِ منها، لم يُعرِّجْ مِنَ الأكابرِ عليها أحدٌ، بل فرَّ منها **كالفِرارِ مِنَ الأسدِ**، ومعرفةُ ذلك بالتَّجربةِ والذَّوْقِ.

***

٢٣٠. علِمَ أنَّكَ لا تَقبَلُ النُّصْحَ المُجرَّدَ، فذوَّقَكَ مِنْ ذواقِها ما يُسهِّلُ عليْكَ وُجودَ فِراقِها.

(**علِمَ أنَّكَ لا تقبلُ النُّصحَ المُجرَّدَ، فذوَّقَكَ مِنْ ذواقِها ما يُسهِّلُ عليْكَ وُجودَ فِراقِها**)، فزهَّدَكَ فيها بما هي عليهِ، وأكَّدَهُ بما يُلابِسُكَ منها، فكانَ فِعْلُهُ معَكَ فيها **كفعْلِ الوالِدِ** معَ ولَدِهِ المُغترِّ بظاهِرِ الحيّةِ معَ جهلِهِ بمسِّها وسُمِّها، وعدمِ قبولِهِ خبرَ المُخبرِ بهِ، **ألَا تراهُ يُذيقُهُ** الضَّرْبَ ليصرِفَهُ عنْ أعظمَ مِنهُ وهو الموتُ.

وفائدةُ الزُّهدِ فيها السَّلامةُ مِنْ كَدَرِها، والرّاحةُ مِنْ تعبِها، وفراغُ الوقْتِ للعُبوديّةِ، **واستَفادَتُهُ** مِنْ تقلُّباتِها أتمُّ؛ لأنَّ النَّفسَ تتأثَّرُ ممّا يُماسُّها أكثرَ، ولأنَّ كثرةَ الجفاءِ تقطعُ أُصولَ المحبّةِ، **والدُّنيا** محبوبةٌ طبعًا، فلا يزيلُ حُبَّها إلّا كثرةُ جفائِها؛ ولأنَّ المُماسّةَ في الجفاءِ أزعجُ للقلْبِ **وأقوى في** الحُجّةِ.

***

٢٣١. العِلْمُ النّافِعُ الذي يبسُطُ في الصدْرِ شُعاعَهُ، ويكشِفُ عنِ القلْبِ قِناعَهُ.

(العِلْمُ النّافِعُ الذي يبسُطُ في الصدْرِ شُعاعَهُ) فيكشِفُ عن حقيقةِ الدّاريْنِ كشفًا لا لبْسَ معهُ ولا ريْب، فيَتَبيّنُ لهُ كُلُّ شيءٍ على حُكمِهِ، ويتّضِحُ لهُ كُلُّ موجودٍ بحقيقتِهِ ورسمِهِ، (ويكشِفُ عنِ القلْبِ قِناعَهُ) فتزولَ عنهُ الشُّكوكُ والأوهامُ، حتّى لا يخفى عليه شيءٌ، ويتجلّى فيه حقيقةُ كُلِّ شيءٍ، وذلكَ عِنْدَ أهلِ الخُصوصيّةِ عِلْمُ الرُّبوبيّةِ وعِلْمُ العُبوديّةِ؛ لأنّهُ الذي تنْبَسِطُ بهِ الصُّدور، ويَكشِفُ القِناعَ فيتلألأُ النّور.

وعبَّرَ عنهُ الجنيدُ بعِبارةٍ وجيزةٍ جمعَ فيها مقاصِدَ التّصوُّفِ بقولِهِ: "العِلمَ أنْ تعرِفَ ربَّكَ، ولا تعدو قدرَكَ".

وفيهِ يقولُ المهدوي[1]: "العِلْمُ النّافِعُ عِلْمُ صفاءِ القلْبِ، والزُّهْدِ في الدُّنيا، وما يقرِّبُ مِنَ الجنّةِ ويُبعِدُ مِنَ النّارِ، والخوفِ مِنَ اللهِ والرَّجاءِ فيهِ، وآفاتِ النُّفوسِ وطهاراتِها، وهو النّورُ الذي يقذِفُهُ اللهُ في قلبِ منْ شاءَ دون عِلْمِ اللِّسانِ والمعقولِ والمنقولِ".

وإليهِ أشارَ مالِكٌ بقولِهِ: "ليسَ العِلْمُ بكثرةِ الرِّوايةِ، العِلْمُ نورٌ يُقذَفُ في القلْبِ".

فإيّاكَ أنْ تقنعَ مِنَ العِلْمِ بالقُشورِ، ومِنَ الرَّقِّ المنشورِ بالدَّوائرِ والعُشورِ، أولئكَ قومٌ غفلوا عنِ الرِّحلةِ الثّانيةِ، وشُغلوا بالدُّنيا الدّنيّةِ عنِ القُطوفِ الدّانيةِ، فهم في منازِلِ العيْشِ رافِلونَ، وفي مهابِطِ الغيِّ سافِلونَ، يعملون ظاهِرًا مِنَ الحياةِ الدُّنيا، وهم عنِ الآخِرةِ غافِلون.

---

(١) أبو محمّد عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي، لقي أبا مدين الغوث، وهو من شيوخ ابن عربي، وأثنى عليه في مقدمة الفتوحات، وله كتب ومراسلات وأشعار، منها كتاب محجة القاصدين وحجة الواجدين، ترجمته أفردها بالتأليف أبو محمّد بن الدباغ، توفي سنة ٦٢١. شجر النور (٢٤٣/١)، وانظر كتاب "الشيخ عبدالعزيز المهدوي وتراثه الصوفي" لهشام عبيد.

وأنشدَ بعضُهُمْ:

العِلمُ باللهِ تزيينٌ وتحليةٌ * والعِلمُ بالفِكرِ تشبيهٌ وتضليلُ
والعِلمُ بالفِكرِ إجمالٌ ومَغلطةٌ * والعِلمُ باللهِ تحقيقٌ وتفصيلُ
والعِلمُ بالفِكرِ أعلامٌ مُجرَّدةٌ * والعِلمُ باللهِ تحويلٌ وتبديلُ
فلا تُغرَّنْكَ أقوالٌ مُزخرَفةٌ * فإنَّ مدلولَها جهلٌ وتعليلُ

تنْبيهٌ: قالَ بعضُ المُحقِّقينَ(١): شرفُ الشَّيءِ إمّا أنْ يكون لذاتِه، فيتجرَّدُ طلبُهُ لذاتِه، وإمّا أنْ يكون لصِفتِه، فيُطلَبُ مِنْ حيثُ ما يُتوصَّلُ مِنهُ إليها بِه، وإمّا لمُتعلَّقِه، فتكونُ الفائدةُ في الوصْلةِ بِمُتعلَّقِه، فمِنْ ثَمَّ قالوا: عِلمٌ بلا عملٍ -أو بِه معَ عدمِ ظُهورِ أثرِه في القلْبِ- وسيلةٌ بلا غايةٍ، وعملٌ بلا عِلمٍ جِنايةٌ. والعِلمُ باللهِ أفضلُ العُلوم [لأنه أجلُّ معلوم]، وعِلمٌ يُرادُ لذاتِه أفضلُ لِكونِ خاصّيته في ذاتِه، كعِلْمِ الأُنسِ والهيْبةِ ونحوِ ذلكَ، فمَنْ لم يظْهَرْ نتيجةُ عِلْمِهِ في عمَلِه، وتلوحُ آثارُهُ على قلبِه، فعِلمُهُ عليْهِ لا لهُ.

تنْبيهٌ آخرُ: قالَ بعضُ الكامِلينَ(٢): عِلْمُ الفِقْهِ عامٌّ في العُمومِ؛ لأنَّ مقصِدَهُ إقامةُ رسمِ الدّينِ، ورفعُ منارِهِ، وإظهارُ كَلِمتِهِ، وعِلْمُ التَّصوُّفِ خاصٌّ في الخُصوصِ؛ لأنَّهُ مُعاملةٌ بينَ العبْدِ وربِّهِ فقطْ، فمِنْ ثَمَّ صحَّ إنكارُ الفقيهِ علي الصّوفي ولا عكسَ، ولزِمَ الرُّجوعُ مِنَ التَّصوُّفِ للفقهِ في الأحكامِ والحقائقِ، وصحَّ الاكتِفاءُ بِهِ دونَهُ، ولا يكفي التَّصوُّفُ عنِ الفِقْهِ، بل لا يصِحُّ دونَهُ، ولا يجوزُ الرُّجوعُ منهُ إليهِ إلّا بِه، وإنْ كانَ أعلى رُتبةً، فهو أسلمُ وأعمُّ مصْلحةً؛ ولهذا قالوا: "كُنْ فقيهًا صوفيًّا، ولا تكُنْ صوفيًّا فقيهًا"، وصوفيُّ الفُقَهاءِ أكمَلُ مِنْ فقيهِ الصّوفيّةِ؛ لأنَّ صوفيَّ الفُقهاءِ قدْ تحقَّقَ بالتَّصوُّفِ حالًا وعَمَلًا وذَوْقًا، بخِلافِ فقيهِ الصّوفيّة، فإنَّهُ المُتمكِّنُ مِنْ عِلْمِهِ وحالِه، ولا يتِمُّ لهُ ذلِكَ إلّا بفِقْهٍ صحيحٍ وذوْقٍ صريحٍ، لا يصلُحُ لهُ أحدُهُما بدونِ الآخرَ، كالطِّبِّ الذي لا يكفي عِلْمُهُ عنِ التَّجرُبةِ، ولا بالعكْسِ، فتأمَّلْهُ.

(١) هو العلامة زروق في كتابه "قواعد التصوف"، القاعدة رقم ١٢.
(٢) هو العلامة زروق أيضا في "قواعد التصوف".

٢٣٢. خَيْرُ عِلْمٍ ما كانَتِ الخشْيةُ معَهُ.

(**خَيْرُ عِلْمٍ ما كانَتِ الخشْيةُ معَهُ**) لأنَّ الخشيةَ تنشأُ عنْ صِفاتِ اللهِ، والعِلْمُ يشرُفُ بشرَفِ معلومِهِ، فكُلُّ عِلْمٍ لا يورِثُ صاحِبَهُ خشيةً وحُسْنَ مُعاملةٍ، ودوامَ مُراقبةٍ، ومُخالَفةَ نفْسٍ، ومُبايَنةَ كُلِّ شهوةٍ ولذّةٍ، لا ينفعُ ولا ينجعُ، وهو الذي استعاذَ منهُ المُصطَفى ﷺ.

قالَ في "الإحياءِ": "العِلمُ الحقيقيُّ ما يعْرِفُ العبْدُ به نفسَهُ وربَّهُ وخطرَ أمرِهِ في لِقاءِ اللهِ والحِجابِ منهُ، وهذا الذي يورِثُ الخشْيةَ والتَّواضُعَ دون الكِبْرِ والأمنِ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، أمّا ما وراءَ ذلكَ كعِلْمِ الطِّبِّ والحِسابِ، واللُّغةِ والشِّعْرِ والنَّحْوِ، وفصْلِ الخُصوماتِ وطُرُقِ المُجادَلاتِ، فإذا تجرَّدَ الإنسانُ لها حتّى امتَلأَ بها امتلأَ كِبراً ونِفاقًا، وهذهِ بأنْ تُسمَّى صِناعات أولى مِنْ أنْ تُسمَّى عُلومًا، بلِ العِلْمُ معرفةُ العُبوديّةِ والرُّبوبيّةِ وطريقِ العِبادةِ، وهذا يورِثُ الخشْيةَ والتَّواضُعَ، والغالِبُ أنَّ الرَّجُلَ يخوضُ في العِلْمِ وهو خبيثُ الدِّخْلةِ[1]، رديءُ النَّفسِ، سيِّءُ الأخلاقِ؛ لكونِهِ لم يشتَغِلْ أوّلًا بتهذيبِ نفسِهِ، وتزكيةِ قلبِهِ بأنواعِ المُجاهدةِ، ولم يُرِضْ نفسَهُ في عِبادةِ ربِّهِ، فبقِي خبيثَ الجوْهَرِ، فإذا خاضَ في أيِّ عِلْمٍ كانَ، صادَفَ العِلْمُ مِنْ قلْبِهِ منزِلًا خبيثًا، فلَمْ يطِبْ ثمَرُهُ، ولم يظهرْ في الخيْرِ والخشْيةِ أثرُهُ."[2]

وقالَ البُرهانُ التَّيميُّ[3]: مَنْ أوتِيَ مِنَ العِلْمِ ما لا يُبكيهِ ويورِثُهُ الخُشوعَ، فهو ممَّنْ لم ينفعْهُ عِلْمُهُ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

وقالَ المصنِّفُ: حيثُما وقعَ العِلْمُ في كلامِ اللهِ ورسولِهِ، فإنَّما المُرادُ بهِ العِلْمُ النّافِعُ المُخمِدُ للهوَى، القامِعُ الذي تكْتنِفُهُ الخشْيةُ، وتكونُ معَهُ الإنابةُ.

(١) الدِّخْلةُ: باطن الأمر. ومن الإنسان: دَاخلَته. [المعجم الوسيط]

(٢) إحياء علوم الدين، الجزء الثالث، كتاب ذم الكبر والعجب.

(٣) عبد الأعلى التيمي، وصفه الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء بقوله: "ومنهم ذو الخشوع الغيبي، والدموع السيبي، عبد الأعلى التيمي، باطنه خاشع، وحاضره سامع، وناظره دامع".

وقالَ الجيلاني: "أولى النّاسِ بالمقْتِ فقيهٌ فاجرٌ كبيرُ الجدالِ، لا يرى غيرَ زعمِهِ ودعاوى وهمِهِ، إنْ تكلَّمَ خارَ، وإنْ سكتَ حارَ".

قالَ: "ومِنْ علامةِ أهْلِ الطَّردِ عنْ حضرةِ اللهِ أنْ لا تلينَ قُلوبُهُمْ وجُلودُهمْ لذِكْرِ اللهِ".

وذكروا عِندَهُ بعضَ عُلَماءِ عصْرِهِ، وأثنوا وبالغوا، فقالَ: دعونا مِنْ ذِكرِ أهْلِ الطَّرْدِ، قالوا: كيْفَ وهو مِنْ عُلَماءِ الإسلامِ؟! قالَ: ليسَ لهُ مِنَ العِلْمِ إلّا الاسمُ، هلْ رأيتُمْ مُحبًّا يثقُلُ عليهِ تكرارُ اسمِ محبوبِهِ ويضيقُ صدرُهُ إذا مرَّ بذلكَ؟ قالوا: لا، قالَ: فهؤلاءِ أشقُّ ما على أحَدِهِمْ أنْ يُقالَ: اترُكْ درسَكَ في النَّحْوِ أوِ الصَّرْفِ أو اللُّغةِ، أو هذهِ المسائلِ التي لا تقعُ إلّا نادراً ولا يُعرَفُ لها دليلٌ واضحٌ مِنَ السُّنّةِ، وتعالَ نذكُرُ اللهَ ساعةً، وقدْ قالَ تعالى: (أنا جليسُ مَنْ ذكرَني)[1]، وكُلُّ منْ لم يقدِرْ على مُجالَسةِ معَ ربِّه تعالى فهو مطرودٌ عنْ حضرتِهِ.

قالوا: يا سيِّدي، اشتغالُهُمْ بالعِلْمِ خيرٌ في الجُملةِ، قالَ: صحيحٌ، لكِنَّ كلامَنا في أهلِ حضرةِ اللهِ، لا في أهلِ حضرةِ أحكامِهِ، وفرْقٌ بيْنَ مَنْ مشهودُهُ أحكامُ الحقِّ، ومَنْ مشهودُهُ صفاتُهُ وأسماؤهُ، فإنَّ أحدَهُمْ يموتُ وهو معَ أصحابِ الأحكامِ مِنَ الخلْقِ، لا يشهدُ الحقَّ إلّا عِندَ موتِهِ، بخلافِ منْ يشْتَغِلُ باسمِ الذّاتِ، فلا يزالُ يذكُرُ حتَّى يجتَمِعَ بصاحِبِ الاسمِ، إذِ الاسمُ لا يُفارِقُ المُسمَّى".

وقدَ طلبَ الإمامُ الرّازيُّ الطَّريقَ، فقالَ لهُ النَّجمُ الكُبرى[2]: لا تُطيقُ مُفارَقةَ أصنامِكَ الذينَ هُمْ عُلومُكَ، فقالَ: لا بُدَّ، فأدخلَهُ الخَلوةَ، وسلبَهُ كُلَّ ما معَهُ مِنَ العُلومِ، فصاحَ في الخَلوةِ بأعلى صوتِهِ: لا أُطيقُ هذا، فأخرجَهُ وقالَ: أعجبني صِدقُكَ وعدمُ نِفاقِكَ، لكِنْ صِرْتَ مِنْ معارِفِنا فاعلمْ ذلِكَ، وأنْتَ أعلمُ بنيَّتِكَ، والسَّلامُ.

(١) تقدم تخريجه، انظر ص ١٨٨.

(٢) شيخ خوارزم أحمد بن عمر بن محمد الزاهد القدوة، الشيخ نجم الدين الكُبْري الصوفي، طاف البلاد وسمع الحديث واستوطن خوارزم وصار شيخ تلك الناحية، واجتمع به الإمام فخر الدين الرازي، فسر القرآن على طريقة الصوفية، ومن مصنفاته عين الحياة، في تفسير الفاتحة، ورسالة في علم السلوك، وفوائح الجمال وفواتح الجلال، وغيرها توفي سنة ٦١٨. الوافي (١٧٣/٧)، وطباقات السبكي (٢٥/٨).

وحقيقةُ الخشْيةِ مهابةٌ يصحبُها تعظيمٌ، وذلكَ قاضٍ بحُسْنِ الأدَبِ والمُراقَبةِ، قالَ في اللَّطائفِ: "شاهِدُ العِلْمِ المطْلوبِ وُجودُ الخشْيةِ للهِ، وشاهِدُها موافَقةُ الأمرِ، أمّا عِلْمٌ معَهُ الرَّغبةُ في الدُّنيا والتَّملُّقُ لأهلِها، وصرْفُ الهِمّةِ لاكتِسابِها، والجمعُ والادِّخارُ والمُباهاةُ والإكثارُ، فما أبعدَ صاحِبَهُ مِنْ وراثةِ الأنْبياءِ! وهلْ ينتَقِلُ الموروثُ للوارِثِ إلّا بصِفَتِهِ التي كانَ بها عِنْدَ المورِّثِ؟! فمَثَلُهُ كشمعةٍ تُضيءُ لغيرِها وتحرِقُ نفسَها.

وقالَ في "الأطِّباء"(١): "وشرُّ العُلومِ ما طُلِبَ للمراءِ، وأرذلُ العُلماءِ مَنْ يطرُقُ بابَ الأمراءِ، فيُفتيهِمْ بالزّورِ والحِيَلِ، ويفتِنَهُمْ بالرُّخَصِ والمِيَلِ، هلَكَ السّائلُ والمسئولُ، ولُعِنَ القائلُ والمقولُ"، سيربحُ المُتَّقي ويخسرُ المَفتونُ، ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥-٦]، ويْلٌ للعالِمِ حينَ يُقلِّبُ الدّينَ بيْنَ إصبَعيْنِ مِنْ أصابعِهِ، ويحرِّفُ الكلِمَ عنْ مواضعِهِ، يُجادِلُ في اللهِ ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، ويبْتَغي الدُّنيا بالدِّينِ ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

***

٢٣٣. العِلْمُ إنْ قارنتْهُ الخشْيةُ فلكَ، وإلّا فعليْكَ.

(العِلْمُ إنْ قارنتْهُ الخشْيةُ فلكَ) أجرُهُ، (وإلّا فعليْكَ) وِزْرُهُ، أو فلكَ نفعُهُ وفائدتُهُ، وإلّا فعليكَ ضُرُّهُ وآفتُهُ، أو فلكَ مَحجّةٌ وإلّا فعليكَ حُجّةٌ، قالَ المُصطفَى ﷺ: (القُرآنُ حُجّةٌ لكَ أو عليْكَ، كُلُّ النّاسِ يغدو، فبائعٌ نفسَهُ فمُعتِقُها أو موبِقُها)(٢).

وذلكَ لأنَّ الخشْيةَ تحجزُ عنِ القَبيحِ وتدعو للحسَنِ، وفقدُها يجُرُّ إلى مُخالفةِ الواجباتِ والسُّننِ، سيَّما معَ وُجودِ العِلْمِ المؤيَّدِ بالتّأويلِ؛ ولهذا قيلَ: "منْ تفقَّهَ ولم يتصوَّفْ، فقدْ تفسَّقْ"؛

(١) لم نقف عليه!! وقد أورد هذه العبارة غير منسوبة الشيخ أحمد الدمنهوري في كتابه "سبيل الرشاد إلى نفع العباد"، وقد أصدرته كشيدة ضمن سلسلة "تراث الأزهريين"

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣)، وغيره من حديث أبي مالك الإشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

ولأنَّ الخشيةَ توجِبُ التَّحقيقَ في التَّحصيلِ، والنُّصحَ في التَّوصيلِ، والإنصافَ في المُذاكرةِ، وقد يَبقى ذلِكَ معَ غلبةِ الهوَى؛ ولأنَّها تحمِلُ على طلبِ الآخرةِ وإرادةِ وجهِ اللهِ بالعمَلِ، وعدمُها ينفي ذلِكَ وهو رأسُ العِللِ.

قالَ الفُضيلُ[1]: "العالِمُ طبيبُ الدّينِ، والدُّنيا داءُ الدّينِ، فإذا جرَّ الطبيبُ الدّاءَ لنفسِهِ، فمتى يُبرئُ غيرَهُ".

فائدةٌ: حُكيَ عَنِ الغزالي أنَّهُ لمّا دخلَ طريقَ القوْمِ قالَ: وجدنا عُلومَ الفُقهاءِ كُلَّها حُجُبًا، فليتنا لم نُضيِّعْ عُمرَنا فيها، فقالَ لهُ عارِفٌ: لأيِّ شيءٍ تجعلُها حُجُبًا؟ فلو نظَرْتَ فيها وفي كُلِّ ما في الوُجودِ وجدْتَهُ دليلًا على اللهِ رافِعًا للحُجُبِ عنكَ! فعمِلَ على ذلك، فعرفَ وُجودَ دلالَتِها، فرجعَ وصارَ يقولُ: "العِلْمُ النّافِعُ نورٌ يكشِفُ عنِ العبْدِ الحُجُبَ، وإنَّما يكونُ حِجابًا على منْ لم يُخلِصْ للهِ في تعلُّمِهِ وتعليمِهِ".

ولمّا دخلَ الجيلانيُّ الطَّريقَ بعدَ السّياحةِ تركَ تدريسَ العِلْمِ الظّاهِرِ، ووقعَتِ النَّفرةُ بينَهُ وبينَ أهلِهِ، فلمّا كمُلَ وشهِدَ وجهَ دلالةِ العُلومِ كُلِّها على اللهِ، درَّسَ الفِقْهَ والأُصولَ والنَّحوَ وغيرَها حتَّى ماتَ.

وكانَ الشَّيْخُ ابنُ غانمِ المقدِسي[2] يُسلِّكُ جماعتَهُ كُلَّهُمْ مِنْ طريقِ عِلْمِ النَّحوِ، حتَّى يوصِلَهُمْ منهُ إلى حضرةِ اللهِ، هكذا هكذا وإلا فلا لا.

(١) الإمام العارف أبو على الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي ثم اليربوعي، أخذ عنه خلق منهم الإمام الشافعيّ، وكان ثقة نبيلا فاضلا عابدا ورعا كثير الحديث، توفي بمكة سنة ١٨٧. طبقات السلمي (ص ٢٢)، وحلية الأولياء (٨٤/٨)، والرسالة القشيرية (٤٠/١).

(٢) العلامة نور الدين علي بن محمد بن خليل بن محمد بن محمد بن ابراهيم بن موسى ثم المصري الحنفي الأنصاري الخزرجي، المعروف بابن غانم المقدسي، شيخ الوقت علما وحالا، كان عالمًا متفنّنًا في الفقه والتفسير واللغة، وإمامًا في التصوف، تولّى مشيخة المؤيدية، وهو من شيوخ الشارح المناوي، من كتبه: الرمز في شرح نظم الكنز في فقه الحنفية، ونور الشمعة في أحكام الجمعة، وبغية المرتاد في تصحيح الضاد، وحاشية على القاموس، وغيرها تُوفّي سنة ١٠٠٤. الكواكب الدرية للمناوي (١٥٢/٤)، ومعجم المؤلفين لكحالة (١٥٩/٧)، والأعلام للزركلي (١٢/٥).

وقالَ بعضُ الكامِلينَ: "ليسَ لنا عِلمٌ شرعيٌّ إلّا وهو يدعو إلى الأدَبِ معَ اللهِ ومعَ خلقِه، فليمتحنْ طالِبُ العِلْمِ نفسَهُ، فإنْ كانَ كُلَّما ازدادَ عِلمًا ازدادَ أدبًا معَ اللهِ وزُهدًا، فليعلمْ أنَّ اشتغالَهُ بالعِلْمِ على القَواعِدِ، وإنْ كانَ كُلَّما ازدادَ عِلمًا ازدادَ حُبًّا للدُّنيا ومناصِبَها، وحُبًّا للمأكَلِ والمشْرَبِ والملْبَسِ والمنْكَحِ، فليقصرْ عنهُ ويُكثِرْ مِنَ الاستِغفارِ؛ فإنَّهُ على شفا جُرُفٍ هارٍ". وقالَ الإمامُ ابنُ حنبل: "علامةُ إخلاصِ العالِمِ أنَّهُ كُلَّما ازدادَ عِلمًا ازدادَ خشيةً وزُهدًا في الدُّنيا"، وقالَ بِشْرٌ الحافي: "واللهِ ما كُنّا نظُنُّ أنّا نعيشُ إلى زمانٍ صارَ عِلْمُ النّاسِ شبكةً لصيْدِ الدُّنْيا".

وعلامةُ الخشْيةِ الإعراضُ عنِ الدُّنْيا، ومُحارَبةُ النَّفْسِ والشَّيطانِ، وقِلّةُ المُبالاةِ بالخَلْقِ إقبالًا وإدْبارًا؛ فلهذا قالَ:

***

٢٣٤. متى آلمَكَ عدمُ إقْبالِ النّاسِ عليْكَ، أو توجُّهُهمْ بالذَّمِّ إليْكَ، فارجِعْ إلى عِلْمِ اللهِ فيكَ، فإنْ كانَ لا يُقنِعُكَ عِلمُهُ فيكَ، فمُصيبَتُكَ بعدمِ قناعتِكَ بعِلْمِهِ أشدُّ مِنْ مُصيبَتِكَ بوُجودِ الأذى منهم.

(**متى آلمَكَ عدمُ إقْبالِ النّاسِ عليْكَ، أو توجُّهُهمْ بالذَّمِّ إليْكَ، فارجِعْ إلى عِلْمِ اللهِ فيكَ**) أي: فانظُرْ ما أعرضوا عنك بسببِهِ، أو ذُمِمْتَ به مِنْ أجلِه، فإنْ كانَ تعالى يعلمُ منْكَ وُجودَهُ، فارجِعْ إليهِ بالتَّوبةِ والاستِغفارِ نظرًا إلى أنَّ (ألسِنةَ الخَلْقِ أقْلامُ الحقِّ)[١]، وإنْ لم تجِدْهُ في نفسِكَ فارجِعْ عليْهِ بالكِفايةِ به عنْ عِلْمِ غيرِهِ، وقُلْ بلِسانِ الحالِ والقالِ: "أنتَ تعلمُ براءتي، وكفى بكَ وكيلًا"، وارجِعْ إليهِ بالرَّفعِ عنْكَ عُبوديّةً وتَضرُّعًا.

---

(١) قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة (١/١٥٢): "حديث: ألسنة الخلق أقلام الحق، لا أصل له، نعم هو من كلام بعض الصوفية".

قالَ مالكٌ لبعضِ صحبِهِ: "ما تقولُ النّاسُ في شيخِكَ؟" قالَ: أمّا الصَّديقُ فيُثني، **وأمّا** العدوُّ فكما علِمْتَ، فقالَ مالكٌ: "ما زالَ النّاسُ هكذا، ولكنْ نعوذُ باللهِ مِنْ تتابُعِ الألسنةِ بالذَّمِّ".

تنْبيهُ: قالَ بعضُ الأكابرِ: لا يُقابِلُكَ مِنَ العالَمِ ولا مِنَ الحقِّ إلّا صنعتُكَ، فأنْتَ حِجابٌ على نفسِكَ لا غيرِكَ، واجتهِدْ أنْ ترى جرمَ المرآةِ حالَ نظرِكَ فيها! لا تقدِرْ، فإنَّ صورتَكَ حائلةٌ بينَكَ وبينَها، ومنهُ حديثُ: (المؤمِنُ مرآةُ المؤمِنِ)[١]، فلا يصِلُ عبدٌ إلى مقامِ الطَّهارةِ مِنَ الرَّذائِلِ حتَّى يصيرَ لا يرى في أحدٍ عيبًا؛ لأنَّهُ حينَئِذٍ يرى في أخيهِ صورةَ نفسِهِ.

تتِمّةٌ: قالَ بعضُ العارِفينَ: "جرَّبْتُ النّاسَ، فرأيْتُ بعضَهُم كالحيّةِ، وبعضَهم كالعقرَبِ، وبعضَهم كالسَّبُعِ، وبعضَهم كالذِّئْبِ، وغيرِ ذلكَ مِنْ أصنافِ القواتِلِ، فمِنْ لادغٍ لي قاتِلٍ معَ لينِ ملمَسِهِ كالحيّةِ، ومِنْ لاسعٍ كالعقْربِ، ومِنْ مُراوِغٍ كالثَّعلَبِ، ومِنْ مُهارِشٍ كالكلْبِ، ومِنْ مُحتالٍ كالذِّئْبِ، ومِنْ غبيٍّ كالدُّبِّ، ومِنْ مُحتالٍ كالفهْدِ، ومِنْ محّاكٍ كالقِرْدِ، ومِنْ شديدِ الغضَبِ والبأسِ كالأسَدِ، ومِنْ بليدٍ كالحِمارِ، ومِنْ حُقودٍ كالجملِ، ومِنْ وثّابٍ عليَّ كالنَّمِرِ، ومِنْ جاحِدٍ لما أفعلُهُ معَهُ مِنْ خيرٍ كالفأرِ، وما أُمثِّلُ نفسي بينهم إلّا كفرخٍ لا ريشَ لهُ، أو طيْرٍ بلا جناحٍ، فإيّاكَ والإكثارَ مِنْ مُخالَطتِهِمْ، والسَّلامُ"[٢].

قاعدةٌ تقول: "مدحُ الخلقِ والنَّفرةُ مِنْ ذمِّهِمْ إنْ أوجبَتْ خُروجًا عنِ الحقِّ في الجانبينِ، دلَّ على الاستِنادِ إليهم فيه، وذلكَ خُروجٌ عنِ الحقيقةِ التي هيَ النَّظرُ إلى اللهِ تعالى في المدحِ والذَّمِّ، بأنْ لا يتجاوزَ الحقَّ في مدحِ مادحٍ، ولا ذمِّ ذامٍّ، حتَّى لو مدحَكَ مَنْ شأنُهُ الذَّمُّ، اقتصرْتَ على قدرِ ما واجهَكَ بهِ، وما علِمْتَهُ مِنْ أوصافِهِ المحمودةِ، ولو ذمَّكَ مَنْ شأنُهُ المدحُ، لم يُخرِجْكَ ذلِكَ عنْ إقامةِ حقِّهِ بمدحِهِ، وهذا جارٍ في العطاءِ والمنعِ".

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٣٩)، وأبو داود (٤٩١٨)، والبزار (٨١٠٩)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) ذكره الشعراني في المنن الكبرى.

(**فإنْ كانَ لا يُقنعُكَ عِلمُهُ فيكَ**) وعملْتَ على أحوالِهم، مُلتَفتًا لما يواجِهُكَ مِنْ أفعالِهم، (**فمُصيبَتُكَ بعدمِ قناعتِكَ بعِلْمِهِ أشدُّ مِنْ مُصيبَتِكَ بوُجودِ الأذى منهم**). يعني: إنْ لم تكتفِ بعِلْمِ اللهِ وأردْتَ أنْ تَعلَمَ النَّاسُ حقيقةَ ما أنت عليه، أدركَتْكَ مُصيبةُ الالتفاتِ إلى الخلْقِ، فوُكِلْتَ إليهم، فكُنتَ راجعًا إلى الخلْقِ بدلًا مِنَ الاكتِفاءِ بالحقِّ، ولا مصيبةَ أشدُّ مِنْ هذه، ويَدخُلُكَ مِنْ ذلك الرِّياءُ والتَّكلُّفُ وعدمُ الاحتِرامِ للجنابِ الكَريمِ، فتسقُطُ مِنْ عِزِّكَ، فينقلبُ عِزُّكَ ذُلًّا، وغِناكَ فقرًا، وتُمقَتُ.

وحاصِلُهُ: أنَّكَ متى تألَّمَ قلبُكَ مِنْ ذمِّ النّاسِ، فأنْتَ على غايةٍ مِنَ الإفلاسِ، ولو قنعْتَ بعِلمِهِ، لم تلتفِتْ لمدحِ أحدٍ ولا ذمِّهِ، فإذا لم تشهدْ ذلِكَ فعيناكَ فيها قذًى، ومصيبتُكَ أعظمُ مِنْ مصيبةِ الأذى، أيُّ شيءٍ مدائحُ الخلقِ معَ مذامِّهِمْ؟! وهم لا يقدِرون على شيءٍ مِنْ منافِعِهم أو دفع آلامِهِمْ، اللَّهُمَّ إلّا ذمُّ الكاملينَ؛ لأنَّهُمْ لا ينطِقون عن الهوى، ولا يذُمُّون إلّا مَنْ عَنْ ذُروةِ الكَمالِ هوى، لا يتكلَّمون إلّا عنِ المولى، فذمُّهُمْ هو الذَّمُّ، ومدحُهُمْ هو الأعلى، مدحُ العارفينَ وذمُّهُمْ لا عنْ أمرِهِمْ؛ لقولِ الخضرِ: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢]، إذ عُرِفَ أنَّهُمْ باللهِ غيبَتُهُمْ عنْ رؤيةِ عوالِمِ الخلْقِ والأمرِ، دون منْ لهُ الخلْقُ والأمْرُ، فذمُّهُمْ عنه ومدحُهُمْ منهُ، إذ هُمْ أبدالُ رُسلِهِ، وخاصّةُ خلقِهِ، وأهلُ وِلايتِهِ.

وعلامةُ الاكتِفاءِ بعِلْمِ اللهِ التَّحفُّظُ مِنَ الوقيعةِ فيمَنْ أذاكَ، والقصدُ في العمَلِ بأسْبابِ الدَّفعِ حيْثُ توجَّهْتَ، والقِيامُ للهِ بالعُبوديّةِ افتِقارًا فيما أنْتَ فيهِ.

فائدةٌ: لمّا اختفى الإمامُ مالكٌ زمنَ الفِتنةِ، قالَ لمطرفٍ[1]: "ما تقولُ النّاسُ فيَّ؟ قالَ: الصديقُ يُثني، والعدوُّ يقعُ، قالَ: ما زالَ النّاسُ هكذا، لهم عدوٌّ وصديقٌ، لكِنْ نعوذُ باللهِ مِنْ تتابُعِ الألسِنةِ بالذَّمِّ.

***

(١) هكذا في المخطوطة، واالوارد في "الأخلاق المتبولية" أنه قاله لتلميذه ابن القاسم، وهو عبد الرحمن بن القاسم العتقي (١٣٢-١٩١هـ).

٢٣٥. إنَّما أجرَى الأذى عليْكَ منْهُمْ؛ لئلّا تكون ساكِنًا إليهِمْ. أرادَ أنْ يُزعِجَكَ إليْهِ مِنْ كُلِّ شيءٍ، حتَّى لا يشْغَلَكَ عنهُ شيءٌ.

ثُمَّ إنَّهُ تعالَى (**إنَّما أجرَى الأذى عليْكَ مِنهُمْ؛ لئلّا تكون ساكِنًا إليهِمْ**) فزَهَّدَكَ فيهم بأفْعالِهِمْ، كما زهَّدَكَ في الدُّنْيا بتقلُّبِ أحوالها، وليحرِّرَكَ مِنْ رقِّ إحسانِهِمْ، ويُريحَكَ مِنْ كُلفةِ القيامِ بحقِّهِمْ؛ فإنْ تنبَّهْتَ لذلِكَ وعمِلْتَ عليهِ فأنْتُ مكرومٌ، وإنْ غفلْتَ عنْهُ وسكنْتَ إليهِمْ فأنْتَ محرومٌ، وقدْ قيلَ: "صيحةُ العدوِّ سوطُ اللهِ يؤدِّبُ بهِ القُلوبَ إذا شردَتْ عنْهُ، وإلّا رقدَ القلْبُ في ظِلِّ العزِّ والجاهِ، وهو حِجابٌ عظيمٌ".

ولما تقرَّرَ كانَ مشايخُ الصّوفيّةِ يأخُذون العهْدَ على المُريدِ بأنْ يوطِّنَ نفسَهُ على تحمُّلِ البَلاءِ والمِحَنِ وكثْرةِ الإنكارِ عليْهِ ممَّنْ عرفَهُ وممَّنْ لا يعرفُه؛ لأنَّهُ لا بُدَّ لمنْ جعلَهُ الحقُّ مِن حِزبِهِ مِنْ ذلِكَ، شاءَ أم أبى.

وسببُ وُقوعِ النّاسِ في أعراضِ القوْمِ كوْنُ أحدِهِمْ يطلُبُ كونَهُ مِنْ أهلِ حضرةِ اللهِ، ودُخولُها مُحرَّمٌ على مَنْ يُراعي المقامَ عِنْدَ الخلْقِ، فلذلكَ تسلَّطوا عليهِ بالزُّورِ والأذى وتمزيقِ العِرْضِ؛ لئلّا يركَنَ إليهم، فإذا نفرَ منْهَمُ اعتمدَ على ربِّهِ، وطلبَ المقامَ عِنْدَهُ وحدَهُ؛ فهُناكَ يصطفيهِ، وما دامَ يطلُبُ مقامًا عِنْدَ الخلْقِ، فهو محجوبٌ عنِ الحقِّ؛ فلهذا قالَ الخوّاصُ: "لا يصطَفي الحقُّ عبدًا حتَّى يتحزَّبَ عليْهِ شياطينُ الإنْسِ والجنِّ، ويرمونَهُ بالبُهتانِ".

تنْبيهٌ: قالَ المُصنِّفُ: "جرتْ عادةُ اللهِ في أنبيائِهِ وأصْفيائِهِ أنْ يُسلِّطَ عليْهِم الأذى في الابتِداءِ، ثُمَّ تكونُ الدَّولةُ لهم آخِرًا إذا صبروا"؛ فلذا قالَ:

(**أرادَ أنْ يُزعِجَكَ إليْهِ مِنْ كُلِّ شيءٍ**) سِواهُ بتسْليطِهِ عليْكَ (**حتَّى لا يشْغَلَكَ عنهُ شيءٌ**) فترجِعَ إليهِ في كُلِّ شيءٍ، تارةً باللَّجأِ في دفعِ بلواه، وتارةً بالفَرارِ مِنهُ إلى اللهِ، فعُلِمَ أنَّهُ إنَّما أجرى عليك الأذى مِنْ قِبَلِهِمْ لتسْلَمَ بعدَمِ السُّكونِ إليهِمْ مِنْ عِلَلِهِمْ، فهو في الظّاهِرِ نِقْمةٌ،

وفي الباطِنِ نِعْمةٌ، وأيُّ نِعمة، إنَّما أزعجَكَ مِنَ الأغْيارِ لئلّا تشْتَغِلَ بغيْرِهِ في هذهِ الدّار، ابتلَى أهْلَ وُدادِهِ بأشْرارِ عِبادِهِ، لئلّا يكون لهم إلى غيْرِهِ سُكونٌ، فمنْ سكَنَ إلى غيْرِ ربِّه، فقدْ باءَ بذَنْبِه، قالَ الشّاذْلي: أذاني إنسانٌ فضِقْتُ بهِ ذرْعًا، فنِمْتُ فقيلَ لي: "مِنْ علامةِ الصِّدّيقيّةِ كثرةُ الأعداءِ، وعدمُ المُبالاةِ بهم".

تنْبيهٌ: عَدُّوا مِنَ القَواعِدِ: أنَّهُ ما ظهرَتْ حقيقةٌ قطُّ في الوُجودِ إلّا قُوبِلَتْ بدعوى مِثلِها، وإدخالِ ما ليْسَ مِنها عليها، ووُجودِ تكذيبِها؛ كُلُّ ذلكَ ليظهَرَ فضلُ الاستِئثارِ بها، وتتبيَّنَ حقائقُها بانتِفاءِ معارِضِها، ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ [الحج: ٥٢]، وللوارِثِ نِسبةٌ مِنَ الموروثِ، و(أشدُّ النّاسِ بلاءً الأنبياءُ فالأولياءُ، ثُمَّ الأمثَلُ فالأمثَلُ)[١]، فمِنْ ثَمَّ كانَ مبنى هذا الطَّريقِ على تسليطِ الخَلْقِ أوَّلًا، وإكرامِهِمْ وسطًا، وبهما آخرًا؛ لئلّا يفوتَهُمُ الشُّكْرُ على المدْحِ، ولا الصَّبْرُ على الذَّمِّ، فمنْ أرادَهُ فليوطِّنْ نفسَهُ على الشِّدّةِ، و﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

وقالَ الدشطوطي: "حدثَ لي حادِثٌ عظيمٌ يؤدّي إلى الموْتِ غالبًا، وذلكَ أنَّ رجُلًا مِنَ النُّقَباءِ الموَكَّلينَ بقيامِ الميزانِ على أربابِ الأحوالِ عارَضَني، حتَّى صِرْتُ أرى بدني كُلَّهُ كدُمَّلٍ قرُبَ انفِجارُهُ، فطلبْتُ طُلوعَ روحي فلم يقعْ، فحييتُ أستنصِرُ بالخواصِّ، فقيلَ لي: عليْكَ بالتَّوجُّهِ إلى اللهِ في كُلِّ أمرٍ يُصيبُكَ، ولا تُعوِّلْ على أحَدٍ، فلا يُقابِلُكَ منه إلّا سوادُ الوجْهِ".

فائدةٌ: قالَ شيخُنا الشَّعْراني في "أجوبةِ أسئِلةِ الجانِّ": "رأيْتُ لوحَ زبَرْجَدٍ بسِلسِلةِ فضّةٍ نزلَ مِنَ الجوِّ، وفيه بخطٍّ عرَبِيٍّ: اعلمْ أنَّ حُكمَ الخَلائقِ حُكمُ الطّينةِ المعجونةِ مِنْ سائِرِ الأجْرامِ، والطُّعوم والرَّوائِحِ، والخِفّةِ والثِّقَلِ، والحَلاوةِ والمرارةِ والمُلوحةِ، والكرمِ والبُخْلِ، والشَّجاعةِ والجُبْنِ؛ ولهذا توالتْ عليهم الأحوالُ بحَسَبِ الطّينةِ، فما تراهُ مُفرَّقًا في الكوْنِ فهو في ابنِ آدمَ؛ لأنَّ الطّينةَ إذا عُجِنَتْ صارَتْ واحِدةً، ما خرجَ عنْ ذلكَ إلّا الأنبياءُ، فإنَّ اللهَ طهَّرَهُمْ لسابِقِ العِنايةِ،

---

(١) أخرجه الدارمي (٢٩٩٠)، والبزار (١١٥٠)، والطحاوي في شرح شكل الآثار (٢٢٠٣)، وابن حبان (٢٩٠٠)، والحاكم (٤١/١)، وغيرهم من حديث سهل بن سعد مرفوعًا، وفي الباب عن أبي سعيد وغيره. ولم يذكر "الأولياء" في بعض الروايات، وجاء في بعضها "ثم الصالحون".

لا لعملٍ عملوهُ، ولا لخيرٍ قدَّموهُ، بل محضُ اصْطِفاءٍ، وأمّا غيرُهُمْ فعلى وصْفِ تِلْكَ الطِّينة، تارةً تجدُ أحدَهُمْ كريمًا، وتارةً بخيلًا، وتارةً شُجاعًا، وتارةً جبانًا، وتارةً مُطيعًا، وتارةً عاصيًا، وهكذا فما دامَتِ العنايةُ تحُفُّ إنسانًا، فأخلاقُهُ حسنةٌ ظاهِرةٌ فيهِ، وأخلاقُهُ الرَّديَّةُ ساكِنةٌ كامِنةٌ لا تتحرَّكُ، فإنِ تخلَّفتِ العنايةُ عنهُ تحرَّكتِ الرَّديَّةُ وخمدَتِ الحسَنةُ، فيقولُ النّاسُ عِنْدَ خُمودِ الصِّفاتِ الحسَنةِ وقيامِ الرَّديَّةِ في رجُلٍ: "نعوذُ باللهِ مِنْ شرِّ ما رأيْنا، انظُروا هذا الظَّلامَ عليْه"، وفي عكسِهِ: "شيءٌ للهِ، انظروا هذا النّورَ الذي عليْهِ"، ونحو ذلِكَ، ففي الأعلى ما في الأدنى وعكسُهُ.

قالَ الجنيدُ: "مَنْ سكنَ إلى غيْرِ اللهِ، ابتَلاهُ اللهُ وحجبَ ذِكْرَهُ عَنْ قلبِهِ وأجراهُ على لِسانِهِ، فإنِ انقَطَعَ ممَّنْ سكنَ إليْهِ، كشفَ اللهُ بلوتَهُ ومحنَتَهُ، وإنْ دامَ على سُكونِهِ، نزعَ اللهُ مِنَ قُلوبِ الخلْقِ الرَّحمةَ عليْهِ، وألبَسَهُ لِباسَ الطَّمَعِ، فيزدادُ رغبةً فيهم معَ فقْدِ الرَّحمةِ منهم، فتصيرُ حياتُهُ عجزًا، وموتُهُ كمدًا، ومعادُهُ أسفًا".

فاحذرْ أيُّها الحازِمُ الدُّنيا وأهلَها، ولا تغترَّ بزُخرُفِها وفِعْلِها، وكُنْ حميَّ الأنْفِ منيعَ الجنابِ، أبيَّ النَّفْسِ طريدَ النّابِ[1]، ولا تصحَبِ الدُّنيا صُحبةَ نعالٍ، ولا تنظُرْ لأهلِها إلّا مِنْ عَالٍ، ولا تخفِضْ جناحَكَ لِبنيها، ولا تُضعْضِعْ رُكنَكَ لِبانيها، ولا تمُدَّنَّ عيْنَيْكَ إلى زَخارِفِها، ولا تبسُطْ يدَكَ إلى محارِمِها، وكُنْ مِنَ الأكياسِ، واتْلُ على النّاسِ سورةَ الياسِ[2]، ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨].

وقالَ الورّاقُ[3]: "الأُنْسُ بالخلْقِ وحشةٌ، والطّمأنينةُ إليهم حُمْقٌ، والسُّكونُ إليهم عجْزٌ، والاعتِمادُ عليهم وهَنٌ، والثِّقةُ بهم ضياعٌ، وإذا أرادَ اللهُ بعبْدٍ خيْرًا، جعلَ أُنسَهُ بهِ وبِذِكْرِهِ، وصانَ سِرَّهُ عنِ النَّظَرِ إليهم، وظاهِرَهُ عَنِ الاعتِمادِ عليهِمْ".

---

(١) أي طويله. يقال: مَرَّ بنا يومٌ طَرِيدٌ وطَرّادٌ أي طويلٌ. [لسان العرب]

(٢) أي "اليأس" بتخفيف الهمزة للسجع.

(٣) أبو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذي، أقام ببلخ وصحب أحمد بن خضرويه وغيره، له الكتب المشهورة في أنواع الرياضات والمعاملات والآداب وأسند الحديث، توفي سنة ٣٩٦. الرسالة القشيرية (١/٩٧).

وقالَ أبو حنيفةَ[1]: "جالَسْتُ النّاسَ خمسينَ سنةً، فما وجدْتُ أحدًا منهم غفرَ لي ذنبًا، ولا وصلني حينَ قطعْتُهُ، ولا سترَ عليَّ عورةً إذا غضِبَ؛ فالاشتِغالُ بهم حُمْقٌ".

***

٢٣٦. إذا عَلِمْتَ أنَّ الشَّيْطانَ لا يغفَلُ عنْكَ، فلا تغفلْ أنْتَ عمَّنْ ناصيَتُكَ بيدِه.

(**إذا عَلِمْتَ أنَّ الشَّيْطانَ لا يغفَلُ عنْكَ**) بالإغواءِ والإضلالِ، (**فلا تغفَلْ أنْتَ عمَّنْ**) ناصيَتُهُ و(**ناصيَتُكَ بيدِه**)، بدوامِ ذِكْرِه، واتِّباعِ نهيِه وأمرِه، وتحقيقِ العُبوديّةِ لهُ، والضَّراعةِ إليهِ ليَكْفيَكَ أمرَهُ، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]، فإذا لم تغفلْ عَنِ المولَى، فأنْتَ مِنْ خُلاصةِ العَبيدِ، وقدْ نجوْتَ مِنْ سلطَنةِ العَدوِّ الطَّريدِ، أنَّى يكونُ لهُ إليْكَ سبيلٌ، وقد تمسَّكْتَ بمن ليس له ضِدٌّ ولا مثيلٌ؟! كيْفَ يُمكِنُهُ إغواؤكَ وقدْ عاديْتَ أهواءكَ؟! فأنْتَ منه في أمانٍ، وناهيكَ بقولِهِ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

قالَ الدّاراني: "ما خلقَ اللهُ خلقًا أهونَ عليهِ مِنْ إبليسَ، ولولا أنَّهُ أمرَ بالتَّعوُّذِ منه ما تَعوَّذْتُ أبدًا"، وقالَ الشّاذلي لبعضِ صحبِهِ وقدْ علِمَ منهُ الوَسوسةَ في الوُضوءِ: "إنْ لم تترُكْ هذا وإلّا فلا تأتِنا، فإنّا قوْمٌ نلعبُ بالشَّيْطانِ ولا يلعَبُ بِنا"، قالَ الوزيري[2]: "قد انتَفَعْتُ بهذهِ الكلمةِ، كانَ يعتَريني وسوسةٌ عِنْدَ نيّةِ الصَّلاةِ، فببرَكةِ التَّحقُّقِ بها تركتُها، وتحقَّقتُ شُؤمَها فرفضْتُها".

---

(١) الإمام الأعظم فقيه الملة أبو حنيفة النعمان بن ثابت، مولى تيم الله ابن ثعلبة، صاحب المذهب، كان خزازًا، ولد سنة ثمانين في حياة صغار الصحابة، وتُوفِّي في رجب سنة ١٥٠ ودفن في مقابر الخيزران، وأفردت ترجمته قديمًا وحديثًا. الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٦٨/٦)، تاريخ بغداد (٣٢٥/١٣)، سير أعلام النبلاء (٣٩١/٦).

(٢) العلامة محمد بن طاهر ابن محمد بن الحسن بن الوزير، أبو نصر الوزيري، روى عنه السلمي، وكان كثير العلوم، فصيحا، بارعا في الذكر والوعظ، توفي سنة ٣٦٥. طبقات الشافعية لابن الصلاح (١٦٨/١).

٢٣٧. جعلَهُ لكَ عدوًّا ليحوشَكَ بهِ إليْه، وحرَّكَ عليْكَ النَّفْسَ ليَدومَ إقبالُكَ عليْه.

(**جعلَهُ لكَ عدوًّا ليحوشَكَ بهِ إليْهِ**) أي ليرُدَّكَ بهِ إليْهِ على وجهٍ لا يُمكِنُكَ الانفِكاكُ عنهُ، فكُلَّما تسَلَّطَ عليْكَ رجَعْتَ إليهِ بالافتِقارِ، وقُمْتَ بيْنَ يديْهِ بانكِسارٍ واضْطِرارٍ. قالَ بعضُهمْ: "الشَّيطانُ والنَّفْسُ كالكلْبِ، إنْ قاومْتَهُ مزَّقَ الإهابَ وقطعَ الثِّيابِ، وإنْ رجَعْتَ إلى ربِّهِ صرَفَهُ عنْكَ برِفْقٍ".

(**وحرَّكَ عليْكَ النَّفْسَ**) بطلَبِ هواها وإيثارِ دُنْياها، وكثرةِ تقلُّبِها، وعدمِ الوَفاءِ بعَزْمِها، وجُموحِها في جنوحِها، (**ليَدومَ إقبالُكَ عليْهِ**) بالثِّقةِ بهِ فيما ترتَجيهِ، واللَّجأِ إليهِ فيما تبغيهِ، والإنابةُ لهُ فيما يقضيهِ، تارةً على بِساطِ المُشاهدةِ، وتارةً بوجْهٍ منَ المُجاهدةِ، وتارةً بالرِّياضةِ والمُنابَذةِ، فهي التي لم يقدرُوا عليها، قد أحاطَ اللهُ بها علْمًا، قالَ بعضُهم: "لم يعْصِمِ اللهُ الأكابرَ مِنْ وسْوسةِ إبليسَ، بلْ مِنَ العمَلِ بذلِكَ فقطْ، ولولا حِفْظُهُ ما أمكَنَ أحَدَهُمْ ردُّ كيْدِه".

وكُلَّما قرُبَ العبْدُ مِنْ حضرةِ اللهِ، اشتدَّتْ عداوةُ إبليسَ لهُ وملازمتُهُ إيّاهُ، لعِلْمِهِ بكثْرةِ ضلالِ النّاسِ إذا ضلَّتْ أئمَّتُهُمْ؛ ثُمَّ إذا دخلَ الأكابرُ الحضْرةَ، يقفُ إبليسُ على البابِ ينتَظِرُهُمْ، فكُلُّ منْ خرجَ بغيْرِ إذْنٍ ركِبَهُ كما يركَبُ الإنْسانُ الحِمارَ؛ والمُرادُ بالحضْرةِ شُهودُ العبْدِ أنَّهُ بيْنَ يدَيِّ اللهِ، وبخارِجِها حِجابُهُ عنْ هذا المشْهدِ، فمتى وجدَ للإنسانِ غفلةً عنْ شُهودِ أنَّهُ يراهُ، خرجَ مِنَ الحضْرةِ فرَكِبَهُ.

تنْبيهٌ: اعلمْ أنَّهُ لمّا كانَ مظهرُ الإنسانِ في العالَمِ السُّفْليِّ، جعلَ اللهُ لهُ ضدًّا، وهو الشَّيْطانُ، وظهرَ مِنْ أصلِ نوعِ تركيبِ الإنسانِ سائرُ العالَمِ الإنْسانيِّ، ومِنْ أصلِ نوعِ الشَّيْطانِ جميعُ العالَمِ الشَّيْطانيِّ، وكُلٌّ مِنَ العالَمِيْنِ مُضادٌّ للآخَرِ مُضادّةً مُنافيةً في أصلِ التَّركيبِ، مُتسلِّطٌ

عليْهِ، وجعلَ سببَ تسلُّطِ الشَّيْطانِ عليْهِ بما في الإنسانِ مِنَ القوى الشَّيْطانيّة، لما أنَّ في القوى القائمةِ بذاتِهِ قوًى شيْطانيّةً وقوًى روحانيّةً مَلكيَّةً، فيمازِجُهُ الشَّيطانُ بتلكَ القوى المُناسبةِ لهُ بما فيهِ مِنَ الخِفّةِ والانبِعاثِ، فينْبعِثُ مِنْ ذلك في القوَى النَّفْسانيّةِ القوَى الشَّهوانيّةُ والبهَميّةُ، فتَقوَى وتُغطّي على سائرِ القوَى الإنسانيَّةِ باستيلائِها، فيظهرُ حينَئذٍ بالإنسانِ الأُمورُ القَبيحةُ، واتِّباعُ الهوى، وكُلُّ محظورٍ. ولسببِ تسلُّطِ الشَّيْطانِ على الإنسانِ سِرٌّ أصليٌّ في الإنسانِ، مَنِ اطَّلَعَ عليْهِ قهرَ القوَى الشَّيْطانيّةَ، فيحصُلُ الصَّفاءُ والارتِقاءُ للنَّفْسِ النّاطِقةِ والقوَى العقْليّةِ، فيصعدُ ويتَّصِلُ بالقوَى الرّوحانيّةِ، فإذا زادَ الصَّفا بالطَّريقِ المُصطَفَى، وحصلَ الاتِّصالُ وتلازَمَ، وترقَّى الكشْفُ، يتَّصِلُ بالقوَى الملَكيّةِ النّورانيّةِ ثُمَّ يتَّصِلُ بالحضْرةِ الرّبّانيّةِ، وينكشِفُ لهُ الغِطاءُ عنْ الحقائِقِ الخفيّةِ الحقيقيّةِ، فتكونُ قواهُ مُجتَمِعةً بعدَ انحِلالِ تركيبِهِ، ومعادُه في أعلى مقامٍ، وإنْ غلبَتْ عليْهِ القوَى الشَّيْطانيّةُ، وزادتْ باستيلائِها على نفسِهِ النَّفسانيّةُ، فلمْ تزَلْ تُنزِلُهُ وتُهبِطُهُ إلى الهوانَ، حتَّى تصيرَ قواهُ مُجتَمِعةً بعدَ انحِلالِ تركيبِهِ، ومعادُهُ في العَذابِ معَ الشَّيْطانِ بسوءِ الحظِّ والحِرْمانِ، كذا في "أُصولِ العُقول".

وقدْ عُلِمَ مِمّا مرَّ آنِفًا أنَّهُ إنَّما جعلَ الشَّيْطانَ لكَ عدوًّا ليكون قلبُكَ في الالتِجاءِ في دفعِهِ مملوءًا، فهي مِنْ أجلِّ النِّعْم، إذْ بها تضرَعُ إلى اللهِ في دفْعِ ما ألَمَّ، يُحرِّكُ عليْكَ النَّفْسَ الأمّارةَ لتطلُبَ نصرَهُ، فيمنحُكَ انتِصارَهُ، هي العدوُّ المُلازِمُ تحملُكَ أبدًا على المكارِهِ، بلِ المآثِمِ، فبُثَّ ضعفَكَ إليهِ فهو منتهى الشكوى، فعساه يمُنُّ فيلهِمَهُ التَّقوَى.

وبهذا تمَّ كلامُ المؤلِّفِ على العَوائِدِ الأرْبَعةِ التي قيلَ فيها:

إنّي بُليتُ بأربَعٍ يرمينني * بالنَّبْلِ عنْ قوْسٍ لهُ توتيرُ
إبليسُ والدُّنيا ونفْسي والورَى * يا ربُّ أنْتَ على الخلاصِ قديرُ

وقدْ أحسنَ المؤلِّفُ في سياقِها، ذاكِرًا حِكمةَ اللهِ فيها، مُرشِدًا للتخْليصِ مِنْها بطَريقٍ سهْلٍ وكلامٍ جامِعٍ قليلٍ، كعادَتِهِ في كلامِهِ.

***

٢٣٨. مَنْ أثْبَتَ لنفْسه تواضُعًا فهو المُتكبِّرُ حقًّا؛ إذْ ليْسَ التَّواضُعُ إلّا عنْ رِفْعةٍ، فمتَى أثْبَتَّ لنفسِكَ تواضُعًا فأنْتَ المُتكَبِّرُ حقًّا.

(**مَنْ أثْبَتَ لنفسِهِ تواضُعًا فهو المُتكبِّرُ حقًّا؛ إذْ ليْسَ التَّواضُعُ إلّا عنْ رِفْعةٍ**)، ولا رِفعةَ إلّا عنْ تكبُّرٍ؛ إذْ لفْظُ التَّواضُعِ يقتَضي منزِلةَ صدَرَ التَّنازُلُ عنْها، وحقيقتُهُ تأبى ذلكَ، فمنْ أثْبَتَ لنفسِهِ تواضُعًا أثبتَ لنفسِهِ رِفعةً إذْ بضِدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ، (**فمتَى أثْبَتَّ لنفسِكَ تواضُعًا**) فقدْ أثبَتَّ لكَ شيئًا أرفعَ مِمّا هي فيه، وحينَئِذٍ (**فأنْتَ المُتكبِّرُ حقًّا**) ولوْ كُنْتَ في الظّاهِرِ في أقصى درجاتِ التَّواضُعِ، ومتى لم ترَ لنفْسِكَ قدْرًا بوجْهٍ، فأنْتَ المُتواضِعُ، وإنْ كانَ ظاهِرُ حالِكَ في أقصى درَجاتِ التَّكبُّرِ، إذِ التَّواضُعُ أمرٌ قلبيٌّ حقيقتُهُ عدمُ رؤيةِ المرْءِ نفسَهُ أهلًا لشيْءٍ، والكِبْرُ عكسُهُ، فمَنِ اعتَقَدَ أنَّهُ تنزَّلَ عنْ مقامِهِ، فقدْ تكبَّرَ ووقعَ في آثامِهِ، أيُّ قدْرٍ لكَ ولا تدري ما أنْتَ عِنْدَهُ، أقريبٌ أمْ طريدٌ؟! وما أشنعَ طردَهُ!

تنبيهٌ: قالَ ابنُ عربي: التَّواضُعُ والبَشاشةُ محبوبةٌ بالذّاتِ لكُلِّ أحدٍ لكونِها مِنْ مكارِمِ الأخْلاقِ، وما زالَ اللهُ يؤدِّبُ نبيَّهُ حتّى تحقّقَ بالأدَبِ الإلهيِّ، فكانَ يُظهِرُ مِنَ التَّواضُعِ والبَشاشةِ ما يليقُ، ويُظهِرُ للفقيرِ والأعمى الفرَحَ بِهِ والتَّواضُعَ لهُ على ما يليقُ، وإذا فتحنا أعيُنَ بصائرِنا عَلِمْنا أنَّ تعليمَ اللهِ نبيَّهُ تعليمٌ لنا، على مِنهاجِ المَثَلِ السّائِرِ "إيّاكِ أعني واسمعي يا جارةُ"، فكلُّ ما خاطبَ بِهِ نبيَّهُ مُؤدِّبًا لهُ فلنا فيهِ اشتِراكٌ.

***

٢٣٩. ليْسَ المُتواضِعُ الذي إذا تواضَعَ رأى أنَّهُ فوقَ ما صنَعَ، ولكِنَّ المُتواضِعَ الذي إذا تواضَعَ رأَى أنَّهُ دون ما صنعَ.

(ليْسَ المُتواضِعُ الذي إذا تواضَعَ رأى أنَّهُ فوقَ ما صنَعَ) لتَكبُّرِهِ حقيقةً، **(ولكِنَّ المُتواضِعَ الذي إذا تواضَعَ رأى أنَّهُ دون ما صنعَ)** لأنَّهُ يُشاهِدُ مِنْ ضِعةِ قدْرِهِ، وخُمولِ ذِكْرِهِ، وذِلَّتِهِ ومهانَتِهِ ما يُحقِّقُ لهُ ذلِكَ، فشُهودُهُ لذلِكَ هو التَّواضُعُ، فإذا وضعْتَ نفسَكَ دون قدرِها ولم تشهَدْ ذلكَ، فقدْ أمِنْتَ مِنْ شرِّها، مَنْ لم يشهَدْ أنَّهُ الدّونُ فهو بنفسِهِ مفتونٌ.

قالَ الدّاراني: "إذا اجتمعَ الخلْقُ أنْ يَضَعُوني كاتِّضاعي عِنْدَ نفسي ما قدَرُوا"، وقالَ الشّاذلي: "ذُلّي عطَّلَ ذُلَّ اليَهودِ"، وقالَ: "مَنْ رأى لنفسِهِ قيمةً فليسَ لهُ مِنَ التَّواضُعِ نصيبٌ"، وقالَ بعضُهم: "أهلُ اللهِ كلَّما ارتفعوا في مقامٍ ظهرَ لهم حقارةُ نفوسِهِمْ وكمالُ غيرِهِم إلى أنْ ينتَهوا إلى أسَفلِ الأرْضينَ".

وقالَ بعضُهم: "مَنْ نظرَ نفسَهُ فوقَ الخلْقِ، أو مُساوِيًا لهُ، حُرِمَ مددُهُم؛ إذِ المَدَدُ كالماءِ وهو لا يجري إلّا في السُّفْلَياتِ والمواضِعِ المُنخَفِضةِ، وأمّا العاليةُ فلا يصعدُها، والمُساويةُ يقِفُ فيها"، وقالَ بعضُهم: "لا يبلُغُ العبْدُ رُتبةَ التَّواضُعِ حتَّى يرى نفسَهُ أنَّها غيرُ أهْلٍ أنْ تنالَها الرحمةُ، وإنَّما رحمةُ اللهِ لها فضْلٌ ومِنّةٌ"، وقالَ بعضُهم: "لا يبلُغُ مقامَهُ حتَّى لا يرى لهُ مقامًا على شيءٍ في الوُجودِ، بلْ يُنزِلُ نفسَهُ تحتَ الأرْضينَ، الذي هو مقرُّ نُفوسِ العارِفينَ".

وأجمعوا أنَّ العبْدَ ما دامَ يشهَدُ نفسَهُ فوقَ أحدٍ مِنَ المُسلمينَ لا يصِحُّ لهُ دُخولُ حضرةِ اللهِ أبدًا؛ لأنَّها مُحرَّمةٌ على منْ فيهِ شيءٌ مِنْ كِبْرٍ، وقالَ القصّارُ: "مَنْ ظنَّ بنفسِهِ أنَّهُ خيرٌ مِنْ فِرعَوْنَ، فقدْ أظهَرَ الكِبْرَ"، فالتَّواضُعُ أنْ لا ترى لنفْسِكَ قدرًا، وأنَّ كُلَّ ما وضعتَها فيه مِنْ أنواعِ المذلّةِ مُستَحقّةٌ لما فوقَهُ، لما عليهِ مِنَ النَّقْصِ تأصيلًا وتفصيلًا، قالَ أبو يزيدَ: "ما دامَ العبْدُ يظُنُّ أنَّ في الخلْقِ مَنْ هو شرٌّ مِنهُ، فهو مُتكبِّرٌ".

وعلامةُ التَّحقُّقِ بالتَّواضُعِ: أنْ لا يغضَبَ إذا عيبَ أو انتُقِص، ولا يكرَهَ إنْ ذُمَّ ولو بالكَبائِرِ، ويتحمَّلَ أذى جميعَ الخلْقِ، ولا يُقابِلَهُمْ بأذًى كما يفعَلُ العبْدُ معَ سيِّدِه، وأنْ لا يمنَعَ أحدًا شيئًا طلبَهُ منهُ إلّا لغَرضٍ شرعيٍّ، ولا يخطُرَ ببالِهِ أنَّ أحدًا يقومُ لهُ أو يُعظِّمُهُ، وأنْ يُسلِّمَ للخلْقِ ما يدَّعونَهُ مِنْ مراتِبِ الكمالِ.

قالَ الغزالي: "ومِنْ أرديةِ الكِبْرِ أنَّهُ يجتمعُ معَ أقرانِه في المحافلِ، ويُقدِّمُهُمْ ويقعُدُ تحتَهم، وللشَّيْطانِ هنا مكيدةٌ، وهو أنَّهُ يقعُدُ في صفِّ النِّعالِ، أو يجعلُ بينَهُ وبينَ أقرانِه بعضَ الأراذلِ، فيظُنُّ أنَّهُ تواضُعٌ، وهو عيْنُ التَّكبُّرِ، لإيهامِه أنَّهُ تركَ مكانَهُ بالاستحْقاقِ، فيكونُ تكبَّرَ بإظهارِ التَّواضُعِ، بلْ يُقدِّمُ أقرانَهُ ويجلِسُ تحتَهم، ولا ينحطُّ إلى صفِّ النِّعالِ".

قالَ الخوّاصُ: "واحذرْ إذا مُدحْتَ أنْ تقولَ نحْنُ مِنْ أقلِّ النّاسِ، أو ماسِحي تُرابِ نعالِ الفقراءِ؛ لأنَّ تواضُعَكَ لهم إذا مدَحوكَ يزيدُكَ عِندَهُمْ رِفعةً، بلِ اسْكُتْ موهِمًا أنَّكَ تُحبُّ المدحَ، فإنَّهُ أقوى لرياضةِ النَّفْسِ وتهذيبِها".

ثُمَّ للتَّواضُعِ سببانِ: نظرُ العبْدِ لأوصافِ نفسِه ونقصِها، ونظرُهُ لأوصافِ ربِّهِ وكمالِها، والثّاني أقوى؛ فلذلكَ قالَ:

٢٤٠. التَّواضُعُ الحقيقيُّ ما كانَ ناشِئًا عنْ شُهودِ عظَمَتِه وتجلّي صِفَتِه.

(**التَّواضُعُ الحقيقيُّ ما كانَ ناشِئًا عنْ شُهودِ عظَمَتِه وتجلّي صِفَتِه**) بأنْ يرى كمالَ الحقِّ، وأنَّ كُلَّ ما سِواهُ ناقِصٌ، فمنْ شهِدَ عظمةَ الحقِّ تلاشَتْ أوصافُهُ، وخضعَتْ أكنافُهُ، ودُكَّتْ جبالُهُ، فتبدَّلَتْ أحوالُهُ، انطفَتْ نارُهُ، وانمحَتْ بجلالِه آثارُهُ، ذلَّ لعِزِّه سُلطانُ نفسِه، فلاحَتْ لهُ لوائِحُ أُنسِه.

وإذا ظهرَ الحقُّ على العبْدِ تلاشَتْ أوصافُهُ، فلمْ يبْقَ لها أثرٌ، قالَ ذو النّونِ: "منْ أرادَ التَّواضُعَ، فليوجِّهْ قلبَهُ إلى عظَمةِ اللهِ؛ فإنَّهُ يذوبُ ويصغُرُ، ومنْ نظرَ إلى سُلطانِ اللهِ، ذهبَ سُلطانُ نفسِه"، وفي "العوارِفِ": "لا يبلُغُ العبْدُ حقيقةَ التَّواضُعِ إلّا عِنْدَ لمعانِ نورِ المُشاهَدةِ في قلبِه، فعندَهُ تذوبُ النَّفْسُ، وفي ذَوْبها صفاؤُها مِنْ كِبْرٍ وعُجْبٍ، فتلينُ وتنصاعُ للحقِّ وللخلقِ، بمحْوِ آثارِها، وسُكونِ وهجَتِها وغُبارِها".

فائدةٌ: قالَ ابنُ عربي: "كانَ المُصطَفَى ﷺ يتواضَعُ لأكابِرِ قُرَيْش، لأنَّ الأعِزَّاءَ مِنَ الخَلْقِ مظاهِرُ العِزَّةِ الإلهيَّةِ، فكانَ يُقدِّمُهُمْ على فُقراءِ أهلِ الصُّفَّةِ لِيُوفِيَ صفةَ الكِبْرياءِ حقَّها؛ إذ لم يشهَدْ لها مُشاركٌ، لكنَّ فوقَ هذا المقامِ ما هو أعلى مِنهُ، وهو ما أُمِرَ به آخِراً بقولِه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨]، فأمَرَهُ أنْ لا يشهَدَهُ في شيءٍ دون شيءٍ".

واعلَمْ أنَّ النّاسَ ثلاثةٌ: رجُلٌ رأى قبيحَ فِعْلِهِ؛ فلم يرَ لنفسِه قدراً، ورجُلٌ شاهَدَ قبيحَ وصفِهِ؛ فلم يشهَدْ لنفسِهِ نِسبةً، ورجُلٌ شهِدَ عظمةَ ربِّهِ؛ فنسى كُلَّ شيءٍ بهِ، وهذا أتمُّ؛ فلهذا قالَ:

٢٤١. لا يُخرِجُكَ عنِ الوصْفِ إلّا شُهودُ الوصْفِ.

(**لا يُخرِجُكَ عنِ الوصْفِ**) الحقيرِ النَّفسانيِّ (**إلّا شُهودُ الوصْفِ**) العظيمِ الرَّبّانيِّ المُقابِلِ لهُ، كما مرَّ تقريرُهُ في قولِهِ: "سترَ وصفَكَ بوصفِهِ"[1]، فلا يُخرِجُكَ عنِ الوصْفِ المنسوبِ إليْكَ إلّا شُهودُ الوصْفِ الحاكِمِ عليْكَ، لا يُخرِجُكَ عنِ الوصْفِ الذي لكَ إلّا الوصْفُ الذي لهُ.

ولِكونِ شُهودِ الوصْفِ هو المُخرِجُ عنِ الوصْفِ، قال:

٢٤٢. المؤمنُ يشغلُهُ الثَّناءُ علَى اللهِ عنْ أنْ يكون لنفسِهِ شاكِرًا، وتشغَلُهُ حُقوقُ اللهِ عنْ أنْ يكون لِحُظوظِهِ ذاكِرًا.

(**المؤمِنُ**) الكامِلُ هو الذي (**يشغلُهُ الثَّناءُ علَى اللهِ عنْ أنْ يكون لنفسِهِ شاكِرًا**)، بِنِسبةِ الأفعالِ الجميلةِ والأحوالِ الحَميدةِ إليها، وذلكَ ثناءٌ عليها، وهي تُضادُّ الثَّناءَ على اللهِ، فلا يشكُرُ نفسَهُ ولا ينظُرُ إليها، بل يرى ربَّهُ أهلًا لِلشُّكرِ دون ما سِواهُ.

(١) انظر الحكمة رقم ١٣٠ ص٢٤٥.

فالكيِّسُ في إيمانِه مِنْ شَغَلَهُ الثَّناءُ على اللهِ عنْ ذِكرِ محاسنِ شأنِه، شَغَلَتْهُ حُقوقُ ذاتِه عنْ ذِكرِ حُظوظِهِ في طاعاتِه، فهو العبْدُ حقًّا، المُشتَغِلُ بما عليه صِدْقًا؛ فلهذا قالَ:

(وتشغَلُهُ حُقوقُ اللهِ) المُتوجِّهةُ عليهِ مِنْ مُقتَضياتِ العُبوديّةِ **(عنْ أنْ يكون لِحُظوظِه ذاكِرًا)**، وإنْ كانَ مُلابِسًا للحُظوظِ، فلا يتناوَلُها إلّا لأمْرِ اللهِ إيّاه، وذلكَ لما أفادَهُ شُهودُ ذلكَ الجَمالِ مِنْ حُبِّه وحُبِّ ما مِنْ جهَتِه، فنَفْسُهُ في دُنْياهُ، وقَلبُهُ في عُقْباهُ، وروحُهُ عِنْدَ مولاهُ، لا يخافُ مِنَ العِقابِ لكن يخافُ من العِتابِ، قد جازَ على قناطِرِ الفِتَنِ حتَّى وقفَ على بِساطِ المِنَنِ، وخوطِبَ بلِسانِ الكَرَمِ، وتوِّجَ بتاجِ البهاءِ، وأُقعِدَ على بِساطِ الصَّفاءِ، فنسيَ حُظوظَهُ ولذّاتَهُ؛ قلبٌ عليلٌ، وحُزْنٌ طويلٌ، ومُناجاةٌ معَ الجليلِ، قلبٌ شرِبَ مِنْ كأسِ الوِدادِ، فاسْتَوحَشَ مِنَ الحُظوظِ والعِبادِ، قلبٌ انقطعَ إليه بالكُلّيّةِ، فنجا مِنْ كُلِّ آفةٍ وبَليّةٍ، قلبٌ صفا مِنَ الأدناسِ؛ فاشتغلَ بحقِّ ربِّ النّاسِ، قلبٌ كثيرُ الحَنينِ، طويلُ الأنينِ، كثيرُ البَلْوَى، قليلُ الشَّكْوَى، قلبٌ أيقظَهُ الحُبُّ مِنْ منامِه، وأزْعجَهُ الشَّوْقُ عنْ مقامِه.

***

٢٤٣. ليْسَ المُحبُّ الذي يرجو مِنْ محبوبِه عِوَضًا، أو يطلُبُ مِنهُ غرَضًا، فإنَّ المُحبَّ مَنْ يبذُلُ لَكَ، ليسَ المُحبُّ مَنْ تبذُلُ لَه.

(ليْسَ المُحبُّ) على الحقيقةِ **(الذي يرجو مِنْ محبوبِه عِوَضًا)** على عملِه، **(أو يطلُبُ منه غرَضًا)** بمُقتَضى نظرِه؛ لأنَّ حقيقةَ المحبّةِ أخذُ جمالِ المحبوبِ بحبّةِ القلبِ حتَّى لا يبقى فيهِ بقيّةٌ لغيرِه، فلذلكَ لا يبقى لهُ غرضٌ في غيْرِ رِضَى محبوبِه، ويكونُ ذلكَ غايةَ مرغوبِه، بل يفنَى عنْ نفسِه وعنْ كُلِّ شيءٍ، حتَّى لا يكون لهُ خبرٌ عن غيرِ الحبيبِ. وحقيقةُ المحبّةِ خلاصُ جوهَرِ الرّوحِ مِنَ الأعْراضِ، وفَناءُ النَّفْسِ عَنِ الحُظوظِ والأغْراضِ، والمُحبُّ مَنْ لا يُغيِّرُهُ عذْلُ الرَّقيبِ، بل يزيدُهُ ذلكَ حُبًّا في الحبيبِ، لا لغرَضٍ ولا عرَضٍ؛ وطلبُ الأعواضِ والأغراضِ شأنُ المحبوبِ لا المُحِبِّ، كما قالَ:

(**فإنَّ المُحِبَّ مَنْ يبذُلُ لك**) الرّوحَ ويستقِلُّها، كما قالَ ابنُ الفارِض:

مالي سِوى رُوحي، وباذِلُ روحِهِ * في حُبِّ مَنْ يهواهُ ليسَ بمُسرِفِ

فالمُحِبُّ منْ يبذُلُ نفسَهُ في رِضَى المحبوبِ، ويرى أنَّهُ قصَّرَ في قضاءِ الحقِّ المطلوبِ، المحبّةُ نارٌ تحرقُ الأكبادَ، ولوعةٌ تنمو وتزدادُ، ملَكَ حُبُّهُ الفُؤادَ، فليسَ لهُ في سِوَى محبوبِهِ مُرادٌ، كما قالَ الأُستاذُ:

وعنْ مذهبي في الحُبِّ ما لي مذهبٌ * وإنْ مِلْتُ يومًا عنْهُ فارقْتُ مِلَّتي

ولو خطَرَتْ لي في سِواكَ إرادةٌ * على خاطِري سهْوًا قضيْتُ بردَّتي

المُلْكُ مُلْكُهُ، ونفسُكَ مِلْكُهُ، إذا بذلْتَ لهُ رِقَّهُ فإنَّما أدَّيْتَ حقَّهُ، وفيه قالَ سُلطانُ أهْلِ الوَفا، علي وفا:

لو لم أكُنْ عبْدًا لكُنْتُ وَهَبْتُهُ * روحي وتِلْكَ هَديّةُ الفُقَراءِ

(**ليسَ المُحِبُّ منْ تَبذُلُ لَه**) أي لحظِّ نفسِهِ؛ إذِ المحبَّةُ تقتضي بذلَ كُلّيّاتِ المُحِبِّ وجُزئيّاتِهِ في رِضَى محبوبِهِ، مِنْ غيرِ طلبِ شيءٍ مِنَ الأعواضِ والأغراضِ، أعظمُ المحبّةِ ما يسكُنُ القلْبَ أوَّلَ وهلةٍ، ويُزعِجُ الخَواطِرَ بلا مُهْلةٍ.

أتاني هَواها قبْلَ أنْ أعرِفَ الهوَى * فصادَفَ قَلْبًا خاليًا فتَمَكَّنا

والمحبّةُ الحقيقيّةُ جذبةٌ اضْطِراريَّةٌ غيرُ اختياريّةٍ عِندَ مُحقِّقي الصّوفيّةِ:

وأصرِفُ طرفي نحوَ غيرِكَ عامِدًا * على أنَّهُ بالرَّغمِ نحوَكِ يرجِعُ

وإذا قوى على المُحِبِّ الشَّوْقُ، وسُعِّرَتْ تِلْكَ النّيرانُ، ترادفَتْ عليْهِ الهُمومُ والأحزانُ، فأسمَعَتْه قَصَصَ أحبارِهِمْ عنْ أحبارِهِمْ.

قُصُّوا عليَّ حديثَ مَنْ قتلَ الهوى * إنَّ التَّأسّيَ رُوحُ كُلِّ حزينِ

تنبيهٌ: قالَ السّلمي: "إذا بلغَتْ درجةُ المحبّةِ حدَّ السُّكْرِ، لم يُبالِ صاحِبُها بعارٍ ولا نارٍ ولا شِعارٍ، فلا يلتفِتُ لشيءٍ سِوَى محبوبِهِ؛ لأنَّ قلبَهُ طيّارٌ، وبدنَهُ سيّارٌ، ورُوحَهُ عبّارٌ".

قالَ الشِّبلي:

إنَّ المحبّةَ للرَّحمنِ تُسْكِرُني * وهلْ رأيْتَ مُحبًّا غيرَ سكرانِ؟!

نعم، والمحبّةُ إذا غلبَتْ على صاحبِها رأى الأشياءَ كُلّها بصفة صورةِ محبوبِه، قالَ الجنيدُ: لا تصِحُّ المحبّةُ بينَ اثنينَ حتَّى يقولَ أحدُهُما للآخَرِ: "يا أنا"، ألم تسمعْ قولَ أبي يزيدِ البِسْطامي:

أيُّها السّائلُ عنْ قضيَّتِنا * لو ترانا لم تُفرِّقْ بيننا

أنا منْ أهوَى ومنْ أهوَى أنا * نحنُ روحانِ حلَلْنا بدنا

فإذا أبصرَتَني أبصرْتَهُ * وإذا أبصرْتَهُ أبصرْتَنا

والمُحبُّ أبدًا يخافُ فَوْتَ الوِصالِ، ويُنشِدُ بلسانِ حالِه قولَ منْ قالَ:

وكمْ فُرصةٍ فاتتْ فأصبحْتَ نادِمًا * تعَضُّ عليها الكفَّ أو تقرَعُ السِّنّا

وإذا ترائى جمالُ المُحبِّ للمحبوبِ في عالمِ الغُيوبِ زادَ الهَيامُ وامتنعَ الكَلامُ، إلّا عِندَ الشَّكوَى مِنْ ألمِ البَلوى، وعلامةُ المحبّةِ قيامُ المُحبِّ بأوامرِ محبوبِه، واستحلاءُ ما مرَّ مِنْ شُؤونِه وخُطوبِه:

تعصي الإلهَ وأنْتَ تزعُمُ حُبَّهُ * هذا لعَمْري في القياسِ بديعُ

لو كانَ حُبُّكَ صادِقًا لأطعتَهُ * إنَّ المُحبَّ لمنْ يُحبُّ مُطيعُ

ومِنْ أحكامِ المحبّةِ طلبُ القُرْبِ برفعِ الحِجابِ، وذلكَ بالسَّيْرِ والسُّلوكِ، ومدارُهُ على قطعِ عقباتِ النَّفْسِ، كما قالَ:

٢٤٤. لولا ميادينُ النُّفوسِ ما تحقَّقَ سيْرُ السّائرينَ، لا مسافةَ بينَكَ وبينَهُ حتَّى تطويها رِحلَتُكَ، ولا قطيعةَ بينَكَ وبينَهُ حتَّى تمحوها وصلَتُكَ.

(لولا ميادينُ النُّفوسِ) أي مجالاتُها التي تتردَّدُ فيها، والمُرادُ بهِ وبالسَّيْرِ وبالرِّحْلةِ والسُّلوكِ والوُصولِ والذِّهابِ والرُّجوعِ في كلامِهِمْ أُمورٌ معْنويّةٌ ترجِعُ كُلُّها إلى مقاماتٍ يتَّصِفُ بها العبْدُ، فالمعنى هُنا لولا وُجودُ عقباتِ النُّفوسِ، أي آثارُ دواعيها، وعِلةُ أحكامِ طبعِها وجِبِلَّتِها **(ما تحقَّقَ سيْرُ السّائرينَ)**.

وسُلوكُهُمْ إلى ربِّ العالَمينَ بقطْعِ تِلْكَ العَقَباتِ، بأنْ يمحوَ آثارَ ما ذُكِرَ حتَّى تطهُرَ منْهُ النُّفوسُ؛ وذلكَ لأنَّ الحقَّ أقربُ إليْكَ مِنْ حبْلِ الوَريدِ، وإنَّما البَعيدُ عنْهُ أنْتَ؛ لما تَراكَمَ عليْكَ مِنْ آثارِ نفْسِكَ، التي هيَ المعاصي والشَّهَواتُ، والتَّقييد بالعَوائِدِ، والأُنْس بالغَفَلاتِ؛ فالسَّيْرُ إلى اللهِ هو قطْعُ عقَباتِ نفسِكَ، وخُروجُكَ عَنْ عوائِدِ حِسِّكَ.

ليْسَ ثَمَّ مسافةٌ فتطويها، إنَّما هي نفسُكَ تُميتُها وتُحييها. ليْسَ هُناكَ قطيعةٌ تُمْحَ بوصْله، هذا شأنُ الصَّدِّ ولستَ بأهلِه. لا يصِلُ إلى حضرةِ المُلوك، إلَّا منْ أحكَمَ قواعِدَ السُّلوك.

هي نفسُكَ فارفُضْها مِنَ البيْنِ، واخرُجْ عنها فِعْلًا ووصْفًا وعينا. إنْ كُنْتَ لقُربِهِ تُريد، فانسلِخْ منها كما انسلَخَ أبو يزيد. مِنْ لم يمُتْ أنواعًا مِنَ الموْت، فقدْ فاتَهُ الوُصولُ كُلَّ الفوْت. في نفسِكَ ما في نفْسِ فِرْعَون قولًا وفِعْلا، لكنَّهُ أظْهَرَ سِرَّهُ عليهِ بقولِهِ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

ومدارُ النَّفْسِ على ثلاثة: طلب الحُظوظِ بالغفْلة، واتِّباع الوهْم بغيْرِ تحقُّق، وصريحِ الدَّعْوَى بغيْرِ حقيقة، فنفْيُ الغفْلة بالتَّقْوَى ثُمَّ الاستِقامة، ونفيُ الأَوْهام بالتَّبصُّرِ والاتِّباع، ونفيُ الدَّعاوى بالمعْرِفةِ والتَّحقُّقِ، ولكُلٍّ منْها سيْرٌ يخصُّهُ، فالسَّيْرُ في العقبةِ الأولَى بالحذَرِ والإنفاقِ، ونتيجتُهُ الورَعُ والتَّحفُّظُ، والثّانية: بالعِلْمِ والاستبْصارِ، ونتيجتُهُ نفيُ الغلَطِ، والثّالثة بالانحِباسِ إلى الحقِّ، والفِرارِ مِنَ الخلْق.

وبُرهانُ ما تقرَّرَ أنَّهُ تعالَى **(لا مسافةَ بينَكَ وبينَهُ حتَّى تطويها رِحلَتُكَ)** لنفْيِ المُماثَلةِ، **(ولا قطيعةَ بينَكَ وبينَهُ حتَّى تمحوها وصلتُكَ)** لأنَّهُ ليْسَ في جِهةٍ ولا مكانٍ، فهما مُحالانِ في حقِّهِ تعالى، إذ الحقُّ أقربُ إليْكَ منْكَ.

قالَ ابنُ عربي: "الحقُّ أقربُ إليْنا مِنْ رَسولِه، لا بلْ أقرَبُ إليْنا منّا؛ فإنَّه أقربُ إليْنا مِنْ حبْلِ الوَريدِ، وغايةُ قُرْبِ الرّسولِ في الظّاهرِ المُجاوَرةُ، بحيْثُ لا يكونُ بيننا مكانٌ ثالثٌ، فيتميَّزُ في الرّسولِ بالمكانِ، ونتميَّزُ عنِ اللهِ بالمكانةِ، فإنَّهُ أقرَبُ إليْنا منّا، ولا أقربَ إلى الشَّيءِ مِنْ نفسِه، وهو قُربٌ نؤمِنُ بهِ، ولا نعرِفُهُ، بل ولا نشْهَدُهُ، إذ لو شهدْناهُ عرفْناهُ".

وأهلُ الطَّريقِ ثلاثةٌ: عابدٌ ومُريدٌ وعارفٌ، فطريقُ العارفِ: كثرةُ العمَلِ وتجنُّبُ الزَّيغِ والزَّلَلِ، والمُريدِ: تخليصُ الباطنِ عنِ الشَّوائبِ والتَّفرُّغُ عنِ الشَّواغلِ والشَّواغبِ، والعارفِ: تخليصُ القلْبِ للهِ وبذلُ الدّارَيْنِ في طلبِ رضاهُ، وهي أعلى الطُّرُقِ، وتُبْتَنى على قاعِدَتيْنِ: معرفةِ العبْدِ بربِّهِ وما عليْهِ مِنَ الكَمالِ والجلالِ، ومعرِفَتِه بنفْسِهِ وما هي عليْهِ مِن قبيحِ الخلالِ.

تنْبيةٌ: قالَ بعضُ الأعيانِ: مدارُ الأُصولِ على تحليةِ الإيمانِ بالأفعالِ وتحقيقِ اليَقينِ، حتَّى يكونَ في معدِّ العيانِ، بأنْ ينشأَ عنْ تحقُّقِه تمكُّنُ الحقيقةِ مِنْ نفسِه، حتَّى يُقدِمَ ويُحجِمَ لما قامَ بهِ، عنِ الحقيقةِ لا عنْ تكلُّفٍ، ويكونُ سُلوكُهُ فيها تحقُّقٌ بما تحقَّقَ لمّا تحقَّقَ، وبهِ ينشَرِحُ صدْرُهُ أوَّلًا وآخِرًا، فيصِلُ في أقرَبِ مُدّةٍ، إذ مَنْ سارَ إلى اللهِ مِنْ حيْثُ طبعُه، كانَ الوُصولُ أقربُ إليْهِ مِنْ طبعِهِ، ومنْ سارَ إليْهِ بالبُعدِ مِنْ طبعِهِ كانَ وُصولُهُ على قدْرِ بُعدِهِ مِنْ طبعِهِ؛ ولذلكَ قالَ في "التّاجِ"[(١)]: "لا تأخُذْ مِنَ الأذْكارِ إلّا ما تُعينُكَ القوى النَّفسانيّةُ عليْه بحُبِّه"، وقالَ الشّاذلي: "الشَّيْخُ منْ دلَّكَ على راحتِكَ، لا على تعبِكَ، (يسِّروا ولا تُعسِّروا)[(٢)]".

تتمّةٌ: قالَ الشّاذلي: "سألْتُ أُستاذي عنِ السَّماعِ فأجابَ بقولِهِ: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩-٧٠]"، وقالَ المرسي: "مَنْ كانَ مِنَ الفُقراءِ أكّالًا لمالِ الظَّلمةِ، مؤثِرًا للسَّماعِ، ففيهِ نزْعةٌ يهوديّةٌ"، وقالَ ابنُ عربي: "السَّماعُ في هذا الزَّمانِ لا يقولُ بهِ مُسلِمٌ، ولا يُقتَدَى بشيْخٍ يعمَلُهُ ولا يقولُ بهِ"، وقالَ: "السَّماعُ مِنْ محامِدِ النَّفْسِ إذ هو مِنْ بِساطِ الشِّعْرِ، فلا يُفيدُ إلّا تقويَتَها".

(١) تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس، لابن عطاء الله السكندري، وقد أصدرته كشيدة ضمن سلسلة "تراث الأزهريين".

(٢) اقتباس من حديث متفق عليه أخرجه البخاريُّ (٦١٢٥)، ومسلمٌ (١٧٣٤)، من حديث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢٤٥. جعلَكَ في العالَمِ المُتوسِّطِ بيْنَ مُلكِهِ وملَكوتِهِ، ليُعلِمَكَ جلالةَ قدرِهِ بيْنَ مخلوقاتِهِ، وأنَّكَ جوهرةٌ تنطوي عليها أصْدافُ مَكنوناتِهِ.

(**جعلَكَ في العالَمِ المُتوسِّطِ بيْنَ**) عالَمِ (**مُلكِهِ**) وهو عالَمُ الحِسِّ والشَّهادةِ، (**و**) عالَمِ (**ملَكوتِهِ**) وهو عالَمُ الغيْبِ والخَفاءِ، (**ليُعلِمَكَ جلالةَ قدرِهِ بيْنَ مخلوقاتِهِ**)، حيْثُ جعلَ بِنْيَتَكَ مُتضَمِّنةً لجميعِ أسرارِ الموجوداتِ، عُلويِها وسُفليِها، لطيفِها وكثيفِها، فصِرْتَ رُوحانيًّا جُسمانيًّا أرضيًّا سَماويًّا، (**وأنَّكَ**) لما كنْتَ تُحِبُّهُ كُلَّما ذُكِرَ، صِرْتَ (**جوهَرةً**) نفيسةً، (**تنطوي عليها أصدافُ مكنوناتِهِ**)، السَّماءُ تُظِلُّكَ، والأرضُ تقِلُّك، والجِهاتُ تكشِفُك، والبهائمُ تنفعُك، والمعاني تطلُبُك، فالمُكوَّناتُ لكَ بمَنزِلةِ الصِّوانِ الحافِظِ للشَّيءِ، فأنْتَ العالَمُ الأصغرُ. خلقَكَ في أحسنِ تقويمٍ، وجعلَكَ على صورتِهِ فأنْتَ مُريدٌ عليمٌ. جعلَكَ بيْنَ الغيْبِ والشَّهادةِ، وأهَّلَكَ لأعلى رُتَبِ السَّعادةِ. فأنْتَ سِرُّ المُلْكِ والملَكوتِ، وأنتَ الجامعُ لجميعِ الأوصافِ والنُّعوتِ. أنْتَ روحُ العُلويّاتِ والسُّفليّاتِ، وأنْتَ معنَى الكُلّياتِ والجُزئيّاتِ. كُلُّ ذلِكَ لتعْلَمَ مِقدارَكَ، وتُفني في حُبِّهِ رُسومَكَ وآثارَكَ.

دواؤكَ فيكَ ولا تشعُرُ * وداؤك منكَ وتسْتَخبِرُ
وتزعُمُ أنَّكَ جرمٌ صغيرٌ * وفيكَ انطوَى العالَمُ الأكبَرُ

قالَ المرسي: "كُلُّها عبيدٌ مُسخَّرةٌ، وأنتَ عبدُ الحضْرةِ"، فتعيَّنَ عليْكَ أنْ تطلُبَ سِرَّ وُجودِك، وما أودعَ فيكَ مِنْ موجباتِ شُهودِكَ؛ فتأخذَ في دفعِ أسبابِ الحِجابِ بالمُجاهَدةِ، وهي مُجاهَدةُ التَّقوَى بترْكِ المُحرَّماتِ وأداءِ الواجباتِ، ومُجاهَدةُ الاستِقامةِ، وهي حملُ النَّفسِ على مكارِمِ الأخلاقِ وكسبِ الفَضائِلِ، ومُجاهدةُ الكشْفِ، وهي تجريدُ النَّفسِ لقصْدِ وُجودِ الحقِّ بلا عِلّةٍ، وكُلُّها تكفي فيها الكُتُبُ إلّا هذهِ، لغلبةِ الغلَطِ فيها، ومَبادِؤها اطِّلاعُ العبْدِ على حقيقةِ وُجودِه.

٢٤٦. وسِعَكَ الكوْنُ مِنْ حيثُ جُسْمانيَّتُكَ، ولم يسعْكَ مِنْ حيثُ ثُبوتُ رُوحانيَّتِكَ.

(وسِعَكَ الكوْنُ مِنْ حيثُ جُسْمانيَّتُكَ) لوُجودِ المُجانَسةِ والمُشابَهةِ، ولتوقُّفِ قضاءِ أوطارِكَ على الأسبابِ المُتعلِّقةِ بكَ.

(ولم يسعْكَ مِنْ حيث ثُبوتُ روحانيَّتِكَ) لعدَمِ المُناسَبةِ، فلا يسعُكَ المُتعلِّقُ بالمُكوِّنِ، فهذهِ خاصيَّتُكَ التي فيها سُمُوُّكَ ورفعةُ قدرِكَ، فلا تُهمِلْها وتنْحَطَّ عنها إلى أسْفَلَ سافِلينَ؛ فاستَبانَ أنَّهُ إنَّما وسِعَكَ الكونُ مِنْ حيْثُ ذاتُكَ للمُناسَبةِ، وقضاءِ أوطارِكَ وحاجاتِكَ، ولم يسعْكَ مِنْ حيْثُ رُوحانيتُكَ العليّةُ لفقدِ المُناسَبةِ بينَ السَّماويّةِ والأرضيّةِ، أنتَ إنسانٌ بنفسِكَ لا بجِسْمِكَ، فاحذرْ مواضِعَ لبسِكَ مِنْ تعلُّقِكَ بالأكوانِ؛ فإنَّ ذلكَ حِرمانٌ، فاعملْ على تخليصِ نفسِكَ مِنْ عالَمِ جسمِكَ حتَّى تخرُجَ مِنْ دائرةِ رسْمِكَ.

تنْبيهٌ: قالَ الشِّهابُ الرِّفاعي(١): "القلْبُ إذا انجلى مِنْ حُبِّ الدُّنْيا وشهَواتِها، صارَ كالبِلَّوْرِ، وأخبرَ صاحِبَهُ بالماضي والآتي مِنْ أحوالِ الخلْقِ".

وقالَ بعضُهُمْ: "القلْبُ إذا انجلَى صارَ كالمِرآةِ الكُرةِ المُتَعلِّقةِ بيْنَ السَّماءِ والأرْضِ، فيرْتَسِمُ فيها جميعُ العُلويّاتِ والسُّفْليّاتِ، وامتحِنْ ذلكَ بوضْعِ مِرآةٍ صغيرةٍ فوقَ منارةٍ عاليةٍ؛ فإنَّكَ إذا قابلتَها بمدينةٍ كامِلةٍ تجِدْها كُلَّها مُرتَسِمةً فيها، فاعملْ على جلاءِ قلبِكَ، تطوفُ الأقاليمَ كُلَّها في ساعةٍ".

***

(١) شيخ العارفين أبو العباس أحمد بن عليّ بن أحمد المعروف بابن الرّفاعيّ، إمام وقته في الزهد والصلاح والعلم والعبادة، ومؤسس الطريقة الرفاعية، كان من الأفراد الذين أجمع الناس على علمه وفضله وصلاحه. كان يسكن أمّ عبيدة بالعراق، وله كرامات ومقامات، توفي سنة ٥٧٨. سير أعلام النبلاء (٢١/٧٧)، طبقات السبكي (٦/٢٣).

٢٤٧. الكائِنُ في الكَوْنِ، ولم تُفتَحْ لهُ ميادينُ الغُيوبِ، مسْجونٌ بمُحيطاتِهِ، ومحْصورٌ في هيْكلِ ذاتِهِ.

(**الكائِنُ في الكَوْنِ**) قاصِرًا هِمَّتَهُ عليْهِ، (**ولم تُفتَحْ لهُ ميادينُ الغُيوبِ**) أي مجالاتُهُ الملَكوتيّةُ (**مسْجونٌ بمُحيطاتِهِ**) الجُسمانيّةِ، مِنْ أكلٍ وشُرْبٍ وجِماعٍ، وإعراضٍ وإدبارٍ، (**ومحْصورٌ في هيْكلِ ذاتِهِ**) النَّفْسانيّةِ الجُسْمانيّةِ المُقتَضيةِ للشَّهوةِ والغفْلةِ، الصّارِفِ لهُ عنِ التَّحقيقِ المُخبِرِ لهُ عنْ سوءِ الطَّريقِ، المشوبِ بطلَبِ الأعراضِ واتِّباعِ الحُظوظِ والأغراضِ، والدُّنيا سِجْنٌ وصاحِبُها محبوسٌ، فيا عجبًا لمحبوسٍ يتنعَّمُ بالملبوسِ!

يؤتى على المرءِ في أيّامِ محنَتِهِ * حتى يرى حَسنًا ما ليْسَ بالحسَنِ

فمَنْ بقى معَ نفسِهِ وحُظوظِهِ، فقدْ نزلَ مِنْ أوْجِهِ لحضيضِهِ. مَن لم تُفتَحْ لهُ ميادينُ الغيْبِ، فقَلْبُهُ في سِجْنٍ بلا ريْبٍ. ليْسَ في جَهنَّم أشدُّ مِنَ الضّيقِ، فتَخلَّصْ إلى فضاءِ الملَكوتِ تنجُ مِنْ ذلكَ المضيقِ. وإذا فتحَ لكَ ميادينَ الغُيوبِ، فارْقَ بهِمَّتِكَ إلى أعلاها، وهو معرفةُ الحقِّ، والكَوْنُ لهُ لا شيءٌ سِواهُ، فإنَّ كُلَّ ما سِواهُ نقْصٌ وحبْسٌ ونحْسٌ.

***

٢٤٨. أنْتَ معَ الأكْوانِ ما لم تشهَدِ المُكوِّنَ، فإذا شهِدْتَهُ كانَتِ الأكْوانُ معَكَ.

(**أنْتَ معَ الأكْوانِ**) مُقيَّدًا بها (**ما لم تشهدِ المُكوِّنَ**) لها فاعِلًا وفيها مُدبِّرًا وعليها قائِمًا، (**فإذا شهِدْتَهُ، كانَتِ الأكْوانُ معَكَ**) أي مُسخَّرةً لكَ وأنْتَ غنيٌّ عنها، أو مُسلَّطةً عليكَ فلم تلتفِتْ إليْها، فمَنْ كانَ معَ الأكوانِ، فهو أسيرُها، خادِمُها أبدًا وفقيرُها؛ تُسلِمُه ليدِ الأغْيارِ،

وتتخلّى عنه عندَ الاضطِرارِ، ومنْ كانَ معَ المُكوِّنِ، فالكُلّ طوْعُ يديْهِ، وكُلُّ الأكوانِ بما فيها تسعى إليهِ، إذا كُنْتَ بهِ فكُلُّ ما في الكونِ بِكَ عالمٌ، ومُشافةٌ لكَ خادمٌ.

قالَ بعضُهم: "كُنْتُ معَ الخوّاص؛ فإذا عقربٌ تسعى على فخذه، فقُمْتُ لأقتُلَها، فمنعني وقالَ: دعْها، كُلُّ شيءٍ مُفتَقِرٌ إلينا، ولسنا مُفتَقِرينَ إلى شيءٍ"، وقالَ بعضُهم: "كُنْتُ معَ ابنِ أدهمَ بطريقِ القُدْسِ، فنزلَ فصلّى تحتَ رُمّانة، فقالتْ: يا أبا إسحاقَ أكرِمْنا بالأكلِ مِنّا"، وقالَ بعضُهم: "أشرفْتُ على ابنِ أدهمَ وهو في بُستانٍ يحفظُهُ وقد نامَ؛ فإذا حيّةٌ في فيها باقةُ نرجِسٍ تُروِّحُهُ بها".

وإنَّما هُما اثنانِ: وليٌّ، وصفيٌّ، فالوليُّ منْ يتحقَّقُ لهُ كُلُّ ما يُريدُ، والصَّفيُّ منْ يتسلَّطُ على قلبِهِ الرِّضَى بما يجري، والرّاضي يلقى المهالِكَ بوجهٍ ضاحِكٍ. وفرقٌ بيْنَ كونِكَ معَ الأكوانِ، وبينَ كونِها معَكَ؛ فإنَّ في الأوَّلِ تنظُرُ إليها عِنْدَ حاجَتِكَ، وفي الثّاني تُعرِضُ عنها بالإقْبالِ على ربِّكَ، ومنِ احتاجَ إلى شيءٍ اشتغلَ سِرُّهُ بهِ وُجودًا وعدمًا وتحصيلًا وغيرَهُ، فهو معَ ذلكَ الشَّيءِ لأنَّهُ لهُ، ومنِ احتاجَ لشيءٍ فتوجَّهْ لربِّهِ فيهِ، كانَ ذلكَ الشَّيءُ مَعهُ، بمعنى أنَّهُ مُعينٌ لهُ على ما يُريدُ، وسببُهُ ما حصلَ لهُ مِنَ الشُّهودِ، وأمّا الأوَّلُ ففي ظُلمةِ الأسبابِ بالفقْدِ والوُجودِ، وهذا آخِرُ المُجاهَدةِ في مراتِبِ الوُجودِ، وهو أوَّلُ مراتبِ الخُصوصيّةِ التي هي المعرِفةُ والمُشاهَدةُ، وربَّما تُوهِّمَ فيهِ نفيُ البشَريّةِ وليسَ كذلكَ، فلذلكَ عقبَهُ بقولِهِ:

***

٢٤٩. لا يلزمُ مِنْ ثُبوتِ الخُصوصيّةِ عدمُ وصْفِ البَشَريّةِ، إنَّما مثَلُ الخُصوصيّةِ كإشْراقِ شمْسِ النَّهارِ، ظهرَتْ في الأُفُقِ وليسَتْ منْهُ. تارةً تُشْرِقُ شُموسُ أوْصافِه، وتارةً يقبِضُ ذلكَ عنكَ فيرُدّكَ إلى حُدودِكَ، فالنَّهارُ ليْسَ مِنكَ إليْكَ، ولكِنَّهُ وارِدٌ وَرَدَ عليْكَ.

(**لا يلزمُ مِنْ ثُبوتِ الخُصوصيّةِ**) في الأولياءِ، مِنْ ظُهورِ أوصافِ اللهِ العَليّةِ، وتحلّيهِمْ بنُعوتِهِ القُدُسيَّةِ، (**عدمُ**) وُجودِ (**وصْفِ البَشَريّةِ**) كما زعَمَهُ قومٌ فوقعوا في الزَّنْدَقةِ؛ لأنَّ الوصْفَ البَشَريَّ أمرٌ ذاتيٌّ لازِمٌ، فيستَحيلُ عدمُهُ وانقلابُهُ، فاللّازِمُ مِنْ ثُبوتِ الخُصوصيّةِ عدمُ غلبةِ أحكامِ الوصْفِ البشَريِّ لأجلِ الوارِدِ الغالِبِ عليْهِ.

(**إنّما مثَلُ الخُصوصيّةِ**) في حقِّ العبْدِ (**كإشْراقِ شمْسِ النَّهارِ**)، في كوْنِ هذهِ (**ظهرَتْ في الأُفُقِ**) المُظلِمِ لتزيلَ آثارَ ظُلمَتِهِ فيُشرِقُ بذلكَ؛ فإذا غابَتِ الشَّمْسُ عادَ لحالِهِ مِنَ الظُّلمةِ، (و) ذلكَ لأنَّ شمْسَ النَّهارِ (**ليسَتْ منْهُ**) أي الأُفُقِ، فالنّورُ غيْرُ ذاتيٍّ، وتِلْكَ ظهرَتْ في الإنْسانِ وليستْ مِنْهُ، فظنَّ الجاهِلُ أنّها أذهبَتْ وُجودَ البَشَريّةِ، كما ظنَّ الغَبيُّ أنَّ شمْسَ النَّهارِ أذهبَتْ ظُلمةَ اللَّيْلِ، وإنَّما سترتْهُ بضوئِها كما سترَتِ الخُصوصيّةُ البشَريّةَ بظُهورِها، كما قالَ:

(**تارةً تُشْرِقُ شُموسُ أوْصافِهِ**) المُضيئةُ على ليلِ وُجودِكَ المُظلِمِ، فيَغيبُ وصفُكَ فيما يُكسيكَ مِنْ وصفِهِ، فتكونَ عزيزًا قويًّا غنيًّا قادرًا بهِ، (**وتارةً يقبضُ ذلكَ**) الإشْراقَ (**عنْكَ فيرُدُّكَ إلى حُدودِكَ**) أي يرُدُّكَ إلى أصلِكَ مِنْ ذُلٍّ وفقْرٍ وضعْفٍ وعجْزٍ، فإنْ كُنْتَ تامَّ العُبوديّةِ، أعطيْتَ كُلَّ موضِعٍ حقَّهُ.

وبالجُملةِ، فالمدارُ على ما ختمَ بهِ بقولِهِ: (**فالنّهارُ**) أي نهارُ الوصْلةِ والقُرْبِ (**ليْسَ**) حاصِلًا (**منْكَ إليْكَ**) بلْ منهُ بدأَ وإليهِ يعودُ، (**ولكنَّهُ واردٌ ورَدَ**) مِنْ إشراقِ شُموسِ أوصافِ ربِّكَ ليُعرِّفَكَ وُجودَكَ، ويُنبِّهَكَ على ما مَنَّ بهِ عليْكَ، وحاصِلُ ذلكَ أنَّ وصفَ البَشَريّةِ لكَ لازِمٌ، لكنَّهُ إذا منحَكَ الخُصوصيّةَ، غطّى أوصافَكَ بأوصافِ الرُّبوبيّةِ، فهُناكَ تصيرُ مَنصُوراً، ويعودُ وصفُ البشَريّةِ مقهورًا، كالشَّمْسِ تُشْرِقُ على ظُلمةِ الآفاقِ، فيعودُ ليْلُها إلى المحاقِ، فالنّورُ ليسَ مِنْكَ إليكَ، بل واردٌ مِنْهُ (**عليْكَ**)، فأكرِمْ وارِدَهُ بالقيامِ بحقِّهِ، وعامِلْ كُلَّ خلْقٍ بما يصلُحُ لهُ، وأعْطِ النَّهارَ حقَّهُ بالحرَكةِ وضِدَّهُ بالسُّكونِ.

قامَ الخوّاصُ ليلةً يُصلّي فجاءهُ أسدٌ، فلمْ يحتَفِلْ، فلمّا أصبحَ سقطَتْ عليْهِ حيّةٌ فصاحَ، فقيلَ لهُ فيهِ؟! فقالَ: "البارِحةَ كُنْتُ مأخوذًا عنّي، والآنَ مردودٌ عليَّ".

ثُمَّ للخُصوصيّةِ معارِجُ على مراتِبَ بحَسَبِ التَّجليّاتِ، ذكرَها بقولِه:

٢٥٠. دلَّ بوُجودِ آثارِه على وُجودِ أسمائِه، وبوُجودِ أسمائِه على ثُبوتِ أوصافِه، وبثُبوتِ أوصافِه على وُجودِ ذاتِه، إذْ مُحالٌ أنْ يقومَ الوصْفُ بنفسِه، فأربابُ الجذْبِ يكشِفُ لهُم عنْ كمالِ ذاتِه المُقدَّسةِ، ثُمَّ يرُدُّهُمْ إلى شُهودِ صِفاتِه، ثُمَّ يُرجِعُهُمْ إلى التَّعلُّقِ بأسمائِه، ثُمَّ يرُدُّهُمْ إلى شُهودِ آثارِه، والسّالِكون على عكْسِ هذا، فبدايةُ السّالِكينَ نِهايةُ المجذوبينَ، وبِدايةُ المجذوبينَ نِهايةُ السّالِكينَ، لكنْ لا بمعنًى واحِدٍ فربَّما التَقيا في الطَّريقِ، هذا في تدلّيهِ وهذا في ترَقّيه.

(**دلَّ بوُجودِ آثارِه على وُجودِ أسمائِه**) فجعلَ الأسماءَ من وراءِ حِجابِ الآثارِ، (**وبوُجودِ أسمائِه على ثُبوتِ أوصافِه**) فإذا نظرَ في الأسماءِ مِنْ حيْثُ المعنى الجامِعُ والأثرُ الظّاهِرُ ظهرَ لهُ رُجوعُها للصِّفاتِ السَّبعةِ[1]، (**وبثُبوتِ أوصافِه على وُجودِ ذاتِه**) لا مِنْ حيْثُ دلالتُها عليْها؛ لأنَّها ليسَتْ غيرَها، بلْ مِنْ حيْثُ لُزومُها لوُجودِها كما بيَّنَهُ بقولِه: (**إذْ مُحالٌ أنْ يقومَ الوصْفُ بنفْسِه**) أو بمِثلِه؛ لأنَّ المعنى لا يقومُ بالمعنى ولا بذاتِه، فمعرِفةُ الذّاتِ مِنْ وراءِ معرِفةِ الصِّفاتِ، ومعرِفةُ الصِّفاتِ مِنْ وراءِ معرِفةِ الأسماءِ، ومعرِفةُ الأسماءِ مِنْ وراءِ معرِفةِ الآثارِ، هكذا على التَّرقّي، وهو شأنُ النُّظّارِ وأهْلِ الإرادةِ، عكْسُ العارفينَ، وأهلِ الجذْبِ كما قالَ:

(**فأربابُ الجذْبِ يكشِفُ لهُم**) أوّلًا (**عنْ كمالِ ذاتِه المُقدَّسةِ**)، بأنْ يُظهِرَ لقُلوبِهِمْ مِنْ جلالِه ما يُذهِلُ العُقولَ ولا يعمَلُ بكسْبٍ، فيوجِبُ لَهُمْ تعظيمًا وهيْبةً، يغيبُ به وُجودُهُمْ بلا عِلّةٍ، وقد ورَدَ: "جذْبةٌ مِنْ جذَباتِ الحقِّ توازي عملَ الثَّقَليْنِ"، ومَنْ نبعَ لهُ مَعينُ الحياةِ في ظُلمةِ خلْوَتِه، ماذا يصنعُ بدُخولِ الظُّلُماتِ؟! ومنِ اندرجَتْ أطباقُ السَّمواتِ في طيِّ شُهودِه،

(١) هي المسماة بصفات المعاني: العلم، والحياة، والقدرة، والإرادة، والكلام، والسمع، والإبصار.

ماذا يصنَعُ بتقلُّبِ طرفِهِ في السَّمواتِ؟! ومنْ جَمعَتْ أحداقُ بصيرتِهِ بمُتفرِّقاتِ الكائناتِ، ماذا يستفيدُ مِنْ طيِّ الفلَواتِ؟! ومنْ خلَصَ بخاصِّيَّةِ فِطْرَتِهِ إلى مَجمَعِ الأرواحِ ماذا يُفيدُهُ زيادةُ الأشباحِ؟!

(**ثُمَّ يرُدُّهُمْ إلى شُهودِ صِفاتِه**) أي الشُّعورِ بها، بأنْ تلتفِتَ قُلوبُهُمْ إليها التِفاتًا لا يُحَسُّ بهِ حتَّى يجري معناهُ عليهِم، (**ثُمَّ يُرجِعُهُمْ إلى التَّعلُّقِ بأسمائه**) بأنْ تسري فيهم حقيقةُ المعرفةِ بالصِّفاتِ، (**ثُمَّ يرُدُّهُمْ إلى شُهودِ آثارِه**) بأن يسري لهم مِنْ كُلِّ اسم ظُهورُ نِسبَتِه في الوُجودِ، فينظُرون آثارَ الرَّحمةِ مُتنوِّعةً، ووُجوهَ النِّعمةِ مُتعدِّدةً، وكذا سائرُ الأسْماءِ، ويرونُ أنَّهُمْ لم يعرفِوا على الحقيقةِ الآثارَ، وأنَّ الحقَّ لا يوصَلُ إليهِ، فيرجِعون إلى نُفوسِهِمْ، ويقِفون عِنْدَ حُدودِهِمْ، عِلمًا بأنَّ الحقَّ أجلُّ مِنْ أنْ يُعرَفَ.

(**والسّالِكون على عكْسِ هذا**) فيكشِفُ لهُمْ أوَّلًا عنْ آثارِهِ واختِلافِها، فيعلَمون بهِ اختِلافَ النِّسَبِ، ثُمَّ يَظهرُ إسنادُ كُلِّ نِسبةٍ إلى الأسماءِ، ثُمَّ يبدو أنَّ كُلَّ الأسماءِ راجعةٌ إلى الصِّفاتِ، ثُمَّ يَظهَرُ مِنَ الصِّفاتِ عظَمةُ الذّاتِ، وهو غايتُهُمْ، كما قالَ: (**فبِدايةُ السّالِكينَ** مِنْ شُهودِ آثارِهِ (**نِهايةُ المجذوبينَ، وبِدايةُ المجذوبينَ نِهايةُ السّالِكينَ**) مِنْ كشْفِ حقيقةِ الذّاتِ.

والمجذوبُ: المأخوذُ عنْ نفسِه إلى حضرةِ الحقِّ، لا بترتيبٍ وتدريجٍ، والسّالِكُ: الواصِلُ بترتيبٍ وتربيةٍ، وكُلٌّ منهُما لهُ حظٌّ ممّا لصاحِبِهِ، وكُلُّ مجذوبٍ سالِكٌ، ولولاهُ كانَ زِنديقًا، وكُلُّ سالِكٍ مجذوبٌ، إذ لولا عِنايةُ اللهِ التي نبَّهتْهُ ما قصدَ طريقَهُ، فضلًا عنْ سُلوكِها.

ثُمَّ هُما وإنْ اختلَفا بدايةً ونِهايةً (**لكِنْ لا بمعنًى واحِدٍ**)، بل بالمعنى الذي دخلَ بهِ المجذوبُ إلى الآثارِ، لا المعنى الذي خرجَ عنْهُ السّالِكُ لأجلِهِ، فالمجذوبُ وصلَ إليها بغايةِ التَّحقيقِ، والسّالِكُ خرجَ عنها طالِبًا للطَّريقِ، وشأنُ السّالِكِ شُهودُ الأشياءِ باللهِ قائلًا: "ما رأيْنا شيئًا إلّا رأيْنا اللهَ معَهُ"، وشأنُ المجذوبِ شُهودُها للهِ قائلًا: "ما رأينا شيئًا إلّا رأيْنا اللهَ قبلَهُ"؛ فالسّالِكُ عامِلٌ على تحقيقِ الفَناءِ والمحْوِ، والمجذوبُ مسلوكٌ بهِ على طريقِ البَقاءِ والصَّحْوِ.

وقد يقعُ لهما المُواطأةُ في موقِفٍ، كما قالَ: (**فربَّما التقيا في الطَّريقِ**) أي في منْزِلٍ مِنْ منازِلِه، إذ مسلَكُهُما واحِدٌ، ومقصدُهُما واحِدٌ، فيكونُ المجذوبُ في مُشاهَدةِ الصِّفاتِ نازِلًا، والسّالِكُ في مُشاهَدَتِها صاعِدًا، فيتَّفِقُ عِلمُهُما ومنازِلُهما، ويختلِفُ توجُّهُهُما، (**هذا في تدلِّيه وهذا في ترَقِّيه**)، يعني أنَّ التقاءَهُما لا يُخرِجُ أحَدَهُما عنْ حُكْمِ طريقِهِ، بلْ هذا في تدلِّيه مِنَ الحقيقةِ إلى الحِكمةِ، وهذا في ترقِّيهِ مِنَ الأغْيارِ إلى الحقيقةِ؛ فكُلٌّ منْهُما طالِبٌ للخُروجِ عنْ الخلْقِ إلى الحقِّ، ومحلُّ رِحالِهما إثباتُ الحقِّ بلا واسِطةٍ، ونفيُ الخلْقِ بلا عِلَّةٍ، ورؤيةُ الكوْنِ بعيْنٍ واحِدةٍ، والحقَّ مِنْ وجهٍ واحِدٍ، وهو التَّنزيهُ المُطلَقُ الذي يعجزُ عنهُ نِطاقُ العِبارةِ ولا تلحقُهُ إشارةٌ.

ومحصولُ ما مرَّ انقسامُ أهلِ التَّقريبِ -كما دلَّ عليه اللهُ ﴿يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]- إلى مُحِبٍّ ومحبوبٍ، سالِكٍ ومجذوبٍ: الأوَّلُ: كَشَفَ لهُ عنْ ذاتِهِ، ثُمَّ ردَّهُ إلى شُهودِ صفاتِهِ، ثُمَّ إلى التَّعلُّقِ بأسمائِهِ، ثُمَّ إلى شُهودِ آثارِهِ في أرضِهِ وسمائِهِ، والثّاني: عبرَ مِنْ أفعالِهِ إلى التَّعلُّقِ بأسماءِ كمالِهِ، ثُمَّ منها إلى شُهودِ صِفاتِهِ، ثُمَّ منها إلى المطلبِ الأسنى مِنْ شُهودِ ذاتِهِ، هذا في ترقٍّ وذاك في تدلٍّ.. هذا في عناءٍ وذاك في تجلٍّ.

تنْبيهٌ: قالَ في العَوارِفِ: "أمرُ الصّالحينَ والسّالِكينَ ينْقسِمُ إلى أربعةِ أقسامٍ: سالِكٍ، ومجذوبٍ، وسالِكٍ مُتدارَكٍ بالجذبةِ، ومجذوبٍ مُتدارَكٍ بالسُّلوكِ:

١- فالسّالِكُ المُجرَّدُ لا يؤهَّلُ للمشيَخةِ، ولا يبلُغُها لبقاءِ صِفاتِ نفسِهِ عليْهِ، فيقِفُ عِندَ حظِّهِ مِنْ رحمةِ اللهِ في مقامِ المُعامَلةِ والرِّياضةِ، ولا يرتقي إلى حالٍ يُروِّحُ بها عن وهَجِ المُكابَدةِ.

٢- والمجذوبُ المُجرَّدُ عنْ غيْرِ سُلوكٍ يُناديهِ الحقُّ بآياتِ اليَقينِ، ويرفعُ عنْ قلبِهِ شيئًا مِنَ الحِجابِ، ولا يؤخَذُ في طريقِ المُعامَلةِ، وهذا لا يؤهَّلُ للمَشْيَخةِ لوُقوفِهِ عِنْدَ حظِّهِ مِنَ اللهِ، مُروَّحًا بحالِهِ، غيرَ مأخوذٍ في طريقِ أعمالِهِ ما عدا الفرضَ.

٣- والسّالِكُ المُتدارَكُ بالجذْبةِ هو مِنْ كانَتْ بدايَتُهُ المُجاهدةَ والمُعامَلةَ بإخلاصٍ ووفاءٍ، ثُمَّ أُخرِجَ مِنْ وهَجِ المُكابدةِ إلى رَوحِ الحالِ، فوجدَ العسلَ بعْدَ العلقَمِ، وتروَّحَ بنسَماتِ الفضْلِ،

وبرزَ مِنْ مضيقِ المُكابَدةِ إلى سِعةِ المُساهَلةِ، وأونِسَ بنفحاتِ القُربِ، وفُتِحَ لهُ بابٌ مِنَ المُشاهدةِ، فوجدَ دواهُ وفاضَ وِعاهُ، وصدرَتْ منهُ كلماتُ الحِكمةِ، ومالتْ إليهِ القُلوبُ، وتوالتْ عليهِ فُتوحُ الغُيوبِ، وصارَ ظاهِرُهُ مسدودًا، وباطِنُهُ مُشاهَدًا، وصلحَ للخَلوةِ، وصارَ لهُ في خَلوَتِهِ جلوةٌ، فيغْلِبُ ولا يُغْلَبُ، وهذا يؤهَّلُ للمشيخةِ؛ لأنَّهُ أخذَ في طريقِ المُحِبّينَ، ومُنِحَ مِنْ أحوالِ المُقرَّبينَ، بعدَ ما دخلَ في طريقِ أعمالِ الأبرارِ، ويكونُ لهُ أتباعٌ يَنتقِلُ منهُ إليهِمْ عُلومٌ، ويظهرُ بطريقِهِ بركةٌ، لكنْ قد يكونُ محبوسًا في حالِهِ، مُحكَّمًا حالُهُ فيه، لا يُطلَقُ مِنْ وَثاقِ الحالِ، ولا يبلُغُ كمالَ النَّوالِ، فيقِفُ عِنْدَ حظِّهِ، وهو حظٌّ وافِرٌ سنيٌّ. لكنَّ الأكمَلَ في المشيخةِ القِسْمُ الرّابِعُ، وهو:

٤- المجذوبُ المُتدارَكُ بالسُّلوكِ، يناديهِ الحقُّ بالكُشوفِ وأنوارِ اليَقينِ، وتُرفَعُ عنْ قلبِهِ الحُجُبُ، ويستنيرُ بأنواعِ المُشاهدةِ، وينْشرِحُ وينقسِمُ قلبُهُ ويرتَوي مِنْ بحرِ الحالِ، ويتخلَّصُ مِنَ الأغلالِ والإعلالِ، ثُمَّ يفيضُ مِنْ باطِنِهِ على ظاهِرِهِ، وتجري عليْهِ صورةُ المُجاهَدةِ والمُعامَلةِ مِنْ غيرِ مُكابَدةٍ وعناءٍ، بل بلذّةٍ وهناءٍ.

تنْبيهٌ: سُئِلَ بعضُهم عنِ التَّرقّي بالمقامِ، هلْ هو خاصٌّ بالسّالكينَ مِنْ إنسٍ وجنٍّ، أو يعُمُّ الملائكةَ؟ فأجابَ بأنَّهُ إنَّما يكونُ لمنْ يُتصوَّرُ في حقِّهِ المُخالَفةُ، والمَلَكُ معصومٌ، فعملُهُ كعملِ أهلِ الجنّةِ فيها، لا ترقٍّ فيهِ.

تتمّةٌ: قالَ بعضُ العارِفينَ: "أُحِبُّ للفَقيهِ عدمَ الإنكارِ على صُحاةِ المجاذيبِ، حِفظًا مِنْ شرِّهِمْ؛ لكونِهِمْ سريعي العطَبِ للمُنكِرِ؛ فإنَّهُمْ جَليات الحضرةِ، لا يُقامُ عليهِمْ ميزانُ العارِفينَ، فيتعيَّنُ على الفَقيهِ إحالةُ عِلْمِ ما يراهُ مِنَ المجاذيبِ إلى اللهِ، الذي يكفُّهُم عنْ سلبِهِ إذا أنكرَ"(١).

ثُمَّ علامةُ المتحقِّقِ بهذهِ المنازِلِ إنَّما تظهرُ في [القيمةِ](٢)، فلهذا قالَ:

(١) العبارة للمتبولي، أوردها المؤلف في "المنن الكبرى" [الجزء الثاني، الباب الحادي عشر].

(٢) هكذا في المخطوطة، ولعلها "القيامة" بمعنى اليوم الآخر! وعبارة زروق في نفس الموضع: "وعلامة التحقق في هذه المنازل إنما تظهر في الإيمان باليوم الآخر".

٢٥١. لا يُعْلَمُ قَدْرُ أنْوارِ القُلوبِ والأسرارِ إلّا في غيْبِ الملَكوتِ، كما لا تظهرُ أنوارُ السَّماءِ إلّا في عالَمِ المُلْكِ.

(**لا يُعْلَمُ قَدْرُ أنْوارِ القُلوبِ والأسرارِ**) المُشرقةِ مِنْ سماءِ التَّوحيدِ وحقائقِ العُلومِ والمعارِفِ (**إلّا في غيْبِ الملَكوتِ**)، وهو ما خفيَ إدراكُهُ مِنْ حيْثُ الحكمُ العقليُّ، كما أخبرَ به الشّارِعُ مِنْ أمرِ الدّاريْنِ؛ لأنَّهُ لا يُعرَفُ تحقُّقُهُ إلّا مِنْهُ، وبهِ يظهرُ قوَّةُ الإيمانِ ونورُ القلْبِ، فمَنْ إيمانُهُ بالغيْبِ أكملُ، فنورُهُ أتمُّ وأشملُ.

(**كما لا تظهرُ أنوارُ السَّماءِ**) المُشرِقةِ على جواهِرِ الأجرامِ (**إلّا في عالَمِ المُلْكِ**) وهو عالمُ الدُّنيا، فكُلُّ قلبٍ لهُ مِنَ الأنوارِ بحسَبِ ما ظهرَ لهُ مِنَ الأسرارِ، فليسَ مَن اهتَدَى بنورِ اللهِ إلى اللهِ، كمنْ اهتَدَى بنورِ عقلِه إليهِ، فاستَبانَ أنَّهُ لا يُعلمُ قدرُ أنوارِ القُلوبِ إلّا في عالَمِ الغيْبِ؛ لأنَّهُ عالمُها بغيْرِ شكٍّ ولا ريْبٍ، كما لا يظهرُ نورُ السَّماءِ إلّا في عالَمِ الشَّهادةِ؛ لأنَّهُ قدْ كانَ في عمًى.

فائدةٌ: قالَ المرصفيُّ: "أعظمُ علامةٍ على وِلايةِ الرَّجُلِ، شُهودُ قُلوبنا لهُ في حضْرةِ اللهِ، في الصَّلاةِ، أوِ الذِّكرِ، أو المُراقَبةِ ونحوَ ذلِكَ مِنَ الغُيوبِ، وما عدا ذلكَ غايتُهُ حُسْنُ الظَّنِّ به فقطْ"، فإنَّ حُكْمَ منْ يدخُلُ الحضرَةَ في معرفةِ أوليائِهِ، كأهلِ الحارةِ الواحِدةِ أو السّوقِ أو البلَدِ الواحِدِ.

قالَ الشَّعْراني: "وكانَ أخي أفضلُ الدِّين يعرِفُ منْ يقومُ اللَّيلَ بوجهِهِ، ونِمْتُ ليلةً عنْ قيامِهِ فأتاني وقالَ: ما رأيناكَ اللَّيْلةَ هُناكَ"!

ثُمَّ مِمّا يظهرُ فيه أنوارُ القُلوبِ وُجودُ المُعامَلاتِ، وهي أوفقُ لما يبدو فيها مِنَ الثَّمراتِ؛ فلهذا عقبَهُ بقولِه:

***

٢٥٢. وُجدانُ ثمَرةِ الطّاعةِ عاجِلًا بشائرُ العامِلينَ بوجودِ الجَزاءِ عليها آجِلا.

(**وُجدانُ ثمَرةِ الطّاعةِ عاجِلًا**) مِنْ مزيدِ الإيمانِ والإيقانِ، وتنسُّمِ لذيذِ القُرْبِ ولطيفِ الوصْلِ، والحياةِ الطَّيِّبةِ، وسُقوطِ الخوْفِ والحُزْنِ بالسُّكونِ إلى اللهِ، وظُهورِ الخِلافةِ بنُفوذِ الكلِمة، (**بشائرُ العامِلينَ**) لها مِنَ اللهِ (**بوجودِ الجَزاءِ عليها آجلا**)؛ فإذا وجدْتَ روحَ الأُنْسِ بالعمَلِ، فهو دليلُ القبولِ وبُلوغِ الأملِ؛ فإنَّها كرامةٌ مِنَ الحقِّ، والكريمُ إذا أعطَى أكملَ، وإذا خوَّلَ تولَّى، والبِشارةُ تسُرُّ ولا تضُرُّ، والجزاءُ بمُقتضَى الوعدِ والإحسانِ، لا عنْ مُقتضَى أفعالِ الإنسانِ، فارفعْ هِمَّتَكَ عنْ طلَبِ الأعواضِ.

٢٥٣. كيْفَ تطلُبُ العِوَضَ على عملٍ هو مُتصَدِّقٌ بهِ عليكَ؟! أمْ كيْفَ تطلُبُ الجزاءَ على صِدْقٍ هو مُهديهِ إليكَ؟!

(**كيْفَ تطلُبُ العِوَضَ على عملٍ هو مُتصَدِّقٌ بهِ عليكَ؟!**) وأنتَ مُحتاجُهُ معَ عجزِكَ عنْ تحصيلِهِ، ولولا فضلُهُ في توفيقِهِ ما تيسَّرَ لكَ، فإنْ راعيْتَ أشكالَكَ في أعمالِكَ، كُنْتَ بعلّةِ الخُروجِ عنِ العُبوديَّةِ موسومًا، وبعدمِ الصِّدْقِ في أعمالِكَ مرسومًا، وإذا صدَقْتَ، فالصِّدْقُ منهُ لا منكَ، إذ لا سببَ لكَ فيه، وإنَّما هو لكَ مُهديه، وذلكَ لا يصِحُّ معَهُ طلبُ الجَزاءِ، كما قالَ:

(**أمْ كيْفَ تطلُبُ الجزاءَ على صِدْقٍ هو مُهديهِ إليْكَ؟!**) لأنَّ ذلكَ ليسَ إلّا لنفعِكَ ظاهِرًا باطِنًا، وهو غنيٌّ عنْكَ وعنْ ذلكَ، وطلبُ العِوَضِ على عمَلٍ هذه صِفتُهُ في غايةِ القُبْحِ، كما نبَّهَ عليهِ بتعبيرِهِ بـ"كيْفَ" ليُعجِّبَكَ منْ ذلِكَ. واستِعمالُ الصَّدقةِ والهديّةِ في العمَلِ الظّاهِرِ والصِّدْقِ يؤذِنُ بتبايُنِهما في الشَّرفِ، كتبايُنِ الصَّدقةِ والهديّةِ.

سُئِلَ ابنُ عطاءٍ عنْ أقرَبِ شيءٍ إلى مقْتِ الله، فقالَ: "رؤيةُ النَّفْسِ وأفعالِها، وأشدُّ منهُ مُطالَبةُ الأعْواضِ في أفعالِها"، والأفعالُ حقيقةً مخلوقةٌ لهُ، فكيْفَ يُطلَبُ منهُ جزاءٌ على ما هو منهُ؟! والفرقُ بينَ الهديّةِ والصَّدَقةِ: أنَّ الهديّةَ لا تكونُ إلّا بنفيسٍ، وللمَحبوبِ، وكرامةً، بخلافِ الصَّدَقة[1].

***

ثُمَّ النّاسُ في التَّوجُّهِ بالذِّكْرِ، الذي هو روحُ العمَلِ، نوعانِ بيَّنهُما بقولِه:

٢٥٤. قوْمٌ تسبِقُ أنوارُهُم أذكارَهُم، وقوْمٌ تَسْبِقُ أنوارَهُم أذكارُهُم، ذاكِرٌ ذَكَر ليستَنيرَ قلبُهُ، وذاكِرٌ استَنارَ قلبُهُ فكانَ ذاكِرًا.

(قوْمٌ) مُرادون مجذوبون **(تسبِقُ أنوارُهُمْ أذكارَهُمْ)** لأنَّهُمْ مُقامون في السُّهولةِ والخِفّةِ، فيعملون على الفناءِ في عيْنِ البَقاءِ، وهُمْ أهلُ الجذْبِ والغايةِ العُظْمَى، **(وقومٌ)** مُريدون سالِكون **(تَسْبِقُ أنْوارَهُمْ أذْكارُهُمْ)** فيَجْهدون ويُكابِدون ليصلوا، ويذكُرون لينالوا، وهُمُ السّالِكونَ، فهُما ذاكِرانِ: **(ذاكِرٌ ذكَرَ)** بتكلُّفٍ منْهُ **(ليستَنيرَ قلبُهُ)** فكانَ ذِكْرُهُ عِلّةً في نورِه، وبحسبِ ذلِكَ يكونُ طلبُهُ لغرَضِه، والتِفاتُهُ لعِلَّتِه، **(وذاكِرٌ)** ذكَر بعدَ أنِ **(استَنارَ قلبُهُ)** فُجاءةً، **(فكانَ ذاكِرًا)** على نورٍ مِنْ ربِّه بلا تكلُّفٍ، وهو المجذوبُ؛ وقد ذكَرَ هذا آنفًا بقولِه: "اهتدى الرّاحِلونَ ..."[2]، وهلِ السّالِكُ أفضلُ أوِ المجذوبُ؟ خلافٌ في "اللطائف"[3].

ثُمَّ إنَّ السّالِكَ لم ينحلَّ مِنْ نورٍ أوجَبَ لهُ رؤيةَ الطَّريقِ كما لاحَ للمجذوبِ، فنورُهُ عيْنُ التَّحقيقِ، فكُلُّ مجذوبٍ سالِكٌ وعكسُهُ؛ فلهذا قالَ:

---

(١) قال العلامة زروق في شرحه مفصّلا ذلك: الهدية لا تكون إلا بالشيء النفيس والصدقة تكون بكل شيء، والهدية للمحبوبين والصدقة للمحتاجين، والهدية كرامة والصدقة مرحمة.

(٢) انظر الحكمة رقم ٣١ ص ٩٤

(٣) انظر الباب الثامن من "لطائف المنن" في كلامه في الحقائق والمقامات وكشفه فيها للأمور المعضلات.

٢٥٥. ما كانَ ظاهِرُ ذِكْرٍ إلّا عنْ باطِنِ شُهودٍ وفِكْرٍ.

(ما كانَ ظاهِرُ ذِكْرٍ إلّا) ناشئًا (عنْ باطِنِ شُهودٍ وفِكْرٍ) أوجَبَ النّورَ الكاشِفَ للحقِّ لهُ والدّاعي إليْهِ، فالأعمالُ الظّاهِرةُ إنّما تقعُ عنْ أعمالِ الباطِنِ، فهي أبدًا تقعُ كما نبَّهَ عليْهِ بقولِهِ آنِفًا: "ما استُودِعَ في غيْبِ السَّرائِرِ" إلى آخرِهِ[1].

فالذّاكِرُ ليستَنيرَ قلبُهُ لولا تجلّي حقيقةٍ لقلْبِهِ ما أثَّرَ الذِّكْرُ استِنارَتَهُ، ولولا الفِكرةُ الحاصِلةُ لهُ لما توجَّهَ لذلِكَ، والذي استنارَ قلبُهُ إنّما هو لمُشاهَدةِ الحقِّ بهِ، فلا بُدَّ لكُلٍّ مِنْ شُهودٍ وفِكْرٍ، لأنَّ الأوّلَ فِكرُهُ أصلٌ، وشُهودُهُ تابِعٌ، والآخَرُ عكسُهُ.

قالَ السَّقطي: "صحِبْتُ زنجيًّا في البرِّيّةِ، فرأيتُهُ كُلَّما ذكَرَ اللهَ تغيَّرَ لونُهُ وابيضَّ، فقُلْتُ: يا هذا أرى عجبًا! قالَ: أمّا إنَّكَ لو ذكرْتَ اللهَ حقَّ ذِكْرِهِ لحالَتْ لبِسَتُكَ وتغيَّرَتْ صِفتُكَ".

فالذِّكْرُ إذا لم يؤثِّرْ في تغييرِ حالِ الذّاكِرِ، ونقلَهُ عنْ مقامِ البُعْدِ والمُخالَفةِ والحِجابِ، إلى حضرةِ الشُّهودِ والاقترابِ، فليْسَ بذِكْرٍ حقيقةً، وابيِضاضُ الأسْودِ وهو إشراقُهُ وإضاءتُهُ بسببِ صفاءِ الباطِنِ وسريانِ نورِهِ إلى الظّاهِرِ، لما بينَهُما مِنَ الارتِباطِ والاتِّصالِ، وتأثُّرُ البدَنِ بما يظهَرُ للنَّفْسِ مِنَ الانفِعالِ أمرٌ معلومٌ عِنْدَ أربابِ الأحوالِ.

تنْبيهٌ: قالوا: للذِّكرِ ألْفُ أدَبٍ، يجمعُها عِشْرونَ، مَنْ لم يتحقَّقْ بها بعُدَ عليْهِ الفتحُ: التَّوبةُ، والطُّهْرُ لهُ كُلَّما أرادَهُ، والسُّكونُ والسُّكوتُ لتحصيلِ الصِّدْقِ فيه، وتمثُّلُ صورةِ الشَّيْخِ بيْنَ يديْهِ، ليكون رفيقَهُ في السَّيْرِ؛ فهذِهِ شُروطٌ سابِقةٌ على الذِّكْرِ.

ثُمَّ يكونُ حالَ الذِّكرِ على محلٍّ طاهِرٍ، واضِعًا راحَتيْهِ على فخِذيْهِ، مُتربِّعًا، مُستَقبِلًا، ويُطيِّبُ محلَّ الذِّكْرِ، وبدَنَهُ سيِّما فمَه، وملبوسَهُ، ويقعُدُ بمحلٍّ مُظلِمٍ، ويُغمِضُ عينيْهِ ليَسُدَّ عليْهِ

(١) انظر الحكمة رقم ٢٨ ص ٨٦.

طُرُقَ الحواسِّ الظَّاهِرةِ، فتُفتَحَ حواسُّ القلبِ، ويُخَيِّلَ صورةَ شيخِهِ بينَ عيْنَيهِ ما دامَ ذاكراً، ويذكُرُ بقوّةٍ تامّةٍ بحيثُ يهتزُّ مِنْ رأسِهِ لِقَدمِهِ، ويجهرُ المُبتَدِئُ بقوّةٍ، وأجمعوا على أنَّ ذِكرَهُ سرًّا لا يُفيدُ.

وبعدَهُ يسْكُنُ ويخْشَعُ ويحضُرُ معَ قلبِهِ مُترَقِّبًا للوارِدِ، فقد يرِدُ عليْهِ وارِدُ الزُّهْدِ فيصيرُ زاهِدًا، أوِ الورَعِ فيصيرُ ورِعًا، أو تحمُّلِ الأذى فيصيرُ صابِراً، أو الخَوْفِ فيصيرُ خائفًا، أو الرَّجاءِ فيصيرُ مُنبَسِطًا، وهكذا.

قالَ حُجّةُ الإسلامِ: "ولهذهِ السَّكْتةِ آدابٌ جمّةٌ، منها استحضارُ العبْدِ أنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عليهِ، وأنَّهُ بينَ يديهِ، وشرطُها جمعُ الحواسِّ، بحيْثُ لا تتحرَّكُ فيهِ شعرةٌ، كالهِرّةِ عندَ صيْدِ الفأرِ، ونفيُ الخواطِرِ، وإجراءُ معنى الجلالةِ على القَلبِ، وهذه آدابٌ لا ينالُ الذّاكِرُ منصِبَ المُراقَبةِ إلّا بها".

ويذُمُّ نفسَهُ مِراراً مِقْدارَ ثلاثةِ أنفاسٍ إلى سبعةٍ فأكثرَ، حتَّى يدورَ الوارِدُ في جميعِ عوالِمِهِ فيُنوِّرُ بصيرَتَهُ، ويقطعُ عنْهُ خواطِرَ النَّفسِ والشَّيطانِ، ويكشِفُ عنهُ الحُجُبَ، وهذا كالمُجْمَعِ على وُجوبِهِ عِندَهُمْ.

ولا يشرَبُ ماءً بارِدًا عليْهِ؛ فإنَّ الذِّكرَ يورِثُ حُرقةً وشوقًا، وهيَجانًا إلى المذْكورِ الذي هو المطلوبُ الأعظمُ، والماءُ يُطفِئُ تِلْكَ الحَرارةِ، وحظرَ بعضُهُمْ الأكلَ بعدَهُ؛ لأنَّ الذِّكرَ غِذاءٌ روحانيٌّ، والغِذاءُ الجُسمانيُّ يمنَعُهُ مِنَ السَّريانِ.

وفوائدُ الذِّكرِ لا تُحصَى، وناهيكَ بِكونِ الذّاكِرِ جليسَ اللهِ، لا يرى فيه بينَهُ وبينَهُ واسِطةٌ، فلا تعلَمْ نفسٌ قدرَ ما يُتحِفُهُ مِنَ العُلومِ والأسرارِ كُلَّما ذكرَ؛ لأنَّها حضرةٌ لا يَرِدُ عليها أحدٌ ويُفارِقُها بغيرِ مدَدٍ، فيُقالُ لِمُدَّعي الحُضورِ بقلبِهِ معَ ربِّهِ في ذِكْرِهِ: ماذا أتحفَكَ بهِ في هذا المجلسِ؟ فإنْ قالَ: ما أعطاني! قُلْنا: وأنْتَ لم تحضُرْ معَهُ، فاتّخِذْ لكَ شيْخًا يُزيلُ عنْكَ موانِعَ الحُضورِ.

ثُمَّ الذِّكْرُ والفِكْرُ إنَّما هو جَريانٌ على الحقيقةِ المودَعةِ في أصلِ النَّشأةِ، حيثُ الميثاقُ؛ فلهذا قالَ:

***

٢٥٦ . أشهدَكَ قبْلَ أنْ يَستَشْهِدَك، فنَطقَتْ بإلهيَّته الظَّواهِرُ، وتحقَّقتْ بأحَديَّتِهِ القُلوبُ والسَّرائرُ.

(**أشهدَكَ**) حقائقَ وَحدانيَّتِهِ وإحاطةَ قيّوميَّتِهِ وكمالَ ذاتِه في قلبكَ، لمّا كاشَفَكَ بذلكَ في غيْبِ الغيْبِ يومَ الميثاقِ، فاضمحلَّ وتدكْدَكْ (**قبْلَ أنْ يَستَشْهِدَكَ**) على أنَّهُ ربَّكَ، إذ قالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]، (**فنَطقَتْ بإلهيَّته الظَّواهِرُ**) حيْثُ قالَتْ: بلى، (و) ذلكَ بعدَ أنْ (**تحقَّقتْ بأحَديَّتِهِ القُلوبُ والسَّرائرُ**) لمّا عاينَتْ جلالَهُ وعظمتَهُ عِنْدَ إشهادِهِ، فتمَّتْ حُجَّتُهُ تعالى على الكُمَّلِ، واستمرَّتْ بإثباتِ ذلكَ في وُجودِها إلى الأبَدِ. ولذلكَ لا يُمكنُ أحدًا الشَّكُّ في بارئِه، ولم يُمكِنْ كافرًا جَحْدُهُ، بمعنى أنَّ العِلْمَ بوُجودِهِ مركوزٌ في الجِبلّةِ، فكُلُّ أحَدٍ مُتحقِّقٌ بأحديَّتِهِ، وإنَّما الحائلُ بيْنَ ما تحقَّقتْهُ السَّرائرُ وتيقَّنتْهُ الضَّمائرُ، التَّقييدُ بالعاداتِ والرُّجوعُ لعالَمِ الجُسمانيّاتِ، فإذا طهُرَ القلْبُ مِنَ الأغْيارِ، وزالَ عنْهُ الصَّدأُ والغُبارُ، لاحَ لهُ الحقُّ كالعَيانِ، وبانَ لهُ التَّحقيقُ بأتمِّ بيان.

***

٢٥٧ . أكرمَكَ كرامات ثلاثَ: جعلَكَ ذاكِرًا لهُ، ولولا فضلُهُ لم تكُنْ أهلًا لجَريانِ ذِكرِه عليكَ، وجعلَكَ مذكورًا بِهِ إذ حقَّقَ نِسبتَهُ لديْكَ، وجعلَكَ مذكورًا عِنْدَهُ فتمَّمَ نِعمَتَهُ عليْكَ.

(**أكرمَكَ كرامات ثلاثَ**) فيما أولاكَ مِنْ ذِكْرِهِ: (**جعلَكَ ذاكِرًا لهُ**) بإجراءِ ذِكْرِهِ على لِسانِكَ، (**ولولا فضلُهُ لم تكُنْ أهلًا لجَريانِ ذِكرِه عليْكَ**)، وهو لا يليقُ بكَ مِنْ حيْثُ أنْتَ، ولا تقدِرُ على تحصيلِهِ لنَفْسِكَ، ومنْ أنْتَ حتَّى تكون محلًّا لذِكْرِهِ، وموضِعًا لتوفيقِهِ وبِرِّهِ؟! فهذا غايةُ الإكرامِ، ومُنتَهى الفضْلِ والإنعامِ.

(و) الثّانيةُ (**جعلَكَ مذكورًا به**) عِنْدَ الخلْقِ، فيُقالُ: هو ربُّكَ وأنْتَ عبدُهُ أو وليُّهُ أو صفيُّهُ أو مُختارُهُ، وهو الآمِرُ وأنْتَ المأمورُ، وأنْتَ الذّاكرُ وهو المذكورُ، وهو مُنعِمٌ وأنتَ مُنعَمٌ عليه، وهو موفِّقٌ وأنْتَ موفَّقٌ، (**إذ حقَّقَ**) بإكرامِهِ لكَ (**نِسْبتَهُ لديْكَ**) مِنْ إثباتِ الخُصوصيّةِ لكَ.

(و) الثّالثةُ (**جعلَكَ مذكورًا عِنْدَهُ**) حيْثُ قالَ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، (**فتمَّمَ نعمَتَهُ عليْكَ**) حيْثُ قالَ: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وحاصِلُهُ: أنَّهُ أكرَمَكَ بجَرَيانِ ذِكْرِهِ على لِسانِكَ وقلْبِكَ، ثُمَّ بانتسابِكَ بالعُبوديّةِ إلى مولاكَ وربِّكَ، أيُّ فخرٍ أعظَمُ مِنْ إضافتِكَ إلى السَّيِّدِ الأكبرِ؟! ثُمَّ بكونِكَ مذكورًا عِنْدَهُ، هذا غايةُ إكرامِ المولَى عبْدَهُ، قالَ ابنُ مُعاذٍ: "يا غفولُ يا جهولُ، لو سمِعْتَ صريرَ القَلَمِ بذِكْرِكَ في اللَّوْحِ، لطِرْتَ طرَبًا".

فائدةٌ: قالَ ابنُ عربي: "إذا غفلَ المُريدُ عَنِ الذِّكْرِ نفَسًا واحِدًا، صارَ الشَّيْطانُ قرينَهُ، فإنَّهُ بالمِرصادِ لمَنْ أقبَلَ على اللهِ يقِفُ تِجاهَ قلبِهِ، فمتى دخلَتِ الغفْلةُ قلبَهُ دخلَ، وإنْ دخلَ الذِّكْرُ خرجَ، وإذا كانَ الشَّيْطانُ يُدنِّسُ القلْبَ بدُخولِهِ مرّةً بالنَّهارِ، فكيْفَ بقلْبٍ باضَ فيهِ وفرَّخَ؟!".

تنْبيهٌ: قالَ بعضُهم: "أقربُ الطُّرُقِ إلى دُخولِ حضْرةِ اللهِ، ذِكْرُ اللهِ؛ لأنَّ الاسمَ لا يُفارِقُ مُسمّاهُ، فلا يزالُ الذّاكِرُ يذكُرُ، والحُجُبُ تتمزَّقُ شيئًا فشيئًا، حتَّى يقعَ الشُّهودُ القلبيُّ، وحينَئذٍ يستَغْني عنِ الذِّكْرِ بمُشاهَدةِ المذكورِ، فلو ذكرَ العبْدُ ربَّهُ في تِلْكَ الحضْرةِ، كانَ غيرَ الأدَبِ، كما أنَّ مَنْ تمَثَّلَ بحضرةِ سُلطانٍ لا يُناسِبُهُ تَكرارُ اسمِهِ جهرًا، بلْ قد يُنسَبُ للجُنونِ ويُخرَجُ، فالذِّكْرُ دليلٌ، فإذا جمعَكَ على المدلولِ سقطَ شُهودُ الدَّليلِ مِنْ قلبِكَ".

وأنشدوا في حضرةِ الشُّهودِ:

بذِكْرِ اللهِ تزدادُ الذُّنوبُ[1] * وتنكشِفُ الرَّذائلُ والعُيوبُ
وترْكُ الذِّكرِ أفضلُ كُلِّ شيءٍ * وشمْسُ الذّاتِ ليْسَ لها مغيبُ

(١) لكون الذكر في حضرة الشهود، فهو مخالف للأدب مع المشهود.

وأنشدوا:

لا يتركُ الذِّكْرَ إلّا منْ يُشاهِدُهُ * وليسَ يشهَدُهُ منْ ليْسَ يذكُرُهُ

والذِّكْرُ سِترٌ على مذكورِهِ سترُ * فحينَ أذكُرُهُ في الحالِ يستُرُهُ

فلا أزالُ على الأحوالِ أشهدهُ * ولا أزالُ على الأنْفاسِ أذكُرُهُ

ومُرادهُمْ بحضرةِ اللهِ حيْثُ أُطلِقَتْ انكِشافُ الحُجُبِ، فتدخُلُها وأنتَ قاعِدٌ مكانَكَ.

ثُمَّ ذكرَ ما يُرجِّحُ أنَّ المجذوبَ أفضلُ، وأنَّ بركةَ العُمْرِ خيْرٌ مِنْ طولِهِ، ولا بركةَ إلّا بذِكْرٍ، فقالَ:

***

٢٥٨. رُبَّ عُمْرٍ اتَّسَعَتْ آمادُهُ وقلَّتْ أمدادُهُ، ورُبَّ عُمْرٍ قليلةٌ آمادُهُ كثيرةٌ أمدادُهُ.

(**رُبَّ عُمْرٍ اتَّسَعَتْ آمادُهُ**) بأنْ عمَّرَ كثيراً، كأعمارِ بني إسرائيلَ، يعيشُ الواحِدُ ألْفَ سنةٍ ولا يحصُلُ لهُ ما حصَلَ لهذهِ الأمّةِ، (**وقلَّتْ أمدادُهُ**) الإلهيّةُ التي مدَّ بها المؤمنون، زيادةً في إيمانِهِمْ وتقويةً لإيقانِهِمْ، (**ورُبَّ عُمْرٍ**) آخرَ بعكسِ ذلِكَ، (**قليلةٌ آمادُهُ كثيرةٌ أمدادُهُ**) مِنْ خزائنِ الفضْلِ والكرَمِ، كأعمارِ هذهِ الأُمّةِ في مُقابَلةِ مَنْ مضى مِنَ الأُممِ.

قالَ البَسطاميُّ وغيرُه: "هذهِ الأُمّةِ ظهرَتْ في أوَّلِ دورةِ الميزانِ؛ ولهذا ظهرَ فيها معَ قِصَرِ أعمارِها ما لم يظهرْ في غيرِها مِنَ الأُممِ معَ طولِ أعمارِها، فإنَّ الدَّورةَ التي انقضَتْ تُرابيّةٌ، فغايةُ عِلمِهِمْ بالطَّبائعِ، والإلهيّون فيهم قليلٌ".

فالعِبرةُ ببرَكةِ العُمْرِ لا بطولِهِ، وذلكَ بحسَبِ قوّةِ الاستِعْدادِ وكمالِ القابِليّةِ، ويختلفُ ذلكَ باختِلافِ تركُّبِ الخلْقِ ومجبولِ فِطرِهِمْ، ولا دخلَ للزَّمانِ في هذا إلّا بالعرَضِ؛ فإذا باركَ لكَ في عُمرِكَ، أمدَّكَ فيهِ بغايةِ فخرِكَ.

إذا واجَهَتْكَ العنايةُ، بلغْتَ في يسيرٍ مِنَ العُمرِ الغايةَ. مَنْ بورِكَ لهُ في زمانِهِ، بلغَ به غايةَ إحسانِهِ، وإذا بارَكَ لكَ في الزَّمنِ، والى فيهِ المِنَن. قالَ المرسي: "أوقاتُكَ كُلُّها ليلةُ القدْرِ"، فهذا هو البرَكةُ في العُمرِ لا تطويلُهُ، وهذا أحدُ الأقوالِ في تفسيرِ زيادةِ العُمرِ بصِلةِ الرَّحِم، الوارِدِ في الآيةِ والحديثِ[1].

***

٢٥٩. مَن بُورِكَ لهُ في عُمرِهِ أدركَ في يسيرٍ مِنَ الزَّمنِ مِنْ مِنَنِ اللهِ ما لا يدْخُلُ تحتَ دوائرِ العِبارةِ، ولا تلحقُهُ الإشارةُ.

(**مَنْ بوركَ لهُ في عُمْرِهِ**) بأنْ رُزِقَ فيهِ مِنَ الفِطْنةِ واليَقَظةِ ما حمَلَهُ على اغتنامِ أوقاتِهِ، وانتهازِ فُرَصِ إمكانِهِ خشيةَ فواتِهِ، فبادَرَ إلى الأعمالِ القَلبيّةِ والبَدَنيّةِ، واسْتَفرغَ جَهْدَهُ في ذلكَ بالكُلّيّةِ، (**أدركَ في يسيرٍ مِنَ الزَّمنِ مِنْ مِنَنِ اللهِ**)، أي شيئًا مِنَ المِنَحِ الإلهيّةِ وإشراقِ الأنوارِ الرَّبّانيّةِ، (**ما لا يدْخُلُ تحتَ دوائرِ العِبارةِ**) لرُقيِّهِ واتِّساعِهِ، (**ولا تلحقُهُ الإشارةُ**) للطافتِهِ وخفائِهِ، وكثرتِهِ وعظمتِهِ.

قالَ في "تاجِ العروسِ": مَنْ قصُرَ عُمرُهُ -أي كانَ رُجوعُهُ إلى اللهِ في مُعتَرَكِ المنايا- أو كانَ في مرضٍ مَخوفٍ أو حالٍ مَهولٍ، فليَذكُرْ بالأذكارِ الجامعةِ، كـ"سُبحانَ اللهِ عددَ خلقِهِ"، ونحوِ ذلِكَ. وإذا كانَ ما عِندَهُ تعالى بهذهِ المثابةِ، فالقُعودُ عنهُ خِذلانٌ سيَّما معَ تمكُّنٍ وإمكانٍ.

تنْبيهٌ: قالَ في "الأخلاقِ": مِنْ أخْلاقِهِمْ العملُ على حُصولِ مقامِ غلبةِ الرّوحانيّةِ على الجِسْمِ، ليَصيرَ يقرأُ القُرآنَ كُلَّهُ في درجةٍ، فيصيرَ أحدُهُمْ يعملُ عملَ مَنْ عُمرُهُ ألفُ سنةٍ معَ قِصَرِ عُمرِهِ، كما وقعَ للمرصفي أنَّهُ ختمَ القُرآنَ في يومٍ واحدٍ ثلاثمائةَ وستّينَ مرّةً.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا: (من سره أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره، فليصل رحمه).

٢٦٠. الخذْلانُ كُلُّ الخذْلانِ أنْ تَتفرَّغَ مِنَ الشَّواغِلِ ثُمَّ لا تَتوجَّهُ إليْهِ، وتقِلُّ عوائِقُكَ ثُمَّ لا ترحَلُ إليْهِ.

(**الخذْلانُ كُلُّ الخذْلانِ أنْ تتفرَّغَ مِنَ الشَّواغِلِ**) الشّاغلةِ عنِ التَّوجُّهِ إليْهِ تعالَى، (**ثُمَّ لا تَتوجَّهُ إليْهِ**) بصِدْقِ النّيّةِ حتَّى يفتحَ عليْكَ بما لا تصِلُ الهِمَمُ إليْهِ، فالخذْلانُ صرفُ الإعانةِ عنِ مواقِفِ الرُّشْدِ، (**وتقِلُّ عوائِقُكَ**) الصّادّةُ عنِ الرَّحيلِ إليْهِ، (**ثُمَّ لا ترحَلْ إليْهِ**) عن عوالِمِ نفسِكَ، والأُنْسِ بيومِكَ وأمسِكَ، فإذا فرَّغَكَ مِنَ الشَّواغِلِ، فتوجَّهْ إليْهِ بقَطْعِ عقَباتِ النَّفْسِ والهوى، بلْ ما فرَّغَكَ إلّا لتنْهَضَ إليْهِ، وتُقبِلَ بالسَّيْرِ عليْهِ، فالخُسرانُ كُلُّ الخُسْرانِ لمنْ كانَ منهُ في حِرمانٍ.

قالَ القُشيْريُّ: "فراغُ القلْبِ مِنَ الاشتِغالِ نِعمةٌ عظيمةٌ، فإذا كفرَ العبْدُ هذه النِّعمةَ بأنْ فتحَ على نفسِهِ بابَ الهوَى والشَّهواتِ، شوَّشَ عليْهِ نِعمةَ قلْبِهِ، وسلبَهُ ما كانَ يجِدُ مِنْ صَفائِهِ".

وفي الحديثِ: (خَصْلَتانِ مغبونٌ فيهِما كثيرٌ مِنَ النّاسِ: الصِّحَّةُ والفَراغُ)[1]، فمنْ وجدَهُما فليشْكُرِ اللهَ، أي بالعمَلِ الصّالِحِ، وإلّا فهو مخذولٌ، والمغبونُ حقيقةً منْ شردَ عنْ مولاهُ، وتعلَّقَ بشهْوتِهِ وهواهُ، وتقيَّدَ بأُمنيَتِهِ ومُناهُ، فلم يسلُكْ مسلَكَ أهلِ العِرْفانِ، ولا حامَ حولَ حِمى أهلِ الشُّهودِ والعَيانِ، فيا لهُ مِنْ حالٍ ما أسناهُ، ومقامٍ ما أعلاهُ.

على نفسِهِ فليَبْكِ منْ ضاعَ عُمرُهُ * وليْسَ لَهُ مِنها نصيبٌ ولا سهْمُ

أما صدُّكَ عمّا ذكرَ بالشَّواغِلِ وكثرةِ العَوائِقِ، فهو وإنْ كانَ مِنَ الخِذْلانِ، ليْسَ كُلُّهُ بخذلانٍ، وبالجُملةِ: فاللّازمُ لكَ البدارُ إلى ذلكَ، ورفضُ الشَّواغِلِ والعَوائِقِ خلفَ ظهرِكَ، ومِنْ ثَمَّ قالوا: سيروا إلى اللهِ عُرْجًا ومكاسيرَ، ولا تنتظِروا الصِّحَّةَ؛ فإنَّ انتظارَها بَطالةٌ، ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٤١٢)، وغيره من حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

ثُمَّ التَّوجُّهُ والرَّحيلُ يكونُ بالفِكْرِ في أسبابِ الانزِعاجِ، ثُمَّ في وجهِ التَّوجُّهِ، ثُمَّ في عظمةِ المُتوجَّهِ إليْهِ؛ فلهذا قالَ:

٢٦١. الفِكْرُ سيْرُ القلْبِ في ميادينِ الأغْيارِ.

(الفِكْرُ) أي التَّفكُّرُ **(سيْرُ القلْبِ)** بالاعتبارِ **(في ميادينِ)** أي مواقِفِ **(الأغْيارِ)** أي المخلوقاتِ، حتَّى ترى فناءَ كُلِّ شيءٍ لبَقاءِ مولاكَ، وتُميِّزَ أحوالَكَ بما بهِ تولاّكَ، والمُرادُ: استعمالُهُ في استِخراجِ المعلوماتِ، فهي سيرُ القلْبِ، أي، مشيُهُ وتنقُّلُه في موقِفِ الخلْقِ؛ فالقلْبُ يسيرُ في الخلائقِ بِفِكرِهِ بحسَبِ مراتبِهِ، فتارةً يفكِّرُ في وُجودِهِمْ فيَهديهِ لموجِدِهِمْ، وتارةً في موجِدِهِمْ فيَهديهِ لتَركِهِمْ والإقبالِ عليْهِ، وتارةً في موجدِهِمْ وما أجرى عليهِمْ فيَهديهِ لعظَمتِهِ برؤيةِ ما لهُ فيهِمْ.

٢٦٢. الفِكْرةُ سِراجُ القلْبِ، فإذا ذهبَتْ فلا إضاءةَ لهُ.

(الفِكْرةُ سِراجُ القلْبِ) أي مِصباحُهُ الذي يمشي بهِ في ظُلمةِ الأغيارِ، فيرى النّافِعَ والضّارَّ، ويُبصِرُ الحقَّ والحقيقةَ أتمَّ إبصارٍ، بها يصِلُ إلى الإيمانِ، ثُمَّ الإحسانِ، وينتهي للعِرفانِ، **(فإذا ذهبَتْ)** منهُ **(فلا إضاءةَ لهُ)**، فهو مُظلِمٌ بالجهْلِ؛ فإذا فقدَ الإضاءةَ صارَ كالأعمى، يخطئ تارةً ويُصيبُ أُخرى، فيفوتُهُ السَّيْرُ، وينتفي عنهُ الخيْرُ، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وبذلِكَ تبيَّنَ أنَّ الفِكْرةَ للقلْبِ مِنْ أعزِّ صِفاتِهِ، وهي سيْرُهُ في آياتِ اللهِ ومصنوعاتِهِ، بها يُشرِفُ على المعاني السَّنيّةِ، وتُشرِقُ فيهِ الأنْوارُ البَهيّةُ، بها تتحرَّكُ المحبّةُ، فيتوجَّهُ القلْبُ لمنْ أحبَّهُ. القلْبُ يحتاجُ إلى الفِكْرِ لكونِهِ السِّراجَ، فمَنْ خَلا عنهُ فهو نازِلُ الهِمَّةِ وقلبُهُ أبدًا في ظُلمة.

***

٢٦٣ . الفِكرةُ فِكرتانِ: فِكرةٌ عنْ تصديقٍ وإيمانٍ، وعن شُهودٍ وعيانٍ، فالأولى لأربابِ الاعتِبارِ، والثّانيةُ لأربابِ الشُّهواتِ والاستِبصارِ.

(**الفِكرةُ فِكرتانِ**): الأولَى (**فِكرةٌ**) ناشِئةٌ (**عنْ تصديقٍ وإيمانٍ**)، وهي المؤدّيّةُ للعِلْمِ بالدّارَيْنِ، والنَّفسِ وخُدَعِها والشَّيطانِ وحيَلِهِ، وما يمنَعُ ذلِكَ، (**و**) الثّانيةُ: فِكرةٌ ناشِئةٌ (**عنْ شُهودٍ وعيانٍ**)، وهي الفِكْرةُ في صِفاتِ الحقِّ وتنزيهِ ذاتِهِ.

(**فالأولى لأربابِ الاعتِبارِ**) مِنَ السّالِكينَ والمُريدينَ حالَ ترقّيهِمْ، وهو نعْتُ المُستَدلّينَ بالآثارِ على المؤثِّرِ. (**والثّانيةُ لأربابِ الشُّهواتِ والاستِبصارِ**)، أهلِ مُعايَنةِ الحقِّ بإسقاطِ الآثارِ، الذين شهِدوا الحقَّ فعرَفوهُ، واستبْصَروا عينَ التَّحقيقِ فأبْصَروهُ، فساروا في الخَلْقِ تارةً بنورِ الحقِّ وتارةً بنورِ الحقيقةِ؛ فاسْتَبانَ أنَّ فِكْرةَ السّالِكِ على التَّحقيقِ فِكرةٌ تنشأُ عنِ الإيمانِ والتَّصديقِ، كما أنَّ فِكرةَ المجذوبِ تنشأُ عنْ مُشاهَدةِ المحبوبِ.

خاتمةٌ: قالَ بعضُهُمْ: "الذِّكْرُ أتمُّ مِنَ الفِكْرِ؛ لأنَّهُ لو ماتَ في الذِّكْرِ ماتَ في حضرةِ اللهِ، أو في الفِكْرِ، ماتَ في حضرةِ الأكوانِ". والمُرادُ: الفِكْرُ في مصنوعاتِهِ تعالى، أمّا الفِكْرُ في ذاتِ اللهِ فممنوعٌ شرعًا وعقلًا، إذ لو قيلَ للعبْدِ: تعقَّلْ شيئًا لم يخْلُقْهُ اللهُ، لم يُمكِنْهُ تعقُّلُهُ، واللهُ خالِقٌ لا مخلوقٌ، فلا يُمكِنُهُ تعقُّلُهُ أبدًا، إنَّما يُحِسُّ بهِ القلْبُ مِنْ وراءِ حُجُبٍ كثيرةٍ تمنَعُ العبْدَ مِنَ التَّكييفِ لهُ سُبحانَهُ، وأنشدوا:

ترْكُ التَّفكُّرِ تسليمٌ لخالِقِنا * فلا تُفكِّرْ فإنَّ الفِكْرَ معلولُ
فبالتَّفكُّرِ وُكِّلَنا لأنْفُسِنا * لولاهُ ما كانَ إشراكٌ وتعطيلُ

وأنشدوا:

إنَّ التَّفكُّرَ في الآياتِ والعِبَرِ * ليْسَ التَّفكُّرُ في الأحكامِ والقدَرِ

***

وهذا آخِرُ الكِتابِ، وما بعدَهُ إنَّما هو مُكاتَباتٌ ومُناجاتٌ ذكرَها بقولِهِ:

الكُتُبُ النَّادِرَةُ الَّتي تُرفَعُ لأُولِي الهِمَّة

[القسم الثاني: المكاتبات]

[الكتاب الأول]

قالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِمّا كتبَ بهِ لبعضِ إخْوانِهِ، وهو كتابٌ ضمَّنَهُ السُّلوكَ إلى حضرةِ ملِكِ المُلوك:

(**أمّا بعدُ: فإنَّ البداياتِ محلّاتٌ للنِّهاياتِ**) أي محلُّ ظُهورِها وتجلّيها؛ فالسّالِكُ في ابتداءِ سُلوكِهِ يتجلَّى لهُ أمرُ نِهايَتِهِ، أي يتجلَّى له فيها حقائقُها، ويظهرُ فيها ما لها مِنْ نقصٍ وكمالٍ، وتفصيلٍ وإجمالٍ، وذلك معنى قولِهِ آنِفًا: "مِنْ علامةِ النُّجْحِ في النِّهاياتِ ..." إلى آخرِهِ[1]، والمُرادُ: مَنْ كانَتْ بِدايَتُهُ أجملَ، كانَتْ نِهايَتُهُ أكملَ، مِنْ كانَتْ بِدايَتُهُ أصحَّ، كانَتْ نِهايَتُهُ أوضَحَ.

(**وإنَّ مَنْ كانَتْ باللهِ**) أي مصحوبةٌ بالاستقامةِ باللهِ، والاعتمادِ عليْهِ، والانقطاعِ إليْهِ (**بِدايَتُهُ**)، في مُجاهَداتِهِ ومُكابَداتِهِ، وأنْواعِ رياضاتِهِ، بحيْثُ لا يعرُجُ على سِواهُ، (**كانَتْ إليْهِ نِهايَتُهُ**) بأنْ يكشِفَ لهُ انفِرادَهُ بالقيّوميّةِ، وتوحُّدَهُ بالدَّيْموميَّةِ، وأنَّهُ الأوَّلُ الآخِرُ، الظّاهِرُ الباطِنُ، انكِشافًا يَظهَرُ لهُ بهِ عدَميَّةُ ذاتِهِ وتلاشيهِ واضمِحلالُه.

فمنْ صحَّ لهُ تِلْكَ البِدايةُ وصلَ إلى هذهِ النِّهايةِ، فمنْ دخلَ الأشياءَ باللهِ، كانَتْ نِهايَتُهُ فيها إلى اللهِ، ومَنْ كانَتْ بِدايَتُهُ بالتَّفويضِ إلى اللهِ، كانَتْ نِهايَتُهُ بالرِّضَى عنِ اللهِ، ومنْ كانَتْ بِدايَتُهُ بالتَّوكُّلِ عليْهِ، فنِهايَتُهُ بالرُّجوعِ إليْهِ، ومنْ كانَتْ بِدايَتُهُ بالاستِعانةِ بهِ، فنِهايَتُهُ بحُسْنِ الظَّنِّ بهِ، ومَنْ كانَ للهِ كانَ اللهُ لهُ، ومنْ كانَ فيهِ تلفُهُ كانَ عليْهِ خلفُهُ، ولو كانَ لغيرِهِ كانَ الغيْرُ حظَّهُ مِنهُ.

(١) انظر الحكمة رقم ٢٦ ص ٨٣.

قالَ بعضُ العارفينَ: "نِهايةُ كلِّ عارفٍ ترجِعُ إلى صورةِ بدايَتِه، لكنْ على غيْرِ الوجْهِ الذي شهِدَهُ المُبتَدِئ.

مثالُهُ أنَّهُ حالَ بدايَتِهِ عليْهِ ترْكُ كُلِّ ما يشغلُهُ عنِ اللهِ؛ فإذا انتهى إلى الحضْرةِ التي انتهى سُلوكُهُ إليها على مُصْطَلَحِ القوْمِ، فعرفَ اللهَ معرفةً لا تُزلزِلُها الأدلَّةُ، يصيرُ لا شيءَ يشْغلُهُ عنِ اللهِ؛ لأنَّهُ يجِدُ الحقَّ معَ كُلِّ شيءٍ، كانَ مأموراً بتركِهِ حالَ سُلوكِهِ لضعْفِهِ، فهذا يُمسكُ الدُّنْيا بحذافيرِها، ويتصرَّفُ فيها كتصرُّفِ حكيمٍ عليمٍ، ويُزاحِمُ على الرّياسةِ، ويُشاحِحُ على درهَمٍ، ويُؤاخذُ النّاسَ بكُلِّ ما فعلوهُ به مِنَ الأذى، وتصيرُ صورتُه صورةَ أبناءِ الدنيا المُحبّينَ لها، والقصْدُ مُختَلِفٌ، معَ كمالِهِ في ذلكَ، ومتى خالفَ نقصَ مقامُهُ.

ثُمَّ هيَّجَ السّالكَ بقولِهِ: **(والمُشتَغَلُ بهِ)** بالبناءِ للمفعولِ، أي ما يُشتغَلُ به أيُّها السّالكُ، مِنْ عمَلِكَ على التَّقرُّبِ مِنْ ربِّكَ، والتَّوسُّلِ إليهِ بالطّاعةِ والعُبوديَّةِ **(هو الذي أحببتَهُ وسارَعْتَ إليْهِ)** لأنَّ الجزاءَ بحسَبِ النّيّةِ، فكُنْ بهِ قريرَ عيْنٍ؛ فالقلْبُ والجَوارِحُ لا يشتَغلانِ بشيءٍ إلّا بعْدَ حُبِّهِ، وعلامةُ ذلِكَ المُسارَعةُ إليْهِ، فأوَّلُ السُّلوكِ تمكينُ محبّةِ المولَى مِنَ القلْبِ، فيكونُ العبْدُ بهِ ولهُ، لا باختيارٍ مِنْ نفسِهِ؛ ولهذا قالوا: "عليْكَ بوِرْدٍ واحِدٍ: إسقاطِ الهوى ومحبّةِ المولَى، أبَتِ المحبّةُ أنْ تستعمِلَ مُحبًّا لغيْرِ محبوبِهِ".

(والمُشتَغَلُ عنْهُ) مِنْ مُتابَعةِ الحُظوظِ العاجلةِ والمُراداتِ الزّائلةِ **(هو المُؤثَرُ عليْهِ)** بفتحِ المُثلَّثةِ، أي الذي يستحِقُّ الإيثارَ عليْهِ، فطِبْ بهِ نفسًا. وقد ركَّبَ اللهُ في العوالمِ غيْرةً توجِبُ عدمَ الإقبالِ على غيْرِ منْ أقبلَ عليْها، وبعكسِهِ؛ فإنْ أردْتَ شغْلَ عوالمَكَ عنْ شيءٍ، فآثِرْ عليْهِ مُقابلَهُ تنساهُ، فمنْ آثَرَ الآخرةَ تركَ الدُّنْيا، ومنْ آثَرَ اللهَ على حُظوظِهِ تركَها، ومَنْ آثَرَ العُبوديّةَ للهِ، نسي حظَّ نفسِهِ.

(ومنْ أيقَنَ أنَّ اللهَ يطلُبُهُ صَدَقَ الطَّلَبَ إليْهِ) أي إلى اللهِ على حسَبِ ما أيقَنَ بهِ مِنْ طلبِهِ، فمَنْ أيقَنَ أنَّهُ يطلُبُهُ بعُبوديَّتِهِ، صدقَ الطَّلَبَ في عُبوديَّتِهِ، أو لقُربِهِ صدقَ الطَّلَبَ إليْهِ في وُجودِ قُربِهِ، أو لجَنَّتِهِ صدقَ الطَّلَبَ إليهِ بالعمَلِ في تصديقِ كلِمَتِهِ، أو بحُقوقِهِ صدَقَ الطَّلبَ

إليْهِ لتحصيلِ سَلامَتِهِ، أو لكَرامَته صدقَ الطَّلبَ إليْهِ في تحقيقِ كرامتِهِ، وصِدْقُ الطَّلَبَ بحُسْنِ العمَلِ، ودوامِ اللَّجأ، وصِدْقِ التَّوكُّلِ.

(ومَنْ علِمَ أنَّ الأُمورَ بيَدِهِ انجمعَ بالتَّوكُّلِ عليْهِ)، ورجَعَ بالتَّفويضِ إليْهِ في زَوالِ هُمومِهِ وتيسيرِ أُمورِهِ، والتَّفويضُ أصْلُ التَّوكُّلِ، والتَّوحيدُ أصْلُ التَّفويضِ، وهو العِلْمُ اليَقينُ بأنَّ الأُمورَ كُلَّها، دقيقَها وجليلَها، بيدِهِ تعالى، لا مُعقِّبَ لحُكْمِهِ، ولا رادَّ لأمْرِهِ.

***

ثُمَّ سلَّى السّالكَ عمّا يفوتُهُ حالَ سُلوكِهِ مِنْ حُظوظِهِ وشَهَواتِهِ بقولِهِ:

(وأنَّهُ لا بُدَّ لبناءِ هذا الوُجودِ أنْ تنهَدِمَ دعائِمُهُ) إذْ كُلُّ آتٍ قريبٌ، فكيْفَ يُعتمَدُ عليْهِ؟ **(وأنْ تُسلَبَ كرائمُهُ)** فكيْفَ يُمكِنُ عاقلًا الاغترارُ بهِ؟ فالعُمْرُ وإنْ طالَ فما تحتَهُ طائلٌ، وكُلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلٌ، سفينتُهُ يسري ولا يدري، فترصَّدْ للموتِ، فلكُلِّ طالعٍ أُفولٌ، وتزوَّدَ لدارِ الإقامةِ، فلكُلِّ غائبٍ قُفولٌ، اتَّخِذِ الدُّنيا طريقًا مسلوكًا لا بيتًا مملوكًا؛ فهي حانوتٌ لا يُطرقُ إلّا للتِّجارةِ، ومنزلٌ لا يُسكَنُ إلّا بالإجارةِ، ما هذه الحياةُ الفانيةُ إلّا أنفاسٌ تتردَّدُ وستَنْقطِعُ، وقاماتٌ تتمدَّدُ ثُمَّ تنقلِعُ، فهل أدركَ الآمِلُ أمَلَه قبْلَ أنْ يبلُغَ الكتابُ أجلَهُ، هل مَلأَ الحيُّ أذيالَه إلَّا مَلأَ الأجلُ مِكيالَه، فاغْتَنِمِ الخَمْسَ قبلَ الخَمْسِ[1]، وأدْرِكْ عصْرَكَ قبلَ غُروبِ الشَّمْسِ، تُشبِعُكَ قُرصةٌ، فلا تفوتُكَ فُرصةٌ، إنْ أدركْتَها فهي النَّيْلُ كُلُّ النَّيْلِ، وإنْ فاتَتْكَ فالويْلُ كُلُّ الويْلِ، هو الزَّمانُ لا يعطِفُ في مسيرِهِ، والدَّهْرُ لا يرأفُ بأسيرِه، قالَ تعالَى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤].

(فالعاقِلُ مَنْ كانَ بما هو أبقى أفرحُ مِنْهُ بما هو يفنَى) وإنْ كانَ الفاني أعلى وأنفسَ، فكيْفَ والأمرُ بالعكْسِ؟! وفرحُهُ بالفاني موجِبٌ للزِّيادةِ في همِّهِ وغمِّهِ إذا فقدَهُ. قالَ سهلٌ: "مَنْ فرِحَ بغيْرِ مفروحٍ بهِ استَجْلَبَ حُزنًا لا انْقِضاءَ لهُ".

---

(١) إشارة لحديث المصطفى ﷺ: (اغتنم خمسًا قبل خمسٍ ...) أخرجه الحاكم وصححه (٤/٣٠٦)، وغيره.

وقالَ ابنُ عربي: "كُلّ ما برزَ وتفرَّقَ لا بُدَّ مِنْ رُجوعِهِ إلى محلِّ بُروزِهِ"، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]؛ فالدُّنيا فانيةٌ حقيرةٌ، ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [القصص: ٦٠]، وإذا لم تزهدْ في دنيءِ الدُّنْيا الدَّنيّةِ، فأنْتَ بعيدٌ عنْ خيْرِ الآخرةِ العَليّةِ.

وخُلوُّ قلبِكَ مِنَ المُبغَضةِ إلى المولى أحرى بك أيُّها الغافلُ وأولى، وزهرةُ الدُّنْيا ذُبولُها سريعٌ، والمُغتَرُّ بها وضيعٌ، والغنيُّ بها فقيرٌ، والعزيزُ فيها حقيرٌ.

الدُّنْيا وسيلةُ الآخرةِ، فلا تجعلِ الوسيلةَ مقصدًا. أبناءُ الدُّنْيا عبيدُ الشَّهَواتِ، وأهلُ الآخرةِ مُلوكٌ وساداتٌ. عيْشُ أهْلِ الدُّنْيا بالتَّعَبِ والنَّكَدِ، وعيْشُ أهْلِ الآخرةِ بالهناءِ والمدَدِ. أربابُ الدُّنْيا أرِقّاءُ الرياءِ والنِّفاقِ، وإخوانُ الآخرةِ خُلَّصٌ مِنْ دناءةِ الأخلاقِ، قالَ سهْلٌ: "للعقْلِ ألْفُ اسمٍ، ولكُلِّ اسمٍ مِنْها ألفُ اسمٍ، وأوَّلُ كُلِّ اسمٍ مِنْهُ ترْكُ الدُّنْيا".

(**قدْ أشْرَقَ**) ممَّا هو أبقى (**نورُهُ**)، فرأى كُلَّ شيءٍ على حقيقتهِ، (**وظهَرَتْ تباشيرُهُ**) أي ما يُبشِّرُهُ بالوُصولِ لربِّهِ، وهو إعراضُهُ عنِ الدُّنْيا، وإقبالُهُ على الآخرةِ، أو ظهَرَتْ تباشيرُهُ بأحكامِ البداياتِ، إذْ صَدقَ الطَّلَبَ لمولاهُ وتوكَّلَ عليْهِ.

(**فصدفَ عنْ هذهِ الدّارِ**) بما فيها (**مُغْضيًا**) غاضًّا طرَفَهُ أو مُغمِضًا لهُ، تأكيدًا في الإعراضِ عنها لما علِمَ مِنْ قُبْحِها، (**وأعرضَ عنْها**) بوجْهِ قلبِهِ (**موليًا**) عنها هارِبًا مِنْها طلبًا للرّاحةِ والسَّلامةِ، قالتْ رابعةُ: "يا لها مِنْ عُقولٍ ما أنقصَها! سُكّانُ دارٍ نوديَ فيهِمْ بالرَّحيلِ، وهُمْ في لهوِهِمْ يلعَبون، كأنَّ المُرادَ غيرُهُمْ، والنِّداءَ ليْسَ فيهِمْ، والمعنيَّ سِواهُمْ".

(**فلمْ يتَّخذْها وطنًا**) يعزُّ عليْهِ فِراقُهُ، (**ولا جعَلَها سَكَنًا**) يضيقُ بفراقِهِ نطاقُهُ، يعني رفَعَ هِمَّتَهُ عنْها، فلمْ يطمئنَّ إليْها، وإنْ كانَتْ بيَدِهِ فهو بمعْزِلٍ عنْها، لا يعتَدُّ بموجودِها، ولا يأسَفُ على مفقودِها، بلْ يراها سِجْنًا، ويرى نفسَهُ فيها غريبًا، كما قيلَ:

ما للغَريبِ وللتَّصابي والهَوى * وكَفاهُ ذُلًّا أنْ يُقالَ غَريبُ

فشأنُكَ أيُّها الغَريبُ أنْ لا تُنازِعَ أحدًا في دارِهِ.

وهذهِ علامةُ تحقُّقِهِ بالزُّهدِ فيما يفنى، فلمّا وصلَ لذلكَ حصلَ لهُ مِنْ طهارةِ قلبِهِ وصِقالتِهِ ما حملَهُ على التَّعلُّقِ بمَوْلاهُ الباقي الدّائِمِ.

***

ثُمَّ أشارَ إلى ابتداءِ سعيِهِ إلى حضْرتِهِ العَليّةِ بقولِهِ:

(بلْ أنهضَ الهِمّةَ فيها إلى اللهِ) بالعمَلِ بما أمرَهُ امتِثالًا، والرُّجوعِ إليْهِ في مُرادِهِ تفْويضًا واتِّكالًا، فمنْ توهَّمَ -كما قالَ الجريريُّ- أنَّ عملًا مِنْ أعمالِهِ مُوصِلُهُ إلى مأمولِهِ، فقدْ ضلَّ عنْ طريقِهِ.

(وصارَ بهِ مُستَعينًا في القُدومِ عليْهِ) في هذهِ الدّارِ بالهِمّةِ والبَصيرةِ والإقبالِ، وفي تِلْكَ بالمواجَهةِ والعَيانِ لعلْمِهِ بأنَّ الأُمورَ بيَدِهِ، ومصدَرَها عنْ قضائِهِ، ولا عاصِمَ مِنْ أمرِهِ إلّا مَنْ رحِمَ، ولا سببَ لذلكَ إلّا الاعتِصامُ بهِ ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ﴾ [آل عمران: ١٠١].

(فما زالَتْ مطيّةُ عزمِهِ لا يقَرُّ قرارُها) لانْصِرافِ عوائِقِها؛ لأنَّ مددَها مِنْ فضْلٍ دائِمٍ، والعزْمُ يُنْتِجُ الهِمّةَ، فحيْثُ توجَّهْتَ كانَ تبَعًا.

(دائمًا تسيارُها) لحُصولِ الأمْنِ في طريقِها لربِّها، فلا تزالُ هِمَّتُهُ في ترقٍّ وتَرْحالٍ، حتَّى تصِلَ لموقِفِ التَّنزيهِ المُطلَقِ كما قالَ:

(إلى أنْ أناخَتْ بحضْرةِ القُدْسِ، وبِساطِ الأُنْسِ)، يعني أناخَتْ رَكائِبُ النُّفوسِ ومطايا القُلوبِ في دائرةِ التَّقْديسِ المُطْلَقِ، تقديسِ العَبْدِ لمولاهُ حتَّى لا يعصيَهُ، ثُمَّ حتَّى لا يلتفتَ لغيْرِهِ، ثُمَّ حتَّى لا يركَنَ لسِواهُ، ثُمَّ حتَّى لا يرى إلّا إيّاهُ، ثُمَّ حتَّى يفنَى فيهِ، ثُمَّ حتَّى يفنى في فنائِهِ وعنْ فناءِ فنائِهِ، فيعودَ إليهِ بتقْديسِهِ عنِ العُبوديّةِ للغيْرِ، وتنزيهِهِ عنْ مُخالَفةِ الأمْرِ والنَّهْيِ، وذلِكَ هو بِساطُ الأُنْسِ بالحقِّ، ولا يزالُ بهِ التَّقْديسُ إلى موقِفِ العجْزِ، لا غايةَ ولا نِهايةَ لهُ؛ فحضرةُ القُدْسِ وبِساطُ الأُنْسِ هُما موضِعُ حطِّ الرِّحالِ وبُلوغِ الآمالِ.

***

فلمّا وصلَ إلى هذهِ الحضْرةِ العَليّةِ، ونالَ هذهِ المَنْقَبةَ السَّنيّةَ، قوبِلَ بأنْواعِ الكَراماتِ والألْطافِ، وفُنونٍ مِنْ تُحفِ السّاداتِ والأشْرافِ، بيَّنَها بقَوْلِه:

(**محلّ المُفاتَحة**) أي مُبادأةِ العبْدِ بما فيه على بساطِ الضَّراعةِ وبثِّ الشَّكوَى، فيُناديهِ الحقُّ بمعاني أسمائِهِ وصِفاتِهِ ليرتاحَ لذلِكَ وينسَى كُلَّ شيءٍ بهِ، (**والمواجَهةِ**) أي مُقابَلةِ القلْبِ بمُلاحظةِ الرَّبِّ دون التِفاتٍ لغيْرٍ ولا غفْلةٍ عنْ ذِكْرٍ، فيواجِهُهُ الرَّبُّ بأنْوارٍ، ويُقابِلُهُ بأسرارٍ، حتَّى لا يرى سِواهُ، ولا يشهَدَ إلّا إيّاهُ، (**والمُطالَعةِ**) بمعاني أوصافِهِ على بِساطِ أوصافِكَ، (**والمُشاهَدةِ**) بكشْفٍ لا يصحبُهُ وهمٌ ولا يُداخِلُهُ شكٌّ، (**والمُحادَثةِ**) للإسرارِ بأسرارِ الحقِّ ومعاني الأذكارِ، (**والمُجالَسةِ**) بمُلازَمةِ القلْبِ للذِّكْرِ بلا غفْلةٍ، فيُكرَمُ إكرامَ الجليسِ.

قالَ الشّارِحُ: "وهذهِ معانٌ لا يُمكِنُ فهمُها حقَّ الفَهْمِ إلّا بالذَّوْقِ، وفهمُها على ظاهِرِها لا يُمكِنُ، وتأويلُها بغيْرِ معاني الأسماءِ غلطٌ وجهلٌ، وكلامُنا فيها بقدْرِ فهمِنا، وإنْ كانَ بعيدًا مِنَ الحقِّ، فالأُنْسُ بهِ لا يضُرُّ".

(**فصارَتِ الحضْرةُ**) التي هي دائرةُ التَّقديسِ المُتقدِّمةِ، بعدَ أنْ ألقَوْا عَصيَّ سيرِهِمْ وجهَدوا عاقِبةَ أمرِهِمْ (**مُعَشَّشَ قُلوبِهِمْ**) أي محلَّ التَّعشيشِ، أي التَّوكيرِ، الذي يُرجَعُ إليْهِ في ذِهابِهِمْ وإيابِهِمْ.

(**إليْها**) أي إلى طلَبِها (**يأوونَ**) في ليْلِ الفِتَنِ إذا صَلِيَ غيرُهُمْ بنيرانِ هواهُ، (**وفيها**) أي في دارِ الإقامةِ (**يسْكُنونَ**) في نهارِ العافيةِ، إليْها يأوون في نهارِ الإقبالِ، وفيها يسكُنون في ليْلِ الإدبارِ، إليْها يأوون في نهارِ الحُضورِ، وفيها يسكُنون في ليْلِ الغيْبةِ، إليها يأوون بامتِثالِ أمرِهِ، وفيها يسكُنون امتِثالًا لقهْرِهِ، إليْها يأوون شُكرًا لنِعمَتِهِ، وفيها يسكُنون لمُكالَمتِهِ.

والحاصِلُ أنَّهُ لا يشْغَلُهمْ عنهُ شاغِلٌ، ولا يلفِتُهُمْ عنهُ ناقِصٌ ولا كامِلٌ، وهُنا حصلَ لهم التَّحقُّقُ بمقامِ الفَناءِ والمحْوِ، وهو انتِهاءُ سفَرِهِمْ بمعنى التَّرَقّي.

***

ثُمَّ أشارَ إلى سفرِ التَّدلِّي، وبهِ يتحقَّقون بمقامِ البَقاءِ والصَّحْوِ بقولِه:

(فإنْ نزلوا) مِنْ سِدْرةِ المُنتَهَى **(إلى سماءِ الحُقوقِ)** التي للهِ عليهِمْ ممَّا أمرَهُمْ بهِ أو نهاهُمْ عنهُ، ليَقوموا بذلِكَ فِعلًا أو تركًا، **(وأرْضِ الحُظوظِ)** الجُسمانيَّةِ أو النَّفْسانيَّةِ التي تُلابِسُهُمْ ويحصُلُ لهمُ الارتِفاقُ بها، **(فبالإذْنِ)** الذَّوقِي، الذي هو قوَّةٌ يجِدُها الوَلِيُّ في نفسِه، لا شكَّ في حقيقتِها، وقيامُ خاطِرٍ لا يُمكِنُ ردُّهُ ولا يَسْتَنِدُ إلى شيءٍ، **(والتَّمْكينِ)** الشَّرعيِّ، **(والرُّسوخِ)** في اليَقينِ، أي الثُّبوتِ فيهِ بحيْثُ لا تؤثِّرُ فيهِ العَوارِضُ، فحُصولُ الإذْنِ بذلِكَ يجِدونَهُ بما يُشرِفُ في قُلوبِهِمْ مِنَ الأنْوارِ المجعولةِ علمًا على ذلِكَ، استَعارَ السَّماءَ للحُقوقِ لجلالتِها، والأرضَ للحُظوظِ لدنائتِها، والنُّزولُ إليها إنَّما هو مِنْ عرْشِ الحقيقةِ؛ فالعارِفُ مسكَنُهُ عرشُ الحقيقةِ، ولا بُدَّ لهُ مِنْ سماءِ الحُقوقِ لحقِّ العُبوديّةِ، وأرضِ الحُظوظِ للقيامِ بحقِّ البَشَريّةِ، فإذا نزلَ لم يزلْ على حُكْمِ منزِلِهِ، ولا ينزِلُ مِنْهُ إلا بإذْنٍ؛ لأنَّهُ بِساطُ الكَرامةِ.

(فلمْ ينزلوا إلى الحُقوقِ بسوءِ الأدَبِ) المُقتَضي لعَدَمِ اتِّباعِ الشَّرْعِ في القيامِ بها، **(والغفْلةِ)** المُقتَضيةِ لوُجودِ الدَّعْوَى ونِسْيانِ مِنّةِ المولى، **(ولا إلى الحُظوظِ بالشَّهوةِ والمُتعةِ)** المُقتَضييْنِ لنِسْيانِ المولَى وترْكِ الأَهَمِّ والأولى، بلْ نزلوا للحُقوقِ بالذِّكْرِ والأدَبِ، وللحُظوظِ بالشُّكْرِ والافتِقارِ، إعمالًا لما واجهَهُمْ مولاهُم مِنَ الأمرِ في الأوَّلِ، ولما حَكَمَ عليهِمْ بهِ مِنَ القهْرِ في الثّاني، مُستَشْعِرينَ قهرَهُ وبِرَّهُ فيهما؛ فالحُقوقُ تَزيدُهُمْ فائدةً، والحُظوظُ أكبَرُ نفْعٍ وعائِدةٍ، **(بلْ دخلوا في ذلِكَ كُلِّه باللهِ)** مُستَعينينَ، **(وللهِ)** عامِلينَ؛ فالأوَّلُ حقيقةٌ والثاني شريعةٌ، **(ومِنَ اللهِ)** شهِدوا دُخولَهُمْ لا مِنْ أنْفُسِهِمْ، **(وإلى اللهِ)** توجَّهوا بذلِكَ ورجِعوا إليْهِ، لا بِهِم ولا لَهُم ولا إليْهِم، قد شهِدوهُ في الكوْنِ وعِنْدَهُ، وقبْلَهُ وبعدَهُ، على اختِلافِ مراتِبِهِمْ، فهُمْ كما قالَ القائِلُ:

للهِ تحْتَ قِبابِ العِزِّ طائِفةٌ * أخفاهُمُ في رِداءِ الفقْرِ إجلالا

قد تولَّى اللهُ إدخالَهُمْ في الأشياءِ وإخراجَهُمْ منها، وعزَمَ عنهم مَلَكَةَ نُفوسِهِمْ لهم، فصاروا أحرارًا.

قالَ بعضُهم: "إذا تحقَّقَ العبْدُ بهذا المقامِ كانَ مشْهَدُهُ السِّرَّ القائِمَ بالذَّواتِ، لا الذَّواتِ، فلا يرى شيئًا غيْرَ ذلِكَ السِّرِّ حتَّى يشْتغِلَ بِهِ عنِ اللهِ، فيُمسكُ الدُّنْيا قاصِدًا كفَّ نفسه عنْ سؤالِ الخلْقِ وتحمُّلِ منَّتِهِمْ، وإنفاقِها في سبيلِ اللهِ، والفوزِ بلذَّةِ خطابِ الحقِّ بقولِهِ: ﴿أَقْرَضُوا اللَّهَ﴾ [الحديد: ١٨]، فإنَّهُ لم يُخاطِبْ بهِ إلّا ذا مالٍ، وتزاحَمَ على الرِّياسةِ قاصِدًا التَّخلُّقَ بها مِنْ حيْثُ كونُها مِنْ أخلاقِهِ تعالى، لا تفوُّقَ نفسِهِ على غيْرِهِ.

***

ثُمَّ أشارَ إلى قِسْمَتِهِ السَّفريْنِ، المذكورين بالمُدخَلِ والمُخْرَجِ، بالاقتِباسِ مِنْ قولِهِ تعالَى:

﴿**وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ**﴾ وهو أنْ تَدْخُلَ في الأشياءِ لا بنَفْسِكَ، ﴿**وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ**﴾ وهو أنْ تخْرُجَ لا بنَفْسِكَ، وبذلِكَ يتحقَّقُ كونُهُ باللهِ، وللهِ، ومِنَ اللهِ، وإلى اللهِ؛ لأنَّهُ طلبَ ما هو المطلوبُ منهُ، كما أمرَهُ ربُّهُ بطلبِهِ، فهو داخِلٌ فيه باللهِ، طالبًا للصِّدْقِ للهِ؛ فالإدخالُ والإخراجُ مِنَ اللهِ، هذا معنى ما ذكرَهُ في التَّنويرِ، وقالَ هُنا:

(**ليكون نظري إلى حولِكَ وقوَّتِكَ**) لا إلى نفسي (**إذا أدخَلْتَني**) في مُدخَلِ سفرِ التَّرقِّي؛ سمّاهُ بذلِكَ لأنَّهُ دُخولٌ على اللهِ في حالِ فنائِهِ عنْ رؤيةِ غيْرِهِ.

(**واستِلامي وانْقيادي إليْكَ**) لا إلى حظِّي (**إذا أخرَجْتَني**) إلى سفرِ التَّدلِّي؛ سمّاهُ بذلِكَ لأنَّهُ خُروجٌ إلى الخليقةِ، لإفادةِ الإرشادِ والهِدايةِ حالَ بقائِهِ بربِّهِ، ﴿**وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا**﴾ [الإسراء: ٨٠]، مُعينًا قويًّا بلا سبَبٍ مني، وهو ما أشرقَ مِنْ نورِ معرِفَتِكَ على وُجودي، (**حتَّى تنصُرَني**) في نفسي على كُلِّ عدوٍّ، مُتَّصِلٍ أو مُنفَصِلٍ، مِنْ نفْسٍ وخلْقٍ وشيْطانٍ وغيرِهِمْ، وطلبُ النُّصْرةَ لنفسِهِ مِلاكُ أربابِ البدايةِ مِنَ السّالكينَ، إذ بذلِكَ يُمكِنُهُمْ قطعُ عَقباتِ النَّفْسِ ومحْوُ دَواعي الهوى، (**وتنصُرَ بي**) مَنْ شئتَ مِنْ طالِبٍ ومُحِبٍّ وصديقٍ وصادِقٍ؛ لأنَّ ضيْفَ الكِرامِ يضيفُ، وليسَ الرَّجُلُ مَنْ نُصِرَ في نفسِهِ، بلْ مَنْ نُصِرَ بهِ غيرُهُ، وطلبُ النُّصْرةِ بهِ مُقتَضَى حالِ أهلِ النِّهايةِ مِنَ المُحقِّقينَ، إذ بهِ يحصُلُ لهُمْ رُتبةُ الإمامةِ، ومقامُ الإرشادِ والهِدايةِ، (**ولا تنصُرَ عليَّ**) أحدًا مِنْ أعدائي؛ لأنَّ ذلِكَ مِنَ الخِذْلانِ وعدمِ التَّوفيقِ.

ثُمَّ طلبَ نصرًا خاصًّا، وهو أعظمُ أبوابِ النَّصْرِ، فقالَ: **(تنصُرَني على شُهودِ نفْسي)** حتَّى أراها على حقيقةِ الأمرِ مِنْ كمالِها؛ فأرفَعَ هِمَّتي عنِ الخلْقِ، وعلى حقيقةِ الأمرِ من نقصِها، فلا أدَّعي شيئًا، ولا أرى لها نِسْبةً ولا قدْرًا، **(وتُفنيَني عنْ دائرةِ حِسّي)** حتَّى لا أعرِفَ وُجودَها فضلًا عنْ موجودِها، وبهِ يتِمُّ الأمرُ، ويحصُلُ الكَمالُ.

***

وهذا الكِتابُ كتبَهُ لبعْضِ إخوانِهِ، فقالَ: "هذا كِتابٌ تضمَّنَ حالَ السّالِكِ مِن ابْتِداءِ سفَرِهِ إلى انتِهائِهِ، وحُصولِهِ في مُستقرِّهِ، وذِكْرَ أربابِ السُّلوكِ والوُصولِ"، وقد أتى فيه كما ترى بعِباراتٍ فصيحةٍ وإشاراتٍ مليحةٍ على طريقةٍ وعْظيّةٍ، إذا سمِعَها السّامِعُ طرِبَ قلبُهُ وهامَ لُبُّهُ، وما هو إلّا لما علقَ بها مِنْ أنوارِ قلبِ المُتكلِّمِ.

فائدةٌ: قالَ ابنُ عربي: "كُلُّ منْ صدقَ في احترامِ الأُلوهيّةِ، واستَحْضَرَها وكانَتْ مشهودةً لهُ؛ فالنَّصْرُ الإلهيُّ معَهُ، غَيْرةً إلهيّةً أنْ يُغلَبَ منِ استَنَدَ إلى الحقِّ، ولو في زعمِهِ؛ ولهذا كانَتِ الغلَبةُ للمُشركِينَ في بعْضِ المواطِنِ".

***

[الكتاب الثاني]

وقالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ممّا كتبَ به لبعضِ إخوانِه، وهو كتابٌ ضمَّنَهُ اختلافَ النَّظَرِ في المِنّةِ، وأصلَ ذلكَ وفرعَهُ، ومبادِئَهُ الحاليّةَ والشَّرْعيّةَ، وضمَّنَهُ الحقيقةَ والشَّريعةَ ومقامَ الشُّكْرِ، وهو أساسُ الطَّريقِ.

(**إنْ كانَتْ عيْنُ القلْبِ**) أي: البَصيرةُ (**تنظُرُ إلى أنَّ اللهَ واحِدٌ في مِنَّتِه**) اعتِبارًا بالحقيقةِ المُستَفادةِ مِنَ العِلْمِ والقُدرةِ والإرادةِ، فلا ترى ما منَّ عليْكَ به مِنْ نعمةٍ على يدِ خليقَتِه **إلّا منْهُ وحْدَهُ**، وترى مَنْ سِواهُ ممَّنْ أُجريْتَ على يدِه مجبورًا مُسلَّطًا عليْه الدَّواعي والبواعِثُ، وهذا هو حقُّ التَّوحيدِ، (**فالشَّريعةُ تقتَضي أنَّهُ لا بُدَّ مِنْ شُكْرِ**) مَنْ وصلَ على يدِه مِنْ (**خليقتِه**) قيامًا بحقِّ الحِكْمةِ، وتثبُّتًا في حِفْظِ الحُرمةِ، وليْسَ أحدُهُما أولَى مِنَ الآخَرِ، إذْ تركُ الأوَّلِ تعطيلٌ لوصفِه بالقُدْرةِ، والثّاني تعطيلٌ لوصفِه بالحِكْمةِ، وهذا حقُّ الشَّرْعِ.

***

ثُمَّ بيَّنَ أحوالَ النّاسِ بالنِّسْبةِ إلى مُشاهَدةِ التوحيدِ ورؤيةِ الوَسائِطِ بقولِه:

(**النّاسُ على أقسامٍ ثلاثةٍ:**) ناقِصٍ وكامِلٍ وواقِفٍ بينَهُما، فذَكَرَ الكامِلَ آخِرًا، والمُتوسِّطَ وسَطًا، والنّاقِصَ أوَّلًا، فقالَ:

(**غافِلٌ مُنهَمِكٌ في غفْلَتِه**) مغلوبٌ بشهْوتِه، (**قويَتْ دائرةُ حِسِّه**) أي عوالِمُ حِسِّه، فوقفَ معَها وتقيَّدَ بها، فلم يعرِفْ غيْرَ ما بدرَ عليْها مِنْ نحوِ أكلٍ وشُربٍ وجِماعٍ، مِنْ حيْثُ هو لا مِنْ حيْثُ المِنّةُ به، (**وانْطَمَسَتْ**) ارْتَفَعَتْ (**حضْرةُ تقديسِه**) فأُبْعِدْتَ، فلم يُشاهِدْ للحقيقةِ وجْهًا، ولا نظرَ للشَّريعةِ محلًّا، بل عميَ عنِ الحقِّ فكانَ في الحضيضِ الأسفَلِ لبُعدِه وجهْلِه.

(**فنظرَ الإحسانَ مِنَ المخْلوقينَ**) وُقوفًا معَ الوهْمِ، فتعبَّدَ لهم وطمِعَ فيهم، (**ولم يشهَدْهُ**

مِنْ ربِّ العالَمينَ) فكفرَ نِعمَتَهُ، واستَوْجَبَ سخطَهُ ونعمته ونِقمَتَهُ، يعني نظرَ الإحسانَ ممَّنْ وصلَ على يديْهِ لا ممَّنْ أَرسَلَ إليْهِ، وذلكَ لبُعْدِ فهمِهِ، وغلبةِ وهمِهِ ونظرِهِ لذلكَ، ثُمَّ هو نوعانِ:

(**إمّا اعتقادًا**) بقلبِهِ أنَّهُمُ الفاعِلون حقيقةً (**فشِرْكٌ جليٌّ**) يُخرِجُهُ عنْ دائرةِ التَّوحيدِ، ويوضِعُهُ في الكُفْرِ، فهو قادِحٌ في الإيمانِ لنسبتِهِ لغيْرِ اللهِ ما هو مِلْكٌ للهِ، (**وإمّا استنادًا**) إليهم واعتِمادًا عليهم ورُكونًا إليهِمْ معَ اعتِقادِ أنَّ الفاعِلَ هو اللهُ (**فشِرْكٌ خَفيٌّ**) وهو غيرُ قادحٍ في الإيمانِ، والفرْقُ بينَهُما اعتِقادُ التَّأثيرِ في الأوَّلِ، وهو كُفْرٌ، واعتِقادُ الارتِباطِ في الثّاني بحُكمِ سُنَّةِ اللهِ، معَ اعتِقادِ أنَّ الكُلَّ مِنهُ وإليْهِ، وهذا أكثَرُ أحوالِ العَوامِّ.

(و) الثّاني: (**صاحِبُ حقيقةٍ غابَ عنِ الخلْقِ**) فلم يقعْ لهُ شُعورٌ بهم ولا التِفاتٌ إليهِم، (**بشُهودِ الملِكِ الحقِّ، وفنيَ عنِ الأسبابِ بشُهودِ مُسبِّبِ الأسبابِ**) فلم يرَ لها فِعْلًا، فهو رجُلٌ غلبَتْ عليْهِ الحقيقةُ، فنظرَ إلى جانبِ الحقِّ، وأهملَ جانبَ الخلْقِ، فلم يرَ إحسانًا مِنْ غيْرِهِ، ولم يشهدْ مُحسِنًا سِواهُ؛ لرؤيَتِهِ انفرادِ الحقِّ في مِنَّتِهِ، وأنَّهُ لا شريكَ في تصرُّفِهِ.

(**فهذا عبْدٌ مواجَهٌ بالحقيقةِ، ظاهِرٌ عليهِ سناها**) أي نورُها، يعني أنَّ الحقيقةَ واجهَتْ قلبَهُ، فلم يُمكِنْهُ انفِكاكٌ ولا خُروجٌ عنها بوجْهٍ، وذلكَ ظاهِرٌ مِنْ حالِه، فسَنا الحقيقةِ -أي ضياؤها- بانَ عليْهِ، وهو التَّعلُّقُ بربِّهِ بلا عِلَّةٍ، (**سالِكُ الطَّريقةِ**) إذ ظهرَ مِنهُ مقصودُها، وهو الاعتِمادُ على مولاهُ بلا واسِطةٍ، (**قد استَولَى على مَداها**) أي وصلَ غايَتَها؛ لأنَّهُ لم يسبِقْ لهُ مِنْ درَجاتِ الكَمالِ إلّا البَقاءُ باللهِ، لكنَّهُ وإنْ كانَ كامِلًا فليْسَ بأكمَلَ كما قالَ:

(**غيرَ أنَّهُ غريقٌ في**) بحرِ (**الأنوارِ**) الذي هو معاني الأسماءِ والصِّفاتِ، (**مطموسُ الآثارِ**) التي هي سَواحِلُ السَّلامةِ، المُقتَضي لرُجوعِ العبْدِ إلى حدِّهِ؛ فالمُرادُ: أنَّهُ لم يقِفْ بساحِلِ الآثارِ الذي هو موقِفُ النَّجاةِ، كما قالَ أبو يزيدَ: "خُضْتُ بحرًا وقفَ الأنْبياءُ بساحِلِه"، وهذا اعترافٌ منهُ بالنَّقصِ؛ لأنَّ خَوْضَ البحرِ جَهْلٌ بهولِهِ، والوُقوفَ بساحِلِهِ مِنَ المعْرِفةِ بقدْرِهِ، فالخائضُ يُلْقي نفسَهُ للتَّهلُكةِ، والواقِفُ قائمٌ معَ النَّجاةِ، ويتمكَّنُ مِنِ استِخْراجِ حِليَتِهِ وطَعامِهِ، بخِلافِ الخائِضِ.

(قدْ غلبَ سُكْرُهُ) بخمْرِ الحقيقةِ وهو وُجودُ إحساسِهِ بها، **(على صَحْوِهِ)** لأحكامِ الشَّريعةِ، **(وجمْعُهُ)** وهو ثُبوتُ وُجودِ الحقِّ فردًا، **(على فرقِهِ)** وهو ثُبوتُ وُجودِ الخلْقِ، **(وفناؤُهُ)** وهو استِهلاكُهُ في شُهودِ الحقِّ، **(على بقائهِ)** وهو شُعورُهُ بالخلْقِ، **(وغيْبَتُهُ)** وهو ذهابُ أحوالِ الخلْقِ مِنْ نظَرِهِ، **(على حُضورِهِ)** معهم.

ومعاني هذهِ الألفاظِ مُتقاربةٌ، وقيلَ:

- السُّكْرُ: غلبةٌ تمنعُ مِنَ التَّصرُّفِ بالاختيارِ، والصُّحْوُ: حالةٌ تقتضي التَّصرُّفَ بهِ،
- والجمعُ: شُهودُ الخلْقِ بالحقِّ، والفرْقُ: شُهودُ الخلْقِ والحقِّ،
- والفَناءُ: شُهودُ حقٍ بلا خلْقٍ، والبَقاءُ: رؤيةُ الخلْقِ بالحقِّ،
- والغيْبةُ: عدمُ الشُّعورِ بالخلْقِ، والحُضورُ: الشُّعورُ بوُجودِهِمْ معَ الحقِّ.

والمُعتَبرُ جرَيانُ ذلكَ بالتَّصرُّفِ، فمنْ لمْ يُمكِنْهُ ضبْطُ نفسِهِ معَ وعيِهِ، فهو سكْرانُ، ومَنْ تصرَّفَ مُختارًا فهو صاحٍ، ومنْ شهِدَ أفعالَ الخلْقِ جاريةً عليهم فهو المجموعُ، ومنْ شهِدَ لهم نِسبةً في شيءٍ فهو المُفرِّقُ، ومن لم يرَ لهم نِسبةً فهو الفاني، ومنْ رأى وُجودَهُمْ راجِعًا إليْهِ، فهو الغائبُ الباقي في عيْنِ فنائِهِ، ومنْ لم يكُنْ لهُ شُعورٌ بشيءٍ فهو الغائبُ؛ فإن مشَى في كُلِّ شيءٍ بالتَّوحيدِ فحاضِرٌ.

(و) [الثالثُ]: **(أكمَلُ منهُ: عبْدٌ شرِبَ)** مِنْ خمْرِ الحقيقةِ **(فازدادَ صَحْوًا)** بماءِ الشَّريعةِ، **(وغابَ)** عنِ الخلْقِ **(فازدادَ)** بشُربِهِ **(حُضورًا)** معهم بالحقِّ؛ فالحقيقةُ خمرٌ، مَنْ شربَها خِلسةً فسَكِرَ، كان حدُّهُ قتلَهُ، ومنْ تجَوْهَرَ مِنْها أو مَزَجَها بماءِ الشَّريعةِ، كانَ حدُّهُ حافِظًا لهُ عنْ حدِّهِ.

(فلا جمعُهُ يحجُبُهُ عنْ فَرْقِهِ، ولا فَرْقُهُ عنْ جمعِهِ، ولا فناؤُهُ عنْ بقائِهِ، ولا بقاؤُهُ عَنْ فنائِهِ)، بلْ يؤكِّدُ فناءَهُ بقاؤُهُ، ويُحقِّقُ جمعَهُ فرقُهُ.

ومنْ هذا حالُهُ **(يُعْطي كُلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ)** بلا إخلالٍ ولا نقْصٍ، فيُعطي الرُّبوبيّةَ ما لها مِنْ كمالِ النِّسبةِ بكمالِ الحمْدِ والشُّكْرِ، ويُعطي الخلْقَ ما لهُمْ مِنْ مجازِ النِّسْبةِ بمجازِ الشُّكْرِ.

(**ويوفي كُلَّ ذي قِسْطٍ**) مِنَ المراتِبِ (**قِسْطَهُ**)، إنْ شكرَ الخَلْقَ فللحقِّ، وإنْ شكرَ الحقَّ فمحْضُ عُبوديّةٍ لا لموافاةِ الحقِّ؛ إذْ كُلُّ نِعمةٍ في ذاتِها لا تُحصَى تفاصيلُها.

(**ويُعطي كُلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ**) منها لاستيفائِهِ حُقوقَ جميعِها، وذلكَ لاتِّساعِ نظَرِهِ، ونُفوذِ بصَرِهِ، وهذا شأنُ خاصّةِ الخاصّةِ، وهو نعتُ الصِّدّيقِ في القِصّةِ الآتيَةِ التي مثَّلَ بها المؤلِّفُ لهذيْنِ القِسمَيْنِ.

***

تنْبيهٌ: قالَ بعضُ العارفِينَ: المُريدُ في بدايةِ سُلوكِهِ يلزمُهُ ترْكُ الشَّهَواتِ، فلا يشْرَبُ ماءً مُبرَّدًا ولا يضَعُ جَنْبَهُ الأرْضَ، ثُمَّ إذا انتهى سُلوكُهُ وحصلَ لهُ مقامُ المعرفةِ أُمِرَ بالإحسانِ لنفسِهِ، فيأكُلُ الشَّهيَّ، وينامُ على الفِراشِ الوَطِيءِ، ويشرَبُ البارِدَ، وإلّا كانَ ظالما على رعيَّتِهِ ومطيَّتِهِ، فطالما أسهَرَها وأجاعَها وأعطشَها وألبسَها الخشِنَ، فلمّا وصَّلتْهُ لمقصدِهِ وهو حضرةُ العِرْفانِ، كانَتْ كأجيرٍ طلبَ أجرَهُ، فيجِبُ أنْ يُعطاهُ قبْلَ أنْ يجِفَّ عَرَقُهُ، كما في الحديثِ[1].

***

وقدْ (**قالَ الصِّدّيقُ لعائشةَ**) يعني قالَتْ أُمُّها لها بإشارَتِهِ (**لمّا نزَلَتْ براءتُها مِنَ الإفْكِ**) أي الكَذِبِ عليْها، (**على لِسانِ رَسولِهِ: يا عائِشةُ اشكري رسولَ اللهِ**) نظرًا مِنْهُ لوجْهِ الكَمالِ لها، (**فقالتْ: لا واللهِ لا أشْكُرُ إلّا اللهَ**) رُجوعًا منها إلى أصلِ التَّوحيدِ؛ إذ لم يسَعْ قلبُها غيرَهُ في ذلكَ الحالِ.

(**دلَّها أبو بكْرٍ على المقامِ الأكمَلِ**) عِنْدَ الصَّحوِ، وهو (**مقامُ البَقاءِ باللهِ**) المُقتَضي لإثباتِ الآثارِ وعِمارةِ الدّارَيْنِ التزامًا لحقِّ الحُكْمِ والحِكْمةِ؛ وإنَّما كانَ أكملَ؛ لأنَّهُ قيامٌ بحقِّ الشَّريعةِ والحقيقةِ، فلا بُدَّ مِنَ الأسبابِ وُجودًا، والغَيْبةِ عنها شُهودًا.

---

(١) أخرج الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٠١٤)، وابن عدي في الكامل (٢٢٣٥/٦)، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٢٢١/١)، والبيهقي في السنن (١١٦٥٤)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: (أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه). وفي الباب عن جابر وابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(وقدْ قالَ تعالى:) في الدَّلالةِ عليْهِ ﴿**أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ**﴾ [لقمان: ١٤]، **فجعلَ شُكْرَهُما** تابعًا لشُكْرِهِ بلا واسطة، **(وقال صلَواتُ اللهِ عليْهِ: لا يشْكُرُ اللهَ منْ لا يشْكُرُ النّاسَ)**[1] فجعلَ شُكرَ النّاسِ شرطًا لصِحّةِ شُكرِهِ، رُويَ على الخبَريّة، أي منْ لا يشْكُرُ النّاسَ لا يشْكُرُه اللهُ، وعليْهِ فالجلالةُ مرفوعٌ، ورويَ على الشَّرطيّة أي لا يصِحُّ شُكْرُ اللهِ ممَّنْ لا يشْكُرُ النّاسَ، ويؤيِّدُهُ روايةُ: (منْ لا يشْكُرُ النّاسَ لا يشْكُرُ اللهَ)[2].

(وكانَتْ هي في ذلكَ الوقْت مُصْطَلَمةً) أي مأخوذةً عنْ شاهدِها، وهو حُكْمُ بشَريَّتِها، فلم يكُنْ لها شُعورٌ بغيْرِ ربِّها **(غائبةً عنِ الآثارِ)** لما استولَى عليها منْ سُلطانِ الفرَحِ بمِنّةِ ربِّها، **(فلمْ تشهدْ إلّا الواحِدَ القهّارَ)** مِنْ غيْرِ اعتِدادٍ بغيْرِهِ، وهو كمالُها في ذلكَ الوقْتِ، وهو مقامُ الخليلِ؛ إذ قالَ: (حسبي مِنْ سؤالي عِلْمُهُ بحالي)[3].

***

(١) أخرجه أحمد (٧٥٠٤)، وأبو داود (٤٨١١)، والترمذي (٢٠٦٩)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا.

(٢) أخرجها الترمذي (١٩٥٤)، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا.

(٣) سبق تخريجه، انظر ص ١١١.

[الكتاب الثالث]

(**وقالَ لمّا سُئِلَ عنْ قولِهِ: (وجُعِلَتْ قُرّةُ عيني في الصَّلاةِ)**[1] **هلْ ذلكَ خاصٌّ بهِ؟ أمْ لغيْرِهِ منهُ شِرْبٌ**) بالكَسْرِ (**ونصيبٌ؟**) عطفُ تفسيرٍ، وهذا سؤالٌ مُتوجِّه، وقُرّةُ العيْنِ أعظمُ مفروحٍ بهِ؛ لأنَّهُ إمّا مِن "القَرّ" -بالفتحِ- الذي هو الثَّباتُ، فإنَّ عيْنَ المحزونِ والخائفِ تدورُ وتتقلّبُ، أو منْ "القُرّ" -بالضَّمِّ-: البرد؛ فإنَّ دمعةَ الفرَحِ باردةٌ والحُزْنِ حارّةٌ، (**فأجابَ**) مُجملًا ثُمَّ مُفصِّلًا، فقالَ:

(**إنَّ قُرّةَ العيْنِ**) في الصَّلاةِ مِنَ الرَّوحِ والرّاحةِ وكمالِ النَّعيمِ واللَّذّةِ الحاصِلةِ (**بالشُّهودِ**) بجَلالِ المشْهودِ، يختلفُ باختلافِ المقاماتِ والأحوالِ والمنازِلِ، (**على قدْرِ المعْرِفةِ بالمشْهودِ، والنَّبيُّ ليْسَ معرفةٌ كمعْرِفَتِهِ، فليْسَ قُرّةُ عيْنٍ**) لغيْرِهِ فيها (**كقُرَّتِهِ**) فيها، وهذا معلومٌ بالضَّرورةِ؛ فإنَّ العِلْمَ باللهِ إنَّما يوصِلُنا لهُ مِنْ قِبَلِهِ، وإنْ كانَ لنا نظرٌ ففي طرفٍ دون آخرَ.

وهذا جوابٌ كانَ عمّا بعدَهُ، لكنَّ العالِمَ يأتي في جوابِهِ بالتَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ؛ فالإجمالُ للتَّحصيلِ، والتَّفصيلُ للبيانِ. وفي الجوابِ ثلاثةُ دعاوٍ: أنَّ قُرّةَ العيْنِ في الصَّلاةِ بالتَّجلّي الحاصِلِ، وأنَّ ذلِكَ على قدْرِ المعْرِفةِ، وأنَّ الرَّسولَ ليْسَ معرِفتُهُ كغيْرِهِ، وقدْ أجابَ عنْ كُلٍّ مِنها، فقالَ في جوابِ الأوَّلِ:

(**وإنَّما قُلْنا إنَّ قُرّةَ عيْنِهِ في صلاتِهِ بشُهودِ جلالِ مشْهودِهِ؛ لأنَّهُ أشارَ إلى ذلكَ بقولِهِ:**) وجُعِلَتْ قُرّةُ عيني ("**في الصَّلاةِ**")، فجعلَها ظرفًا لقُرّةِ عينِهِ لا عيْنَ قُرّةِ العيْنِ، (**ولمْ يقُلْ "بالصَّلاةِ"**) لاقتِضائِهِ أنَّها عيْنُها فتكونُ هي المقصودةُ بالذّاتِ، لكنَّ الباءَ تقعُ بمعنى "في" وعكسِهِ، ثُمَّ قُرّةُ عيْنِهِ أنْ تكون بها مِنْ جِهةِ النَّظرِ أيْضًا.

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٩٣)، والنَّسائيُّ (٣٩٤٠)، وأبو يعلى (٣٤٨٢)، والبزّار (٦٨٧٩)، والطبرانيُّ في "الأوسط" (٥٢٠٣)، والحاكم وصحَّحه (٢/١٦٠)، وغيرهم من حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(**إذْ هو ﷺ لا تقرُّ عيْنُهُ بغيْرِ ربِّهِ**) لِما هو شأنُهُ منَ التّجلّي التّامِ والشُّهودِ الحقيقيِّ، بحيْثَ لا تُمكِنُ غفْلَتُهُ عنْهُ، ولا نظرُه لغيْرِهِ بحالٍ، (**وكيْفَ**) يكونُ ذلكَ (**وهو يدُلُّ على هذا المقامِ**) العظيمِ المنْزلةِ العليِّ المرْتبَةِ؟! (**وكيْفَ**) تقرُّ عينُهُ بغيْرِ ربِّهِ (**وهو يأمُرُ بهِ مَنْ سِواهُ**) بقولِهِ لمّا سُئِلَ عنِ الإحسانِ: ("**اعبُدِ اللهَ كأنَّكَ تراهُ**"[1]، **ومُحالٌ أنْ يراهُ، ويشهدَ معَهُ سِواهُ**) لأنَّهُ إذا ظهرَتْ صِفاتُهُ اضمَحلَّتْ مُكوَّناتُهُ.

ومنْ كانَ مقامُهُ دونَ هذا المقامِ، كانَتْ مُلائَمتُهُ وموافَقَتُهُ في شُهودِ النِّعَمِ ووُجودِ الفضْلِ والكرَمِ، وكانَتْ قُرّةُ عينِهِ بالصَّلاةِ لا فيها، لأنّها كما (**قالَ لهُ القائلُ**:) المُعتَرِضُ على ذلكَ (**قدْ تكونُ قُرّةُ العيْنِ بالصَّلاةِ؛ لأنَّها فضْلٌ منَ اللهِ، وبارزةٌ منْ عيْنِ منّةِ اللهِ**)، قالَ: (**فكيْفَ لا يفرحُ بها؟! وكيْفَ لا تكونُ قُرّةُ العيْنِ فيها؟! وقدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾** [يونس: ٥٨]) والصَّلاةُ منْ فضْلِهِ ورحْمَتِهِ!!

وهو سؤالٌ متَّجهٌ، لكنَّهُ لا ينتظمُ إلّا بتأويلٍ في معنى الباءِ، ويُعْضِّدُهُ خبرُ: (أرِحْنا يا بلالُ بالصَّلاةِ)[2]، وأُجيبُ بأنَّ الحقيقةَ أولى منَ التّأويلِ، والإراحةَ بما فيها لا بعيْنِها، وبتطرُّقِ الاحتِمالِ يسقُطُ الاستِدلالُ، فيحتاجُ لجوابٍ آخَرَ، وهو ما ذكرَهُ بقولِهِ:

(**فاعلمْ**) الجوابَ عنْ ذلكَ، وهو (**أنَّ هذهِ الآيةَ قد أوْمَأتْ إلى الجوابِ لمنْ تدبَّرَ سِرَّ الخطابِ، إذْ قالَ: ﴿فبِذَلِكَ فلْيَفْرَحوا﴾ وما قالَ: "فبِذَلِكَ فافْرَحْ"**)! لكنْ قدْ يُقالُ إنَّهُ مُرادٌ بهِ أو فيهِ، فيحتاجُ إلى تحقيقِ انْصِرافِهِ عنْهُ بعدَ بيانِ ما يُقدَّرُ فيهِ، وهو ما بينَهُ بقولِهِ: (**قُلْ لهم يا مُحمَّدُ: ليفْرَحوا بالإحسانِ والتّفضُّلِ**) إذ لم يعرفوا الحقَّ إلّا بالعِلَلِ (**وليَكُنْ فرَحُكَ أنْتَ بالمُتفضِّلِ**) لأنَّكَ لم تعرِفِ الحقَّ بذلكَ بلْ عرَفْتَهُ بهِ.

هذا تقريرُ ما احتوى عليْهِ الخِطابُ، وهو مُسلَّمٌ لكِنَّهُ يفتَقِرُ إلى دليلٍ يُثبِتُهُ فلذلكَ قالَ:

---

(١) متفقٌ عليه، أخرجه البخاريُّ (٥٠)، ومسلمٌ (٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، وفي الباب عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه، انظر ص ١٧٧.

(قالَ في الآيةِ الأُخْرَى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]) لكنَّ الاستدْلالَ بها على المقصودِ لا يتمُّ إلّا بقطْعِها عمّا قبْلَها. والخارِجُ مِنْ ذلِكَ كُلِّه: أنَّ لكُلِّ عارِفٍ شِرْبٌ على قدْرِه، ورسولُ الله سيِّدُهُمْ، وهو أوفرُهُمْ نصيبًا، وأنَّ قُرّةَ العَيْنِ بما في الصّلاةِ لا بها، وفي طَيِّه أنَّ قُرّةَ العَيْنِ لا تكونُ لصاحِبِ بِدايةٍ ولا مُجاهَدةٍ.

وظاهِرُ آخِرِ كلامِه ﷺ أنَّ قُرّةَ العَيْنِ في الصّلاةِ مِنْ خَواصِّه، وهو جليٌّ لتَفرُّدِه بالرُّتْبةِ العُلْيا والخاصّةِ الكُبرَى، ويُؤيِّدُهُ قولُهُ: (حُبِّبَ إليَّ مِنْ دُنْياكُمُ النِّساءُ والطِّيبُ)[1]؛ إذ لا رَيْبَ أنَّ حُبَّهُ لهما ليْسَ على قِياسِ حُبِّ غيْرِهِ لهما، وإنَّما ذلِكَ لوُجودِ الخاصيّةِ المُقتَضيةِ منهُ لذلكَ، ألا ترى أنَّهُ أُبيحَ لهُ ما لم يُبَحْ لغيْرِهِ مِنْ عدَدِ النِّساءِ، وأمِنَ لأجْلِ ذلِكَ مِنْ وُقوعِ مفْسدةِ التَّباغُضِ والتَّشاحُنِ بسببِ اجتماعِ الضَّرائرِ؟! وحُبُّهُ للطِّيبِ إنَّما هو للقائِه الملائكةَ التي تُناجيه، وإلّا فهو في ذاتِه غنيٌّ عنِ الطِّيبِ، كما قالَ أنسٌ: (ما مَسَسْتُ حريرًا ولا خزًّا ألينَ مِنْ كفِّه، ولا شَمَمْتُ رائحةَ مِسْكٍ ولا عنبرٍ أطيَبَ منْهُ)[2]، فإذا كانَ حالُهُ في هذيْنِ على ما ذكَرَ، معَ أنَّهُ لم يذْكُرْ فيهما سِوى لفظِ الحُبِّ، وهما مِنْ لذّةِ الدُّنيا، فكيْفَ حالُهُ في الآخِرةِ؟!

الثّالِثُ[3] معَ أنَّهُ ذكَرَ فيه قُرّةَ العيْنِ، وهي غايةُ المحبّةِ، وهو مِنْ أعمالِ الآخِرةِ، فيحتَمِلُ أنَّ مُرادَهُ أنَّ لغيرِهِ مِنهُ مشربًا، ويقتَضيه عُمومُ قولِهِ "إنَّ قُرّةَ العيْنِ بالشُّهودِ على قدْرِ المعْرِفةِ بالمشْهودِ" إلى آخِرِه.

***

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٩٣)، والنّسائيُّ (٣٩٤٠)، وأبو يعلى (٣٤٨٢)، والبزّار (٦٨٧٩)، والطبرانيُّ في "الأوسط" (٥٢٠٣)، والحاكم وصحّحه (٢/١٦٠)، وغيرهم من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٥٦١)، ومسلمٌ (٢٣٣٠)، وغيرهما.
(٣) أي المذكور الثالث وهو الصلاة.

[الكتاب الرابع]

وقالَ ممّا كتَبَ به لبعضِ إخْوانِه:

(النّاسُ في وُرودِ المِنَنِ عَلَيْهِمْ) باعتِبارِ تلقّيها وقَبولِها والفرَحِ بها **(ثلاثةُ أقسام)**: ناقِصٍ غافِلٍ، ومُتيَقِّظٍ عاقِلٍ، وعارِفٍ كامِلٍ.

فالأوَّلُ: **(فَرِحٌ بالمِنَنِ لا مِنْ حيْثُ مُهديها ومُنْشِئُها، لكِنْ بوُجودِ منَّتِه، فهذا مِنَ الغافِلينَ)** الذين غفَلوا عنِ المُنعِمِ بالنِّعمةِ، ونسوا اللهَ بوُجودِ المِنّةِ، فقصُرَتْ هِمَمُهُمْ على نحوِ أكلٍ وشُرْبٍ وجِماعٍ، فهو في غايةِ الدَّناءةِ والخِسّةِ، حالُهُ حالُ أهلِ الطَّرْدِ والبُعْدِ، والاستِدْراجِ والمكرِ، وربَّما أثَّرَ ذلِكَ خِصالًا ذميمةً، كحِرْصٍ وطمَعٍ، وشِدّةِ فرحٍ بالموجودِ وحُزْنٍ على المفْقودِ، وبه يقَعُ الهَلاكُ، **(يصدُقُ عليْه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾** [الأنعام: ٤٤]**)** في الدُّنْيا بزوالِها بالموتِ، وفي الآخرةِ بالعَذابِ والنَّكالِ، أو فيهِما، وهذه حالٌ مُنافيةٌ للشُّكْرِ.

(و) الثّاني: **(فَرِحٌ بالمنَنِ مِنْ حيْثُ أنَّهُ شهِدَها منّةً ممَّنْ أرْسَلَها، ونعمةً ممَّنْ أوْصَلَها)** فهذا مِنَ القائمينَ بالشَّريعةِ مِنْ غيْرِ مُلاحَظةِ الحَقيقةِ، فقدْ حصَلَ لهُ نصيبٌ مِنَ الشَّرفِ والجَلالةِ، وحظٌّ مِنَ الدَّناءةِ والرَّذالةِ؛ فشرَفُهُ مِنْ حيْثُ شُهودُهُ المِنّةَ لربِّه، وذلِكَ شُكْرٌ منهُ، وهُبوطُهُ مِنْ حيْثُ نظَرُهُ لنفْسِه وكِفايةِ حظِّه، فانحطَّ بهذا الوصْفِ عنْ رُتَبِ الإيمانِ، وارتقى بالنَّعْتِ الأوَّلِ عنْ حالِ الأدنى، فخوطِبَ بما خوطِبَ به عامّةُ المؤمنينَ وأوساطُهُمْ في الآيةِ التي ذكَرَها بقولِه: **(يصدُقُ عليْه قولُهُ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾** [يونس: ٥٨]**)** أي مِنْ كُلِّ شيءٍ حتّى مِنْ عِبادَتِهِمْ وعمَلِهِمْ.

(و) الثّالِثُ: **(فَرِحٌ باللهِ)** وحدَهُ، لا لعِلّةٍ بلْ مِنْ حيْثُ كَمالُ ذاتِه وصِفاتُ جَلالِه، وتقدُّسُ أسمائِه وجمالُ أفعالِه، إنْ رأى نِعمةً ذكرَ منَّتَهُ أو بليّةً ذكرَ رحمتَهُ، **(ما شغلَهُ مِنَ النِّعَمِ**

ظاهرُ مُتعَتِها) كحالِ أَهْلِ الغرّةِ، **(ولا باطِنُ مِنَّتِها)**، فلم يلتَفِتْ إلى ظواهِرِ النِّعمِ لما فيها مِنْ مَنفعتِهِ ولذَّتِهِ، ولا لبواطِنِها لكونِها دلائلُ على عِنايةِ اللهِ بِهِ، حيْثُ منَّ بها عليْهِ، كما يعتدُّ بِهِ أهلُ العِبْرةِ، فهو ليْسَ مِنَ الغافلِينَ الذينَ شغلَهُمْ التَّمتُّعُ عنِ الإنْعامِ، ولا الذّاكرينَ الذينَ شغلَهُمْ الإنْعامُ عنِ المُنعِمِ، **(بلْ شغَلَهُ النَّظَرُ إلى اللهِ عمّا سِواهُ، وانجَمعَ عليْهِ فلا يشهدُ إلّا إيّاهُ)**، ولو كُلِّفَ غيْرَ ذلِكَ ما أطاقَهُ، لانجماعِ سِرِّهِ على ربِّهِ، واستِغْراقِهِ في مُشاهَدةِ عظَمتِهِ.

(يصدُقُ عليْهِ: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]**)**، ألا كُلُّ شيْءٍ ما خلا اللهَ باطِلُ، وحالُ هذا هو الشُّكْرُ الحقيقيُّ الخالِصُ الخالي مِنَ الشَّوبِ لفَنائِهِ عنْ حُظوظِهِ، فيرى الأشياءَ كُلَّها مِننًا، فلا تفرقةَ عِنْدَهُ بينَ وُجودٍ وعَدَمٍ، ولا عطاءٍ ومنْعٍ، فلا يُخافُ عليْهِ مِنَ التَّغيُّرِ والانقِلابِ لتغيُّرِ الأفعالِ والأسبابِ، ما يُخافُ على غيْرِهِ لبَقاءِ حظِّهِ. وقدْ ضربَ الغزالي لهذهِ الأقْسامِ الثَّلاثةِ مثَلًا في كِتابِ الشُّكْرِ مِنَ الإحياءِ.

***

(وقدْ أوحَى اللهُ إلى داوُدَ: قُلْ للصِّدّيقينَ بي فليَفْرَحوا) أي ليكُنْ فرَحُهُمْ بوُجودي وبكَمالي، لا بشيْءٍ يرجِعُ إليهِمْ، **(وبذِكْري)** في الأزَلِ حيْثُ لا وُجودَ لهم **(فليَتَنعَّموا)** أي بذِكْرِهِمْ إيّايَ، أو بذِكْري إيّاهُمْ، أو بالذِّكرَيْنِ، فكُلٌّ صحيحٌ كما قالَهُ الشّارِحُ، لكنْ قالَ شارِحٌ: الأَوْلى الثّاني؛ لأنَّ الذِّكْرَ المنْسوبَ إليهِمْ محلُّ الآفاتِ والعِلَلِ، وهم أرفَعُ رُتبةً مِنْ أنْ يكون نعيمُهُمْ بشيْءٍ مُلتَبِسٍ بهم.

يؤثَرُ أنَّ عُتبةَ الغُلامَ[١] دخلَ على رابِعةَ وعليْهِ قميصٌ جديدٌ، وهو يتبَخْتَرُ في مِشيَتِهِ على غيْرِ عادَتِهِ، فقالَتْ: "ما هذا التّيهُ والعُجْبُ الذي لم أرَهُ في شمائِلِكَ قبْلُ؟!" قالَ: "ومَنْ أولَى بهِ مِنّي، وقدْ أصبحَ لي مولًى وأصبحْتُ لهُ عبدًا!".

(١) الزاهد الخاشع عتبة بن أبان بن ضمعة البصري، وهو الذي يقال له: عتبة الغلام سمي بالغلام لجده واجتهاده لا لصغر سنه، وكان كثير التعبد والبكاء، خشن العيش، وكان يشق الخوص، ويصوم الدهر، ويفطر على الخبز والملح، توفي في حدود سنة ١٦٧. سير أعلام النبلاء (٦٢/٧)، الوافي (١٩ ٢٩٠).

وكيْفَ لا يفرَحُ مَنْ كانَ اللهُ مولاهُ، أمْ كيْفَ لا يتنعَّمُ مَنْ يذْكُرُهُ مولاهُ، سَواءٌ كانَ العبْدُ ذاكِرًا أو مذْكورًا؟!

(**والله يجعَلُ فرحَنا وإيّاكَ به، وبالرِّضَى منْهُ**) حتَّى لا نفرَحَ بشيءٍ دونَهُ، ولا نرضَى بشيءٍ سِواهُ، وذلِكَ هو الفرَحُ الكامِلُ، (**وأنْ لا يجعلَنا مِنَ الغافلينَ عنْ ذكْرِهِ**) الفرِحينَ بغيْرِهِ، الرّاضينَ بسِواهُ، الواقِفينَ معَ التَّمتُّعِ بالنِّعْمةِ، (**وأنْ يسلُكَ بنا مسالكَ المُتَّقينَ**) الذينَ اتَّقوا الالتفاتَ لغيْرِهِ، فتاهوا بتوحيدِهِ وشُكرِهِ على بِساطِ معْرِفَتِهِ وذِكْرِهِ، (**بمنِّهِ وكرَمِهِ**) الكامِلِ، أي: أطلُبُ ذلِكَ لا بسَببٍ ولا عِلّةٍ؛ لأنَّ ما عِنْدَهُ لا يُنالُ بهما.

***

وبهِ تمَّ الكِتابُ، ثُمَّ ذيَّلَهُ بمُناجاتٍ حِسانٍ ضمَّنَها حِكَمًا عليّةَ الشّانِ[1]، وأشارَ بها إلى معاني ما في الكِتابِ، وأودعَها العَجَبَ العُجابَ، وقدْ حثَّ بعضُهُمْ على قراءتِها بالسَّحَرِ، وجُرِّبَتْ بركتُها، لكِنَّها توجِبُ بسطًا لا يملِكُ المرْءُ نفسَهُ معَهُ في يومِهِ، فقالَ:



(١) أي "الشأن" بتخفيف الهمزة للسجع.

[القسم الثالث: المناجاة]

[الفصل الأول]

(**إلهي، أنا الفَقيرُ**) بدَوام الاضْطِرارِ ولُزوم الفاقةِ والافتقارِ (**في غنايَ**) العارِضِ لي، إذْ ليْسَ وُجودُهُ مِنّي، ولا دوامُهُ لي، ولا بقاؤهُ بي، ولا تحقُّقُهُ مِنْ عِنْدي، معَ توقُّفهِ على الأسبابِ في وُجودِهِ واستِمْدادِهِ وبقائِهِ، والكُلُّ مِنْكَ وإليْكَ، (**فكيْفَ لا أكونُ فقيرًا**) إليْكَ (**في فقْري**)، إذْ هو يُشاهدُ حالةَ عدَم، وعليْهِ مبنى وُجودي ونعتي ووصفي، وإليهِ ترجِعُ أحوالي، وهو غايةُ أمري.

(**وأنا الجاهِلُ في عِلْمي**) لتوقُّفِهِ على التَّعلُّم والتَّعليم والمعلوماتِ، معَ عدم الإحاطةِ وإمكانِ الانقِلابِ والتَّلبيسِ، (**فكيْفَ لا أكونُ جهولًا في جهلي**) الذي هو نفْيٌ محضٌ، وعدمٌ صِرْفٌ، وهو أصلي وفصلي، فلا غِنَى لي عنْكَ، وعنِ الطَّلَبِ مِنْكَ في حالٍ مِنَ الأحْوالِ، كما قيلَ:

إنّي إليْكَ معَ الأنْفاسِ مُحتاجٌ * لو كانَ في مفْرِقي الإكليلُ والتّاجُ

وهذا مِنْهُ دليلٌ على تحقُّقِهِ بمقام العُبوديّة. قالَ الشّاذلي: "ما طلبْتُ مِنَ اللهِ شيئًا إلّا وقدَّمْتُ إساءتي أمامي"، يعني: حتَّى لا نطلُبَ مِنْهُ شيئًا بوصْفٍ نستحِقُّ بهِ العطاءَ، فلا يكونُ طلبُهُ وُجودَ فضْلِهِ إلَّا بفضْلِهِ.

(**إلهي إنَّ اختِلافَ تدبيرِكَ**) في الكائِناتِ، (**وسُرعةَ حُلولِ مقاديرِكَ**) في المخْلوقاتِ، (**منعا عبادَكَ العارِفينَ لكَ عنِ السُّكونِ إلى العَطاءِ**) لأنَّهُمْ على غيْرِ ثِقةٍ مِنْ بقائِهِ، ولا لهم حُكْمٌ في إمدادِهِ وإبقائِهِ، (**واليأْسِ مِنْكَ في البلاءِ**) لأنَّكَ الذي ترى الشِّدَّةَ، وتُدارِكُ بالعافيةِ، فلا ييأسُ مِنْكَ إلّا مخذولٌ، ولا يأمَنُ مكرَكَ إلّا جهولٌ.

(إلهي منّي) يحصُلُ **(ما يليقُ بلؤمي)** مِنَ الإجرامِ بمُبارزتِكَ بالذُّنوبِ العِظامِ، **(ومنْكَ ما يليقُ بكَ)** مِنِ الإنعامِ، فعامِلْ بما يليقُ بوصْفِكَ لا بوصفي. وهذا من ألطفِ وُجوهِ السُّؤالِ والرَّغبةِ، ومِنْ آدابِ الدُّعاءِ.

(إلهي وصفْتَ نفسَكَ) في الأزَلِ قبْلَ وُجودِ ضعْفِ العبْدِ وفاقتِهِ وحاجتِهِ **(باللُّطْفِ والرَّأْفةِ بي قبْلَ وُجودِ ضعفي)** فسمَّيْتَ نفْسَكَ لطيفًا رؤوفًا في أزلِكَ، واتَّصفْتَ به وأنْتَ القديمُ، **(أفتَمْنعُني منْهُما بعْدَ وُجودِ ضعْفي)**، وهُما مُقتَضيانِ لوُجودِ آثارِهما فيما لا يزالُ، بعدَ وُجودِ ذاتِ العبْدِ وصِفاتِهِ، مِنْ إسباغِ نِعمَهِ عليْهِ، وإيصالِ أفضالِهِ إليْهِ، فكيْفَ يُتصَوَّرُ منعُهُما؟! حاشاكَ مِنْ ذلِكَ يا كريمُ.

***

(إلهي إنْ ظهرَتِ المحاسنُ منّي) مِنْ صُنوفِ الطّاعاتِ، وأنوارِ الحسَناتِ، والصِّفاتِ الحميدةِ **(فبفضْلِكَ)** الذي لا عِلّةَ لهُ؛ لأنّي محلُّ كُلِّ نقْصٍ وآفةٍ وإساءةٍ، **(ولكَ المِنّةُ عليَّ)** فيما أظهَرْتَ عليَّ مِنْ ذلِكَ معَ احتياجي إليْهِ، وعجزي عنْ تحصيلِهِ، وعدمِ استِحقاقي ذلِكَ لتقصيري.

(فإنْ ظهَرَتِ المساوئُ منّي) مِنْ ضُروبِ المعاصي والسَّيِّئاتِ والقَبائِحِ والزَّلّاتِ **(فبعَدْلِكَ)** إذْ لكَ أنْ تفعَلَ بعبدِكَ ما تشاءُ، **(ولكَ الحُجّةُ عليَّ)** فيما ظهرَ عليَّ مِنَ المساوئِ؛ فإنَّكَ ربٌّ وأنا عبدٌ، وحُقوقُ عُبوديَّتِكَ لازمةٌ، وإساءتي ظاهرةٌ؛ وهذا مِنْ أبدَعِ المُناجاةِ، وهي مُقتَضيةٌ لوُجودِ الإسعافِ وموالاةِ الألْطافِ؛ لتضمُّنِها الثَّناءَ عليهِ تعالى على بِساطِ قُرْبِهِ، وذِكْرَ صِفاتِهِ العليّةِ والتَّعلُّقَ بها، والاعترافَ لهُ بالنِّعمةِ، ولما فيها مِنْ رؤيةِ ضعْفِ النَّفْسِ، والإقْرارِ عليْها بالنَّقْصِ والقُصورِ، وإنزالِها مَنزِلَتِها مِنَ الذُّلِّ والهَوانِ.

(إلهي كيْفَ تكِلُني) لسِواكَ **(وقدْ توكَّلْتَ لي)** قبْلَ خلقِكَ؛ إذْ سمَّيْتَ نفسَكَ وكيلًا، **(وكيْفَ أضامُ)** أي أُنقَصُ مِنْ حقّي **(وأنْتَ النّاصرُ لي)**؛ حيْثُ سمَّيْتَ نفسَكَ نصيرًا قبْلَ كوني، **(أم كيْفَ أخيبُ في مطالبي وأنْتَ الحفيُّ بي)** أي اللَّطيفُ الرَّفيقُ بي.

(ها أنا أتوسَّلُ) أي: أتقرَّبُ **(إليْكَ بفقري)** إليْكَ، وليْسَ للفَقيرِ ما يُقدِمُ بهِ على الغنيِّ سِوَى فقرِهِ، وأعظَمُ وسائِلِ العبْدِ إلى ربِّهِ تحقُّقُهُ بما توجبُهُ عُبوديَّتُهُ، وهو فقرُهُ إليْهِ في كُلِّ حالٍ، فلا يرى لنفسِهِ حسنةً تقتضي ثوابًا، ولا تَدلُّ بحُجّةٍ يستدفِعُ بها عنْ نفسِهِ عِقابًا.

(وكيْفَ أتوسَّلُ إليْكَ بما هو مُحالٌ أنْ يصِلَ إليْكَ) مِنْ فقري إليْكَ؛ إذْ لا بُدَّ مِنْ نِسبةٍ تامّةٍ، ووصلةٍ حقيقيّةٍ بيْنَ المُتوسَّلِ بهِ وإليْهِ، مُقتَضيةٍ لوُجودِ التَّوسُّلِ، ولا نِسبةَ ولا وصلةَ بيْنَ الفَقرِ الذي هو وصفُ العبْدِ، وبيْنَ الرَّبِّ الذي له الغِنى الأكبرُ، وأيضًا توسُّلُ العبْدِ بفقرِهِ يقتضي شُهودَهُ لهُ واعتِمادَهُ عليْهِ، ورؤيةُ العبْدِ لأحوالِهِ وسُكونُهُ لها عِلّةٌ فيها، وكُلُّ معلولٍ لا يليقُ بالحضْرةِ الإلهيّةِ، فلا تصِلُ إليْهِ، بمعنى أنَّهُ لا يرضاها ولا يقبَلُها، فلا يصِحُّ التَّوسُّلُ بالفقْرِ مِنْ هذا الوجْهِ، وحينَئِذٍ لا وسيلةَ إليْهِ إلّا بهِ.

ولهذا كانَ مِنْ دُعاءِ المُصطَفَى ﷺ: (أعوذُ برضاكَ مِنْ سخَطِكَ ...) الحديث[1]، ولذلكَ لَمّا دخلَ الشّاذْلي على شيْخِهِ ابنِ بشيشٍ[2] قالَ: "يا أبا الحسَنِ، بماذا تلقى اللهَ؟" قالَ: "بفقري"، قالَ: "لئِنْ لقيتَهُ بفقْرِكَ لتَلْقيَنَّهُ بالصنَمِ الأعظَمِ، لا يصِحُّ حقيقةُ الفقرُ إلا بالغُنيةِ عنِ الفقْرِ، وإلّا فأنْتَ غنيٌّ بفقْرِكَ".

(أمْ كيْفَ أشكو إليْكَ حالي وهو لا يخفى عليْكَ) وكيْفَ يخفاكَ وأنْتَ العَليمُ الخَبيرُ؟!

(أمْ كيْفَ أُترجِمُ لكَ بمقالي) وآخُذُ في شرْحِ أحوالي القبيحةِ الذَّميمةِ، وهِمَّتي القاصرةِ السَّقيمةِ **(وهو مِنْكَ برزَ وإليْكَ يعودُ؟!)** لأنَّكَ المُبدِئُ المُعيدُ، فكيْفَ يحتاجُ إلى ترجمةٍ عنْهُ، ألا يعلَمُ مَنْ خلقَ؟!

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٤٨٦)، وغيره من حديث السيد عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مرفوعًا، وتمامه: (اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أُحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك).

(٢) الأستاذ الولي أبو محمد عبد السلام بن مشيش -أو بشيش- بن أبي بكر منصور بن علي الادريسي الحسني، صاحب الصلاة المشيشية، وشيخ العارف أبي الحسن الشاذلي، توفي سنة ٦٢٢. الأعلام للزركلي (٤/٩)، وأفرده الشيخ عبد الحليم محمود بالتصنيف.

(أمْ كيْفَ تَخيبُ آمالي، وهي قد وفدَتْ عليْكَ) وأنْتَ الذي تُكرِمُ الوافِدينَ، **ولا تُمهِلُ** الوارِدينَ، **(أمْ كيْفَ لا تحسُنُ أحوالي، وبكَ قامَتْ وإليك)** لما أشهدتَها مِنَ الحقيقة، **وإنْ كانَ** في قيامِها ضعفٌ ونقصٌ، فبِساطُ الكرمِ ممدودٌ، ومنْ تَحقَّقَ بالمعْرفةِ رأى أحوالَهُ كُلَّها حسنةً؛ لِوُجودِ قيامِها باللهِ، ورُجوعِ أمرِها إليْهِ.

وهذهِ الأنواعُ مِنَ التَّعجُّبِ عَجِبَ بها بنفْسِهِ مِنْ نفْسِهِ بما هو بصَدَدِهِ مِنْ سُؤالِهِ، بسبَبِ ترَقِّيهِ في المعْرِفةِ التي أوجَبَتْ لهُ رؤيةَ نَقصِهِ وقُصورِ أحوالِهِ.

***

(إلهي ما ألطفَكَ بي) إذ فتَحْتَ لي بابَ التَّعلُّقِ بِكَ، والالتِجاءِ إليْكَ، والاستِدْلالِ عليْكَ، **(معَ عظيمِ جهْلي)** حيْثُ جهلْتُ قدْرَ نفسي، وجهلْتُ أمري، ولم أعلمْ خيْرَهُ مِنْ شرِّهِ **(وما أرحمَكَ بي)** حيْثُ أمهَلْتَني للتَّوبةِ **(معَ قبيحِ فعْلي!)**.

(إلهي، ما أقربَكَ منّي) بعلْمِكَ وإحاطَتِكَ التي لا تُكيَّفُ ولا تُمثَّلُ، ولما شهِدتُهُ مِنْ بعضِ العَوالِمِ عنّي، ورفعِها لي إليْكَ، **(وما أبعَدَني عنْكَ)** لما شهدتُهُ مِنْ إقامَتي في الطَّلَبِ لكَ، والطَّلَبُ للشَّيءِ آيةُ فقْدِ الطّالِبِ لهُ وبُعدِهِ عنْهُ، فالمُشاهَدةُ الأولَى أوْجَبَتْ لهُ لُزومَ بابِ مولاهُ، وانقِطاعَ طمَعِهِ عنْ كُلِّ ما سِواهُ، والثّانيةُ أوْجَبَتِ التَّلطُّفَ في سُؤالِ التَّقريبِ، والاستِغْناءَ عنْ طلَبِ القُرْبِ، **(ما أرأفَكَ بي، فما الذي يحجُبُني عنْكَ)** وكُلُّ شيءٍ دليلٌ عليك؟! فالمؤلِّفُ لم يَظهَرْ لهُ سبَبُ وُجودِ حِجابِهِ عنْهُ لَمّا غابَ بشُهودِ رأفتِهِ بهِ عنْ رؤيةِ نفسِهِ وصِفاتِها.

***

(إلهي قدْ علِمْتُ باختِلافِ الآثارِ وتنقُّلاتِ الأطْوارِ) مِنْ صِحّةٍ ومرَضٍ، وغِنًى وفقْرٍ، وعِزٍّ وذُلٍّ، وقبْضٍ وبسْطٍ، وفقْدٍ ووجْدٍ، وغيرِها مِنْ مُختَلِفاتِ الأحْوالِ النّازِلةِ بي، **(أنَّ مُرادَكَ منّي أنْ تتعرَّفَ إليَّ في كُلِّ شيءٍ)** تعرُّفًا خاصًّا في حالةٍ خاصّةٍ، **(حتّى لا أجهلَكَ في شيءٍ)** مِمّا أنا قابلٌ لمعْرِفَتِهِ، فأُشاهِدُ وَحْدانيَّتَكَ وعظمتَكَ، وجلالَكَ وكمالَكَ، ولو ألْزَمْتَني حالةً واحدةً أرتضيها لنفسي، كانَتْ معرفَتي ناقِصةً، ومُشاهَدتي قاصِرةً، فأنا الآنَ أتقلَّبُ في جنّةٍ مُعجَّلةٍ،

فقدْ استَغْرَقَني ما أنا فيهِ مِنْ عظيمِ النَّوالِ، وشغَلَني عنِ الدُّعاءِ والسُّؤالِ، فلكَ الحمْدُ؛ ومِنْ ثمَّ قيلَ: "في الدُّنْيا جنَّةٌ، مَنْ دخلَها لم يشتَقْ إلى جنَّةِ الآخرةِ ولا إلى شيءٍ، وهي معرفَتُهُ تعالَى".

(**إلهي كُلَّما أخرَسَني لؤمي أنطَقَني كرَمُكَ**) فإذا نظرْتُ لأوصافي صَمَتُّ، أو لإحسانِكَ طلَبْتُ؛ لأنَّ الكرَمَ لا يتوقَّفُ على شرْطٍ ولا سبَبٍ، (**وكُلَّما آيَسَتْني أوصافي**) الذَّميمةُ التي اقتضاها الطَّبْعُ والجِبِلَّةُ (**طمَّعتْني مِنَنُكَ**) التي تشملُ البَرَّ والفاجِرَ، فلا تَتَقيَّدُ بِصفةٍ ولا تندفِعُ بزلّةٍ.

***

(**إلهي منْ كانَتْ محاسِنُهُ مساوئَ**) معَ لُزومِها لهُ في كُلِّ حالٍ، (**ومنْ كانَتْ حقائقُهُ دعاوٍ**) لكونِها ليسَتْ لهُ ولا مِنْهُ ولا بِهِ ولا عنْهُ لافتِقارِهِ، (**فكيْفَ لا تكونُ دعاويهِ دَعاوٍ؟!**) ومن هو كذلِكَ فهو في غايةِ الفقْرِ، سواءٌ كانَ لهُ شيءٌ أم لا، المعدومُ معدومٌ، والموجودُ معلولٌ، وقد تقدَّمَ أنَّ الكَلامَ المنْسوبَ للعبْدِ نقْصٌ على التَّحقيقِ، فكيْفَ بنُقْصانِه؟!

(**إلهي، حُكمُكَ النّافذُ، ومشيئَتُكَ القاهِرةُ لم يترُكا لذي مقالٍ مقالًا**) فيُترجِمُ لهُ عنْ محاسِنِهِ ومَساوِئِهِ، (**ولا لذي حالٍ حالًا**) حتَّى يُثبِتَ لنفْسِهِ ما يدَّعيهِ مِنَ حقائِقَ أو غيرِها، وشُهودُ هذا المعنى يُوجِبُ مقامَ الخوْفِ، فإنْ كُنْتَ ذا قوْلٍ سديدٍ وحالٍ حميدٍ لا تجزِمْ ببقاءِ ذلِكَ، ولا تغترَّ بما هُنالِكَ لنُفوذِ حُكْمِ الحقِّ ومشيئتِهِ.

(**إلهي، كمْ مِنْ طاعةٍ بنَيْتُها**) حتَّى قامَ في نظري وُجودُها وتحصيلُها، (**وحالةٍ شيَّدْتُها**) حتَّى ظهرَ لي أنّي أحكمْتُها وحصَّنْتُها، وطهَّرتُها وصُنْتُها عمّا يُكدِّرُ صَفاها ويكشِفُ ضياها؛ وكأنّي لمّا فعلْتُ هذيْنِ رأيْتُ أنّي تحصَّنْتُ بحِصْنٍ حصينٍ وآوَيْتُ إلى رُكنٍ شديدٍ، لكنْ لمّا شاهَدْتُ عدلَك (**هدمَ اعتمادي عليْها عدلُكَ**)، حتَّى نظَرْتُ إليْها فرأيْتُ أنَّك إنْ قابلْتَني بهِ فيها لم يبْقَ لي حالٌ ولا عملٌ، وقضيّةُ العدْلِ أنَّ لكَ أنْ تفعلَ ما تشاءُ ولا تُبالي، (**بلْ أقالَني منْكَ فضلُكَ**) بتحريكِ لي مِنْ رِقِّ الاعتِمادِ عليْها.

(إلهي، إنَّك تعلمُ وإنْ لم تدُم الطَّاعةُ منّي فعلًا وجَزمًا) في جميعِ الأوْقاتِ والحالاتِ، **(فقدْ دامَتْ محبّةً وعزْمًا)** في جميعِ الأزْمانِ والأوْقاتِ؛ لأنَّ ذلكَ منْ مُقتَضَياتِ الإيمانِ.

(إلهي، كيْفَ أعزِمُ) عليها **(وأنْتَ القاهرُ؟!)** ومَنْ شهِدَ قهْرَكَ بطَلَ عزْمُهُ لأنَّكَ الغالِبُ، **(وكيْفَ لا أعزِمُ وأنْتَ الآمِرُ؟!)** الذي لا بُدَّ مِن امتثالِ أمرِهِ بالعزْمِ على طاعتِهِ وبِرِّهِ.

(إلهي، تردُّدي في الآثارِ) ردًّا وقبولًا ونظرًا واستِدْلالًا **(يوجِبُ بُعْدَ المَزارِ)** مِنْ حضْرَتِكَ ودائِرةِ ولائِكَ؛ لما فيهِ مِنَ الشُّغْلِ بغيْرِكَ، **(فاجمَعْني عليْكَ بخِدْمةٍ توصِلُني إليْكَ)** مِنْ غيْرِ تردُّدٍ ولا طولٍ، فأستغني بكَ عنها مِن كُلِّ وجْهٍ، وأولى ما رُجِعَ بهِ إلى اللهِ ما جاءنا عنِ اللهِ.

***

(إلهي، كيْفَ يُسْتَدَلُّ عليكَ بما هو مُفتَقِرٌ في وُجودِهِ إليْكَ) مِنَ الأسبابِ العَدَميّةِ والآثارِ الوهْميّةِ، **(أيكونُ لغيْرِكَ مِنَ الظُّهورِ ما ليْسَ لكَ، حتَّى يكونَ هو المُظهِرُ لكَ؟!)** معَ أنَّكَ الظّاهِرُ ومُظهِرُ المظاهِرِ، هذا ما لا يُتَصوَّرُ، **(متى غِبْتَ حتَّى تحتاجَ إلى دليلٍ يدُلُّ عليكَ؟! ومتى بعُدْتَ حتَّى تكون الآثارُ هي التي توصِلُ إليْكَ؟!)** لكنَّكَ ولَّيتَها رُتبةَ الدَّلالةِ فدلَّتْ، وأعطيْتَها التَّوصيلَ فوصَّلَتْ، فما دلَّ عليْكَ سِواكَ، هذا مُفتَتحٌ لأرْبابِ الدَّليلِ والبُرهانِ بالنِّسبةِ لأهلِ الشُّهودِ والعَيانِ.

(إلهي، عميَتْ عيْنٌ لا تراكَ عليْها رقيبًا) وحُقَّ لها العمى؛ إذْ لم تُراقِبْ مَنْ هو أقربُ إليها منها، **(وخسِرَتْ صفقةُ عبْدٍ لم يجعلْ لهُ مِنْ حُبِّكَ نصيبًا)** وإنْ عمِلَ ما عمِلَ، فمَنْ أعطاهُ اللهُ مِنْ محبَّتِهِ نصيبًا، فقدْ حازَ رِبْحَ الدّارَيْنِ، وفازَ بقُرّةِ العيْنِ، ومَنْ حُرِمَ ذلكَ فقدْ خسِرَتْ صفقتُهُ، وبانَ غُبْنُهُ وخيبَتُه، على نفْسِه فليَبْكِ من ضاعَ عُمرُهُ. وهذا دُعاءٌ أو خبرٌ.

***

(إلهي، أمرْتَ) منْ وصلَ إلى صريحِ المعْرفةِ وخالصِ عزِّ التَّوحيدِ، **(بالرُّجوعِ إلى الآثارِ)** عُبوديّةً وتأدُّبًا، وقيامًا بحقِّ الكلمةِ، وإقرارًا بعجزِ البشَريّةِ، ورُجوعًا لشُهودِ النَّقْصِ والافتِقارِ،

(فأرجِعْني إليها) على حالةٍ شريفةٍ، مُضادّةٍ للحالةِ التي كُنْتُ عليها قبلَ السُّلوكِ، وذلكَ بأنْ تُرجِعَني إليها **(بكسْوةِ الأنوارِ)** الإيقانيّةِ والعِرفانيّةِ، حتّى لا تعدُوَ عليَّ ظُلمْتُها، **(وهِدايةِ الاستِبصارِ)** العِلْميّةِ حتّى أكونَ على بصيرةٍ فيما أُبقي وأذَرُ، ولا تغُرُّني زهرَتُها، ولا تُصيبُني كدْرتُها، بل **(حتّى أرجِعَ إليكَ منها)** بالتَّوجُّهِ والغِنى عنها، والعُبوديّةِ التّامةِ على بِساطِ المعرفةِ الكامِلةِ، **(كما دَخَلْتُ إليكَ منها)** في بِدايةِ السُّلوكِ عِلمًا بما هي عليه.

واجعَلْ ذلِكَ حالَ كوني **(مصونَ السِّرِّ عنِ النَّظرِ إليها)** بغيْرِ استِحْسانٍ، في إقبالٍ ولا إدبارٍ، ولا نفعٍ ولا إضرارٍ، **(ومرفوعَ الهِمّةِ عنِ الاعتِمادِ عليها)**، باعتمادي عليْكَ واستِنادي إليْكَ، **(إنَّكَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ)** يا نِعْمَ المولى والنَّصيرِ.

وقد مرَّ معنى هذا في قولِهِ: "فإنْ نزَلوا إلى سماءِ الحُقوقِ" إلى آخرِهِ[1].

***

(١) انظر ص ٣٩٧.

[الفصل الثاني]

وقالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الفصْلِ الثّاني في المُناجاةِ، وهو مُرتَّبٌ على ما قبلَهُ:

(**إلهي، هذا ذُلّي ظاهِرٌ بيْنَ يديْكَ**) لأنّي فقيرٌ في غِناي فضلًا عنْ فقري، جاهِلٌ في عِلْمي فضلًا عنْ جهْلي، (**وهذا حالي لا يخفى عليْكَ**) وما أنا عليْهِ مِنْ قبيحِ وصفي.

تطارحَ بذلِكَ على مولاهُ مُبالِغًا في بثِّ شكواهُ، مُتلطِّفًا في سؤالِ رحماهُ، وبِمِثْلِهِ يُرجى الإخاءُ، فأبوابُ الملوكِ لا تُقرَعُ بيدٍ بل بروح، قالَ بعضُهم للنهرجوري[1]: أجِدُ بقلبي قسوةً وشاورتُ فُلانًا، فقالَ: صُمْ، فلم تَزُل، وفُلانًا فأشارَ بالسَّفرِ، فلم تَزُل!! قال: "أحضِر خِطابَكَ إذا نام الناسُ، وتضرَّع وقُلْ: تحيَّرتُ في أمري فخُذْ بيَدي"، ففعلْتُ، فزالَتْ.

(**مِنْكَ أطلُبُ الوُصولَ إليْكَ**) إذْ لا يوصِلُ إليكَ سِواكَ، (**وبِكَ أسْتَدِلُّ عليْكَ**) إذ لا دليلَ عليْكَ إلّا إيّاكَ، (**فاهْدِني بنورِكَ**) الذي هو نورُ اليَقينِ (**إليْكَ**) لا بنورِ عقلي، حتَّى تظهرَ المحاسِنُ مني بما أجْرَيْتَ عليَّ مِنْ نورِكَ، فأُبْصِرُ به الخيْرَ فأتَّبِعه، والشرَّ فأتَّقيه، (**وأقِمْني بصِدْقِ العُبوديّةِ بيْنَ يديْكَ**) حتَّى أكون مُمتثِلًا لأمرِكَ، مُستَسْلِمًا لقهْرِكَ، تزولُ عني المساوئُ، وتذهَبُ مِنّي الدَّعاوي، وذلكَ أشرفُ أحوالي عِندَكَ، وأقربُها فيما تحقَّقَ لي مِنْ وُدِّكَ.

(**إلهي، علِّمْني مِنْ عِلمِكَ المخزونِ**) -وهو العِلْمُ اللَّدُنّيُّ الذي اختَزَنَهُ عِندَهُ، فلا يؤتيهِ إلّا خَواصَّ الأولياءِ، وإضافتِهِ إليْهِ تعالى للتَّشريفِ- حتَّى أعبُدَكَ على عيْنِ المعْرِفةِ واليَقينِ، (**وصُنّي**) عنْ رؤيةِ الأغيارِ بما يتجلَّى للقلبِ مِنْ سِرِّ الأسرارِ، (**بسِرِّ اسمِكَ المَكْنونِ**) الذي واجَهْتَ بهِ أهلَ التَّمكينِ، حتَّى لا يُمكِنُني التِفاتٌ ولا طلَبٌ لغيْرِكَ.

---

(١) الأستاذ العارف أبو يعقوب إسحاق بن محمد النهرجوري، صحب الجنيد وغيره، وجاور بالحرم سنين، قال أبو عثمان المغربي: ما رأيت في مشايخنا أنور منه، توفي سنة ٣٣٠. طبقات السلمي (ص٢٦٨)، حلية الأولياء (١٠/٣٥٦).

(**إلهي، حقِّقْني بحقائقِ أهْلِ القُرْبِ**) مِنَ الفَناءِ في التَّوحيدِ، والتَّحقُّقِ في التَّجريدِ، ومِنَ المُراقَبةِ لكَ، والمُثولِ بينَ يديْكَ، حتَّى يَبطُلَ في حقِّي رؤيةُ الأسبابِ، ويزولَ عنْ مطمحِ نظَري كُلُّ سِتْرٍ وحِجابٍ، فأكونُ ممَّنْ شهِدَ أوصافَكَ بشُهودِ قُربِكَ الموجِبِ لمُراقَبتِكَ، حتَّى تُطاعَ فلا تُعْصَى، وتُذْكَرَ فلا تُنْسَى، فاكتَفوا بِكَ، فتوكَّلوا عليْكَ، فلم تكِلْهُمْ لغيْرِكَ، (**واسْلُكْ بي مسالِكَ أهلِ الجذْبِ**) مِنَ الاكتِفاءِ بِكَ والفَناءِ بِكَ، في سُهولةٍ بلا تعَبٍ، وتحصيلٍ بلا طلَبٍ.

(**إلهي، أغْنِني بتدْبيرِكَ عنْ تدبيري**) حتَّى لا أُدبِّرَ معَكَ نظراً مِنِّي لوُجودِ تدْبيرِكَ، ولا أشكو بحالٍ، ولا أُترجِمَ لمقالٍ، ولا أتعلَّقَ بمالٍ وآمالٍ، اكتِفاءً بعِلْمِكَ وتدْبيرِكَ، (**وباختيارِكَ عنِ اختياري**) حتَّى أرجِعَ في كُلِّ شيءٍ لاختيارِكَ، ولا أتصرَّفَ في كُلِّ شيءٍ باختياري، (**وأوقِفْني على مراكِزِ اضطِراري**) مِنْ عجزٍ وضعْفٍ وذُلٍّ وفقرٍ، وأشاهِدَ لُطفَكَ معَ عظيمِ جهلي، ورحمتَكَ معَ قبيحِ فِعلي.

***

(**إلهي، أخرِجْني مِنْ ذُلِّ نفْسي**) حتَّى لا أجلِبَ لها، ولا أدفَعَ عنها إلّا لأجلِكَ، (**وطهِّرْني مِنْ شكِّي**) أي ضيقِ صدْري عِنْدَ إحساسي بمكروهٍ؛ إذ ضيقُ الصَّدرِ بذلكَ يُظلِمُ القلْبَ ويجلِبُ الغَمَّ والحَزَنَ، والطَّهارةُ منهُ بضِدِّهِ مِنَ اليَقينِ، فبِهِ يتَّسِعُ الصَّدرُ ويزولُ حرجُهُ وضيقُهُ، وبقدرِ نورِ اليَقينِ يكونُ سِعةُ الصَّدْرِ واتِّساعُهُ، وعِندَ ذلكَ يجِدُ القلْبُ الرَّوحَ والفرحَ بذلِكَ، (**وشِرْكي**) تعلُّقِ قلبي بالأسبابِ غفلةً عنِ المُسبِّبِ، ومبدأُهُ هيَجانُ الشَّهْوةِ عِندَ استيلاءِ ظُلمةِ الشَّكِّ، فيخلو لهُ حينئذٍ؛ فيفزَعُ للأسبابِ الموصلةِ لبُغيَتِهِ، إذ لا يرى غيرَها، فيَرتَبِكُ في حبائِلِ الشِّرْكِ، والطَّهارةُ منهُ بضِدِّهِ مِنْ نورِ التَّوحيدِ واليَقينِ؛ فكأنَّهُ قالَ: "طهِّرني عمّا هو موجِبٌ لبُعدي وحَجبي، بشُهودي رأفتِكَ التي لا تُبقي شكًّا ولا شِرْكًا بظُهورِها في عوالِمِ القلْبِ وغيرِهِ". واجعلْ ذلكَ (**قبلَ حُلولِ رَمْسي**) تُرابِ قبري الذي هو محلُّ كشْفِ الحقائِقِ والثَّوابِ؛ لأنَّ ما بعدَهُ لا ينفعُني لانقِطاعِ التَّكليفِ.

***

(**بكَ**) لا بغيركَ (**أستَنصِرُ**) على ما أخافُهُ مِنَ اختِلافِ الآثارِ وتنقُّلاتِ الأطوارِ؛ إذ لا ناصِرَ غيركَ (**فانصُرْني**) على ذلك، وإنْ كُنْتُ غيْرَ مُخلِصٍ في استِنْصاري فأنْتَ الغَفورُ.

(**وعليْكَ أتوكَّلُ، فلا تكِلْني لغيْرِكَ**) وإنْ كُنْتُ كاذِبًا في ادِّعائي ذلِكَ.

(**وفي فضْلِكَ أرغَبُ**) إذْ ليْسَ لي في الدّارَيْنِ سِواهُ، (**فلا تحرِمْني**) وإنْ كُنْتُ سيِّءَ الأدَبِ في رغْبَتي.

(**ولجَنابِكَ أنتَسِبُ**) لعِلمي بأنَّ اختِلافَ الآثارِ وتنقُّلاتِ الأطوارِ، إنَّما تجري بإجرائِكَ، وليْسَ ثَمَّ أعلَى مِنَ الانتِسابِ إليْكَ ولا أمنعَ، (**فلا تُبعِدْني**) عنْكَ، وإنْ كُنْتُ غيرَ مُتحقِّقٍ في انتِسابي.

(**وببابِكَ أقِفُ**) وُقوفَ مُفتَقِرٍ قَدْ دفَعتْهُ العَوالِمُ باختِلافِ آثارِها وتنقُّلاتِ أطوارِها إليْكَ، فلَمْ أجِدْ ملجأً سِواكَ، (**فلا تطْرُدْني**) عنْ بابِكَ، وإنْ كُنْتُ مِنَ الجَفاءِ حيثُ أنا، فأنْتَ مِنَ الكَرَمِ والجودِ حيْثُ أنْتَ.

(**وإيّاكَ اسأَلُ**) في كُلِّ حالٍ (**فلا تُخيِّبْني**) وإنْ كانَ سؤالي بالصّورةِ لا بالحقيقةِ؛ **فإنَّ** فضلَكَ أتمُّ، وَجودَكَ أعَمُّ، وإنَّما اسألُ مِنْ بِساطِ كرَمِكَ لا مِنْ بِساطِ فِعْلي؛ وجانِبُ الكرَمِ لا يفْتَقِرُ إلى شرطٍ.

وتقديمُ المعمولِ في هذهِ المطالِبِ القَريبةِ المعنى مُؤذِنٌ بالحَصْرِ؛ ففيه إضرابٌ عنِ الوسائِطِ، وتعلُّقٌ في كُلِّ مطلبٍ منها بربِّ الأربابِ، وذلكَ لتحقُّقِه بالتَّوحيدِ الذي سألَ ربَّهُ أنْ يُحقِّقَه به بتطهيرِهِ مِنْ ضِدِّهِ.

***

(**أنْتَ الغنيُّ بذاتِكَ عنْ أنْ يصِلَ إليْكَ النَّفعُ مِنّي**) لأنَّكَ الغنيُّ على الإطلاقِ، القديرُ بلا قيْدٍ، فلا يتوقَّفُ كرمُكَ على شيءٍ ولا يتقيَّدُ بسبَبٍ، كجميعِ أفعالِكَ، (**وكيْفَ لا يكونُ غنيًّا عنّي**) وأنا الفقيرُ بكُلِّ حالٍ، وأنْتَ الكامِلُ ذاتًا ووصفًا، واسمًا وفِعْلًا.

والقصدُ في المُناجاةِ بهذهِ الكلماتِ: الاسترضاءُ والاستعطافُ، وطلبُ التَّجاوُزِ عنِ الأعمالِ المدخولةِ والأحوالِ المعلولةِ.

(إلهي، تقدَّسَ رِضاكَ عنْ أنْ تكونَ لهُ عِلَّةٌ مِنْكَ) لبُعدِ أوصافِكَ الإلهيّةِ عنِ العِلَلِ، **(فكيْفَ تكونُ لهُ عِلَّةٌ مِنّي؟!)** مِنْ عِلمٍ أو عمَلٍ؛ فعامِلْني بفضلِكَ ولا تنظُرْ لفعْلي.

(إلهي، إنَّ القضاءَ والقدَرَ غلبَني) حتَّى وقعْتُ فيما وقعْتُ، فلم يترُكْ لي مقالًا أدَّعي بهِ، ولم يدَعْ لي حالًا أنظرُ إليهِ؛ وهذا منّي اعترافٌ بحقِّ الرُّبوبيّةِ، لا احتجاجٌ على إسقاطِ العُبوديّةِ، **(وإنَّ الهوى بوثائقِ الشَّهوةِ أسرني)** حتَّى فعلْتُ ما فعلْتُ، فنقَصَ أحوالي وأفسَدَ حالي، وهذا منّي رُجوعٌ للعُبوديّةِ؛ إذ هو عدلٌ في عيْنِ الحِكمةِ، وهذا اعتذارٌ واعترافٌ، والحقُّ أكرمُ مِنْ أنْ يرُدَّ عُذرَ منِ اعتذرَ إليْهِ، أو يُخيِّبَ أملَ مُعترِفٍ بذنْبِهِ، قالَ الكتانيُّ[1]: "لم يفتحِ اللهُ لمؤمنَ بالمعْذِرةِ، إلّا لفتْحِ بابِ المغْفِرةِ".

***

ولمّا قويَ رجاؤهُ في ذلكَ طلبَ النَّصرَ على أعدائِهِ بقولِهِ:

(فكُنْ أنْتَ النَّصيرَ لي) بما تُوجِّهُ مِنْ آثارِ أسمائِكَ وصِفاتِكَ الموجبةِ للنّورِ، النّاصِرِ للقلْبِ على النَّفْسِ، وأتِمّْ لي نوري **(حتّى تنصُرَني)** على نفسي وعقلي وروحي بما تَهَبُ لي مِنْ عُلومِ الأَحَديّةِ، وشُهودِ الفَردانيّةِ.

ولم يقتصِرْ على ذلكَ، بلْ أضافَ إليْهِ طلبَ النُّصْرةِ به بقولِهِ: **(وتُبصِّرْ بي عِبادَكَ)** الذينَ أردتَهُم لعنايَتِكَ، فأكونَ هاديًا مهْديًّا بسِرِّ عِنايَتِكَ بلا واسِطةٍ.

***

(١) شيخ الصوفية أبو بكر محمد بن علي بن جعفر الكتاني، صحب الجنيد وأبا سعيد الخراز وأبا الحسين النوري وأقام بمكة مجاورا بها إلى أن مات، حكي عن أبي محمد المرتعش أنه كان يقول الكتاني سراج الحرم، توفي سنة ٣٢٢. طبقات السلمي (ص٢٦٨)، وتاريخ بغداد (٢٨٨/٣)، وسير أعلام النبلاء (٥٣٣/١٤).

ثُمَّ لَمْ يقنعْ بذلكَ، حتَّى طلبَ منهُ أنْ يُغنيَهُ بما يُغنيه عنِ الطَّلب بقوله:

(وأغنِني بجودِكَ) عنْ كُلِّ شيءٍ حتَّى لا أعتَمِدَ على عمَلٍ ولا غيره، ولا أحتاجَ لشيءٍ، بلْ **(حتَّى أستغني بكَ عنْ طلَبي)** اكتفاءً بما قسَمْتَ لي، فيكونَ توجُّهي لكَ مِنْ بِساطِ العُبوديّة؛ لأنَّكَ الآمرُ القاهرُ الذي لا تدخُلُ الأسبابُ فيما عنْدَهُ، ولا بُدَّ مِنْ رِعايةِ حِكمَتِهِ واتِّباعِ أمرِهِ، فيكونُ العمَلُ لهُ لا لشيءٍ، والطَّلبُ منهُ لا لشيءٍ.

(أنتَ الذي أشْرَقْتَ الأنوارَ في قُلوبِ أوليائِكَ) حتَّى عرفوكَ ووحَّدوكَ، فزالَتْ عنهم الظُّنونُ والأوهامُ، وانجمعوا عليْكَ بخدمةٍ موْصِلةٍ إليْكَ، فلم يلتفتوا للآثارِ، ولا وقفوا معَ تنقُّلِ الأطْوارِ. **(أنْتَ الذي أزلْتَ الأغْيارَ مِنْ قُلوبِ أحبابِكَ)** حتَّى ينظُروا إليْكَ ببَصائرِ الإيقانِ، فأغناهُمْ عنِ الدَّليلِ والبُرهانِ، وحتَّى لمْ يُحبّوا سِواكَ، ولمْ يلجؤوا إلى غيرِكَ، بلْ أغنَيْتَهُمْ حتَّى عنِ الطَّلَبِ منْكَ بتزكيةِ أحوالِهِمْ وتيسيرِ آمالِهِمْ.

(أنْتَ المؤنِسُ لهم بجميلِ أوصافِكَ، وعظيمِ جلالِكَ) إذ شهدوهُ **(حيْثُ أوحشَتْهُمُ العَوالِمُ)** بما صدرَ منْها منَ المضارِّ، مع ما هي عليْه منَ العجْزِ والافتقارِ، فشهدوا ظُلمةَ العوالِمِ، وأنَّها لا تهدي إلى شيءٍ ولا توصِلُ إليْهِ؛ فكُلُّ أحدٍ جالبٌ لنفْسِه، طالِبٌ لحظِّهِ مِنْ كمالِ نقصِه، ووفاءِ بَخْسِهِ، والحقُّ -سُبحانَهُ- غنيٌّ حميدٌ لطيفٌ بعبادِهِ، عطوفٌ عليهم، فلما شهِدوا ذلكَ كُلَّهُ يقينًا ومُعاينةً بإشهادِهِ إيّاهم، لم يتمالَكوا أنْ أحبُّوه وأووا إليه، وقصروا هِمَمَهُمْ عليهِ، وجعلوهُ عِمادَ أُنْسِهِم، واستغنوا به عن أبناءِ جِنسِهِم، فخَلصوا إلى غايةِ النَّعيمِ وفازوا [بالأُنْسِ المقيمِ][1].

(وأنْتَ الذي هديْتَهُم) بنورِ عِنايَتِكَ وفضلِ رحمَتِكَ إلى طريقِ التَّوحيدِ والمعرفةِ، **(حتَّى استَبانَتْ لهمُ المعالِمُ)** أي أدِلَّةُ التَّحقيقِ المُستَفادةُ مِنَ المُجاهدةِ الموصِلةِ للمُشاهَدةِ، حتى لم يُداخِلْهُمْ شكٌّ ولم يُخالِجْهم ريْبٌ.

---

(١) بياض في المخطوطة في هذا الموضع.

وكأنَّهُ عرَّضَ في هذهِ المطالِبِ المُتضَمَّنةِ لأسنى الرَغائِبِ بالمطلَبِ الذي بحُصولِهِ لهُ يستغني عنِ الطَّلبِ، وهو إشراقُ الأنوارِ في قلبِهِ، وإزالةُ الأغْيارِ عنْ سِرِّهِ، وإيناسُهُ له وهِدايته إيّاه.

(**ماذا وجدَ مَنْ فقدَكَ**) وإنْ وجدَ خيرَ الدّارَيْنِ، لتلاشى ما أوتيهِ في جنْبِ ما فاتَهُ، (**وما الذي فقدَ مَنْ وجدَكَ**) وإنْ لم يكُنْ لهُ عِلْمٌ ولا عمَلٌ ولا كرامةٌ ولا حالٌ، وفقدَ كُلَّ شيءٍ في الوُجودِ، فليْسَ بفاقدٍ، إذْ ما سِواهُ عدمٌ وظُلمةٌ، والموجودُ الحقُّ وحدَهُ، منْ كانَ في اللهِ تلفُهُ، فعليهِ خلفُهُ.

(**لقدْ خابَ منْ رضيَ دونَكَ بدلًا**) إذ لا سِواكَ إلّا حقيرٌ فقيرٌ عاجزٌ ذليلٌ، (**ولقدْ خسِرَ منْ بغى عنْكَ مُتحوَّلًا**) لأنَّهُ مطرودٌ عنْ محبَّتِكَ، إذ لو أحببتَهُ لم تَصرِفْ وجهَهُ لغيْرِكَ، ولو أحبَّكَ ما أمكنَ أنْ ينظُرَ عليْكَ، فقدْ باعَ الغالي -وهو التَّعلُّقُ بِكَ- بالدّونِ، وتركَ الموجودَ وأقبلَ على المعدومَ.

رُئيَ الشِّبليُّ في النَّومِ فقيلَ: ما فُعِلَ بكَ؟ قالَ: "لم يُطالِبْني ببُرهانٍ على دعوى إلّا على شيءٍ واحِدٍ، قُلْتُ يومًا: لا خَسارةَ أعظمُ مِنْ خُسرانِ الجنّةِ ودُخولِ النّارِ، فقال: وأيُّ خُسرانٍ أعظمُ مِنْ خُسرانِ لقائي؟!".

(**إلهي كيْفَ يُرجَى سِواكَ، وأنْتَ ما قَطَعْتَ الإحسانَ**) في حالٍ مِنَ الأحوالِ، بل جعلتَهُ مُتجدِّدًا مُتعدِّدًا حتَّى معَ العِصْيانِ، (**وكيْفَ يُطلَبُ مِنْ غيرِكَ، وأنْتَ ما بدَّلْتَ عادةَ الامتِنانِ**) التي لولاها ما قامَ وُجودُنا، بلْ أجريْتَها معَ الحالاتِ والأوقاتِ، وكرَّرْتَها على ممرِّ الأنفاسِ والتَّقلُّباتِ.

(**يا منْ أذاقَ أحِبّاءَهُ حلاوةَ مؤانستِهِ**) التي يغيبُ نعيمُ الجنّةِ في لمحةٍ مِنها، (**فقاموا بينَ يديْهِ مُتملِّقينَ**) مُتلطِّفينَ في التَّودُّدِ، للتَّدلُّلِ بها سيَّما في الأسحارِ، قيامَ العبيدِ بينَ يديِّ الملِكِ المجيدِ؛ إذ وجدوا منهُ نفحةَ القُرْبِ، ونسماتِ الرَّحمةِ، فناجوه في نشاطِ العُبوديّةِ على وجهِ الافتِقارِ، فأعطاهُم حالًا ما لا عيْنٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمِعَتْ، وأعدَّ لهم مِثلَهُ في الآخِرةِ.

(**ويا مَنْ ألبَسَ أولياءَهُ مَلابِسَ هيْبَتِهِ**) التي لا يقومُ شيءٌ لوُجودِها، (**فناموا بعِزَّتِهِ مُستَقِرِّينَ**) دفعًا للهِمّةِ عنِ الخلائقِ، ووُقوفًا معَ الحقِّ بشَواهِدِ الحقائِقِ، حتَّى استَظهروا بالقوّةِ على نُفوسِهِمْ وغيرِها.

(**أنْتَ الذّاكِرُ مِنْ قَبلِ الذّاكِرينَ**) إذ لو لم تَذكُرْهُمْ بالتَّوفيقِ، ما ذكروكَ بالقوْلِ والفِعْلِ والتَّصديقِ، ولو لم تَذكُرْهُمْ بوُجودِ الإحسانِ، ما ذكروكَ بالقلْبِ ولا باللِّسانِ.

(**وأنْتَ البادئُ بالإحسانِ مِنْ قَبلِ توجُّهِ العابِدينَ**) إذْ لو لم تواجِهْهُمْ عنايَتُكَ ما توجَّهوا إليْكَ، ولو لم تُحسِنْ إليهِمْ ما عبَدوكَ، فبتوفيقِكَ توجَّهوا، وبعافيتِكَ ورِزْقِكَ استَعانوا.

(**وأنْتَ الجوّادُ بالعَطايا مِنْ قَبلِ طلبِ الطّالِبينَ**) إذ لو لم تُلهِمْهُمُ الطَّلَبَ ما طلَبوكَ.

(**وأنْتَ الوهّابُ**) لكُلِّ شيءٍ، إذِ الكُلُّ مِنْ عطائِكَ بلا عِلّةٍ ولا سبَبٍ سائِرٍ، (**ثُمَّ أنْتَ لما وهبْتنا مِنَ المُستَقْرِضينَ**) تكمِلةً للمِنّةِ بظُهورِ النِّسبةِ، إذْ لسْتَ بمُحتاجٍ، ولا هُمْ أغنياءُ، بل هو رحمةٌ منْكَ ولُطْفٌ، وكيفَ يصِحُّ إقراضُ الغنيِّ على الإطلاقِ، مِنَ الفقيرِ على الإطلاقِ؟!

***

(**إلهي، اُطلُبْني برحمتِكَ حتَّى أصِلَ إليْكَ**)، إذْ لا وُصولَ إليْكَ إلّا برحمَتِكَ وجودِكَ، وكُلُّ شيءٍ مِنْكَ بدأَ وإليْكَ يعودُ.

(**واجذِبْني إليْكَ بمِنَّتِكَ حتَّى أُقبِلَ عليْكَ**)، إذْ لا إقبالَ عليكَ إلّا مِنْكَ، ولا وُصولَ إليْكَ إلّا بِكَ، فلولا ذلكَ لم يكُنْ لإقبالي وُجودٌ، وإنْ كانَتِ الأسبابُ معروضةً، فالحقائِقُ ملحوظةٌ، "واللهِ لولا اللهُ ما اهتَدَيْنا ولا تصدَّقْنا ولا صلَّيْنا"[1].

(**إلهي، إنَّ رجائي لا ينقطِعُ عنْكَ**) في حالٍ مِنَ الأحوالِ (**وإنْ عَصَيْتُكَ**)؛ لعِلْمي بأنَّكَ الغفورُ الذي لا يتعاظَمُهُ ذنبٌ يغفِرُهُ.

---

(١) اقتباس من حديث متفق عليه، أخرجه البخاريُّ (٤١٠٤)، ومسلمٌ (١٨٠٣)، وغيرهما من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(**كما أنَّ خوفي لا يُزايِلُني وإنْ أطعْتُكَ**)؛ لعِلمي بأنَّ ما عِنْدَكَ لا أنالُهُ بعمَلٍ؛ لعِلمي بأنَّكَ الفعّالُ لما تُريدُ بلا حَجْرٍ ولا توقُّفٍ.

(**قدْ دفَعَتْني العَوالِمُ عليْكَ**) إذْ لم أجِدْ مِنها إلّا عائقًا أو مانعًا أو عارِضًا، أو مُضرًّا لا نافعًا ولا ناصِرًا لعجْزِه، (**وأوقَفَني عِلْمي بكرمِكَ عليْكَ**) فلم يُمكِنْني غيْرُ مُلازَمةِ بابِكَ، والاستِنادِ إلى جنابِكَ.

(**كيْفَ أخيبُ وأنْتَ أملي**) الذي تعلَّقَ قلبي بفِعْلِهِ فيما أُريدُهُ جلبًا ودفعًا، وخفضًا ورفعًا ونفعًا، واللهِ لا يكونُ ذلِكَ وأنْتَ الكريمُ.

(**أمْ كيْفَ أهينُ وعليْكَ مُتَّكَلي**) في كُلِّ أُموري؟! ومنْ توكَّلَ عليْكَ كَفَيْتَهُ وأَغْنَيتَهُ، ومَنْ تعلَّقَ بِكَ هديْتَهُ، ولم أجِدْ غيْرَكَ قادرًا على إذهابِ عِلَلي، وغفرِ زَلَلي، وإصلاحِ عمَلي.

(**كيْفَ أستَعزُّ وفي الذِّلّةِ أركزتني؟!**) إذْ خلقتني مِنْ تُرابٍ، وغذَّيتَني مِنْ تُرابٍ، وتردُّني للتُّرابِ، أوَّلي نُطفةٌ مذِرةٌ، وآخِري جيفةٌ قذِرةٌ، وأنا فيما بيْنَ ذلِكَ كما تعلمُ مِنَ النَّقْصِ، جعلتني فقيرًا لما يقومُ بهِ أَوَدي، وجَعلْتَهُ على يدِ عِبادِكَ فأحوجْتَني إلى فقيرٍ مثلي، وإنْ كانَ نيْلُ ذلِكَ بسببٍ منّي.

(**كيْفَ لا أستعزُّ وإليْكَ نِسبَتي؟!**) إذْ خلقْتَني ورزَقْتَني، وجعلْتَني عبْدَكَ، وأهَّلْتَني لقَبولِ نهيكَ وأمرِكَ، وأرشدْتَني وهدَيْتَني؛ فأقولُ "مولاي" ولا أُبالي، فأيُّ عِزٍّ فوْقَ هذا، وأيُّ شرَفٍ أعظَمُ مِنْهُ.

(**كيْفَ لا أفتقِرُ وفي الفقْرِ أقَمْتَني؟!**) إذْ جعلتَني فقيرًا لكُلِّ فقيرٍ، مُحتاجًا لكُلِّ شيءٍ مِنْ أمْرِ الدّارَيْنِ، وهذا غايةُ الفقْرِ.

(**كيْفَ أفْتَقِرُ وأنتَ الذي بجودِكَ أغنَيْتَني؟!**) إذْ جعَلْتَ كُلَّ شيءٍ بيَدِكَ، ففتحْتَ بابَ الغِنى عنِ الكُلِّ بالتَّوجُّهِ إليْكَ، والاعتِمادِ عليْكَ، حتّى كانَ كُلُّ شيءٍ في هِمَّتي ذليلًا حقيرًا، فسُبْحانَكَ يا غنيُّ يا قديرُ.

(**أنتَ الذي لا إلهَ غيرُكَ** فيُعْبَدُ، ولا معبودَ سِواكَ فيُقصَدُ، (**تعرَّفْتَ لكُلِّ شيءٍ**) بما ألزَمْتَهُ مِنْ أوصافِهِ الدّالّةِ على أوصافِكَ، وبما يجري عليهِ وعلى غيرِهِ مِنَ اختلافِ الآثارِ وتنقُّلاتِ الأطوارِ، (**فما جهلَكَ شيءٌ**) لارتباطِ علمِهِ بكَ بضَروريّاتِهِ، بتَقلُّباتِهِ وغيرِ تقلُّباتِهِ، (**وتعرَّفْتَ إليَّ في كُلِّ شيءٍ**) بظُهورِ أوصافِكَ في كُلِّ شيءٍ، وبما يَجري على ذلكَ الشَّيءِ مِنَ اختِلافِ الآثارِ وتنقُّلاتِ الأطوارِ، (**فرأيْتُكَ ظاهِرًا في كُلِّ شيءٍ**) بما يَجري عليهِ مِنْ وُجوهِ التَّعريفِ لا مِنْ حيثُ الحُلولُ والتَّكييفُ، (**فأنْتَ الظّاهِرُ لكُلِّ شيءٍ**) ظُهورَ دلالةٍ وتعريفٍ، لا ظُهورَ مُعايَنةٍ وتكييفٍ.

(**يا مَنِ استوى**) أي: استولى وظهرَ (**برحْمانيَّتِهِ على عرشِهِ**) فلَمْ ينتَهِ العرْشُ إلّا للعِلْمِ بالرَّحمةِ، ولم يدُلَّ إلّا عليْها، إذْ هي التي قوبِلَ بها حتَّى وُجِدَ ودامَ، لثُبوتِ غِنى الحقِّ وافتِقارِ العرشِ إليهِ، (**فصارَ العرْشُ غيبًا في رحمانيَّتِهِ**) ولولا هي كانَ عدمًا محضًا ونفيًا صِرفًا، فوُجودُهُ فيها غيْبٌ، (**كما صارَتِ العوالِمُ غيبًا في عرشِهِ**) فكما أنَّ العرْشَ مُحيطٌ بجميعِ العَوالِمِ حسًّا، فالرَّحمةُ مُحيطةٌ بهِ معنًى، فالعوالِمُ غيْبٌ فيهِ، وهو غيْبٌ في الرَّحمةِ، نَعَمْ هو فيها كذرَّةٍ مِنَ الذَّراتِ لولا تعظيمُ الحقِّ لَهُ.

(**محَقْتَ الآثارَ**) فغيَّبْتَ بعضَها في بعضٍ، الحقيرِ في الخطيرِ، والصَّغيرِ في الكَبيرِ، حتَّى أنَّ الأرضينَ في أوْفَى السَّمواتِ كحلقةٍ في فَلاةٍ، (**ومحوْتَ الأغيارَ**) التي هي العرشُ فما دونَهُ مِنَ العالَمِ (**بمُحيطاتِ أفكارِ الأنوارِ**) التي هي أثرُ الأسماءِ والصِّفاتِ مِنْ قُدرةٍ وإرادةٍ وعِلمٍ؛ لأنَّهُ لا نِسبةَ للأغيارِ معها: "لو ظهرَتْ صِفاتُهُ، اضمحلَّتْ مُكوَّناتُهُ"(١).

(**يا مَنْ احتَجبَ في سُرادِقاتِ عزِّهِ**) وكبريائِهِ وعظَمتِهِ (**عنْ أنْ تُدرِكَهُ الأبصارُ**) في هذهِ الدّارِ مُطلقًا، وفي تِلكَ إدراكَ إحاطةٍ.

والسُّرادِقاتُ: الحُجُبُ، استعارَها للعزِّ المانعِ مِنْ رؤيَتِهِ تعالى، ؟؟؟ أرواحَ العارفينَ وأسرارَ الموحِّدينَ في جلالِهِ وجمالِهِ، الذي لا يُكيَّفُ ولا يُمثَّلُ، ولا يُقاسُ بهِ ولا يُعبَّرُ عنهُ.

(١) الحكمة رقم ١٣٩، انظر ص ٢٥٣.

(**يا مَنْ تجلَّى بكمالِ بهائه فتحقَّقَتْ عظمَتَهُ الأسرارُ**) التي تجلَّى لها، بأنْ أزالَ الحجابَ عنها، فتمكَّنَتِ الحقيقةُ منها تمكُّنًا سرى في كُلِّ وُجودِ صاحَبَها، فأكسبَهُ هيبةً وإجلالًا، وهو تعالى ظاهرٌ مِنْ جِهةِ التَّعريفِ، باطِنٌ مِنْ جِهةِ التَّكييف.

(**كيْفَ تخفى وأنْتَ الظَّاهِرُ**) ومُظهِرُ المظاهِرِ، الذي لا يصِحُ خفاؤهُ ولا يتوقَّفُ ظُهورُهُ على سببٍ ولا أمرٍ، (**أمْ كيْفَ تغيبُ وأنْتَ الرَّقيبُ الحاضِرُ**) الذي لا تصِحُّ غيبَتُهُ أبدًا، القائمُ على كُلِّ نفسٍ بما كسَبَتْ مِنْ بعيدٍ وقريبٍ، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

***

(**واللهُ الموفِّقُ**) للعملِ بما فيهِ

(**وبه أستعينُ**) في جميعِ أُموري،

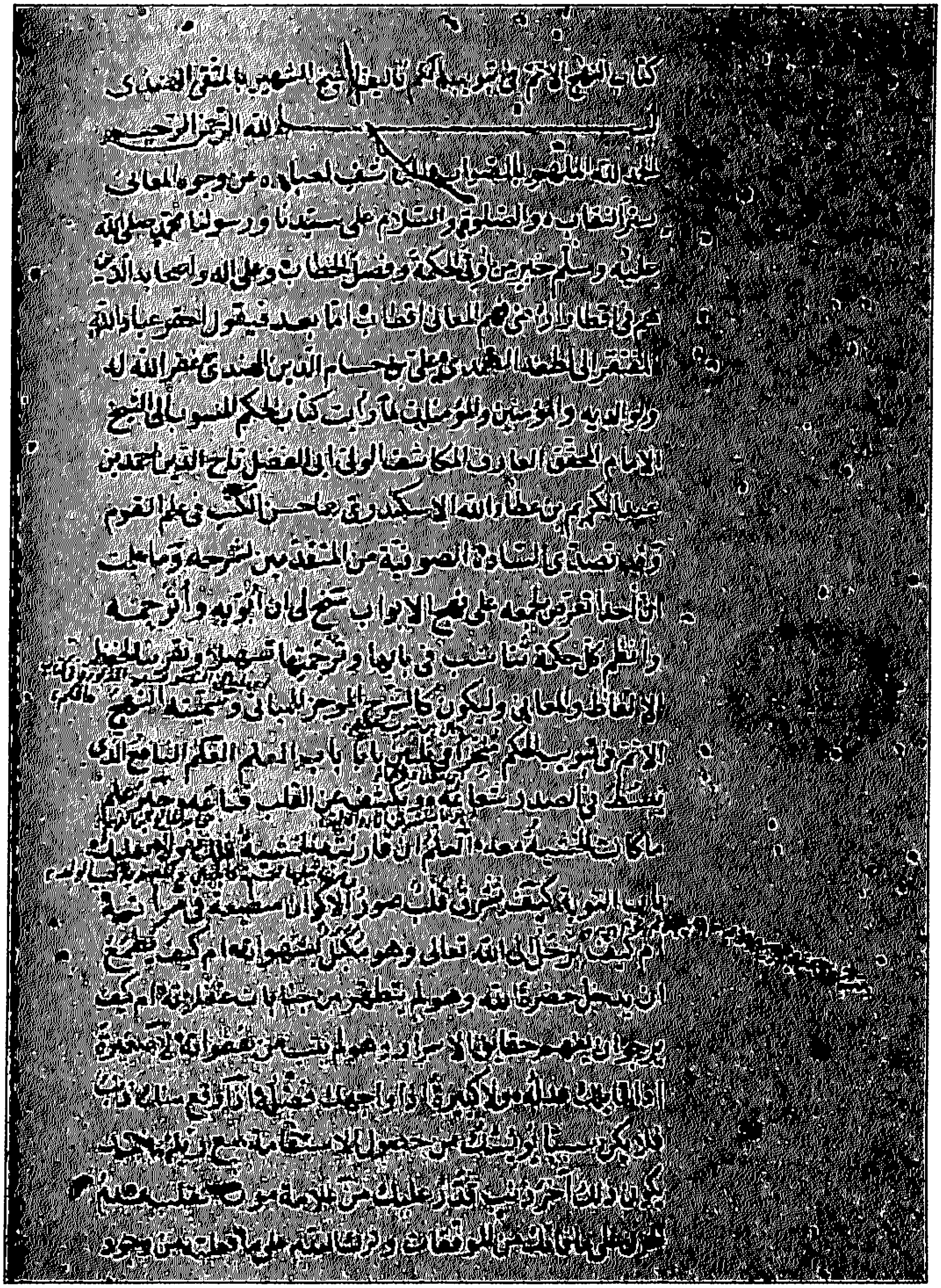
والحمدُ للهِ وحدَهُ،

وصلى اللهُ على مَنْ لا نبيَّ بعدَهُ[1]

***

(١) وكان الفراغ من كتابة هذا الشّرح المبارك في يوم الخميس شهر رمضان المعظّم قدره، سنة خمس وتسعين وألف من هجرة من له العزّ والشّوق، على يد العبد الذّليل الرّاجي عفو ربّه الجليل، الفقير الفاني محمّد بن محمّد الزّرقانيّ غفر الله له ولوالديه.

إنْ تلقَ عيبًا فلا تعجَلْ بسبِّكَ لي * إنّي امرؤٌ لسْتُ معصومًا مِنَ الزَّلَلِ



الصفحة الأولى من مخطوطة تبويب الحكم، المحفوظة بمكتبة بلدية استانبول برقم ١١٠٦

كتاب النهج الأتم في تبويب الحكم

تأليف الشيخ الشهير بالمتقي الهندي[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الملهم بالصواب، الكاشف لعباده عن وجوه المعاني سترَ النقاب، والصلاة والسلام على سيدنا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم خير من أوتي الحكمة وفصل الخطاب، وعلى آله وأصحابه الذين هم في أقطار أراضي فهم المعاني أقطاب.

أما بعد، فيقول أحقر عباد الله المفتقر إلى لطفه الصمدي، علي بن حسام الدين الهندي، غفر الله له ولوالديه والمؤمنين والمؤمنات:

لما رأيت كتاب الحكم المنسوب إلى الشيخ الإمام المحقق العارف المكاشف الولي، أبي الفضل تاج الدين أحمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الإسكندري، من أحسن الكتب في علم القوم، وقد تصدى السادة الصوفية من المتقدمين لشرحه، وما علمت أن أحدا تعرض لجمعه على نهج الأبواب، سنح لي أن أبوبه وأترجمه وأنظم كل حكمة تناسب في بابها وترجمتها، تسهيلا وتقريبا لحفظ الألفاظ والمعاني، وليكون كالشرح الموجز للمباني، وسميته النهج الأتم في تبويب الحكم، منجزا في ثلاثين بابا[2].

١ . باب العلم

(١) هو علاء الدين علي بن حسام الدين عبد الملك بن قاضيخان المتقي الهندي، من علماء الحديث، توفي عام ٩٧٥هـ. جاور بمكة مدة متفرغا للعبادة ثم عاد إلى بلاد الهند. له "كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال" والذي رتب فيه أحاديث "جمع الجوامع" للسيوطي، وله "تبويب الحكم" وهو هذا الكتاب.

(٢) أدرجنا كل حكمة في بابها متلوة برقم الحكمة (بين قوسين)، ثم رقم الصفحة الواردة فيها.

٢. باب التوبة

٣. باب الإخلاص في العمل

٤. باب حكم في الصلاة

٥. باب العزلة والخمول

٦. باب في رعاية الوقت واغتنامه

٧. باب الذكر

٨. باب الفكر

٩. باب الزهد وفضيلته

١٠. باب الفقر والفاقة

١١. باب رياضة النفس والتحذير من دسائسها

١٢ . باب الاعتدال بين الخوف والرجاء

١٣ . باب آداب الدعاء

١٤. باب التسليم لأمر الله وترك الاختيار

١٥. باب الصبر على البلايا والشدائد

١٧. باب الصحبة

١٨. باب الطمع

١٩. باب التواضع

٢٠. باب الاستدراج

٢١. باب الورد والوارد

٢٢. باب تفاوت مراتب السالكين مبتدئا ومنتهيا

٢٣. باب القبض والبسط

٢٤. باب الأنوار ورتبها

٢٥. باب قرب العبد من الله تعالى تخلقا وتعلقا

٢٦. باب قرب الله تعالى من المخلوقات وظهوره من الأشياء تعريفا ودلالة

٢٧. باب في بعض خصائص العارف

٢٨. باب التفرس والاستدلال بالشيء على الشيء

٢٩. باب الوعظ وشرائط تأثيره في القلوب

٣٠. باب الشكر

***

فهرس المحتوى

***

الكتب النادرة التي ترفع الهمة

صدر في هذه السلسلة

***

الكتب النادرة التي [illegible]

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠١٩/١٥٦٩٨

الترقيم الدولي ISBN
978-977-848-033-7

الناشر: كشيدة للنشر والتوزيع
العاشر من رمضان - مصر
info@kasheeda-publishing.com
www.kasheeda-publishing.com

كشيدة للنشر والتوزيع
خير جليس في الزمان كتاب